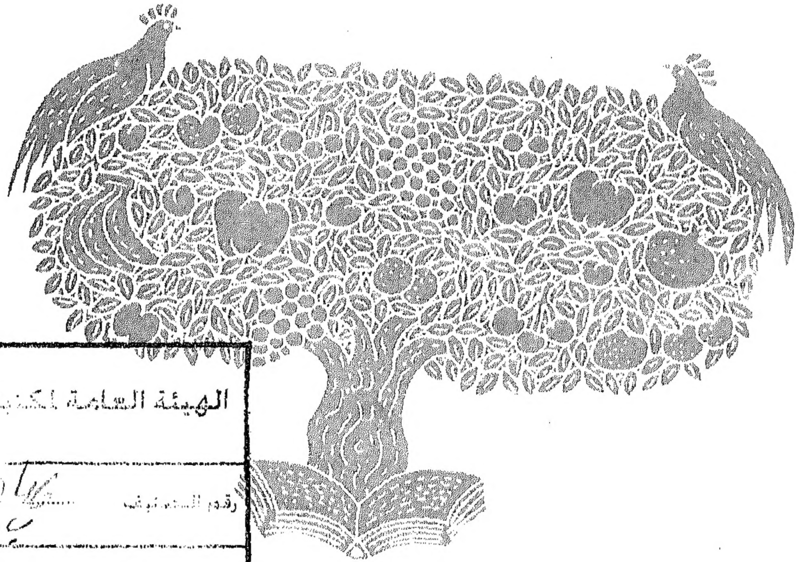
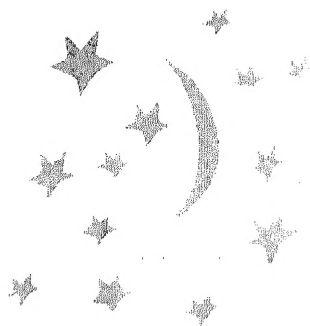
أحمد بهجت



أنبياء الله

© دار الشروق — دار الريان للتراث
القاهرة



انبياء الله

الطبعة الخامسة عشرة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

يطلب من

دار الريان للتراث

القاهرة : ١٧٧ شارع الهرم - ت : ٥٣٦٥٩٩
مصر الجديدة : ٢٢ شارع الاندلس - خلف المريلاند - ت : ٢٥٨٢٠١٤
الاسكندرية : سيدى بشر - طريق الكورنيش - برج رمادا - الدور الأول

مقدّمة الطّبعة الثّانيـة عشرة

هناك كتب يحس الكاتب أنه كتبها بقلمه ..

وهناك كتب يحس أنها أمليت عليه من أنقى عمق في قلبه .. وليس له من فضل فيها سوى فضل الأداة ..

وليس له من حمد لأن الله هو الذي طهر القلب ابتداء وهو الذي شاء له أن يكون أداة في النهاية .

وأحسب أن كتاب أنبياء الله من النوع الأخير ..

كنت أكتب كأن إنساناً داخلي يملي علي السطور ، ومارست خلال كتابته إحساساً يشبه إحساسي بالسجود أثناء صلاة القيام في العشر الأواخر من شهر رمضان في بيت الله الحرام في مكة ..

اتصل بي ابراهيم المعلم ليقول لي : نحن نطبع الطبعة الثانية عشرة .. ونريد مقدمة لها ..

قلت في قلبي.. الحمد لله ، وأحمده حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه .. عدد خلقه وزنة عرشه ومداد كلماته ورضا نفسه ..

ربنا لا نحصي ثناء عليك ..

أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك ..

....

لم أشعر داخلي بالزهو ..

على العكس .. أحسست بالإشفاق والخوف ، وخشيت أن يكون نجاح الكتاب في الدنيا توفية كاملة لأجري عنه في الدنيا والآخرة ..

ثم ردنى إلى التوازن ان انتشار الكتاب وذيوعه وتخطيه مائة وعشرين ألف نسخة فى التوزيع يعود أولاً وأخيرًا إلى كرامة الموضوع ذاته .. أى كرامة الأنبياء على الله تعالى ..

لا علاقة لي إذن بالموضوع .. يستوي في ذلك أن ينتشر الكتاب أو لا ينتشر ..

أسال الله تعالى أن يعفو عن قارئه وناشره وكاتبه ..

رمضان ١٤٠٤ أحمد بهجت

مقدمة الطبعة العاشرة

تمنح الأقدار إذناً للإنسان أن يبذل الجهد ، والله تعالى هو الذي يعطي الثمرة ، وها هي الطبعة العاشرة من كتاب أنبياء الله .

فالحمد لله حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه . وأشكر للقراء إقبالهم على الكتاب واحتفالهم به ، وأخص بالشكر الذين تفضلوا بإرسال آرائهم إلي ، وأختص بالشكر صاحب الخطاب الطويل الذي لم يذكر اسمه وإن قال إنه أخي في الإسلام .

ثم شرع يسرد علي في خطاب من خمس صفحات ٣٦ خطأ تقع بين الأخطاء المطبعية أو اللغوية أو الفكرية .. وقد صححت كل ما أشار إليه باستثناء شيء واحد رأيت فيه ما يجيز اختلاف الآراء دون ضرر ..

وإني لأسأل لهذا القارئ الكريم عفو الله ورحمته وأسأل كل من يقرأ الكتاب أن يدعو لنا بالعفو والرحمة ..

يناير ١٩٨٢

مقدمة الطبعة الثالثة

أحياناً أحس تجاه ما أكتبه بإحساسي تجاه أبنائي ، لا أوجه خطوهم في الدنيا ، ولا أراقبهم ، ولا أراهم كثيراً ، وإنما أدعو لهم عارفاً أن الله تعالى هو البارئ وهو الحافظ ..

لا أنكر أنني أحس بالفرح العميق حين أسمع نبأً طيباً من أحدهم ..

اتصلت بي دار الشروق تقول : نفدت الطبعة الثانية .. ونحن نطبع الثالثة ..

تحرك قلبي بحمد الله حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه ..

لم أضف جديداً لهذه الطبعة .

أسأل الله أن يتقبل من قارئه وناشره وكاتبه ..

القاهرة ١٩٧٥/٣/١٦

مقدمة الطبعة الثانية

حين نشر كتاب «أنبياء الله» في طبعته الأولى في أبريل سنة ١٩٧٣ ، كنا نقدر له عاماً لينفد من السوق ، باعتباره مرجعاً ليس زهيد الثمن ، ونفد الكتاب في الأيام الأولى من صدوره ، وكتبت عنه أقلام كثيرة لها احترامها وأثنت عليه ، وحمل هذا التقدير لكاتبه احساساً بالغاً بالمسؤولية ، فراجعه ونقحه وزاد فيه واختصر منه ، واستعان في هذا كله بآراء العلماء الناقدة وملاحظات القراء الذكية .

أغسطس ١٩٧٣ — احمد بهجت

إهـــداء

لو انه تكرم وسمح ، بأن أضع خدي على التراب وأبكي حتى ينبت العشب من دموعي .. فسوف أهدي الكتاب إليه ..

إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام

إيماناً بالغيب .. وخشوعاً للجلال .. واعترافاً بفضله على البشر ، بوصفه رسول رب العالمين إلى الأنبياء .

مع اعتذار عميق وخوف مشفق .. لجرأة الطين الخاطئ على مجرد التوجه إليه بالحديث فضلاً عن الاهداء .

احمد بهجت

بسم الله الرحمن الرحيم

كن .. فيكون ..

حين انصرفت مشيئة الله تبارك وتعالى الى خلق الكون .

حين اراد ان يخلق المجرات والنجوم والشموس والكواكب والأراضى وما نعرف وما لا نعرف ، أمر هذا كله .. وقال له : كن .. فكان .

حدثنا الله تعالى أنه عندما يريد شيئا فانه يأمره ان يوجد ..

قال تعالى : ((**انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**)) [١] .

وهذا هو أمر التكوين ..

وأمر الله تعالى نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع .

أما أمر التكوين فيعنى كل القوانين العلمية المعقدة المحكمة التى يخضع لها الكون فى وجوده وتطوره . وأما أمر التشريع فهو ما يوحيه الله تعالى لأنبيائه كى يبلغوه للناس ليأخذوا به ويتبعوه .

وأمر التكوين يسبق أمر التشريع بالنسبة الينا .. وأمر التكوين لا حرية فيه ، بمعنى أن السماء ليست مختارة فى أن تكون أو لا تكون ، وكذلك الأرض بقوانينها الحاكمة ..

اما امر التشريع ففيه مجال واسع لحرية الارادة .. وفيه مجال للمسئولية .. وفيه اختيار يترتب عليه امكان المساءلة .

الم تر أن الله تعالى قال عن أمر التكوين :

« **ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين** »[٢] .

وقال عن أمر التشريع : « **لا اكراه فى الدين** »[٣] .

وقال تعالى : ((**فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر**))[٤] .

ان الحرية تهيمن على أمر التشريع ، وهى مستبعدة تماما من أمر التكوين، ولعل هذا ما قصده ربنا سبحانه وتعالى فى قوله :

« **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين ان**

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس (مكية)
(٢) الآية ١١ من سورة فصلت مكية .
(٣) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة مدنية .
(٤) من الآية ٢٩ من سورة الكهف مكية .

يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانســـــان ، انه كان ظلوما جهولا » [١] .

وليس اباء السماوات والأرض واشفاقهن من الأمانة الا صـورة فنية تعبر عن رفض ما لا يستطعن حمله بحكم التكوين الأصلى والتقدير الأزلى .

ليس رفضهما هنـا اختيـارا حرا .. انما هو رفض يجىء من كونهما خلقتا طائعتين غير مكلفتين ، وليس التمثيل والتشبيه فى الآية الا تقريبا لمعانيها من الذهن البشرى .

. . . .

وأمر التكوين بالنسبة الينا غيب ..

خلق الله السماوات والأرض وما أشهدنا خلقهن .. لا نعرف متى كان ذلك ولا كيف كان .. ولابأى أسلوب أو وسيلة .

لا نعرف أيضا تاريخ تكوينهما بالترتيب .. أى شىء منهما خلقه الله قبل الآخر .. هل خلق السماء قبل الأرض أم خلق الأرض قبل السماء ؟

ان وقوع الخلق وكيفيته واسلوبه أسرار مغلقة ، استأثر الله وحـده بعلمها . أما مادة الخلق ، فهى أمامنا نبحث فيها كيف نشـاء .. وتدرسها آلاف العلوم على الأرض .

أما كيفية الخلق فغيب لا ندرى عنه الا ما حدثنا به الله .

ولقد حدثنا الله تعـالى انه خلق السـماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام . قال تعـالى : « **الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش** » [٢] .

أمر الله السماوات والأرض وما بينهما أن تتكون فى ستة أيام .. فكانت فى سـتة أيام ..

وهذه الأيام الستة من أيام الله تعـالى ، وهى لا تشـبه أيامنا التى نعيشها الآن على الأرض لسبب بسيط ، اننا نحسب اليوم بدورة الأرض مرة حول نفسها أمام الشمس . والله تعالى يتحدث عن يوم قديم سـبق خلق الأرض والشمس ..

الحسـاب اذن يختلف ، وطول اليوم يختلف .. ربما تكون هذه الأيام الستة بحسابنا الآن آلاف السنين أو ملايين القرون .. أو تكون اكثر من ذلك أو اقل .. وربما تكون بحسـاب الله عز وجل شيئا آخر تماما .

هذا غيب لا نعتسف له التأويل ، ولا نخوض فيه بغير علم .

غيب لا نعرف عنه الا ما حدثنا به الله ، والغيب هو الشىء الذى يغيب عن عقلنا أو زماننا فلا ندركه ، وكل ما غاب عنا وحدثنا عنه الله فهو وحده الصـدق .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الاحزاب مدنية .
(٢) الآية ٤ من سورة السجدة مكية .

ولقد حدثنا الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش . خضع له كل شيء . ودان له كل شيء . وسجد له كل شيء ، وقدسه كل شيء ، وحكمت قبضته سبحانه مقاليد كل شيء .. واحتاج اليه كل شيء .

وهو الغنى الذى لا يحتاج الى احد .. ويحتاج اليه كل أحد .

. . . .

انتهى الأمر ونفذت مشيئة الله تعالى .

وخلق الكون .

سجد بعد خلقه لرب الخليقة ..

سجد سجود احتياج واستمداد .

سجد سجود استسلام يحكمه نظام بديع محكم .

رمز الخير

الملائكة عباد الله . جنود الله . وهم من أكرم خلق الله وأفضله . وهم درجات ، ولكل واحد فيهم مهمته السامية التى يؤديها بكمال لا يطاول . وفى الملائكة من كانت مهمته أن يتصل بالبشر . فيهم من كانت مهمته أن يبلغ أنبياء الله رسالات الله الى البشر . وهذا هو جبريل عليه السلام .. سيد الملائكة وارفع عباد الله فى الملأ الأعلى ورمز الخير .

....

سماه الله تعالى : « **الروح الأمين** » .. قال تعالى فى سورة الشعراء : ((**نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين**))[١] .

وسماه الله تعالى « **روح القدس** » قال تعالى فى سورة النحل :

((**قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين**)) [٢] .

وسماه الله تعالى : « **رسولا كريما** » . **كما سماه** « **الروح** » . قال تعالى فى سورة التكوير : « **انه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين** » [٣] . وقال تعالى فى سورة القدر : « **تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر** » [٤] .

وسماه الله تعالى « **شديد القوى** » . قال تعالى فى سورة النجم :

« **والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى** » [٥] .

هذه هى أسماء جبريل عليه السلام .

وقد سمى جبريل روحا واضيف الى القدس . والقدس هو الله عز وجل .. وقد خلقه الله تعالى من غير أب أو أم أو مثال كما خلق آدم . وان اختلف جبريل عن آدم فى انه ليس جسدا تجوز عليه الأخطاء والمعاصى . انما هو روح طائع أمين أضافه الله الى اسمه . وكرم الله تعالى جبريل

---

(١) الآيتان ١٩٣ ، ١٩٤ مكية .
(٢) الآية ١٠٢ مكية .
(٣) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ مكية .
(٤) الآية ٤ مكية .
(٥) الآيات من ١ الى ١١ مكية .

تكريما الهيا حين أضاف اسمه اليه . وجعل الايمان به عليه السلام مسألة اســـاسية لا نقاش فيها ولا مســـاومة .

سأل اليهود النبى عليه الصـــلاة والســـلام عمن يأتيه بالوحى .

قال : جبريل

قالوا : هو عدونا . لو كان الذى يأتيك بالرســـالة ميكال لآمنا بــك وتابعناك . [ميكال هو ميكائيل] .

ونزل قوله تعالى يحدد بالحسم الالهى موقف الله من أعداء ملائكته .. أنهم أعداؤه ، قال تعالى :

« **قل من كان عدوا لجبريل ، فانه نزله على قلبك باذن الله ، مصـــدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين** » [1] .

لماذا خص الله جبريل وميكال بالذكر ؟

خصهما بالذكر تشريفا وتعظيما ..

وسوف نلتقى فى قصص انبياء الله كثيرا بجبريل عليه الســـلام .

هو الروح الأمين الذى يحمل وحى السماء الى الأرض .

وهو يختفى أزمنة ، فاذا ظهر ظهرت معه رحمة الله .. وبعث نبى الى قومه .. وخرج كتـــاب من كتب الله الى الناس .

---

(1) سورة البقرة الآيتان ٩٧ ، ٩٨ (مدنية).

رمز الشر

خلق الله تعالى مع الملائكة خلقا آخر يسميه الجن .

والجن مخلوقات مستترة .. ليست أجسادا ظاهرة لنراها .. وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين الجن والملائكة .. وفيما عدا ذلك يختلف الملائكة عن الجن اختلافا تاما . حتى فى مادة الخلق نفسها،فقد خلق الله الجن من النار وخلق الملائكة من النور ، والملائكة هم جنود الله الذين خلقوا لعبادته وتحقيق أمره فى الكون . والملائكة بحكم تكوينهم هم الخير المحض ، أو الخير المطلق .

أما الجن فمخلوقات تخضع للتكليف ، وفيهم الطيب ومنهم الفاسد .

قال تعالى فى سورة الجن على السنة الجن :

« وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا » [١]

« وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . » [٢]

والجن يتناسلون ، قال تعالى :

« افتتخذونه وذريته اولياء » [٣]

وفى الجن من يعبد الله ليترقى ، وفيهم من يعبد الله وهو يخبىء فى نفسه كبرياء لا تتفق مع العبودية .

ومن أسماء الجن الشهيرة « ابليس » .. وكان هذا المخلوق يقف مع الملائكة حين صدر اليهم أمر السجود لآدم . فلما رفض ان يسجد صار رمزا للشر فى الكون .

ويتصور بعض الناس أن ابليس كان من الملائكة لوقوفه معهم .. والصحيح أنه من الجن ، لقوله تعالى فى سورة الكهف :

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » [٤] .

ما الذى كان يفعله هناك مع الملائكة .. ؟

ما الذى عمله حتى استحق شرف الوقوف مع الملائكة .. ؟

---

(١) الآية ١١ مكية .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ مكية .
(٣) من الآية ٥٠ من سورة الكهف مكية ..
(٤) سورة الكهف من الآية ٥٠ مكية .

هذا كله غيب . يقول العلماء : أنه عبد الله آلاف السنين ليترقى .. كان ابليس سيدا من سادة الكبرياء والانتهازية قبل خلق الانسان .

لقد عبد الله حبا فى المجد لا حبا فى الله ، كان رمزا لروح الشر ، وكانت العبادة هى طريق السمو والارتقاء فسلك هذا الطريق ، فلما صدر الى الملائكة الأمر بالسجود وهم ملائكة ، لزمه هذا الأمر بوصفه أقل منهم ، ساعتئذ انحسرت دوافعه للعبادة عن وجه الكبرياء ، ورأى أهدافه فى المجد تهدر ، وألفى نفسه مأمورا بالسجود لآدم ، وهو مخلوق من طين ، فاستكبر ورفض .

وبذلك اختار ابليس يومها — والله يعلم أنه سيختار — أن يكون رمزا للشر على الأرض ..

من يومها صار ابليس أشهر مخلوق فى الأرض .. خسر نفسه وكسب الشهرة . ووقفت روحه تساند كل الشرور والمظالم والآثام فى الأرض .. وهناك من يعتبر ابليس مرآة لابن آدم يرى نفسه فيها ، وهناك من يراه يجرى مجرى الدم فى عروق المخلوقات ، وهناك من يستهون شأنه ويحتقره .. وعلى أى حال .. فان هذا المخلوق هو الدرجة الأخيرة فى اللون الأسود من الشر .

رجال الله

انبياء الله تعالى هم امر التشريع .

هم رسله الى البشر .. وهم اساسا بشر .. غير انهم انقى البشر .

ولو ان الله تعالى لم يرسل انبياءه الى الناس لألزمهم حجته ، ولكان ذلك عـدلا منه سبحانه .

ذلك أن الله قبل ارسال انبيائه أرسل كلماته الى العقل البشرى والزمه الحجة .

ان الكون كله هو كتاب الله المفتوح ، وهو كتاب يمتلىء بالكلمات المعجزة الدالة على وجوده سبحانه .

والانسان ذاته ــ بالنسبة لذاته ــ آية من آيات الله ، وكلمة من كلماته تلزمه الحجة .

ولوطاف الانسان داخل نفسه ، أو ساح بذهنه فى آفاق الكون .. لرأى كلمات الله وآياته . ولو استجمع الانسان نقاءه الداخلى وانعش به قدرته على التذكر ، فسوف يرى كلمات الله يوم أخذ العهد على آدم وذريته .

قـال تعـالى :

« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » . [1]

واذن تلزم الانسان الحجـة .

لماذا يرسل الله تعالى أنبياءه الى الناس اذا كان قد الزمهم الحجة ؟

الجواب أن أنبياء الله تعالى جميعا رحمة .

لايعامل الله عباده بالعدل وحده . لأن الله اكبر .

انما يعاملهم بالرحمـة .

والأنبياء هم الرحمة .

يبعث كل نبى رحمة لقومه أو زمانه .

---

(1) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف مكية .

حتى اذا جاء آخر الأنبياء جاء رحمة للعالمين .

« **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » [1]

ولولا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، لما عرفنا قصص الأنبياء كمـــا وقعت حقا .

ذلك أن قصص الأنبياء تعرضت قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسـلم لعبث لم يسلم منه نبى .

وأمتد التحريف الى سيرة الأنبياء ، فجاءت بشكل لايحفظ للأنبياء وقارهم أو عصـــمتهم .

تحكى صحف اليهود المحرفة عن نبى يشرب الخمر ويزنى بابنته ، وتحكى عن نبى يرسل قائد جيشه الى الحرب كى يقتنص امرأته ، وتحكى عن نبى ينكفىء على عبادة الأصنام بعد أن تزوج وهو شيخ من صبية حسناء تعبـد صنما ، فآثر ارضاءها بعبادة صنمها على ارضاء خالقه .

وتحس طيلة الوقت وانت تقرأ هذه الصحف المحرفة انك أمام عقل بشرى ملوث ومغرض .. عقل مرتش يكذب عمدا على الله وانبيائه لأغراض نجهلها الآن وان كانت لليهود أيامها مصالح ظاهرة فى ذلك .

فاذا غادرت صحف اليهود المحرفة الى صحف النصارى وأوراقهم وجدت لديهم اتجاها عكسيا يكاد يكون رد فعل للاتجاه الأول .. انهم يكرمون نبيهم عيسى الى الحد الذى تنسبه بعض فرقهم بالبنوة الى الله .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد ضاع حجم الأنبياء الحقيقى بين التصغير والتكبير .. ولولا القرآن ما عرفنا حقيقة الأنبياء .

.. ..

حقيقة الأنبياء أنهم خير البشر .

ولكنهم فى نهاية الأمر بشر يمشون فى الأسواق ويأكلون الطعام ويعيشون ويموتون .

لايختارون أنفسهم للرسالة . لا يصلون الى الرسالة نتيجة كسب وقصد وجهد أو اختيار . انما يختارهم الله .

يختارهم لعلمه السابق أنهم أنقى من فى الوجود ، وأفضل . تستوى فى ذلك عقولهم وقلوبهم .

بعدها يبعث اليهم رسالاته .

ويضيفهم الله الى نفسه تشريفا وتكريما . فيسميهم رسل الله .

وهم لا يخطئون فيما يرسلهم به الله .

---

(1) الآية ١٠٧ من سورة الانبياء مكيه .

ان لهم عصمة من نوع معين . كما أن لهم معجزات من انواع عديدة .

أما عصمة الأنبياء فتعنى أنهم لا يرتكبون خطيئة كبيرة ولا صغيرة .. لا قبل البعثة ولا بعدها .

انهم يحلقون فى مستوى من الكمال لا يهبطون عنه وان ساروا فيه صعودا .. واذا كان الله تعالى يعاتب أنبياءه أحيانا فانما يفعل ذلك وصولا بهم الى مستويات أكبر من الكمال لا ندريها ، ولا نحلم بها .

ولما كان الأنبياء هم أكثر الناس معرفة لله ، فان واجبهم يقتضيهم أن يشعروا بأنهم مقصرون فى حق الله .. لأن الانسان لو عبد ربه ملايين السنين لما كان ذلك كافيا للشكر على نعمة الله فى نصف ساعة .

ولهذا يستغفر الأنبياء ..

هذه ذنوبهم وهذا استغفارهم ، ونحن نعرف أن الانسان لا يعاقب على النسيان والسهو ، ولكن الأنبياء يعاقبون على ذلك . لقد نسى آدم فأهبطه الله من الجنة . ولو لم يكن نبيا لما آخذه الله على النسيان .

وتختلف درجات الأنبياء والرسل .

قال الله تعالى فى سورة البقرة :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . [١]

وقال الله تعالى فى سورة الاسراء :

«ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبورا» . [٢]

وقال الله تعالى فى سورة الأحزاب :

« واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . [٣]

ورغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تبارك وتعالى ، ووجود خمسة منهم هم أولو العزم وهم :

محمد بن عبد الله .. ونوح وابراهيم وموسى وعيسى .. عليهم الصلاة والسلام .

رغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تعالى ، فان المؤمنين مأمورون بالوقوف عند حد الأدب ، وعدم التفريق بين أحد من رسله ..

قال تعالى فى سورة البقرة :

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد

---

(١) من الآية ٢٥٣ مدنية .
(٢) من الآية ٥٥ مكية .
(٣) الآية ٧ مدنية ..

من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير » . [1]

ولقد جرت سنة الله فى أنبيائه أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة والخوارق ففى الأنبياء من كانت معجزته الطوفان . وفيهم من كانت معجزته ناقة ولدت من جبل ، وفيهم من كانت معجزته صرخة هزت الدنيا وأهلكت الكافرين ، وفيهم من كانت معجزته عصا تتحول الى ثعبان ، وفيهم من كانت معجزته احياء الموتى وتكليمهم . وفيهم من كانت معجزته كتابا ..

وكانت معجزات الأنبياء جميعا تختلف عن رسالتهم ، باستثناء واحد . معجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ان طب عيسى ومعجزته فى شفاء الأمراض كانت شيئا يختلف عن انجيله .

وعصا موسى التى تتحول الى حية جبارة كانت شيئا يختلف عن توراته .

الا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة ، هى نفس جوهر هذه الرسالة .

توحدت حقيقة الرسالة ومعجزتها فى كتاب واحد هو القرآن الكريم .

وسوف نلاحظ أن الله عز وجل يأخذ عباده بالرحمة والرفق .. وفى فجر التاريخ البشرى ، كانت البشرية تمر بطور الطفولة . وفى هذا الطور لا يصدق الأطفال الا الأشياء الخارقة العجيبة . وفى هذا الطور لا يؤمن الناس الا اذا انبهرت أعينهم قبل عقولهم . واندهشت حواسهم قبل حكمتهم .

وساق الله تعالى معجزات أنبيائه الحسية الى الناس .

وكان الناس هم الذين يطلبون الآيات والخوارق .. وكان الله تعالى يستجيب لعباده زيادة فى الرحمة لمعرفته أنهم مازالوا فى طور الطفولة .

وكلما نضجت البشرية فى شىء ، جاءت معجزات الأنبياء مستجيبة لهذا النضج . فكان الله تعالى يعطى كل رسول من الآيات ما يتفق مع حال قومه وأهل عصره وعلوم زمانه .. أو يعطى كل رسول من الآيات ما يستهدفه اثبات شىء للناس .

كان قوم فرعون أهل علوم ورياضة وطبيعة وفلك .. كانوا أهل صناعة ساحرة . كانوا سادة عصرهم فى العلوم والسحر . ولهذا أعطى الله تعالى موسى عليه السلام معجزات تتفوق على العلم والسحر . تبدو علما وسحرا ولكنها ليست كذلك . الأمر الذى يؤكد انها من عند الله .

وكان الرومان أهل سلطان فى قوم عيسى ، وكانوا متقدمين فى علوم الطب والقانون .. فكانت معجزة عيسى شيئا مثيرا لدهشة الطب والقانون معا .. ان رجلا مات ينهض من الموت ليكلم عيسى .. ان فكى الطب والقانون معا يتدليان بالدهشة أمام هذه الخارقة .

وكذلك كان أهل هذا الزمان يريدون .

---

(1)من الآية ٢٨٥ مدنية .

فلما تقدمت البشرية ، وبدأ عقلها ينضج ، وصارت الكلمة فيها هى مفتاح الحياة ، وصار العلم فيها هو سيد الكون ، وصار الكتاب فيها شيئا لا يمكن الاستغناء عنـــه ..

شاء الله تبارك وتعالى الا يقنع البشر بالمعجزات ، وأرسل اليهم كتابا هو ذاته معجزة . كتابا كل سورة منه معجزة ، وكل آية منه معجزة .

أسلوبه .. وقيمه .. وتشريعه .. وقصصه .. وأحكامه .. كل ما فيه معجزة حية .. لا تموت طالما بقى الانسان حيا يقرأ ويكتب . ولم يرســـل الله مع هذا الكتاب معجزات أخرى لها قيمته .

ان احترام نضج العقل البشرى يستوجب الا نضغط عليه .

نحن نضغط على الأطفال ونرهبهم أو نستميلهم .. لكننا نحاول اقناع الكبار .

وتلك كانت ميزة الرسالة الأخيرة .. وذلك كان فضـــل نبيها .. عليـــه أفضـــل الصلاة والسلام .

انه رسم للانسانية آفاق الكمال الذى تستطيع أن تبلغه كبشرية راقيـــة لديهـــا عقلهـــــا .

ومن الكتاب الذى أنزله الله على خاتم رسله ..

من القرآن الـــكريم .

عرفنا قصص الأنبياء كما وقعت بحق .

قصص الأنبياء في القرآن

ينطوى القرآن الكريم على عديد من القصص . اهمها قصص الأنبياء .

وترد قصص الأنبياء فى القرآن كجزء من نسيجه الدينى ، بمعنى أن القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وادارة حوادثه .. شأن القصة الفنية الحرة .. انما ترد القصة فى القرآن مقيدة بغرض دينى .. وترد أساسا للدعوة أو للدعاية لهذا الغرض الدينى . ولقد كان المفروض .. طبقا لهذا التقييد .. أن تجىء القصص خالية من القيمة الفنية .. ونحن نعرف الآن .. أنه يستحيل على كاتب من البشر ، أن يوظف فنه للدعاية لشىء ويستطيع أن ينتج فنا فى نفس الوقت ..

يثير الدهشة العميقة .. أن ينكسر هذا القانون النقدى فى قصص القرآن .. فاذا نحن أمام قصة تدعو مباشرة لشىء .. بينما هى فى نفس الوقت عمل فنى معجز ..

ولعل هذه أول اشارة لافتة لاعجاز القرآن وكونه من عند الله تعالى ..

يستحيل على بشر .. مهما أوتى من عبقرية فنية .. أن يقدم أدبا ودعاية فى نفس الوقت .. يستحيل أن يقدم فنا معجزا ودعوة مباشرة فى نفس الوقت .. غير أن قصص الأنبياء فى القرآن تفعل هذا كله بشكل ناعم لاتحس فيه بالجهد .. وانما يدهشك أن يكون الأمر غير ما هو كائن .

هذه واحدة ..

وهناك ملاحظة أخرى ..

من المعروف أنه يستحيل على كاتب قصة بشرى ، مهما تكن درجة كفاءته ونبوغه ككاتب .. أن يحكى لك نفس القصة ثلاث مرات أو خمس مرات أو عشر مرات ، ثم يحتفظ بنفس مستواه فى المرات العشر .. لابد أن يهبط مستواه فى تسعة أعشار ما يحكيه .. ولا بد أن يكرر نفس ما قاله بنفس التأثير الأول .. لا يمكن أن يأتى بجديد .

هذه مسألة بديهية .. غير انك تنظر فى قصص القرآن ، فيروعك أن ترى القصة مقدمة عشر مرات .. يحكيها الله عشر مرات أو خمس عشرة مرة .. نفس القصة .. بنفس المستوى .. بتأثير مختلف ..

يظل مستوى القصة فى الذروة رغم تكرارها .. ويتغير تأثيرها وايحاؤها بكلمة تضاف أو جزء يحذف أو عباره جديدة ، أو جملة لم تكن موجودة .. أو مجرد ظل لخاطر نفسى لم يقدم قبل ذلك .

شيء معجز يقطع بأن صاحب قصص القـــرآن ليس هو النبى البشر .. انما هو رب العالمين سبحانه .

كثيرا ما توقفت كناقد أدبى .. أمام قصص القرآن ..

كنت أقرأ القصة بحسن الناقد الذى يريد أن يعثر على ثغرة ينفذ منهـــا ليقـــول شـــيئا ..

وكنت أخضع القصص لمقاييس النقد الأدبى القديم والحـــديث .. وكنت أعود من رحلتى دائما باحساس يقينى ومطلق بالسجود ..

ليست هذه القصص من اختراع بشر .. ليست كتابة بشرية .. أبطالها من البشر .. كلماتها قالها البشر .. أحداثها وقعت فى تاريخ البشر .. كل ما فيها بشرى .. غير ان فيها شيئا غير بشرى .. الرؤيا التى تتناولها .. الطريقة التى تقدم بها .. الأسلوب الذى تحكى به القصة .. تركيب هـــذا الأسلوب وسبكه .. هذا هو الشيء الالهى فيها ..

ولهذا السبب كان الله يحكى القصة مرة ومرتين وعشرين .. وفى كل مرة يعطيك تأثيرا معينا ، ويملؤك بايحاء خاص ، يختلف عما سبق أن أعطاه لك ..

وهذه معجزة فى فن الكتابة . لا ترى لها مثيلا فى أى كتاب على الأرض غير هذا الكتاب الكريم الذى أسلمه لنا محمد بن عبد الله صـــلى الله عليه وسلم .. وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ .

انظر الى قصـــة موسى ..

تأمل لقاء موسى بكلمات ربه .. تـــأمل موقفه أمام النـــار المقـــدسة فى وادى طـــوى ..

يحكى الله هذا الحادث أكثر من مرة ..

يملؤك مرة بالخوف والرهبة والجلال ..

ويحكيه مرة أخرى فيملؤك بالحب والحنان والأمل ..

نفس القصة .. أبطالها هم موسى وعصاه .. لم يتغير شيء فى الأبطال ولا فى الظلال .. كل ما حدث أن أسلوب التقديم الالهى هو الـــذى أعطاك تأثيرا مختلفا .. رغم أن الأبطـــال هم كمـــا هم لم يتغير فيهم شيء ولم يزد عليهم شيء .

ولقد تحدث الكثيرون من قبل عن اعجاز القرآن .. وسحره .. وقيلت آلاف الكلمات حول هذا الموضوع .. وحكى لنا القدماء والمحدثون عن هـــذا الشيء الخاص الذى يشيع فى كلمات القرآن ويجعل القلب يسجد بغير أن يغادر مكانه فى صدر الانسان . قيل هو لفظه المعجز .. وقيل هو معنـــاه المدهش .. وقيل نظمه المحير .. وقيل ما قيل عنه .. غير أن أحدا لم يلمس قلب الموضوع كما فعل كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » الذى وضحت فيه حاجتنا لمنهج جديد غير منهج البـــلاغة والألفاظ والمعـــانى ، منهج يدرس الخصائص المشتركة ، والطريقة الموحدة فى التعبير عن جميع الأغراض .. عن طريق أسلوب التصوير الفنى .

هذا الاسلوب الذى سمى « التصـــوير الفنى » .. هو سر الأسرار فى اعجاز القصص القرآنى .. انك تمسك القصة فى القرآن وتقرأ .. بعـــد لحظات تكتشف أن شيئا غريبا وقع ..

لم يعد هناك كتاب تقرؤه .. لم تعد عيناك تعبران ســـطور الكلمات .. اختفى الكتاب واختفت الكلمات ، وتلاشى الحاضر وذاب الواقع ، وانتصـــب أمامك مسرح عظيم يتحرك فوقه أبطال القصة التى تقرؤها .

ها هو نوح يقتحم مجلس سادة عصره وكبراء القوم .. ها هى كلمـــات الحوار تمضى أمامك مجسدة مصورة ، يكاد وقع كل كلمة يختلف عن وقـــع الكلمة الاخرى .. مثلما تختلف بصمات أصابع القائل عن بصمات أصابع غـــيره ..

ينتصب المسرح أمامك وتمضى الأحداث ويتطور الصراع ، وانت جـــالس مبهور تشـــهد وتســـمع ..

تختفى الكلمات المكتوبة ، وتتحول فى ذهنك الى مسرح هائل يضج بالصراع والحوار والجدال والمشـــاعر ..

ميزة قصص القرآن .. ميزته المعجزة تكمن فى هـــذا .. ان الكلمـــات لا تحكى لك انما هى تتحرك داخلك أشخاصا مجسدة فى مسرحيـــة قديمة ، تستطيع وانت تصغى اليها وتشاهدها ، أن تكتشف أنهـــا ليست مسرحية قديمة فحسب .. انما هى أيضا جديدة ، تمثل كل يوم على مسرح الحيـــاة بأداء مختلف وممثلين جـــدد .

وتنتهى من القصـــة ..

وتمضى بك دوامة الحياة..ثم تعاود قراءةقصة أخرى من قصص القرآن..

لا تكاد تمضى فى القراءة حتى يقع شىء أعجب .. انتصـــب المسرح فى القصة الأولى ، وهذه المرة تضىء شاشة السينما ..

تختفى الكلمات المكتوبة وتضىء شاشة السينما .. ويتحرك أمامك شريط الصور .. يتحرك بلغة سينمائية معجزة .. الســـينما لغة مفرداتهـــا هى الصورة .. وأنت تشهد فيلما يعبر بالصورة بغير كلام .. ثمة حلم هنا لاتعرف تفسيره .. سيؤدى تقطيع الصور وتسلسل السيناريو وتركيب المشـــاهد الى تفســـير الحلم فى النهاية ..

من أمثلة القصص التى يقدمها القرآن بأســـلوب المسرح .. قصـــة هود وقصـــة صـــالح .

ومن أمثلة القصص التى يقدمها القرآن بأسلوب السينما .. قصـــة يوسف .. وقصة موسى .

ولقد نزل القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ..

لم يكن عالم الأدب قد اكتشف قواعد القصة القصيرة ، أو أصول الدراما ، أو فن الســـينما ..

كانت هذه الصور الثلاث من صور التعبير الأدبى بذورا فى ضمير الغيب لم يكشف عنها الستار بعد .. ولقد قدر لأوربا أن تكون هى صاحبة هـذا الـكشف .

لم يكن العرب — الذين نزل اليهم القرآن بلغتهم — يعرفون من أشكال التعبير الفنى غير الشعر .. والأساطير القديمة .. ولهـذا السبب اتهموا النبى عليه الصلاة والسلام مرة بأنه شاعر..واتهموه مرة أخرى بأنهيحكى أساطير الأولين .. فلما بدت التهمتان بغير أقدام .. عادوا يتهمونه بالسحر

ولقد أصابوا فى الأخيرة .. مع تحفظ فى اختلاف فهمنا للسحر عن فهمهم البدائى القاصر ، قصدوا بالسحر هذا الخداع والوهم والتخييل . ونفهم من السحر سحر الفن الموحى .. ولقد انطوت قصص الأنبياء فى القرآن على قدر من سحر الفن الموحى .. يستحيل الكشف عنه فى عجالة أو تقـديمه فى كتاب أو كتابين .. ذلك جهد يمكن أن يتوفر عليه عديد من الفنانين والأدباء فى عصور متلاحقة ، فيكشف الله لكل واحد فيهم عمقا من أعماق القصة فى القرآن .. لكل حسب كفايته وجهده وموهبته .

فلننظر الآن كيف ذاب الغرض الدينى فى الغرض الفنى ، أو كيف ذاب الغرض الفنى فى الغرض الدينى ، فاذا الجمال غاية مستهدفة ، ووسـيلة مستخدمة فى نفس الوقت .. واذا بآلاف العناصر تصـنع فى نهاية الأمر مزيجا لا يقدر عليه غير خالق الانسان والملائكة .

ننظر أولا فى أغراض قصص الأنبياء فى القرآن .. سنكتشف أن قصص الأنبياء تناولت أغراضا عديدة مختلفة لا تكاد تقع تحت حصر .. هى صراع بين الخير والشر ، بين جيوش الظلام المدربة المنظمة الكثيفة ، وفصائل الخير القليلة المشتتة المضروبة ، هى صراع بين الإنسان وظروفه وأهوائه . وهى صراع بين الطين والروح .. وهى صراع بين النبى والكافرين به .. وهى صراع بين النبى وأهل بيته .. أحيانا زوجته [لوط] وأحيانا ابنه [نوح] وأحيانا أبوه [أبراهيم] ..

خيط واحد يشد كل قصص الأنبياء ويبدو واضحا فى نسيجها المحـكم المعجز الرائـع ..

خيط واحـد ..

هـو الصراع ..

لا يكاد النبى يبدأ دعوته حتى تنقلب الدنيا كلها ضده فجأة .

يضيع سلامه .. وأمنه .. ورزقه .. وتبدأ الهجمات عليه..قبل البعثة يعيش النبى فى سلام عظيم من الخارج ، وقلق عظيم من الداخل .. وبعـد نزول الوحى ترتفع أعلام السلام الداخلى وترفرف داخـل الروح ، ويتحطم تماما أمنه الخارجى وسلامه وراحته .

ظل شعيب موضع احترام قومه حتى جاءه الوحى .. فبدأت السخرية منه .. وبعد أن كان الحليم الرشيد .. صار متهما بالكذب والافتراء .

وظل محمد بن عبد الله موضع تصديق قريش واجلالها حتى لقـد سمى الصادق الأمين ، ولا يكاد الوحى يتنزل عليه حتى تتطاير حوله آلاف الاتهامات

التى تبدأ بالجنون وتنتهى بالكذب .. وبعد أن كانوا ينهضون له فى المجالس ، ويهشون له ويجلونه ، ويحكمونه فيما ينشب بينهم من شجار ، ويستمعون اليه ويرضون كلماته .. بعدها صاروا يرمون عليه أحشاء الجمال المذبوحة وهو ساجد يصلى لرب جبريل وربه .. فلا يجد لحظتها من يدافع عنه غير ابنتــه فاطمــة .

اى هوان يلقاه النبى فى سبيل ربه .. وأى بلاء ..

لا ينجو نبى من هذا البلاء حتى ان كان من أولى العزم .. على العكس .. يزيد بلاؤه كلما زاد عزمه ..

يتفاوت ابتلاء الأنبياء حسب درجاتهم عند رب العرش .. أعظمهم قــدرا هو أعظمهم بــلاء .

انظر الى نوح كيف كذبوه الف سنة الا خمسين .

انظر الى ابراهيم كيف طرد من بيت أبيه والقى فى النار .

انظر الى موسى كيف احتوشه خوف الاعتقال ومؤامرات القتل ، وكيف اتهم بالجنون والكــذب .

انظر الى عيسى كيف افتروا عليه وعلى أمه بهتانا وافكا وزورا .

وانظر الى محمد كيف تعرض لكل ماتعرض له الأنبياء قبله .. حتى تركزت عليه خلال سنى حياته المضيئة كل انواع القهر والعذاب والمعاناة والتكذيب والمؤامرات والحــروب .

هو ناموس الهى لا يتغير ..

يزيد الصراع حدة وعنفا كلما كان النبى من أولى العزم الكبار ..

ذلك أن دعوته تعنى تغيير نظام الحياة .. تعنى عودة الحق الى عرشــه

تعنى عودة الجمال والخير والفضيلة .. لكن هذه القيم كلها تعيش عــادة فى الحياة وهى ترتدى ثياب الأفكار الوحيدة .. أما الباطل فيحمى نفســه بتكوين الجيوش وبناء الأنظمة والتسلح .

يعيش الباطل فى جنده وعسكره ، بينما يمضى الحق عادة وهو يرتدى عباءة الفكر الوحيدة الهشة .. ولا يكاد النبى يفتح فمه ويدعو لربه..حتى تتحرك كل جيوش الظــلام فى اتجاهه .

ويجىء الوقت الذى يقول فيه النبى والذين آمنوا معه :

« متى نصر الله » ..

ويكون الرد من الواحد القهار ذاته :

« الا ان نصر الله قريب » . [١]

---

(١) من الآية ٢١٤ من سورة البقرة مدنية .

ولا يقدم القرآن هذا الصراع بشكل فنى معجز فحسب .. انمـا يرتبط المضمون هنا بالشكل ارتباطا عضويا كارتباط الروح بالجسد الحى ..

سوف تجد وسط هذا الصراع العنيف الدامى أغراضا يحرص قصص الأنبياء على ابرازها واستهدافها وتأكيدها .

من هذه الأغراض اثبات الوحى والرسالة .... وبيان أن الدين كله من عند الله . من عهد آدم الى عهد محمد . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة . وأن الله رب الجميع ومولاهم . وأن جميع الأديان التى أنزلت على الأرض من عهد آدم الى عهد محمد ، هى فى أصلها دين واحد . هو اسلام الوجـه والقلب لله .. تختلف أساليب الأنبياء فى الدعوة . وتختلف أصواتهم ولغـاتهم فى الحـديث لقومهم .

لكنهم جميعا يقولون كلاما واحدا يتصل بالله ..

ــ لااله الا الله وحده لا شريك له ..

ــ **يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره** .. [١] .

لا الذهب ولا الهوى ولا الحكم ولا السلطة ولا الراحة ولا النعيم ولا الدنيا كلها تصلح للعبادة .. لا معبود سوى الله وحده .. لا شريك له .

ومثلما ترينا قصص الأنبياء أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة .. ترينا أيضا أن استقبال قومهم لهم متشابه .

التكذيب والاتهام والايذاء والشر ..

وليس على أى نبى من الأنبياء الا أن يبلغ ويتحمل ويصبر ..

« **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغـداة والعشى يريدون وجهـه** » . [٢]

اصـــــبر ..

دواء واحد ليس فى غيره الشفاء .

اصـــــبر .

« **واصـبر وماصبرك الا بالله** » . [٣]

من أغراض قصص الأنبياء فى القرآن الدعوة الى الله ، واثبات اليـوم الآخر ، وتبشير المؤمنين ، وتحذير الكافرين ، وبيان سـنة الله فى تدمير المكذبين بالدين . أيضا ترينا قصص الانبياء نعمة الله على أنبيائه ، وترسم لنا صورا للعلاقات الانسانية كما يراها الله من فوق سبع سماوات .. وتبين لنا أن الأبوة والبنوة وقرابة الدم أو المصاهرة ، ووحدة الأرض أو الجنس أو اللون ، ليست هى الروابط بين الناس ..

---

(١) من الآية ٦٥ من سورة الأعراف مكية ..
(٢) من الآية ٢٨ من سورة الكهف مكية .
(٣) من الآية ١٢٧ من سورة النحل مكية .

انما الرابطة هى الايمان بالله .. وهى الحب فى الله ..

هذه هى الرابطة الوحيدة المعتمدة عند رب العرش .. وبقيـة الروابط غرائز وعصبيات يرتفع فوقها من يؤمن بالله عز وجل ويسلم له .

ترينـا قصص الأنبيـاء قدرة الله على المعجزات والخوارق .. ونفضـل تأدبا أن نسميها قدرة الله فحسب .. ذلك أن القانون الذى يبدو لنا كقانون نحن البشر .. مثل أن البحر لا ينشق نصفين ، أو ان العصـا لا تتحول الى ثعبان يأكل عصيا أخرى .. هـذا القـانون ، بالنسـبة الينـا ، هو عبد مخلوق بالنسبة لله ..

ليس القانون قانونا على الله عز وجل ..

هو قانون علينا نحن .. ونحن مخلوقات مثله .. أما الله فخالق ..

وطاعة القـانون له أمر لا ندريه نحن ولا نعرفه .. ولهذا نسـميه معجزة أو خارقة . بينما الأمر غير ذلك ..

ترينا قصص الأنبياء من بين أغراضـها كيف خلق الله آدم من العدم ... كان الكون عدما فصـار بكلمة الله كونا .. وكانت الأرض عدما فصارت بكلمة الله أرضا . ومن طين الأرض خلق آدم . وجعل الله من القوانين السارية على هذا المخلوق أن يجىء نسله من اتصاله بحواء .. من اتصال رجل بامرأة ..

ثم شاء الله أن يولد طفل من امرأة فقط .. بغير أن يلمسـها رجل .. كلمة شاء الله أن تكون ، فكانت عيسى بن مريم ..

هل هذه معجزة .. أو خارقة .. أو قانون أصـيل يطيع خالقه ولا ندرى نحن كيف ؟

ان الأصـل أن يخلق الله الانسـان من غير أب أو أم أو مثال سـابق .. والاستثناء أو المعجزة ، أن يجىء الانسان من اتصال رجل بامرأة .. هـذه هى الخـارقة ..

ائذا عاد القانون من استثنائه الى طبيعته الأصـلية سـمينا هـذا خارقة أو استثناء أو معجزة ... ؟

أليس هـذا غريبا ... ؟

لا نستطيع أن نمضى فى تعداد أغراض قصص الأنبياء فى القرآن .. انمـا نريد ان نذكر كيف خضعت القصة للغرض الدينى ؟ .. وكيف استطاعت — فى نفس الوقت — أن تعبر فنيا عن هذا الغرض ؟

يتحدث كتاب التصوير الفنى فى القرآن عن هذه النقطة بعمق وايحاء ..

يقول : ان خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى ، ترك أثرا واضـحا فى طريقة عرضها ، وفى مادتها وتأثيرها النهائى ..

وكان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة ، فى معظم الحالات ، مكررة فى مواضع شتى .. ولكن هذا التكرار لا يتناول القصـة كلها غالبا ، انما هو تكرار لبعض حلقاتهـا .. ومعظمه اشـارات سريعة لمواضع العبرة

فيها ، أما جسم القصة كله ، فلا يكرر الا نادرا ، ولمناسبات خاصة فى السياق .. وحين يقرأ الانسان هذه الحلقات المكررة ، ويلاحظ السـياق الذى وردت فيه ، يجدها مناسبة تماما لهذا السياق . ويجدها منطبقة عليه ، وموحية بما يوحى به ، وملتحمة بمعـانيه ودالة عليها .. يقع ذلك بغير اخلال بالسـمة الفنية .. بل لعل هذا الذى يقع ، يسند قيمـا فنية كامنة ، ويبرز قيمـا فنية خافية ..

وردت قصة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، فى القرآن فى حوالى الثلاثين موضـعا ..

هى أكثر القصص فى القرآن تكرارا .. ورغم ذلك كانت من أغنى قصص الأنبياء فى القرآن .. وباستثناء سـتة مواضع اقتضى السـياق فيها تكرار القصة .. نرى الحلقـات الأسـاسية لم تكرر ، فاذا كررت حلقة منها جاءت بشىء جديد فى تكرارها ..

شىء تحسبه ظلا .. فاذا تمليته وجدت نفسك تمتلىء بتأثير جديد كل الجدة .. مدهش غاية الدهشة .. موح أعظم الايحاء ..

ينطبق هذا على قصـة موسى ، وقصـة ابراهيم التى تكررت فى حوالى العشرين موضعا ، كما ينطبق على كل قصص الأنبياء التى تتكرر لحكمة عليا واسباب وجيهة .

وغير التكرار ..

خضعت القصة فى القرآن للغرض الدينى .. فكان من اثر هـذا الخضوع أن تقدم بالقدر الذى يكفى لأداء هذا الغرض ، وان تعرض بالشكل الذى تتفق معه .. وهكذا تعرض القصة مرة من أولها .. ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك .. حسبما تكمن العبرة .. متجاوزة بذلك الهدف التاريخى ..

ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا فى التاريخ .. ينطوى على قدر من التاريخ لكنه ليس تاريخا .. انما هو كتاب دعوة الى الله ..

هناك قصص أنبياء بدأت عرضها بميلاد هؤلاء الأنبياء .. ركزت على مولدهم لخطورة هذا الميلاد وأثره الموحى .. مثل آدم الذى جاء ميلاده بالأمر ونفخة الله بالروح ..

ومثل عيسى الذى جاء ميلاده من غير أن يلمس أمه الصديقة رجل .. ومثل موسى الذى جـاء مولده فى عصر يذبح فيـه قصر الفرعون كل مولود ذكر لبنى اسرائيل ، فيشاء الله أن ينجو موسى بلجوئه ، وهو رضـيع ، الى قصر الفرعون ذاته ، وهو مصدر الخطر .. وبذلك يولد الأمن فى احضان الخطر ، ويتم تدبير الله ، وتنفذ مشيئته ..

وهناك قصص أنبياء تعرض ، فاذا هى تتجاوز ميلاد النبى وتبدأ القصة من صباه أو وهو فتى ، لما لهذا الأمر من علاقة وثيقة بالقصة ..

أن قصة يوسف تبدأ بحلم يراه وهو صبى .. بعدها تلعب الأحـلام دورا

رئيسيا فى حياته ، حتى تفسر رؤياه بعد ذلك بسجود اخوته الذين كادوا له ، وكادوا يقتلونه من قبل ..

وقصة ابراهيم تبدأ وهو فتى ينظر الى السماء ويفكر كيف يعبد الناس الكواكب والنجوم والشمس ، وهى جميعا مخلوقات تظهر ثم تغيب ..

وقصة داود تبدأ وهو شاب صغير ، لا يدرى شيئا عن القتال ، ثم تدفعه الحياة دفعا الى صراع مع جالوت .. أخطر الفرسان المحاربين فى عصره .. ويهزم الراعى الوديع الفارس المهول .. لأن الله وقف مع وداعة القلب ضد حدة الطبع وقسوة المشاعر ..

وهناك قصص تعرض فى حلقة متأخرة نسبيا..مثل قصص نوح،وهود ، وصالح ، وشعيب ، وكثير من الانبياء غيرهم .. ان السياق القرآنى لا يذكر لنا شيئا عن ميلادهم أو شبابهم .. انما نفاجأ اننا امام نبى يحمل رسالة من ربه .. يبرز على مسرح الأحداث فجأة ويبدأ أداء دوره ..

وهناك قصص تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها ، وقصص تهمل بعض حوادثها وتفصيلاتها .. وهناك قصص طويلة مثل قصص موسى ، وابراهيم ، ونوح .. وهناك قصص قصيرة مثل قصص هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .. وهناك قصص متناهية فى القصر مثل قصص زكريا ، وأيوب ، ويونس .. وهناك قصص تعرض فى سياق قصص أخرى ، كقصة يعقوب ، اذ تعرض فى سياق قصة يوسف .. ثم تذكر مرة أخرى عند موته ، وهو يسأل ابناءه ماذا يعبدون من بعده .. وهناك قصص انبياء يشار اليهم بالاسم ولا يذكر أى حدث من أحداث حياتهم .. مثل ادريس ، واليسع ، وذى الكفل .. وهناك قصص تعرض بغير ذكر أسماء أو أعداد على الاطلاق .. ان قصة أهل الكهف تعرض فلا تذكر أسماءهم ولا عددهم ، وتكتفى بذكر الفترة التى قضوها نائمين فى الكهف مع كلبهم ، وهى تسع سنوات وثلاثمائة ..

وهكذا يختلف أسلوب القرآن فى عرض قصص الأنبياء والأولياء والصالحين . يتنوع الأسلوب ، ويختلف من الناحية التاريخية .. كما يتنوع الأسلوب ويختلف من الناحية الفنية أيضا .. ويخدم هذان الغرضان الناحية الدينية أو ناحية الدعوة .. ولقد قيل بحق : ان القرآن يجعل الجمال الفنى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية .. بلغة الجمال الفنية ..

أنظر كيف تتنوع طريقة عرض القصص .. مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك .. كقصة أهل الكهف ، ومرة يذكر عاقبة القصة ومغزاها ونهايتها ، ثم يبدأ من أولها ويسير بالتفصيل ، مثل قصة موسى فى سورة القصص .. ومرة تبدأ القصة برؤيا فى المنام ، ثم تسير القصة وكأنما هى تأويل للرؤيا .. حتى اذا تحققت الرؤيا انهى القصة هذا الختام الدقيق ، ولم يسر فيها كما سارت التوراة .. ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ومرة تتحول القصة الى مسرحية ، فيذكر فقط من الالفاظ ما ينبه الى ابتداء العرض ، ثم يدع الحوار يكمل القصة .. ومرة تتحول القصة الى فيلم سينمائى يبدأ بحلم وينتهى بتأويله .. مثل قصة يوسف التى قسمت الى ٢٨ مشهدا ، يمكن لكل مشهد أن ينطوى على عديد من التفصيلات الدقيقة الموحية .. وهناك أسلوب القطع بين المشاهد

.. وهذه التنقلات السريعة الخاطفة ، التى تترك بين المشهد والمشهد مساحة تتيح للخيال أن ينطلق وينشط .. وهناك تنوع طريقة المفاجأة .. فمرة يكتم سر المفاجأة عن بطل القصة ، وعن النظارة ، حتى يكشف لهم معا فى وقت واحد .. مثل قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة الكهف .. ان موسى يلتقى بواحد لا يذكر القرآن الكريم اسمه .. قيل انه الخضر ، ولكن القرآن لم يذكر اسمه .. اكتفى بوصفه بأن موسى وفتاه كانا يسيران :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما » [1] .

هذه هى صورة العبد من عباد الله ، كما رسمه الله عز وجل ..

تجاوز اسمه الى حقيقته ..

وأى شىء يفيد الاسم والوصف الخارجى لو جهلنا الحقيقة ..

ونسير مع موسى والعبد الرحيم العالم .. فاذا نحن أمام مفاجآت تذهلنا ..

ان هذا العبد الرحيم يخرق سفينة لمساكين يعملون فى البحر .. ويقتل غلاما صغيرا ، ويقيم على حسابه جدارا كاد يهوى ، فى قرية بخيلة ، رفضت أن تطعمه أو تأويه أو تضيفه .. أى تناقض .. لم يصبر موسى عليه ، ثم ها هو السر ينكشف ، وتبرز المفاجآت التى كانت مجهولة لنا ولموسى وفتاه ..

وأحيانا يلجأ القرآن لعكس هذا الأسلوب .. وبدلا من اخفاء السر عن قارىء القصة — بينما يعلمه البطل — نراه يخفى السر عن البطل ويعلنه للقارىء أو النظارة .. انظر الى قصة لوط ..

ذهب اليه الملائكة الكرام ، ونحن نعرف — كقراء — انهم ملائكة ذهبوا لانقاذه ، بينما هو يجهل هذه الحقيقة ، ولهذا ضاق بهم وكره زيارتهم ، وقال فى نفسه : هذا يوم عصيب ..

نحن نضحك — كقراء — من خشيته وتوجسه وخوفه على ضيفه .

نعلم — كقراء وجمهور — انهم ملائكة .. هذا التقديم الفنى الخاص يكون أغلب ما يكون فى معرض السخرية .. اننا نشفق على لوط ونسخر من قومه ..

تخيل أنت — كقارىء — مشهد قومه وقد جاءوا على الخبر السعيد بوصول شباب جميل .. بينما تعلم أنت — كقارىء — أن عذابا مرعبا ينتظرهم من هؤلاء الذين يتشكلون فى أردية الشباب الجميل .

ألا تسخر من قوم لوط فى نفسك أعظم السخرية ؟ .. لقد أخفى القرآن السر عنهم وعن لوط مؤقتا .. وكشفه لك أنت ..

والى جوار هذا التصوير الفنى فى قصص الأنبياء .. يجىء التعبير الفنى فى القرآن ، ريشة مبدعة لا تكاد تلمس اللوحة الحية حتى تدب الحياة فى المشهد ، ويتحرك الحدث واقعا يجرى أمام عينيك . ثم تجىء صدمة موحية .. صدمة للتطهير ، كما يقولون فى دنيا الأدب المسرحى ..

---

(1) الآية ٦٥ من سورة الكهف مكية .

ثم تمضى امامك شخصـيات الأنبيـاء فى القصص .. كل شخصية منها رسمت وأبرزت بشكل يجعل خصـائص هـذا النبى وتكوينه النفسى وملامح روحه تبرز أمامك ، بشكل حى تنزوى الى جواره كل حياة ..

هذا هو نوح .. الشاكر أبدا .. الصابر أبدا .. اى حبـال مدها لصبره حتى ينقضى الف سـنة الا خمسـين عاما يدعو قومه فلا يزيد عدد المؤمنين ، ويزيد عدد الكافرين ، ورغم ذلك يستمر .. اى جلد وصبر واحتمال ؟!

وهذا هو موسى .. الغيور ، القوى ، المندفع ، العصبى ..

انه يمشى فى شوارع مصر فيستغيث به واحـد من شيعته أثناء شـجاره مع مصرى ، فيندفع موسى متدخلا ضد المصرى :

« **فوكزه موسى فقضى عليه** » [١] .

اندفاع يميز شخصيته ، عليه الصلاة والسلام .. وعصـبية هى جزء من تكوينه النفسى .. ها هو ذا بعد عشر سنوات يمضى فى سيناء .. يأمره الله أن يلقى عصـاه .. القاها فاذا هى حية تسـعى .. لم يكد يراها حتى وثب جريا ..

أمره الله تعالى الا يخاف :

« **انى لا يخاف لدى المرسلون** » [٢] ..

مرت سنوات عليه ، وها هو يسأل ربه سؤالا يصور اندفاعه :

((**قال : رب أرنى انظر اليك**)) [٣] ..

ويفهمه الله تعالى أن اى أعصاب انسانية لا تحتمل هذا .. أعصاب الجبل نفسه لا تصمد لنور الله ..

((**قال : لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين**)) [٤] ..

ثم ها هو يعود الى قومه فيكتشف انهم يعبدون عجلا من الذهب ..

ترك فيهم هارون .. وعاد اليهم بألواح التوراة .. لم يكد يسـمع ما حدث حتى القى الألواح من يده .. وامسك هارون أخاه من رأسه ولحيته وشده اليه كاعصار لا يبصر من الغضب ..

قال هارون :

« **يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا براسى ، انى خشـيت ان تقول : فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى**)) [٥] ..

---

(١) من الآية ١٥ من سورة القصص مكية .
(٢) من الآية ١٠ من سورة النمل مكية .
(٣) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف مكية .
(٤) من الآية ١٤٣ من سورة الاعراف مكية .
(٥) الآية ٩٤ من سورة طه مكية ..

كان هارون اعلم منا بموسى .. ولو أن هارون تدخل فى غياب موسى فانقسم قومه قسمين .. لأخذه موسى من رأسه ولحيته وقال له : كيف فرقت بين بنى اسرائيل ولم تنتظر عودتى ..

هو اندفاع عصبى لنموذج انسانى شديد الغيرة على الله .. شديد الحب لله ..

تقابل شخصية موسى باندفاعها العاشق للحق .. شخصية ابراهيم بثباتها الراسخ ، وحبها العميق لله ، وهدوئها مع الناس ، وتسامحها مع الخلق ، وحلمها على البشر ، وانحنائها على آلام الانسان انحناءة الأب الرحيم ، وايثارها لأمر الخالق على كل مشاعر الأبوة ، حتى ليهم الشيخ بذبح ولده ، الذى جاءه على كبر .. لأنه رأى فى المنام انه يذبحه .. ورؤيا الأنبياء حق ..

نفس راضية ، وطبع شديد الحنو ، وحلم ورحمة يشيعان فى حياته كلها ويجريان فيها مجرى الدم فى الجسد الحى .. حتى ليستحق أن يقول عنه الرحمن الرحيم :

((**واتخذ الله ابراهيم خليلا**))[١] ..

لا نريد أن نمضى فى الحديث عن أسلوب القرآن المعجز فى تقديمه لأنبياء الله ، ولا نريد أن نفيض فى الحديث عن طريقة العرض ورسم الشخصيات ..

فذلك حديث طويل .. نحسب أن الوقت قد حان لنقرأ معا قصص أنبياء الله ..

---

١) من الآية ١٢٥ من سورة النساء مدنية .

قصة آدم

[عليه الصلاة والسلام]

انصرفت مشيئة الله تعالى الى خلق آدم ..

قال الله تبارك وتعالى للملائكة :

« **انى جاعل فى الأرض خليفة** » [١] ..

اختلف الناس فى معنى خلافة آدم .. فمن قائل انه خليفة لجنس سبق على الأرض ، وكان هذا الجنس يفسد فيها ويسفك الدماء .. ومن قائل انه كان خليفة لله تعالى ، بمعنى انه خليفة فى امضاء احكامه واوامره ، لانه اول رسول الى الأرض .. وهذا ما نعتقده ..

سأل ابو ذر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن آدم :

ـــ أنبيا كان مرسلا ؟

قال : **نعم** ..

قيل : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض احد ؟

قال : كان رسولا الى أبنائه ..

....

يرفع ستار الخليقة على مشهد بين الله تعالى وملائكته :

قال تعالى فى سورة البقرة :

« **واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : انى أعلم ما لا تعلمون** » [٢] ..

وقف المفسرون أمام هذه الآيات وقفة طويلة ..

قال تفسير المنار : ان هذه الآيات من المتشابهات التى لا يمكن حملها على ظاهرها ، لانها بحسب قانون التخاطب اما استشارة من الله تعالى ، وذلك محال عليه تعالى .. واما اخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم وجدال ، وذلك لا يليق بالله تعالى ولا بملائكته ، واقترح صرف معنى القصة لشىء آخر ..

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية ..
(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية .

وقال تفسير الجامع لأحكام القرآن : ان الله تعالى كان قد أخبر ملائكته انه اذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء ، وحين قال تعالى :

« **انى جاعل فى الأرض خليفة** » [١] ..

قالوا أهذا هو الخليفة الذى حدثتنا عن افساده فى الأرض وسفكه للدماء ، أم خليفة غيره ؟

وقال تفسير « فى ظلال القرآن » : ان الملائكة بفطرتهم البريئة التى لا تتصور الا الخير والنقاء ، قد حسبوا ان التسبيح بحمد الله وتقديسه هو الغاية المطلقة للوجود ، وهذه الغاية متحققة بوجودهم هم ، وسؤالهم يصور دهشتهم ، ولا يعبر عن اعتراض من أى نوع ..

....

رأينا كيف اجتهد كل واحد من المفسرين لكشف الحقيقة .. فكشف الله لكل واحد فيهم عمقا منها .. وانما أوقع فى الحيرة عمق القرآن .. وتقديم القصة بأسلوب الحوار .. وهو أسلوب بالغ التأثير والنفاذ ..

ان الله تعالى يحكى لنا القصة بأسلوب الحوار ، وليس من الضرورى أن تكون قد وقعت بنفس هذا الأسلوب ..

الا ترى أن الله تعالى يقول فى سورة [فصلت] :

« **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين** » [٢] ..

هل يتصور أحد من الناس ان الله عز وجل قد خاطب السماء والأرض ، وردت عليه السماء والأرض ووقع بينهما هذا الحوار .. انما يأمر الله تعالى السماء والأرض فتطيع السماء والأرض ..

وانما صور الله ما حدث بأسلوب الحوار لتثبيته فى الذهن ، وتأكيد معناه وايضاحه .. واستخدام هذا الأسلوب المسرحى فى قصة آدم يوحى بمعنى عميق .. وذلك أن الستار يوشك أن يرتفع عن خلق النوع الانسانى ..

نحن نتصور ان الله تعالى حين قرر خلق آدم ، حدث ملائكته من باب اعلامهم كى يسجدوا له ، لا من باب أخذ رأيهم أو استشارتهم .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. حدثهم الله تعالى انه سيجعل فى الأرض خليفة ، وأن هذا الخليفة ستكون له ذرية وأحفاد ، وأن أحفاده وذريته سيفسدون فى الأرض ، ويسفكون فيها الدماء .. وقامت الحيرة فى نفوس الملائكة الأطهار .. انهم يسبحون بحمد الله ، ويقدسون له .. والخليفة المختار لن يكون منهم ، فما هو السر فى ذلك ، وما هى حكمة الله تبارك وتعالى فى الأمر ، لم تستمر حيرة الملائكة، وتشوقهم الى شرف الخلافة فى الأرض، ودهشتهم من تشريف آدم بها ، لم يستمر هذا الحوار الداخلى غير جزء من ملايين الأجزاء من الثانية .. ثم ردهم الى اليقين والتسليم قوله تعالى :

---

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة مدنية .
(٢) الآية ١١ مكية ..

« **انى أعلم ما لا تعلمون** » [1] ..

وبهذه الاشارة الى علمه المحيط ، وعلمهم القاصر ، عاد التسليم واليقين.

نستبعد وقوع الحوار بين الله تعالى وملائكته تنزيها لله ، واكبارا لملائكته .. ونعتقد ان الحوار قام فى نفوس الملائكة لحمل شرف الخلافة فى الأرض .. ثم أعلمهم الله تعالى ان طبيعتهم ليست مهيأة لذلك ولا ميسرة له .. ان التسبيح بحمد الله وتقديسه ، هو أشرف شيء فى الوجود ، ولكن الخلافة فى الأرض لا تقوم بذلك وحده ، انما هى تحتاج الى طبيعة أخرى .. طبيعة تبحث عن المعرفة وتجوز عليها الأخطاء ..

هذه الحيرة ، أو هذه الدهشة ، أو هذا الاستشراف .. هذا الحوار الداخلى الذى ثار فى نفوس الملائكة بعد معرفة خبر خلق آدم .. هذا كله يجوز على الملائكة ، ولا ينقص من أقدارهم شيئا ، لأنهم ، رغم قربهم من الله ، وعبادتهم له ، وتكريمه لهم ، لا يزيدون على كونهم عبيدا لله ، لا يشتركون معه فى علمه ، ولا يعرفون حكمته الخافية ، وغيبه المستور ، وتدبيره فى الخفاء ، ولا يعرفون حكمته العليا وأسباب تحقيقها فى الأشياء ..

ولسوف تفهم الملائكة فيما بعد .. ان آدم نوع جديد من المخلوقات ، فهو يختلف عنهم فى ان عمله لن يكون تسبيح الله وتقديسه ، ولن يكون مثل حيوانات الأرض وكائناتها ، يقتصر وجوده على سفك الدماء والافساد فيها ..

انما سيكون آدم نوعا جديدا من المخلوقات .. وستتحقق بوجوده حكمة عليا لا يدريها أحد غير الله ..

وتلك حكمة المعرفة ..

قال الله تعالى :

« **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » [2] ..

قراها ابن عباس : « **الا ليعرفون** » ..

فكأن المعرفة هدف النوع الانسانى وغاية وجوده .. وسوف يبين لنا الله بأسلوب الحوار كيف كان ذلك ..

ولعل أجمل اقتراب من تفسير هذه الآيات كلمة الشيخ محمد عبده ..

« ان الحوار فى الآيات ، شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته .. صوره لنا فى هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ، ولكننا نعلم انه ليس كما يكون منا نحن البشر .. » ..

ادرك الملائكة ان الله سيجعل فى الأرض خليفة ..

وأصدر الله سبحانه وتعالى أمره اليهم تفصيلا ، فقال انه سيخلق بشرا من طين ، فاذا سواه ونفخ فيه من روحه فيجب على الملائكة أن تسجد له ،

---

(1) من الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية .
(2) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكية .

والمفهوم أن هذا سجود تكريم لا سجود عبادة ، لأن سجود العبادة لا يكون الا لله وحده ..

قال تعالى فى سورة [ص] :

((اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا ابليس استكبر وكان من الكافرين))[١] .

....

جمع الله سبحانه وتعالى قبضة من تراب الأرض ، فيها الأبيض والأسود والأصفر والأحمر ، ولهذا يجىء الناس ألوانا مختلفة .. ومزج الله تعالى التراب بالماء فصار صلصالا من حمأ مسنون .. تعفن الطين وانبعثت له رائحة .. وكان ابليس يمر عليه فيعجب أى شىء يصير هذا الطين ؟ .. من هذا الصلصال خلق الله تعالى آدم ..

سواه بيديه سبحانه .. ونفخ فيه من روحه سبحانه .. فتحرك جسد آدم ودبت فيه الحياة ..

فتح آدم عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له .. ما عدا واحدا يقف هناك ..

لم يكن آدم قد عرف أى نوع من المخلوقات هذا الذى لم يسجد له .. لم يكن يعرف اسمه .. كان ابليس يقف مع الملائكة ، ولكنه لم يكن منهم .. كان من الجن .. والمفروض ، بوصفه أقل من الملائكة ، أن تنطبق عليه الأوامر التى تصدر لهم ..

....

حكى الله تعالى قصة رفض ابليس السجود لآدم فى أكثر من سورة ..

قال تعالى فى سورة ((ص)) :

((قال : يا ابليس ، ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، استكبرت أم كنت من العالين . قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال: فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك لعنتى الى يوم الدين . قال: رب فأنظرنى الى يوم يبعثون . قال : فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال : فبعزتك لأغوينهم اجمعين . الا عبادك منهم المخلصين)) [٢] ..

كان آدم يتابع ما يحدث حوله ، ويحس بالحب والرهبة والدهشة ..

حب عميق لله الذى خلقه وكرمه وأسجد له ملائكته ..

ورهبة من غضب الخالق حين طرد ابليس من رحمته ..

---

(١) الآيات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ مكية ..
(٢) الآيات من ٧٥ الى ٨٣ مكية .

ودهشـــة من هذا المخلوق الذى يكرهه بغير ان يعرفه .. ويتصـــور انه أفضل منه بغير ان تتاح لأحدهما فرصة لاختبار نفسه واثبات أفضليته ..

ثم ماأعجب ابليس وحجته.. انه يتصور أن النار أفضل من الطين..فمن أين جاءه هذا العلم ، والمفروض ان يكون هذا العلم عند الله ، فهو الذى خلق النار والطين ويعرف أيهما أفضل ..

أدرك آدم من الحوار أن ابليس مخلوق يتصف باللؤم كما يتصف بالجحود ، انه يسأل الله تعالى أن يبقيه الى يوم البعث ، لا يريد ابليس ان يموت ، غير ان الله تعالى يفهمه انه سيبقى الى يوم الوقت المعلوم .. سيبقى الى أن يحين أجله فيموت ..

أدرك آدم أن الله قد لعن ابليس ، وطرده من رحمته بســـببه ، أدرك أن ابليس لن ينسى له هذا الصنيع ..

انتهى الأمر وعرف آدم عدوه الأبدى ..

وأدهشت آدم بعض الدهشة جراة عدوه وحلم الله عز وجل ..

ربما قال لى قائل : لماذا استبعدت أن يكون قد جرى حوار بين الله عز وجل وملائكته .. ولجأت الى تأويل الآيات ، ولم تستبعد وقوع حوار بين الله تعالى وابليس ..

واقول ردا على ذلك ان العقل يهدى لهذه النتيجة ..

ان امكان قيـــام حوار بين الله تعالى وملائكته أمر مســـتبعد ، لأن الملائكة منزهون عن الخطأ والقصور والرغبـــات البشرية التى تبحث عن المعرفة .. انهم بحكم خلقهم ، جند طائعون مكرمون .

أما ابليس فهو خاضع للتكليف ، وطبيعته ، بوصـــفه من الجن ، قريبة من طبيعة جنس آدم ..

بمعنى أن الجن يمكن أن يؤمنوا ، ويمكن أن يكفروا .. ان وجدانهم الدينى يمكن أن يسوقهم الى تصور خاطىء يسند كبرياء كاذبة .. ومن هذا الموقع وبحكم هذا التكوين ، يمكن أن ينشأ حوار .. والحوار يعنى الحرية .. ولقد كانت طبيعة البشر والجن مركبة بشكل يسمح لهم بالحرية ، أما طبيعة الملائكة فمن لون آخر ، لا تدخل الحرية فى نسيجه ..

ولقد شـاهد آدم عمليا — بعد خلقه مباشرة — قدر الحرية التى يعطيها الله لمخلوقاته المكلفة .. وكان وقوع هــذا الدرس أمام آدم يحوى مغزى عميقا ، ان الستار يفتح على خلق النوع الانسانى بحوار يدور بين الله — جل جلاله — وعبد كافر ، ورغم ذلك يعطيه الله الحرية .. وهو فى نهاية الأمر عبد .. وكافر ..

ان ابليس رفض أن يسجد لآدم ..

كان الله تعالى يعلم انه سيرفض السجود لآدم .. سوف يعصاه .. وكان الله يســـتطيع أن ينسفه نســفا ، أو يحيله الى حفنة من التراب ، أو يخنق بعزته وجلاله كلمة الرفض فى فم ابليس .. غير ان الله تعالى يعطى لمخلوقاته

المكلفة قدرا من الحرية لا يعطيه غيره أحد .. انه يعطيهم حرية مطلقة تصل الى حق رفض أوامره سبحانه .. انه يمنحهم حرية الانكار وحرية العصيان ، وحرية الاعتراض عليه .. سبحانه وتعالى ..

لا ينقص من ملكه أن يكفر به الكافرون ، ولا يزيد فى ملكه أن يؤمن به المؤمنون ، انما ينقص ذلك من ملك الكافرين ، أو يزيد فى ملك المؤمنين .. أما هو .. فتعالى عن ذلك ..

فهم آدم أن الحرية نسيج أصيل فى الوجود الذى خلقه الله .. وأن الله يمنح الحرية لعباده المكلفين .. ويرتب على ذلك جزاءه العادل ..

بعد درس الحرية ..

تعلم آدم من الله تعالى الدرس الثانى .. وهو العلم ..

كان آدم قد أدرك أن ابليس هو رمز الشر فى الوجود ، كما أدرك أن الملائكة هم رمز الخير ، أما هو نفسه فلم يكن يعرف نفسه حتى هذه اللحظة .. ثم أطلعه الله سبحانه وتعالى على حقيقته ، وحكمة خلقه ، وسر تكريمه ..

قال تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها » [١] ..

أعطاه الله تعالى سر القدرة على اختصار الأشياء فى رموز ومسميات ..

علمه أن يسمى الأشياء : هذا عصفور ، وهذا نجم ، وهذه شجرة ، وهذه سحابة ، وهذه طائرة ، وهذا هدهد ، وهذه .. الى آخر الأسماء ..

تعلم آدم الأسماء كلها ..

الأسماء هنا هى العلم .. هى المعرفة ..

هى القدرة على الرمز للأشياء بأسماء ..

غرس الله فى نفس آدم معرفة لا نهاية لها ، وحبا للمعرفة لا نهاية له ، ورغبة يورثها أبناءه فى التعلم .. وهذه هى الغاية من خلق آدم ، وهذا هو السر فى تكريمه ..

بعد أن تعلم آدم أسماء الأشياء وخواصها ومنافعها .. بعد أن عرف علمها .. عرض الله هذه الأشياء على الملائكة فقال :

« أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » [٢] ..

[يقصد صادقين فى رغبتكم فى الخلافة] ..

ونظر الملائكة فيما عرض الله عليهم ، فلم يعرفوا أسماءه .. واعترفوا لله بعجزهم عن تسمية الأشياء أو استخدام الرمز فى التعبير عنها ..

---

(١) من الآية ٣١ من سورة البقرة مدنية ..
(٢) من الآية ٣١ من سورة البقرة مدنية ..

قال الملائكة اعترافا بعجزهم :

« **سبحانك** [١] .. [أى ننزهك ونقدسك] .. **لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم** »[٢] [ردوا العلم كله الى الله] ..

قال الله تعالى لآدم :

« **يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم** » [٣] ..

وحدثهم آدم عن كل الأشـــياء التى عرضـــها الله عليهم ، ولم يعرفوا أسماءها ..

قال تعالى فى سورة البقرة :

« **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** » [٤] ..

أراد الله تعالى ان يقول للملائكة انه علم ما أبدوه من الدهشة حين أخبرهم انه سيخلق آدم ، كما علم ما كتموه من الحيرة ، كما علم ما أخفاه ابليس من المعصية والجحود ..

ادرك الملائكة أن آدم هو المخلوق الذى يعرف .. وهذا أشرف شىء فيه ..

قدرته على التعلم والمعرفة ..

وعرف الملائكة لمـــاذا أمرهم الله بالســـجود له .. كما فهموا السر فى أنه سيصبح خليفة فى الأرض ، يتصرف فيها ويتحكم فيها .. بالعلم والمعرفة ..

معرفة بالخالق .. وهذا ما يطلق عليه اسم الايمان أو الاسلام ..

وعلم بأسباب استعمار الأرض وتغييرها والتحكم فيها والسيادة عليها .. ويدخل فى هذا النطاق كل العلوم المادية على الأرض ..

ومن المعروف أن كمال الانسان لا يتحقق الا بتحصـيله ما يسـتطيعه من معرفة الخالق وعلوم الأرض .. فان نجح فى شىء على حساب الشىء الآخر صار مثل طائر جبار يرف بجناح واحد ، بينما جناحه الثانى مهيض يمنعه من التحليق ..

....

كان آدم يعرف أسماء كل شىء ، وكان يتحـدث أحيـانا مع الملائكة ، لكن الملائكة كانوا مشغولين عنه بعبادة الله تعالى ، ولهذا كان آدم يحس الوحدة

(١ ، ٢) من الآية ٣٢ من سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآية ٣٣ من سورة البقرة مدنية .
(٤) الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ من سورة البقرة مدنية .

.. ونام آدم يوما فلما استيقظ وجد عند رأســـه امرأة تحدق فى وجهه بعينين جميلتين ورحيمتين .. وربما دار بينهما هذا الحوار :

قال آدم : لم تكونى هنا قبل أن أنام .

قالت : نعم .

قال : جئت أثناء نومى اذن ؟

قالت : نعم .

قال : من أين جئت ... ؟

قالت : جئت من نفســـك .. خلقنى الله منك وانت نـــائم .. الا تريـــد أن تستعيدنى اليك وأنت مستيقظ ؟

قال آدم : لماذا خلقك الله ؟

قالت حواء : لتسكن الى .

قال آدم : حمدا لله .. كنت احس الوحدة ..

سألته الملائكة عن اسمها .. قال ان اسمها حواء .. سألوه : لماذا سميتها حواء يا آدم ؟

قال آدم : لأنها خلقت منى .. وأنا انسان حى ..

كان آدم مخلوقا طبيعته قائمة ومركبة على عشـــــق المعرفة ، وكان ينقل معرفته لحواء ، فيحدثها عما يعرفه ولا تعرفه هى .. واحبته حواء ..

واصدر الله تعالى امره لآدم بسكنى الجنة .

قال تعالى [فى سورة البقرة] :

((وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنـــة ، وكلا منها رغـــدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)) [1] ..

لا نعرف مكان هذه الجنة ..

سكت القرآن عن مكانها واختلف المفسرون فيها على خمســـة وجوه . قال بعضهم : انها جنة المأوى ، وان مكانها السماء . ونفى بعضهم ذلك لانها لو كانت جنة المأوى لحرم دخولها على ابليس ولما جـــاز فيها وقوع عصيان ، وقال آخرون : انها جنة اخرى خلقها الله لآدم وحواء . وقال غيرهم : انها جنة من جنات الارض تقع فى مكان مرتفع .. وذهب فريق الى التسليم فى امرها .. والتوقف . ونحن نختار هذا الرأى .. ان العبرة التى نستخلصها من مكانها لا تساوى شيئا بالقيـــاس الى العبرة التى تستخلص مما حدث فيها ..

. . . .

دخل آدم وحواء الجنة . وهناك عاشـــــا حلم الجنس البشرى كله .

---

(1) الآية ٣٥ من سورة البقرة مدنية .

وهناك أيضا مرا بأقسى تجربة ..

كانت حياة آدم وحواء فى الجنة هى البراءة المطلقة والقدرة التى لا تحد .

وعرف آدم معنى السعادة الداخلية العميقة حين صار مع حواء فى الجنة .. لم يعد يحس الوحدة .. كان يتحدث مع حواء كثيرا ، ويستمعان لغناء الخلائق وتسبيح الانهار ، وموسيقى الوجود البكر ، قبل ان يعرف الوجود معنى الاحزان والآلام .. وكان الله قد سمح لهما بأن يقتربا من كل شيء وأن يستمتعا بكل شيء ، ماعدا شجرة واحدة لعلها شجرة الألم أو شجرة المعـــــرفة .

قال الله لهما قبل دخول الجنة : ((**ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين**)) . [١]

وفهم آدم وحواء أنهما ممنوعان من الأكل من هذه الشجرة .. غير ان آدم انسان ، والانسان ينسى ، وقلبه يتقلب ، وعزمه يضعف .. واستغل ابليس انسانية آدم وجمع كل حقده فى صدره ، واستغل تكوين آدم النفسى ... وراح يثير فى نفســـه يوما بعد يوم . راح يوســـوس اليه يوما بعـــد يوم .

ــ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟

تساءل آدم بينه وبين نفسه .. ماذا يحدث لو أكل من الشجرة .. ربما تكون شجرة الخلد حقا ، وكان حلم آدم أن يخلد فى البراءة المطلقـــة التى يعيش فيها فى الجنة .

ومرت الايام وآدم وحواء مشغولان بالتفكير فى هذه الشجرة .. ثم قررا يوما ان يأكلا منها .. نسيا ان الله حذرهما من الاقتراب منها . نسيا ان ابليس عدوهما القديم .

ومد آدم يده الى الشجرة وقطف منها احدى الثمار وقدمها لحواء .. وأكل الاثنان من الثمرة المحرمة .

قال تعالى : فى سورة طه : ((**وعصى آدم ربه فغوى**)) [٢] .

ليس صحيحا ما تذكره صحف اليهود من اغواء حـــواء لآدم وتحميلها مسئولية الأكل من الشجرة .. ان نص القرآن لا يذكر حواء .. انما يذكر آدم ــ كمسئول عما حدث ــ عليه الصلاة والسلام . وهكذا أخطأ الشيطان وأخطأ آدم بسبب الكبرياء ، احتقر أحدهما الانسان ، وأراد الآخر أن يجعل نفسه ندا لله بالخلود .

لم يكد آدم ينتهى من الأكل حتى أحس أن صدره ينقبض .. أحس الألم والحزن والخجل .. تغير الجو حوله وسكتت الموسيقى العذبة التى كانت تنبعث من داخله .. اكتشف أنه عار ، وأن زوجته عارية .. اكتشف أنه رجل وأنها امرأة .. وبدأ هو وزوجته يقطعان أوراق الشجر لكى يغطى

---

(١) الآية ٣٥ من سورة البقرة مدنية .
(٢) من الآية ١٢١ مكية .

بها كل واحد منهما جسده العارى .. وأصدر الله تبارك وتعالى أمره بالهبوط من الجنـــــة ..

وهبط آدم وحواء الى الارض .. خرجا من الجنة . كان آدم حزينـــا وكانت حواء لا تكف عن البكاء .. وكانت توبتهما صادقة فتقبل الله منهما التوبة .. واخبرهما الله ان الارض هى مكانهما الاصلى .. يعيشان فيها ، ويموتان عليها ، ويخرجان منها يوم البعث ..

قال : ((**فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**)) [١] .

حكى الله تعالى قصة الدرس الثالث الذى تعلمه آدم خلال وجوده فى الجنة وبعد خروجه منها وهبوطه الى الأرض .

قال تعالى فى سورة طه : ((**ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . واذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى . فقلنا : يا آدم ، ان هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . أن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى . وأنك لا تظما فيها ولا تضحى . فوسوس اليه الشيطان قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى؟.فأكلا منها،فبدت لهماسوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى**)) . [٢]

يتصور بعض الناس أن خطيئة آدم بعصيانه هى التى أخرجتنـــا من الجنة .. ولولا هذه الخطيئة لكنا اليوم هناك .

وهذا تصور ساذج لان الله تعالى حين شاء أن يخلق آدم قال للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ولم يقل لهم انى جاعل فى الجنة خليفة ..

لم يكن هبوط آدم الى الأرض هبوط اهانة وانما كان هبوط كرامة كما يقول الصوفيون.كان الله تعالى يعلم أن آدم وحواء سيأكلان من الشجرة.. ويهبطان الى الارض .. كان الله تعالى يعلم ان الشيطان سيغتصب منهما البراءة ..

وكانت هذه المعرفة شيئا لازما لحياتهما على الارض ..

وكانت التجربة كلها ركنا من اركان الخلافة فى الأرض..ليعلم آدم وحواء ويعلم جنسهما من بعدهما ان الشيطان طرد الابوين من الجنة ، وان الطريق الى الجنة يمر بطاعة الله وعداء الشيطان .

هل يقال لنا ان الانسان مسير مجبور .. وأن آدم كان مجبورا سلفـــا على ان يخطىء ويخرج من الجنة ويهبط الى الارض ؟

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الاعراف مكية .
(٢) الآيات من ١١٥ الى ١٢٣ مكية .

حقيقة ان هذا التصور لا يقل سذاجة عن التصور الاول .. كان آدم حرا تمام الحرية . ولهذا تحمل تبعة عمله .

عصى واكل من الشجرة فأخرجه الله من الجنة ..

معصيته لا تنافى حريته .. بل انها تستمد وجودها الاصلى من حريته .

كل مافى الامر ان الله كان يعلم سلفا ما سيحدث ، يعلم الله الاشياء قبل حدوثها ، والعلم هنا نور يكشف . وليس قوة تقهر .. بمعنى أن الله يعلم ما سيحدث ، ولكنه لا يدفعه دفعا أو يقهره قهرا على الحدوث .. ان الله يعطى الحرية لعباده ومخلوقاته .

ويرتب على ذلك حكمته العليا فى تعمير الارض واقامة الخلافة فيها ..

....

فهم آدم درسه الثالث .

فهم أن ابليس عدوه .. فهم بشكل علمى .. ان ابليس هو السبب فى فقدانه للنعيم وفى شقائه .

فهم ان الله يعاقب على المعصية . وان الطريق الى الجنة يمر بطاعة الله .

فهم ان الله يقبل التوبة ويعفو ويرحم ويجتبى .

علمهما الله تعالى أن يستغفرا قائلين :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » [1]

وقبل الله توبته وعفا عنه وأرسله الى الارض .

أول رسول لأبنائه ..

بدأت حياة آدم فى الارض ..

خرج من الجنة مهاجرا الى الارض .. واستن بذلك لابنائه واحفاده من الأنبياء سنة الخروج .

لا يكاد النبى يبدأ دعوته الى ربه حتى يضطره قومه الى الخروج .. والهجـــرة ..

هناك فى الجنة خرج آدم قبل نبوته ، وهنا فى الأرض يخرج الأنبياء بعد نبوتهم عادة ..

عرف آدم انه ودع السلام حين خرج من الجنة ..

هنا فى الأرض كان عليه أن يواجه شقاء وصراعا لا ينتهى أحدهما الا ليبدأ الآخر وكان عليه أن يشقى ليأكل ، وكان عليه أن يحمى نفسه بالملابس والأسلحة ، ويحمى زوجته وأطفاله من الحيوانات والوحوش التى تعيش

---

(1) من الاية ٢٣ من سورة الاعراف مكية .

فى الأرض .. وكان عليه قبل هذا كله وبعده أن يستمر فى صراعه مع روح الشر . ان الشيطان هو السبب فى خروجه من الجنة .. وهو فى الأرض يوسوس له ولأولاده ليدخلهم الجحيم . والمعركة بين الخير والشر لا تتوقف، ومن يتبع هدى الله فلا خوف عليه ولا يحزن .. ومن يعص الله ، ويتبع المخلوق النارى ابليس فهو معه فى النار .

فهم آدم هذا كله مع الشقاء الذى بدأت به حياته على الأرض . الشىء الوحيد الذى كان يخفف حزنه .. انه قد جاء سلطانا عليها .. وعليه أن يخضعها ، ويستعمرها ، ويزرعها ويبنيها ويعمرها ، وينجب فيها نسلا يكبرون ويغيرون شكل الحياة ويجعلونه أفضل ..

كانت حواء تلد فى البطن الواحد ابنا وبنتا . وفى البطن التالى ابنا وبنتا . فيحل زواج ابن البطن الأول من بنت البطن الثانى ..

وكبر أبناء آدم وتزوجوا ، وملأوا الأرض نسلا .. ودعاهم آدم الى الله تعالى ..

وقدر لآدم أن يشهد أول انحياز من أحد أبنائه لروح الشر ابليس .. وقعت أول جريمة قتل على الأرض ..

قتل أحد أبناء آدم شقيقه .

قتل الشرير أخاه الطيب .

قال تعالى فى سورة المائدة : ((**واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر**)) [٢] .

يقال أن القاتل كان يريد زوجة شقيقه لنفسه .. وأمرهما آدم أن يقدما قربانا ، فقدم كل واحد منهما قربانا ، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

((**قال : لأقتلنك .**

قال : انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك .انى أخاف الله رب العالمين)) [١] .

لاحظ كيف ينقل الينا الله تعالى كلمات القتيل الشهيد ، ويتجاهل تماما كلمات القاتل . عاد القاتل يرفع يده مهددا ..

قال القتيل فى هدوء : ((**انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين**)) [٢] .

انتهى الحوار بينهما وانصرف الشرير وترك الطيب مؤقتا .

---

(١) من الآية ٢٧ مدنية .

(٢) من الآيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة المائدة مدنية .

بعد أيام .. كان الأخ الطيب نائما وسط غابة مشجرة .. مات فى نفس الغابة حمار عجوز فأكلت النسور لحمه وشربت الأرض دمه وبقى فكه العظمى ملقى على الارض .. حمله الشرير وتوجه نحو شقيقه النائم ، ورفع يده وأهوى بها بعنف وسرعة ..

ارتج الوجه الطيب حين انبثق منه الدم واستيقظ ، كان يحلم وهو نائم وترتسم على شفتيه ابتسامة فغطت دماؤه بسمته .. وعاد القاتل ينهال على شقيقه حتى سكنت حركته .. ادرك القاتل ان شقيقه فارق الحياة .

جلس القاتل امام القتيل ساكنا مصفر الوجه ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه كان أول من سن القتل » ..

جلس القاتل امام شقيقه المضرج فى دمه .. ماذا يقول لأبيه آدم لو سأل عنه .

لقد شاهدهما آدم يخرجان معا .. فكيف يعود وحده .. ولو انكر أمام ابيه انه قتل شقيقه .. فاين يخفى جثته .. اين يذهب بها .

كان هذا الاخ القتيل أول انسان يموت على الارض .. ولم يكن دفن الموتى شيئا قد عرف بعد . وحمل الاخ جثة شقيقه وراح يمشى به .

مزق الهواء صوت طائر يصرخ . أفزعته الصرخة وملأت نفسه بشؤم مجهول .. التفت القاتل فوجد غرابا حيا يصرخ فوق جثة غراب ميت . وضع الغراب الحى الغراب الميت على الأرض وساوى أجنحته الى جواره وبدأ يحفر الارض بمنقاره ورجليه .

حتى اذا صنع لاخيه لحده وقبره .. رفعه بمنقاره ووضعه برفق فى القبر ثم صرخ صرختين قصيرتين وعاد يهيل عليه التراب .. بعدها طار فى الجو وهو يصرخ .

وقف القاتل وانكفأ على جثة شقيقه .. صرخ

((قال يا ويلتا .. أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى))[1] .

اندلع حزنه على أخيه كالنار فاحرقه الندم .

اكتشف فجاة . اكتشف انه وهو الاسوا والأضعف ، قد قتل الأفضل والأقوى . نقص ابناء آدم واحدا .. وكسب الشيطان واحدا من أبناء آدم ..

واهتز جسد القاتل ببكاء عنيف ثم أنشب أظافره فى الأرض وراح يحفر قبر شقيقه .

.. ..

قال آدم حين عرف القصة : **((هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين))**[2] .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة المائدة ــ مدنية .
(٢) الآية ١٥ من سورة القصص مكية .

وحزن حزنا شديدا على خسارته فى ولديه .

مات أحدهما ، وكسب الشيطان الثانى .

صلى آدم على ابنه ، وعاد الى حياته على الارض .

انسانا يعمل ويشقى ليصنع خبزه .

ونبيا يعظ ابناءه وأحفاده ويحدثهم عن الله ويدعوهم اليه ، ويحكى لهم عن ابليس ويحذرهم منه . ويروى لهم قصته هو نفسه معه ، ويقص لهم قصته مع ابنه الذى دفعه لقتل شقيقه .

وكبر آدم .. ومرت سنوات وسنوات .. وانتشر أبناؤه فى الأرض .

وجاء على الارض ليل .

هبت الرياح بعنف .

وارتعشت أوراق شجرة عجوز غرسها آدم .

ومالت أغصانها على بحيرة الى جوارها ، حتى لمست الثمار مياه البحيرة .. وحين اعتدلت الشجرة بعد مرور الرياح ، راحت المياه تتساقط من بين فروعها وبدت الشجرة من البعد كما لو كان شعرها محلولا وهى تنكفىء على المـــاء وتبـــكى .

كانت الشجرة حزينة ، وكانت أغصانها ترتعش .. وفى السماء كانت النجوم ترتعش .

وتسللت أشعة القمر الى حجرة آدم . سقطت الأشعة على وجه آدم . كان وجه آدم أكثر شحوبا ونبلا من وجه القمر .. وعرف القمر أن آدم يمـــــوت ..

الحجرة بسيطة .. حجرة آدم .

على فراش من أغصان الشجر والورود يرقد آدم بلحيته البيضــــاء ووجهه الطيب .. أبناؤه جميعا يقفون حوله فى انتظار وصيته .. وتحدث آدم فأفهم أبناءه أن هناك سفينة واحدة لنجاة الانسان ، وسلاحا واحــدا لانتصاره ، هذه السفينة هى هدى الله ، وهذا السلاح هو كلمات الله .

طمأن آدم أبناءه بأن الله لن يترك الانسان وحده على الأرض .. انما سيرسل انبياءه لهدايته وانقاذه .. وسيختلف الأنبياء فى الأسماء والصفات والمعجزات .. ولكنهم سيجمعون على شىء واحد : الدعوة الى عبـــادة الله وحـــده .

وتلك كانت وصية آدم لأبنائه .

انتهى آدم من وصيته ، وأغمض عينيه ، دخل الملائكة حجرته وأحاطوا به وتعرف بينهم على ملك الموت .. وابتسم قلبه للسلام العميق .. وهبت على روحه رائحة أزهار الجنـــة .

قصة نوح

[عليه الصلاة والسلام]

مرت أعوام على موت آدم ...

ما تت الزهور حول قبره ، وهرمت الاشجار والصخور ، واضيفت أعوام الى عمر النجوم ، وتغيرت فى الأرض اشياء واشياء .

وطبقا لقانون عام زحف النسيان على وصية آدم .. عادت الخطيئة القديمة الى الظهور مرة ثانية .. خطيئة النسيان .. وان عادت بشكل يختلف هذه المرة ..

قبل أن يولد قوم نوح عاش خمسة رجال صالحين من أجداد قوم نوح ، عاشوا زمنا ثم ماتوا .. كانت أسماء الرجال الخمسة هى [ود] .. [سواع] .. [يغوث] .. [يعوق] .. [نسر] .

بعد موتهم صنع الناس لهم تماثيل فى مجال الذكرى والتكريم .. ومضى الوقت .. ومات الذين نحتوا التماثيل .. وجاء ابناؤهم .. ومات الأبناء وجاء أبناء الابناء . ونسجت الاساطير الخرافية ، والميل البدائى فى عقل الانسان ، قصصا وحكايات حول التماثيل تعزو لها قوة خاصة .. واستغل ابليس فرصته وهى تمر الى جواره ، وأوهم الناس أن هذه تماثيل آلهة تملك النفع وتقدر على الضرر .. وبدأ الناس يعبدون هذه التماثيل .

لانعرف من مصادر موثوق بها ، كيف كان شكل الحياة حين بدأت عبادة الاصنام فى الأرض .. غير اننا نعرف قانونا عاما لا ينكسر ابدا ، عندما يبدأ الناس انحدارهم نحو الشرك .

فى اللحظة التى يترك الناس فيها عبادة الله الى عبادة الأصنام .. تحتضر روح الجمال فى الأرض ، ويعتلى القبح عرشه كسيد حاكم ، وينهزم الانسان من الداخل ، وينتكس العقل البشرى ، ويتبع ذلك أن يزيد ظلم الظالمين وذل المظلومين ، كما يزيد فقر الفقراء وغنى الأغنياء .. ويتحول الوجود الانسانى كله الى جحيم لا يحتمل ..

ينطبق هذا القانون دائما عندما يعبد الناس غير الله .. سواء أكان المعبود صنما من الحجارة ، أم عجلا من الذهب ، أم حاكما من الناس ، أم نظاما من الانظمة ، أم مذهبا من المذاهب ، أم قبر ولى من الأولياء .

ذلك أن الضمان الوحيد للمساواة بين البشر يكمن فى عبوديتهم جميعا لله ، وكون الله هو خالقهم والمشرع لهم .. فاذا ضاع هذا الضمان ، وادعى

أحد من الناس ، أو زعم أحد الأنظمة لنفسه حق الألوهية ، فقد ضاع الناس وضاعت حرياتهم تمامـــا .

وليست عبادة غير الله مأساة تتمثل فى ضياع الحرية وحـدها ، وانما يمتد أثرها الخطير الى عقل الانسان فيلوثه وينكس أعلامه ويدمره .

ذلك أن الله تعالى خلق الانسان ليعرف ، وجعل عقله جوهرة هدفها العلم .. وأخطر علم هو العلم بأن الله وحده هو الخالق وما سواه عبيد .

هذه نقطة بدء لابد منها لتحقيق الخلافة بنجاح ..

وعندما يهدر العقـل البشرى امكانياته ، وينصرف لغير الله ، لا يعـود هناك خطأ يتوقف عنده العقل البشرى ، أو يراجع نفسه فيه .. وقد يحدث أن يتقدم الانسان ماديا بسبب أخذه بأسباب التقدم رغم عدم ايمانه ، ولكن هذا التقدم المادى الذى يخلو من معرفة الله ، يكون عذابا أعظم من أى عذاب، لأنه ينتهى بتحطيم الانسان لنفسه .. وعندما يعبد الناس غير الله تعالى ، يزداد بؤس الحياة وفقر الناس .. هناك علاقة وثيقة بين ذل الناس وفقرهم وعدم ايمانهم بالله وعدم تقواهم .

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف :

« **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السـماء والأرض** » . [1]

وهكذا يؤدى الكفر بالله أو الشرك بـه الى ذهـاب الحرية ، وتحطيم العقل ، وزيادة الفقر ، وخلو الحياة من هدف نبيل .. وفى هذا الجو اظهر الله تعالى نوحا وبعثه برسالته الى قومه .

كان نوح هو العقل الوحيد الطافى فوق دوامات الخراب الجماعى الهائل الممثل فى عبادة غير الله .

اختار الله عبده نوحا وأرسله الى قومه .

كان نوح بمقياس الفكر ثورة فكرية .. وكان بمقياس النبل والنقـاء جسدا لهما ، وكان بمقياس الذكاء قمة شامخة .

بايجاز .. كان نوح بمقياس العظمة أعظم انسان فى عصره .. لم يـكن ملكا فى قومه ، ولا رئيسا عليهم ، ولا أغنى واحد فيهم ، نعلم الآن أن العظمة تختلف عن الملك والغنى والرئاسة .. يجمـع هـذا المثلث داخل اضـلاعه ــ عادة ــ أغلبية من النفوس الخسيسة . انما توجد العظمة فى نقاء القلب، وطهارة الضمير ، وقيمة الأفكار التى يحملها العقل ، وقدرة هذا العقل على تغيير الحياة حوله .. وكان نوح هذا كله وأكثر ....

كان نوح هو الانسان الذى يذكر جيدا عهد الله لآدم وأبنائه حين خلقهم فى عالم الذر .. كان على الفطرة مؤمنا بالله تعالى .. قبل بعثته الى الناس ، وكل الأنبياء مؤمنون بالله تعالى قبل بعثتهم .

---

(1) من الآية ٩٦ مكية ..

نيهم من يبحث عن الله تعالى كابراهيم . وفيهم من يؤمن به فى أعمـــاقه كموسى .. وفيهم من يتعبد له ويخلو فى غار حراء كمحمد .. عليهم الصلاة والسلام .. وهناك سبب آخر لعظمة نوح .. كان اذا استيقظ أو نام أو شرب أو اكل أو لبس ملابسه أو خرج أو دخل .. يشكر الله ويحمده ، ويذكر نعمته عليه ، ويعاود الشكر ، ولهذا قال الله تعالى عن نوح :

« انه كان عبدا شـــكورا » . [١]

اختار الله عبده الشاكر وارسله نبيا الى قومه . وخرج نوح على قـــومه وبدأ دعـــوته :

« ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره .. انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . [٢]

بهذه الجملة الموجزة وضع نوح قومه أمام حقيقة الألوهية .. وحقيقـــة البعث .. هناك اله خالق هو وحده الذى يستحق العبادة .. وهناك موت ثم بعث ثم يوم للقيامة .. يوم عظيم ، فيه عذاب يوم عظيم .

شرح « نوح » لقومه أنه يستحيل أن يكون هناك غير اله واحد هو الخالق .. أفهمهم أن الشيطان قد خدعهم زمنا طويلا ، وأن الوقت قد جاء ليتوقف هذا الخداع ، حدثهم نوح عن تكريم الله للانسان .. كيف خلقه ، ومنحـــه الرزق واعطاه نعمة العقل ، وليست عبادة الأصنام غير ظلم خانق للعقل .

واستمع الناس اليه فى صمت .. كان كلامه صدمة لركودهم .. مثلما تجىء الى انسان نائم تحت جدار يتهيأ للسقوط .. وتهزه فجأة لتوقظه ، ربما فزع هذا الانسان ، وغضب رغم أنك تهدف الى انقاذه .

كانت روح الشر الموجودة فى الأرض تســـــمع هى الأخـــرى وتحس بالخوف .. أن عرش الكراهية مهدد بهذا الحب الذى يحمله كلام النبى ..

تحرك قوم نوح فى اتجاهين بعد دعوته .. لمست الدعوة قلوب الضـــعفاء والفقراء والبؤساء ، وانحنت على جراحهم وآلامهم بالرحمة .. أما الأغنياء والأقوياء . والكبراء .. والحكام ، فقد تأملوا الدعوة بعين الشك البارد .. ولما كانوا يستفيدون من بقاء الأوضاع على ما هى عليه .. فقد بدأوا حربهم ضـــد « نوح » ..

فى البداية .. اتهموا نوحا بأنه بشر مثلهم ..

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك الا بشرا مثلنا »[٣] .

قال تفســـير القرطبى :

الملأ الذين كفروا من قومه هم الرؤساء الذين كانوا فى قومه .

يسمون الملأ لأنهم مليئون بما يقولون .

---

(١) من الآية ٣ من سورة الاسراء مكية .
(٢) من الآية ٥٩ من سورة الأعراف مدنية .
(٣) من الآية ٢٧ من سورة هود .. مكية .

قال هؤلاء الملأ لنوح : أنت بشر يا نوح .

رغم أن نوحا لم يقل غير ذلك ، وأكد أنه مجرد بشر .. والله يرسل الى الأرض رسولا من البشر ، لأن الأرض يسكنها البشر ، ولو كانت الأرض تسكنها الملائكة لأرسل الله رسولا من الملائكة ..

استمرت الحرب بين الكافرين ونوح ..

فى البداية ، تصور النظام الحاكم يومها أن دعوة نوح لا تلبث أن تنطفىء وحدها ، فلما وجدوا الدعوة تجتذب الفقراء والضعفاء وأهل الصناعات البسيطة بدأوا الهجوم على نوح من هذه الناحية .

هاجموه فى أتباعه ، وقالوا له : لم يتبعك غير الفقراء والضعفاء والأراذل .

قال تعالى فى سورة هود :

((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين))[1] .

هكذا اندلع الصراع بين نوح ورؤساء قومه .

ولجأ الذين كفروا الى المساومة .. قالوا لنوح :

ــ اسمع يا نوح .. اذا أردت أن نؤمن لك فاطرد الذين آمنوا بك . انهم ضعفاء وفقراء ، ونحن سادة القوم وأغنياؤهم .. ويستحيل أن تضمنا دعوة واحدة مع هؤلاء .

واستمع ((نوح)) الى كفار قومه وأدرك انهم يعاندون ، ورغم ذلك كان طيبا فى رده .. أفهم قومه أنه لا يستطيع أن يطرد المؤمنين ، لأنهم أولا ليسوا ضيوفه ، انما هم ضيوف الله .. وليست الرحمة بيته الذى يدخل فيه من يشاء أو يطرد منه من يشاء ، انما الرحمة بيت الله الذى يستقبل فيه من يشاء .

قال تعالى فى سورة هود :

((قال : يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقوا ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون . ولا أقول لكم : عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم : لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لمن الظالمين)) [2] .

.. ..

---

(1) الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ مكية .
(2) الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .. مكية .

كان نوح يناقش كل حجج الكافرين بمنطق الأنبياء الكريم الوجيه .

وهو منطق الفكر الذى يجرد نفسه من الكبرياء الشخصى وهوى المصالح الخاصة ..

قال لهم ان الله قد آتاه الرسالة والنبوة والرحمة . ولم يروا هم ما آتاه الله ، وهو بالتالى لا يجبرهم على الايمان برسالته وهم كارهون ، ان كلمة لا اله الا الله لا تفرض على أحد من البشر .. أفهمهم أنه لا يطلب منهم مقابلا لدعوته ، لا يطلب منهم مالا فيثقل عليهم ، ان أجره على الله ، هو الذى يعطيه ثوابه ، افهمهم انه لا يستطيع ان يطرد الذين آمنوا بالله ، أن له حدوده كنبى . وحدوده لا تعطيه حق طرد المؤمنين لسببين أنهم سيلقون الله مؤمنين به ، فكيف يطرد مؤمنا بالله ، ثم انه لو طردهم لخاصموه عند الله ، وهذا يستتبع أن يثيبهم الله على ايمانهم ، ويجازى من طردهم ، فمن الذى ينصر نوحا من الله لو طردهم . وهكذا انتهى نوح الى أن مطالبة قومه له بطرد المؤمنين جهل منهم .. وعاد نوح يقول لهم انه لا يدعى لنفسه اكثر مما له من حق ، واخبرهم بتذلله وتواضعه لله عز وجل ، فهو لا يدعى لنفسه ما ليس له من خزائن الله ، وهى انعامه على من يشاء من عباده ، وهو لا يعلم الغيب ، لأن الغيب علم اختص الله تعالى وحده به .. اخبرهم أيضا أنه ليس ملكا .. بمعنى أن منزلته ليست كمنزلة الملائكة .. وقد استدل بعض العلماء من هذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء [أنظر تفسير القرطبى] قال لهم نوح : ان الذين تزدرى أعينكم وتحتقر وتستثقل .. ان هؤلاء المؤمنين الذين تحتقرونهم لن تبطل أجورهم وتضيع لاحتقاركم لهم ، الله أعلم بما فى انفسهم .. هو الذى يجازيهم عليه ويؤاخذهم به .. اظلم نفسى لو قلت ان الله لن يؤتيهم خيرا ..

وسئم النظام الحاكم يوما من هذا الجدل الذى يجادله نوح ..

حكى الله موقفهم منه فى سورة هود :

قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال : انما يأتيكم به الله ان شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولاينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ، ان كان الله يريد ان يغويكم، هو ربكم واليه ترجعون » [١] .

اضاف نوح اغواءهم الى الله تعالى .. تسليما بأن الله هو الفاعل فى كل حال .. غير انهم استحقوا الضلال بموقفهم الاختيارى وملء حريتهم وكامل ارادتهم .. وقديما قال ابليس عليه لعنة الله :

« **فبما أغويتنى** » [٢] .

وينصرف معنى العبارة الظاهرى الى أن الله تعالى هو الذى أغواه .. والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أعطاه حريته ثم حاسبه عليها ، ونحن لا نرى رأى القدرية والمعتزلة والامامية ، انهم يرون أن ارادة الانسان كافية فى صدور افعاله منه .. طاعة كانت أو معصية ، لأن الانسان عندهم خالق لأفعاله ، فهو غير محتاج فى صدورها عنه الى ربه .

---

(١) الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .. مكية .. (٢) من الآية ١٦ من سورة الأعراف مكية ..

لا نرى رأيهم هذا باطلاقه .. انما نرى أن الانسان صانع لأفعاله ولكنه محتاج فى صدورها عنه الى ربه .. بهذه النظرة يستقيم معنى مساءلة الانسان عن أفعاله .

كل ما فى الأمر أن الله ييسر كل مخلوق لما خلق له .. سواء أكان التيسير الى الخير أو الى الشر .. وهذا من تمام الحرية وكمالها .

يختار الانسان بحريته فييسر له الله تعالى طريق ما اختاره .

اختار ابليس طريق الغواية فيسر الله له طريق الغواية .

واختار كفار قوم نوح نفس الطريق فيسره الله لهم .

وتستمر المعركة . وتطول المناقشة بين الكافرين من قوم نوح وبينه حتى اذا انهارت كل حجج الكافرين ولم يعد لديهم ما يقال ، بدأوا يخرجون عن حدود الأدب ويشتمون نبى الله .

« قال الملأ من قومه : انا لنراك فى ضلال مبين » [١] .

ورد عليهم نوح بأدب الأنبياء العظيم :

« قال يا قوم : ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، واعلم من الله مالا تعلمون » [٢].

ويستمر نوح فى دعوة قومه الى الله .. ساعة بعد ساعة .. ويوما بعد يوم .. وعاما بعد عام .. ومرت الأعوام ونوح يدعو قومه .. كان يدعوهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهرا ، يضرب لهم الأمثال . ويشرح لهم الآيات ويبين لهم قدرة الله فى الكائنات ، وكلما دعاهم الى الله فروا منه ، وكلما دعاهم ليغفر الله لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستكبروا عن سماع الحق .

حكى الله تعالى ما لقيه نوح فى سورة نوح :

« قال : رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »[٣] .

ماذا كان جواب قومه بعد هذا كله ؟

« قال نوح : رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين الا ضلالا »[٤] .

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأعراف مكية .. (٢) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الأعراف مكية..
(٣) الآيات من ٥ الى ١٢ مكية ..
(٤) الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ من سورة نوح .. مكية .

واستمر نوح يدعو قومه الى الله ألف سنة الا خمسين عاما . قال تعالى فى سورة العنكبوت :

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما »[١] .

وكان يلاحظ أن عدد المؤمنين لا يزيد ، بينما يزيد عدد الكافرين . وحزن نوح غير أنه لم يفقد الأمل ، وظل يدعو قومه ويجادلهم ، وظل قومه على الكبرياء والكفر والتبجح .

وحزن نوح على قومه .. لكنه لم يبلغ درجة اليأس .. ظل محتفظا بالأمل طوال ٩٥٠ سنة .. ويبدو أن أعمار الناس قبل الطوفان كانت طويلة ، وربما يكون هذا العمر الطويل لنوح معجزة خاصة له .. وجاء يوم أوحى الله اليه .. أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن .

اوحى الله اليه الا يحزن عليهم . ساعتها دعا نوح على الكافرين بالهلاك .

قال : **« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »**[٢] .

برر نوح دعوته بقوله :

« انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » [٣] .

قال تعالى فى سورة هود :

« واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » [٤] .

.. ..

انتهى الأمر وأصدر الله تعالى حكمه على الكافرين بالطوفان ..

أخبر الله تعالى عبده نوحا أنه سيصنع هذه السفينة **« بأعيننا ووحينا »** أى بعلم الله وتعليمه ، وعلى مرآى منه وطبقا لتوجيهاته ومساعدة الملائكة ..

اصدر الله تعالى أمره الى نوح :

ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا .. انهم مغرقون »[٥] .

يغرق الله الذين ظلموا مهما كانت أهميتهم أو قرابتهم للنبى ، وينهى الله نبيه أن يخاطبه أو يتوسط لهم .

وبدأ نوح يغرس الشجر ويزرعه ليصنع منه السفينة .

انتظر سنوات ، ثم قطع ما زرعه ، وبدأ نجارته .

كانت سفينة عظيمة الطول والارتفاع والمتانة ، وقد اختلف المفسرون فى

---

(١) من الآية ١٤ من سورة العنكبوت مكية ..
(٢) من الآية ٢٦ من سورة نوح مكية .. (٣) الآية ٢٧ من سورة نوح مكية ..
(٤) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ مكية .. (٥) من الآية ٣٧ من سورة هود مكية ..

حجمها ، وهيئتها ، وعدد طبقاتها ، ومدة عملها ، والمكان الذى عملت فيه ، ومقدار طولها ، وعرضها ، على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وقال الفخر الرازى فى هذا كله : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبنى ، لأنها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة . ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا .

رحم الله الفخر الرازى ..

أصـــاب الحق بكلمته ..

لا نعرف عن حقيقة هذه السفينة الا ما حدثنا الله به . لا نعرف مثلا أين عملت ، ولا كم كان طولها أو عرضها ، ولا نعرف بالقطع غير أســـم المكان الذى ذهبت اليه بعد رســـوها .

ان الآثار المادية قد سكتت تماما عنها ، ولا ريب أن أخشاب الســـفينة قد تحللت ، لأن الطوفان وقع من زمن سحيق .. وكل خبط فيها لا يفيد ولا حاجـــة لمعرفتـــه .

تجاوز الله تعالى هذه التفصيلات التى لا أهمية لها ، الى مضمون القصة ومغزاها الهـــام ..

بدأ نوح يبنى الســـفينة ..

ويمر عليه الكفار فيرونه منهمكا فى صنع السفينة .. والجفاف سائد ..

وليست هناك أنهار قريبة أو بحار .. كيف ستجرى هذه السفينة اذن يا نوح ؟ .. هل ستجرى على الأرض .. أين الماء الذى يمكن أن تســـبح فيه سفينتك ؟ لقد جن نوح .

وترتفع ضحكات الكافرين وتزداد سخريتهم من نوح ..

أن قمة الصراع فى قصة نوح تتجلى فى هذه المساحة الزمنيـــة .. ان الباطل يسخر من الحق .. يضحك عليه طويلا ، ويســـخر منه طـــويلا ، متصورا أن الدنيا ملكه ، وأن الأمن نصيبه ، وأن العذاب غير واقع .. غير أن هذا كله مؤقت بارتفاع الستار على الطوفان . عندئذ يسخر المؤمنون من الكافرين ، وتكون سخريتهم هى الحق .

قال تعالى فى سورة هود :

« **ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون • فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** » [١] .

انتهى صنع السفينة .

وجلس نوح ينتظر أمر الله .

أوحى الله الى نوح أنه اذا فار التنور كان هذا علامة على بدء الطوفان .

---

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .. مكية ..

قيل فى تفسير التنور انه الفرن الكائن فى بيت نوح ، اذا خرج منه المـــاء وفار كان هذا أمرا لنوح بالحركة ..

وجاء اليوم الرهيب ..

فار التنور فى بيت نـــوح ..

وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به ..

وهبط جبريل عليه السلام الى الأرض .. حمل الى نوح فى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين .. بقرة وثورا . فيلا وفيلة . عصفورا وعصفورة .. نمرا ونمرة .. الى آخر المخلوقات .

كان نوح قد صنع اقفاصا للوحوش وهو يصنع السفينة .. وساق جبريل عليه السلام أمامه من كل زوجين اثنين ، لضمان بقاء نوع الحيوان والطير على الأرض ، وهذا معناه أن الطوفان أغرق الأرض كلها ، فلولا ذلك ماكان هناك معنى لحمل هذه الأنواع من الحيوان والطير .

وبدأ صـــعود الســـفينة .

صعدت الحيوانات والوحوش والطيور ، وصعد من آمن بنوح ..

وكان عدد المؤمنين قليلا ..

قال تعالى فى سورة هود :

« حتى اذا جـــاء أمرنا وفار التنور ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك الا من ســـبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معـــه الا قليل » [1] .

لم تكن زوجة نوح مؤمنة به فلم تصـــعد .. وكان أحـــد أبنائه يخفى كفره ويبدى الايمان أمام نوح .. فلم يصعد هو الآخر .. وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هى الأخرى .. فلم تصعد .. وصعد المؤمنون ..

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : آمن من قوم نوح ثمانون انسانا ..

....

ارتفعت المياه من فتحات الأرض .. لم تبق هناك فتحة فى الأرض الا خرج منها الماء .. انهمرت من الســـماء أمطار غزيرة بكميـــات لم تر مثلها الأرض قبلها ، ولن ترى بعدها .. وراحت المياه تسقط من السماء وتخرج من فتحات الأرض ، وترتفع ســـاعة بعد ساعة .. فقدت البحار هدوءها ، وانفجرت أمواجها تجور على اليابسة ، وتكتسح الأرض .. كان باطن الأرض يتحرك حركة غير عادية .. ارتفعت قيعان المحيطات ارتفاعات مفاجئة ، واندفع موج البحار يكتسح أمامه الجزء اليابس من الأرض ..

وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى فى المياه ..

كانت أثناء الطوفان هى الكرة المائية .. لم تعد كرة أرضية ..

---

(1) الآية ٤٠ .. مكية ..

قال تعالى فى سورة القمر :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر .. »[١].

ارتفعت المياه أعلى من الناس .. تجاوزت قمم الأشجار ، وقمم الجبال ، وغطت سطح الأرض كله . . وفى بداية الطوفان نادى نوح ابنه ..

كان ابنه يقف بمعزل عنه .. ناداه قائلا :

« يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين »[٢] .

ورد الابن على نداء أبيه :

« قال : سآوى الى جبل يعصمنى من المـاء » [٣] .

عاد نوح يخاطبه :

« قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » [٤] .

وانتهى الحوار بين نوح وابنه ..

« وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » [٥] .

أنظر الى تعبير القرآن الكريم : **« وحال بينهما الموج »** [٦] .. انهى الموج حوارهما فجأة .. نظر نوح فلم يجد ابنه .. لم يجد غير جبـال الموج التى ترتفع وترفع معها السفينة ، وتفقدها رؤية كل شىء غير المياه .. وشـاءت رحمة الله أن يغرق الابن بعيدا عن عين الأب ، رحمة منه بالأب ، واعتقد نوح أن ابنه المؤمن تصور أن الجبل سيعصمه من الماء .. فغرق ..

....

واستمر الطوفان ..

استمر يحمل سفينة نوح ..

بعد ساعات من بدايته ، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقا .. لم يعد باقيا من الحياة والأحياء غير هذا الجزء الخشبى من سفينةنوح ، وهو ينطوى على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض ..

وأنواع الحيوانات والطيور التى اختيرت بعناية . .

ومن الصعب اليوم أن نتصـور هول الطوفان أو عظمته .. كان شـيئا مروعا يدل على قدرة الخالق .. كانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال .. ويعتقد بعض العلمـاء اليوم ان انفصـال القارات وتشـكل الأرض فى صورتها الحالية ، قد وقع نتيجة طوفان قديم جبار .. ثارت فيه المياه ثورة

---

(١) الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ مكية .
(٢) من الآية ٤٢ من سورة هود .. مكية .. (٣) من الآية ٤٣ مكية من سورة هود ..
(٤) من الآية ٤٣ من سورة هود .. مكية ..
(٥) من الآية ٤٣ من سورة هود مكية .. (٦) نفس الآية ..

غير مفهومة .. حتى غطت سطح الجزء اليابس من الأرض .. وارتفعت فيه قيعان المحيطات ، ووقع فيه ما نستطيع تسميته بالثورة الجغرافية .

استمر طوفان نوح زمنا لا نعرف مقداره .. ثم صـــدر الأمر الالهى الى السماء أن تكف عن البكاء .. والى الأرض أن تستقر وتبتلع المـــاء .. والى أخشاب السفينة أن ترسو على الجودى .. وهو اسم مكان قديم ، يقال انه جبل فى العراق .

وبصدور الأمر الالهى ، عاد الهدوء الى الأرض .. وانحسرت المياه عنها ، وعاد الجزء اليابس فيها يلمع تحت أشعة الشمس ..

طهر الطوفان الأرض وغسلها ..

قال تعالى فى سورة هود :

« وقيل : يا أرض ابلعى ماءك ، ويا ســـماء اقلعى ، وغيض المـــاء وقضى الأمر ، واســـتوت على الجـــودى ، وقيل : بعـــدا للقـــوم الظالمين » [١] .

« **غيض الماء** » بمعنى نقص الماء وانصرف عائدا الى فتحات الأرض ..

« **وقضى الأمر** » بمعنى انه أحكم وفرغ منه ، يعنى هلك الكافرون من قوم نوح تماما ..

ويقال ان الله أعقم أرحامهم أربعين سنة قبل الطوفان ، فلم يكن فيمن هلك طفل أو صغير ..

« **واســـتوت على الجودى** » بمعنى رست عليـــه ، وقيل كان ذلك يـــوم عاشوراء .. فصامه نوح ، وأمر من معه بصيامه ..

« **وقيل بعدا للقوم الظالمين** » أى هلاكا لهم .. طهر الطوفان الأرض منهم وغسلها ..

ذهب الهول بذهاب الطوفان ..

وانتقل الصراع من الموج الى نفس نوح ..

تذكر ابنه الذى غرق ..

لم يكن نوح يعرف حتى هذه اللحظة ان ابنه كافر .. كان يتصور انه مؤمن عنيد ، آثر النجاة باللجوء الى جبل .. وكان الموج قد أنهى حوارهما قبل أن يتم .. فلم يعرف نوح حظ ابنه من الايمان .

تحركت فى قلب الأب عواطف الأبوة ..

قال تعالى فى سورة هود :

« ونادى نوح ربه فقال : رب ان ابنى من أهلى ، وأن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين » [٢] .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة هود .. مكية ..

(٢) الآية ٤٥ من سورة هود مكية ..

أراد نوح أن يقول لله ان ابنه من أهله المؤمنين .. وقد وعـده الله بنجاة أهله المؤمنين ..

قال الله سبحانه وتعالى ، مطلعا نوحا على حقيقة ابنه للمرة الأولى :

« يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسـألن ما ليس لك به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين » [١] .

قال القرطبى — نقلا عن شيوخه من العلماء — وهو الرأى الذى نؤثره :

[كان ابنه عنـده — أى نوح — مؤمنـا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه **« ان ابنى من أهلى »** [٢] .. الا وذلك عنده كذلك ، اذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسـأل فى انجـاء بعضـهم .. وكان ابنـه يسر الكفر ويظهر الايمان ..

فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب .. اى علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت .

وكان الله حين يعظه أن يكون من الجـاهلين ، يريد أن يبرئه من تصـور أن يكون ابنه مؤمنا .. ثم يهلك مع الكافرين ..

وثمة درس هام تنطوى عليه الآيات الكريمـة التى تحـكى قصـة نوح وابنه ..

أراد الله سبحانه وتعالى أن يقول لنبيه الكريم ان ابنه ليس من أهله .

لأنه لم يؤمن بالله .. وليس الدم هو الصلة الحقيقية بين الناس ..

ابن النبى هو ابنه فى العقيدة .. هو من يتبع الله والنبى .. وليس ابنه من يكفر به ولو كان من صلبه ..

هنا ينبغى أن يتبرأ المؤمن من غير المؤمن ..

وهنا أيضا ينبغى أن تتصل بين المؤمنين صلات العقيدة فحسب ..

لا اعتبارات الدم أو الجنس أو اللون أو الأرض ..

واستغفر نوح ربه وتاب اليه .. ورحمه الله وأمره أن يهبط من السـفينة محاطا ببركة الله ورعايته ..

« قال : رب ، انى أعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » [٢] .
قيـل : يا نوح ، اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »[٣] .

. . . .

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود مكية ..
(٢)من الآية ٤٥ من سورة هود مكية ..
(٣) من الآية ٤٨ من سورة هود مكية .

وهبط نوح من سفينته ..

أطلق سراح الطيور والوحوش فتفرقت فى الأرض

نزل المؤمنون بعد ذلك ..

وضع نوح جبهته على الأرض وسجد .

لم تزل الأرض مبللة من أثر الطوفان .

نهض نوح بعد صلاته وحفر الأساس لبناء معبد عظيم لله ..

أشعل الناجون النار وجلسوا حولها .. كان اشعال النار ممنوعا فى السفينة ، حتى لا تمتد النار الى اخشابها فتحترق ..

ولم يكن أحدهم قد أكل طعاما ساخنا طوال مدة الطوفان .

ومر يوم صـــيام الشكر لله ..

....

ويسدل القرآن الكريم الستار على قصة نوح بعد الطوفان

لا ندرى ماذا كان من أمره مع قومه .

كل ما ندريه ، أو نستطيع ان نؤكده ، أن نوحـــا أوصى ابنـــاءه وهو يموت أن يعبدوا الله وحده ..

ومضى نوح إلى الرفيق الأعلى ..

قصة هود

[عليه الصلاة والسلام]

مضى قوم نوح فى التاريخ ..

الأكثرون المكذبون انطبقت عليهم صفحات الطوفان .. استبعدوا من الحياة ، ومن رحمة الله ، ومن حساب الناس واهتمامهم على السواء

والناجون — وهم اقلية — استخلفوا فى الأرض ، تحقيقا لسنة الله ووعده .. « **والعاقبة للمتقين** » [1] .

ولقد كان وعد الله لنوح :

« **يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب أليم** » [2] .

....

دارت عجلة الزمن .. وجاء وعد الله ..

بعد الطوفان لم يكن على الأرض من البشر غير المؤمنين .. لم يكن هناك قلب واحد كافر فى الأرض .. وبدأ الشيطان يشكو من البطالة

ومرت سنوات وسنوات .. مات الآباء والأبناء ، وجاء أبناء الأبناء .. نسى الناس وصية نوح ، وعادت عبادة الأصنام .. انحرف الناس عن عبادة الله وحده ، وتم الامر بنفس الخدعة القديمة .. قال أحفاد قوم نوح : لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان .. وصنعوا للناجين تماثيل ليذكروهم بها ، وتطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل ، فاذا الأمر ينقلب الى العبادة ، واذا بالتماثيل تتحول بفضل الشيطان الى آلهة مع الله..وعادت الأرض تشكو من الظلام مرة ثانية .. وارسل الله « **سيدنا هودا** » الى قومه ..

يرتفع الستار عن قصته بعد بعثته بالرسالة الى الناس .

كان ((**هود**)) من قبيلة اسمها ((**عاد**)) وكانت هذه القبيلة تسكن مكانا يسمى الأحقاف .. وهو صحراء تمتلىء بجبال الرمل المائلة .. وتطل على البحر .. أما مساكنهم فكانت خياما كبيرة لها أعمدة شديدة الضخامة والارتفاع ، وكان قوم عاد أعظم أهل زمانهم فى قوة الأجسام ، والطول ،

---

(1) من الآية ٨٣ من سورة القصص مكية

(2) الآية ٤٨ من سورة هود مكية .

والشدة .. كانوا عمالقة واقوياء ، الى الدرجة التى قالوا فيها ، كما حكى الله عنهم :

((وقالوا : من أشد منا قوة)) [١] .

لم يكن فى زمانهم احد فى قوتهم .. ورغم ضخامة اجسامهم ، كانت لهم عقول مظلمة .. كانوا يعبدون الأصنام ، ويدافعون عنها ، ويحاربون من اجلها ، ويتهمون نبيهم ويسخرون منه .. وكان المفروض ، ما داموا قد اعترفوا انهم اشد الناس قوة .. أن يروا أن الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة .. غير انهم كانوا لا يبصرون غير كبريائهم الكافرة .

قال لهم هود :

((يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره)) [٢] .

نفس الكلمة التى يقولها كل رسول .. لا تتغير ولا تنقص ولا تتردد ولا تخاف ولا تتراجع .. كلمة واحدة هى الشجاعة كلها ، وهى الحق وحده .. وسأله قومه : هل تريد أن تكون سيدا علينا بدعوتك .. وأى أجر تريده ؟

افهمهم هود ان أجره على الله ، انه لا يريد منهم شيئا غير ان يغسلوا عقولهم فى نور الحقيقة .. حدثهم عن نعمة الله عليهم ، كيف جعلهم خلفاء من بعد نوح ، كيف أعطاهم بسطة فى الجسم ، وشدة فى البأس .. كيف اسكنهم الأرض التى تمنح الخير والزرع .. كيف أرسل عليهم المطر الذى يحيى به الأرض.. وتلفت قوم هود حولهم فوجدوا أنهم اقوى من على الأرض، واصابتهم الكبرياء وزادوا فى العناد .

قالوا لهود : كيف تتهم آلهتنا التى وجدنا آباءنا يعبدونها ؟

قال هود : كان آباؤكم مخطئين .

قال قوم هود : هل تقول يا هود أننا بعد أن نموت ونصبح ترابا يتطاير فى الهواء .. سنعود الى الحياة ؟

قال هود : ستعودون يوم القيامة ، ويسأل الله كل واحد فيكم عما فعل.

انفجرت الضحكات بعد هذه الجملة الأخيرة ..

ما أغرب ادعاء هود .. هكذا تهامس الكافرون من قومه .. ان الانسان يموت ، فاذا مات تحلل جسده ، فاذا تحلل جسده تحول الى تراب ، ثم يهب الهواء ويتطاير التراب .. كيف يعود هذا كله الى اصله ...

ثم ما معنى وجود يوم للقيامة ... ؟

لماذا يقوم الأموات من موتهم ... ؟

استقبل هود كل هذه الأسئلة بصبر كريم .. ثم بدأ يحدث قومه عن يوم القيامة .. أفهمهم أن ايمان الناس بالآخرة ضرورة تتصل بعدل الله ،

---

(١) من الآية ١٥ من سورة فصلت مكية ..
(٢) من الآية ٥٠ من سورة هود مكية .

مثلما هي ضرورة تتصل بحيـــاة الناس .. قال لهم ما يقوله كل نبى عن يوم القيـــامة ..

ان حكمة الخالق المدبر لا تكتمل بمجرد بدء الخلق ، ثم انتهاء حيـــاة المخلوقين فى هذه الأرض .. لا يسدل الستار بعدها .. هذا هو الفصل الأول من الامتحان ..

والامتحـــان لا ينتهى بتســـليم أوراق الاجـــابة .. لابد من تصحيح هذه الأوراق ، واعطاء درجات ، وبيان الناجحين والراسبين .. وليست تصرفات الناس فى الدنيا واحدة ، هناك من يظلم ، وهنـــاك من يقتل ، وهنـــاك من يعتدى .. وكثيرا ما نرى الظالمين يذهبون بغير عقاب ، كثيرا ما نرى المعتدين يتمتعون فى الحياة بالاحترام والسلطة .. أين تذهب شكاة المظلومين ، وأين يذهب ألم المضطهدين .. هل يدفن معهم فى التراب بعد الموت ؟ .

ان العدالة تقتضى وجود يوم للقيامة

ان الخير لا ينتصر دائما فى الحياة .. أحيانا ينظم الشر جيوشـــه ويقتل حملة الخير ..

هل تذهب هذه الجريمة بغير عقاب ؟

ان ظلما عظيما يتاكد لو افترضنا ان يوم القيامة لن يجىء .. ولقد حـــرم الله تعالى الظلم على نفسه وجعله محرما بين عباده .. ومن تمام عـــدل الله وجود يوم للقيامة والحساب والجزاء ..

ذلك أن يوم القيامة .. هو اليوم الذى تعاد فيه جميع القضايا مرة أخرى أمام الخالق ، ويعاد نظرها مرة ثانية .. ويحكم فيها رب العالمين سبحانه ..

هذه هى الضرورة الأولى ليوم القيامة ، وهى تتصل بعدل الله ذاته ..

وثمة ضرورة أخرى ليوم القيامة ، وهى تتصل بسلوك الانسان نفسه.. ان الاعتقاد بيوم الدين ، والايمان ببعث الأجساد ، والوقوف للحســاب ، ثم تلقى الثواب والعقاب ، ودخول الجنة أو النار ، هذا شىء من شانه ان يعلق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ، فلاتستبد بهم ضرورات الأرض ، ولا يستعبدهم الطمع ، وتتملكهم الأنانية ، ولا يقلقهم أنهم لم يحققوا جزاء سعيهم فى عمرهم القصير المحدود ، وبذلك يسمو الانسان على الطين الذى خلق منه الى الروح الذى نفخه ربه فيه ..

ولعل مفرق الطريق بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها .. والتعلق بقيم الله العليا ، والانطلاق اللائق بالانسان .. يكمن فى الايمـــان بيوم القيامة ..

حدثهم هود بهذا كله فاستمعوا اليه وكذبوه ..

حكى الله تعالى موقف القوم من يوم القيامة فى سورة (المؤمنون) :

« وقال الملأ من قومه ، الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هـــذا الا بشر مثلـــكم ، ياكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون.

أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » [١] ..

هكذا كذب قوم هود نبيهم ..

قالوا له : هيهات هيهات .. واستغربوا أن يبعث الله من فى القبور ، استغربوا أن يعيد الله خلق الانسان بعد تحوله الى التراب ، رغم انه خلقه من قبل من التراب .. وطبقا للمقاييس البشرية ، كان ينبغى أن يحس المكذبون للبعث أن اعادة خلق الانسان من التراب والعظام أسهل من خلقه الأول .. لقد بدأ الله الخلق فأى صعوبة فى اعادته .. ان الصعوبة ـ طبقا للمقياس البشرى ـ تكمن فى الخلق .. وليس المقياس البشرى غير مقياس بشرى ينطبق على الناس ، أما الله ، فليست هناك أمور صعبة أو سهلة بالنسبة اليه سبحانه ، تجرى الأمور بالنسبة اليه سبحانه بمجرد الأمر ..

« بديع السماوات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما يقول له : كن فيكون » [٢] ..

....

نريد أن نلتفت لقوله تعالى :

« وقال الملأ من قومه ... » [٣] ..

الملأ هم الرؤساء .. يسمون الملأ لأنهم مليئون بما يقولون .. ولهممصلحة فى استمرار الأوضاع الفاسدة .. سنرى هؤلاء الملأ فى كل قصص الأنبياء .. سنرى رؤساء القوم وأغنياءهم ومترفيهم يقفون ضد الأنبياء .. يصفهم الله تعالى بقوله :

« وأترفناهم فى الحياة الدنيا »[٤] .

من مواقع الثراء والغنى والترف ، يولد الحرص على استمرار المصالح الخاصة .. ومن مواقع الثراء والغنى والترف والرياسة ، يولد الكبرياء .. ويلتفت الرؤساء فى القوم الى أنفسهم ويتساءلون :

ـ أليس هذا النبى بشرا مثلنا ، يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ؟ .. بل لعله بفقره يأكل أقل مما نأكل ، ويشرب فى أكواب صدئة ، ونحن نشرب فى أكواب من الذهب والفضة .. كيف يدعى انه على الحق ونحن على الباطل ؟ .. هذا بشر .. كيف نطيع بشرا مثلنا ؟

ثم .. لماذا اختار الله بشرا من بيننا ليوحى اليه ؟

قال رؤساء قوم هود : أليس غريبا أن يختار الله من بيننا بشرا ويوحى اليه ...

---

(١) الآيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة المؤمنون مكية .
(٢) الآية ١١٧ من سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآية ٣٣ من سورة المؤمنون مكية .
(٤) من الآية ٣٣ المؤمنون مكية .

تساءل هو : ما هو الغريب فى ذلك ؟ .. ان الله يحبكم ولهذا أرسلنى اليكم لأحذركم .. أن سفينة نوح ، وقصة نوح ليست بعيدة عنكم ، لا تنسوا ما حدث ، لقد هلك الذين كفروا بالله ، وسيهلك الذين يكفرون بالله دائما ، مهما يكونوا اقوياء ..

قال رؤساء قوم هود : من الذى سيهلكنا يا هود ؟

قال هود : الله ..

قال الكافرون من قوم هود : ستنجينا آلهتنا .

وأفهمهم هود أن هذه الآلهة التى يعبدونها لتقربهم من الله ، هى نفسها التى تبعدهم عن الله ، أفهمهم ان الله هو وحده الذى ينجى الناس ، وأن أى قوة أخرى فى الأرض لا تستطيع ان تضر أو تنفع .

واستمر الصراع بين هود وقومه .

وكلما استمر الصراع ومرت الأيام ، زاد قوم هود استكبارا وعنادا وطغيانا وتكذيبا لنبيهم .. وبداوا يتهمون « **هودا** » ، عليه السلام ، بأنه سفيه مجنون ، قالوا له يوما :

ـ لقد فهمنا الآن السر فى جنونك .. انك تسب آلهتنا وقد غضبت آلهتنا عليك ، وبسبب غضبها صرت مجنونا ..

حكى الله ما قالوه فى سورة هود :

« قالوا : يا هود ، ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . ان نقول : الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء »[١]

الى هذا الحد بلغ الانحراف فى نفوسهم ، الى حد ان يتصوروا أن هودا يهذى ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد غضب عليه ، فمسه بسوء .

لم يتوقف هود عند هذيانهم ، ولم يغضبه أن يظنوا به الجنون والهذيان ، ولكنه توقف عند قولهم :

« وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك . ومانحن لك بمؤمنين »[٢] .

بعد هذا التحدى . لم يبق لهود الا التحدى .

لم يبق له الا التوجه الى الله وحده .

لم يبق أمامه الا انذار أخير ينطوى على وعيد للمكذبين وتهديد .

وتحدث هود ..

« قال : انى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . انى توكلت على الله ربى

---

(١) من الآيتين ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود مكية .
(٢) من الآية ٥٣ من سورة هود مكية .

وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربى على صراط مستقيم . فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، ان ربى على كل شىء حفيظ)) [١] .

ان الانسان ليشعر بالدهشة لهذه الجراة فى الحق .

رجل واحد يواجه قوما غلاظا شدادا وحمقى .. يتصورون أن أصنام الحجارة تستطيع الايذاء .

انسان بمفرده يقف ضد جبارين فيسفه عقيدتهم ، ويتبرأ منهم ومن آلهتهم ، ويتحداهم أن يكيدوا له بغير ابطاء أو امهال ، فهو على استعداد لتلقى كيدهم ، وهو على استعداد لحربهم ، فقد توكل على الله . والله هو القوى بحق . وهو الآخذ بناصية كل دابة فى الأرض . سواء الدواب من الناس أو دواب الوحوش أو الحيوان . لا شىء يعجز الله .

بهذا الايمان بالله . والثقة بوعده . والاطمئنان الى نصره .. يخاطب هود الذين كفروا من قومه .. وهو يفعل ذلك رغم وحدته وضعفه ، لأنه يقف مع الأمن الحقيقى ويبلغ عن الله .

وهو فى حديثه يفهم قومه أنه أدى الأمانة . وبلغ الرسالة . فان كفروا فسوف يستخلف الله قوما غيرهم ، سوف يستبدل بهم قوما آخرين . وهذا معناه أن عليهم أن ينتظروا العذاب .

وهكذا أعلن هود لهم براءته منهم ومن آلهتهم .. وتوكل على الله الذى خلقه ، وأدرك أن العذاب واقع بمن كفر من قومه . هذا قانون من قوانين الحياة . يعذب الله الذين كفروا ، مهما يكونوا أقوياء أو أغنياء أو جبابرة أو عمالقة .

انتظر هود وانتظر قومه وعد الله .

وبدأ الجفاف فى الأرض .. لم تعد السماء تمطر .. كانت الشمس تلهب رمال الصحراء وتبدو مثل قرص من النار يستقر على رؤوس الناس ، وهرع قوم هود اليه .. ما هذا الجفاف يا هود ؟ . قال هود : ان الله غاضب عليكم ، ولو آمنتم فسوف يرضى الله عنكم ويرسل المطر فيزيدكم قوة الى قوتكم . وسخر قوم هود منه وزادوا فى العناد والسخرية والكفر . وزاد الجفاف ، واصفرت الأشجار الخضراء ، ومات الزرع . وجاء يوم فاذا سحاب عظيم يملأ السماء .. وفرح قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون : هذا عارض ممطرنا .

تغير الجو فجأة ..

من الجفاف الشديد والحر الى البرد الشديد القارس .. بدأت الرياح تهب .. ارتعش كل شىء ، ارتعشت الأشجار والنباتات والرجال والنساء

---

(١) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ سورة هود مكية .

والخيام .. ارتعش الجلد واللحم والعظام والنخاع .. واستمرت الرياح .. ليلة بعد ليلة ويوما بعد يوم .. كل ســاعة كانت برودتها تزداد ..

وبدأ قوم هود يفرون ، أسرعوا الى الخيام واختبأوا داخلها ، اشــتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام ، واختبأوا تحت الأغطية ، فاشــتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية . كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحــات الجسم وتدمره .

لا تكاد الريح تمس شيئا الا قتلته ودمرته وامتصــت قلبه ، وجعلته كالرميم .

استمرت الرياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيـــا مثلها قط .. ثم توقفت الريح باذن ربها ..

قال تعالى فى سورة الأحقاف :

« فلما راوه عارضا مستقبل أوديتهم ، قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربهـــا » [١] .

وقال تعـــالى فى سورة الحاقة :

« سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » [٢] .

لم يعــد باقيا من قوم هود الا ما يبقى من النخـــل الميت .. مجـــرد غلاف خارجى لا تكاد تضـــع يدك عليه حتى يتطاير ذرات فى الهواء ..

نجا هود ومن آمن معه ..وهلك الجبـــابرة .. ونزل الستار على قوم هود .

---

(١) الآيتان ٢٤ و ٢٥ من سورة الاحقاف مكية .
(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة مكية .

قصة صالح

[عليه الصلاة والسلام]

انحدرت سنوات وسنوات .. ولد رجال ومات رجال ..

وجاء بعد قوم عاد قوم ثمود ، وتكررت قصة العذاب بشكل مختلف مع ثمود ..

كانت ثمود قبيلة تعبد الأصنام هى الأخرى ، فأرسل الله « سيدنا صالحا » اليهم .. وقال صالح لقومه :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »[1] .

نفس الكلمة التى يقولها كل نبى .. لا تتبدل ولا تتغير ، كما أن الحق لا يتبدل ولا يتغير .. فوجىء الكبار من قوم صالح بما يقوله .. انه يتهم آلهتهم بأنها بلا قيمة ، وهو ينهاهم عن عبادتها ويأمرهم بعبادة الله وحده . وأحدثت دعوته هزة كبيرة فى المجتمع .. وكان صالح معروفا بالحكمة والنقاء والخير ، كان قومه يحترمونه قبل أن يوحى الله اليه ويرسله بالدعوة اليهم .

وقال قوم صالح له :

« يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب »[2] .

تأمل وجهة نظر الكافرين من قوم صالح ..

انهم يدلفون اليه من باب شخصى بحت .. لقد كان لنا رجاء فيك .. كنت مرجوا فينا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك . ثم خاب رجاؤنا فيك .. اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا .

يا للكارثة .. كل شىء يا صالح الا هذا . ما كنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التى وجدنا آباءنا عاكفين عليها .. وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه .

ويستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح الى عبادة الله وحده ..

لماذا ؟

---

(1) من الآية ٦١ من سورة هود مكية ..
(2) الآية ٦٢ من سورة هود مكية ..

لا حجة لديهم ولا برهـــان ولا تفكير .. ولكن لأن آباءهم كانوا يعبدون هـــذه الآلهة .

هكذا تفعل العادة فى الانسان فعلها القـــوى ، وهكذا يفعل التقليـــد فى الانســـان فعله العتى . وهكذا يجىء النبى فيفجر هـــذا التقليد الأبله ويحطم العـــادات المهلكة .

وهكذا تعلن عقيدة التوحيد عن نفسها كدعوة للتحرر الفكرى قبـــل كل شىء ، دعوة الى اطـــلاق العقل البشرى من حبـــال التقـــاليد ، وخرافات السـابقين ، وأوهام العادات المستقرة .

هذه هى دعوة التوحيد فى صميمها .. اعـــلان بميلاد الحرية العقلية وكل أنواع الحريات الأخرى .

وهى دعوة لا يقف ضـــدها غير من تحجر عقله على أفكار الســـابقين وعادات الموتى وأوهام الآباء والجدود .

ورغم نصاعة دعوة صالح عليه الصلاة والسلام .. فقد بدا واضحا أن قومه لا يصدقونه .. كانوا يشكون فى دعوته ، واعتقدوا انه مسحور ، وطالبوه بمعجزة تثبت انه رسول من الله اليهم .. وشاءت ارادة الله أن تستجيب لطلبهم .. وكان قوم ثمود ينحتون من الجبـــال بيوتا عظيمة .. كانوا يستخدمون الصخر فى البناء ، وكانوا أقوياء قد فتح الله عليهم رزقهم من كل شىء .. جاءوا بعد قوم عاد فسكنوا الأرض واستعمروها ..

قال صـــالح لقومه حين طالبوه بمعجزة ليصدقوه :

« يا قوم ، هـــذه ناقة الله لـــكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » [١] .

والآية هى المعجزة ، ويقـــال ان الناقة كانت معجزة لأن صـــخرة فى الجبل انشقت يوما وخرجت منها الناقة وخرج وراءها وليدها الصغير .. ولدت من غير الطريق المعروف للولادة ، ويقال انها كانت معجزة لأنها كانت تشرب المياه الموجودة فى الآبار فى يوم فلا تقترب بقية الحيوانات من المياه فى هذا اليوم ، وقيـــل انها كانت معجزة لأنها كانت تدر لبنا يكفى لشرب الناس جميعا فى اليوم الذى تشرب فيه الماء فلا يبقى منه شىء للناس .

كانت هـــذه الناقة معجزة ، وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله :

« ناقة الله .. » [٢] .

أضافها لنفسه سبحانه بمعنى أنها ليست ناقة عادية وانما هى معجـــزة من الله .

وأصدر الله أمره الى صـــالح أن يأمر قومه بعـــدم المســـاس بالناقة أو ايذائها أو قتلها ، أمرهم أن يتركوها تأكل فى أرض الله ، والا يمسوها

---

(١) من الآية ٦٤ من سورة هود مكية ..
(٢) من الآية ٦٤ من سورة هود مكية .

بسوء ، وحذرهم انهم اذا مدوا أيديهم بالأذى للنـــاقة فسوف يأخـــذهم عـــذاب قريب .

فى البداية تعاظمت دهشـــة ثمود حين ولدت النـــاقة من صـــخور الجبـــل ..

كانت ناقـــة مبـــاركة .. كان لبنها يـــكفى آلاف الرجـــال والنســـاء والاطفال .. وكانت اذا نامت فى موضع هجرته كل الحيوانات الاخـــرى . كان واضحا انها ليست مجرد ناقة عادية .. وانما هى آية من الله . وعاشت الناقة بين قوم صالح ، آمن منهم من آمن وبقى أغلبهم على العناد والكفر .. وتحولت الكراهية عن سيدنا صالح الى الناقة المباركة .. تركزت عليهـــا الكراهية ، وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضـــد الناقة .. كره الكافرون هذه الآية العظيمة ، ودبروا فى أنفسهم أمرا ..

كان طبيعيا ــ كما رأينا من قبل ــ أن يجيء التدبير من رؤســـاء قومه .. مرة اخرى نلتقى بالملأ الذين استكبروا من قومه .

قال تعالى فى سورة (الأعراف) :

« والى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربـــكم ، هـــذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمســـوها بسوء فيأخـــذكم عذاب أليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا : انا بما أرســـل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : انا بالذى آمنتم به كافرون » [1] .

ان صالحا عليه الصـــلاة والســـلام يحـــدث قومه برفق وحب ، وهو يدعوهم الى عبادة الله وحده ، وينبههم الى أن الله قد أخرج لهم معجزة هى الناقة ، دليلا على صدقه وبينة على دعوته ، وهو يرجو منهم أن يتركوا الناقة تأكل فى أرض الله ، وكل الأرض أرض الله ، وهو يحـــذرهم أن يمســـوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم ، وهو يلفتهم الى انعام الله عليهم . كيف جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ، كيف انعم عليهم بالقصور والجبال المنحوتة والنعيم والرزق والقوة .

يفعل صـــالح هذا كله .. فاذا قومه يجيبونه أغرب اجابة .

انهم يتجاوزون كلمات نبيهم ويتركونه .

يتجهون الى الذين آمنوا بصـــالح . يســـألونهم ســـؤال اســـتخفاف وزراية :

ــ اتعلمون أن صـــالحا مرسل من ربه ؟

---

(1) الآيات ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .. مكية

سؤال لا محل له بعد معجزة الناقة .. كل ما فى الأمر أنهم يستخفون ويسخرون . قالت الفئة الضعيفة التى آمنت بصالح : انا بما أرسل به مؤمنون .

لاحظ جواب المؤمنين الموضوعى .

ان سؤال السادة المترفين يصطدم بهذا الجواب الموضوعى .. ان السادة يشكون فى ان صالحا مرسل من ربه .. لكن المؤمنين يردونهم الى الحق الذى جاء به صالح ..

وهذا الحق الذى جاء به صالح لا علاقة له بالناقة . انما له علاقة بدعوته ورسالته نفسها .. انا بما أرسل به مؤمنون . لم يقولوا لهم انا بناقته مؤمنون ، لم يقولوا لهم أن الناقة تثبت نبوته ، تجاوز المؤمنون هذه المعجزة الخارقة الى حقيقة رسالة صالح .

عند هذا الحد من الحوار .. نرى الذين كفروا وقد أخذتهم العزة بالاثم .. وللاثم عزة عند الكافرين والمستكبرين :

« **قال الذين استكبروا : انا بالذى آمنتم به كافرون** »[١] .

هكذا باحتقار واستعلاء وغضب .

عبثا تفتش عن أى دليل موضوعى فى حوار الكافرين .. انهم يرفضون الايمان فحسب .. وهم أحرار تماما فى ذلك .

....

سقط الليل على مدينة ثمود .

انتصبت الجبال شامخة تحتضن البيوت المنحوتة فيها . وبدا واضحا للكافرين أن أحدا لا يمكن أن ينالهم بسوء .

أضيئت المشاعل داخل قصر منحوت فى الجبل .. وأديرت كؤوس الشراب على الجالسين فى شبه دائرة ..

لم يكن هناك أحد من رؤساء القوم قد تغيب عن الجلسة الخطيرة .

انعقدت الجلسة ودار الحوار .

قال أحد الكافرين :

« **ابشرا منا واحدا نتبعه ، انا اذا لفى ضلال وسعر** »[٢] .

وقال كافر آخر :

« **االقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب اشر** »[٣] .

وعادت كؤوس الشراب تدور .. وانتقل الحوار من صالح الى ناقة الله .

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الأعراف مكية ..
(٢) الآية ٢٤ من سورة القمر مكية ..
(٣) الآية ٢٥ من سورة القمر مكية ..

قال أحد الكافرين : اذا جـاء الصيف جاءت الناقة الى ظل الوادى البارد فتهرب منه المواشى الى الحر .

وقال كافر آخر : واذا جاء الشتاء بحثت الناقة عن أدفأ مكان واستراحت فيه فتهرب مواشينا الى البرد وتتعرض للمرض .

وعادت كؤوس الشراب تدور وهى تهتز فى أيدى الشـاربين .. وأمر أحد الجالسين أن تكف المغنية عن الغناء لأنه يفكر .. وانطبق الصمت .. وراح هو يفكر .. رأس من رؤوس الكفر منكس على صدره وهو يفكر بعمق . استعان المفكر بكأسين من شراب قوى مسكر وهمس :

ــ ليس هنـاك غير حل واحد .

تسـاءل الجالسون عن الحل . قال كبيرهم :

ــ ينبغى ازاحة صـالح من طريقنا .. أقصـد ناقته .. نقتل الناقة وبعدها نقتله هو ..

تلك منذ اقدم العصور الى اليوم أساليب الأنظمة الكافرة .. وهـذا سلاحهم منذ أقدم أيام الخليقة .. لا يعمدون الى العقل أو الفكر أو الجدل والبرهان .. انما تمتد الأيدى الى السـلاح وتقتل .

هـذا أسلم الحلول عندهم وذلك تصورهم . ان القتل يطوى المشـكلة كلها ، ويدفنها فى التراب .

انبعثت الهمسات حول صـالح وناقته . قال أحـدهم وكان فى عقله بقية لم يطمسها الشراب .. حـذرنا صـالح من المسـاس بالنـاقة ، وهددنا بالعذاب القريب .

أخمد الجالسون هذا الصوت العاقل بكأسين من الخمر ، وتصـاعدت كلمات الحوار تتحـدث عن صـالح .

ــ كم نتشـاءم منه ونتطير .

□ هو وناقته .

ــ ومن معه .

□ أفضـل الحلول قتله .

ــ نبدأ بقتل الناقة ، ثم نثنى اليه .

□ من الذى يقتله .

استلقى السؤال بينهم جسـدا بغير رأس . قال أحـدهم بعد لحظة صـمت .

ــ أعرف واحـدا يستطيع قتله .

تناقلوا الاسم بينهم فى سرور واضح . ذلك جبار من جبـابرة المدينة . رجل يعيث فسـادا فى الأرض ولا يكف عن الشراب ، والويل لمن يعترضه

وهو مخمور .. تساءلوا من يساعده على القتل ، فقيل أن له زملاء فى المدينة .

«**وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون**»[١] ..

هؤلاء هم اداة الجريمة .. مجرمو المدينة المشهورون ..

اتفق على موعد الجريمة ومكان التنفيذ .. وازداد الظلام الساقط على الجبال ظلمة ..

وجاءت ليلة المأســاة .

....

الناقة المباركة تنام وهى تضم لصـــدرها طفلها الصغير .. كان الطفل يحس البرد ويستدفىء بأمه ..

انتهى المجرمون التسعة من اعداد أسلحتهم وسيوفهم وسهامهم ، وخرجوا فى جوف الظلام كما تخرج الخيانة ، شرب زعيمهم كثيرا من الخمر حتى لم يعد يرى ما أمامه .. « **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** »[٢] .

انظر الى استخدام لفظ « تعاطى » وكيف ذهب عقله مما تعـــاطاه ...

هجم الرجال التسعة على الناقة فنهضت الناقة ونهض طفلها مفزوعا . امتدت الايدى الآثمة القاتلة الى الناقة .

وسالت دماء الناقة .

قتل طفلها أيضا ..

علم النبى صالح بما حدث فخرج غاضبا على قومه .. قال لهم : الم احذركم من أن تمسوا الناقة . قالوا : قتلناها فأتنا بالعذاب واستعجله لنـــا لو سمحت .. الم تقل أنك من المرسلين ..

قال صالح لقومه :

((**تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب**))[٣] .

بعدها غادر صالح قومه . تركهم ومضى . انتهى الامر ووعده الله بهلاكهم بعد ثلاثة أيام .

كانت الناقة وهى تموت قد تنهدت ثلاث مرات .

ومرت ثلاثة ايام على الكافرين من قوم صالح وهم يهزأون من العذاب وينتظرون ، وفى فجر اليوم الرابع :

انشقت السماء عن صيحة جبارة واحدة ... انقضت الصـــيحة على

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٢٩ من سورة القمر مكية ..
(٣) من الآية ٦٥ من سورة هود مكية ..

الجبال فهلك فيها كل شيء حى .. وارتجفت الأرض رجفة جبـــارة فهلك فوقها كل شيء حى ..

هى صرخة واحدة .. لم يكد أولها يبـــدأ وآخرها يجيء حتى كان كفار قوم صالح قد صعقوا جميعا صعقة واحدة ..

قال تعالى فى سورة القمر :

((انا مرسلوا الناقة فتنة لهم ، فارتقبهم واصطبر . ونبئهم ان المـــاء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر . انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر))[١] .

هلكوا جميعا قبل ان يدركوا ما حدث ..

أما الذين آمنوا بسيدنا صـــالح .. فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجـــوا .

---

(١) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة القمر مكية .

قصة ابراهيم الخليل

[عليه الصلاة والسلام]

استوحش من الاكوان كلها ووصل الى مقـــام الانس بالله وحده .. ولذلك انفرد ابراهيم عليه الصلاة والسلام بمكانة خاصة بين أنبياء الله

هو أحد أولى العزم الخمسة الكبار الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا . وهم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. بترتيب بعثهم .

وهو النبى الذى ابتلاه الله ببلاء مبين .. بلاء فوق قدرة البشر وطاقة الاعصاب .. ورغم حدة الشدة وغنت البلاء .. كان ابراهيم هو العبد الذى وفى .. وزاد على الوفاء بالاحسان .

قال تعالى فى سورة النجم : « **وابراهيم الذى وفى** »[١] .

وقد كرم الله تبارك وتعالى ابراهيم تكريما خاصا .. فجعل ملته هى التوحيد الخالص النقى من الشوائب . وجعل العقل فى جانب الذين يتبعون دينـــــه .

قال تعالى فى سورة البقرة : « **ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصـــــالحين** »[٢] .

واثنى الله سبحانة على ابراهيم فقال فى سورة النحل :

« **ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** »[٣] .

وكان من فضل الله على ابراهيم ان جعله الله اماما للناس ، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب . فاذا كل الانبياء بعد ابراهيم هم أولاده وأحفاده ، وتحقق وعد الله له فلم يبعث بعده نبى الا جاء من نسله .

.. حتى اذا جاء آخرالانبياء محمد صلى الله عليه وســــــلم .. جاء تحقيقا واستجابة لدعوة ابراهيم التى دعا الله فيها .. أن يبعث فى الاميين رسولا منهم .

ولو مضينا نبحث فى فضل ابراهيم وتكريم الله له فســـــوف نمتلىء بالدهشــــــة .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة النجم مكية ..
(٢) الآية ١٣٠ من سورة البقرة مدنية ..
(٣) الآية ١٢٠ من سورة النحل مكية ..

نحن امام بشر جاء ربه بقلب سليم . انسان لم يكد الله يقول له أسلم حتى قال اسلمت لرب العالمين . نبى هو أول من سمانا المسلمين . نبى أثمرت دعوته المستجابة عن بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

نبى كان جدا وأبا لكل انبياء الله الذين جاءوا بعده ..

نبى هادىء متسامح حليم أواه منيب .

قال تعالى فى سورة هود : « **ان ابراهيم لحليم أواه منيب** » [١]

وقال فى سورة الصافات : ((**سلام على ابراهيم**)) [٢] .

هكذا تحدث الجلال الخالق عن عبده ابراهيم .

هذا الذى سبق كله فى كفة ..

وهذا الذى قاله الحق عنه كفة ترجح ..

لم يرد فى كتاب الله ذكر لنبى .. اتخذه الله خليلا .. غير ابراهيم .

هو وحده الذى اختصه الله عز وجل بقوله فى سورة النساء .

((**واتخذ الله ابراهيم خليلا**)) [٣] .

قال العلماء : الخلة هى شدة المحبة . وبذلك تعنى الآية .. واتخذ الله ابراهيم حبيبا .

يرتد نظر العقل وهو يحاول استشراف هذه القمة ..

مجرد تصعيد النظر نحو هذه القمة الشامخة يثير الدوار .

فوق هذه القمة الشامخة يجلس ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

كيف ؟

بم استحق ما استحق ؟

أى قلب كان قلبه ..

بأى رحمة خلق .. من اى نبل صيغ .. وأى حب كان يسع ؟ .

ان منتهى امل السالكين ، وغاية هدف المحققين والصوفية .. ان يحبوا الله عز وجل .

اما ان يحلم احدهم ان يحبه الله . ان يفرده بالحب . أن يختصه بالخلة وهى شدة المحبة ..

ذلك شىء وراء آفاق التصور .

---

(١) الآية ٧٥ .. مكية .. (٢) الآية ١٠٩ مكية ..
(٣) من الآية ١٣٥ من سورة النساء ..

كان ابراهيم هو هذا العبد الربانى الذى استحق أن يتخـــذه الله خليلا ..

تلك درجة من درجات الانبياء لا نعرف مقدارها .. ولا نعرف كيف نصفها ، ونعتقد أن أى كلمات بشرية تقال عنها ، تكون سجنا يظلمها ويسىء اليها .. نحن امام فيض الهي من نور السماوات والارض .

نعرف ان محار البحار الذى يصنع اللؤلؤ ، يصنعه حين يقتحم جسم غريب عالم اللؤلؤ الداخلى ، كأن الجراح تلد اللآلىء .

نحسب بيقين .. ان المحار الذى يصنع اللؤلؤ كان يقلد قلب ابراهيم فيما يفعل ، نحن أمام قلب القى فى هذا العالم .. كلما اصابه منه جرح صنع لؤلؤة ..

ومن المدهش أن هذا القلب أدرك رشده من طفولته .

لا يتحدث القرآن عن ميلاده أو طفولتـــه ، ولا يتوقف عنـــد عصره صراحة ، ولكنه يرسم صورة لجو الحياة فى أيامه ، فتدب الحياة فى عصره ونرى الناس قد انقسموا ثلاث فئات :

فئة تعبد الاصنام والتماثيل الخشبية والحجرية .

وفئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

وفئة تعبد الملوك والحكام .

اطفئت انوار العقل فى مشارق الارض ومغاربها .. وجلس الظلام على عروشه المتعددة . واشتد ظمأ الأرض الى الرحمة .. واشتد جوعها الى الحق .

وفى هذا الجو ولد ابراهيم .

ولد فى أسرة من أسر ذلك الزمان البعيد .

لم يكن رب الاسرة كافرا عاديا من عبدة الاصنام .. كان كافرا ممتازا يصنع بيديه تماثيل الآلهة ..

قيل ان أباه مات قبل ولادته فرباه عمـــه ، وكان له بمثابة الاب ، وكان ابراهيم يدعوه بلفظ الابوة ، وقيل ان أباه لم يمت وكان آزر هو والده حقا .

وقيل ان آزر اسم صنم اشتهر ابوه بصناعته .. ومهما يكن من أمر فقد ولد ابراهيم فى هذه الاسرة .

رب الاسرة أعظم نحات يصنع تماثيل الآلهة . فنان تجمد على نحت تماثيل الآلهة وتكرار نفسه . ومهنة الأب تضفى عليه قداسة خاصـــة فى قومه . وتجعل لأسرته كلها مكانا ممتازا فى المجتمع .

هى أسرة مرموقة من الاسر الارستقراطية بتعبير زماننا ..

أسرة من الصفوة الحاكمة .

من هذه الأسرة المقدسة .. ولد طفل قدر له أن يقف ضد أسرته وضد نظام مجتمعه وضد اوهام قومه وضد ظنون الكهنة وضد العروش القائمة وضد عبدة النجوم والكواكب وضد كل أنواع الشرك باختصار .

وكان طبيعيا أن يكون جزاؤه الالقاء فى النار حيا .

لا نريد ان نسبق الاحداث .

لنبدأ معه منذ طفولته .

كان عقله مضيئا من طفولته .

اضاء الله قلبه وعقله وآتاه رشده وآتاه الحكمة من طفولته .

ادرك ابراهيم وهو طفل أن اباه يصنع تماثيل غريبة .

وسأله يوما عما يصنع ، فأخبره أنها تماثيل الآلهة ، ودهش ابراهيم واحس داخل عقله بالرفض .. كان يلعب وهو طفل بهذه التماثيل ويمتطى ظهورها مثلما يمتطى الناس ظهور الحمير والبغال .. وشاهده ابوه يوما يركب ظهر تمثال مردوخ ، وغضب الاب وامر ابنه الا يلعب بهذا التمثال مرة ثانيـــة .

سأل ابراهيم :

ــ اى تمثال هذا يا ابى .. ان اذنيه كبيرتان .. اكبر من آذاننا .

قال ابوه :

ــ انه مردوخ رب الارباب ياولدى ، وهاتان الاذنان الكبيرتان ترمزان الى فهمه العميق .

ضحك ابراهيم بينه وبين نفسه .. كان عمره ٧ سنين .

يحدثنا القديس برنابا على لسان عيسى كيف سخر ابراهيم من ابيه وهو طفل .. يقول ان ابراهيم سأل والده يوما : من صنع الانسان يا ابى ؟

قال الاب : الانسان ، لانى انا صنعتك وابى صنعنى

اجاب ابراهيم : ليس الامر كذلك يا ابى .. لانى سمعت شيخا ينتحب ويقول : يا الهى .. لـــماذا لم تعطنى أولادا .

قال الاب : حقا يا بنى .. الله يساعد الانسان ليصنع انسانا ، ولكنه لا يضع يده فيه فلا يلزم الانسان الا ان يتقدم ويضرع الى الهه ويقدم له حملانا وغنما فيساعده الهه .

قال ابراهيم : كم الها هناك يا ابى ؟

اجاب الشيخ : لا عدد لهم يابنى .

قال ابراهيم : ماذا افعل يا ابى اذا خدمت الها واراد بى الآخر شرا لانى لا اخدمه ، ماذا لو وقع شقاق وخصام بين الآلهة ، ماذا لو قتـــل الاله الذى يريد بى شرا الهى .. ماذا افعـــل .. من المؤكد انه يقتلنى انا ايضـــــــا .

أجاب الشيخ ضحكا : لا تخف يابنى لأنه لا يخاصم اله الها آخر .. فى الهيكل الكبير الوف من الالهة مع الاله الـــكبير بعل ، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم أر الها قط ضرب الها آخر .

قال ابراهيم : اذن يوجد وفاق بينهم .

أجاب ابوه : نعم يوجد .

قال ابراهيم : من أى شىء تصنع الآلهة ؟

قال الشيخ : هذا من خشب النخل ، وذاك من الزيتون ، وذلك التمثال الصغير من العاج .. انظر ما أجمله .. حقا لا ينقصه الا التنفس .

قال ابراهيم : اذا لم يكن للالهة نفس فكيف يهبون الأنفاس .. ولمـــا لم تكن لهم حياة فكيف يعطون الحياة ، من المؤكد يا أبى ان هؤلاء ليســـوا هم الله .

حنق الشيخ لهذا الكلام وقال ثائرا : لو كنت بالغا من العمر ما تتمكن معه من الادراك لشججت رأسك بهذه الفأس .

قال ابراهيم : يا أبى .. ان كانت الالهة تساعد على صنع الانسان فكيف يتأتى للانسان ان يصنع الهة .. اذا كانت الالهة مصنوعة من الخشب فان احراق الخشب خطيئة كبرى ، ولكن قل لى ياأبت .. كيف وأنت تساعد الالهة وتصنع منها اعدادا هائلة .. كيف لم تساعدك الالهة لتصنع أولادا كثيرين فتصير أقوى رجل فى العالم .

انتهى الحوار بينهما بأن مد الأب يده وضرب ابراهيم ..

ومرت الايام .. وكبر ابراهيم .. كان قلبه يمتلىء من طفولته بكراهية صادقة لهذه التماثيل التى يصنعها والده . لم يكن يفهم كيف يمكن لانسان عاقل أن يصنع بيديه تمثالا ، ثم يسجد بعد ذلك لما صنع بيديه . لاحظ ابراهيم ان هذه التماثيل لا تشرب ولا تأكل ولا تتكلم ولا تستطيع ان تعتدل لو قلبها أحد على جنبها .. كيف يتصور الناس ان هذه التماثيل تضر وتنفع .

عذبت هذه الفكرة ابراهيم طويلا ..

أيمكن أن يكون كل قومه على خطأ ، وهو وحده على الحق .

أليس هذا شيئا مدهشـــا .

....

كان لقوم ابراهيم معبد كبير يمتلىء بالتماثيل ..

وكان فى وسط المعبد محراب توضع فيه تماثيل أكبر الآلهة .. وكانت الآلهة أنواعا وأصنافا واشكالا .. وكان ابراهيم يزور المعبد مع والده وهو طفل ، كان يحس باحتقار عظيم لكل هذه الاخشاب والحجارة ، الامر المدهش هو الناس .. قومه .. كانوا اذا دخلوا المعبد خفضوا رؤوسهم

وحنوا ظهورهم . وبداوا يبكون ويتوسلون ويسألونها أشياء كأنها تسمع أو تفهم .

فى البداية كان هذا المنظر يبدو مضحكا لابراهيم ، ثم بدأ ابراهيم يحس الغضب .. أليس شيئا عجيبا أن يكون كل هؤلاء الناس مخدوعين . وزادت المشكلة . ان والد ابراهيم كان يريد ان يكون ابراهيم كاهنا حين يكبر .. ولم يكن والد ابراهيم يريد من ابنه شيئا أكثر من ان يحترم هذه التماثيل ، غير ان ابراهيم كان لا ينقطع عن التصريح باحتقاره وكراهيته لها .

وذات يوم دخل ابراهيم المعبد مع أبيه .

وبدأت الاحتفالات بالتماثيل .. ووسط الاحتفال راح كبير الكهنة يوجه الحديث الى تمثال كبير الآلهة .. وكان الكاهن يتحدث بصوت عميق مؤثر ويسأل التمثال ان يرحم قومه ويرزقهم .

وخرج صوت ابراهيم فى سكون المعبد وهو يخاطب كبير الكهنة :

ـ انه لا يسمعك يا سيدى الكاهن .. الا تلاحظ انه لا يسمع ؟

والتفت الناس لهذا الصبى فوجدوه ابراهيم .. شعر كبير الكهنة بالاحراج والغضب ، واعتذر الاب مدعيا ان ابنه مريض ولا يعرف ما يقول .. وخرج الاثنان من المعبد ، صحب الوالد ابراهيم الى فراشه وأرقده فيه .. وتركه ومضى .

....

اطمأن ابراهيم الى نوم الناس جميعا فنهض من فراشه .. لم يكن مريضا .. كان يحس انه مقبل على اكتشاف عظيم .. يستحيل ان يكون الله هو هذه اللعب الخشبية أو التماثيل الحجرية التى يصنعها قومه .

خرج ابراهيم من بيته الى الجبل .. سار وحده فى الظلام .. اختار كهفا فى الجبل وأسند ظهره لحجارته وجلس .

نظر الى السماء ..

سئم النظر الى الأرض التى تموج بجاهلية تنكفىء على الاصنام .. لم يكد ينظر فى السماء حتى تذكر انه ينظر لكواكب ونجوم تعبد فى الارض . وامتلأ قلب الفتى الصغير بحزن رحيم كبير .

نظر الى ما وراء القمر والنجوم والكواكب وادهشه ان يعبدها الناس وهى مخلوقة تعبد خالقها ، وتظهر بأذنه وتأفل باذنه .

وأدار ابراهيم بينه وبين نفسه حوارا داخليا ، لم يلبث أن مده الى حوار مع قومه الذين يعبدون هذه الكواكب .

حكى الله تعالى هذه المواقف بقوله تعالى فى سورة الانعام :

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض

وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هــذا ربى))[1] .

لا يحدثنا القرآن عن الجو الذى أعلن فيه ابراهيم ذلك . غير اننا نحس من سـياق الآيات أن هـذا الاعـلان كان بين قومه ، ويبدو أن قـومه اطمأنوا له ، وحسبوا أنه يرفض عبادة التماثيل ويهوى عبادة الكواكب.. وكانت الملاحة حرة بـين الوثنيات الثـلاث : عبـادة التماثيل والنجوم والمـلوك ..

غير أن ابراهيم كان يدخر لقومه مفاجأة مذهلة فى الصـباح .. لقـد أفل الكوكب الذى التحق بديانته بالأمس . وابراهيم لا يحب الآفلين .

قال تعـالى :

((فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى)) [2] .

عاد ابراهيم فى الليلة الثـانية يعلن لقومه ان القمر ربه . لم يـكن قومه على درجـة كافية من الذكاء ليدركوا أنه يسـخر منهم برفق ولطفه وحب .

كيف يعبدون ربا يختفى ثم يظهر .. يأفل ثم يشرق .. بانتظـام يشى بعبوديته لله .

لم يفهم قومه هـذا فى المرة الأولى فكرره مع القمر .. لـكن القمر كالزهرة كأى كوكب آخر .. يظهر ويختفى ..

قال تعـالى :

((فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين))[3] .

سنلاحظ هنا أنه يحدث قومه عن رفضـه لألوهية القمر .. انه يمزق العقيدة القمرية بهدوء ولطف . كيف يعبد الناس ربا يختفى ويأفل . لئن لم يهـدنى ربى .. يفهمهم أن له ربا غير كل ما يعبـدون ..

غير أن اللفتة لا تصل اليهم .. ويعاود ابراهيم محـاولته فى اقـامة الحجة على الفئة الأولى من قومه .. عبدة الكواكب والنجوم .

قال تعـالى :

((فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا اكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما انا من المشركين [4] .

---

(1) من الآيات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ مكية ..
(2) من الآية ٧٦ من سورة الانعام ..
(3) من الآية ٧٧ من سورة الانعام مكية ..
(4) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة الانعام مكية ..

كان تفنيده للعقيدة الشمسية هو ختام جولته مع عبدة الكواكب والنجوم . أعلن أن الشمس ربه لأنها أكبر .

سخرية مرت على آذان قومه فلم تلتقطها القلوب الموصدة .

لم يفهم عبدة الشمس أنهم يعبدون مخلوقا .. لا يغنى فيه أنه كبير .. الله أكبر .

بعد أن أعلن ابراهيم أن الشمس ربه . انتظر حتى جاء المغيب ، وغربت الشمس . أفلت هى الاخرى مثل كل المعبودات التى تأفل .

بعدها أعلن براءته من عبادة النجوم والكواكب .. انهى جولته الأولى بتوجيهه وجهه للذى فطر السماوات والأرض حنيفا .. ليس مشركا مثلهم ..

استطاعت حجة ابراهيم أن تظهر الحق .. وبدأ صراع قومه معه .. لم يسكت عنه عبدة النجوم والكواكب .. بدأوا جدالهم وتخويفهم له وتهديده .

ورد ابراهيم عليهم قال :

« أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون »[1] .

لا نعرف رهبة الهجوم عليه . ولا حدة الصراع ضده . ولا أسلوب قومه الذى اتبعوه معه لتخويفه .

تجاوز القرآن هذا كله الى رده هو .. كان جدالهم باطلا فأسقطه القرآن من القصة ، وذكر رد ابراهيم المنطقى العاقل . كيف يخوفونه ولا يخافون هم .. أى الفريقين أحق بالأمن .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» [2] .

يسدل الستار هنا على المشهد الأول ، ليرتفع بعد ذلك على مشهد آخر مع الفئة التى تخصصت فى عبادة الأصنام . فرغ من عبدة الكواكب والنجوم والتفت لعبدة الأصنام . آتاه الله الحجة فى المرة الأولى كما سيؤتيه الحجة فى كل مرة :

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم »[3] .

---

(1) الآيتان ٨٠ ، ٨١ من سورة الانعام مكية .
(2) الآية ٨٢ من سورة الانعام مكية .
(3) الآية ٨٣ من سورة الانعام مكية ..

سبحانه ..

كان يؤيد ابراهيم ويريه ملكوت السموات والأرض .

لم يكن معه غير اسلامه حين بدأ صراعه مع عبدة الأصنام .. هذه المرة يأخذ الصراع شكلا أعظم حدة . أبوه فى الموضوع .. هذه مهنة الأب وسر مكانته وموضع تصديق القوم .. وهى العبادة التى تتبعها الأغلبية ..

خرج ابراهيم على قومه بدعوته . قال بحسم غاضب وغيرة على الحق :

« ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ » .

« قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » .

« قال : لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين . »

« قالوا : أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين ؟ » .

« قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين » [١] .

انتهى الأمر وبدأ الصراع بين ابراهيم وقومه .. كان أشدهم ذهولا وغضبا هو أبوه أو عمه الذى رباه كأب ..

.. واشتبك الأب والابن فى الصراع .. فصلت بينهما المبادىء فاختلفا .. الابن يقف مع الله ، والأب يقف مع الباطل .

قال الأب لابنه : مصيبتى فيك كبيرة يا ابراهيم .. لقد خذلتنى وأسأت الى .

قال ابراهيم :

« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ . يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى اهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، ان الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا »[٢] .

انتفض الأب واقفا وهو يرتعش من الغضب .

قال لابراهيم وهو ثائر :

« أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا » [٣] .

---

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة الانبياء مكية .
(٢) الآيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٤ من سورة مريم مكية .
(٣) الآية ٤٦ من سورة مريم مكية .

اذا لم تتوقف عن دعـــوتك هـــذه فســـوف أرجمك ، ســـأقتلك ضربا بالحجارة .. هذا جزاء من يقف ضد الآلهة .. اخرج من بيتى .. لا أريد أن أراك .. أخرج.

....

انتهى الأمر وأسفر الصراع عن طرد ابراهيم من بيته .. كمـــا اســـفر عن تهديده بالقتل رميا بالحجارة . رغم ذلك تصرف ابراهيم كابن بار ونبى كريم . خاطب والده بأدب الأنبياء . قال لأبيه ردا على الاهـــانات والتجريح والطرد والتهديد بالقتـــل .

« سلام عليك .. سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربى ، عسى أن لا اكون بدعاء ربى شقيا » [١] .

وخرج ابراهيم من بيت ابيه .. هجر قومه وما يعبدون من دون الله .. وقرر فى نفســـه أمرا .. كان يعرف أن هناك احتفالا عظيما يقام على الضفة الأخرى من النهر ، وينصرف الناس جميعا اليه .. وانتظر حتى جاء الاحتفال وخلت المدينة التى يعيش فيهـــا الناس .

....

وخرج ابراهيم حذرا وهو يقصـــد بخطاه المعبد .

كانت الشوارع المؤدية الى المعبـــد خـــالية . وكان المعبـــد نفســـه مهجورا .. انتقل كل النـــاس الى الاحتفال .. دخل ابراهيم المعبد ومعه فأس حـــادة .

نظر الى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر والخشب .. نظر الى الطعام الذى وضعه الناس أمامها كنذور وهدايا .

اقترب ابراهيم من تمثال لأحد الآلهة وساله :

ــ لقد برد الطعام امامك .. لماذا لا تأكل ؟ .

وظل التمثال صـــامتا جـــامدا .

وسأل ابراهيم عددا من التماثيل حوله :

« الا تأكلون ؟ » [٢] .

كان يسخر منهم ويعرف أنهم لا يأكلون .. وعاد يســـأل التمـــاثيل :

« مالكم لا تنطقون ؟ » [٣] .

ورفع يده بالفأس وبدأ يحطم الآلهة الكاذبة التى يعبدها النـــاس .. حطم الأصنام جميعا ، وترك تمثالا واحدا علق فى رقبته الفأس .. وانصرف الى الجبال بعد أن بر بقسمه ، وكان قد أقســـم أن يطلع قومه بالدليـــل

(١) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة مريم مكية .
(٢) الآية ٩١ من سورة الصافات مكية .
(٣) الآية ٩٢ من سورة الصافات مكية ..

العملى على غبائهم فى عبادة غير الله . وانتهى الاحتفال فى الضفة الأخرى وعاد الناس .. لم يكد أول واحد يدخل المعبد حتى صرخ .. وتجمع الناس على صرخته فاكتشفوا أن الآلهة جميعها قد تحطمت ما عدا واحدا . وبدأوا يفكرون فيمن يكون عســـاه مرتكب هذه الفعلة .

وقفزت الى عقولهم صورة ابراهيم وهو يحدثهم ويدعوهم الى الله ..

« قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم .. »[1] .

ــ أحضروا ابراهيم على الفور وحققوا معه .

هكذا قال الحــاكم .

وجاء ابراهيم .. وسألوه :

« أأنت فعلت هــذا بآلهتنا يا ابراهيم .. »[2] .

ابتسم ابراهيم وقال وهو يشير الى كبير الآلهة الذى علق الفأس فى رقبتــه :

«بل فعله كبيرهم هــذا .. فاســألوهم ان كانوا ينطقون »[3] .

قال الكهنة : نســأل من ؟

قال ابراهيم : اسألوا آلهتكم .

قال المحقق : أنت تعرف أن الآلهة لا تنطق .

قال ابراهيم : كيف تعبدون شيئا لا ينطق .. ولا ينفع .. ولا يضر ؟ .. الا تفكرون قليلا ؟ .. أين ذهبت عقولكم ؟ لقد حطمت آلهتكم وكبير الآلهة واقف ينظر .. لم يستطع هؤلاء الآلهة أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى فكيف يحضرون لكم الخير .. الا تفكرون قليلا ؟ .. لقد علقت الفأس فى عنق كبير الآلهة فلم يقل لماذا فعلت ما فعلت .

انه لا ينطق ولا يسمع ولا يرى ولا يتحرك ولا يضر ولا ينفع .

انه لا شىء .. مجرد حجر .

كيف يعبد الناس حجرا ؟ ..

أين ذهبت عقولكم ؟ ..

....

أجمل الله تعــالى فى سورة الأنبياء هذه المشاهد . قال تعالى :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه : ما هــذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجــدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضــلال مبين .

---

(1) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء مكية .. (٢) الآية ٦٢ من سورة الأنبياء مكية .
(٣) الآية ٦٣ من سورة الأنبياء مكية ..

قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ . قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا : فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ؟ . فرجعوا الى انفسهم فقالوا : انكم انتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، افلا تعقلون ؟ .

قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين)) [1] .

الزمهم الحجة واسكتهم بالبرهان وناقشهم بمنطق الفكر .. فقرروا اعدامه حرقا فى النار .

ثار المحققون وهاج اتباعهم وانعقدت محاكمة مضحكة اتهمته تهما عقوبتها الحرق .

لم تعد المسألة مسألة صراع بين أفكار .. أو مبادىء .. أو قيم ..

لقد أحالهم ابراهيم — بسخرية توقظ القلب — الى كبير الآلهة واتهمه بانه هو الذى حطم الآلهة . وطالبهم أن يسألوا الآلهة عمن حطمها .. ولكن الآلهة لا تنطق .. كيف يعبد الناس ما لا ينطق ولا يعى .. حين تهاوت الحجة نهضت الكبرياء . وحين أسقط دليلهم ميتا نهض العناد .. وتقرر اعدامه حرقا .

القى القبض عليه ، وبدأ اعداد المحرقة . كانت حيثيات الحكم الباطل تتلخص فى جملة موجزة تقول : حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين .

....

وفعلوا ..

بدأ الاستعداد لاحراق ابراهيم .. انتشر النبأ فى المملكة كلها .

وجاء الناس من القرى والجبال والمدن ليشهدوا عقاب الذى تجرأ على الآلهة وحطمها واعترف بذلك وسخر من الكهنة .

وحفروا حفرة عظيمة ملأوها بالحطب والخشب والأشجار .. واشعلوا فيها النار .. واحضروا المنجنيق وهو آلة جبارة ليقذفوا ابراهيم منها فيسقط فى حفرة النار .. ووضعوا ابراهيم بعد أن قيدوا يديه وقدميه فى المنجنيق . واشتعلت النار فى الحفرة وتصاعد اللهب الى السماء .. وكان

---

(١) الآيات من ٥١ الى ٦٨ من سورة الانبياء مكية ..

الناس يقفون بعيـــدا عن الحفرة من فرط الحرارة اللاهبة .. وأصـــدر كبير الكهنة أمره باطلاق ابراهيم فى النار .

جاء جبريل عليه الســـلام ووقف عند رأس ابراهيم وسأله :

ـــ يا ابراهيم .. الك حاجة .

قال ابراهيم : أما اليك فلا .

انطلق المنجنيق ملقيا ابراهيم فى حفرة النار .

هبط ابراهيم فى النار مثلما يهبط بقـــدمه درجة سلم فى حـــديقة ندية .

كانت النـــار موجودة فى مكانهـــا .. ولكنهـــا لم تـــكن تمارس وظيفتها فى الاحراق .

أصدر الله جل جلاله الى النـــار أمرا .

قال تعـــالى :

« **قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم** » [١] .

أطاعت النار فكانت بردا وسلاما على ابراهيم . أحرقت قيوده فقط . وجلس ابراهيم وسطها كأنه يجلس وســـط حديقة . كان يسبح بحمد ربه ويمجـــده . لم يكن قلبه يسع غير حب الله .

لم يكن فى قلبه مكان خـــال يمكن أن يمتلىء بالخوف او الرهبـــة أو الجزع . كان القلب مليئا بالحب وحـــده .

ومات الخوف .. وقضت الرهبة .. واستحالت النار الى ســـلام بارد يلطف عنه حرارة الجو . ان الذين يحبون الله مثله لا يخـــافون .. لا توجد الكلمة فى قواميسهم أبدا .

....

جلس الدهماء والـــكبار والكهنة يرقبون النـــار من بعـــد .. كانت حرارتها تدفع فى وجوههم صـــهدا حارقا وتكاد تزهق أرواحهم .. وظلت النار تشتعل فترة طويلة حتى ظن الكافرون أنها لن تنطفىء أبدا .. فلمـــا انطفأت فوجئوا بابراهيم يخرج من الحفرة ســـليما كمـــا دخل . وجوههم مسودة من دخان الحريق ، ووجهه يتلألأ بالنور والجلال . ثيابهم احترق نصفها بسبب ما تســـاقط عليها من الأخشـــاب الملتهبة .. وثيابه كما هى لم تحترق .. عليهم أثر الدخان والحريق ، وليس عليه أى أثر للدخان أو الحـــريق .

خرج ابراهيم من النار كمـــا لو كان يخرج من حـــديقة .

وتصـــاعدت صيحات الدهشة الكافرة .

خسروا جولتهم خســـارة مريرة وساخرة .

« **وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** » [٢] .

---

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنبياء مكية .
(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنبياء مكية .

لا يحدثنا القرآن الكريم عن عمر ابراهيم حين حطم أصنام قومه ، لا يحدثنا عن السن التى كلف فيها بالدعوة الى الله ..

ويبدو من استقراء النصوص القديمة أن ابراهيم كان شابا صغيرا حين فعل ذلك ، بدليل قول قومه عنه :

« سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » [١] .

والفتى تطلق على السن الذى يسبق العشرين .. ويحدثنا القديس برنابا فى انجيله أن ابراهيم حطم الاصنام قبل أن يكلفه الله تعالى بالدعوة .

يقول برنابا فى الفصل التاسع والعشرين أن ابراهيم سمع صوتا يناديه ..

سأل ابراهيم : من ينادينى ؟

حينئذ سمع قائلا يقول : « أنا ملاك الله جبريل »

فارتاع ابراهيم ولكن الملاك سكن روعه قائلا :

لا تخف يا ابراهيم لانك خليل الله ، فانك لما حطمت آلهة الناس تحطيما اصطفاك اله الملائكة والأنبياء حتى انك كتبت فى سفر الحياة .

وتمضى كلمات برنابا فيقول : ان ابراهيم تساءل ماذا يفعل ليعبد اله الملائكة والأنبياء .. وأجابه جبريل أن يذهب لهذا الينبوع ويغتسل ويصعد الجبل ليكلمه الله تعالى .

وارتقى ابراهيم الجبل وجثا على ركبتيه وناداه الله تعالى ..

أجاب ابراهيم : من ينادينى .

قال الله تعالى : أنا الهك يا ابراهيم ..

وارتاع ابراهيم وسجد على الأرض معفرا وجهه وهو يقول :

ـ كيف يصغى عبدك اليك يارب وهو تراب ورماد ..

هنالك يأمره الله تعالى أن ينهض لأنه اصطفاه عبدا له ، وباركه هو ومن يتبعه ..

....

هذه الرواية تحدد زمن اصطفاء ابراهيم وتكليفه بالنبوة بعد تحطيمه لعبادة الأصنام والكواكب ..

ولعل هذه اللحظات المضيئة التى تجلى فيها الحق تبارك وتعالى على عبده ابراهيم هى التى تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة :

« اذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين » [٢] .

....

(١) من الآية ٦٠ سورة الأنبياء مكية .
(٢) الآية ١٣١ مدنية .

وعلى أى حال ..

فان زمن اصطفاء الله تعالى لابراهيم غير محدد فى القرآن .. وبالتالى فنحن لا نستطيع أن نقطع فيه بجواب نهائى ..

كل ما نستطيع أن نقطع فيه برأى ، أن ابراهيم اقام الحجة على عبدة التماثيل بشكل قاطع ، كما أقامها على عبدة النجوم والكواكب من قبل بشكل حاسم ، ولم يبق الا أن تقام الحجة على الملوك المتألهين وعبادهم .

وبذلك تقوم الحجة على جميع الكافرين .

....

وهكذا يرفع الستار على هذا المشهد .

ابراهيم فى حوار مع ملك يعتقد انه اله .

نقول يعتقد والله أعلم بما فى نفسه .. ربما كان قومه يعبدونه ، وهو يوافقهم على عبادته استخفافا بعقولهم ، واحتقارا لهم ، وحفاظا على مصالحه .. وربما كان حقا قد تصور انه اله لأن الله آتاه الملك .

نسى أنه مجرد بشر ، وطمس السلطان على قلبه فلم يعد يبصر بشريته .. لا يهم أى نوع منهما كان الملك الذى اشتبك ابراهيم معه فى حوار .. ولا ندرى هل كان ملكا على قوم ابراهيم وسمع بخبر معجزته فاستدعاه ليجادله .. أم كان ملكا آخر .. كل ما ندريه أن اللقاء بينهما أسفر عن سقوط آخر حجج القلاع الكافرة .

قال الله تعالى فى سورة البقرة :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ؟ اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين »[١] .

تجاوز الله تعالى اسم الملك لانعدام أهميته ، كما تجاوز حقيقة مشاعره ، كما تجاوز الحوار الطويل الذى دار بين ابراهيم وبينه ..

ربما قال الملك لابراهيم : سمعت انك تدعو لاله جديد ..

قال ابراهيم : أهناك اله جديد واله قديم ؟ . ليس هناك غير اله واحد أيها الملك هو الله ..

قال الملك : ما الذى يستطيع ربك أن يفعله ولا أفعله انا .

كان الملك مصابا بكبرياء الملك ومرض الغرور ، وكان استسلام الناس له يزيد من احساسه بالكبرياء والغرور .. استمع ابراهيم الى الملك وادرك كل شىء ..وقال ابراهيم بهدوء :

« ربى الذى يحيى ويميت .. » [٢] .

---

(١) الآية ٢٥٨ مدنية . (٢) من الآية نفسها .

قال الملك :

« **أنا أحيى وأميت ..** »[١] .

لم يتساءل ابراهيم كيف يحيى الملك ويميت .. كان يعرف انه كاذب .. عاد الملك يقول :

ــ أستطيع أن احضر رجلا يسير فى الشارع واقتله ، وأستطيع أن أعفو عن محكوم عليه بالاعدام وانجيه من الموت .. وبذلك أكون قادرا على الحياة والموت ..

ابتسم ابراهيم لسذاجة ما يقوله الملك .. وأحس الحزن في نفسه .. غير انه أراد أن يثبت للملك أنه يتوهم فى نفسه القدرة وهو فى الحقيقة ليس قادرا ..

قال ابراهيم :

« **فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** »[٢].

استمع الملك الى تحدى ابراهيم صامتا .. فلما انتهى كلام النبى بهت الملك .. احس بالعجز ولم يستطع أن يجيب .. لقد اثبت له ابراهيم انه كاذب .. قال له أن الله يأتى بالشمس من المشرق .. فهل يستطيع هو أن يأتى بها من المغرب .. ان للكون نظما وقوانين يمشى طبقا لها .. قوانين خلقها الله ولا يستطيع اى مخلوق أن يتحكم فيها .. ولو كان الملك صادقا فى ادعائه الألوهية فليغير نظام الكون وقوانينه ..

ساعتها أحس الملك بالعجز .. وأخرسه التحدى .. ولم يعرف ماذا يقول ، ولا كيف يتصرف .. انصرف ابراهيم من قصر الملك ، بعد أن بهت الذى كفر ..

....

انطلقت شهرة ابراهيم فى المملكة كلها .. تحدث الناس عن معجزته ونجاته من النار ، وتحدث الناس عن موقفه مع الملك وكيف اخرس الملك فلم يعرف ماذا يقول .. واستمر ابراهيم فى دعوته لله تعالى .. بذل جهده ليهدى قومه ، حاول اقناعهم بكل الوسائل ، ررغم حبه لهم وحرصه عليهم فقد غضب قومه وهجروه ، ولم يؤمن معه من قومه سوى امرأة واحدة ورجل واحد .. امرأة تسمى سارة .. وقد صارت فيما بعد زوجته ، ورجل هو لوط ، وقد صار نبيا فيما بعد . وحين أدرك ابراهيم ان أحدا لن يؤمن بدعوته .. قرر الهجرة .

قبل أن يهاجر دعا والده للايمان ، ثم تبين لابراهيم ان والده عدو لله ، وأنه لا ينوى الايمان ، فتبرأ منه وقطع علاقته به .

للمرة الثانية فى قصص الأنبياء نصادف هذه المفاجاة ..

---

(١) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة مدنية .
(٢) من الآية ٢٥٨ سورة البقرة مدنية .

فى قصة **نوح** كان الأب نبيا والابن كافرا ، وفى قصة **ابراهيم** كان الأب كافرا والابن نبيا ، وفى القصتين نرى المؤمن يعلن براءته من عدو الله رغم كونه ابنه أو والده ، وكان الله يفهمنا من خلال القصة أن العلاقة الوحيدة التى ينبغى أن تقوم عليها الروابط بين الناس .. هى علاقة الايمان لا علاقة الميلاد أو الدم .

قال تعالى فى سورة التوبة :

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، أن ابراهيم لأواه حليم » [١] .

خرج ابراهيم عليه السلام من بلده وبدأ هجرته .

سافر الى مدينة تدعى أور .. ومدينة تسمى حاران .. ثم رحل الى فلسطين ومعه زوجته .. المرأة الوحيدة التى آمنت به .. وصحب معه لوطا .. الرجل الوحيد الذى آمن به .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

« فآمن له لوط ، وقال : انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم » [٢] .

....

بعد فلسطين ذهب ابراهيم الى مصر .. وطوال هذا الوقت وخلال هذه الرحلات كلها ، كان يدعو الناس الى عبادة الله ، ويحارب فى سبيله ، ويخدم الضعفاء والفقراء ، ويعدل بين الناس ، ويهديهم الى الحقيقة والحق .

وكانت زوجته « سارة » لا تلد .. وكان ملك مصر قد أعطاها سيدة مصرية لتكون فى خدمتها ، وكان ابراهيم قد صار عجوزا ، وابيض شعره خلال عمر ابيض انفقه فى الدعوة الى الله ، وفكرت سارة أنها وابراهيم وحيدان ، وهى لا تنجب أولادا ، ماذا لو قدمت السيدة المصرية لتكون زوجة لزوجها ، وكان اسم المصرية « هاجر » وهكذا زوجت سارة سيدنا ابراهيم من هاجر ، وولدت هاجر ابنها الأول فأطلق والده عليه اسم « **اسماعيل** » .

كان ابراهيم عجوزا حين ولدت له هاجر أول ابنائه اسماعيل .

....

عاش ابراهيم فى الأرض قلبا يعبد الله ويسبح بحمده ويقدس له .

ولسنا نعرف أبعاد المسافات التى قطعها ابراهيم فى رحلته الى الله . كان دائما .. هو المسافر الى الله ..

سواء استقر به المقام فى بيته أو حملته خطواته سائحا فى الأرض .

---

(١) الآية ١١٤ مدنية .
(٢) الآية ٢٦ مكية .

مسافر الى الله يعلم أنها أيام على الأرض وبعدها يجيء الموت ثم ينفخ فى الصور وتقوم قيامة الأموات ويقع البعث .

ملأ اليوم الآخر قلب ابراهيم بالسلام والحب واليقين . وأراد أن يرى يوما يد الجلال الخالق وهى تعمل .. أراد أن يرى يوم القيامة قبل وقوعه .. حكى الله هذا الموقف فى سورة البقرة .. قال تعالى :

((واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى)) [١] .

لا تكون هذه الرغبة فى طمأنينة القلب مع الايمان الا درجة من درجات الحب لله ..

((قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، وأعلم ان الله عزيز حكيم))[٢] .

فعل ابراهيم ما امره به الله .

ذبح أربعة من الطير وفرق أجزاءها على الجبال .. ودعاها باسم الله فنهض الريش يلحق بجناحه ، وبحثت الصدور عن رؤوسها ، وتطايرت أجزاء الطير مندفعة نحو الالتحام ، والتقت الضلوع بالقلوب لقاء العشاق ، وسارعت الاجزاء الذبيحة للالتئام ، ودبت الحياة فى الطير ، وجاءت طائرة مسرعة ترمى بنفسها فى أحضان ابراهيم .

اعتقد بعض المفسرين أن هذه التجربة كانت حب استطلاع من ابراهيم .. واعتقد بعضهم أنه أراد أن يرى يد الجلال الخالق وهى تعمل ، فلم ير الأسلوب وان رأى النتيجة . واعتقد بعض المفسرين انه اكتفى بما قاله له الله ولم يذبح الطير .

ونعتقد أن هذه التجربة كانت درجة من درجات الحب قطعها المسافر الى الله ، ابراهيم .

يظل من يحب دائما فى موقع الرغبة والخشوع والاستزادة .

واذا كان من نحب — سبحانه — يتعالى عن ادراك الأبصار .. فلتكن الرحلة تأملا فى آثاره وقدرته ..

وكذلك كانت رحلة ابراهيم . وكذلك كان حبه .. يزيد عطشه كلما ارتوى ..

....

استيقظ ابراهيم يوما فأمر زوجته هاجر أن تحمل ابنها وتستعد لرحلة طويلة . وبعد أيام بدأت رحلة ابراهيم مع زوجته هاجر ومعها ابنهما اسماعيل .. وكان الطفل رضيعا لم يفطم بعد .

وظل ابراهيم يسير وسط ارض مزروعة تأتى بعدها صحراء

---

(١) من الآية ٢٦٠ مدنية .

(٢) من الآية ٢٦٠ مدنية .

تجيء بعدها جبـــال .. حتى دخـــل الى صـــحراء الجزيرة العربيـــة ، وقصد ابراهيم واديا ليس فيه زرع ولا ثمر ولا شجر ولا طعام ولا ميـــاه ولا شراب . كان الوادى يخلو تماما من علامات الحياة . وصل ابراهيم الى الوادى ، وهبط من فوق ظهر دابته .. وأنزل زوجته وابنه وتركهما هناك ، ترك معهما جرابا فيه بعض الطعـــام ، وقليـــلا من الماء لا يكفى يومين .. ثم اســـتدار وتركهما وســـار ..

أسرعت خلفه زوجته وهى تقول له :

— يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه شيء ؟ ..

لم يرد عليها سيدنا ابراهيم .. ظل يسير .. عادت تقول له ما قالته وهو صـــامت ، أخيرا فهمت انه لا يتصرف هـــكذا من نفســـه ، ادركت أن الله أمره بذلك وسألته : هل الله أمرك بهذا ؟

قال ابراهيم عليه السلام : نعم ..

قالت زوجته المؤمنة العظيمة : لن نضيع مادام الله معنـــا وهو الـــذى أمرك بهذا .

وسار ابراهيم حتى اذا أخفاه جبل عنهما وقف ورفع يـــديه الكريمتين الى السماء وراح يدعو الله :

« ربنـــا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عنـــد بيتك المحرم » [1] .

لم يكن بيت الله قد أعيد بناؤه بعد ، لم تكن الكعبة قد بنيت ، وكانت هنـــاك حكمة عليا فى هذه التصرفات الغامضة ، فقد كان اسماعيل الطفل الذى ترك مع أمه فى هذا المكان ، كان هذا الطفل هو الذى سيصير مسئولا مع والده عن بناء الكعبة فيما بعد .. وكانت حكمة الله تقضى أن يمتد العمران الى هذا الوادى ، وأن يقام فيه بيت الله الذى نتجه جميعا اليه أثناء الصلاة بوجوهنا .

ترك ابراهيم زوجته وابنه الرضيع فى الصحراء وعاد راجعا الى كفاحه فى دعوة الله .. أرضعت أم اسماعيل ابنهـــا واحست بالعطش .. كانت الشمس ملتهبة وساخنة وتثير الاحساس بالعطش .. بعد يومين انتهى الماء تماما ، وجف لبن الأم .. وأحست هاجر واسماعيل العطش .. كان الطعام قد انتهى هو الآخر .. وبدا الموقف صعبا وحرجا للغاية ..

بدأ اسماعيل يبكى من العطش .. وتركته أمه وانطلقت تبحث عن ماء .. راحت تمشى مسرعة حتى وصلت الى جبل اسمه « الصفا » .. فصعدت اليه ووضعت يديها فوق جبينها لتحمى عينيها من الشمس وضيقت عينيها وراحت تبحث بهما عن بئر أو انسان أو قافلة أو حس أو خبر ..

لم يكن هنـــاك شيء ..

ونزلت مسرعة من الصفا حتى اذا وصـــلت الى الوادى راحت تســـعى سعى الانسان المجهد حتى جاوزت الوادى ووصلت الى جبـــل « المروة » ، فصعدت عليه ونظرت لترى أحدا لكنها لم تر أحدا .

وعادت الأم الى طفلها فوجدته يبكى وقد اشتد عطشه .. واسرعت الى الصفا فوقفت عليه ، وهرولت الى المروة فنظرت من فوقه .. وراحت تذهب

---

(1) من الآية ٣٧ سورة ابراهيم مكية .

وتجيء سبع مرات بين الجبلين الصغيرين .. سبع مرات وهي تذهب وتعود .. ولهذا يذهب الحجاج سبع مرات ويعودون بين الصفا والمروة احياء لذكريات أمهم الأولى ونبيهم العظيم اسماعيل .

عادت هاجر بعد المرة السابعة وهي مجهدة متعبة تلهث .. وجلست بجوار ابنها الذي كان صوته قد بح من البكاء والعطش .

وفي هذه اللحظة اليائسة أدركتها رحمة الله ، وضرب اسماعيل بقدمه الأرض وهو يبكي فانفجرت تحت قدمه بئر زمزم ..

وفار الماء من البئر ..

أنقذت حياة الطفل والأم ..

راحت الأم تغرف الماء بيدها وهي تشكر الله .. وشربت وسقت طفلها وبدأت الحياة تدب في المنطقة ..

صدق ظنها حين قالت : لن نضيع مادام الله معنا .

وبدأت بعض القوافل تستقر في المنطقة .. وجذب الماء الذي انفجر من بئر زمزم .. عديدا من الناس .. وبدأ العمران يبسط اجنحته على المكان .

وكبر اسماعيل قليلا ..

وتعلق به قلب ابراهيم ..

جاءه العقب على كبر فأحبه ..

وابتلى الله تعالى ابراهيم بلاء مبينا بسبب هذا الحب .

حكى الله تبارك وتعالى موقف ابتلاء ابراهيم في سورة الصافات . قال عز وجل :

« وقال : اني ذاهب الى ربي سيهدين .رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي ، قال : يابني : اني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى،قال : ياأبت افعل ما تؤمر،ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ان يا ابراهيم : قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزي المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين » [1] .

أنظر كيف يختبر الله عباده .

تأمل أي نوع من أنواع الاختبار ..

نحن أمام نبي قلبه أرحم قلب في الأرض . اتسع قلبه لحب الله وحب

---

(١) الآيات من ٩٩ الى ١١١ مكية .

من خلق .. جاءه ابن على كبر .. وقد طعن هو فى السن ولا أمل هناك فى أن ينجب .. ثم ها هو ذا يستسلم للنوم فيرى فى المنام أنه يذبح ابنه وبكره ووحيده الذى ليس له غيره .

اى صراع نشب فى نفسه .

أى نوع من الصراع نشب فى نفســـه .

يخطىء من يظن أن صراعا لم ينشأ قط . لا يكون بلاء مبينا هــذا الموقف الذى يخلو من الصراع .. نشب الصراع فى نفس ابراهيم .. صراع أثارته عاطفة الأبوة الحانية .. فكر ابراهيم لماذا .. وجاءه الجواب انه هكذا أراه الله .. ورؤيا الأنبياء حق .. لقد رأى نفسه فى المنام يذبح ولده الوحيد .. هذا وحى من الله أن يذبح ولده الوحيد .

لمـــاذا .. ؟

ازاحها ابراهيم من تفكيره .. ليس ابراهيم هو الذى يسأل الله لمـــاذا أو لأى ســـبب ؟

لا يسأل المحب لماذا ..

وابراهيم ســـيد العاشقين ..

فكر ابراهيم فى ولده .. ماذا يقول عنه اذا أرقده على الأرض ليذبحه . الأفضل أن يقول لولده ليكون ذلك أطيب لقلبه وأهون عليـــه من أن يأخـــذه قهـــرا ويذبحـــه قهـــرا .

هذا افضل .. انتهى الأمر وذهب الى ولده .

« قال : يا بنى : انى أرى فى المنام انى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ »[١]

أنظر الى تلطفه فى ابلاغ ولده ، وترك الأمر لينظر فيـــه الابن بالطاعة .. ان الأمر مقضى فى نظر ابراهيم لأنه وحى من ربه .. فماذا يرى الابن الكريم فى ذلك . أجاب اسماعيل بن ابراهيم بنفس جواب ابراهيم .. هذا أمر يا أبى فبادر بتنفيذه ..

« يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » [٢] .

تأمل رد الابن .. انسان يعرف أنه سيذبح فيمتثـــل للأمر الآلهى ويقـــدم المشيئة ويطمئن والده أنه سيجده .. ان شـــاء الله .. من الصابرين .

هو الصبر على أى حال وعلى كل حال .

وربما استعذب الابن أن يموت ذبحا بأمـــر من الله .. ها هـــو ابراهيم يكتشف أن ابنه ينافسه فى حب الله .

لا نعرف أى مشاعر جاشت فى نفس ابراهيم بعد استسلام ابنه الصابر .

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكية .
(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكية ..

لا نعـــــرف ..

ينقلنا الحق نقلة خاطفة فاذا اسماعيل راقـــد على الأرض ، وجهـــه فى الأرض رحمة به كيلا يرى نفسه وهو يذبح .

واذا ابراهيم يرفع يده بالسكين .. واذا أمر الله مطاع ..

((**فلما أسلما ..**)) [1] .

استخدم القرآن هذا التعبير .

فلمــــا أســـلما .

هذا هو الاســـلام الحقيقى .

تعطى كل شىء فلا يتبقى لك منك شىء .

عندئذ فقط .. وفى اللحظة التى كان السكين فيها يتهيأ لامضاء أمره .. نـــادى الله ابراهيم .

انتهى اختباره ، وفدى الله اسماعيل بذبح عظيم ، وصار اليوم عيدا لقوم لم يولدوا بعـــد .. هم المسلمون ..

صارت هذه اللحظات عيدا للمسلمين ..

عيدا يذكرهم بمعنى الاسلام الحقيقى الذى كان عليه ابراهيم واسماعيل .

ومضت قصـــة ابراهيم .

ترك ولده اسماعيل وعاد يضرب فى أرض الله داعيا اليه ، خليلا له وحده.

ومرت الأيام .. كان ابراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه فى العراق وعبر الأردن وسكن فى أرض كنعان فى البـــادية .. ولم يـــكن ابراهيم ينسى خلال دعوته الى الله أن يسأل عن أخبار لوط مع قومه ، وكان لوط أول من آمن به ، وقد أثابه الله بأن بعثه نبيا الى قوم من الفاجرين العصاة

.. ..

الوقت يقترب من الظهيرة ..

ابراهيم يجلس خارج خيمته .. يفكر فى ولده اسماعيل وقصة الرؤيا . وفداء الله له بذبح عظيم .. قلبه يمتلىء بالخشوع والحب .. لا يعرف كيف يحصى ثناءه على ربه .. تفيض عيناه نيابة عنه فى الشكر . انحدرت قطرة كبيرة من دموع ابراهيم ، فتذكر ابتعاد اسماعيل عنه وشوقه اليه .

نفس هذه اللحظة .

هبطت على الأرض اقدام ثلاثة من الملائـــكة :

جبريل واسرافيل وميكائيل .

---

(1) من الآية ١٠٣ سورة الصافات مكية .

يتشكلون فى صور بشرية . ثلاث صور بشرية من الجمال الخارق .

ساروا صامتين . مهمتهم مزدوجة . المرور على ابراهيم وتبشيره .. ثم زيارة قوم لوط ووضع حد لجرائمهم .

سار الملائكة الثلاثة قليلا ..

القى احدهم حصاة امام ابراهيم .. رفع ابراهيم راسه .. تأمل وجوههم .. لا يعرف أحدا فيهم .. بادروه بالتحية .

قالوا : ســلاما .

قال : ســـلام .

نهض ابراهيم ورحب بهم .. ادخلهم بيته وهو يظن انهم ضيوف وغرباء .. اجلسهم واطمأن انهم قد اطمأنوا ، ثم استأذن وخرج .. راغ الى أهله .

نهضت زوجته سارة حين دخل عليها .. كانت عجوزا قد ابيض شعرها ولم يعد يتوهج بالشباب فيها غير وميض الايمان الذى يطل من عينيها .

قال ابراهيم لزوجته : زارنا ثلاثة غرباء .

سألته : من يكونون ؟

قال : لا اعرف احدا فيهم .. وجوه غريبة على المكان .. لاريب انهم من مكان بعيد .. غير أن ملابسهم لا تشى بالسفر الطويل .. أى طعام جاهز لدينـــا ؟ .

قالت : نصف شــاة .

قال : وهو يهم بالانصراف ــ نصف شاة .. اذبحى لهم عجلا سمينا .. هم ضيوف وغرباء .. ليست معهم دواب أو احمال أو طعام .. ربما كانوا جــوعى وربما كانوا فقــراء .

اختار ابراهيم عجلا سمينا وامر بذبحه ، فذكروا عليه اسم الله وذبحوه .. وبدأ شواء العجل على الحجارة الساخنة .. واعدت المائدة .. ودعا ابراهيم ضيوفه الى الطعام ، واوقف زوجته فى خدمتهم زيادة فى الاكرام والحفاوة .. ووضع العجل المشوى امام الضيوف .

واشار ابراهيم بيده أن يتفضلوا باسم الله ، وبدأ هو يأكل ليشجعهم .

كان ابراهيم كريما يعرف أن الله لا يتخلى عن الكرماء .. وربما لم يكن فى بيته غير هذا العجل .. وضيوفه ثلاثة .. ونصف شاة يكفيهم ويزيد ، غير أنه كان سيدا عظيم الكرم .

راح ابراهيم يأكل ثم استرق النظر الى ضيوفه ليطمئن انهم ياكلون . لاحظ ان أحدا لا يمد يده الى الطعام .. قرب اليهم الطعام وقال : الا تأكلوا . عاد الى طعامه ثم اختلس اليهم نظرة فوجدهم لا يأكلون .. رأى أيديهم لاتصل الى الطعـــام ..

عندئذ أوجس منهم خيفة . فى تقاليد البادية التى عاش فيها ابراهيم .. كان معنى امتناع الضيوف عن الاكل انهم يقصدون شرا بصاحب البيت .

ولاحظ ابراهيم بينه وبين نفسه أكثر من ملاحظة تؤيد غرابة ضيوفه .

لاحظ أنهم دخلوا عليه فجأة . لم يرهم الا وهم عند رأسه . لم يكن معهم دواب تحملهم ، لم تكن معهم أحمال .. وجوههم غريبة تماما عليه . كانوا مسافرين وليس عليهم أثر لتراب السفر . ثم هاهو يدعوهم الى طعامه فيجلسون الى المائدة ولا يأكلون ..

ازداد خوف ابراهيم .. رفع نظره فوجد امرأته سارة تقف فى نهاية الحجرة .

حاول أن يقول لها بنظراته الصامتة أنه خائف من ضيوفه فلم تفهم المرأة .. وفكر ابراهيم فى رجاله وخدمه وقومه . ان عدد ضيوفه ثلاثة ..

وهم فى مقتبل الشباب ، وهو رجل عجوز وشيخ .

كان الملائكة يقرأون أفكاره التى تدور فى نفسه ، دون أن يشى بها وجهه . قال له أحد الملائكة : لا تخف .

رفع ابراهيم رأسه وقال بصدق عظيم وبراءة : أعترف اننى خائف .

لقد دعوتكم الى الطعام ورحبت بكم ، ولكنكم لا تمدون أيديكم اليه . هل تنوون بى شرا .

ابتسم أحد الملائكة وقال : نحن لا نأكل يا ابراهيم .. نحن ملائكة الله .. وقد أرسلنا الى قوم لوط .

ضحكت زوجة ابراهيم .. كانت قائمة تتابع الحوار بين زوجها وبينهم فضحكت .

التفت اليها أحد الملائكة وبشرها باسحق ..

ـ يبشرك الله باسحق ..

صكت العجوز وجهها تعجبا وقالت :

« يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » [١] .

عاد أحد الملائكة يقول لها :

« ومن وراء اسحق يعقوب » [٢] . ستشهدين ولادة ابن ابنك .

جاشت المشاعر فى قلب ابراهيم وزوجته .. شف جو الحجرة وانسحب خوف ابراهيم واحتل قلبه نوع من أنواع الفرح الغريب المختلط .. كانت زوجته العاقر تقف هى الأخرى وهى ترتجف .. ان بشارة الملائكة تهز روحها هزا عميقا .. انها عجوز عقيم .. وزوجها شيخ كبير .. كيف .. كيف يمكن ؟

وسط هذا الجو الندى المضطرب تساءل ابراهيم :

« أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون » [٣] .

---

(١) الآية ٧٢ سورة هود مكية .
(٢) من الآية ٧١ من سورة هود مكية .
(٣) الآية ٥٤ من سورة الحجر مكية .

أكان يريد أن يسمع البشارة مرة أخرى .. أكان يريد أن يطمئن قلبـــه ويسمع للمرة الثانية منة الله عليه .

أكان ما بنفسه شعور بشرى يريد أن يستوثق .. ويهتز بالفرح مرتين بدلا من مرة واحدة .. أكد له الملائكة أنهم بشروه بالحق ..

« قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين » [١] .

« قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » [٢] .

لم يفهم الملائكة احساسه البشرى ، فنهوه عن أن يـــكون من القانطين ، وأفهمهم أنه ليس قانطا .. انما هو الفرح . كان رد الفعل على زوجة ابراهيم عليه الصلاة والسلام مدهشا .. عادت للمرة الثانية تتدخل فى الحديث .. تساءلت بين الذهول والدهشة :

ــ األد وانا عجوز .. ان هذا لشىء عجيب .

رد الملائكة : **« قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد »** [٣] .

لم تكن البشرى شيئا بسيطا فى حياة ابراهيم وزوجته .. لم يكن لابراهيم غير ولد واحد هو اسماعيل ، تركه هناك بعيدا فى الجزيرة العربية .

ولم تكن زوجته سارة قد انجبت خلال عشرتها الطويلة لابراهيم ، وهى التى زوجته من جاريتها هاجر .. ومن هاجر جاء اسماعيل .. أما سارة ، فلم يكن لها ولد .. وكان حنينها الى الولد عظيما ، لم يطفىء مرور الأيام من توهجه .. ثم دخلت شيخوختها واحتضر حلمها ومات .

كانت تقول : انها مشيئة الله عز وجل .

هكذا أراد لها .. وهكذا أراد لزوجها .

ثم ها هى فى مغيب العمر تتلقى البشارة .

ستلد غــلاما ..

ليس غــلاما عــاديا ..

قالت الملائكة : غــلام عليم .

ليس هذا فحسب .. بشرتها الملائكة أن ابنها سيكون له ولد تشهد مولده وتشهد حياته .. لقد صبرت طويلا ثم يئست ثم نسيت .

ثم يجىء جزاء الله مفاجأة تمحو هذا كله فى لحظة ..

فاضت دموعها وهى تقف .. هزتها الفرحة فانخرطت فى بكاء صـــامت لا تعرف كيف طاوعتها نفسها عليه أمام أغراب ..

وأحس ابراهيم عليه الصلاة والسلام باحساس محير .. جاشت نفســـه

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الحجر مكية .
(٢) الآية ٥٦ من سورة الحجر مكية .
(٣) الآية ٧٣ من سورة هود مكية .

بمشاعر الرحمة والقرب ، وعاد يحس أنه ازاء نعمة لا يعرف كيف يوفيها حقها من الشكر .

وخر ابراهيم ساجدا على وجهه .

ان ابنه اسماعيل هناك .. بعيدا منه ولا يراه .. وهو موجود هناك بأمر الله .. أمره الله أن يحمله مع أمه ويتركهما فى واد غير ذى زرع وماء . هكذا بغير تفسير أو ايضاح .

وصدع ابراهيم بالأمر .. وعاش يدعو الله وحده .. ها هو الله تعالى يبشره بعد شيخوخته أنه سينجب اسحق من سارة .. ومن بعده يعقوب .

انتهى الأمر واستقرت البشرى فى ذهنيهما معا .. نهض ابراهيم من سجوده فوقعت عينه على الطعام .. أحس أنه لا يستطيع أن يستمر فى الأكل من فرط فرحته . أمر خدمه أن يحملوا الطعام والتفت الى الملائكة .

ذهب عنه خوفه ، واطمأنت حيرته ، وغادره الروع ، وسكنت قلبه البشرى التى حملوها اليه . وتذكر أنهم أرسلوا الى قوم لوط .. ولوط ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه ، والساكن على مبعدة قريبة منه .. وابراهيم يعرف معنى ارسال الملائكة الى لوط وقومه .. هذا معناه وقوع عذاب مروع .. وطبيعة ابراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك قوم فى تسليم .. ربما رجع قوم لوط واقلعوا وأسلموا وأجابوا رسولهم .. ربما حدث هذا

وبدأ ابراهيم يجادل الملائكة فى قوم لوط .

حدثهم عن احتمال ايمانهم ورجوعهم عن طريق الفجور ، وأفهمه الملائكة أن هؤلاء قوم مجرمون .. وأن مهمتهم هى ارسال حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين .. وعاد ابراهيم ، بعد أن سد الملائكة باب هذا الحوار ، عاد يحدثهم عن المؤمنين من قوم لوط . سألهم : اتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن . قال الملائكة : لا .. فراح ينقص من عدد المؤمنين ويسألهم ايهلكون القرية وفيها هذا العدد من المؤمنين ..

ردته الملائكة بقولهم : نحن أعلم بمن فيها .

ثم افهموه أن الأمر قد قضى .. وأن مشيئة الله تبارك وتعالى قد اقتضت نفاذ الأمر وهلاك قوم لوط .. افهموا ابراهيم أن عليه أن يعرض عن هذا الحوار .. ليوفر حلمه ورحمته لقد جاء أمر ربه ، وتقرر عليهم عذاب غير مردود .. عذاب لن يرده جدال ابراهيم ..

هذا النبى الحليم الأواه المنيب .

قال تعالى فى سورة هود :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا : سلاما ، قال : سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ، انا أرسلنا الى قوم لوط .

وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها باسحق ، ومن وراء اسحق يعقوب . قالت : ياويلتى ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ ان هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، انه حميد مجيد . فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى ، يجادلنا فى قوم لوط . ان ابراهيم لحليم أواه منيب . يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود .. » [1] .

كانت كلمة الملائكة ايذانا بنهاية الجدال ..

سكت ابراهيم .

واسدل الستار على هذا المشهد .. ليرتفع على نهاية قوم لوط ..

نستأذن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قليلا لنرى ماذا كان من أمر لوط وقوم لوط .

---

(1) الآيات من ٦٩ الى ٧٦ مكية ..

قصة لوط

[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة الشعراء :

« كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون » . [١]

.. ..

بهذا الرفق الندى والود المشفق دعا لوط قومه الى الله .

دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن كسب السيئات والفواحش . واصطدمت دعوته بقلوب قاسية وأهواء مريضة ورفض متكبر . وكان القوم الذين بعث اليهم لوط يرتكبون عددا من الجرائم لا يتسع لها وقت اى مجرم متفرغ . كانوا يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتواصون بالاثم ، ولا يتناهون عن منكر ، وقد زادوا فى سجل جرائمهم جريمة جديدة كل الجدة على الأرض . وظفوا طاقتهم الانسانية ، وروح الابتكار فى جبلتهم ، لابتكار جريمة لم يسبقهم بها احد من العالمين .

كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء .

قال تعالى فى سورة النمل :

« ولوطا اذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون » [٢] .

بم تظن قومه أجابوا اخلاصه فى النصح وصدقه معهم ؟ .

اجابة مبتكرة هى الأخرى كجريمتهم ..

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا : اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون » [٣] .

اليس شيئا مبتكرا أن يجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الطرد والاخراج ..

يبدو ان نفسية قوم لوط كانت معكوسة بشكل ما .. ويبدو ان ظلمهم لأنفسهم ، واستكبارهم على الحق ، قد قلب الأشياء أمام أعينهم .. فصار الرجال أهدافا مرغوبة بدلا من النساء ، وصار النقاء والطهر جريمة تستوجب الطرد .. كانوا مرضى يرفضون الشفاء ويقاومونه ..

---

(١) الآيات ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ مكية .

(٢) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ مكية .

(٣) الآية ٥٦ من سورة النمل مكية .

ولقد كانت تصرفات قوم لوط تحـــزن قلب لوط .. كانوا يرتكبون جريمتهم علانية فى ناديهم .. وكانوا اذا دخل المدينة غريب أو مســـافر أو ضيف لم ينقذه من أيديهم أحد .. وكانوا يقولون للوط : استضف أنت النساء ودع لنا الرجال .. واستطارت شهرتهم الوبيلة ، وجاهدهم لوط جهـــادا عظيما ، وأقام عليهم حجته ، ومرت الأيام والشهور والسنوات ، وهو ماض فى دعوته بغير أن يؤمن له أحد .. لم يؤمن به غير أهل بيته .. حتى أهل بيته لم يؤمنوا به جميعا ..

كانت زوجته كافرة مثل زوجة نوح ..

« **ضرب الله مثلا للذين كفروا : امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل : ادخلا النار مع الداخلين** » [١] [سورة التحريم] ..

واذا كان بيت الانسان هو راحته التى يسكن اليها ، فقد كان لوط معذبا خـــارج بيته وداخل بيته .. كانت حياته عذابا متصـــلا ، وعنتا شـــديدا ، وكان صابرا على قومه ، واستطالت السنوات ولم يؤمن به أحد ، بل راحوا يهزأون برسالته ويقولون له فيما يقولون :

« **ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصــــادقين** »[٢] .

لما وقع هذا يئس لوط منهم ، ودعا الله أن ينصره ويهلك المفسدين ..

....

خرج الملائكة من عند ابراهيم قاصـــدين قرية لوط .. وصـــلوا ســـاعة العصر ..

بلغوا اسوار سدوم .. النهر يجرى وســـط أرض مشـــجرة خضراء .. وابنة لوط واقفة تملأ وعاءها من مياه النهر ..

رفعت وجهها فشاهدتهم .. أدهشـــها أن يكون فى الأرض رجـــال بهذا الجمال الساحر ..

سألها أحد الثلاثة : يا جارية .. هل من منزل ... ؟

قالت [وهى تذكر قومها] : مكانكم لا تدخلوا حتى أخبر أبى وآتيكم ..

تركت وعاءها عند النهر وطارت مسرعة نحو أبيها ..

ــ أبتاه .. يريدك فتيان على باب المدينة .. ما رأيت مثل وجوههم قط ..

قال لوط لنفسه : هذا يوم عصيب .. وهرع يجرى نحو ضيوفه ..

لم يكد يراهم حتى سىء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال : هذا يوم عصيب ..

ســـألهم من أين جاءوا ؟ .. وما هى وجهتهم ؟ .. فصـــمتوا عن اجابته

---

(١) الآية ١٠ مدنية .
(٢) من الآية ٢٩ من سورة العنكبوت مكية .

وسألوه أن يضيفهم .. استحيى منهم وســـار أمامهم قليلا ثم توقف والتفت اليهم يقول :

ـــ لا أعلم على وجه الأرض أخبث من أهل هذا البلد ..

قال كلمته ليصرفهم عن المبيت فى القرية .. غير انهم غضـــوا النظر عن قوله ولم يعلقوا عليه ..

وعاد يسير معهم ، ويلوى عنق الحديث ويقسره قسرا ويمضى به الى أهل القرية .. حدثهم انهم خبثاء .. أنهم يخزون ضيوفهم .. حدثهم أنهم يفسدون فى الأرض .. وكان الصراع يجرى داخله ، محاولا التوفيق بين أمرين .. صرف ضـــيوفه عن المبيت فى القرية ، دون احراجهم ، وبغير اخـــلال بكرم الضيافة .. عبثا حاول افهامهم والتلميح لهم أن يستمروا فى رحلتهم ، دون نزول بهذه القرية ..

كانوا ضيوفا فى منتهى الغرابة ..

ساروا صـــامتين معظم الوقت .. فلمـــا رأى اصرارهم على المبيت فى المدينة ، سألهم ان يمكثوا بهذا البستان حتى يأتى المغرب وتنزل العتمة على المدينة .. قال لنفسه : آخذهم الى البيت بعد أن يسقط الظلام فلا يراهم أحد من أهل القرية .. وأسلمهم خارج المدينة فى الفجر ..

كان حزينا .. ضـــيق الصـــدر .. انســـاه الخوف والهم أن يقدم اليهم طعاما ..

سقط الليل على المدينة ..

صحب لوط ضيوفه الثلاثة الى بيته .. لم يرهم من أهل المدينة أحد .. لم تكد زوجته تشهد الضيوف حتى تسللت خارجة بغير أن تشعره ..

أسرعت الى قومها واخبرتهم الخبر ..

وانتشر الخبر مثل شرارة من الكهرباء .. وهرع قومه اليه ..

قال تعالى فى سورة هود :

« ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقال : هذا يوم عصيب . وجـــاءه قومه يهرعون اليه ، ومن قبل كانوا يعملون السـيئات » [1] ..

ها قد تحققت نبوءة لوط ..

بدأ اليوم العصيب ..

جاءه قومه يهرعون اليه .. جاءوا محمومين مسرعين .. تســـاءل لوط بينه وبين نفسه : من الذى أخبرهم ؟ .. وتلفت باحثا عن زوجته فلم يرها .. وزاد حـــزنا على حزن .. وقف القوم على باب البيت .. خـــرج اليهم لوط متعلقا بأمل أخير .. ماذا لو ناشدهم العقل ؟ .. ماذا لو حدثهم عن الفطرة

---

(1) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ مكية .

السليمة ؟ .. ماذا لو أيقظ داخلهم هـذا الاحســاس السوى الذى يوجه للجنس الآخر الذى خلقه الله ؟ .. هؤلاء بنــاته موجودات فى داره .. هن رمز لكل النساء فى الأرض .. والنساء أطهر للرجال من الرجال للرجال ..

« وقال : يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد [١] .

« هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » .. ما الذى تعنيه هذه العبارة ؟

اراد أن يقول لهم . أمامكم النساء فى الأرض .. هن أطهر بمعانى الطهر النفسى والحسى .. هن يلبين الفطرة السوية .. ويثرن مشاعر كذلك نظيفة .. ثم هن أطهر حسيا ، حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمنا طــاهرا ..

« فاتقوا الله » .. يلمس نفوسهم من جانب التقوى بعد أن لمسها من جانب الفطرة .. اتقوا الله وتذكروا أن الله يسمع ويرى .. ويغضب ويعاقب وأجدر بالعقلاء اتقاء غضبه ..

« ولا تخزون فى ضيفى » .. هى محاولة يائســة للمس نخوتهم وتقاليدهم كبدو ينبغى عليهم اكرام الضيف لا فضحه ..

« أليس منكم رجل رشيد » .. اليس فيكم رجل عاقل ؟ .. ان ما تريدونه ــ لو تحقق ــ هو عين الجنون .. والعقل أولى بكم وافضل .. ان الأمر أمر رشد وســفه .. الى جوار انهــا قضــية فطرة ودين ومروءة ونخــوة ..

انتظر قومه حتى فرغ من موعظته القصيرة وضجوا بالضــحك .. لو أنه فجر بينهم قنبلة من النكت ما فعلوا مثلما فعلوا .. لم تلمس كلماته الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلب الجامد الميت ، ولا العقل المريض الاحمق .. ظلت الفورة الشاذة على اندفاعها المحموم ..

« قالوا : لقــد علمت ما لنــا فى بنــــاتك من حق ، وانك لتعــلم ما نريد »[٢] .

هــكذا بصراحة تختبىء وراء تجهيل الأمر الذى تعرفه الدنيــا كلهــا .. لم يقولوا له ما يريدونه لأن الدنيا تعرف ، وهو بالتالى يعرف .. اشارة سيئة الى العمل السيىء ..

سقط فى يد لوط ..

أحس ضعفه وهو غريب بين القوم .. نازح اليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه ، ولا أولاد ذكور يدفعون عنه .. دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته .. وضع المزلاج فى الباب ووقف يستمع الى الضحكات والضربات التى تنهــال على الباب ، فيصر الخشب القديم صريرا مزعجــا ، يوحى بأنه ســيكف عن مقاومته .. وقف لوط يرتعد وراء الباب خجلا وحزنا وأسفا ..

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة هود مكية .
(٢) الآية ٧٩ من سورة هود مكية .

كان الغرباء الثلاثة الذين استضافهم لوط يجلسون هادئين صـــامتين .. يحف بهم جـــو من الجلال .. ودهش لوط بينه وبين نفســـه من هدوئهم .. وزاد احســـاسه بالألم لأنهم وثقوا فيه واطمأنوا اليه .. لا يعرفون أنه غير قادر على حمايتهم .. وازدادت ضربات القوم على الباب ..

بدأت أخشابه تتقوس وتتجه داخل البيت وتئن .. وصرخ لوط فى لحظة يأس خانق ..

« **قال : لو ان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد !!** » [١] .

تمنى أن تكون له قوة تصدهم عن ضيفه .. وتمنى لو كان له ركن شديد يحتمى فيه ويأوى اليه .. غاب عن لوط فى شدته وكربته أنه يأوى الى ركن شديد .. ركن الله الذى لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه .. قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ هـــذه الآية : « رحمة الله على لوط .. كان يأوى الى ركن شديد » ..

عندما بلغ الضيق ذروته .. وقال النبى كلمته فطارت مثل عصفور يائس .. تحرك ضيوفه ونهضوا فجأة .. أفهموه أنه يأوى الى ركن شديد ..

« **قالوا : يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك** [٢] .

لا تجزع يا لوط ولا تخف .. نحن من الملائكة .. ولن يصـــل اليك هؤلاء القوم ..

انكسر الباب فجأة ، واندفع الاعصار المحموم داخل بيت لوط ..

نهض جبريل ، عليه السلام ، وأشـــار بيده اشـــارة سريعة ، ففقد القوم ابصارهم .. راحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون انهم يدخلونه .. طمست اشارة جبريل عليه السلام أبصارهم .. قال تعالى :

« **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** »[٣] .

التفت الملائكة الى لوط وأصدروا اليه أمرهم أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج .. سيسمعون أصـــواتا مروعة تزلزل الجبال .. لا يلتفت منهم أحد .. كى لا يصيبه ما يصيب القوم .. أى عذاب هذا ؟ .. هو عذاب من نوع فريب ، يكفى لوقوعه بالمرء مجرد النظر اليه .. أفهموه أن امرأته كانت من الغابرين .. امرأته كافرة مثلهم وستلتفت خلفها فيصيبها ما أصابهم ..

أخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك ..

سأل لوط الملائكة : أينزل العذاب بهم الآن .. انبـــأوه أن موعدهم مع العذاب هو الصبح .. أليس الصبح بقريب ؟

قال تعـــالى :

« **فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك . انه**

---

(١) الآية ٨٠ من سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة القمر مكية .

مصيبها ما أصابهم ، ان موعــدهم الصــبح ، أليس الصــبح بقريب ؟ » [١] .

خرج لوط مع بناته وزوجته .. ساروا فى الليل وغذوا السير .. واقترب الصــبح ..

كان لوط قد ابتعد مع أهله ..

ثم جــاء أمر الله تعــالى ..

....

« **فلما جــاء أمرنا جعلنــا عاليها ســافلها وأمطرنا عليها حجــارة من سجيل منضود ، مســومة عند ربك ، وما هى من الظــالمين ببعيد »** [٢] .. [سورة هود] ..

....

قال العلماء : اقتلع جبريل ، عليه السلام ، بطرف جناحه مدنهم الســبع من قرارها البعيد .. رفعها جميعا الى عنان الســماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، قلب المدن السبع وهوى بها فى الأرض ..

أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم .. حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضا ، ومعلمة بأسمائهم ، ومقدرة عليهم ..

اســتمر الجحيم يمطرهم ..

وانتهى قــوم لوط تماما ..

لم يعد هناك أحد .. نكست المدن على رؤوســها ، وغارت فى الأرض ، حتى انفجر الماء من الأرض ..

هلك قوم لوط ومحيت مدنهم ..

تحولوا الى بحيرة من الموت ..

....

كان لوط يسمع أصــواتا مروعة .. وكان الهواء خلفه يتمزق .. وكان يحاذر أن يلتفت خلفه ..

نظرت زوجته نحو مصدر الصوت فانتهت ..

تهرأ جسدها وتفتت مثل عمود ساقط من الملح ..

قال تعالى عن مدن لوط :

« **فأخرجنــا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجــدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم »**[٣] .

---

(١) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .
(٢) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود مكية .
(٣) الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة الذاريات مكية .

هى آية لم تندثر ..

يؤكد ذلك قوله تعـالى :

« **وانها لبسـبيل مقيم** » [١] .. أى بطريق مسـلوك الى الآن [سورة الحجر] ..

وقوله تعالى فى الصافات :

« **وانكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل ، أفلا تعقلون ؟** » [٢] .

يعنى انها آية ظاهرة .. قال العلماء : ان مكان المدن السـبع .. بحيرة غريبة .. ماؤها أجاج .. وكثافة الماء أعظم من كثافة مياه البحر الملحة .. وفى هذه البحيرة صخور معدنيـة ذائبة .. توحى بأن هـذه الحجارة التى ضرب بها قوم لوط كانت شهبا مشتعلة .

يقال ان البحيرة الحالية التى نعرفها باسم « البحر الميت » فى فلسطين .. هى مدن قوم لوط السابقة ..

....

انطوت صـفحة قوم لوط .. انمحت مدنهم وأسـماؤهم من الأرض .. سقطوا من ذاكرة الحيـاة والأحيـاء .. وطويت صـفحة من صـفحات الفسـاد ..

وتوجه لوط اول ما توجه الى ابراهيم ..

زار ابراهيم وقص عليه نبـأ قومه ..

وادهشـه ان ابراهيم كان يعـلم ..

ومضى لوط فى دعوته الى الله .. مثلما مضى الحليم الأواه المنيب ابراهيم فى دعوته الى الله ..

مضى الاثنان ينشران الاسلام فى الأرض ..

---

(١) الآية ٧٦ مكية .
(٢) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات مكية .

قصة إسماعيل

[عليه الصلاة والسلام]

كان اسماعيل طفلا حين بدأ سفره القاصد الى الله ..

حملته أمه وأرقدته على الأرض .. نفس المكان الذى نعرفه الآن باسم بئر زمزم فى الكعبة ..

أيامها لم تكن البئر قد انفجرت تحت قدميه بعد ..

كان المكان قفرا ..

صحراء يخطف وهجها البصر .. وتمتد الرمال فيها الى الأفق .. ويشيع اللون الأصفر على امتداد البصر .. وليست هناك قطرة ماء واحدة ..

تعلقت هاجر بثياب ابراهيم وهو يتركها مع رضيعها وينصرف ..

— يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى المقفر ... ؟

— يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا ... ؟

— يا ابراهيم أين تذهب ... ؟

راحت الأم تكرر ما تقوله ، وابراهيم صامت لا يجيب ..

لا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان احساس ابراهيم وهو يتركهما بواد غير ذى زرع .. غير ذى ماء ..

لقد أمره الله بذلك ، وها هو يصدع بالأمر راضيا .. جاء فى الاسرائيليات ان سارة زوجته الأولى ادركتها الغيرة من هاجر زوجته الثانية فاضطرته اضطرارا لابعادها وابنها ..

ونعتقد أن هذه القصة موضوعة .. ان تأمل شخصية ابراهيم يقطع بأنه لم يكن يتلقى أوامره من احد غير الله ..

لا نحسب أنه كان يلتفت لمشاعر الغيرة الأنثوية ، ولا نحسب أنه كان يتصرف بشكل يثير هذه المشاعر ، ولا نحسب أن شخصية سارة نفسها كانت تدور حول ذاتها أنانية .. لقد زوجته من جاريتها هاجر لينجب ، كانت تعلم انها عجوز عقيم .. زوجته بنفسها وقامت على خدمته .. ومنحت كل وجودها لرجل ليس فى قلبه مكان لحب أحد غير حب خالقه ..

نستبعد أن تكون سارة مسئولة عن رحلة اسماعيل وأمه الى الجزيرة العربية ..

قال الله تعالى عن سارة وهاجر :

« رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، انه حميد مجيد » [1] ..
[سورة هود] ..

ليس الأمر أمر غيرة نسائية .. انما هو تكليف الهى اخفيت حكمته ، ولعل سارة دهشت أكثر مما دهشت هاجر ، حين أمرهـــا ابراهيم أن تحمل ابنها اسماعيل وتتبعه ..

ـــ الى أين يا ابراهيم ؟

ربما تساءلت هاجر فى البداية ، وربما تساءلت سارة هى الأخرى ..

صمت ابراهيم ، فصمتت المرأتان ..

ثمة حكمة خافية لا يريد ابراهيم أن يفصح عنها .. لم يفصح له الله عنها ، فهو لا يدرى مثلهما ، واذن فهما تصمتان بأدب زوجات الأنبياء ..

....

ها هو الستار يرتفع عن هاجر وهى وحيدة مع ابنها فى الوادى المهجور الخالى ، الجدب ..

ها هو اسماعيل رضيعا يبدأ أولى رحلاته الى الله ..

بـــلاء له وهو طفل ..

وبـــلاء لأبيه وهو شيخ جاءه الطفل على كبر ..

لكنك يا ابراهيم تعلم أن ليس للانسان فى نفسه شىء .. ومن يحب الله يمنح نفسه لله ، ويمنح ما تحبه نفسه لله بغير ســـؤال ..

ذلك قانون من قوانين الحب العريقة ، تذوب الأسئلة عندما نحب ..

ترتفع أعلام الطاعة فحسب ..

لا نعتقد أن ابراهيم كان يعلم لماذا يترك اسماعيل وأمه فى هذا المكان ..

لا نظن أن الله تعالى قد أخبره ..

انما أصدر الله أمره فحسب .. وأطاع ابراهيم فحسب .. هنا تبدو شدة البلاء وصعوبته .. وهنا يكشف الحب عن أعمق أعماقه ، وأعظم أصالته ..

يمتحن الله خليله ابراهيم .. يمتحنه فى أحب ما يعتبره الآباء أحب شىء لديهم ..

وليس معنى حب الله لابراهيم ، وحب ابراهيم لله ، ان ابراهيم كان خلوا من المشاعر الانسانية ..

ان طاقته على الحب الالهى تعنى انه كان بحرا من المشـــاعر الانسانية ، بحرا بغير شطآن ..

كان احساسه باسماعيل أعظم وأرق وأحنى من احساس أى والد بابنه ، ورغم ذلك ألقاه على الأرض فى مكان مهلك ، لأن الله أمره بذلك ..

---

(1) الآية ٧٣ مكية .

قام الصراع فى نفسه ، واجتاز محنته ، واختار ربه على ولده ..

حين أحب ابراهيم ابنه اكثر مما ينبغى ، أمره الله بذبحه .. لا يريد الله اغيارا فى قلب أنبيائه .. من أحب الله فعليه أن يكون محبا فى الحقيقة ، والمحب فى الحقيقة من يملأ قلبه حب خالقه وحده ..

....

ورث اسماعيل حلم أبيه ..

دعا ابراهيم ربه من قبل :

« رب هب لى من الصالحين » [١] ..

قال تعالى :

« فبشرناه بغلام حليم » [٢] ..

نفس حلم ابيه .. نفس صلاحه ، وتقواه ، وادب النبوة ..

التقى اسماعيل بأول محنة له وهو طفل .. وانتهت المحنة بأن فجر الله تحت قدميه زمزم لتشرب الأم ، ويرضع الوليد ..

والتقى اسماعيل بالمحنة الثانية فى حياته وهو شاب ..

« فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى : انى ارى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » [٣] .. [سورة الصافات] ..

بم تظن الابن أجاب ؟ .. لم يسأل ماذا كانت صفات الرؤيا .. لم يستوثق أهى رؤيا أم مجرد حلم ، لم يناقش والده فى رؤياه .. كل ما قاله :

« يا أبت افعل ما تؤمر » [٤] .. لا تقلق من جهتى ، ولا يدركك الأسى والجزع ..

« ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » [٥] .. هكذا يوجه الابن الصالح والده الصالح الى الصبر .. ان صاحب الشأن .. ان الضحية والذبيح نفسه صابر ، والأولى بالأب أن يصبر ..

هو سباق بينهما ايهما يصبر أكثر ..

سباق غايته الله ..

قال تعالى فى سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » [٦] .

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات مكية .
(٢) الآية ١٠١ من سورة الصافات مكية .
(٣) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكية .
(٤) من الآية نفسها .
(٥) الآية نفسها .
(٦) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ مكية .

بيت الله تعالى

عاش اسماعيل فى شبه الجزيرة العربية ما شـاء الله له أن يعيش .. روض الخيل واستأنسها واستخدمها ، وساعدت مياه زمزم على سكنى المنطقة وتعميرها ..

استقرت بها بعض القوافل .. وسكنتها القبائل .. وكبر اسماعيل وتزوج ، وزاره ابراهيم فلم يجده فى بيته ووجد امراته .. سالها عن عيشهم وحالهم ، فشكت اليه من الضيق والشدة .. قال لها ابراهيم : اذا جاء زوجك مريه أن يغير عتبة بابه .. فلما جاء اسماعيل ، ووصفت له زوجته الرجل .. قال : هذا ابى وهو يأمرنى بفراقك .. الحقى بأهلك ..

وتزوج اسماعيل امراة ثانية .. زارها ابراهيم ، يسألها عن حالها ، فحدثته انهم فى نعمة وخير .. وطاب صدر ابراهيم بهذه الزوجة لابنه .. ولعل ابراهيم هنا كان يتصرف بحدس داخلى ونور كاشف .. ان ابراهيم يهيىء اسماعيل لمهمة عظمى .. وهى مهمة تحتاج الى جهده الانسانى كله ووقته كله وراحته كلها .. ولو كان اسماعيل منغصا فى بيته لضاع نصف مجهوده .. انه يفرغه لمهمة لم يكشف عنها الستار بعد ..

كبر اسماعيل .. وبلغ أشده ..

وجاءه ابراهيم ..

جاءت اللحظة المناسبة لتبرير حكمة الله فيما وقع من أمور غامضة ..

قال ابراهيم لاسماعيل : يا اسماعيل .. ان الله أمرنى بأمر ..

حين جاءه أمر ذبحه عرض عليه الأمر صراحة ، وها هو الآن يعرض عليه الأمر مبهما ليحصل على موثق منه أن يعينه فيه .. نحن أمام أمر أخطر من الذبح والتضحية .. أمر لا يمس ذات النبى ، وانما يمس ملايين الخلق ..

قال اسماعيل : فاصنع ما أمرك به ربك ..

قال ابراهيم : وتعيننى ؟

قال : واعينك ..

قال : فان الله أمرنى أن ابنى هنا بيتا ..

اشار بيده لتل مرتفع هناك ..

انتهى الأمر .. وصدر الأمر ببناء بيت الله الحرام ..

هو أول بيت وضع للناس فى الأرض .. وهو أول بيت عبد فيه الانسان

ربه .. ولما كان آدم هو أول انسان هبط الى الأرض .. فاليه يرجع فضل بنائه أول مرة .. قال العلماء : ان آدم بناه وراح يطوف حوله مثلما يطوفه الملائكة حول عرش الله تعالى ..

بنى آدم خيمة يعبد فيها الله .. شيء طبيعي ان يبنى آدم ـ بوصفه نبيا ـ بيتا لعبادة ربه .. وحفت الرحمة بهذا المكان .. ثم مات آدم ومرت القرون ، وطال عليه العهد فضاع اثر البيت وخفي مكانه ..

وها هو ابراهيم يتلقى الأمر ببنائه مرة ثانية .. ليظل في المرة الثانية قائما الى يوم القيامة ان شاء الله ..

وبدأ بناء الكعبة ..

والكعبة مجموعة من الحجارة التي لا تضر ولا تنفع .. ولا تزيد عن غيرها من الحجارة ولا تقل ، لكنها رغم ذلك رمز للتوحيد الاسلامي ، وتنزيه الله ..

كان آدم على التوحيد الرفيع والاسلام والتنزيه المطلق ..

وكان ابراهيم حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين ..

ولقد بنيت حجارتها من طمأنينة قلب آدم ، وسكينة ابراهيم وحبه ، وحلم اسماعيل وصدقه .. لا تكاد تدخل المسجد الحرام حتى يفيض داخلك تيار من الأمن العميق والسلام .. تشف ذاتك .. تدور حول الكعبة .. مثل حركة الذرات وهي تمضي حول النواة ..

سلام عظيم يملأ المكان والزمان ، ويملؤك كجزء من المكان والزمان ..
قد ترى نفسك في المرة الأولى ولا ترى البيت ولا ربه ..

وربما رأيت البيت في المرة الثانية ، ولم تر نفسك ولا ربك ..

فاذا ذهبت الى الحج ، فلم تر نفسك ولا البيت .. ورأيت رب البيت وحده ، فهذا هو الحج الحقيقي .. وهذه هي الحكمة الأولى من بناء الكعبة ..

قال تعالى :

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » [1] ..

الكعبة حجرة جبارة من الحجارة .. تمتد في الأرض لعمق الأساس القديم الذي حفره ابراهيم واسماعيل .. هدمت في التاريخ أكثر من مرة ، وكان بناؤها يعاد في كل مرة .. فهي باقية منذ عهد ابراهيم الى اليوم .. وحين بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحقيقا لدعوة ابراهيم .. وجد

---

(١) الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، من سورة البقرة مدنية .

الرسول الكعبة حيث بنيت آخر مرة ، وقد قصر الجهد بمن بناها فلم يحفر أساسها كما حفره ابراهيم ..

نفهم من هذا أن ابراهيم واسماعيل بذلا فيها وحدهما جهدا استحالت ـ بعد ذلك ـ محاكاته على آلاف الرجال .. ولقد صرح الرسول بأنه يحب هدمها واعادتها الى أساس ابراهيم ، لولا قرب عهد القوم بالجاهلية ، وخشيته أن يفتن الناس هدمها وبناؤها من جديد ..

بناؤها بحيث تصل الى قواعد ابراهيم واسماعيل ..

....

أى جهد شاق بذله النبيان الكريمان وحدهما ؟

كان عليهما حفر الأساس لعمق غائر فى الأرض ، وكان عليهما قطع الحجارة من الجبال البعيدة والقريبة ، ونقلها بعد ذلك ، وتسويتها ، وبناؤها ، وتعليتها .. وكان الأمر يستوجب جهد جيل من الرجال ، ولكنهما بنياها معا

لا نعرف كم هو الوقت الذى استغرقه بناء الكعبة ، كما نجهل الوقت الذى استغرقه بناء سفينة نوح ، المهم أن سفينة نوح والكعبة كانتا معا ملاذا للناس ومثوبة وأمنا .. والكعبة هى سفينة نوح الثابتة على الأرض أبدا .. وهى تنتظر الراغبين فى النجاة من هول الطوفان دائما ..

لم يحدثنا الله عن زمن بناء الكعبة .. حدثنا عن أمر أخطر وأجدى .. حدثنا عن تجرد نفسية من كان يبنيها .. ودعائه وهو يبنيها :

((ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم)) [١] .

ها هو الرمز يسفر عن أقنعته الشفافة لنرى وجه الحقيقة الخالد وراءه .. الغرض الأصلى هو الرجوع الى الله .. أن يتقبل السميع العليم ..

وتلك غاية اخلاص المخلصين .. وطاعة الطائعين .. وخوف الخائفين .. وعشق العاشقين ..

((ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)) [٢] .

ان أعظم مسلمين على وجه الأرض يومها يدعوان الله أن يجعلهما مسلمين له .. يعرفان أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ـ سبحانه ـ ولا يأمن أحدهما مكر الله تعالى ، وهما يعبدان الله أصفى ما تكون العبادة ، ويبنيان بيته المعمور ، ويسألانه أن يتقبل عملهما .. ويسألانه بعدها الاسلام وتبلغ الرحمة بهما أن يسألا الله أن يخرج من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه .. يريدان أن يزيد عدد العابدين الموجودين والطائفين والركع السجود ..

ان دعوة ابراهيم واسماعيل تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن .. انه يبنى لله بيته ، ومع هذا يشغله أمر العقيدة .. ذلك ايحاء بأن البيت رمز العقيدة ..

---

(١) من الآية ١٢٧ سورة البقرة مدنية .
(٢) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .

« **وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم** » [١]

ارنا أسلوب العبادة الذى ترضاه .. ارنا كيف تحب أن نعبدك فى الأرض ..

وتب علينا .. انك أنت التواب الرحيم ..

بعدها يتجاوز اهتمامهما هذا الزمن الذى يعيشان فيه .. يجاوزانه بالحدس ويدعوان الله ..

« **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . انك أنت العزيز الحكيم** » [٢] .. [سورة البقرة]

تحققت هذه الدعوة الأخيرة .. حين بعث محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ..

تحققت بعد أزمنة وأزمنة ..

انتهى بناء البيت ، وأراد ابراهيم حجرا مميزا ، يكون علامة خاصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة ..

أمر ابراهيم اسماعيل أن يأتيه بحجر مميز يختلف عن لون حجارة الكعبة ..

كان اسماعيل قد بذل جهدا فوق طاقة البشر .. كان جسده محطما من العمل .. وسار على قدر ما وسعه الجهد ، تلبية لأمر والده ..

حين عاد ، كان ابراهيم قد وضع الحجر الأسود فى مكانه ..

ــ من الذى أحضره اليك يا أبت ؟

قال ابراهيم : أحضره جبريل عليه السلام ..

انتهى بناء الكعبة ..

وبدأ طواف الموحدين والمسلمين حولها ..

ووقف ابراهيم يدعو ربه نفس دعائه من قبل ..

ان يجعل أفئدة من الناس تهوى الى المكان .. قال تعالى :

« **فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم** » [٣] .. انظر الى التعبير .. ان الهوى يصور انحدارا لا يقاوم نحو شىء .. وقمة ذلك هوى الكعبة ..

من هذه الدعوة ولد الهوى العميق فى نفوس المسلمين ، رغبة فى زيارة البيت الحرام ..

وصار كل من يزور المسجد الحرام ويعود الى بلده .. يحس انه يزداد عطشا كلما ازداد ريا منه ، ويعمق حنينه اليه كلما بعد منه ، وتجىء أوقات

---

(١) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .
(٢) الآية ١٢٩ سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآية ٣٧ من سورة ابراهيم مكية .

الحج فى كل عام .. فينشب الهوى الغـــامض اظافره فى القلب نزوعا الى رؤية البيت ، وعطشا الى بئر زمزم ..

وأخطر من هذا وذاك .. ودا عميقا لرب البيت والبئر .. رب العالمين ..

....

قال تعالى حين جادل المجادلون فى ابراهيم واسماعيل :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفـــا مســـلما وما كان من المشركين » [١] .. [سورة آل عمران] ..

عليه الصلاة والسلام .. اســـتجاب الله دعاءه .. وكان ابراهيم أول من سمانا المســـلمين ..

قال تعالى فى سورة الحج :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيـــكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » [٢]

---

(١) الآية ٦٧ مدنية .
(٢) من الآية ٧٨ مدنية .

قصة إسحاق ويعقوب

[عليهما الصلاة والسلام]

لا يذكر القرآن الكريم غير ومضات سريعة عن قصة اسحق ..

كان ميلاده حدثا خارقا ، بشرت به الملائكة ، وورد فى البشرى اسم ابنه يعقوب ..

وقد جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه اسـماعيل الذى لم تكتحل به عين الأب طوال طفولته ..

ولقد قر قلب سـارة بمولد اسحق ومولد ابنه يعقوب ، عليهما الصـلاة والسـلام ..

غير اننا لا نعرف كيف كانت حياة اسحق ، ولا نعرف بماذا أجابه قومه .. كل ما نعرفه ان الله اثنى عليه كنبى من الصالحين ..

أما يعقوب فأول نبى من صلبه .

وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم .. اسـمه اسرائيل .. كان نبيا الى قومه .. ذكر الله تعالى ثلاثة اجزاء من قصته ..

بشارة ميلاده .. وقد بشر الملائكة به ابراهيم جده .. وسارة جدته .. أيضا ذكر الله تعالى وصيته عند وفاته ..

وسيذكره الله فيما بعد — بغير اشارة لاسمه — فى قصة يوسف ..

نعرف مقدار تقواه من هذه الاشارة السريعة الى وفاته .. نعلم ان الموت كارثة تدهم الانسان فتنسيه اسمه ، ولا يذكر غير همه ومصيبته .. غير ان يعقوب لا ينسى وهو يموت أن يدعو الى ربه ..

قال تعالى فى سورة البقرة :

« أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ، اذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد آلهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ، ونحن له مسلمون » [١] ..

ان هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى ساعة الموت ولحظات الاحتضـار ، مشهد عظيم الدلالة ..

نحن أمام ميت يحتضر ..

---

(١) الآية ١٣٣ مدنية .

ما هى القضية التى تشغل باله ساعة الاحتضار ... ؟

ما هى الأفكار التى تعبر ذهنه الذى يتهيأ للانزلاق مع سكرات الموت ... ؟

ما هو الأمر الخطير الذى يريد ان يطمئن عليه قبل موته ... ؟

ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه واحفاده ... ؟

ما هو الشىء الذى يريد أن يطمئن — قبل موته — على سلامة وصـــوله للناس .. كل الناس ... ؟

ستجد الجواب على هذه الأسئلة كلها فى سؤاله هو :

((ما تعبدون من بعدى ؟)) [١] .

هذا ما يشغله ويؤرقه ويقلقه ويحرص عليه فى سكرات الموت ..

قضـــية الايمان بالله ..

هى القضـــية الأولى والوحيـــدة ، وهى الميراث الحقيقى الذى لا ينخره السوس ولا يفسده .. وهى الذخر والملاذ ..

قال أبناء اسرائيل : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واســحق الها واحدا ونحن له مسلمون ..

والنص قاطع فى انهم بعثوا على الاسلام ..

ان خرجوا عنه خرجوا من رحمة الله .. وان ظلوا فيه أدركتهم الرحمة ..

....

مات يعقوب وهو يسأل ابناءه عن الاسلام ويطمئن على عقيدتهم ..

وقبل موته ابتلى بلاء شديدا فى ابنه يوسف ..

وكان يوسف نبيا مثل يعقوب .. وقد أرسله الله تعالى الى أهل مصر ..

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة مدنية .

قصة يوسف

[عليه الصلاة والسلام]

، أنزلت قصة يوسف فى القرآن الكريم فى سورة كاملة بالاسم نفسه ..

روى فى أسباب نزولها أن اليهود سألوا الرسول أن يحكى لهم عن يوسف .. أحد أنبيائهم القدامى .. وكانت قصته تهرأت فى أجزاء وبليت فى أجزاء واضيفت اليها أجزاء ونقصت منها أجزاء .. فنزلت فى كتاب الله كاملة بتفصيلاتها الصغيرة الدقيقة .. قال تعالى فى سورة يوسف :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين » [١] ..

. واختلف العلماء لم سميت هذه القصة أحسن القصص ؟

قيل انها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم ..

وقيل لأن يوسف تجاوز عن أخوته وصبر عليهم وعفا عنهم ..

وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والعفة والغواية ، وسير الملوك والممالك ، والرجال والنساء ، وحيل النساء ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه ، وتعبير الرؤيا وتفسيرها ، فهى سورة غنية بالمشاهد والانفعالات ..

وقيل : انها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعا كان الى السعادة .. ومع تقديرنا لهذه الأسباب كلها .. نعتقد أن ثمة سببا هاما يميز هذه القصة ..

انها تمضى فى خط واحد منذ البداية الى النهاية .. يلتحم مضمونها وشكلها ، ويفضى بك لاحساس عميق بقهر الله وغلبته ونفاذ أحكامه رغم وقوف البشر ضدها ..

« والله غالب على أمره ... » [٢] . هذا ما تثبته قصة يوسف بشكل حاسم ، لا ينفى جسمه أنه تم بنعومة واعجاز ..

لقد تعرض يوسف طوال حياته لمؤامرات كانت تأتيه من ألصق الناس به ..

اخوته .. كاد له اخوته جريمة قتل للتخلص منه ، ثم عدلوا عنها واختاروا نفيه ..

---

(١) الآية ٣ مدنية .

(٢) من الآية ٢١ من سورة يوسف مكية

وقع هذا وهو صبى .. وبيع يوسف فى سوق العبيد فى مصر ، واشتراه من اشتراه بثمن بخس .. ثم تعرض لاغواء زوجة رجل هام .. فلما رفض اغواءها القى به فى السجن .. وظل سجينا فترة .. ورغم هذا الهوان كله ، فقد وصل أخيرا الى حكم مصر .. اعتلى عرشها وصار وزير الملك الأول .. وبدأ دعوته الى الله من موقع السلطة الحاكمة ..

ونفذ تدبير الله ، وقضى أمره ..

هذا مضمون القصة ..

أما الشكل الذى قدمت به فكان آية فى العجب ..

قدمت القصة صورا متعاقبة مثل فيلم سينمائى معجز ..

يسلمك المشهد الى المشهد ، ويجيء النقل أو القطع موحيا ذكيا مثيرا للخيال ، وثمة فجوات فنية تترك لخيال المشاهد ان يكملها هو ، وثمة عمق فى الصورة يعجز أى فنان بشرى أن يأتى بمثله ..

والقصة تبدأ بحلم ..

وتنتهى بتفسير هذا الحلم ..

وليس حلم الأنبياء غير رؤيا صادقة يكشف الله لهم فيها أحداثا لم تقع بعد .. غير أننا فى بداية القصة لا نعرف أن يوسف نبى .. ايضا يخفى السياق القرآنى اسم أبيه ، وهو يعقوب ، كما حدث المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ..

من حقنا اذن أن نتأمل الحلم بالدهشة ..

تضىء شاشة العقل أول ما تضىء بمشهد حلم .. وانظر الى تحدى الفيلم الذى يبدأ بحلم .. ان الحلم مرادف للنوم .. وبداية أى قصة بالنوم أمر يوحى بالنعاس .. غير ان ما يقتضى الانصراف هو نفسه أحد أسباب شد القصة ، وأحد عوامل جذبها .. يتجاوز القرآن الحلم الى مشهد يوسف وهو صبى صغير يحدث والده عن رؤياه ..

« اذ قال يوسف لأبيه : يا ابت : انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » [1] ..

تصور نوع التحدى الذى يفرضه وجود الحلم على المخيلة ، وتأمل طاقة الخيال كيف تنشط لتصوره .. ان الذهن البشرى مطالب بأن يخلق داخله صورة لسجود الشمس والقمر والكواكب .. ليستطيع أن يمضى فى القصة ..

بهذه الصورة المعجزة التى تتحدى خيال أعظم الفنانين السينمائيين .. تبدأ قصة يوسف .. أو يبدأ الشريط المرئى من قصة يوسف كما عرضه الله تبارك وتعالى فى كتابه ..

رأى يوسف حلما .. وها هو يحكيه الآن لأبيه ..

---

(1) الآية ٤ من سورة يوسف مكية .

« **قال : يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا • ان الشيطان للانســـان عدو مبين** » [١] .

حذر الأب ولده أن يظهر رؤياه لاخوته .. ان اخوة يوســـف لا يحبونه ، ولا يحبون التصاقه بأبيه ، وينكرون امتلاء قلب الأب به .. لم يكن يوسف أخا شقيقا لهم ، تزوج يعقوب زوجة ثانية غير التى أنجبت له أبناءه ، وانجب منها يوسف وشقيقا له .. ويوسف ابن يعقوب ، ويعقوب ابن اسحق ، واسحق ابن ابراهيم .. حلقات طاهرة فى سلسلة طاهرة ..

ويحس يعقوب من رؤيا ابنه انه سيكون له شأن .. بحكم جو النبوة الذى يحيط به .. وبحكم نقائه الداخلى وشفافيته ..

....

يقول بعض العلماء :

احس يعقوب أن الله يختار يوسف بهذه الرؤيا ..

« **وكذلك يجتبيك ربك** » [٢] .

وكذلك يختارك ربك ..

« **ويعلمك من تأويل الأحاديث** » [٣] .

معنى التأويل هو معرفة المـــآل ، وكشـــف النتيجة .. وادراك اسرار لم تقع بعد ..

فما الأحاديث ؟

قالوا انها الرؤى والأحلام .. سيستطيع يوسف فيما بعد ان يفسر الأحلام والرؤى فيرى من رموزها الغامضة ما سيقع من أحداث ..

وقالوا ان الأحاديث هى الأحداث .. سيعرف مآل الأحـداث التى تنتهى اليه من بداياتها وأوائلها .. سيلهمه الله الهاما أن يعرف ..

« **ان ربك عليم حكيم** » [٤] .

رد النبى العلم والحكمة الى الله فى ختـــام حديثه .. فجاء ذلك مناسبا للبـــدء ..

....

وفى العلماء من يقول ان الآية السابقة ليست جزءا من حوار يعقوب مع ابنه يوسف .. وانما هى ثناء من الله تعالى على يوسف .. ادخلت فى نسيج القصـــة منذ بدايتها .. وهى ليست منها .. فالمفروض الا يعرف يوســـف ويعقوب تأويل الحلم وتفسيره منذ البداية .. ونحن نختار هذا الرأى [ذهب اليه القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن] ..

---

(١) من الآية ٥ من سورة يوسف مكية .
(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف مكية . (٣) من نفس الآية .
(٤) من الآية نفسها .

واذن نفهم الحوار فهما آخر ..

ان الله يتحدث هنا عن اختياره ليوسف .. وهــذا يعنى نبوة يوسف .. وليس تعليمه تأويل الأحاديث ، واطلاعه على حقــائق الرموز التى تقع فى الحياة أو الحلم ، غير معجزات له كنبى .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .. تجد حكمته أسبابها ، وعلمه محيط ..

استمع الأب الى رؤيا ابنه وحذره أن يحكيها لاخوته ..

استجاب يوسف لتحذير أبيه .. لم يحدث اخوته بما راى ، واغلب الظن انهم كانوا يكرهونه الى الحد الذى يصــعب فيه ان يطمئن اليهم ويحكى لهم دخائله الخاصة وأحلامه ..

يختفى مشهد يعقوب وابنه .. وتضىء الشاشة بمشهد آخر .. ثمة قطع ونقلة .. ها هم اخوة يوسف يتآمرون عليه ..

« لقد كان فى يوسف واخوته آيات للســائلين .
« اذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، ان أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجــه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم : لا تقتلوا يوســف والقوه فى غيــابة الجب يلتقطه بعض الســيارة ان كنتم فاعلين [١]

تقول أوراق العهد القديم ان يوسف حدثهم عن رؤياه ..

ولا يفيد السياق القرآنى أن ذلك وقع .. ولو وقع لجاء ذكره على ألسنتهم .. ولكان أدعى أن يهيج حقدهم عليه فيقتلوه .. ان يوســف استسلم لأمر أبيه ولم يحــدث اخوته عن رؤيــاه .. ومع ذلك جلس الاخــوة يكيدون له ويدبرون له مؤامرة .. ذلك ادعى لاتصافهم بالظلم ..

قال أحدهم : لماذا يحب أبونا يوسف اكثر منا ؟

قال الثانى : ربما لجماله ..

قال الثالث : يوسف وأخوه .. احتل الاثنان قلب الأب ..

قال الأول : ضل أبونا ضلالا مبينا ..

اقترح أحدهم حلا للموضوع ..

ــ اقتلوا يوسف ..

□ لماذا نقتله .. نبعده عن هذه الأرض .. نطرحه فى أرض بعيدة ..

ــ ولماذا لا نقتله ونستريح .. نريد أن يخلو لنا وجه أبينا ..

قال قائل منهم ــ حرك الله أعماقه بشفقة خفية ، أو أثار الله فى أعمــاقه رعبا مهولا من القتل ــ قال هذا القائل :

---

(١) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من صورة يوسف مكية .

ـ ما الداعى لقتله .. انتم تريدون الخلاص منه .. عظيم جدا .. تعالوا نلقه فى بئر تمر عليها القوافل .. ستلتقطه قافلة وترحل به بعيدا .. سيختفى عن وجه أبيه .. ويتحقق غرضنا من ابعاده .. ثم نتوب بعد ذلك من جريمتنا ونعود قوما صالحين .

استمر الحوار بعد فكرة البئر .. غير انه كان يعود اليها كحل من أسلم الحلول .. انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة النفى والابعـاد .. كانت اذكى فكرة ..

نفهم من هذا ان الاخوة ، رغم شرهم وحسدهم ، كان فى قلوبهم ، أو فى قلوب بعضهم ، بعض خير لم يمت بعد ..

استقر الراى على القائه فى البئر والتخلص منه .. وتم الاتفاق على موعد التنفيذ ..

وها هى النقلة التالية تكشف عن مشهد جديد بينهم وبين الأب ..

« قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون . قال : انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذن لخاسرون » [1] ..

دار الحوار بينهم وبين أبيهم بنعومة وعتاب خفى ، واثارة للمشاعر ..

ـ مالك لا تأمنا على يوسف ... ؟

أيمكن أن يكون يوسف شقيقنا ، وأنت تخاف عليه بيننا ولا تستأمننا عليه ، ونحن نحبه وننصح له ونرعاه .. لماذا لا ترسله معنا غدا يرتع ويلعب .. افضل لصحته الخروج واللعب والانطلاق .. انظر الى وجهه الأصفر من فرط البقاء فى البيت .. ان الطفل يشحب لانه لا يمارس فى طفولته اللعب ..

وأثار يعقوب نقطة لم ترد فى حوارهم ..

المسألة انه يخاف عليه من ذئاب الصحراء .. اكان يقصد الذئاب الداخلية فيهم ، أم ذئاب الوحوش .. لا أحد يدرى ..

وراودوه عن اصطحاب يوسف ، وفندوا فكرة الذئب الذى يخـاف أبوه أن يأكله ..

أهذا معقول ؟ .. نحن عشرة من الرجال .. فهل نغفل عنه ونحن كثرة ؟ .. نكون خاسرين غير أهل للرجولة لو وقع ذلك .. لن يأكله الذئب ولا داعى للخوف عليه ..

وافق الأب تحت ضغط ابنائه ..

صحبوا يوسف فى اليوم التالى وذهبوا به الى الصحراء .. ابتعدوا اكثر مما يفعلون فى كل مرة .. اختاروا بئرا لا ينقطع عنها مرور القوافل وحملوه وهموا بالقائه فى البئر ..

---

(١) الآيات من ١١ الى ١٤ من سورة يوسف مكية .

واوحى الله الى يوسف انه ناج فلا يخاف .. وانه سيلقاهم بعد يومهم هذا وينبئهم بما فعلوه ..

يذوب المشهد ويضيء مشهد آخر ..

ثمة فجوة هنا .. لا نراهم وهم يلقون يوسف فى البئر .. نستطيع أن نتخيل انه قاومهم فضربوه .. أمروه أن يخلع قميصه والقوه عاريا فى البئر .. ثم أوحى الله اليه انه ناج فلا يجزع ..

كان فى البئر ماء فتلقى جسم يوسف فلم يصب بسوء .. جلس وحده فى مياه البئر ثم تعلق بصخرة ناتئة واعتلاها ..

« **وجاءوا اباهم عشاء يبكون** » [١] ..

المشهد هنا ليل خارجى أسود .. يقطعه صوت بكاء عشرة رجال .. والأب يجلس فى بيته فيدخل عليه أبناؤه أثناء الليل .. حيث تخفى ظلمة الليل ظلمة القلوب ، وظلمة الأكذوبة التى تتهيأ للظهور ..

تساءل يعقوب : لماذا تبكون ؟ .. هل جرى فى الغنم شيء ؟ .. قالوا وهم يزدادون بكاء :

« **يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** » [٢] ..

فوجئنا بعد عودتنا من السباق بأن يوسف قد استقر فى بطن الذئب .. لم نجد يوسف .. انك لن تصدقنا ولو كنا صادقين ، ولكننا نحكى لك ما حدث .. لا نكذب عليك .. لقد أكل يوسف ذئب .. ها هو قميص يوسف .. وجدنا القميص ملطخا بالدم ولم نجد يوسف ..

« **وجاءوا على قميصه بدم كذب** » [٣] .

ذبحوا شاة أو غزالا ولطخوا قميص يوسف بالدم الكاذب ، ونسوا فى انفعالهم أن يمزقوا قميص يوسف .. جاءوا بالقميص كما هو سليما ، ولكن ملطخا بالدم .. والقى أحد الأبناء ما يتصور أنه دليل البراءة ..

القى قميص يوسف أمام أبيه الذى كان يجلس ..

وأمسك يعقوب بقميص ابنه .. ورفعه وتأمله فى ضوء المشعل الموجود فى الغرفة .. راح يقلبه فى يده فوجده سليما بغير خدش واحد .. أى ذئب هذا الذى أكل يوسف ؟ .. هل أكله من داخل القميص بغير أن يمزق قميصه ؟ !

لو كان يوسف يرتدى قميصه والذئب يأكله لتمزق القميص ؛ ولو كان قد خلع قميصه ليلعب مع اخوته فكيف تلطخ القميص بالدم ولم يكن يرتديه ساعتها .. أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، ومن الأكذوبة الواضحة ، أن يوسف لم يأكله الذئب .. لقد الهاهم الحقد الفاتر عن سبك

---

(١) الآية ١٦ من سورة يوسف مكية .
(٢) الآية ١٧ من سورة يوسف مكية .
(٣) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

أكذوبتهم .. ولو كانوا أهدأ أعصابا لما التقطوا حكاية الذئب من فم أبيهم فى حواره معهم ليلة الأمس ، ليقوموا الليلة بتمثيلها أمامه ..

ادرك الأب أنهم يكذبون .. وعبر عن هذا بقوله :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » [١] .

تصرف نبي حكيم .. يسأل الصبر الجميل الذى يخلو من الشكاة .. ويستعين بالله على ما دبروه له ولابنه ..

ينطفىء هذا المشهد وتضىء صورة للبئر التى ألقى فيها يوسف ..

صورة عريضة لصحراء عريضة يبدو هناك فى آخرها خط طويل من الابل والخيل والرجال ..

قافلة فى طريقها الى مصر .. قافلة كبيرة .. سارت طويلا حتى سميت سيارة .. القافلة كلها تتجه الى البئر ..

توقفوا للتزود بالماء .. ادلى الدلو فى البئر .. تعلق يوسف به .. ظن من دلاه أنه امتلأ بالماء فسحبه .. يا للبشرى .. هذا غلام .. حكمه حكم الأشياء المفقودة التى يلتقطها أحد . يصير عبدا لمن التقطه .. هكذا كان قانون ذلك الزمان البعيد . فرح به من وجده فى البداية ، ثم زهد فيه حين فكر فى همه ومسئوليته ، وزهد فيه لأنه وجده صبيا صغيرا ، وربما قال لنفسه أنه لن يباع بشىء يذكر .. وعول على التخلص منه لدى وصوله الى مصر .. ولم يكد يصل الى مصر حتى باعه فى سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة . ومن هناك اشتراه رجل تبدو عليه الأهمية .

« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى ، هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٢] .

أنظر كيف يكشف الله تعالى مضمون القصة البعيد فى بدايتها ..

« والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . [٣] .

لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف .

ألقى فى البئر . أهين . حرم من أبيه . التقط من البئر . صار عبدا يباع فى الأسواق . اشتراه رجل من مصر .. صار مملوكا لهذا الرجل .

انطبقت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة .. هكذا يظن أى انسان .. غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تماما ..

---

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .
(٢) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ سورة يوسف مكية .
(٣) من الآية ٢١ سوره يوسف مكية .

ما نتصور نحن أنه مأساة ومحنة وفتنة .. كان هو أول سلم يصعده يوسف فى طريقه الى مجده .. والله غالب على أمره .. ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين .. ينفذ من خلال تدبير الآخرين فيفسده ويتحقق وعد الله ، وقد وعد الله يوسف بالنبوة . وها هو يلقى محبته على صاحبه الذى اشتراه وها هو السيد يقول لزوجته اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا . وليس هذا السيد رجلا هين الشأن . انما هو رجل مهم . رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر .. سنعلم بعد قليل أنه وزير من وزراء الملك . وزير خطير سماه القرآن « العزيز » ، وكان قدماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء . فهذا العزيز . وهذا العادل . وهذا القوى . الى آخره . وأرجح الآراء أن العزيز هو رئيس وزراء مصر .

وهكذا مكن الله ليوسف فى الأرض .

سيتربى كصبى فى بيت رجل يحكم . وسيعلمه الله من تأويل الأحاديث والرؤى . وسيحتاج اليه الملك فى مصر يوما . والله غالب على أمره . ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

تم هذا كله من خلال فتنة قاسية تعرض لها يوسف .

كان يوسف أجمل رجل فى عصره .. كان وجهه يحمل طاقة من الجمال البشرى المدهش .. وكان نقاء أعماقه وصفاء سريرته يضفيان على وجهه مزيدا من الجمال .

وتمر الأيام ..

يكبر يوسف ..

« ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين » [١] .

أوتى صحة الحكم على الأمور . وأوتى علما بالحياة وأحوالها . وأوتى أسلوبا فى الحوار يخضع قلب من يستمع اليه .. وأوتى نبلا وعفة ، جعلاه شخصية انسانية لا تقاوم .

وأدرك سيده أن الله قد أكرمه بارسال يوسف اليه . اكتشف أن يوسف اكثر من رأى فى حياته أمانة واستقامة وشهامة وكرما . وجعله سيده مسئولا عن بيته وأكرمه وعامله كابنه .

وكانت امرأة العزيز ترقب يوسف يوما بعد يوم . كانت تجلس اليه وتتحدث معه وتتأمل صفاء عينيه وتسأله وتسمع ، ويزداد اعجابها به لحظة بعد أخرى .

حتى جاء اليوم الذى اكتشفت فيه المرأة انها عاشقة .. وبدأت تظهر حبها ليوسف .

يرفع القرآن الستار عن المشهد الختامى فى هذا الحب المشوب بالصراع والتهالك من جانب امرأة العزيز .

---

(١) الآية ٢٢ سورة يوسف مكية .

قـــال تعـــالى :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين » . [1] .

لا يذكر السياق القرآنى شيئا عن سنها وسنه ، فلننظر فى ذلك من باب التقدير . لقد أحضر يوسف صبيا من البئر ، كانت هى زوجة فى الثالثـــة والعشرين مثلا ، وكان هو فى الثانية عشرة . بعد ثلاثة عشر عاما صـــارت هى فى السادسة والثلاثين ووصل عمره الى الخامسة والعشرين ..

أتكون الحادثة قد وقعت فى هذه السن ..

أغلب الظن أن الأمر كذلك . ان تصرف المراة فى الحادثة وما بعدها يشير الى انها مكتملة جريئة ، ولقد كان هذا المشهد الذى يرفع القرآن الستار عنه، ذروة فى مشاهد قديمة يتركها السياق لخيالنا نحن ..

لقد أحبت زوجة العزيز يوسف ..

وراودته صراحة عن نفسه ، واغلقت الأبواب وقالت هيت لك . لن تفر منى هذه المرة . هذا يعنى انه كانت هناك مرات سابقة فر فيها منها . مرات سابقة لم تكن الدعوة فيها بهذه الصراحة وهذا التعرى .

لقـــد تربى يوسف فى قصر كبير وزراء مصر .. تصـــور أنت بيئة مترفة وفراغا عريضا ، وامراة حسناء وصغيرة ، وفتى اشتراه زوجها وصار عبدا لها .. فهى تستدعيه فى حجرة نومها ، وتأمره أن يحضر لها كوبا من الماء مثلا .. أو تظهر عليه بملابسها الشفافة ، أو تظهر له مفاتنها كأنها لاتقصد شيئا أو تغريه بما تغرى به النساء الرجال ، تصور أنت هذا كله فترة تمتد لسنوات

سنوات وهما يعيشان فى بيت واحد .. تحت سقف واحد ..

وهى تستميله اليها وتغريه وتغويه .. وهو على تقواه ، وهى على هواها

ثم جـــاء يـــوم أخير ..

سئمت المراة هذا التجاهل المستمر والاباء . قررت أن تغير خطتها ..

خرجت من التلميح الى التصريح .. أغلقت الأبواب ومزقت اقنعة الحياء وصرحت بحبهـــا وطالبته بنفســـه .

لعلها قالت : يوسف .. ما أجمل وجهك .

وربما قال : هكذا صورنى ربى قبل أن أخلق . لست مسئولا عن ذلـــك

قالت وهى تقترب منه : يوسف .. ما أشد نعومة شعرك .

قال : أول شىء يبلى فى القبر منى .

---

(1) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة يوسف مكية .

قالت : يوسف .. ما أصفى عينيك .

قال : بهما أنظر الى ماخلق ربى .

قالت : ألست شيئا خلقه ربك ؟ .. ارفع بصرك فانظر فى وجهى .

قال : اخاف يوم القيامة .

قالت : أدنو منك وتتباعد عنى ..

قال : أريد القرب من ربى .

قالت : ملأنى حبك .. صرت جزءا من الهواء الذى اتنفسه .. أحببتك حبا صرت بعده أراك من حقى .. لن تفلت منى .

وأدرك يوسف انها تدعوه اليها وقال :

معـــاذ الله .

استغفر الله العظيم .. لقد اكرمنى رب العالمين بهذا البيت . واكرمنى سيد هذا البيت بثقته . فأيهما اخون . وأى نجاح أنتظره لنفسى لو فعلت .

قال تعـــالى :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » . [1]

اتفق المفسرون حول همها بالمعصية ، واختلفوا حول همه .. فمن قائل : انها همت به تقصد المعصية وهم بها يقصد المعصية ولم يفعل . ومن قائل : انها همت به لتقبله وهم بها ليضربها ، ومن قائل : ان هذا الهم كان بينهما قبل هذا الحادث .. كان حركة نفسية داخل نفس يوسف فى السن التى اجتاز فيها فترة المراهقة .. ثم صرف الله عنه . وأفضل تفسير تطمئن اليه نفسى أن هناك تقديما وتأخيرا فى الآية ..

قال أبو حاتم : كنت اقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة ، فلما أتيت عـــلى قوله تعـــالى :

« ولقد همت به وهم بهـــا » . [1]

قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير .

بمعنى ولقد همت به .. ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها .

يستقيم هذا التفسير مع عصمة الأنبياء .. كما يستقيم مع روح الآيات التى تلحقـــه مبـــاشرة :

« كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين » . [1]

وهذه الآية التى تثبت أن يوسف من عباد الله المخلصين ، تقطع فى نفس الوقت بنجاته من سلطان الشيطان . قال تعـــالى لابليس يوم الخلق :

---

(1) من الآية ٢٤ سورة يوسف مكية .

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . [١]

ومادام يوسف من عباده المخلصين ، فقد وضح الأمر بالنسبة اليه . لايعنى هذا أن يوسف كان يخلو من مشاعر الرجولة ، ولا يعنى هذا أنه كان فى نقاء الملائكة وعدم احتفالهم بالحس . انما يعنى أنه تعرض لاغراء طويل قاومه فلم تمل نفسه يوما ، ثم اسكنها تقواها كونه مطلعا على برهان ربه .

عارفا أنه يوسف بن يعقوب النبى ، ابن اسحق النبى ، ابن ابراهيم جد الأنبياء وخليل الرحمن ..

.. ..

وقع تطور على الصراع بينهما .

تطور الحوار من الكلمات الى الأيدى .

مدت امراة العزيز يديها اليه وحاولت أن تحتضنه .

أستدار يوسف مصفر الوجه يجرى الى الباب . انطلقت وراءه امراة العزيز وهى تتعلق بقميصه مثل غريق يتشبث بسفينة .

وصلا الى الباب معا .

انفتح الباب عن مفاجأة .

زوجها وأحد أقاربها .

« واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب » [٢] .

لم تكد العاشقة ترى زوجها يبرز على مسرح الحادثة .. حتى تصرفت بدهاء وسرعة .

كان واضحا أن هناك صراعا .. يوسف يرتعش حياء وينعقد العرق على جبينه .. وهى محلولة الشعر متضرجة الوجنتين مضطربة .. وقبل أن يفتح زوجها فمه بكلمة ليسأل ، بادرته بالقاء التهمة على يوسف .

« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ، الا أن يسجن أو عذاب أليم » [٣] .

اتهمته أنه راودها عن نفسها . قالت أنه حاول اغتصابها .. نظر يوسف فى وجهها ببراءة وحلم . كان ينوى أن يكتم سرها ويستر عليها ، فلما اتهمته اضطر اضطرارا للدفاع عن نفسه .

« قال : هى راودتنى عن نفسى » . [٤] .

يمر السياق على رد الزوج . ونحسب أنه قال :

ــ اخفضا صوتيكما . ان فى البيت عديدا من العبيد والخدم . هذه مسألة خاصة .

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة الحجر مكية .
(٢) من الآية نفسها .
(٣) من الآية ٢٥ من نفس السورة يوسف .
(٤) من الآية ٢٦ نفس السورة .

كان رئيس وزراء مصر شيخا هادىء الأعصاب . والطبقة التى تجرى فيها أحداث القصة طبقة مترفة وليست رجعية ، وهى تعامل الجنس معاملة عاقلة .. وهكذا جلس رئيس الوزراء وفتح تحقيقا فسأل زوجته وسأل يوسف ثم التفت الى قريبها واستنار برأيه .

قال قريبها : ان دليل القضية يكمن فى قميص يوسف . اذا كان ممزقا من الأمام كان هذا معناه أنه حاول اغتصابها . من الطبيعى أن تمزق قميصه دفاعا عن نفسها .

قال الزوج : فان كان قميصه ممزقا من الخلف .

قال الشاهد من أهلها : تكون هى التى راودته عن نفسه .

مشهد خاص للقميص ..

القميص ينتقل بين أيديهم وهى تقلب فيه .

نظر فيه الشاهد من أهلها . فوجده مقطوعا من الخلف . ونظر فيه رئيس الوزراء فوجده ممزقا من الخلف . ثبتت التهمة على الزوجة ..

حكى الله تعالى هذا المشهد فى قوله :

((وشهد شاهد من أهلها : ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : انه من كيدكن ، ان كيدكن عظيم)) [١] .

لما تأكد الزوج من خيانة زوجته .. لم يثر دمه فى عروقه ولم يصرخ ولم يغضب .

فرضت عليه قيم الطبقة الراقية التى وقع فيها الحادث أن يواجه الموقف بلباقة وتلطف .

قال : انه من كيدكن .

نسب ما فعلته الى كيد النساء عموما . وصرح بأن كيد النساء عموما عظيم . وهكذا سيق الأمر كما لو كان ثناء يساق .

ولا نحسب أنه يسوء المرأة أن يقال لها : ان كيدكن عظيم . فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى الكاملة على الكيد .

بعدها التفت الزوج الى يوسف قائلا له :

((يوسف : أعرض عن هذا)) [٢] .

أهمل هذا الموضوع ولا تعره اهتماما ولا تتحدث به .

هذا هو المهم .. المحافظة على الظواهر .. لا نريد ثرثرة حول هذا الموضوع . ثم يحس الزوج أنه لم يقل شيئا لزوجته غير تصريحه المتصل بكيد النساء عموما .

---

(١) من الآيتين ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة يوسف مكية .

(٢) من الآية ٢٩ سورة يوسف مكية .

ويحاول أن يقول لها شيئا خاصا . يحاول أن يعنفها ولكن التعنيف ينتهى به الى لين يتمثل فى قوله :

« واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين . » [١] .

بعد التصريح الأول .. والعظة الأخيرة . انهى الزوج الموضوع وصرف يوسف .

. لم يفصل سيد البيت بين المراة وفتاها .. كل ما طلبه هو اغلاق الحديث فى هذا الموضوع . غير أن هذا الموضوع بالذات . فى هذه الطبقة الراقية بالتحديد . لم يكن ممكنا أن يغلق .

للقصور جدران وآذان وعبيد وخدم وحشم . وربما حدث أحد خدم القصر خادمة يحبها فى قصر آخر . ربما حكت هذه الخادمة لخادم تحبه فى قصر ثالث

وربما حكت الزوجة لوصيفتها من باب استشارتها فى الخطوة التالية ..

المهم أن الموضوع بدأ ينتشر .. خرج من القصر الى قصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها .. ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث . ان خلو حياة هذه الطبقات من المعنى ، وانصرافها الى اللهو ، يخلع أهمية قصوى على الفضائح التى ترتبط بشخصيات شهيرة . وزاد حديث المدينة .

« وقال نسوة فى المدينة : امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، انا لنراها فى ضلال مبين » [٢] .

ها نحن نعرف للمرة الأولى ان المراة هى امراة العزيز . وان الرجل الذى اشتراه من مصر هو عزيز مصر ــ أى كبير وزرائها ــ ربما كان مجرد وزير حين اشتراه ثم تــرقى ..

المهم أنه الآن عزيز مصر .

وانتقل الخبر من فم الى فم . ومن بيت الى بيت .. حتى وصـــل لامراة العــزيز .

ربما قيل لها : تتحدث المدينة عن قصة غرامك .

قـــالت : غـــرامى بمن ؟

قيـــل : بيـــوسف .

قالت : لا انكر اننى أحبـــه .

قيـــل : تتحدث نساء الوزراء عن تهالكك عليه ..

قـــالت : ماذا يقـــلن .

قيـــل : انك فى ضلال مبين .

قالت وقد بدأت تثور : أى ضلال . ان يوسف لا يقاوم .. من الذى يقول

---

(١) من الآية ٢٩ سورة يوسف مكية .
(٢) الآية ٣٠ من نفس السورة .

انني في ضلال .. هل رأين يوسف . هل يعرفن مقدار سحره . من القائلات حـدثوني بأسماء من يثرثرن .

اعتكفت زوجة العزيز فترة وراحت تفكر .

انتهت الى قرار : أصدرت أوامرها باحضار الطهاة . وصل طهاة القصر .

انبأتهم انها تعد مأدبة كبيرة في القصر .. واختارت الوان الطعام والشراب وامرت أن توضع السكاكين الحادة الى جوار التفاح المقدم .. وأن توضـع المفارش البيضاء الى جوار أطباق التفاح . وأن توضع الوسائد والحشـايا على عادة الشرق في ذلك الزمان . ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها ، ولاكت قصة حبها ليوسف . وجاء يوم المأدبة . وهرعت نساء الطبقة الراقية الى قصر رئيس الوزراء . كانت المناسبة فرصة لاستعراض أفتن الثيـاب واحدثها ، واعظم أدوات الزينة والتبرج ، واقتصرت الدعوة على النسـاء فاستمتعن بحرية أكبر . وجلسن متكئات على الوسائد والحشـايا يأكلن ويشربن .. واستمرت المادبة ، وفعل الطعام الجيد والشراب البارد فعـل السحر في النفوس ، فانطلقت على سجيتها ، وارتفعت الضحكات ودارت الثرثرة .. ونحسب ان كل امراة في الحاضرات كانت تمسك لسانها ان ينحرف الى قصة يوسف . كن يعلمن جميعا وتخفي كل واحدة فيهن انها تعلم .. هكذا تقضى الأصول في الطبقات الراقية !

ولذلك وقعت كلمات المضيفة عليهن وقعا مثيرا حين فتحت هي الموضوع :

ــ سمعت من يردد انني واقعة في هوى الفتى العبراني يوسف ..

سقط الصمت على المائدة فجأة . وتوقفت أيدي المدعوات . وسرقت زوجة العزيز المشهد منهن تماما .. قالت وهي تأمر باحضار التفاح ..

ــ اعترف انه فتى ساحر .. لا انكر انني احبه .. لقد أحببته من زمان بعيد

ازاح اعترافها عن الحاضرات احساسا ثقيلا بالحرج ، فعادت النفوس الى ارتياحها السابق وعادت المدعوات الى طعامهن في هدوء .

بدأن تقشير التفاح .

كانت الحضارة في مصر قـد بلغت شـأوا بعيـدا ، وكان الترف في القصـور عظيمـا ..

وكان اعتراف زوجة العزيز قد أطلق ارتياحا عاما في الغرفة .. اذا كانت زوجة العزيز تعترف بأنها تحب ، فهذا يعني أن الحب من حقهن هن الأخريات .. ورغم ان امراة منهن قد قالت جملة تعني أن زوجة العزيز لا ينبغي أن تحب .. انمـا ينبغي أن تـكون موضـع حب . المفـروض أن يتهـالك عليها الرجال .. وذابت المجـاملة في جو الغرفة مثلما ذابت أبخـرة المر والعنبر التي كان يطوف بها الخدم ..

رفعت امراة العزيز يدها وأشارت أن يدخل يوسف .

ودخل يوسف حجرة الطعام . استدعته سيدته فجاء . كانت النسـاء مازلن يقشرن الفـاكهة .

لم يكد يدخل الغرفة حتى وقع ما توقعته امرأة العزيز .

بهتت كل المدعوات فجأة .

ان وجهه يتلألأ برجولة نادرة وجمال ملائكى .. وتعكس عيناه تعبيرا من الصفاء المطلق حتى ليرى الانســان أعلام الحنو وهى ترفرف فى أعماق روحه البعيــدة ..

بهتت النســاء وأكبرنه .. واســتمر تقطيع الفــاكهة بالســكاكين .. هــذه المرة كانت النظرات مسلطة كلها على يوسف .. لم تكن اى امرأة فيهن تنظر الى الفاكهة التى تقطعها بالسكين .

وبدأت النســاء يقطعن أيديهن فى ذهول وبغير أن يشعرن .

كان حضــور يوسف على مسرح المكان قويا الى الحد الذى اذهلهن عن الالم والدم طوال لحظات .

قالت احــدى النســاء بصوت خفيض :

ــ سبحان الله .

وقالت امرأة أخرى بصوت ناعم تسجنه الدهشة :

ــ ما هذا بشرا ؟.

وتمتمت امرأة ثالثة وهى تزيح خصــلة من شعرها ارتمت على عينيها وكادت تعوق الرؤية :

ــ ان هــذا الاملك كريم ..

وقفت امرأة العزيز فجأة وقالت :

ــ هــذا الذى وجــه الى اللوم بســببه .. لا أنكر اننى راودته عن نفسه .. أماكن مناشف بيضــاء لتضميد الجراح .. لقد استولى عليكن يوسف فانظرن ما حدث لأيديكن .

ينتقل المشهد بين يوسف والاصــابع التى حزت فيها السـكاكين فــلم تشــعر صــاحباتها بشىء .. نحسب أن يوســف كان ينظر فى الأرض أو يمد نظراته أمامه فى اتجاه لاشىء .. فلما جاء ذكر الدماء نظر الى المأدبة وفوجىء بأن الدماءتسيل الى جوار التفاح من أصــابع النسوة .. واسرع يوسف لاحضار الضمادات والماء كفتى يعمل فى القصر .. نحسب أن امرأة العزيز قالت وهو يضمد جراح امرأة ..

ــ لقد راودته عن نفســه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصــاغرين .. نحسب أن يوسف ابتلع كلماتها فى نفسه ولم يعلق .. انه نبى .. مأساة هذه المرأة أنها أحبت نبيا . نحسب أيضا أن النساء راودنه عن نفســه فى المأدبة .

قالت امرأة خارقة فى الجمال من المدعوات ليوسف وهو يضمد جراحها :

ــ ان مجــرد نظرتك الى يدى يا يوســف تكفينى عن أصــابعى التى قطعت ..

او قيــل له :

ــ يوســف .. الا تريد جــارية تنظف نعلك وتغســل قميصــك وتسجد لك ..

وربما كانت نســاء هذه الحقبة يملكن أسلوبا مختلفا من الاغراء .. ربما استخدمت احداهن سلاح العينين او سلاح الأهداب أو سلاح الجسد ..

لا نعرف ماذا وقع فى المأدبة . ندع خيــالنا يتمثل ما حــدث .. ويبدو أن الاغراء وجه اليه من كل النســاء المدعوات .. ويبدو أن الدعوة ألقيت تحت اقدامه من كل الحاضرات . ويبدو أنهن رحن يهددنه هن الأخريات ..

ووقف يوسف وســط هذه الفتنة الثقيلة محرجا حائرا .

((قال : رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه)) [١] .

لم يقل مما تدعوننى اليه . واضح أن مجرد ظهوره على النســاء جعل الدعوة جماعية .

اشتركن جميعــا فى الدعوة ســواء باللفتات أو الحركات أو التلميح او التصريح .. واستنجد يوسف بالله أن ينقذه من كيدهن . دعا الله كبشر يعرف بشريته ، ولا يغتر بعصمته ونبوته ... دعا الله أن يصرف عنه كيدهن ، كيلا يميل اليهن ويكون من الجاهلين .

واستجاب له الله ... فبدأت الأيدى المقطــوعة النــازفة توجع بالالم ... وانصرف هو من صــالة الطعام .. وانشغلت كل امرأة فيهن بتضميد جراحها ، والتفكير فى حجة تقولها لزوجها الوزير اذا ســألها لمــاذا قطعت يدها .. وأين كانت .

....

حكى الله تعالى مشهد المادبة فى قوله :

((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت : أخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن : حاش لله ما هذا بشرا ان هــذا الا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقــد راودته عن نفســه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال : رب : السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ، والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، انه هو السميع العليم)) [٢] .

صرف الله عن يوسف كيد النســاء ..

أوقع فى قلوب النســوة يأســا كاملا منه ومن حبه . صــار حبهن

---

(١) الآية ٣١ من سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات من ٣١ الى ٣٤ سورة يوسف مكية .

له نوعا من أنواع الرغبات المستحيلة .. واجهت هذه الرغبات المستحيلة ذكرى يوسف أكثر من ذى قبل .. راحت النساء يتحدثن عنه وعن تأثيره ومهابته ونبله .. ويحكين كيف قطعن أيديهن بالسكاكين حين رأينه .. وانتشر الخبر من الطبقة العليا الى طبقات الشعب .. بدأ الناس يتحدثون عن الفتى العبرانى الذى رفض زوجة كبير الوزراء ، وقطعت زوجات الوزراء أيديهن بسببه ، ولو اقتصر الأمر على ردهات القصور وغرفها المغلقة لما اهتم أحد ، لكن الأمر يتسرب الى الشعب .. هيبة الحكم كله فى الميزان .. وتحرك الجهاز الحاكم واعتقل يوسف .

أدخل السجن .. اسكاتا للألسنة . واسباغا لظلال الشبهات عليه .. ومحاولة للقضاء على القصة برمتها . ولقد قال يوسف حين دعته النساء الى الخطيئة أن السجن أهون عليه وأحب اليه مما يدعونه اليه . ها هى يد العناية العليا تمضى به فى التجربة الى نهايتها .. وها هو يدخل السجن رغم براءته .

يدخله رغم ظهور الآيات على براءته ، ووضوح الأدلة على ادانة غيره .. لا نعتقد أن امرأة العزيز هى السبب فى ادخاله السجن ، نعرف أن رفضه الحاسم لها أثار كبرياءها ، وطعن كرامتها طعنة عميقة ، لكننا نعتقد أنها أحبته حبا عظيما .

وربما كان دخول يوسف السجن نقطة تحول أساسى فى علاقتها به .. كانت تهفو اليه وتحبه ، فلما ابتعد عنها انشب الحنين اليه أظافره فى قلبها ، وتمنت لو كان خارج السجن ولو لم تنله هى ..

ولعل دليلنا على تحول حبها له ، وصدقها بعد ذلك فى الحب ، أنها اعترفت بعد ذلك أنها حاولت ايقاعه فرفض . وبررت اعترافها بقولها : ليعلم أنى لم أخنه بالغيب .. كان حرصها على صورتها فى قلبه أهم من سلامها مع زوجها أو احتفاظها بمقعدها كسيدة ثانية فى مصر . وكأن حبها له — وهو غائب — كان يختلف فى نوعه وعمقه عن حبها له وهو فتى يخدمها فى القصر بالأمر ..

حين استطالت بينهما المسافة .. وامتد البعد .. وحرمت من رؤيته .. أحبته نوعا من الحب لا يجعلها تخونه — حتى فى غيابه .

كم تعذبت امرأة العزيز بحبها البشرى .. ان مأساتها أنها اختارت بقلبها الذى يقف على الأرض . رجلا .. قلبه أبحر فى بحار الحب الالهى منذ أزمنة ..

دخل يوسف السجن .

قال تعالى فى سورة يوسف :

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » . [1]

ظهر لهم .. واستقر رأيهم .. رغم براءته وظهور آيات البراءة . استقر رأيهم على سجنه حتى حين .. الى أجل غير مسمى .. الى مدة غير

---

(1) الآية ٣٥ من سورة يوسف مكية .

محددة . حتى ينطفىء الحديث عن القصة ، وتخبو النيران التى أشعلتها وسط الناس . واذا كان الوزراء وكبيرهم قد عجزوا عن كبح جماح نسائهم ، فانهم ليسوا عاجزين عن سجن برىء .. هذه مهنتهم ولعبتهم التى يجيدونها باتقان ويسر .

وهكذا ترسم الآية الموجزة جو هـذا العصر بأكمله .. جو الفساد الداخلى فى القصور ، جو الأوساط الارستقراطية .. وجو الحكم المطلق .

ان حلول المشاكل فى الحكم المطلق هى السجن .. ولو نظرنا فى نوع المجتمع المصرى يومها ، ورأينا ماذا كان يعبد ، لعرفنا لماذا أظله الحكم المطلق ..

كان المصريون يعبدون آلهة متعددة . كانوا على عبادة غير الله .. ولقد رأينا من قبل كيف تضيع حريات الناس حين ينصرفون عن عبادة الله الى عبادة غيره ، وها نحن نرى فى قصة يوسف شاهدا حيا يصيب حتى الأنبياء . صدر قرار باعتقاله وأدخل السجن . بلا قضية ولا محاكمة ، ببساطة ويسر .. نحن فى مجتمع يعبد آلهة متعددة ، وبالتالى تحكمه آلهة متعددة . ولذلك لايصعب فيه سجن برىء .. بل لعل الصعوبة تكمن فى محاولة شىء غير ذلك .

دخل يوسف السجن ثابت القلب هادىء الأعصاب أقرب الى الفرح لأنه نجا من الحاح زوجة العزيز ، ومن أسئلة الوزراء ، وتطفلات الكهنة ، وثرثرة الخدم ، وهـذا الصداع الغريب الذى حاصره فى الفترة الأخيرة ، بسبب حب امرأة العزيز وتقطيع النسوة لأيديهن .

كان السجن بالنسبة اليه مكانا هادئا يخلو فيه ويفكر فى ربه .

لقد أحس يوسف فى الفترة الأخيرة أن أشرعة الهوى البيضاء التى نشرها فى سفينته لم تعد تمتلىء بالهواء . لم يتوقف ابحاره الى الله لكن المحنة شوشت عليه اتصاله بربه ..

وها هو الهدوء يعود .

وها هى أجهزة استقبال فى وجدانه تنصت وتتسمع ويزداد امتلاؤها بالحب والرحمة والوحى .

وانتهز يوسف فرصة وجوده فى السجن ، بين قوم أبرياء يحسون بظلم الأبرياء .. ليقوم بالدعوة الى الله . ان الظلم البشرى يجعل النفوس أقرب الى سماع الهدى ، ويجعل استجابتها أعمق فى التوجه الى الله مفرج الكروب . كان يحدث الناس عن رحمة الخالق وعظمته وحبه لمخلوقاته، كان يسأل الناس : أيهما أفضل .. أن ينهزم العقل ويعبد أربابا متفرقين . أم ينتصر العقل ويعبد رب الكون العظيم . وكان يقيم عليهم الحجة بتساؤلاته الهادئة وحواره الذكى وصفاء ذهنه ، ونقاء دعوته .

ودخل معه السجن فتيان : أحدهما رئيس الخبازين عند الملك .. والثانى رئيس السقاة الذى يتناول منه الملك كؤوس الخمر لشربها .

وشاهد الخباز حلما رأى نفسه فيه يقف فى مكان يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه .

وشـــاهد الساقى حلما رأى نفســـه فيه يسقى الملك خمرا .

وذهب الاثنان الى يوسف . حـــدثه كل واحد عن حلمه وطلب تفســـير ما رآه . وانتهز يوسف الفرصة وراح يدعو الله ، ثم حـــدث الخبـــاز انه سيصلب ويموت ، أما الســـاقى فسوف يخرج من السجن ويعود الى الملك ، وقال للســـاقى اذا ذهبت الى الملك فاذكرنى عنده .. قل له : ان هنـــاك سجينا مظلوما اسمه يوسف .

ووقع ما تنبأ به يوسف تماما . قتل الخباز وعفى عن الساقى وعاد الى القصر .. غير أنه نسى أن يحـدث الملك عن يوسف . انساه الشـــيطان أن يذكر يوسف .. ومكث يوسف فى السجن سنوات .

قال تعـــالى :

((ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : انى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر : انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، انا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، انى تركت ملة قوم لا يؤمنـــون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى ابراهيم واســـحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن اكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن : أأرباب متفرقون خير ؟ . أم الله الواحد القهار ؟ . ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) [١]

بعد هذه الدعوة العميقة الى الله .

بعـــد اثبات حجته على الســـائلين .. فسر لهما يوســـف ما رآياه من احـــلام :

((يا صاحبى الســـجن : أما أحدكما فيسقى ربه خمـــرا ، وأما الآخـــر فيصـــلب فتأكل الطير من رأســـه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين)) . [٢]

لاحظ كيف يقص السياق القرآنى القصـــة ، فنرى يوسف لا يحـــدد صـــاحب البشرى وصـــاحب المصير السىء . تحرجا وتلطفا منه بهما .. غير أنهما فهما قصـــده حين نفذ الحكم فى أحدهما وحكم ببراءة الثانى ..

يسقط السياق القرآنى أن التأويل قد تحقق . وأن الأمر قد قضى على ما أوله يوسف . ويترك هنـــا فجوة للخيـــال يسيح فيها ليعرف أن هـــذا كله قد كان .. ويخرج الناجى الى القصر .. عاد يســـقى الملك مرة ثانية . كان المفروض أن يذكر يوســـف الذى تنبأ له بالنجـــاة .. غير أن قصـــة

---

(١) الآيات من ٣٦ الى ٤٠ من سورة يوسف مكية .
(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة يوسف مكية .

يوسف سقطت تماما من ذاكرته .. نسى تأويله لرؤياه ودعوته لله . شغله ترف القصر الملكى . وأنساه انشغاله بسيده الملك أو [ربه] كما كانوا يسمون سادتهم فى ذلك العصر . أنساه هذا كله ذكر يوسف . وأسدل الشيطان ستارا سابغا على موضوع يوسف فى ذهنه .

ولبث يوسف فى سجنه بضع سنين .

تحملها صابرا راضيا داعيا غير قانط .

يظلم المنظر فى السجن ويضىء فى حجرة الملك .

الملك نائم يحلم . تنتقل الصورة الى حلمه . رأى نفسه يقف على شاطىء النيل . كان ماء النيل يهبط أمام عينيه . راح ماؤه يغيض حتى تحول النهر الى خيط من الطين الخالى من الماء .

وراحت الأسماك تقفز وتتواثب حتى اختفت فى طين النهر . خرجت من النهر سبع بقرات سمان . خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة . هاجمت الأبقار الهزيلة الأبقار السمينة .. تحولت الابقار الهزيلة الى وحوش والتهمن الأبقار السمينة . كان الملك واقفا يشهد بالرعب صرخات الأبقار السمينة وهى تغيب فى جوف الأبقار الهزيلة . نبتت على شاطىء النيل سبع سنبلات خضر .. ثم غابت السنابل الخضر فى الطين ونبتت فى نفس الموضع سبع سنبلات يابسات .. استيقظ الملك فزعا من نومه ..

أحس بانقباضة لا يدريها فى صدره .

ارسل الى العرافين والكهنة وكبير الوزراء . قص عليهم حلمه وطلب تفسير رؤياه .

قال العراف : هذه أشياء مختلطة . كيف تأكل سبع بقرات هزيلة سبع بقرات سمينة . هذه أضغاث احلام .

قال الكاهن : لعل مولاى أثقل على نفسه فى العشاء قليلا . أتحدث عن موضوع السنابل الخضر واليابسة ..

وقال كبير الوزراء : أيكون مولاى يقذف غطاءه بقدميه ويتعرى اثناء الليل . تقول النساء أن ذلك يستدعى الأحلام .

وقال مهرج الملك له وهو يمازحه : بدأ مولاى يكبر فى السن وتختلط احلامه .

وهكذا اتفقت آراء الخبراء على ان حلم الملك بلا معنى .. وأنه اضغاث احلام ...

وصل الخبر الى الساقى .. تداعت أفكاره وذكره حلم الملك بحلمه الذى رآه فى السجن . وذكره السجن بتأويل يوسف لحلمه . وأسرع الى الملك وحدثه عن يوسف .. قال له : ان يوسف هو الوحيد الذى يستطيع تفسير رؤياك . لقد أوصانى أن أذكره عندك ولكننى نسيت .

وأرسل الملك ساقيه الى السجن ليسأل يوسف .

قال تعـــالى :

« وقال الملك : انى أرى سبع بقرات ســـمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق : أفتنا فى سبع بقرات ســـمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » . [١]

اظلمت حجرة الملك واضاءت الشاشة بمشهد السجن .

يوسف فى سجنه ..

ســـاقى الملك يلجأ اليه ..

جاء الوقت واحتاج الملك الى رأيه .. والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . سئل يوسف عن تفسير حلم الملك . فلم يشترط خروجه من السجن مقـــابل تفسيره .. لم يســـاوم ولم يتردد ولم يقل شيئا غير تفسير الرؤيا .. هكذا ببراءة النبى حين يلجأ اليه الناس فيغيثهم .. وان كان هؤلاء أنفسهم سجانيه وجلاديه .

قال يوسف لســـاقى الملك :

« قال : تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصـــدتم فذروه فى سنبله الا قليـــلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شـــداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . » [٢] .

افهم يوسف رســـول الملك أن مصر ستمر عليها سبع سنوات مخصبة تجود فيها الأرض بالغلات . وعلى المصريين الا يسرفوا فى هـــذه السنوات السبع . لأن وراءها سبع سنوات مجدبة ســـتأكل ما يخزنه المصريون ، وأفضل خزن للغـــلال أن تترك فى سنابلها كى لا تفســـد أو يصـــيبها الســـوس أو يؤثر عليها الجو . '

بهـــذا انتهى حلم الملك . وزاد يوسف تأويله لحلم الملك بالحـــديث عن عام لم يحلم به الملك . عام من الرخاء . عام يغـــاث فيه الناس بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرون خمرا ، وينمو سمسمهم وزيتونهم فيعصرون زيتا .

كان هـــذا العـــام الذى لا يقابله رمز فى حلم الملك .. علما خاصـــا أوتيه يوسف . فبشر به الســـاقى ليبشر به الملك والناس .

عاد الســـاقى الى الملك . اخبره بما قال يوسف . دهش الملك دهشة شـــديدة .

---

(١) الآيات ٤٣ الى ٤٦ من نفس السورة .
(٢) الآيات ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ نفس السورة .

ما هـذا السجين .. انه يتنبأ لهم بما سيقع ، ويوجههم لعـلاجه .. دون أن ينتظر أجرا أو جزاء .. أو يشترط خروجا أو مكافأة ..

أصدر الملك أمره باخراج يوسف من السـجن واحضـاره فورا اليه . ذهب رسول الملك الى السجن .

لم يكن هو السـاقى هذه المرة . كان شـخصية رفيعة . أغلب الظن أنه كان أحد الوزراء . ذهب اليه فى سجنه . رجاه منه أن يخرج للقاء الملك .. فهو يطلبه على عجل .

رفض يوسف أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته .

يبدو أنهم كانوا قـد اتهموه بشىء يدور حـول النسـاء اللاتى قطعن أيديهن ..

لعلهم قالوا مثلا انه حاول الاعتداء عليهن فدافعن عن أنفسـهن ومزقن أيديهن بالسـكاكين .. لعلهم افتروا عليه أى افتراء متهـافت يسـتحيل هضـمه .

كل شىء جائز فى التصور والحكم المطلق !

لا نعرف ماذا قيـل بالضـبط أمام الناس فى تبرير دخول يوسـف السجن .. كل ما نعرفه أن يوسف رفض أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته .. وهاهو يحيـل الملك الى سؤال النسـوة .. بطـلات معركة المأدبة الشهيرة التى انتهت بتقطيع أيديهن .

« وقال الملك : ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال : ارجع الى ربك فاسـأله ما بال النسـوة اللاتى قطعن أيديهن ، أن ربى بكيدهن عليم . » [1]

عاد الرسول الى الملك .

صرخ الملك حين رآه : أين يوسف ؟

قال رسول الملك : فى السجن .

نهض الملك من مقعده وقال : الم آمرك باحضـاره .

قال رسول الملك : رفض أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته ، وحققتم جلالتـكم فى موضوع النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

قال الملك : اسـتدع زوجـات الوزراء وأحضروا امرأة العـزيز .. الآن . ليحضر الجميـع على الفور ..

كان الملك مهتـاجا يحس أن يوسف قد تعرض لمحنة لا يدريهـا الملك على وجه التحقيق .. ربما سمع الملك شـائعات قـديمة تتردد عن زوجة كبير وزرائه وقصـة حبها لفتى عبرانى اشتراه زوجها .. غير أن الملك لم

---

(1) الآية ٥٠ سورة يوسف مكية .

يعر ما سمع اهتماما ، فقد كانت هذه القصص شيئا معتادا مكررا ولا يبدو غريبا فى دنيا القصور .

حضرت امرأة العزيز ونساء المأدبة .

سأل الملك : ما هى قصة يوسف .. ما الذى تعرفنه عنه .. هل صحيح أنه ..

قاطعت احدى النساء الملك قائلة : حاش لله .

وقالت امرأة أخرى : لا نعرف أنه ارتكب سيئة واحدة ..

وقالت امرأة ثالثة : كان فى طهر الملائكة .

التفتت الأنظار لامرأة العزيز .. كانت شاحبة الوجه قد نقص وزنها الى النصف .. هدها الحزن على يوسف وهو فى سجنه .. وزادت حنينا الى رؤيته . وتغير نوع حبها له بعد محنته .

اعترفت بشجاعة العاشقة أنها كانت كاذبة وهو صادق . لقد راودته عن نفسه فرفض . أكدت أنها تقول ما تقول لا خوفا من الملك أو من النساء ، وانما ليعلم يوسف أنها لم تخنه بالغيب . لم يزل ذهنها يدور حول يوسف ، هو الذى يعنيها وحده دون سائر الخلق . وثبتت براءة يوسف أمام الجميع . حكى الله نبأ هذا التحقيق والمحاكمة فى قوله تعالى :

« قال : ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » . [1]

يصور السياق القرآنى لنا اعتراف امرأة العزيز ، بألفاظ موحية ، تشى بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة .

ــ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين .

شهادة كاملة بإثمها هى ، وبراءته ونظافته وصدقه هو .

شهادة لا يدفع اليها خوف أو خشية أو أى اعتبار آخر .. يشى السياق القرآنى بحافز أعمق من هذا كله . حرصها على أن يحترمها الرجل الذى أهان كبرياءها الأنثوية ، ولم يعبأ بفتنتها الجسدية . ومحاولة يائسة لتصحيح صورتها فى ذهنه . لا تريده أن يستمر على تعاليه واحتقاره لها كخاطئة . تريد أن تصحح فكرته عنها .

ــ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب .

لست بهذا السوء الذى يتصوره فى .

لعلها بدأت تبكى وهى تقول :

---

(1) الآيتان 51 ، 52 سورة يوسف مكية .

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، ان ربى غفور رحيم » . [١] .

ان تأمل الآيات يوحى ان امراة العـــزيز قد تحولت الى دين يوسف . تحولت الى التوحيد . ان سجن يوسف كان نقلة هائلة فى حيـــاتها . آمنت بربه واعتنقت ديانته ، وأحبته على البعد ، ولا زالت هى المراة العاشقة التى لا تملك الا أن تظل معلقة بكلمة منه . أو خاطرة ارتياح .. ولو بالغيب .. وعلى البعد .. ودون لقاء أو أمل فى لقاء .

« وقال الملك : ائتونى به استخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال : انك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوســـف فى الأرض يتبوأ منهـــا حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » [٢] .

....

يهمل السياق القرآنى بعد ذلك قصة امراة العزيز تماما ، يســـقطها من المشاهد ، فلا نعرف ماذا كان من أمرها بعد شهادتها الجريئة التى أعلنت فيها ضمنا ايمانها بدين يوسف ..

وقد لعبت الأساطير دورها فى قصة المراة ..

قيل : ان زوجها مات وتزوجت من يوســـف ، فاكتشـــف انها عـــذراء ، واعترفت له أن زوجها كان شيخا لا يقرب النساء ..

وقيل : ان بصرها ضاع بسبب استمرارها فى البكاء على يوسف ، خرجت من قصرها وتاهت فى طرقات المدينة ، فلما صـــار يوســـف كبيرا للوزراء ، ومضى موكبه يوما هتفت به امراة ضريرة تتكفف الناس : سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بالطاعة ..

سأل يوسف : صوت من هذا ؟ .. قيل له : هذه امراة العزيز ، انحـــدر حالها بعد عز .. واستدعاها يوسف وسألها : هل تجدين فى نفسك من حبك لى شيئا ؟

قالت : نظرة الى وجهك أحب الى من الدنيا يا يوسف .. ناولنى نهـــاية سوطك .. فناولها ، فوضعته على صـــدرها ، فوجد الســـوط يهتز فى يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ..

وقيلت أساطير أخرى عديدة ، يبدو فيها أثر المخيلة الشـــعبية وهى تنسج قمة الدراما بانهيار العاشـــقة الى الحضيض .. غير ان الســـياق القرآنى تجاوز تماما نهاية المراة .. اغفلها من سياق القصة ، بعد أن شهدت ليوسف .. وهذا يخدم الغرض الدينى فى القصـــة ، فالقصة أساسا قصـــة يوسف وليست قصة المراة .. وهذا أيضا يخدم الغرض الفنى .. لقد ظهرت المراة

---

(١) الآية ٥٣ سورة يوسف مكية .
(٢) الآيات من ٥٤ الى ٥٧ سورة يوسف مكية .

ثم اختفت فى الوقت المناسب .. اختفت فى قمـــة مأســـاتها .. وشـــاب اختفاءها غموض فنى معجز .. ولربما بقيت فى الذاكرة باختفائها هذا زمنا أطول مما كانت تقضيه لو عرفنا بقية قصتها ..

....

قال الملك : ائتونى به استخلصه لنفسى ..

دخل يوسف على الملك ، تحدث معه الملك بلغته وأجاب يوسف ..

تحدث الملك بلغة ثانية ، فجاوبه يوســـف بالعربية .. ســـاله الملك : أى لسان هذا ؟ .. قال يوسف هذا لسان اسماعيل عم أبى ..

تحدث مع الملك بالعبرانية .. سأله الملك ما هذا اللسان ؟ .. قال : هذا لسان آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب .. وكان الملك يتكلم بأكثر من لسان ، كان يجيد اكثر من لغة .. ووجد يوسف يجيد أكثر من لغة ..

ادهشت الملك ثقافة يوسف .. ومعرفته العميقة .. ودلف الحـــديث الى الحلم .. ونصح يوسف الملك بأن يبدأ تخطيطا صارما لجمع الطعام وخزنه ، لمواجهة سنوات القحط .. وأفهم الملك أن المجاعة ستعم مصر وما حولها من الديار .. وينبغى ان تستعد مصر لمواجهة الموقف بالنســـبة لها وغيرها من البلاد المحيطة بها .. نفهم من هذا أن مركز مصر الممتاز كان حقيقة تاريخية قديمـــة ..

وتساءل الملك عن تنفيذ الخطة .. قال فيمـــا قاله ، كمـــا أورد تفســـير القرطبى :

ــ لو جمعت أهل مصر ما أطاقوا هذا الأمر .. ولم يكونوا فيه أمناء .

كان الملك يقصد الطبقة الحاكمة وما حولها من طبقات .. ان العثور على الأمانة فى الطبقة المترفة شديد الصعوبة ..

بعد اعتراف الملك ليوسف بهذه الحقيقة ..

قال يوسف : اجعلنى على خزائن الأرض .. انى حفيظ عليم .

لم يكن يوسف في كلمته يقصد النفع أو الاستفادة .. على العكس من ذلك .. كان يحتمل أمانة اطعام شعوب جائعة لمدة سبع سنوات .. شعوب يمكن أن تمزق حكامها لو جاعت .. كان الموضوع فى حقيقته تضـــحية من يوســـف ..

❊ ❊ ❊

لا يثبت السياق القرآنى ان الملك وافق .. فكأنما يقول القرآن الكريم ان الطلب تضمن الموافقة .. زيادة فى تكريم يوسف ، واظهار مكانته عند الملك .. يكفى ان يقول ليجاب .. بل ليكون قوله هو الجواب ، ومن ثم يحـــذف رد الملك .. ويفهمنا شريط الصور المعروضة أن يوسف قد صـــار فى المكان الذى اقترحه ..

وهكذا مكن الله ليوسف فى الأرض ..

صار مسئولا عن خزائن مصر واقتصـــادها .. صـــار كبيرا للوزراء ..

ولعل الجمع بين وظيفتى رئيس الحكومة ورئيس الخزانة قد أرسيت تقاليده يومها ..

ولا ينبئنا السياق القرآنى كيف تصرف يوسف فى مصر .. نعرف انه حكيم عليم .. نعرف انه أمين وصادق .. لا خوف اذن على اقتصاد مصر ..

دارت عجلة الزمن ..

طوى السياق دورتها ، ومر مرورا سريعا على سنوات الرخاء ، وجاءت سنوات المجاعة .. وهنا يغفل السياق القرآنى ذكر الملك والوزراء .. كأن الأمر كله قد صار ليوسف .. وها هو القرآن لا يذكر لنا أن المجاعة بدأت .. لا يصف لنا بدءها ، انما يعرض مشهدا مصورا لاخوة يوسف وقد جاءوا من فلسطين لابتياع طعام من مصر .. طعام كان يوزع بنظام يشبه نظام البطاقات ، وهو نظام لم يعرفه العالم الا فى قمة حضارته ، بعد نشوء علم التخطيط والاقتصاد الموجه ، وكان قصد يوسف أن يوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذى يضطلع فيه بالتموين .. ولم يكن كل من يملك الشراء يشترى المقادير التى يستطيع شراءها ليخزنها ويموت الآخرون .. وقيل انه كان يعطى كل فرد فى الفترة الواحدة حمل بعير ..

جاء اخوة يوسف من الصحراء .. جاءوا يبتاعون طعاما من مصر ..

تقول الأمثال العامية المصرية : « لو شبعت مصر وجاع العالم .. فان مصر تطعمه .. ولو جاعت مصر لم يشبعها العالم » .. هى الأم الأولى ، ويدها الممدودة بالخير على الأرض قديمة وعريقة ..

جاء الاخوة الذين القوه فى البئر ..

جاء أولاد يعقوب فى صفوف الجماهير الطويلة صاحبة الحاجة ..

وهو يجلس على عرش مصر .. حاكما مطاعا يأمر وينهى .. ويتحكم فى لقمة عيش الناس .. يحف من حوله وزراؤه ورجاله وجنده وأبهته ..

عرف يوسف اخوته على الفور .. ولم يعرفوه هم ..

يستحيل أن يعبر طيف يوسف افكارهم الآن .. لقد تخلصوا منه من زمان بعيد .. وضاق بهم الحال فجاءوا من فلسطين يبحثون عن الطعام فى مصر ..

واجرى يوسف حواره مع اخوته ، بغير ان يكشف لهم عن نفسه ..

كان عدد الاخوة عشرة ..

وكان معهم أحد عشر بعيرا ..

سألهم يوسف — مستخدما احد المترجمين — لكى لا يتحدث لغتهم العبرانية :

— نظامنا يقضى باعطاء كل انسان قدر بعير من الطعام .. كم عددكم ؟

قالوا : نحن أحد عشر ..

قال يوسف للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا .. وزيكم يخالف زينـــا .. فلعلكم جواسيس ..

قالوا : والله ما نحن بجواسيس .. بل نحن بنـــو أب واحد .. شـــيخ طيب ..

سأل يوسف : قلتم أن عددكم أحد عشر .. ولكنكم عشرة ... ؟

قالوا : كنا اثنى عشر أخا .. هلك لنا أخ فى البرية .. ولنا أخ آخر يحبه ابونا ، ولا يستطيع أن يصبر على فراقه .. جئنا ببعيره بدلا منه ..

قال يوسف : كيف أتأكد من صدقكم ؟

قالوا : اختر شيئا تسكن اليه نفسك ..

قال يوسف : يقضى النظام الا نصرف لأحد غير موجود .. ائتونى باخيكم لأصرف له طعامه .. الا ترون انى أوفى الكيل ... ؟

اســـتمر الحوار بين اخوة يوســـف ويوســـف .. أفهمهم يوســـف انه سيستثنيهم هذه المرة .. فاذا جاءوا فى المرة القادمة بغير أخيهم فلن يصرف لهم .. قالوا له سنحاول اقناع والده بأن يتركه معنا ..

قال تعـــالى :

« وجاء اخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ . فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا : سنراود عنه أباه وانا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » [1] ..

يذوب المشهد فى مصر ، ويضىء فى أرض كنعان ..

رجع الاخوة الى ابيهم .. قبل أن ينزلوا احمـــال الجمـــال ويفكوا متاعهم دخلوا على ابيهم ..

ـــ منع عنا الكيل ..

☐ وقع هذا بسبب احتفاظك بابنك ..

ـــ قالوا لن نصرف طعاما لمن لا يحضر ..

☐ لماذا لا تأمنا عليه ؟.. ارسله معنا وانا له لحافظون ..

كان واضحا أن الحوار يستهدف احراج الأب وتحميله مسئولية عدم صرف الطعام لهم ..

ورد الأب بأدب الأنبياء :

قال انه لا يأمنهم على ابنه الصغير الا كما أمنهم على يوسف من قبل ، وانه

---

(١) الآيات من ٥٨ الى ٦٢ سورة يوسف مكية .

لا يعبأ بقولهم : انا له لحافظون .. فالله خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين ..

وفتح الأبناء أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال .. فاذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها .. مردودة اليهم مع الغلال والطعام .. ورد الثمن يشير الى عدم الرغبة فى البيع ، أو هو انذار بذلك .. وربما كان احراجا لهم ليعودوا لسداد الثمن مرة أخرى ..

واسرع الأبناء الى أبيهم ..

قالوا : يا أبانا ما نبغى .. لم نكذب عليك .. لقد رد الينا الثمن الذى ذهبنا نشترى به ..

هذا معناه انهم لن يبيعوا لنا الا اذا ذهب أخونا معنا ..

واستمر حوارهم مع الأب .. أفهموه أن حبه لابنه والتصاقه به يفسد مصالحهم ، ويؤثر على اقتصادهم ، وهم يريدون أن يتزودوا أكثر ، وسوف يحفظون أخاهم اشد الحفظ واعظمه ..

وانتهى الحوار باستسلام الأب لهم .. بشرط أن يعاهدوه على العودة بابنه ، الا اذا خرج الأمر من أيديهم وأحيط بهم .. نصحهم الأب ألا يدخلوا — وهم أحد عشر رجلا — من باب واحد من ابواب مصر .. كى لا يلفتوا انتباه أحد .. وربما خشى عليهم أبوهم شيئا كالسرقة أو الحسد .. لا يقول لنا السياق ماذا كان يخشى الأب ، ولو كان الكشف عن السبب مهما لقيل ..

توكل يعقوب على الله وأسلمهم ولده ..

قال تعالى :

« فلما رجعوا الى أبيهم قالوا : يا أبانا : منع منا الكيل ، فأرسل معنا اخانا نكتل ، وانا له لحافظون ٭ قال : هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ٭ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ٭ قالوا : يا أبانا : ما نبغى، هذه بضاعتنا ردت الينا ، ونمير اهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ٭ قال : ان أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم ٭ فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل ٭ وقال : يا بنى لاتدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، ان الحكم الا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ٭ ولما دخلوا من حيث أمرهم ابوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء ، الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وانه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [١] ..

....

عاد اخوة يوسف الأحد عشر هذه المرة ..

---

(١) الآيات ٦٣ الى ٦٨ سورة يوسف مكية .

« ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه ، قال : انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » [1] .

يقفز السياق قفزا الى مشهد يوسف وهو يحتضن أخاه ويكشف له وحده سر قرابته ، ولا ريب ان هذا لم يحدث فور دخول الاخوة على يوسف ، والا لانكشفت لهم قرابة يوسف ، انما وقع هذا فى خفاء وتلطف ، فلم يشعر اخوته ، غير ان السياق المعجز يقفز الى أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه ..

وهكذا يجعله القرآن أول عمل ، لأنه كان أول خاطر ، وهذه من دقائق التعبير فى هذا الكتاب العظيم ..

يطوى السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف واخوته ، ويعرض مشهد الرحيل الأخير ..

ها هو يوسف يدبر شيئا لاخوته ..

يريد أن يحتفظ بأخيه الصغير معه ..

يعلم أن احتفاظه بأخيه سيثير احزان ابيه ، وربما حركت الأحزان الجديدة أحزانه القديمة ، وربما ذكره هذا الحادث بفقد يوسف ..

يعلم يوسف هذا كله .. وها هو يرى أخاه .. وليس هناك دافع قاهر لاحتفاظه به ، لماذا يفعل ما فعل ويحتفظ بأخيه هكذا ؟

يكشف السياق عن السر فى ذلك .. أن يوسف يتصرف بوحى من الله .. يريد الله تعالى أن يصل بابتلائه ليعقوب الى الذروة .. حتى اذا جاوز به منطقة الألم البشرى المحتمل وغير المحتمل ، ورآه صابرا ، رد اليه ابنيه معا ورد اليه بصره ..

انتهى يوسف من تدبيره ..

أمر رجاله ان يخفوا كأس الملك الذهبية فى متاع أخيه خلسة .. وكانت الكأس تستخدم كمكيال للغلال .. وكانت لها قيمتها كمعيار فى الوزن الى جوار قيمتها كذهب خالص ..

اخفى الكأس فى متاع اخيه .. وتهيا اخوة يوسف للرحيل ومعهم أخوهم .. ثم أغلقت أبواب العاصمة .. واذن مؤذن :

ــ أيتها العير .. انكم لسارقون ..

كانت صرخة الجند تعنى وقوف القوافل جميعا .. وانطلق الاتهام فوق رؤوس الجميع كقضاء خفى غامض ..

اقبل الناس واقبل معهم اخوة يوسف ..

ــ ماذا تفقدون ؟

هكذا تساءل اخوة يوسف ..

---

(1) ٦٩ سورة يوسف مكية .

قال الجنود : نفقد صواع الملك .. ضاعت كأسه الذهبية .. ولمن يجىء بها مكافأة .. سنعطيه حمل بعير من الغلال ..

قال اخوة يوسف ببراءة : لم نأت لنفسد فى الأرض ونسرق ..

قال ضـــباط يوسف [وكان يوسف قد وجههم لمـــا يقولونه] : اى جزاء تحبون توقيعه على السارق ؟

قال اخوة يوسف : فى شريعتنا نعتبر من سرق عبدا لمن سرقه ..

قال الضابط : سنطبق عليكم قانونكم الخاص .. لن نطبق عليكم القانون المصرى الذى يقضى بسجن السارق .. كانت هـــذه الاجـــابة كيدا وتدبيرا من الله تعالى ، ألهم يوسف أن يحدث بها ضباطه .. ولولا هذا التدبير الالهى لامتنع على يوسف أن يأخـــذ أخاه .. فقد كان دين الملك أو قانونه لا يقضى باسترقاق من سرق ..

التفت كبير الضباط وأمر : ابدأوا التفتيش ..

كان يوسف يرقب هذا كله من مكانه على العرش ..

كان قد اصدر أمره لضباطه ان يبدأوا تفتيش اخوته أولا .. فلا يخرجون كأس الملك الا فى التفتيش الأخير ..

تم تفتيش الأخ الأول ، والثانى ، حتى وصلوا الى العـــاشر .. لم يجدوا شـــيئا ..

اطمأن اخوة يوسف الى براءتهم من السرقة وتنفسوا الصعداء ، وقالوا لم يبق الا شقيقنا الصغير ..

قال يوسف [وهو يتدخل للمرة الأولى] : لا داعى لتفتيشه .. لا يبدو انه ســـارق ..

قال اخوة يوسف : لن نرحل الا اذا فتش متاعه .. ليطمئن قلبنا وتطمئن قلوبكم .. اننا أبناء شيخ طيب ، ولسنا ســـارقين ..

وامتدت ايدى الضباط الى رحل أخيه ، وأخرجت كأس الملك ..

صار أخو يوسف عبدا ليوسف بمقتضى قانونهم الذى طبقه القضـــاء على الحادث ..

اعقب ذلك مشهد عنيف المشـــاعر ..

ان احساس الأخوة براحة الانقاذ والنجاة من التهمة ، جعلهم يستديرون باللوم على شقيق يوسف ..

قالوا : ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ..

انهم يتنصـــلون من تهمة السرقة ، ويلقونها على هـــذا الفرع من أبنـــاء يعقوب ..

سمع يوسف بأذنيه اتهـــامهم له ، وأحس بحـــزن عميق .. كتم يوسف

احزانه فى نفسه ولم يظهر مشاعره .. قال بينه وبين نفســـه .. انتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون ..

لم يكن هذا سبابا لهم ، بقـــدر ما كان تقريرا حكيما لقـــاعدة من قواعد الأمانة ..

أراد أن يقول بينه وبين نفســـه .. انكم بهذا القـــذف شر مكانا عند الله من المقـــذوف ، لأنكم تقـــذفون بريئين بتهمـــة السرقة .. والله أعلم بحقيقة ما تقولون ..

سقط الصمت بعد تعليق الاخوة الأخير .. ثم انمحى احساسهم بالنجاة ، وتذكروا يعقوب .. لقد أخذ مليهم عهدا غليظا ، أن لا يفرطوا فى ابنه ..

وبدأوا استرحام يوسف

يوسف أيها العزيز ..

يوسف أيها الملك ..

ان له أبا شيخا .. فخذ أحدنا مكانه .. انا نراك من المحسنين ..

قال يوسف بهدوء : كيف تريدون أن نترك من وجدنا كأس الملك عنده .. ونأخذ بدلا منه انسانا آخر .. هذا ظلم .. ونحن لا نظلم ..

حاول الاخوة ان يستمروا فى استرحامه ، ولكن الضباط والجنود أفهموهم أن عزيز مصر .. يوسف الصـــديق .. قد تكلم وانتهى الأمر .. لينصرفوا ويتركوا أخاهم عبدا عنده ..

وتحرك اخوة يوسف ..

لا يدرون كيف يتصرفون فى مصيبتهم الجديدة .. ولا كيف يواجهون أباهم بما حدث ..

جلس اكبرهم على الأرض وقال : لن اتحرك من مكانى .. لقد فرطتم من قبل فى يوسف .. وها أنتم تفرطون فى أخيه .. ارجعوا الى أبيكم بغيرى .. فقولوا له ما حدث ..

....

قال تعـــالى :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم : ماذا تفقدون . قالوا : نفقد صواع الملك،ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا ســـارقين . قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين . قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ــ الا أن يشاء الله ــ نرفع درجات من نشـــاء وفوق كل ذى علم عليم . قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبـــل ،

فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، انا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ، انا اذا لظالمون . فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » [1] ..

....

استقر رأى الاخوة على العودة بغير شقيقهم الكبير وأخيهم الصغير ..

دخلوا على أبيهم فقالوا :

ــ يا أبانا ان ابنك سرق ..

تساءل الأب مندهشا ، وكأنه يكذب سمعه : ماذا تقولون ؟

حدثوه عما وقع .. اخبروه انهم يقولون له ما شهدوه بأعينهم ، وليسأل من كانوا معهم فى مصر .. ليسأل القافلة التى جاءوا فيها .. انهم صادقون هذه المرة فقد كان هناك شهود طيلة الوقت ..

استمع يعقوب اليهم وقال بحزن صابر ، وعين دامعة :

ــ بل سولت لكم انفسكم أمرا .. فصبر جميل .. عسى الله أن يأتينى بهم جميعا .. انه هو العليم الحكيم ..

لم يصدق يعقوب .. جربهم من قبل فلم ير لهم صدقا .. انتهى الأمر وأغلقت عليه ابواب الوحدة .. صار وحيدا بغير ابنيه اللذين أحبهما اكثر مما احب بقية أبنائه .. كان يعقوب شيخا عجوزا ، وها هو الله يبتليه فى شيخوخته بوحدة موحشة .. غير ان يعقوب يوصى نفسه بالصبر ، ويتوكأ عليه ، وينوى أن يكون صبره جميلا بغير شكاة لأحد .. الا الله .. وهو يؤمل فى الله خيرا ، ويرجوه ان يأتيه بأبنائه جميعا .. انه هو العليم بحاله ، الحكيم ، الرؤوف ، الودود ..

انكفأ يعقوب عائدا لغرفته ..

لم يكد يستدير ويمضى حتى هاج الحادث الجديد حزنه القديم على يوسف ..

ــ يا أسفا على يوسف ..

خرجت من قلبه مرتعشة ترتجف بالحب .. وامتلأت عيناه بدموع كبيرة راحت تزيد حزنه اشتعالا ، بدلا من تسكينه واطفائه ..

يطلعنا الله على حوار الاخوة ولقائهم بأبيهم فى قوله تعالى :

« ارجعوا الى ابيكم فقولوا : يا أبانا : ان ابنك سرق . وما شهدنا الا

---

(1) الآيات من ٧٠ الى ٨٠ سورة يوسف مكية .

بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسال القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها ، وانا لصادقون . قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعـــا ، انه هو العليم الحكيم » ..

« وتولى عنهم ، وقال : يا اســـفا على يوسف . وابيضت عينـــاه من الحزن فهو كظيم » [١] ..

اسلمه البكاء الطويل الى فقد بصره .. أو ما يشبه فقد بصره ..

أهناك من يقول : كان نبيا ويبكي هذا البكاء .. أليس البكاء لونا من ألوان اليأس ؟ .. ونقول ردا على ذلك : ان الأنبياء هم أعظم النـــاس احســـاسا بالمشاعر ، وأعمقهم تأثرا ، وأشدهم استجابة للمؤثرات ..

والبكاء درجة من درجات الحب .. ولون من ألوان الشكوى الى الله .. ولقد كان يعقوب يبكى لأنه صاحب قلب كبير .. ولم يكن يبكى أمام أحد .. كان بكاؤه شكوى الى الله لا يعلمها الا الله .. ثم لاحظ أبناؤه أنه لم يعد يبصر ورجحوا انه يبكى على يوسف ، وهاجموه فى مشاعره الانســـانية كأب .. حذروه بأنه سيهلك نفسه ..

« قالوا : تالله تفتا تذكر يوســـف حتى تكون حرضـــــا أو تكون من الهالكين . قال : انما أشكو بثى وحزنى الى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » [٢] ..

ردهم جواب يعقوب الى حقيقة بكائه ..

انه يشكو همـــه الى الله .. ويعلم من الله ما لا يعلمون .. فليتركوه فى بكائه وليصرفوا همهم لشىء أجدى عليهم ..

« يا بنى : اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » [٣] ..

انه يكشف لهم فى عمق أحزانه عن أمله فى روح الله .. انه يشعر بأن يوسف لم يمت كما أنبـــأوه .. لم يزل حيـــا ، فليذهب الاخوة بحثا عنه .. وليكن دليلهم فى البحث ، هذا الأمل العميق فى الله ..

تحركت القافلة فى طريقها الى مصر ..

اخوة يوسف فى طريقهم الى العزيز .. تدهور حالهم الاقتصادى والنفسى .. ان فقرهم وحزن أبيهم ومحاصرة المتاعب لهم ، قد هدت قواهم تماما ..

ها هم يدخلون على يوسف .. معهم بضاعة رديئة .. جاءوا بثمن لا يتيح لهم شراء شىء ذى بال ..

---

(١) الآيات من ٨٠ الى ٨٤ سورة يوسف مكية .
(٢) الآيتان ٨٥ ، ٨٦ سورة يوسف مكية .
(٣) الآية ٨٧ سورة يوسف مكية .

قال تعـــالى :

((فلما دخلوا عليه قالوا : يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنـا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، ان الله يجزى المتصـــدقين)) [1] ..

انتهى الأمر بهم الى التسول ..

انهم يسالونه أن يتصـــدق عليهم .. ويســـتميلون قلبه ، بتذكيره أن الله يجزى المتصدقين ..

عندئذ ...
وسط هوانهم وانحدار حالهم ..

حدثهم يوسف بلغتهم ، بغير واسطة ولا مترجم ..

((قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون . قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وان كنا لخاطئين)) [2] ..

يكاد الحوار يتحرك بأدق تعبير عن مشاعرهم الداخلية .. فاجأهم عزيز مصر بسؤالهم عما فعلوه بيوسف .. كان يتحدث بلغتهم فأدركوا أنه يوسف .. وراح الحوار يمضى فيكشف لهم خطيئتهم معه ..

لقد كادوا له والله غالب على أمره ..

مرت الســـنوات ، وذهب كيدهم له .. ونفذ تدبير الله المحـــكم الذى يقع بأعجب الأسباب .. كان القاؤه فى البئر هو بداية صـــعوده الى الســـلطة والحكم .. وكان ابعادهم له عن أبيه ســـببا فى زيادة حب يعقوب له .. وها هو الستار يفتح عليهم .. وهو يملك رقابهم وحياتهم ، وهم يقفون فى موقف استجداء عطفه .. انهم يختمون حوارهم معه بقولهم :

ــ تالله لقد آثرك الله علينا .. وان كنا لخاطئين ..

ان روح الكلمات واعترافهم بالخطأ يشى بخوف مبهم غامض يجتاح نفوسهم .. ولعلهم فكروا فى انتقامه منهم وارتعدت فرائصهم .. ولعل يوسف أحس ذلك منهم فطمأنهم بقوله :

((لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين)) ..

لا مؤاخذة ، ولا لوم ، انتهى الأمر من نفسى وذابت جذوره .. لم يقل لهم اننى أسامحكم أو أغفر لكم ، انما دعا الله ان يغفر لهم ، وهذا يتضمن أنه عفا عنهم وتجاوز عفوه ، ومضى بعد ذلك خطوات .. دعا الله أن يغفر لهم .. وهو نبى ودعوته مستجابة .. وذلك تسامح نراه آية الآيات فى التسامح ..

---

(1) الآية ٨٨ سورة يوسف مكية .
(2) الآيات من ٨٩ الى ٩١ سورة يوسف مكية .

ها هو يوسف ينهى حواره معهم بنقلة مفاجئة لأبيه .. يعلم ان أباه قد ابيضت عيناه من الحزن عليه .. يعلم انه لم يعد يبصر .. لم يدر الحوار حول أبيه لكنه يعلم .. يحس قلبه .. خلع يوسف قميصه وأعطاه لهم ..

« اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه ابى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين » [1] .

وعادت القافلة الى فلسطين ..

يذوب المشهد فى مصر ، ويضىء فى فلسطين ..

نحن فى بيت يعقوب ..

يجلس الرجل فى حجرته ، أبيض العينين ، قد حفر البكاء أخدودين فى وجهه ..

ينهض الرجل فجأة ..

ثمة تحول فى وجه الشيخ المحزون الأعمى .. ها هو يبدل ثيابه ويخرج على زوجات أبنائه ..

وقف فى فناء الدار ، ورفع رأسه الى السماء ، وتشمم الهواء بقوة .. ملأ صدره من الرياح القادمة من مصر .. ثم استدار عائدا لغرفته ..

قالت زوجة الابن الأكبر لزوجات الأبناء الآخرين :

ــ خرج يعقوب اليوم على غير عادته .. قلبى يحدثنى بشىء .. هجر عزلته ووقف فى الفناء .. نظر الى السماء وهو أعمى فكيف نظر الى السماء .. لا أعرف .. ولكننى اقسم اننى لمحت ظل ابتسامة فى وجهه ..

تساءلت نساء الأبناء بالدهشة :

ــ تقولين انه ارتدى ثيابا جديدة ؟ .. وتقولين انه ابتسم ؟

وتهرع النساء اليه .. لا ظل لابتسامة فى وجهه .. أكان وهما ما رأته المرأة ... ؟

سألته النسوة : بم تحس اليوم أيها الجليل ؟

قال الشيخ : انى لأجد ريح يوسف ..

وزامت النسوة .. فأضاف : لولا أن تفندون ..

انفضت عنه زوجات الأبناء ، ودار بينهن الحوار :

ــ لا أمل فى الشيخ .. سيهلكه البكاء على يوسف ..

□ هل تحدث عن قميصه ؟ .

ــ لا أعرف .. قال : انه يجد ريحه ..

---

(١) الآية ٩٣ سورة يوسف مكية .

□ تتآكل ذاكرة الشيوخ مع الوقت وهـــذا على العكس .. تزداد ذاكرته مضاء وحدة ..

ــ لم يزل الحادث طريا فى ذهنه ..

□ تقولين انه بدل ثيـــابه ..

ــ لعله جن ..

□ الجنون وحده هو الذى يبعث صور من نحب ورائحتهم ..

يومها طلب الشيخ كوبا من اللبن .. كان صائما فأفطر عليه ، ولأول مرة يطلب الطعام ولا يفرض عليه .. وراح المساء يبدل ثيـــابه ببطء .

القافلة تســـير بقميص يوسف .. كان القميص مخبـأ فى القمح .. كان مختلطا بندى الحقول ورائحة الأرض الطيبة وعطر يوسف ودفء الشـــمس التى انضجت القمح ..

وتقترب القافلة من قرية الشيخ ..

الشيخ يدور فى غرفته ..

يصلى طويلا ، ويرفع يديه للسماء ، ويعاود استنشاق الهواء ، والبكاء .. بينما القميص المندى بالشمس ورائحة يوسف فى طريقه اليه ..

« ولما فصـــلت العير قال أبوهم : انى لأجـــد ريح يوســـف لولا أن تفندون . قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشـــير القاه على وجهه فارتد بصيرا . قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا : يا أبانا : استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين . قال : سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم » [١] ..

ها هو المشهد الأخير فى قصة يوسف ..

بدأت قصته برؤيا .. وها هو الختام تأويل رؤياه ..

« فلمـــا دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر ــ ان شاء الله ــ آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال : يا أبت : هـــذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى ، ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم »[٢] .

تأمل الآن مشاعره ورؤياه تتحقق .. انه يدعو ربه ..

« رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحـــاديث ، فاطر السماوات والأرض ، انت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين » [٣] .

....

(١) الآيات من ٩٤ الى ٩٧ سورة يوسف مكية .
(٢) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ سورة يوسف مكية .
(٣) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

هى دعوة واحـــدة ..

ـــ توفنى مســـلما ..

....

لا نريد أن نترك قصة يوسف الكريم ابن يعقوب الكريم ، قبـــل أن نلاحظ هذه الملاحظة ..

فى قصــــة سيدنا ابراهيم ، ينزع الحب الغريزى من قلبه لابنه ســـيدنا اسماعيل ، حتى يصير القلب خالصا لله وحـــده ، فاذا تحقق الأمر يرفع أمر الذبح ويأتى الفـــداء ..

وثمة مماثلة فى قلب سيدنا يعقوب .. بالنسبة لابنه يوسف ، أحب يوسف فابتلى بضياعه ، فلما صار قلبه خالصا لله دون اغيار من يوســـف وأخيه ، رد الله اليه ولداه ..

وثمة مماثلة فى قصة الافك .. اذ ينزع ميل ســـيدنا محمـــد ، صلى الله عليه وسلم ، الى السيدة عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، حتى يصير القلب خالصا لله دون اغيار .. بعدها تنزل براءتهـــا وتحتل مكانتها باسم الله .. بكلمة الله ..

قصة شعيب
[عليه الصلاة والسلام]

يعتقـد كثير من الناس فى زماننـا أن الدين مجمـوعة من القضـايا المجردة ، والقيم الأخلاقية ..

وهذا اعتقاد قديم وخاطئ .. ان الدين فى حقيقته الثانية أسلوب للحياة والتعامل .. حقيقته الأولى انه صلة بالله..

ولهذا كان الفصل بين قضايا التوحيد والألوهية ، والقيم الأخلاقية ، وسلوك الناس فى حياتهم اليومية ، يعنى تجريد الدين من حياته ، وتحويله إلى مجموعة من الطقوس المزركشة والمراسيم الميتة ..

ولقد أبرزت قصة شعيب هذا المعنى بشكل واضح ..

أرسل الله تعالى شعيبا الى أهل « مدين » ..

« والى مدين أخاهم شـعيبا . قال : يا قوم : اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » [١] ..

نفس الدعوة التى يدعـوها كل نبى .. لا تختلف من نبى الى آخـر .. لا تتبدل ولا تتردد ..

هى أساس العقيدة .. وبغير هذا الأساس يستحيل أن ينهض بناء ..

بعد وضع الأساس .. يبدأ شعيب فى تفصيل دعوته ..

« ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » [٢] .. [سورة هود] ..

بعد قضية التوحيد مباشرة .. ينتقل النبى الى قضـية المعاملات اليومية .. قضية الأمانة والعدالة .. كان أهل مدين ينقصـون المكيـال والميزان ، ولا يعطون الناس حقهم .. وهى رذيلة تمس نظـافة القلب واليد .. كما تمس كمال المروءة والشرف ، وكان أهل مدين يعتبرون بخس الناس أشياءهم .. نوعا من انواع المهارة فى البيع والشراء .. ودهاء فى الأخذ والعطاء .. ثم جاء نبيهم وافهمهم ان هذه دناءة وسرقة .. أفهمهم انه يخاف عليهم بسببها من عذاب يوم محيط ..

---

(١) من الآية ٨٤ سورة هود مكية .
(٢) من الآية ٨٤ سورة هود مكية .

انظر الى تدخل الاسلام الذى بعث به شعيب فى حياة الناس ، الى الحد الذى يرقب فيه عملية البيع والشراء ..

« ويا قوم : أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » [1] ..

لم يزل شعيب ماضيا فى دعوته .. ها هو يكرر نصحه لهم بصورة ايجابية بعد صورة النهى السلبية .. انه يوصيهم أن يوفوا المكيال والميزان بالقسط .. بالعدل والحق .. وهو يحذرهم أن يبخسوا الناس أشياءهم ..

وليس بخس الناس أشياءهم أو حقوقهم مقصورا على البيع والشراء ، انما هو أمر عام يمس علاقات العمل..ويحكمها بمعيار جديد كل الجدة.. هو معيار الأمانة .. وهكذا تبدو عقيدة التوحيد طفرة ضخمة فى طريق الأمانة والعدالة وتغيير أسلوب الناس وسلوكهم وتصرفاتهم فى الحياة اليومية ، سواء فى علاقات العمل والانتاج ، أو علاقات التبادل ، أو التصرفات الشخصية البحت ..

ان التعبير القرآنى يقول :

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم »[1] .. وكلمة الشىء تطلق على الأشياء المادية والمعنوية .. وتدخل فيها الأعمال وعلاقات الانتاج ..

ويعنى النص تحريم الظلم ، سواء كان ظلما فى وزن الفاكهة أو الخضروات ، أو ظلما فى تقييم مجهود الناس وأعمالهم ..

ذلك أن ظلم الناس يشيع فى جو الحياة مشاعر من الألم واليأس واللامبالاة ، وتكون النتيجة أن ينهزم الناس من الداخل ، وتنهار علاقات العمل ، وتلحقها القيم .. ويشيع الاضطراب فى الحياة .. ولذلك يستكمل النص تحذيره من الافساد فى الأرض ..

« ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين » [2] ..

العثو .. هو تعمد الافساد .. والقصد اليه ..

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .. لا تفسدوا فى الأرض متعمدين قاصدين .. بقية الله خير لكم .. ما عند الله خير لكم .. ان كنتم مؤمنين ..

بعدها يخلى بينهم وبين الله الذى دعاهم اليه ..

ينحى نفسه ويفهمهم انه لا يملك لهم شيئا .. ليس موكلا عليهم ولا حفيظا عليهم ولا حارسا لهم .. انما هو رسول يبلغهم رسالات ربه ..

« وما أنا عليكم بحفيظ »[3] .

.. ..

بهذا الأسلوب يشعر شعيب قومه بأن الأمر جد ، وخطير ، وثقيل .. وهو يرفع الستار عن عاقبة افسادهم ويتركهم أمام العاقبة وحدهم ..

---

(1) من الآية ٨٥ من سورة هود مكية .
(2) من الآية ٨٥ وآية ٨٦ من سورة هود مكية .
(3) من الآية ٨٦ سورة هود مكية .

انتهى الجزء الأول من حوار شعيب ..

كان هو الذى يتكلم .. وكان قومه يستمعون .. توقف هو عن الكلام وتحدث قومه ..

« قالوا : يا شعيب : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ انك لأنت الحليم الرشيد » [١] ..

كان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ، ويُخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ..

وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها .. وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما ، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص .. انظر بعد هذا كله الى حوارهم مع شعيب ..

قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك ... ؟

كأن هذه الصلاة قعيدة هناك تدفع شعيبا وتوسوس له وتأمره فيطيع دون تردد ودون تفكير .. لقد تحول شعيب — بسبب صلاته — الى آلة متحركة وأداة لا تعى ..

« أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ » [٢] ؟

بهذا التهكم الخفيف والسخرية المندهشة .. واستهوال الأمر .. لقد تجرأت صلاة شعيب وجنت وأمرته أن يأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم .. ولقد كان آباؤهم يعبدون الأشجار والنباتات .. وصلاة شعيب تأمرهم أن يعبدوا الله وحده .. أى جراة من شعيب .. أو فلنقل أى جراة من صلاة شعيب .. بهذا المنطق الساخر الهازىء وجه قوم شعيب خطابهم الى نبيهم .. ثم عادوا يتساءلون بدهشة ساخرة :

« أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » [٣] .

تخيل يا شعيب أن صلاتك تتدخل فى ارادتنا ، وطريقة تصرفنا فى أموالنا ..

ما هى علاقة الايمان والصلاة بالمعاملات المادية ؟

بهذا التساؤل الذى ظنه قوم شعيب قمة فى الذكاء .. طرحوا أمامه قضية الايمان ، وأنكروا ان تكون لها علاقة بسلوك الناس وتعاملهم .. واقتصادهم ..

هى قضية قديمة اذن ..

هذه المحاولة للتفريق بين الحياة الاقتصادية والاسلام ، وقد بعث به كل الأنبياء ، وان اختلفت أسماؤه ..

هذه المحاولة قديمة من عمر قوم شعيب ..

---

(١) الآية ٨٧ من سورة هود مكية .
(٢) نفس الآية ٨٧ من سورة هود مكية .
(٣) من الآية ٨٧ سورة هود مكية .

لقد أنكروا أن يتدخل الدين فى حياتهم اليومية ، وسلوكهم ، واقتصادهم ، وطريقة انفاقهم لأموالهم بحرية .. ان حرية انفاق المال أو اهلاكه أو التصرف فيه شىء لا علاقة له بالدين .. هذه حرية الانسان الشخصية .. وهذا ماله الخاص ، ما الذى أقحم الدين على هذا وذاك ؟

هذا هو فهم قوم شعيب للاسلام الذى جاء به شعيب ، وهو لا يختلف كثيرا أو قليلا عن فهم عديد من الأقوام فى زماننا الذى نعيش فيه ..

ما للاسلام وسلوك الناس الشخصى ، وحياتهم الاقتصادية ، وأسلوب الانتاج ، وطرق التوزيع ، وتصرف الناس فى أموالهم كما يشاءون .. ما للاسلام وحياتنا اليومية ... ؟

« **انك لأنت الحليم الرشيد** » [1] .

يريدون أن يقولوا له ، لو كنت حليما رشيدا لما قلت ما تقول ..

انهم يعودون الى السخرية منه والاستهزاء بدعوته ..

ولو انك سألت قوم شعيب عن تصورهم للدين : ما داموا ينكرون انه اسلوب فى الحياة يجعلها أرشد وأنظف وأعدل وأجدر بخلافة الله فى الأرض .. لو انك سألتهم عن الدين لأنبأوك انه مجموعة من القيم الروحية الطيبة التى لا تتدخل فى الحياة اليومية .. وبهذا الفهم يتحول الدين الى حلية من حلى الزينة ..

وهذا فهم مضحك .. لأن الله لا يرسل الأنبياء والرسالات للزينة أو اللهو .. سبحانه وتعالى علوا كبيرا على ذلك ..

انما يرسل الله أنبياءه بأسلوب جديد للحياة ..

أسلوب ينطوى على قيم وأفكار لا يكون لها أى معنى اذا لم تتحول الى نظام يحكم الحياة العامة ، ويحكم الحياة الخاصة .. يحكم هذه وتلك على امتداد الوقت ..

بهذا الفهم يستقيم معنى الدين .. وبهذا التصور نفهم تدخل الدين فى أمور الحياة اليومية ، ابتداء من علاقات الحب ، الى نظم الزواج ، الى أسلوب قضاء الاجازات على الشواطىء ، الى طريقة انفاق النقود وتوظيفها الى نظام توزيع الثروات وانمائها ، واستغلال العمل البشرى وتهيئة الظروف للانتاج ..

يحكم الدين هذا كله .. اذا فهم الناس هذا ، صار الدين دينا بحق ، والا كان الأمر هزلا فى هزل .. ولقد أدرك شعيب ان قومه يسخرون منه لاستبعادهم تدخل الدين فى الحياة اليومية .. ولذلك تلطف معهم تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذى معه ، وتجاوز سخريتهم لا يباليها ، ولا يتوقف عندها ، ولا يناقشها .. تجاوز السخرية الى الجد .. أفهمهم انه على بينة من ربه .. انه نبى يعلم .. وهو لا يريد أن يخالفهم الى ما ينهاهم عنه ، انه لا ينهاهم عن شىء ليحقق لنفسه نفعا منه .. انه لا ينصحهم

---

(1) من الآية ٨٧ سورة هود مكية .

بالأمانة ليخلو له السوق فيستفيد من التلاعب .. انه لا يفعل شيئا من ذلك .. انما هو نبى .. وها هو يلخص لهم كل دعوات الأنبياء هذا التلخيص المعجز :

« **ان أريد الا الاصلاح ما استطعت** » [١] .. ان ما يريده هو الاصلاح .. هذه هى دعوات الأنبياء فى مضمونها الحقيقى وعمقها البعيد .. انهم مصلحون أساسا ، مصلحون للعقول .. والقلوب .. والحياة العامة .. والحياة الخاصة ..

« **قال : يا قوم : أرأيتم أن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد ألا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه أنيب** » [٢] ..

بعد أن أوضح أهدافه لهم ، وكشف عن حقيقة دعوته .. استعار لعقولهم أجنحة وطاف بها فى كتاب التاريخ البشرى ، أراهم مصارع من كان قبلهم من الناس .. قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح .. وما قوم لوط ببعيد ..

ويبدأ شعيب حواره معهم بأن ينبههم الى أن عنادهم معه قد يحملهم على تكذيبه ومخالفته ..

ومخالفة الأنبياء تنتهى الى نتائج مؤسفة .. يهلك المكذبون دائما ..

« **ويا قوم : لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود** » [٣] .

بعد دعوتهم الى الله ، وبيان أسلوب الاصلاح ، وتحذيرهم من العناد ، وتخويفهم من مصارع المكذبين السابقين .. يفتح لهم النبى باب الاستغفار والتوبة .. ويلفتهم بالرفق الى ربه الرحيم الودود ..

ويبدو أن قوم شعيب كانوا قد اختاروا العذاب .. ان قسوة قلوبهم واصرارهم على مكاسبهم الحرام ، ورضاء النظام الحاكم عن نفسه ، واصراره على الوقوف ضد شعيب ، نجح هذا كله فى أن يصوغ الجواب التالى على ألسنة الكفار :

« **قالوا : يا شعيب : ما نفقه كثيرا مما تقول** » [٤] .

لا نفهم عنك .. أنت تخرف .. لا تقول ما يفهم ..

« **وانا لنراك فينا ضعيفا** » [٥] .

ضعيف لأن الفقراء والتعساء هم الذين آمنوا به ، أما الأغنياء والكبراء واتباعهم فقد وقفوا جميعا ضده .. وهو بالحساب البشرى لا يملك قوة كافية لفرض دعوته .. هو اذن ضعيف ..

---

(١) من الآية ٨٨ سورة هود مكية .
(٢) الآية ٨٨ سورة هود مكية .
(٣) الآيتان ٨٩ ، ٩٠ سورة هود مكية .
(٤،٥) الآية ٩١ سورة هود مكية .

« **ولولا رهطك لرجمنـــاك** » [١] .

لولا أهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقتلناك ضربا بالحجارة ..

« **وما أنت علينا بعزيز** » [٢] .

انتقل القوم من الســخرية به الى الهجوم عليه .. اقام عليهم الحجة بعد سخريتهم الجاهلة ، فغيروا أسلوبهم فى الحوار .. أفهموه أنهم لا يفهمون ما يقول ، وانهم يرونه ضعيفا وذليلا ، ولولا أنهم يخافون من أهله أو يصعب عليهم اهله لقتلوه .. كشــفوا عن كراهيتهم له وتمنيهم قتله لولا أســباب تتصل بأهله ..

وتلطف معهم شــعيب ..

تجاوز عن اساءتهم اليه وسألهم سؤالا كان هدفه ايقاظ عقولهم ..

« **قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله** » [٣] .

أمن العقل أن يتصوروا ذلك . .. انهم يسيئون تقدير حقيقة القوى التى تتحكم فى الوجود .. ان الله هو وحــده العزيز .. وهو وحــده القوى .. والمفروض أن يدركوا ذلك .. المفروض الا يقيم الانســـان وزنا فى الوجود لغير الله .. ولا يخشى فى الوجود غير الله .. ولا يعمل حسابا فى الوجود لقوة غير الله .. ان الله هو القاهر فوق عباده ..

ويبدو أن قوم شعيب ضاقوا ذرعا بشعيب ..

واجتمع رؤساء قومه ..

« **قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا** » [٤] .

دخلوا مرحلة جديدة من التهديد .. هـــددوه بالقتل ، وها هم يهـــددونه بالطرد من قريتهم .. خيروه بين التشريد ، والعودة الى ديانتهم وملتهم التى تعبد الأشجار والجمادات .. وأفهمهم شعيب ان مســألة عودته فى ملتهم مسألة ليست ضمن المسائل الواردة فى المفاوضات .. لقد نجــاه الله من ملتهم ، فكيف يعود اليهـــا ؟ .. انه هو الذى يدعوهم الى ملة التوحيد .. فكيف يدعونه الى الشرك والكفر ؟ .. ثم أين تكافؤ الفرص ؟ .. انه يدعوهم برفق ولين وحب .. وهم يهددونه بالقوة ..

واستمر الصراع بين قوم شعيب ونبيهم ..

حمل أمانة الدعوة ضده الرؤســاء والكبراء والحكام .. وبدا واضـــحا الا أمل فيهم .. لقد أعرضوا عن الله .. أداروا ظهورهم لله ..

« **واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بمـــا تعملون محيط . ويا قوم : اعملوا على مكانتكم انى عامل ، ســوف تعلمون من يأتيه عــذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب** » [٥] .

(١،٢) الآية ٩١ سورة هود مكية .
(٣) من الآية ٩٢ سورة هود مكية .
(٤) من الآية ٨٨ من سورة الاعراف مكية .
(٥) من الآية ٩٢ ، وآية ٩٣ من سورة هود مكية .

نفض شعيب يديه منهم ..

لقد هجروا الله ، وكذبوا نبيه ، واتهموه بأنه مسحور وكاذب ..

فليعمل كل واحد .. ولينتظروا جميعا أمر الله ..

وانتقل الصراع الى تحد من لون جديد ..
راحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء ان كان من الصادقين ..

راحوا يسألونه عن عذاب الله .. أين هو ؟ .. أين هو ؟ .. ولماذا تأخر ... ؟

سخروا منه .. وانتظر شعيب أمر الله ..

وأوحى الله اليه ان يخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية .. وخرج شعيب .. وجاء أمره تعالى ..

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا،وأخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين • كأن لم يغنوا فيها ، الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود »[1] .

هى صيحة واحدة ..

صوت جاءهم من غمامة اظلتهم .. ولعلهم فرحوا بما تصوروا انها تحمله من المطر ..

ثم فوجئوا انهم أمام عذاب عظيم ليوم عظيم ..

انتهى الأمر ..

أدركتهم صيحة جبارة جعلت كل واحد فيهم يجثم على وجهه فى مكانه الذى كان فيه فى داره .. صعقت الصيحة كل مخلوق حى ..

لم يستطع ان يتحرك أو يجرى أو يختبىء أو ينقذ نفسه ..

جثم فى مكانه مصروعا بصيحة ..

واسدل الستار على القوم ..

---

(١) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود مكية .

إلياس
[عليه الصلاة والسلام]

هو نبى الله الياس ، عليه الصلاة والسلام ..

جرى الصراع بينه وبين قومه حول صنم يقال له « بعـل » ..

دعاهم الى الله .. فأبوا الا أن يدعوا بعلا .. وانطوت صفحة الحياة واختصر السياق فترة الحياة الدنيا ، فاذا هم محضرون أمام الله يوم القيامة ..

قال تعالى فى سورة الصافات :

« وان الياس لمن المرسلين . اذ قال لقومه : ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين . فكذبوه فانهم لمحضرون . الا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على الياسين . انا كذلك نجزى المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين » [1] ..

....

هذه الآيات القصار هى كل ما يذكره الله تعالى من قصة الياس .. وأرجح الآراء ان الياس هو النبى المسمى ايليا فى التوراة .. ويورد القديس برنابا نص نصائح ايليا ، وهو نص غير معروف فى التوراة .. وهو نص نورده لما يضمه من حكمة عميقة وصفاء خالص ، وهو نص يبدأ من الآية ٢٣ الى الآية ٤٩ من انجيل برنابا ..

يبدأ الكتيب هكذا : « ايليا عبد الله يكتب هـذا لجميع الذين يبتغون ان يسيروا مع الله خالقهم . ان من يحب ان يتعلم كثيرا يخاف الله قليلا ، لأن من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط ..

ان من يطلب كلاما مزوقا لا يطلب الله الذى لا يفعل الا توبيخ خطايانا ..

على من يشتهون ان يطلبوا الله ان يحكموا اغلاق أبواب بيتهم ونوافذه ، لأن السيد لا يرضى أن يوجد خارج بيته ، حيث لا يحب ، فاحرسوا مشاعركم واحرسوا قلبكم ، لأن لا يوجد خارجا عنا فى هذا العالم الذى يكرهه ..

على من يريدون ان يعملوا أعمالا صـالحة ، أن يلاحظوا انفسهم ، لأنه لا يجدى المرء نفعا ان يربح كل العالم ويخسر نفسه ..

---

(١) الآيات من ١٢٣ الى ١٣٢ من سورة الصافات مكية .

على من يريدون تعليم الآخرين ان يعيشوا أفضل من الآخرين ، لأنه لا يستفاد بشيء ممن يعرف أقل منا نحن ، فكيف اذن يصلح الخاطيء حياته وهو يسمع من هو شر منه يعلمه ..

على من يطلبون الله أن يهربوا من محادثة البشر ، لأن موسى لما كان وحده على جبل سيناء ، وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله .

على من يطلبون الله ان يخرجوا مرة كل ثلاثين يوما الى حيث يكون أهل العالم ، لأنه يمكن ان يعمل فى يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذى يطلب الله ..

عليه متى تكلم ، أن لا ينظر الا الى قدميه ..

عليه متى تكلم ، ان لا يقول الا ما كان ضروريا ..

وعليهم متى اكلوا ، ان يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع .. مفكرين كل يوم انهم لا يبلغون اليوم التالى .. وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء ..

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا ..

على كتلة التراب أن تنام على الاديم ..

ليكف كل ليلة ساعتان من النوم ..

عليه الا يبغضن احدا الا نفسه ..

وعليهم أن يكونوا واقفين اثناء الصلاة بخوف ، كأنهم أمام الدينونة الآتية ..

فافعلوا اذن هذا فى خدمة الله مع الشريعة التى أعطاكم اياها الله على يد موسى .. لأنه بهذه الطريقة تجدون الله ، وانكم ستشعرون فى كل زمان ومكان انكم فى الله ، وان الله فيكم » ..

انتهى ما أورده انجيل برنابا عن كتيب ايليا .

قصة إدريس
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعـــالى فى سورة مريم :

« **واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا** » . [1]

لا نعرف متى عـــاش ادريس . ولا من كان قومه . ولا كيف رفعـــه الله مكانا عليـــا .

ان الأســـاطير تقول ان ادريس هو أوزيريس بطل الأسطورة المصرية القديمة . وقد كان الها وثنيا مزقه « ست » .. ولعبت ايزيس زوجته دورا فى اعادته الى الحياة . وليس بين أيدينا ما نطمئن اليه من مصـــادر لنحكم برأى فى موضوع ادريس .

ربما كان ادريس نبيا كريما بعث فى مصر ورفعه الله اليه مثـــل عيسى ابن مريم ، فلما رفع افتتن قومه به وصار الها فى الأسطورة ..

وربما كان ما حدث شيئا آخر تماما .

لم يرد فى كتاب الله عنه ما يكشف الغموض الذى أحاط به .

ونحن لا نعرف الا أنه كان صديقا نبيا .. رفعه الله مكانا عليا .

---

(1) الآيات ٥٦ ، ٥٧ من سورة مريم مكية .

قصة اليسع
[عليه الصلاة والسلام]

من أنبياء الله تعالى ، الذين يذكر الحق أسماءهم ويثنى عليهم ، ولا يحكى قصصهم .. نبى الله تعالى « **اليسع** » .

قال تعالى فى سورة ص :

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار • انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار • وانهم عنـــدنا لمن المصطفين الأخيار • واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار] [١]

وأرجح الأقوال أن اليســـع هو اليشـــع الذى تتحدث عنه التوراة .. ويذكر القديس برنابا انه أقام من الموت انســانا كمعجزة ..

---

(١) الآيات ٤٥ الى ٤٨ مكية .

قصة ذا الكفل

[عليه الصلاة والسلام]

ادخل الله تعالى ذا الكفل فى رحمته .

اثنى عليه كعبد صـــابر . وذكره مع اسماعيل وادريس .

قال تعـــالى فى سورة الأنبياء :

« واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصـــابرين . وادخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين »[1] .

قيل انه تكفل لبنى قومه ان يقضى بينهم بالعدل ويكفيهم أمرهم .. ففعل .. فسمى ذا الكفل .

نسجت الأســـاطير حوله عديدا من الحكايات . وذكره القرآن مجرد ذكر واثنى عليه بغير أن يقدم قصته ..

حتى زمن دعوته مجهول .. لا نعرف من كان قومه ، ولا كيف بعث اليهم ، ولا بماذا أجابوه .

(1) الآيتان ٨٥ ، ٨٦ مكية .

أنبياء قوم ياسين

[عليهم الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة [يس] :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون . اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : انا اليكم مرسلون . قالوا : ما أنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء ، ان أنتم الا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين . قالوا : انا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم . قالوا : طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » . [1]

يحكى الحق تبارك وتعالى قصة أنبياء ثلاثة بغير أن يذكر اسماءهم . كل ما يذكره السياق أن القوم كذبوا رسولين فأرسل الله ثالثا يعززهم . وانكر الناس أنهم رسل ، كذبوهم ، فلما أقام الرسل عليهم الحجة ، قال قومهم أنهم تشاءموا منهم . وهددوهم بالرجم والقتل والعذاب الأليم . ورفض الأنبياء هذا التهديد ، واتهموا قومهم بالاسراف .. اسرافهم فى ظلم أنفسهم .

لا يقول لنا السياق ماذا كان من أمر هؤلاء الأنبياء ، انما يذكر ما كان من أمر انسان آمن بهم . آمن بهم وحده . ووقف بايمانه أقلية ضعيفة ضد أغلبية كافرة .

انسان جاء من اقصى المدينة يسعى ..

جاء وقد تفتح قلبه لدعوة الحق . لم يكد يعلن ايمانه حتى قتله الكافرون .

قال تعالى :

«وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : ياقوم : اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون . ومالى لا اعبد الذى فطرنى واليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة ، ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . انى اذا لفى ضلال مبين . انى آمنت بربكم فاسمعون » . [1]

---

(١) الآيات من ١٣ الى ١٩ مكية .

(٢) الآيات من ٢٠ الى ٢٥ سورة يس مكية .

اختصر السياق القرآنى ذكر القتل ، وكشف الستار عن لحظة ما بعد الموت .

لم يكد الرجل المؤمن يلفظ آخر أنفاسه حتى صدر اليه أمر الله تعالى

« قيل : ادخل الجنة ، قال : يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » [١] .

تجاوز السياق اسماء الأنبياء وقصصهم ليبرز قصة رجل آمن .. لم يذكر لنا السياق اسمه .

اسمه لا يهم .. المهم ما وقع له .. لقد آمن بأنبياء الله .. قيل له ادخل الجنة .

ليكن ما كان من أمر تعذيبه وقتله .

ليس هذا فى الحساب النهائى شيئا له قيمته .

تكمن القيمة فى دخوله فور اعلانه أنه آمن . فور قتله .

« انى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة » [٢] .

---

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة يس مكية .
(٢) من الآيتين ٢٥ ، ٢٦ سورة يس مكية .

قصة أيوب

[عليه الصلاة والسلام]

يقول البشر عن صبر اعظم الصـــابرين فيهم حين يبلغ ذروته ... انه كصبر ايوب ، وقد ذهب ايوب مثـــالا على الصبر فى كل لغة ودين وثقافة ..

وقد اثنى الله تبارك وتعـــالى على عبده أيوب فى محكم كتابه ..

قال تعـــالى :

« انا وجدناه صـــابرا ، نعم العبد ، انه أواب » [١] .

والأوبة هى العودة الى الله تعـــالى . وقد كان أيوب دائم العودة الى الله بالذكر والشكر والصبر . وكان صبره سبب نجاته وسر ثناء الله عليـــه . والقرآن يسكت عن نوع مرضه فلا يحدده .. وقد نسجت الأساطير عديدا من الحكايات حول مرضه .. قيل انه مرض مرضا جلديا منفـــرا تجنب الناس الاقتراب منه بسببه .

يقول سفر أيوب فى التوراة :

فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه الى هامته . فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد . ص ٢ .

وقال هـــذا السفر نفسه على لسان أيوب :

« لأنه مثل خبزى يأتينى أنينى ، ومثل المياه تنسكب زفرتى » . ص ٣ .

وقال هـــذا السفر نفسه :

قد كرهت نفسى حيـــاتى . أسبب شـــكواى . أتكلم فى مرارة نفسى . ص ١٠ .

ونحن نرفض هذا كله كحقيقة واقعة ، ولا نرى بأسا من قبوله كعمـــل فنى حكاه بعد ذلك الشعراء على لســـانه ، وبالغوا فى وصف احســـاسه هذه المبالغة الأدبية التى نراها فى قول القائل :

فطوفـــان نـــوح عنـــد نوحى كأدمعى
وايقـــــاد نيران الخليـــــل كلـــوعتى
فلولا زفيرى أغـــــرقتنى مـــــدامعى
ولولا دمـــوعى أحـــــرقتنى زفـــرتى

---

(١) الآية ٢٤ سورة ص مكية .

ان ابن الفارض فى البيتين السابقين يتحدث عن احساسه ؛ فيرى أن دموعه أعظم من طوفان نوح أو هى مثله ، ويرى أن نيران هواه تشبه النار التى ألقى فيها ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .. وهذا كله من الصور الفنية الســاحرة التى لا يعول عليها فى نطاق الحقائق ، ولا يلتفت اليها خارج منطقة الأدب والفن .

انظر الى تعبير التوراة :

فخرج الشيطان من حضرة الرب .

نعلم كمسلمين أن الشيطان قد خرج من حضرة الرب منذ أن خلق الرب آدم عليه الصلاة والسلام .. فمتى عاد الشيطان الى حضرة الرب .

نحن أمام تعبير أدبى ولسنا أمام حقيقة مادية .

....

ماهى حقيقة مرض أيوب وما هى قصته ..

ان أشهر رواية عن فتنة أيوب وصبره هى الرواية التالية ..

تحدث ملائكة الأرض فيما بينهم عن الخلق وعبادتهم .. قال قائل منهم :

ـ ما على الأرض اليوم خير من أيوب .. هو أعظم المؤمنـين ايمـانا واكثرهم عبادة لله ، وشكرا على نعمه ، ودعوة له .

وسمع الشيطان ما يقال .. فسـاءه ذلك .. وطار الى أيوب محـاولا اغواءه .. ولكن أيوب نبى .. قلبه هو الصفاء لله والحب لله .. وليس للشيطان عليه سبيل . حين يئس الشيطان من اغواء أيوب ، قال لله تعالى:

ـ يارب .. ان عبدك أيوب الذى يعبدك ويقدسك .. لا يعبدك حبـا وانما يعبدك لاغراض .

يعبدك ثمنا لما منحته من مال وبنين ، وما أعطيته اياه من ثروة وعقار .. وهو يطمع أن تحفظ عليه ماله وثراءه وأولاده .. وكأن النعم العديدة التى منحتها له هى السر فى عبـادته .. انه يخـاف أن يمسها الفناء أو تزول .. وعلى ذلك فعبادته مشـوبة بالرغبة والرهبة .. يشيع فيها الخوف والطمع .. وليست عبـادة خالصة ولا حبا خالصا .

وتقول الرواية أن الله تعـالى قال لابليس : ان أيوب عبد مؤمن خالص الايمان .. وليكون أيوب قبسـا فى الايمـان ومثـلا عاليا فى الصبر .. قد أبحتك ماله وعتاره .. افعل بها ما تريد .. ثم انظر الى ما تنتهى .

وهكذا انطلقت الشياطين فأتت على أرض أيوب وأملاكه وزروعه ونعمه ودمرتها جميعا .. وانحـدر أيوب من قمة الثراء الى حضيض الفقر فجأة .. وانتظر الشيطان تصرف أيوب .. وقال أيوب :

عارية لله استردها .. ووديعة كانت عنـدنا فأخذها ، نعمنا بهـا دهرا ، فالحمد لله على ما أنعم ، وسلبنا اياها اليوم ، فله الحمد معطيا وسـالبا ، راضياوساخطا ، نافعا وضـارا ، وهو مالك الملك يؤتى الملك

من يشـــاء ، وينزع الملك ممن يشـــاء ، ويعـــز من يشـــاء ، ويذل من يشـــاء .

ثم خر أيوب ســـاجدا .. وترك ابليس وســـط دهشته المخزية .

وعاد الشيطان يقول لله تعـــالى :

ـــ يارب .. اذا كان أيوب لم يقـــابل النعمة الا بالحمد ، والمصيبة الا بالصبر ، فليس ذلك الا اعتـــدادا بما لديه من أولاد .. انه يطمع أن يشتد بهم ظهره ويسترد بهم ثروته ..

تقول الرواية أن الله أباح للشيطان أولاد أيوب .. فزلزل عليهم البيت الذى يســـكنون فيه فقتلهم جميعا .. وهنـــا قال أيوب داعيا ربه :

ـــ الله أعطى .. والله أخذ .. فله الحمـــد معطيا وســـالبا ، ساخطا وراضيا ، نافعا وضـــارا .

ثم خر لله ســـاجدا وترك ابليس وسط دهشته المخزية ..

وعاد ابليس يدعو الله ، أن أيوب لم يزل صـــابرا لأنه معـــافى فى بدنه . ولو أنك سلطتنى يارب على بدنه .. فســـوف يكف عن صبره ..

تقول الرواية أن الله تعـــالى أباح جســـد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشـــاء . فضرب الشـــيطان جسد أيوب من رأســـه حتى قدميه ، فمرض أيوب مرضـــا جلديا راح لحمه فيه يتســـاقط ويتقيح .. حتى هجره الأهل والصحاب ، ولم يعد معه الا زوجته ..

وظل أيوب على صبره وشـــكره لله تعـــالى .. حمـــد الله على أيام الصحة ، وحمـــده تعالى على بلاء المرض .. وشكره فى الحالتين ..

وازداد غيظ الشيطان فلم يعرف ماذا يفعل ، وهنا جمع ابليس مستشـاريه من الشياطين وحدثهم بقصة أيوب وطلب رأيهم بعد أن أعلن يأســـه مـــن اغوائه أو اخراجه من صبره وشـــكره .

وقال احد الشياطين : لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة . فمن أين أتيته .

قال ابليس : آه .. تقصـــد حواء ..

وانقدحت فى عقل ابليس [لو كان له عقل] فكرة جديدة .. ذهب الى امرأة أيوب وملأ قلبها باليأس حتى ذهبت الى أيوب تقول له :

ـــ حتى متى يعذبك الله . أين المال والعيـــال والصـــديق والرفيق ، أين شبابك الذاهب وعزك القديم .

واجاب أيوب امرأته : لقد سول لك الشيطان أمرا .. اتراك تبكين على عز فات وولد مات ..

قالت : لماذا لا تدعو الله أن يزيح بلواك ويشفيك ويكشف حزنك .

قال أيوب : كم مكثنا فى الرخاء ؟

قالت : ثمانين سنة .

قال : كم لبثنا فى البلاء ؟

قالت : سبع سنوات ..

قال : استحى أن أطلب من الله رفع بلائى ، وما قضيت فيه مدة رخائى .

لقد بدأ ايمانك يضعف .. وضـاق بقضاء الله قلبك .. لئن برئت وعادت الى القوة لاضربنك مائة عصا .. وحرام بعد اليوم ان آكل من يديك طعاما أو شرابا أو أكلفك أمرا .. فاذهبى عنى ..

وذهبت زوجته وبقى ايوب وحيدا صـابرا .. يحتمل مالا تحتمله الجبال .. اخيرا فزع ايوب الى الله داعيا متحننا لا متبرما ولا متسخطا .. ودعا الله أن يشفيه فاستجاب له الله ..

....

هذه أشهر رواية عن فتنة ايوب وصبره ، ونحن نحس أنها موضوعة .. لأنها تتفق مع نص التوراة حول مرض أيوب ..

ايضا نستبعد أن يكون مرضـه منفرا أو مشـوها كما تقول اسـاطير القدماء .. نستبعد ذلك لتنافيه مع منصب النبوة .. كل ما نستطيع أن نقطع به هو ما حدثنا عنه القرآن . وهو وحده الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال تعـالى فى سورة [الأنبياء] :

« وأيوب اذ نادى ربه : أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعـابدين » [1] .

نفهم ممـا سبق أن ايوب كان عبـدا صـالحا من عباد الله . أراد الله امتحانه فى ماله وأهله وجسمه . ضاع ماله واصبح فقيرا بعد أن كان أغنى الأغنياء . وفقد أهله وبدأ يعرف معنى الوحدة . ومرض جسمه مرضا عظيما كان يتألم له . ولكنه صبر على هـذا كله وشكر .

وطال مرضـه واستطال بلاؤه وعظم هجران الناس له ، حتى صـار يقضى أيامه كلها وحيـدا مع المرض والحزن والوحدة .

وانطبقت أضلاع المثلث الكئيب على حياته : المرض والحزن والوحدة . ورغم ذلك لم ينس الصبر .. كان صبره متجاوزا لبلائه ومتفوقا عليه .

وجاءته يوما احدى الأفكار الشيطانية .. راحت تحوم حول قلبـه . قالت له الفكرة : يا أيوب : هـذا الألم والعذاب الذى تحسـه بسبب مس منى . ولو أنك توقفت عن الصبر يوما واحدا لذهب عنك الألم وشفيت .

وتهامس الناس حول أيوب فقالوا : لو كان الله يحبه ما ابتلاه بـكل ما ابتلاه به .

---

(1) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ مكية .

وكلتا الفكرتين متهافتتان ، فان الشيطان لا يستطيع أن يمس أحدا الا باذن الله . كما أن الله تبارك وتعالى لا يجعل حبه للناس مرادفا لسلامتهم ، انما يمتحنهم كما يشاء ويبتليهم كما يحب .

....

راحت فكرة الشيطان تدور حول قلب أيوب مثلما تدور ذبابة صيف حول رأس انسان محنق . وازاح أيوب بيده الفكرة وهو يبتسم لنفسه ويقول :

ـــ أخرج أيها الشيطان . لن اتوقف عن الصبر والشكر أو العبادة .

وخرجت الفكرة يائسة من عقل أيوب . وجلس أيوب غاضبا لأن الشيطان تجرأ عليه وتصور انه يمكن أن يغريه أو يغويه ، مستغلا وحدته وأساه ومرضه .

وحضرت زوجة أيوب متأخرة فوجدت أيوب غاضبا . كانت تلف رأسها بغطاء .. وكانت قد أحضرت إليه طعاما طيبا .. وسألها أيوب : من أين جاءتك النقود . وأقسم أيوب أن يضربها مائة ضربة بالعصا عندما يشفى . كان صبره واسعا مثل نهر عظيم . ثم اكتشف فى المساء أن زوجته قد قصت شعرها لتحضر إليه طعاما يأكله .

وخرج نبى الله تعالى الى الجبال يدعو ربه .

قال تعالى فى سورة [ص] :

« واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه : أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، انا وجدناه صابرا ، نعم العبد انه أواب » [١] .

....

كيف نفهم قول أيوب :

« انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » [٢] .

يريد أيوب ان يشكو لربه جرأة الشيطان عليه وتصوره انه يستطيع أن يغويه . ولا يعتقد أيوب أن ما به من مرض قد جاء بسبب الشيطان . هذا هو الفهم الذى يليق بعصمة الأنبياء وكمالهم .

أمره الله تعالى أن يستحم فى عين من عيون المياه فى الجبل .. أمره أن يشرب من ماء هذه العين .. وجرى أيوب فاغتسل وشرب .. ولم يكد

---

(١) الآيات من ٤١ الى ٤٤ مكية .
(٢) من الآية ٤١ من سورة ص مكية .

يشرب آخر جرعة من الماء حتى احس انه شـفى فجأة .. زايلته الحمى ، وذهب عنه الألم ، وعادت حرارته الى درجة الحرارة العادية ..

ووهب الله لأيوب أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه .. ولم يعد أيوب وحيـدا .

وهبه الله اضعاف ثروته كرما من عنده ، فلم يعد أيوب فقيرا . .

عادت اليه صحته بعد طول المرض .. وشـكر أيوب الله ، وكان قد اقسم أن يضرب امرأته مائة ضربة بالعصـا عندما يشفى ، وها هو قد شفى ، وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لا يقصـد ضرب امرأته .. ولكى لا يحنث فى قسـمه أو يكذب فيه ، أمره الله أن يجمع حـزمة من أعواد الريحان عددها مائة ، ويضرب بها امرأته ضربة واحدة ، وبذلك يكون قد بر فى قسمه ولم يكذب ..

وجزى الله أيوب على صبره أن مدحه فى القرآن الكريم وقال عنه :

« انا وجدناه صـابرا ، نعم العبد انه أواب » [١] .

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص مكية .

قصة يونس
[عليه الصلاة والسلام]

هو النبى الكريم يونس بن متى .

قال عنه سيد الخلق وامام البشر والرحمة المهداة للعـــالمين .. محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم :

« لا تفضلونى على يونس بن متى » .

....

كانوا يسمونه يونس .. وذا النون .. ويونان .

وكان نبيا كريما أرســله الله الى قومه فراح يعظهم ، وينصـــحهم ، ويرشدهم الى الخير ، ويذكرهم بيوم القيامة ، ويخوفهم من النار ، ويحببهم فى الجنة ، ويأمرهم بالمعروف ، ويدعوهم الى عبادة الله وحده .

وظل ذو النون ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد ..

وجاء يوم على يونس فأحس باليأس من قومه .. وامتلأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون ، وخرج مغاضبا وقرر هجرهم .

حكى الله تعالى حكايته مبتدئا بقوله :

« **وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ..** » [1] .

لا أحد يعرف عنف المشاعر والاحاسيس التى راحت تعتمل فى نفس يونس غير الله وحده .. كان يونس غاضبا من قومه ، كان حانقا آســفا وحزينا فخرج ..

ذهب الى شاطىء البحر وقرر أن يركب سفينة تنقله الى مكان آخر ..

لم يكن الأمر الالهى قد صـــدر له بأن يترك قومه أو ييأس منهم ، وظن يونس أن الله لن يقدر عليه عقوبة لأنه ترك قومه ، غاب عن يونس عليه السلام أن النبى مأمور بالدعوة الى الله فقط ، ولا عليه أن تنجح الدعوة أو لا تنجح .. المفروض أن يدعو لله ويترك مسألة النجاح أو عدمه لخـــالق الدعوة .

كانت السفينة ترسو فى الميناء الصغير ، والشمس تنحدر نحو الغروب ، والأمواج تضرب الشاطىء وتتكسر على الصخور ، ولاحظ يونس أن سمكة

---

(1) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء مكية ..

طفلة تقـــاوم الموج ولا تعرف كيف تتصرف ، واقبلت موجـــة كبيرة فرفعت السمكة وحطمتها على الصخور ، وأحس يونس فى قلبه بالحزن والأسف على السمكة الصغيرة . قال لنفسه لو كانت معها سمكة كبيرة فربمـــا نجت .

وتذكر حاله وكيف يترك قومه . وزاد احساسه بالغضب والحزن .

ركب يونس السفينة .

كان مضطربا لا يعرف أنه يفر من قدر الله الى قدر الله .

لم يكن معه طعام ولا كيس أمتعة ولا أصدقاء يصحبونه الى الرصيف مودعين .

كان وحده تماما .

خطا بقدميه على سطح السفينة ، فصر الخشب صريرا مزعجا زاد فى انقباضة قلبه .

سأل القبطان وهو يجلس الى طاولة عمله ؟

ـــ ماذا تريد ؟

وقع السؤال على يونس وقوع الصاعقة .

ـــ أود أن أسافر على سفينتكم .. هل بقى على ابحاركم وقت طويل ؟

كان صوت يونس مضطربا يشى بالغضب والخوف والرهبة والقلق .

قال القبطان وهو يرفع رأسه : نبحر مع ارتفاع المد التالى .

لم يزل القبطان يحدق فى وجه يونس .

قال يونس بنفاد صبر وقلق : الا تبادرون بالأبحار قبل ذلك يا سيدى .

قال القبطان : ابحارنا مع المد مبادرة يرضى بها كل مسافر شريف .

واها لك يا يونس .. ها هى طعنة أخرى ..

أسرع يونس يحول فكر القبطان عن ريبته بأن تساءل :

ـــ سأسافر معكم . كم تبلغ اجرة السفر ؟ سأدفع على التو .

قال القبطان ، لا نقبل غير الذهب .

قال يونس : لا بأس .

نظر القبطان الى يونس . كان قبطان السفينة حصيفا المعيا يستطيع أن يستشف بنافذ بصره خوف الناس أو قلقهم ، وكان تردده على الموانىء وزيارته للعـــالم ورؤيته للعـــالم وللناس قد جعلته رجـــلا يستطيع أن يخمن مشـــاعر الناس .. وادرك القبطان أن يونس يفر من شىء ما .. وتصور القبطان أن يونس قد ارتكب جريمة ما .. ولم يكن جشع القبطان يسمح له بأن يفضح أى جريمة لدى مرتكبها ، الا اذا كان مقترفها مفلسا .

ان الخطيئة التى تتمكن من دفع الأجرة فى عالم القبطان .. تستطيع أن تسافر حرة طليقة دون جواز سفر . فاذا كانت الفضيلة مسكينا مدقعا أوقفوه عند كل الحدود . لذلك أراد القبطان أن يختبر يونس قبل أن يسمح له بركوب السفينة .

سأله ثلاثة أضعاف الأجرة التى يدفعها غيره من المسافرين . وكان يونس فى حالة من ضيق الصدر والغضب العنيف والرغبة فى الخروج من هذا البلد فدفع ما طلبه منه القبطان . وامسك القبطان القطع الذهبيه وراح يعضها بأسنانه ويحاول أن يجد فيها قطعة مزيفة .. فلم يجد . ووقف يونس يتلقى هذه الطعنات كلها وصدره يعلو ويهبط مثل المرجل .. وأخيرا سمح له القبطان بالسفر .

قال يونس : حدد لى غرفتى ياسيدى ، فاننى متعب أريد أن أرتاح قليلا .

قال القبطان : ذلك يبدو من ملامحك .. هاك غرفتك .

اشار القبطان بيده .

القى يونس نفسه على الفراش بملابسه كما هو .. وحاول النوم عبثا . كانت صورة السمكة الصغيرة وهى تتمزق على الصخور لا تريد أن تغادر مخيلته . وأحس يونس أن سقف الغرفة جاثم على جبهته . أخذ يتنهد ضيق الصدر فى هواء محصور راكد . وكان فى غرفة يونس قنديل معلق يتأرجح تأرجحا واهنا وقد شد عند وسطه الى الجدار بلولب . وعندما ترنحت السفينة بسبب ثقل الرزم الأخيرة التى القيت فيها بقى القنديل واللهب وكل ما يتصل بهما فى وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة .. ومع أنه كان فى الحقيقة مستقيما استقامة لا تخطئها العين ، فانه بدا للعين منحرفا فى المستويات الخادعة التى كان معلقا بينها . وراح يونس وهو راقد على فراشه يدور بعينيه فى سقف الغرفة ، لم تجد نظراته القلقة أى ملاذ لها .. ان أرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جميعا مائلة . والقنديل معلق ومائل فيها .. ويئن يونس قائلا :

ـ كذلك هو ضميرى معلق داخل نفسى على استقامة ، وهو يتوهج مضيئا الا أن الغرفة التى تحتلها روحى مائلة .

وبعد صراع اليم نشب فى نفس يونس وهو ملقى على فراشه ، اثقله عبء تعاسته الباهظة ، وهوى به غريقا متخبطا فى نوم قلق لا يكاد يستسلم فيه للنعاس حتى يفيق فزعا بلا سبب مفهوم ..

....

وحان وقت المد .. والقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف .

مضت السفينة طوال النهار وهى تشق مياها هادئة وتهب عليها ريح طيبة .

وجاء الليل على السفينة ..

وانقلب البحر فجأة ..

هبت عاصفة مخيفة كادت تشق السفينة .. وبدت الأمواج كمن فقدت عقلها فراحت ترتفع كالجبال وتهبط كالوديان وتلعب بأخشاب المركب . راحت الأمواج تكتسح سطح المركب وتصدم الواقفين فوقه وتغرق ملابسهم بالمياه .

ووراء السفينة كان حوت عظيم يشق المياه وهو يفتح فمه ..

صدرت الأوامر الى احد الحيتان المظيمة فى قاع البحر ان يتحرك الى السطح . واطاع الحوت الأمر الصادر اليه من الله وأسرع الى سطح البحر .. مضى يتعقب السفينة كما تقضى الاوامر .

واستمرت العاصفة . وأهاب رئيس النوتية بالأيدى أن تخفف أحمال السفينة ، وطرحت الصناديق والرزم والجرار فضاع صوت جلبتها وهى تلقى فى الماء . وزاد صراخ الرياح وهب يونس فزعا من نومه فراى كل شيء يهتز فى الغرفة . عبثا حاول أن يقف معتدلا فلم يستطع . صعد الى السطح لم يكد يراه القبطان حتى تذكر شكوكه وصرخ .

ــ لقد ثارت العاصفة فى غير وقتها المعهود .. معنا على سطح السفينة رجل خاطىء ثارت بسببه العاصفة .. سنجرى القرعة على الركاب .. من خرج اسمه القيناه فى البحر ..

كان يونس يعرف أن هذا تقليد من تقاليد السفن عندما تواجه العواصف ، وهو تقليد وثنى غريب ، ولكنه كان متبعا أيامه.وبدأ بلاء يونس ومحنته . فها هو النبى الكريم يتعرض للخضوع للقوانين الوثنية التى كانت تعتبر أن للبحر آلهة تثور وللريح آلهة تفور ولابد من ارضاء هؤلاء وهؤلاء .

وساهم يونس كارها فوضع اسمه مع أسماء الركاب .. وأجريت القرعة فخرج اسمه .

واعيدت القرعة مرة ثانية كما هى العادة فخرج اسم يونس ..

لم يعد هناك غير اجراء القرعة مرة ثالثة ثم يستقر الرأى على من يلقونه فى البحر . وأحاطت الأنظار بيونس .. التفت حوله نظرات الشك مثل ثوب من النار ..

واجريت القرعة للمرة الثالثة ..

ودق قلب يونس وقبطان السفينة يقرأ اسمه للمرة الثالثة ..

انتهى الأمر وتقرر أن يرمى يونس نفسه فى البحر .. ادرك يونس وهو يعتلى خشب السفينة أنه قد أخطأ حين ترك قومه غاضبا وظن أن الله لن يوقع عليه عقوبة ..

أخطأ يونس لأنه ترك قومه بغير اذن الله .. وها هو الله سبحانه وتعالى يعاقبه .. وقف يونس على حاجز السفينة ينظر الى البحر الهائج والأمواج السوداء .. كانت الدنيا ليلا ، وليس هناك قمر ، والنجوم تختفى وراء ضباب أسود .. ولون المياه أسود ، والبرد ينفذ الى العظام .. والمياه تغطى كل شيء ..

وصرخ صـــوت القبطان :

ــ اقفز أيها المســـافر المجهول ..

واشتد عواء العاصفة الغاضبة .. وجاهد يونس ليحتفظ بتوازنه ويسقط فى البحر معتدل القامة محتفظا بشجاعته .

وخيل الى بحارة السفينة أنه يتباطأ فى القـــاء نفســـه .. فرفعوا الى آلهة البحر يدا داعية ، وأمســـكوا يونس بالأخرى وطرحوه فى البحر وهم مشفقون .

هوى يونس كأنه المرساة المطروحة .

وجد الحوت أمامه يونس وهو يطفو على الموج .. ابتســـم الحوت . ها قد أرسل الله اليه طعام العشــاء ..

تلقف الحوت يونس من جوف الهياج الجامح . واغلق أنيابه العاجية عليه كأنها مزاليج بيضاء يقفل بها باب سجنه .

وعاد الحوت الى أعماق البحر .

عاد راضـــيا قد ملأ معدته .

وفوجىء يونس بنفســـه فى بطن الحوت ، والحوت يجرى به فى جوف البحر ، والبحر يجرى به فى جوف الليل .. ظلمات ثلاث .. بعضها فوق بعض .

ظلمة جوف الحوت ..

وظلمة قـــاع البحر ..

وظلمة الليـــل ..

تصور يونس أنه مات .. حرك حواســـه فوجد نفســـه يتحرك .. هو حى اذن .. لكنه سجين وسط ظلمات ثلاث ..

وبدأ يونس يبكى .. ويسبح الله ..

بدأ رحلة العودة الى الله وهو سجين وسط الظلمات الثلاث .

تحرك قلبه بالتسبيح لله وتحرك بعدها لســـانه بقوله :

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظـــالمين .. »

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظـــالمين .. »

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظـــالمين .. » [1] .

كان يونس منكفئا على وجهـــه فى بطن الحوت . ورغم ذلك فقد راح يسبح الله .. وكان الحوت قد تعب من السباحة فرقد على بطنه فى قـــاع البحر واستسلم للنوم .. واستمر يونس فى تسبيحه لله .. لا يتوقف ولا

---

(1) من الآية ٨٧ سورة الأنبياء مكية .

يهدأ ولا ينقطع بـــكاؤه . لم يـــكن يأكل أو يشرب أو يتحرك . كان صـــائما طعـــامه هو التسبيح .

وسمعت الأسماك والحيتان والنباتات وكل المخلوقات التى تعيش فى أعماق البحر صـــوت تسبيح يونس .. كان التسبيح يصـــدر من جوف هذا الحوت دون غيره .. واجتمعت كل هـــذه المخلوقات حول الحوت وراحت تقوم بتسبيح الله هى الاخرى . كل واحد بطريقته الخاصة ولغته الخاصة .

واستيقظ الحوت الذى ابتلع يونس على أصـــوات التسبيح هو الآخر .. فشـــاهد فى قاع البحـــر مهرجـــانا عظيما من الحيتان والأســـماك والحيوانات البحرية والطحالب والصـــخور والرمـــال وهى تسبح الله .. واشترك الحوت فى التسبيح وأدرك أنه ابتلع نبيا .. أحس الحوت بالخوف ولكنه قال لنفســـه :

ــ لماذا أخاف .. الله هو الذى أمرنى بابتلاعه ..

ومكث يونس فى بطن الحوت زمنا لا نعرف مقداره ..

ظل طول الوقت يقوم بتسبيح الله ويقول بقلبه ولسانه ودموعه :

« **لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظـــالمين** » [1] .

ورأى الله سبحانه وتعـــالى صـــدق يونس فى توبته .. سمع الله تعالى تسبيحه فى جوف الحوت .. وصـــدرت الأوامر للحوت أن يخرج الى سطح البحر ويقذف بيونس من جوفه عند جزيرة حددتها الأوامر ..

وأطـــاع الحوت ..

كان الحوت قد أرسى جســـده على أقصى عظام المحيط .

ثم سمع الله عز وجل من الظلمات نداء النبى السجين التائب .. وأمر الله تعالى الحوت فجاء من عالم البرد الزمهرير وظلمـــة البحـــر يضرب صعدا نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الأرض .

وقذف يونس الى البر فوق جزيرة عارية .

ان جســـده ملتهب بسبب الأحماض فى معـــدة الحوت . وكان هو مريضـــا ، واشرقت الشمس فلسعت أشعتها جســـده الملتهب فكاد يصرخ من الألم لولا أنه تماسك وعاد للتسبيح .

وانبت الله تعـــالى عليه شجرة من يقطين .. وهو نبات أوراقه عريضة تقى من الشمس .. ثم شفاه الله تعـــالى وعفا عنه . وأرسله الى مائة الف أو يزيدون . وأفهمه الله تعـــالى انه لولا التسبيح لظل فى جوف الحوت الى يوم القيـــامة .

قال تعـــالى فى سورة الصـــافات :

« **وان يونس لمن المرسلين . اذ ابق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا انه كان**

---

(1) من الآية ٨٧ سورة الانبياء مكية .

من المسبحين . للبث فى بطنه الى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم الى حين))[1] .

وقال تعـــالى فى سورة الأنبياء :

((وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت ســبحانك انى كنت من الظـــالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين))[2] .

نريد الآن ان ننظر فيما يسميه العلماء ذنب يونس .

هل ارتكب يونس ذنبا بالمعنى الحقيقى للذنب ..
وهل يذنب الأنبياء ؟

الجواب أن الأنبياء معصومون .. غير أن هـــذه العصمة لا تعنى انهم لا يرتكبون أشياء هى عند الله امور تستوجب العتاب .

المســـألة نسبية اذن ..

يقول العارفون بالله : ان حسنات الأبرار سيئات المقربين .. وهذا صحيح .

فلننظر فى فرار يونس من قريته الجاحدة المعـــاندة .

لو صـــدر هـــذا التصرف من أى انســـان صـــالح غير يونس .. لكان ذلك منه حسنة يثاب عليها . فهو قد فر بدينه من قوم مجرمين ..

ولكن يونس نبى أرســـله الله اليهم . والمفروض أن يبلغ عن الله ولا يعبأ بنهـــاية التبليغ أو ينتظر نتائج الدعوة .. ليس عليه الا البلاغ ..

خروجه من القـــرية اذن .. فى ميزان الأنبيـــاء .. أمر يســـتوجب تعليم الله تعـــالى له وعقـــابه .

ان الله يلقن يونس درســـا فى الدعوة اليه .

ليدعو النبى الى الله فقط .

انما أرسله ليدعوا فحسب .. هذه حدود مهمته وليس عليه أن يتجاوزها ببصره أو قلبه ثم يحزن لأن قومه لايؤمنون .. ان لوطا مكث فى قومه يدعوهم سنوات عديدة فلم يؤمن فيهم أحد .. ورغم ذلك لم يخرج لوط فرارا بأهله ونفسه ودينه من قريته .. ظل يدعوهم حتى جاءه أمر الله وأرسل إليه ملائكته باذن الخروج .

ساعتها خرج لوط ..

لو خرج قبلها لعوقب مثل يونس .

---

(1) الآيات ١٣٩ الى ١٤٨ من سورة الصافات مكية .
(2) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ مكية .

ولقد خـــرج يونس بغير اذن فانظر ماذا وقع لقومه . لقد آمنـــوا به بعد خروجه ..

قال تعـــالى فى سورة يونس :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها ، الا قوم يونس ، لماآمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » [1]

. . . .
. . . .

وهكذا آمنت قرية يونس ..

ولو انه مكث فيهم لأدرك ذلك وعرفه واطمـــأن قلبه وذهب غضبه . غير انه كان متسرعا .. وليس تسرعه هـــذا سوى فيض فى رغبته أن يؤمن الناس ، وانما اندفع الى الخروج كراهية لهم لعـــدم ايمـــانهم .. فعاقبه الله وعلمه أن على النبى أن يدعو للاسلام فحسب ..

ليس عليه أن يؤمن الناس .

ليس عليه هداهم .

(1) الآية ٩٨ مكية .

قصة موسى وهارون
[عليهما الصلاة والسلام]

مكث يعقوب أو اسرائيل فى مصر مذ جاءها ليلتقى بابنه يوسف .. حتى اذا حضرته الوفاة دفنوه حيث ولد فى فلسطين .. وفضل أبناء اسرائيل أن يعيشوا فى مصر فى ظل يوسف . شدهم الى الحياة فى مصر خيرها الكثير واستواء أرضها واعتدال المناخ .

عاش أبناء اسرائيل فى مصر زمنا . تزوجوا وتكاثروا وزاد عددهم .

ومرت سنوات .. ومات يوسف ..

كان يوسف قد حول مصر الى دين الاسلام أثناء حكمه . كان يوسف على الاسلام . وكل أنبياء الله تعالى على الاسلام ، ابتداء من آدم الى محمد . وينصرف الاسلام هنا الى معنى توحيد الله تعالى بالعبادة والقصد والسؤال . واسلام الوجه والعمل والنية لله . هذا ما نقصده من كلمة الاسلام اذا أطلقت ، ولا نقصد النظام الاجتماعى الذى جاء به خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم . فقد كان هذا النظام متقدما عن الأنظمة الاجتماعية التى جاء بها الأنبياء ، وان بقى جوهر العقيدة واحدا لا يختلف من آدم الى محمد .

وحين صار يوسف عزيزا لمصر وكبيرا للوزراء فيها تحولت ديانة مصر الى التوحيد والاسلام ، لقد كان يدعو للاسلام فى سجنه بقوله :

« **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟** » [١] .

ودعا يوم تحقيق رؤياه بقوله :

((**توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين**)) [٢] .

وحين مات يوسف هجرت مصر نظام التوحيد الى تعدد الآلهة مرة أخرى . وأغلب الظن أن هذا تم بكيد الطبقة الحاكمة وتدبيرها ، فقد كانت هذه الطبقة فى ظل نظام التوحيد لا تكاد تتميز بشىء عن الجماهير العريضة .. وكان من مصلحتها اذن أن يعود نظام الأرباب المتفرقين .. ويعود نظام الفرعون الاله .. وهكذا توالت على مصر أسر من الفراعنة الذين زعموا أنهم آلهة أو يمثلون الآلهة أو ينطقون باسمها .

والأصل فى الشعب المصرى أنه شعب متحضر ، يعنيه بناء الحضارة ، ويملك وجدانا دينيا عميقا ، وربما آمنت طبقات عديدة من الشعب المصرى

(١) من الآية ٣٩ من سورة يوسف مكية .
(٢) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

ان الفرعون ليس الها ، غير أن ايمان المصريين الكامن فى أعماقهم لم يكن يعنى الحاكم ، طالما أنه لا يتحول الى الظهور أو الثورة ويسفر عن وجهه . كان الفرعون لا يريد من قومه غير الطاعة . ليؤمنوا فى قرارة أنفسهم بما يحبون من آلهة . الآلهة الوثنية المتعددة فى مصر كثيرة . أهم شىء أن يكون مفهوما أن الفرعون يهيمن على جميع أنواع الآلهة ويرمز لها ويتكلم باسمها . وكان هذا مفهوما فى مصر ..

وعلى حين تعددت آلهة الشعب المصرى . مع ايمانه باله مركزى هو الفرعون .. كانت الطبقة الحاكمة تقتصر على عبادة الفرعون وانفاذ أوامره وتصديق استبداده .. ومطاوعة أعظم نزواته جنونا ..

ولسوف نحس ونحن نتصفح معا أوراق موسى عليه الصلاة والسلام ، كيف كان الشعب المصرى يعيش فى عصره . كانت الجماهير مستذلة مستعبدة تطيع الفرعون ، وتمضى خانعة تحت ظل وزرائه وقادة جنده ، وتسمع الى ادعائه الألوهية دون أن تحرك ساكنا .

حكى الله تعالى فى قرآنه الكريم عن فرعون موسى قال فى سورة النازعات :

((فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى))[1] .

وحنى الناس رؤوسهم للكلمة الكافرة وأطاعوا — ربما على كره — مقالة الفرعون .

ودفع الشعب ثمن خنوعه لفرعون .. وقد كان ثمنا باهظا لو قيس بالثورة عليه .

عادت مصر الى نظام تعدد الآلهة بعد فترة التوحيد المضيئة القصيرة التى قضاها فيها يوسف .

اما أبناء يعقوب ، أو أبناء اسرائيل ، فقد انحرفوا عن التوحيد وقلدوا المصريين .. لولا بعض أسر ظلت على التوحيد وان أخفت ذلك ..

وقد جاء وقت على أبناء اسرائيل تزايدوا فيه وتكاثروا واشتغلوا فى عديد من الحرف وملأوا أسواق مصر .

....

مرت أيام ..

وحكم مصر ملك جبار كان المصريون يعبدونه .

ورأى هذا الملك بنى اسرائيل يتكاثرون ويزيدون ويملكون .. سمعهم يتحدثون عن نبوءة غامضة تقول ان واحدا من أبناء اسرائيل سيسقط فرعون مصر عن عرشه ، وربما كانت النبوءة حلما من أحلام اليقظة التى تجيش بها قلوب الأقلية المضطهدة ، وربما كانت بشارة فى صحفهم . مهما يكن من أمر ، فقد بلغت هذه النبوءة أسماع الفرعون ، وأصدر الفرعون أمره العجيب ألا يلد أحد من بنى اسرائيل .

---

(1) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ مكية .

كان معنى هــذا الأمر ببســاطة أن يقتل كل من يولد من الأولاد الذكور .

وبدأ تطبيق النظام ، ثم قال خبراء الاقتصــاد لفرعون أن الكبــار من بنى اسرائيل يموتون بآجالهم ، والصــغار يذبحون ، وهــذا سينتهى الى افناء بنى اسرائيل فتضيع على الفرعون ثروة بشرية تعمل له ويســتعبدها ويستحيى نســاءها .. والأفضــل أن تنظم العملية بالشــكل التالى .. يذبحون الذكور فى عام ويتركونهم فى العام الذى يليه .

ووجد الفرعون أن هــذا الحل أسلم من الناحية الاقتصــادية .

وحملت أم موسى بهــارون فى العام الذى لا يقتل فيه الغلمان ، فولدته عــلانية آمنة .

فلما جــاء العــام الذى يقتل فيه الغلمان ولد موسى .

حمــل ميلاده خوفا عظيما لأمه .. خافت عليه من القتــل .. راحت ترضعه فى السر . ثم جــاءت عليها ليلة مباركة أوحى الله اليها فيها ..

((وأوحينا الى أم موسى ، أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين))[١] .
سورة القصص

لم يكد وحى الله ينتهى حتى أطــاعت أم موسى هــذا النــداء الرحيم المقدس .. أمرت بصنع صندوق صغير لموسى .. أرضعته ووضعته فى الصندوق .. وذهبت الى شــاطىء النيل والقته فى المياه ..

كان قلب الأم ، وهو أرحم القلوب فى الدنيا ، يمتلىء بالألم وهى ترمى ابنها فى النيل ، لكنها كانت تعلم أن الله أرحم بموسى منها ، أن الله يحبه اكثر منها ، والله هو ربه ورب النيل ..

لم يكد الصــندوق يلمس مياه النيل حتى أصــدر الخــالق أمره الى الأمواج أن تكون هادئة حانية وهى تحمل هذا الرضيع الذى سيكون نبيا فيما بعد ، ومثلما أصدر الله تعــالى أمره للنار أن تكون بردا وسلاما على ابراهيم ، كذلك أصــدر أمره للنيل أن يحمل موسى بهــدوء ورفق حتى يسلمه الى قصر فرعون .. وحملت مياه النيل هــذا الصندوق العزيز الى قصر فرعون .. وهناك أسلمه الموج للشــاطىء وأوصى عليه الشاطىء .. وقالت الرياح للعشب الذى يرقد بجوار الصندوق : لا تتحرك كثيرا فان موسى نائم . .وأطاع العشب أمر الرياح وظل موسى نائما ..

اشرقت الشمس فى ذلك الصباح على قصر فرعون .

وخرجت زوجــة فرعون تتمشى فى حــديقة القصر كعادتها كل يوم .. لا نعرف ما الذى جعلها تمشى مســافة أطول ممــا تمشيه عادة كل يوم فى الحــديقة ..

كانت زوجة فرعون تختلف كثيرا عن فرعون .. كان هو كافرا وكانت هى مؤمنــة .. كان هو قاســيا وكانت هى رحيمة .. كان جبــارا

---

(١) الآية ٧ مكية .

وكانت رقيقة وطيبة .. وأيضـــا كانت حزينة .. لم تكن تلد .. وكانت تتمنى أن يكون عنـــدها ولد .

توقفت زوجة الفرعون عنـــد حـــديقة من أشجار الفل .. حملت الرائحة المعطرة اليها احســـاسا محزنا بالوحدة .

فى نفس هـــذا الوقت .. كان جواريها يملأن الجرار من النهر ..

كان الصندوق يرقد عند أقـــدامهن .. حملن الصندوق كمـــا هو الى زوجة فرعون .. أمرتهم أن يفتحوه ففتحوه .. رأت موسى داخله فأحست أنها تحبه كابنها ، ألقى الله فى قلبها محبته فانهمرت دموعها وحملته من الصندوق ، راحت تقبله وهى تبكى . استيقظ موسى وبدأ يبكى هو الآخر .. كان جائعا يحتـــاج الى رضعة الصباح فبكى ..

جلس فرعون على مائدة الافطـــار ينتظر زوجته فلم تحضر .. خـــرج غاضبا يبحث عنهـــا .. فوجىء بهـــا تحمل موسى وهى تغرقه بالقبـــلات والدموع ..

سأل فرعون من أين جـــاء هذا الرضيع ، فحـــدثوه أنهم وجدوه فى صندوق بجوار الشـــاطىء .. قال فرعون بغباء :

آه .. هـــذا أحد أطفـــال بنى اسرائيل .. أليس المفروض أن يقتـــل أطفال هـــذه السنة ؟

صرخت زوجته وهى تضم موسى الى صدرها أكثر :

((وقالت امرأة فرعون : قـــرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا))[1] .

دهش فرعون كثيرا وهو يرى زوجته تضـــم لصـــدرها هـــذا الرضيع الذى وجدوه على الشـــاطىء . دهش أكثر لأن زوجته كانت تبكى من الفرح وهو لم يرها تبكى قبل ذلك من الفرح ، وأحس فرعون أن زوجتـــه تتمســـك بهـــذا الطفل كما لو كان ابنها ، قال فى نفســـه لعلها تذكرت انها لا تنجب أطفالا وتريد هـــذا الطفل ..

أخيرا وافق فرعون على ما تقوله زوجته .. اســـتجاب لرغبتها وسمح لها أن تربى هـــذا الطفل فى قصره .

....

لم يكد فرعون يستجيب لزوجته حتى شـــاهد وجهها يضىء من الفرح .

لم ير فرعون زوجته فرحة قبل ذلك أبدا .. كان يحضر لها الهـــدايا والجواهر والعبيد فلا تبتسم ابتســـامة واحدة ، وظن فرعون انها لا تعرف معنى الابتســـام ، وها هو ذا يراها الآن وكل وجهها ابتســـامة مضيئة واحـــدة ..

---

(1) من الآية ٩ سورة القصص مكية .

بكى موسى من الجـــوع فانتبهت زوجـــة فرعون الى أنه جـــائع .. قالت لفرعون :

ــ ابنى الصـــغير جائع ..

قال فرعون : احضروا له المراضع ..

حضرت مرضـــعة من القصر وأخـــذت موسى لترضـــــعه فرفض أن يرضـــع منها ..

ــ أحضروا مرضعة ثانية !

حضرت مرضعة ثانية وثالثة وعاشرة وموسى يبكى ولا يريد أن يرضـــع .. وبدأت زوجة فرعون تبكى هى الأخرى بسبب بكائه ، ولم تكن تعرف ماذا تفعل .

لم تكن زوجة فرعون هى وحـــدها الحزينة الباكية .. كانت أم موسى هى الأخرى حزينة باكية .. لم تكد ترمى موسى فى النيـــل حتى أحست انهـــا ترمى قلبها فى النيل . غاب الصندوق فى مياه النهر واختفت أخباره .. وجـــاء الصباح على أم موسى فاذا قلبها فارغ يذوب حزنا على ابنها ، وكادت تذهب الى قصر فرعون لتبلغهم نبأ ابنها وليكن ما يكون .. لولا أن الله تعـــالى ربط على قلبها وملأ بالســـلام نفســـها فهدأت واستكانت وتركت أمر ابنها لله .. كل ما فى الأمر انها قالت لأخته : اذهبى بهدوء الى جوار قصر فرعون وحـــاولى أن تعرفى ماذا حـــدث لموسى .. واياك أن يشـــعروا بك ..

وذهبت أخت موسى بهدوء ورفق فاذا بها تســـمع القصـــة الكاملة .. رأت موسى من بعيـــد وســـمعت بكاءه ، ورأتهم حـــائرين لا يعـــرفون كيف يرضعونه ، سمعت أنه يرفض كل المراضـــع .. وقالت أخت موسى لحرس فرعون :

هل أدلكم على أهل بيت يرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره ويخدمونه ؟

قالت زوجـــة فرعون :

ــ لو أحضرت لنا مرضـــعة يقبـــل الرضـــاعة منها فســـوف أمنحك جائزة عظيمة . أى شىء تطلبينه ستحصلين عليه ..

وعادت أخت موسى وأحضرت أمه .. وأرضعته أمه فرضـــع .. وتهللت زوجة فرعون وقالت « خذيه حتى تنتهى فترة رضـــاعته وأعيديه الينـــا بعدها ، وسنعطيك أجرا عظيما على تربيتك له » .

وهكذا رد الله تعـــالى موسى لأمه كى تقر عينها ويهـــدأ قلبها ولا تحزن ولتعلم أن وعـــد الله حق وأن كلمـــاته سبحانه تنفـــذ رغم أى شىء .. ورغم كل شىء !

. . . .

. . . .

قال تعـــالى فى ســـورة القصص :

((وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين • وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشـــعرون • وحرمنا عليه المراضــــع من قبــــل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ • فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون))[١] .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

اتمت أم موسى رضـــاعته واسلمته لبيت فرعون .. كان موضــع حب الجميع .. قال تعـــالى فى سورة طه :

((وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى))[٢] .

كان لا يراه أحـــد الا أحبه .. وها هو فى أعظم قصـــور الأرض يتربى بحفظ الله وعنـــايته ..

بدأت تربية موسى فى بيت فرعون .. وكان هـــذا البيت يضـــم أعظم المربين والمدرســـين فى ذلك الوقت .. كانت مصر أيامها أعظم دولة فى الأرض ، وكان فرعون أقوى ملك فى الأرض ، ومن الطبيعى أن يضم قصره أعظم المدرسين والمثقفين والمربين فى الأرض .. وهكذا شـــاءت حـــكمة الله تعـــالى أن يتربى موسى أعظم تربية وأن يتعهـــده أعظم المدرسين ، وأن يتم هـــذا كله فى بيت عـــدوه الذى سيصطدم به فيما بعد تنفيـــذا لمشيئة الخـــالق ..

وكبر موسى فى بيت فرعـــون .. تعلم الحســـاب والهندســـة والفلك والكيميـــاء والطبيعة واللغات .. كان ينام فى حصة الدين ، لهـــذا لم يكن يســـمع الـــكلام الفارغ الذى يقوله المدرس عن الوهيـــة فرعون ، وفى المرات القليلة التى ســـمع فيها أن فرعون اله ، كان يسخر فى نفســـه من هـــذا الكلام ، فهو يعيش مع فرعون فى بيت واحـــد ويعرف أكثر من غيره أن فرعون مجرد انســـان ولكنه ظالم .

كان موسى يعلم أنه ليس ابنـــا لفرعون ، انمـــا هو واحـــد من بنى اسرائيل .. وكان يرى كيف يضـــطهد رجـــال فرعون وأتباعه بنى اسرائيل .. وكبر موسى وبلغ أشـــده ..

دخل المدينة على حين غفلة من اهلها .

وراح يتمشى فيهـــا .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

وجـــد موسى رجـــلا من أتباع فرعون وهو يقتتل مع رجـــل من بنى

---

(١) الآيات من ١٠ الى ١٣ سورة القصص مكية .

(٢) من الآية ٣٩ مكية .

اسرائيل ، واستغاث به الرجل الضعيف فتدخل موسى وازاح بيده الرجل الظالم فقتله . كان موسى قويا الى الحد الذى يكفى فيه أن يضرب بيده ضربة واحدة ليزيح خصمه فاذا هو يقتله .. ولم يكن موسى يقصد قتل الرجل الآخر ، وفوجىء به وقد مات ..

قال موسى لنفسه :

هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ..

ودعا موسى ربه .. قال :

رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى .

وغفر الله تعالى له ، انه هو الغفور الرحيم ..

....

....

قال تعالى فى سورة القصص :

« ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين .ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها،فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال : رب : انى ظلمت نفسى فاغفرلى، فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين » . [1]

أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب ..

تعبير مصور لهيئة معروفة .. هيئة انسان فزع يتوقع الشر فى كل خطوة ، ويلتفت لأوهى الحركات واخفاها ..

ويبدو أن موسى كان نموذجا لمزاج عصبى مندفع .

ان موسى يندفع لنجدة الاسرائيلى .

يده تندفع بوكزة هدفها ابعاد المصرى وتنحيته .. فاذا هو يقتل .

يعتبر هذا القتل فى القوانين الوضعية قتلا خاطئا . لا يقصده من فعله ولا تنعقد عليه نيته ، وبالتالى لا يكون الجزاء فيه عسيرا .. انما ينظر القضاء بالتخفيف الى الواقعة باعتبارها قتلا خطأ .

لا يمكن اعتبار الواقعة بالتكييف القانونى ضربا أفضى الى موت .. لأن الضرب لم يكن مقصودا هو الآخر . لم يكن موسى يضرب الرجل . كل مافعله انه وكزه [بمعنى دفعه بيده أو أزاحه بيده] .

ولسوف نلاحظ أن موسى يكاد يكون هو الوجه الآخر لابراهيم .

كلاهما من أولى العزم الكبار . غير أن ابراهيم نموذج للحلم والرقة ، وموسى نموذج للاندفاع والقوة .

(1) الآيات من ١٤ الى ١٧ سورة القصص مكية .

هو تكوين نفسى خلقه الله تعالى عليه ..

أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب .. وعد بالأمس أنه لن يكون ظهيرا للمجرمين .. لن يتدخل فى المشاجرات بين المجرمين والمشاغبين ليدفع عن أحـد من شيعته .

وفوجىء موسى أثناء سيره بنفس الرجل الذى انقذه موسى بالأمس وهو يناديه ويستصرخه اليوم .. كان الرجل مشتبكا فى عراك مع أحد المصريين .. وأدرك موسى أن هذا الاسرائيلى مشاغب ..

أدرك أنه من هواة المشاجرات .

وصرخ موسى فى الاسرائيلى يعنفه قائلا : انك لغوى مبين .

قال موسى كلمته واندفع نحوهما يريد البطش بالمصرى .

واعتقد الاسرائيلى أن موسى سيبطش به هو .. دفعه الخوف من موسى الى استرحامه صارخا .

ـ يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس . ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين .

لم تكد كلمات الاسرائيلى تقع من فمه أمـام موسى حتى توقف موسى . سكت عنه الغضب وتذكر ما فعله بالأمس ، وكيف استغفر وتاب ووعد ألا يكون ظهيرا للمجرمين .. استدار موسى عائدا ومضى وهو يستغفر ربه .

وأدرك المصرى الذى كان يتشاجر مـع الاسرائيلى أن موسى هو قـاتل المصرى الذى عثروا على جثته أمس . وكانت سلطات البوليس المصرى قـد فشلت فى معرفة قاتله .. وطار المصرى عدوا الى رجال الأمن .. وانكشف سر موسى .. ظهر أمره .. وجاء رجل مصرى مؤمن من اقصى المدينة مسرعا همس فى أذن موسى أن هناك اتجاها لقتله . نصحه أن يخرج من مصر على عجـل .

.. ..

قـال تعـالى :

« فاصبح فى المدينة خائفا يترقب ، فاذا الـذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : انك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى ان الملأ ياتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين . » [1]

. . . .
. . . .

يخفى الله عنا اسم الرجل الذى جاء يحذر موسى .

(1) الآيات من ١٨ الى ٢٠ سورة القصص مكية .

ونرجح انه كان رجلا مصريا [من ذوى الأهمية] بنص الآيات ، فقد اطلع على مؤامرة تحاك لموسى من مستويات عليا ، ولو كان شخصية عادية لما عرف .. يعرف الرجل أن موسى لم يكن يستحق القتل على ذنبه بالأمس .. لقد قتل الرجل خطأ .. والجريمة فى القانون المصرى القديم عقوبتها السجن .. ما الذى أبرز فكرة قتل موسى اذن .. ان هناك عبارة فى نصيحة المصرى لموسى تضع يدنا على الجواب .

هذه العبارة هى قوله [ان الملأ يأتمرون بك] .

الملأ هم الرؤساء المسئولون عن الأمن . وهم يعدون له مؤامرة .. ان الجريمة عادية ، لا تقتضى غير عرض الأمر على القضاء والحكم بالسجن فيها ما الذى أدخل الملأ هنا ؟ وجعلهم طرفا شخصيا فى النزاع ، ودفعهم للتآمر على قتله . نحسب أن مدير البوليس المصرى لم يكن يحب موسى . كان يعلم أنه من أبناء اسرائيل . وكان يرى فى وصول الصندوق الى قصر الفرعون مكيدة دبرها له أعداؤه الطامعون فى منصبه .. كيف أفلت منه أحد أبناء اسرائيل فى العام الذى لا ينبغى أن يفلت فيه أحد .

هذا يعنى تراخيه وتراخى رجاله .. وكم نصح الرجل بقتل موسى ، وكان الفرعون يحبذ الفكرة فاذا حان التنفيذ تقهقر أمام حب زوجته لموسى وحنوها عليه وتعلقها به .. أخيرا جاءت الفرصة .

قال له أحد رجاله أن موسى هو قاتل المصرى الذى عثروا على جثته بالأمس .. انتهى الأمر وجاءته فرصته فى قتل موسى . من يدافع الآن عنه . لقد جاء بموسى فى جناية قتل عمد ..

استخف الفرح كل من كانوا يكرهون موسى من رجال القصر .. وتقرر قتله .. ثم أرسل الله لموسى مصريا عاقلا يحذره وينصحه بالفرار من وجه الظالمين .

.. ..

قال تعالى :

((فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين))[1] .

صورة أخرى لموسى وهو مطارد ..

خرج على الفور .. خائفا يتلفت ويتسمع ويترقب .. فى قلبه دعاء لله .. رب نجنى من القوم الظالمين .. وكان القوم ظالمين حقا .. الا يريدون تطبيق عقوبة القتل العمد عليه ، وهو لم يفعل شيئا أكثر من أنه مد يده وأزاح رجلا فقتله خطأ .

خرج موسى من مصر على عجل .. لم يذهب الى قصر فرعون ولم يغير ملابسه ولم يأخذ طعاما للطريق ولم يعد للسفر عدته .. لم يكن معه من دواب الأرض دابة تحمله على ظهرها وتوصله .. ولم يكن فى قافلة .. انما خرج بمجرد أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج .

---

(1) الآية ٢١ سورة القصص مكية .

اختار طريقا غير مطروق وسلكه . دخل فى الصحراء مباشرة واتجه الى حيث قدرت له العناية الالهية أن يتجه . لم يكن موسى يسير قاصدا مكانا معينا .. هذه أول مرة يخرج فيها ويعبر الصحراء وحده ..

ظل يسير بنفسية المطارد حتى وصل الى مكان ..

كان هـذا المكان هو مدين ..

جلس يرتاح عند بئر عظيمة يسقى الناس منها دوابهم ..

لم يكن له طعام سوى ورق الشجر ، وكان يشرب من الآبار التى يجدها فى الطريق .. وكان خائفا طوال الوقت أن يرسل فرعون وراءه من يقبض عليـــــه .

لم يكد موسى يصل الى «مدين»،حتى القى بنفسه تحت شجرة واستراح. نال منه الجوع والتعب ، وسقطت نعله بعد أن ذابت من مشقة السير على الرمال والصخور والتراب .. لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة . ولم تكن معه نقود لشراء طعام أو شراب . لاحظ موسى جماعة من الرعاة يسـقون غنمهم ، وتذكر أنه جائع وعطشان ، قال لنفسه : املأ بطنى من الماءمادمت لا املك ثمن الطعام .. سار موسى الى مكان الماء ، قبل أن يصل وجد امرأتين تكفان غنمهما أن تختلط بغنم القوم ، احس موسى بما يشبه الالهام أن الفتاتين فى حاجة الى المساعدة . نسى عطشه وتقدم منهما وسأل هل يسـتطيع أن يساعدهما فى شىء .. قالت الفتاة الكبرى :

ــ نحن ننتظر أن ينتهى الرعاة من سقى غنمهم لنسقى .

سأل موسى :

ولماذا لا تسـقيان ؟

قـالت الصـغرى :

ــ لا نستطيع أن نزاحم الرجـال .

اندهش موسى لأنهما ترعيان الغنم..المفروض أن يرعى الرجال الأغنام. هذه مهمة شاقة ومتعبة وتحتاج الى اليقظة .

ســـال موسى :

لـماذا يرعيـان الغنم ..

قـالت الصـغرى :

ــ أبونا شيخ كبير لا تساعده صحته على الخروج كل يوم للرعى .

قـال موسى : سأسقى لكما .

سار موسى نحو المـاء .. اكتشف أن الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ضخمة لا يستطيع أن يحركها غير عشرة رجال .. احتضـن موسى الصخرة ورفعها من فم البئر .. نفرت عروق رقبته ويديه وهو يرفع الصخرة .. كان موسى قويا .. سقى لهما الغنم وأعاد الصخرة الى مكانها وتركهما وعاد يجلس تحت ظل الشجرة ..

وتذكر لحظتها أنه نسى أن يشرب .. وكان بطنه ملتصقا بظهره من الجوع. تذكر الله وناداه فى قلبـــه :

ـــ رب انى لما أنزلت الى من خير فقير .. [١]

قـــال تعـــالى :

((ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل. ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال : رب انى لما أنزلت الى من خير فقير)) [٢] .

.. ..

.. ..

ندع موسى جالسا تحت ظل الشجرة .. لنرى ماذا كان من أمر الفتاتين اللتين ســـقى لهمـــا .

عادت الفتاتان الى أبيهما الشـــيخ .

ســـأل الأب :

ـــ عدتمـــا اليوم سريعا على غير العادة ؟!

قالت الـــكبرى :

ـــ كان حظنا اليوم عظيما يا أبى . .تقابلنا مع رجل كريم سقى لنا الغنم قبل أن يســـقى الرعـــاة .

قال الأب : الحمـــد لله .

قالت البنت الصغرى : أعتقد ياأبى أنه قادم من سفر بعيد .. وجائع ! رأيت وجهـــه مجهـــدا رغم قوته .

قـــال الأب لابنته :

ـــ اذهبى اليه وقولى له : ان أبى يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا .

وطارت البنت تجرى لموسى وقلبها يخفق .

وقفت أمام موسى وابلغته رسالة أبيها،ونهض موسى وبصره فى الأرض. انه لم يسق لهما الغنم وهو ينتظر منهما أجرا ، وانما ساعدهما لوجه الله ، غير أنه أحس فى داخله أن الله هو الذى يوجه قدميه فنهض .. ســـارت البنت أمامه .. هبت الرياح فضربت ثوبها فخفض موسى بصره حياء وقال لهـــا :

ـــ سأسير أنا أمامك ونبهينى أنت الى الطريق .

وصلا الى الشـــيخ .

---

(١) من الآية ٢٤ سورة القصص مكية .

(٢) الآيات من ٢٢ الى ٢٤ سورة القصص مكية .

قال بعض المفسرين ان هذا الشيخ هو النبى شعيب . عمـــر طويـــلا بعد موت قومه . وقيل أنه ابن أخى شعيب . وقيل ابن عمه . وقيل رجـــل مؤمن من قوم شعيب الذين آمنوا به .

لا نعرف أكثر من كونه شيخا صالحا .

قدم له الشيخ طعام الغداء وسأله من أين هو قادم والى أين هو ذاهب . حدثه موسى عن قصـــته . قال له الشيخ : لا تخف .. نجوت من القوم الظالمين . هذه البلاد لا تتبع مصر ، ولن يصلوا اليك هنا . اطمأن موسى ونهض لينصرف .

قالت ابنة الشيخ لأبيها همســـا :

ــ يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين .

سألها الأب : كيف عرفت أنه قـــوى ؟

قالت : رفع وحده صخرة لا يرفعها غير عشرة رجال .

ســـــألها :

ــ وكيف عرفت أنـــه أمين ؟

قـــــالت :

رفض أن يسير خلفى وسار أمامى حتى لا ينظر الى وأنا أمشى .. وطوال الوقت الذى كنت أكلمه فيه كان يضع عينيه فى الأرض حياء وأدبا .

وعاد الشيخ لموسى وقال لـــه :

ــ أريد يا موسى أن أزوجك احدى ابنتى على أن تعمل فى رعى الغنم عندى ثمانى سنوات ، فان أتممت عشر سنوات ، فمن كرمك ، لا أريد أن اتعبك ، ستجدنى ــ ان شاء الله ــ من الصالحين .

قـــال مـــوسى :

ــ هذا اتفاق بينى وبينك .. والله شاهد على اتفاقنا .. ســـواء قضيت الثمانى سنوات أو العشر سنوات فأنا حر بعدها فى الذهاب ..

قـــال تعالى فى سورة القصص :

« فجاءته احداهما تمشى على استحياء ، قالت : ان أبى يدعـــوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احداهما : يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين . قال : انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى ــ ان شاء الله ــ من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك ، أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل » . [1]

. . . .
. . . .

---

(1) الآيات من ٢٥ الى ٢٨ سورة القصص مكية .

تنصرف كثير من الأقلام حين تجيء الى هذا الموضع ، الى اسئلة لا تنم الا عن الفضول . يتساءلون أى ابنتى الشيخ تزوج موسى . أهى الكبرى أم الصغرى ؟ وأى الأجلين قضى موسى عشر سنوات أم ثمان سنوات ؟ . وهم يضربون فى تيه من الأقاصيص والروايات ، ونعتقد أن موسى تزوج احدى ابنتى الشيخ . لا نعرف من كانت ، ولا ماذا كان اسمها . نعتقد أنه تزوج التى ذهبت اليه تدعوه لأبيها ، ثم حثت اباها على استئجاره بعد ذلك . يكشف السياق القرآنى عن لون من ألوان الاعجاب الراقى الذى يجيش بنفسها تجاهه .. ولعل الشيخ أدرك بحكمته أن ابنته قد اختارت بقلبها وانتهى الأمر ، ولعله حين حدث موسى عن تزويجه ترك له حرية الاختيار حياء ، ولعل موسى اختار من اختارته ، ولعل هذا تم بنفس اندفاع موسى وسرعته . أما من كانت هذه البنت : أكانت الكبرى أم الصغرى . فهذه مسألة سكت عنها السياق القرآنى ، وان كان قد أشار اليها اشارة موحية معجزة بقوله :

« **فجاءته احداهما تمشى على استحياء** » . [١]

أيضا يسكت السياق القرآنى عن الأجل الذى قضاه موسى ، هل قضى السنوات العشر أم اقتصر على ثمانى سنوات وان كنا نعتقد .. استنادا الى **طبيعة** موسى وكرمه ونبوته وكونه من أولى العزم .. انه قضى الأجل الأكبر . وهذا ما يؤكده حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وهكذا عاش موسى يخدم الشيخ عشر سنوات كاملة .

وكان عمل موسى ينحصر فى الخروج مع الفجر كل يوم لرعى الأغنام والسقاية لها .. ونحسب أن فترة السنوات العشر التى قضاها موسى فى مدين كانت تدبيرا الهيا من الله له ..

ان موسى على دين يعقوب .

أبوه البعيد هو يعقوب .

ويعقوب هو حفيد ابراهيم .. وموسى اذن من أحفاد ابراهيم .. وكل نبى بعد ابراهيم جاء من صلبه .

نفهم من هنا أن موسى كان على دين آبائه وأجداده .. كان على الاسلام والتوحيد .

وها هو الوقت يجيء عليه فيعتزل عشر سنوات بعيدا عن أهله وقومه ..

وفترة السنوات العشر هذه كانت فترة هامة فى حياته ..

كانت فترة من فترات التأهيل الكبرى .

قطعا كان ذهن موسى يدور مع النجوم كل ليلة .وكان يتبع شروق الشمس وغروبها كل نهار ، وكان يتأمل النبات كيف يشق التربة ويظهر ، وينظر للماء كيف يحيى الأرض بعد موتها فتزدهر .. قطعا كان يسبح بذهنه فى كتاب الله

---

(١) من الآية ٢٥ سورة القصص مكية .

المفتوح للأبصار والأفئـدة .. كان يسبح بذهنـه فى كون الله ، وتدركه الدهشة ويدركه العجب .

غير أن هذا كله ظل كامنا فى نفسه مستقرا بها .

لقد تربى موسى فى قصر الفرعون المصرى .

هذا معناه أنه كان مصريا بثقافته ، مصريا بطعامه وشرابه ، مصريا بجسده وقوته . هذا الوعاء المصرى بالميلاد والتربية .. كان يهيأ ليتلقى وحيا الهيا من لون جديد .. وحيا الهيا مباشرا يجىء بغير رسول من الملائكة .. انمـا يكلمه الله تكليما بغير واسطة .. لابد اذن من فترة اعداد عقلى ونفسى .. انتهت فترة الاعداد الجسمانى فى مصر ، وتربى موسى فى قصر أعظم ملوك الأرض ، فى دولة هى أغنى دولة فى الأرض . وشب عملاقا قويا يكفى أن يمد يده ليزيح أحدا حتى يقتله ..

بقى اذن ان يضاف الى الاعداد البدنى اعداد روحى مماثل . اعداد يتم فى عزلة تامة ، وسط صحراء ومراع لا يعرفها موسى قبل ذلك . وسط اناس غرباء لم يرهم من قبل .. وذلك ما وقع .

كان الصمت طريقه ..

وكانت العـزلة مركبـه ..

وكان الله يستكمل لنبيه وكليمه ادواته ليتحمل موسى بعد ذلك أمانة الأمر بالحـق .

.. ..

جاء على موسى يوم ..

انتهت الفترة المحددة .. واستيقظ فى قلب موسى حنين غامض الى مصر .

يريد أن يعود الى مصر ..

لقد سقطت عقوبته بمضى المـدة .. يعلم ذلك .. لكنه يعلم أيضـا أن القانون فى مصر رهن اشارة الحاكم ، ان شاء ادخاله فى العقوبة فعل ، ولو لم يكن مستوجبا لها،وان شاءالعفو عنه ــ رغم استحقاقه للعقوبة ــ فعل .. كان موسى يعلم ذلك ، ولم يكن واثقا من نجاته فى مصر مثل ثقته من نجاته هنـا ..

رغم ذلك ، انشب الحنين أظافره فى روحه برغبة فى الرحيل ..

كان موسى سريعا وحاسما فى اتخاذ القرارات .

قال لزوجته : غدا نبدأ سفرنا الى مصر .

قالت زوجته لنفسها : فى الرحيل الف خطر لم يسفر عن وجهه بعـد . غير أنها أطاعت .

لم يكن موسى نفسه يعرف السر فى قراره السريع المفاجىء بالعودة الى مصر .. منذ عشر سنوات خرج هاربا .. رأسه مطلوب فى مصر ..

فلماذا يعود اليها اليوم .. هل اشتاق الى أمه وأخيه ؟ .. هل فـكر فى زيارة زوجة الفرعون التى ربته كأم وأحبته كأم ؟ ..

لا أحد يعرف ماذا دار فى نفس موسى وهو عائد الى مصر .. كل ما نعرفه أن طاعة صامتة لأقدار الله دفعته لاتخاذ القرار فاتخذه .

وها هى الأقدار العليا توجه خطواته لأمر شديد الأهمية عظيم الخطر .

•• •• •• •• •• •• •• •• •• •••

•• •• •• •• •• •• •• •• •• •••

خرج موسى مع أهله وسار .. اختفى القمر وراء أسراب من السحاب الكثيف وساد الظلام . اشتد البرق والرعد وأمطرت السماء وزادت حدة البرد والظلام .. وتاه موسى أثناء سيره .. التقط قطعتين من الصخر وراح يضرب احداهما بالأخرى ليشعل نارا يرى فى ضوئها أين يسير ، ولكنه لم يستطع . كانت الرياح القوية تطفىء الشرارة الضعيفة .. ووقف موسى حائرا يرتعش من البرد وسط أهله .. ثم رفع رأسه فشاهدها عن بعد ..

شاهد نارا عظيمة تشتعل عن بعد ..

امتلأ قلبه بالفرح فجأة .. قال لأهله : انى رأيت نارا هناك .. أمرهم أن يجلسوا مكانهم حتى يذهب الى النار لعله يأتيهم منها بخبر ، أو يجد أحدا يسأله عن الطريق فيهتدىَ اليه ، أو يحضر اليهم بعض أخشابها المشتعلة لتدفئتهم .

ونظر أهله الى النار التى يشير اليها موسى فلم يروا شيئا .. أطاعوه وجلسوا ينتظرونه .. وتحرك موسى نحو النار ..

سار موسى مسرعا ليدفىء نفسه .. يده اليمنى تمسك عصاه .. جسده مبلل من المطر .. ظل يسير حتى وصل الى واد يسمونه طوى .. لاحظ شيئا غريبا فى هذا الوادى .. لم يكن هناك برد ولا رياح .. ثمة صمت عظيم ساكن .. واقترب موسى من النار .. لم يكد يقترب منها حتى نودى :

« أن بورك من فى النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين »[١] .

توقف موسى فجأة .. وارتعش .. كان الصوت يجىء من كل مكان ولا يجىء من مكان محدد ..

نظر موسى فى النار وعاد يرتعش .. وجد شجرة خضراء من الشوك وكلما زاد تأجج النار زادت خضرة الشجر . المفروض أن تتحول الشجرة الى اللون الأسود وهى تحترق .. لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد .. راح موسى يرتعش رغم الدفء والعرق .. كانت الشجرة فى جبل غربى عن يمينه ، وكان الوادى الذى يقف فيه هو وادى طوى .. ووضع موسى يديه على عينيه من شدة النور مهابة وخوفا على بصره ..

وتساءل فى نفسه :

ـــ نار أم نـور ؟!

---

(١) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

(١) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

ثم ارتجت الأرض بالخشوع والرهبة والله عز وجل ينادى :

ــ يا موسى .. [١] .

رفع موسى رأسه وقال :

نعـــم .

قال الله عز وجل : **انى انا ربك**[٢] .

ازداد ارتعاش موسى وقال :

نعم يــارب .

قال الله عز وجل : **فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى** [٣] .

انحنى موسى راكعا وجسده كله ينتفض وخلع نعليه .

عاد الحق سبحانه وتعالى يقول :

((وأنا اخترتك فاستمع لمـــا يوحى . اننى أنا الله لااله الا أنا فاعبدنى واقم الصـــلاة لذكرى . ان الســـاعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بهـــا واتبع هواه فتردى))[٤] .

زاد انتفاض جسد موسى وهو يتلقى الوحى الالهى ويستمع الى ربه وهو يخـــاطبه ..

قـــال الرحمن الرحيم :

ــ وما تلك بيمينك يا موسى ؟ [٥] .

ازدادت دهشة موسى .. ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يخـــاطبه ، والله يعرف اكثر منه أنه يمسك عصاه .. لماذا يسأله الله اذن اذا كان يعرف اكثر منه .. لاشك أن هناك حكمة عليا لذلك .

اجاب موسى وصوته يرتعش :

ــ هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيهـــا مآرب أخـــرى . [٦].

قـــال الله عز وجـــل :

ــ ألقها يا موسى .. [٧] .

رمى موسى العصـا من يده وقد زادت دهشته .. وفوجىء بأن العصـــا تتحول فجأة الى ثعبان عظيم الحجم هائل الجسم .. وراح الثعبان يتحـــرك

---

(١) من الآية ١١ سورة طه مكية .
(٢) من الآية ١٢ سورة طه مكية .
(٣) من الآية ١٢ سورة طه مكية .
(٤) الآيات ١٣ الى ١٦ مكية .
(٥) الآية ١٧ سورة طه مكية .
(٦) من الآية ١٨ سورة طه مكية .
(٧) من الآية ١٩ سورة طه مكية .

بسرعة .. ولم يستطع موسى أن يقاوم خوفه .. أحس أن بدنه يتزلزل مــن الخوف ، فاستدار موسى فزعا وبدأ يجرى .. لم يكد يجرى خطـوتين حتى ناداه الله !

يا موسى : لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون [١] [سورة النمل].

أقبل ولا تخف انك من الآمنين [٢] [سورة القصص] .

عاد موسى يستدير ويقف ..

لم تزل العصا تتحرك .. لم تزل الحية تتحرك ..

قــال الله سبحانه وتعالى لموسى :

ــ خذها ولا تخف .. سنعيدها سيرتها الأولى [٣] [سورة طه] .

مد موسى يده للحية وهو يرتعش .. لم يكد يلمسها حتى تحولت فى يده الى عصا . عاد الأمر الالهى يصدر لــه :

أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضــمم اليك جناحك من الرهب [٤] [سورة القصص] .

وضع موسى يده فى جيبه واخرجها فاذا هى تتلألأ كالقمر .. زاد انفعال موسى بما يحدث ، وضع يده على قلبه كما أمره الله فذهب خوفه تماما ..

اطمأن موسى وسكت .. واصدر الله اليه أمرا بعد هاتين المعجزتين معجزة العصا ومعجزة اليــد ..

أن يذهب الى فرعون ليدعوه الى الله برفق ولين ، ويأمره أن يخرج بنى اسرائيل مــن مصر ..

وأبدى موسى خوفه من فرعون .

قال أنه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه ..

توسل الى الله أن يرسل معه أخاه هارون .. طمأن الله موسى أنه سيكون معهما يسمع ويرى ، وأن فرعون رغم قسوته وتجبره لن يمسهما بسوء . أفهم الله موسى أنه هو الغالب ..

ودعا موسى وابتهل الى الله أن يشرح له صدره وييسر أمره ويمنحه القدرة على الدعوة اليــه ..

قــال تعــالى فى سورة طــه :

((وهل أتاك حديث موسى ؟ . اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى

---

(١) من الآية ١٠ سورة النمل مكية .
(٢) من الآية ٣١ سورة القصص مكية (٣) من الآية ٢١ سورة طه مكية .
(٤) من الآية ٣٢ سورة القصص مكية .

المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . انني انا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى.ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بماتسعى . فلايصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى.وماتلك بيمينك ياموسى.قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولى فيها مآرب اخرى . قال ألقها يا موسى ، فألقاها فاذا هى حية تسعى.قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى . لنريك من آياتنا الكبرى . اذهب الى فرعون انه طغى . قال : رب : اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى . ولقد مننا عليك مرة أخرى . اذ أوحينا الى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له . والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى . اذ تمشى أختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا . فلبثت سنين فى اهل مدين ثم جئت على قدر — يا موسى — واصطنعتك لنفسى))[١] .

. . . .

لا نعرف ماذا نقول تعليقا على قول الله تعالى لعبد من عباده ..

« يا موسى .. واصطنعتك لنفسى » . [٢]

اختار الله موسى واصطنعه لنفسه .. سبحانه .. وتلك قمـــة من قمم التشريف لا نعرف أحدا بلغها فى ذلك الزمان البعيد غير موسى عليه الصلاة والســـلام .

قفل موسى راجعا لأهله بعد اصطفاء الله له واختياره رسولا الى فرعون .

انحدر موسى بأهله قاصدا مصر .

يعلم الله وحده أى افكار عبرت ذهن موسى وهو يحث خطاه قاصدا مصر . انتهى زمان التأمل ، وانطوت أيام الراحة ، وجاءت الأوقات الصعبة أخيرا ، وها هو موسى يحمل أمانة الحق ويمضى ليواجه بها بطش أعظم جبابرة عصره وأعتاهم . يعلم موسى أن فرعون مصر طاغية .. يعلم انه لن يســـلمه بنى اسرائيل بغير صراع .. يعلم أنه سيقف من دعوته موقف الانكار والكبرياء والتجاهل . لقد أمره الله تعالى ان يذهب الى فرعون . أن يدعوه بلين ورفق الى الله . أوحى الله لموسى أن فرعون لن يؤمن .. ليدعه مُوسى وشأنه . وليركز على اطلاق سراح بنى اسرائيل والكف عن تعذيبهم . قال تعالى لموسى وهـــارون :

---

(١) الايات ٩ الى ٤١ مكية .
(٢) الاية ٤١ سورة طه مكية .

« ـ فأتياه فقولا انا رسـولا ربك فارسـل معنـا بنى اسرائيـل ولا تعذبهم » [1] .

هذه هى المهمة المحددة .

وهى مهمة سوف تصطدم بآلاف العقبات . ان فرعون يعذب بنى اسرائيل ويستعبدهم ويكلفهم من الأعمال مالا طاقة لهم به ، ويستحيى نساءهم ، ويذبح أبناءهم ، ويتصرف فيهم كما لو كانوا ملكا خاصا ورثه مع ملك مصر .

يعلم موسى أن النظام المصرى يقوم فى بنيانه الأساسى على استعباد بنى اسرائيل واستغلال عملهم وجهدهم وطاقاتهم فى الدولة ، فهل يفرط الفرعون فى بناء الدولة الأساسى ببساطة ويسر .

ذهبت الأفكار وجاءت ، فاختصرت مشقة الطريق .. ورفع الستار عـن مشـهد المواجهـة .

واجه موسى فرعون بلين ورفق كما أمره الله .

« اذهبا الى فرعون انه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » [2] .

حدثه عن الله . عن رحمته وجنته . عن وجوب توحيده وعبادته .

حاول ايقاظ جوانبه الانسانية فى الحديث . ألمح اليـه انه يملك مصر ، ويستطيع لو أراد أن يملك الجنة . وما عليه لذلك الا ان يتقى الله ..

استمع فرعون الى حديث موسى ضجرا شبه هازىء وقد تصوره مجنونا تجرأ على مقامه السامى .. ثم رفع يده وتحدث .

ـ ماذا تريد . قل : ماذا تريد واختصر ؟ .

قال موسى : أريد أن ترسل معنا بنى اسرائيل .

سأل فرعون : بأى صفة ارسلهم معك وهم عبادى .

قال موسى : انهم عباد الله رب العالمين .

تساءل فرعون ـ هازئا ـ الم تقل ان اسمك موسى .

قال موسى : نعـم .

قال فرعون : ألست موسى الذى التقطناه من النيل طفلا لا حول له ولاقوة ألست موسى الذى ربيناه فى هذا القصر وأكل من طعامنا وشرب من مائنا وأغرقه خيرنا وأحسنا اليه .. ألست موسى القاتل فيما بعد . الفار فيما بعد قاتل الرجل المصرى لو لم تخنى الذاكرة . ألا يقولون ان القتل كفر . كنت كافرا وأنت تقتل اذن ..

---

(1) من الآية ٤٧ سورة طه مكية .
(2) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ سورة طه مكية .

أنت موسى اذن .. الفار من القانون المصرى .. الهارب من وجه العدالة .. ثم تجىء الى وتحدثنى ..

فيم كنت تحدثنى يا موسى .. لقد نسيت .

فهم موسى أن فرعون يذكره بماضيه ويمن عليه انه رباه وأحسن اليه ، فهم أيضا أن الفرعون يهدده بحادث القتل القديم .. وتجاوز موسى سخرية فرعون وأفهمه أنه لم يكن كافرا حين قتل المصرى . وانما كان ضالا لم يوح الله اليه .

أفهمه أنه فر من مصر لأنه خاف انتقامهم منه رغم أن القتل كان خطأ ولم يكن يقصده . أفهمه أن الله وهبه حكما وجعله من المرسلين .

حكى الله تعالى فى سورة الشعراء جزءا من الحوار بين موسى وفرعون .

قال تعالى :

« واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين .قوم فرعون، ألا يتقون؟. قال : رب : انى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل . قال : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال : فعلتها اذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » . [١]

.. ..

.. ..

وتغلب طبيعة موسى المندفعة عليه .. ان من الفرعون عليه وتذكيره باحسانه عليه يثير طبيعته المندفعة .. فاذا هو يخاطب فرعون قائلا :

ــ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » . [٢]

يريد موسى أن يقول له .. هل تظن أن النعمة التى تمنها على .. من أنك احسنت الى وأنا رجل واحد من بنى اسرائيل .. هل تظن هذه النعمة تقابل ما استخدمت هذا الشعب الكبير بأكمله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمتك وأشغالك . ان كان هذا بذاك وطاوعك المنطق على ذلك فنحن متعادلون اذن .. ليس فينا دائن ومدين ، وان لم يكن هذا بذاك فأيهما أكبر ؟ . وعلى أى الحالات فالأمر أمر دعوة الى الله .

أمر لم آتك به من تلقاء نفسى . لست موفدا من شعب بنى اسرائيل . لست موفدا من قبل نفسى .. انما أنا موفد من الله تعالى .. أنا رسول رب العالمين . عند هذا الحد تدخل الفرعون فى الحديث .

---

(١) الآيات من ١٠ الى ٢١ مكية .
(٢) الآية ٢٢ سورة الشعراء مكية .

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ » [١] .

قـــال موسى :

« **رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين** » • [٢] .

التفت فرعون لمن حوله وقال هازئا :

« **ألا تستمعون** » • [٣] .

قال موسى متجاوزا سخرية الفرعون :

« **ربكم ورب آبائكم الأولين** » • [٤] .

قال فرعون مخاطبا من جاءوا مع موسى من بنى اسرائيل :

« **ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون** » • [٥] .

عاد موسى يتجاوز اتهام الفرعون وسخريته ويكمل :

« **رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون** » • [٦] .

حكى الله تعالى فى سورة الشعراء جزءا من حوار فرعون وموسى .. قـــال تعـــالى :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ • قال : رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين • قال لمن حوله: ألا تستمعون : قال : ربكم ورب آبائكم الأولين • قال : ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون • قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون » • [٧] .

• • • • • • • • • • • • • • • •
• • • • • • • • • • • • • • • •

يذكر الله تعالى فى سورة طه جزءا من مشهد لقاء فرعون بمـــوسى .. قـــال تعـــالى :

« فأتياه فقولا : انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى • انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى • قال : فمن ربكما يا موسى ؟ • قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى • قال : فما بال القرون الأولى • قال : علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى»[٨] .

---

(١) المربع كله آية ٢٣ سورة الشعراء مكية .
(٢) من الآية ٢٤ سورة الشعراء مكية .
(٣) من الآية ٢٥ سورة الشعراء مكية .
(٤) من الآية ٢٦ سورة الشعراء مكية .
(٥) من الآية ٢٧ سورة الشعراء مكية .
(٦) من الآية ٢٨ سورة الشعراء مكية .
(٧) الآيات ٢٣ الى ٢٨ سورة الشعراء مكية .
(٨) الآيات ٤٧ الى ٥٢ مكية .

نلاحظ أن فرعون لم يكن يسأل موسى عن رب العالمين أو رب موسى وهارون بقصد السؤال البرىء والمعرفة . انما كان يهزأ . ولقد أجابه موسى اجابة جامعة مانعة محكمة .

قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

هو الخالق . خالق الأجناس جميعا والذوات جميعا . وهو هاديها بما ركب فى فطرتها وجبلتها من خواص تهديها لأسباب عيشها . وهو الموجه لها على أى حال . وهو القابض على ناصيتها فى كل حال .. وهو العليم بها والشاهد عليها فى جميع الأحوال .

توحى العبارة القرآنية بهذا كله وأكثر .. فتأمل ايجازها المعجز .

« **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** » . [١] .

انزلقت العبارة على ذهن فرعون السميك مثلما تنزلق قطرة من الزئبق على سطح من الزجاج ..لم تترك أثرا أو علامة . وهاهو فرعون يسأل :

ـــ فما بال القرون الأولى لم تعبد ربك هذا ؟

لم يزل فرعون ماضيا فى استكباره واستهزائه . ويرد موسى ردا يلفته الى أن القرون الأولى التى لم تعبد الله ، والتى عبدته معا ، لن تترك بغير مساءلة وجزاء . كل شىء معلوم عند الله تعالى .. هذه القرون الأولى علمها عند ربى فى كتاب . أحصى الله ما عملوه فى كتاب . لا يضل ربى .. أى لا يغيب عنه شىء . ولا ينسى .. أى لا يغيب عن شىء .. ليطمئن الفرعون بالا من ناحية القرون الأولى والأخيرة وما بينهما .. ان الله يعرف كل شىء ويسجل عليها ما عملته ولا يضيع شيئا من أجورهم .

عاد موسى يكمل حديثه عن ربه .

« **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** » . [٢] .

* * * * * * * * * * * * * * * * *

لفت موسى نظر فرعون الى آيات الله فى الكون . ودار به مع حركة الرياح والمطر والنبات وأوصله مرة ثانية الى الأرض ، وهناك أفهمه أن الله خلق الانسان من الأرض ، وسيعيده اليها بالموت ، ويخرجه منها بالبعث .

كأن هناك بعثا اذن ..

وسيقف كل انسان يوم القيامة أمام الله تعالى .. لا استثناء لأحد .. سيقف كل عباد الله وخلقه أمامه يوم القيامة . بما فى ذلك الفرعون .

---

(١) من الآية ٥٠ سورة طه مكية .
(٢) الآيات من ٥٣ الى ٥٥ مكية .

بهذا جاء موسى مبشرا ومنذرا .

****

لم يعجب فرعون هذا النذير ، وتصاعد الحوار بينه وبين موسى ..

كان الحوار يعبر عن الصراع بينهما .. سخنت حـدة الصراع فتغيرت لهجة الحوار .. أقام موسى الحجة الدامغة على فرعون ، اقام عليه الحجة العقلية .. ولكن فرعون ينفلت خارجا من دائرة الحـوار الـذى بنى على المنطق ، ويبدأ حوارا من نوع جديد . نوع لا يطيق موسى مجاراته فيه .. انه يهاجم موسى ويهدده ويحتقره ويسبه .

أعطى فرعون ظهره للحق الذى جاء به موسى . وتجاهل دعوته . وبدا يهاجمه فى شخصه وملابسه وطريقة نطقه للكلمات ..

أشار لمن حوله الى فقر موسى .. وملابسه الصوفية الخشـنة . وهذا التردد الذى يجتاح لسانه عند نطق بعض الكلمات .

بعد هذا التحقير لموسى .. عمد الفرعون الى أسلوب الحكم المطلق ..

سأل موسى كيف يجرؤ على عبادة غيره .. الا يعرف موسى أن فرعون اله . كيف يجهل موسى هذه الحقيقة رغم أنه تربى فى قصر الفرعون ويعرف !

بعد أن أعلن فرعون عن الوهيته بصفة مبدئية . سأل موسى كيف تجـرأ على عبادة غيره .. ان هذا معناه السجن .. ليس عندنا لمن يتخذ الهـا غير الفرعون .. سوى السجن ..

« **قال : لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين** » . [١]

ادرك موسى أن الحجج العقلية لم تفلح . أن الحوار الهادىء ينقلب من السخرية الى المن الى التحقير الى التهديد بالسجن . أدرك موسى أن وقت اظهار المعجزة قد جاء .

قال للفرعون بعد تهديده له بالسجن ..

« **قال : أولو جئتك بشىء مبين** » . [٢]

انه يتحدى الفرعون .. وها هو يقبل تحديه .. ويعلق صدقه على أن يأتيه بهـذا الشىء المبين .

« **قال : فأت به ان كنت من الصادقين** » . [٣]

القى موسى عصاه فى صالة القصر العظيمة .

فى البداية ، خيل الى فرعون أن العصا سقطت من موسى بسبب ارتباكه بعد أن طالبه باظهار الدليل على صدقه .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الشعراء مكية .
(٢) الآية ٣٠ سورة الشعراء مكية .
(٣) الآية ٣١ سورة الشعراء مكية .

تحولت أنظـــار الواقفين جميعا الى العصا وهى ترتطم بأرض الصـــالة الرخامية .

لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت الى ثعبان هائل يتحرك بسرعة . اتجه الثعبان الهائل نحو فرعون . شحب وجه فرعون من الخوف ، وانكمش فى كرسيه ، وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان .

مد موسى يده الى الثعبان فعاد فى يده الى عصا كما كان .

سقط الصمت بعد هذه الآية . .

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية . أدخل يده فى جيبه واخرجها فاذا هى بيضاء كالقمر . شحبت كل أضواء القصر وشموعه أمام هذا النور الجديد . وظهر وجه فرعون أخضر من الخوف .

قال تعالى : « **فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين** » [1] سورة الشعراء .

صمتت الاصوات فى القصر . وانغرس تأثير المعجزتين فى النفوس يحمل تيارا من الخوف أول ما يحمل . . ثم اعاد موسى يده الى جيبه فعادت كما كانت .

ذاب النور المدهش الذى حملته الآية الثانية الى المكان .

قال فرعون ممتقع الوجه :

ــ اذهبا الان . . نتحدث فيما بعد .

استدار موسى وخرج من القصر .

كان فرعون ذاهلا . . جال تفكيره فيما يمكن ان يقع فى المملكة لو انتشر فيها خبر المعجزتين وتحدث الناس عن موسى وهارون . أصدر الفرعون امره باسدال الصمت على الموضوع ، ولكن خـــدم القصر وجواريه وجزء من بنى اسرائيل شهدوا المعجزتين . وملاوا الدنيا حديثا عنهما .

بهت فرعون مصر تماما حين واجه المعجزتين . فلما خرج موسى من قصره تحول من الذهول والخوف الى الغضب العنيف . . انفجرت ثورته فى وزرائه ورجاله وراح يعنفهم بلا سبب . أمرهم بالخروج من مجلسه وخلا بنفسه . . حاول ان يفكر فى الموضوع بهدوء أكثر .

شرب عدة كؤوس من الخمر فلم يذهب غضبه . . ثم اصدر أمره باجتماع خطير يدعى اليه كل وزراء مصر وقادتها ومسئوليها . وأصدر الفرعون أمره لهامان ، كبير وزرائه ، أن يشرف بنفسه على عقد الاجتماع .

واجتمع الملأ من قوم فرعون .

دخل فرعون الاجتماع ووجهه متصلب . كان واضحا انه لن يستسلم بسهولة ، أنه يقيم ملكه على أساس أنه اله يعبده المصريون . وهو يستبد بهم ويتحكم فيهم ويستغلهم طبقا لهذه الفكرة . . وها هو موسى يجىء

---

(1) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ مكية .

ليهدم كل ما بناه .. أبسط شيء أن موسى يقول ان هناك الها واحدا لا اله غيره فى الكون . معنى هذا أن فرعون كاذب .

لم تكد هذه الفكرة تستقر في رأس فرعون .. حتى التفت الى كبير وزرائه هامان .. كانت الجلسة التاريخية منعقدة .. ولم يكن هناك من تجرأ على فتح فمه بعد . افتتح فرعون الجلسة بأن ألقى على هامان سؤاله المفاجيء :

ــ هل أنا كاذب ياهامان ؟

ركع هامان مندهشا وتساءل .

من الذى تجرأ على الكفر بالفرعون .

قال فرعون مقطبا :

ــ موسى . الم يقل أن هناك الها فى السماء ؟ .

قال هامان مؤكدا .

ــ موسى يكذب يا مولاى .

قال فرعون نافد الصبر وهو يدير وجهه الى الجهة الاخرى .

ــ أعرف أنه يكذب .

ثم ملتفتا الى هامان

« **وقال فرعون : يا هامان : ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فاطلع الى اله موسى وانى لاظنه كاذبا** » [١] سورة غافر .

اصدر الفرعون امره الملكى ببناء صرح شاهق يفترض فى ارتفاعه أن يصل الى السماء . استند الأمر الفرعونى الى حضارة مصر وولعها بالبناء ، غير انه تجاهل القوانين الهندسية الحاكمة ، ورغم ذلك رد هامان منافقا وهو يعرف باستحالة بناء مثل هذا الصرح .

ــ سأصدر أمرا ببنائه على الفور .. لكنك يامولاى .. واسمح لى بالاعتراض للمرة الاولى على الفرعون .. لن تجد شيئا فى السماء . ليس هناك اله غيرك .

استمع فرعون الى اعتراض رئيس وزرائه راضيا كأنه يستمع الى حقيقة مقررة .. ثم أعلن فى اجتماعه الشهير كلمته التاريخية .

« **يا أيها الملأ : ما علمت لكم من اله غيرى** » [٢] . سورة القصص .

حنى الجميع رؤوسهم موافقين .

---

(١) الآية ٣٦ وجزء من آية ٣٧ مكية .
(٢) من الآية ٣٨ مكية .

كان بينهم اثنان او ثلاثة . لم يزل فى رؤوسهم عقل . وكان هؤلاء الثلاثة يعرفون أن فرعون هو الذى يكذب . ورغم ذلك سكتوا على الكذب ووافقوه . وقد كلفت هذه الموافقة الشعب المصرى غاليا . دفع الجنود المصريون من دمهم فيما بعد ثمن نفاق قادتهم وموافقة وزرائهم وخضوع كهنتهم لجنون الفرعون .

قال فرعون وهو يسأل مستشاريه : ماذا قلتم فى موسى ؟

قال هامان : هو كاذب .

وقال وزير آخر : أعتقد أنه مجنون .

وقال كاهن أشيب — خشى أن يضيع بينهم لو لم يقل شيئا — : أتصور أن مسا أصابه ..

قاطع الفرعون :

— أنتم تصفون موسى ، ولكنكم لم تجيبوا عن سؤالى بعد .

ما هى حقيقة موسى .. ما هى المؤامرة التى يخفيها وراء ظهره .

سكت المستشارون خوفا ونفاقا من فرعون . وانتظروا أن يضع هو الكلمات فى افواههم ليرددوها بعده كالببغاوات .

قال فرعون بعد لحظة صمت فلسفى مضحك :

— أعتقد ان موسى ساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون .

من المعروف فى انظمة الحكم المطلق أن اجتماع وجوه القوم وكبارهم لابداء الرأى أمام الحاكم المطلق لا يعنى أكثر من اجتماعهم لتلقى الرأى وترديده بعد ذلك .

قال المستشارون بعد أن أعطاهم فرعون حبل الكلمات :

— صدق فرعون . أن موسى ساحر،لقد انحلت المشكلة،سنرجىء موسى واخاه ونبعث بأمر الفرعون فى مصر كلها ليحضر السحرة ،فاذا حضر السحرة وقفوا أمام موسى واثبتوا أنه ساحر وهزموه .. وبذلك نكشفه أمام المصريين وابناء اسرائيل ..

تم الاتفاق فى هذه الجلسة التاريخية على ذلك . وخرج من قصر الفرعون عشرة رجال ركبوا مركباتهم وأسرعوا يتفرقون فى مصر .. ونودى ثانى يوم فى أسواق مصر كلها : أن على جميع السحرة الماهرين التوجه الى قصر فرعون لامر هام .. واستدعى فرعون نبى الله موسى وحاول تهديده واخافته ، ولكن موسى ظل على هدوئه .

قال فرعون لموسى :

— انت ساحر يا موسى .. ولقد قررت أن أكشفك أمام الجميع وبعد أيام قليلة يحضر السحرة .

سأل موسى :

متى التقى بالسحرة ؟

قال فرعون : هناك مناسبة قريبة لحشد الناس واجتماعهم .. هى يــوم الزينة .. يوم شم النسيم .. يوم تتزين الارض لقدوم الربيــع .. سيكون الاجتماع هائلا .. وسوف تهزم .. وأنا أعطيك حق التراجع من الآن .. اننى أمنحك فرصة أخيرة لانقاذ ماء وجهك .

قال موسى متجاهلا كلام الفرعون الاخير :

ــ اتفقنا على الموعد .

موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى ..

سأل فرعون :

ــ أى وقت ستحضر ؟

قال موسى :

ــ سأحضر ان شاء الله فى الفجر .. فى بداية النهار ..

قال تعالى فى سورة طه : ((**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى**))(١) .

انصرف موسى مطمئنا ..

وبدأت وفود السحرة تصل الى قصر فرعون .

وحين اجتمعوا جميعا أمر فرعون بأدخالهم عليه .. سجد السحرة لفرعون حين دخلوا عليه .

أمرهم فرعون بالوقوف ، وراح يتمشى بينهم ويتأمل وجوههم وملابسهم وهو صامت يفكر ، ثم وقف فجأة وقال :

ــ أيها السحرة .. نحن نواجه مشكلة صغيرة ، وقد أمرت باحضاركم لحلها ..

حنى السحرة رؤوسهم واستمعوا .

عاد الفرعون يتحدث :

ــ جاءنا رجل يدعى أنه رسول من الله ، رجل اسمه موسى ، ومعه أخوه هرون .. وموسى هذا ساحر أمهر منه وأقدر ..

يجب أن تهزموه هزيمة مطلقة لا يستطيع رفع رأسه بعدها ..

حنى السحرة رؤوسهم وظلوا صامتين ..

---

(١) الآيات من ٥٦ الى ٥٩ مكية .

قال فرعون :

ـ لماذا لم يسألنى احدكم عن سحر موسى ؟!

رد احد السحرة بهدوء :

ـ نحن ننتظر من فرعون العظيم ان يحدثنا بنفسه .. لا نريد ان نقاطعك يا مولانا .

قال فرعون بغضب :

ـ ألقى عصاه فاذا هى ثعبان كبير ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين .

لمعت الابتسامات فى وجوه السحرة وقال أحدهم :

ـ ليطمئن قلب الفرعون .. هذه لعبة قديمة ، لعبة العصـــا التى تتحول الى ثعبان .. انها لا تتحول الى ثعبان .. انما يخيل الى الناس أنها تتحرك وهى ثابتة ..

قال فرعون :

ـ لا أريد أن ادخل فى نقاش حول أصول صنعة السحر .. أريد أن تهزموا موسى .. لقد اتفقنا على اللقاء يوم الزينة .

سيجتمع الشعب المصرى كله ويشاهدكم وانتم تهزمونه .

يجب أن تغلبوه ..

انتهى كلام فرعون وانتظر أن ينصرف السحرة ولكنهم ظلوا واقفين .. تساءل أحدهم :

ـ لم يحدثنا مولانا الفرعون عن أهم شىء لو غلبنا له موسى .

سأل فرعون مندهشا :

ـ ماهو اهم شىء هذا ؟!

قال أحد السحرة :

ـ اجرنا ان كنا نحن الغالبين .

قال فرعون ضاحكا :

ـ سأرضى عنكم ، وستكونون من المقربين .. سننشىء وظائف جديدة فى القصر للسحرة .. اطمئنوا تماما للأجر ..

ابتســـم فرعون وهو يرى وثوق الســـحرة من أنفســـهم ، وأمرهم بالانصراف وانصرف هو الى مائدة الغداء ..

انفتحت نفسه فجلس يأكل .. قال وهو يلتهم فخذ خروف سمين .

ـ انسدت نفسى عن الاكل من يوم أن جاء موسى .. اقتربت نهايته على أى حال .

قال تعالى فى سورة الاعراف :

« وقال موسى : يا فرعون : انى رسول من رب العالمين . حقيق على ان لا أقول على الله الا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل . قال : ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضـــاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون : ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا : ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين . قال نعم ، وانكم لمن المقربين »(1) .

. . . .

وجاء يوم الزينة ..

وخرج الناس من بيوتهم وهم يتحدثون عن اللقاء بين موسى وفرعون .

بدأ الناس يتوجهون الى مكان الاحتفال منذ الصباح المبكر .. لم يكن هناك أحد فى مصر لم يعرف قصة التحدى واللقاء ..

وهلل الناس حين وصل السحرة .. كما هللوا حين وصل فرعون .. ثم ساد صمت ثقيل حين وصل موسى وهرون .

كان مكان الاحتفال مكشوفا الا من مظلة فرعونية لتقى رأس الفرعون من حرارة الشمس .. ووقف فرعون وسط أبهته وجنوده وقواده وهو يرتدى الذهب والجواهر ، ووقف موسى مطأطىء الراس يذكر الله فى نفسه .. صمتت الأصوات تماما وتقدم السحرة الى موسى ..

قال السحرة لموسى :

ـــ اما أن تلقى واما ان نكون أول من ألقى ..

قال موسى :

ـــ بل ألقوا .

قال السحرة : بعزة فرعون انا لنحن الغالبون ..

قال موسى : ويلكم ، لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب .

قال بعض اهل الحقائق .. التفت موسى فاذا جبريل على يمينه يقول له يا موسى .. ترفق بأولياء الله .. قال موسى لنفسه : هؤلاء سحرة جاءوا ينصرون دين فرعون .. عاد جبريل يقول : ترفق باولياء الله . هم من الساعة الى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر فى الجنة .

. . . .

رمى السحرة بعصيهم وحبالهم فاذا المكان يمتلىء بالثعابين فجأة ..

---

(1) الآيات من ١٠٤ الى ١١٤ مكية .

سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ..

وهلل المصريون .. وابتسم الفرعون ابتسامة واسعة وقال فى نفسه ..

ــ لقد تم القضاء على موسى الآن .. ان معجزته أن العصا تتحول فى يده الى حية .. ها هو فرعون يحضر له عشرات السحرة الذين تتحول العصى والحبال فى أيديهم الى حيات ..

زادت ابتسامة فرعون ..

ونظر موسى عليه السلام الى حبال السحرة وعصيهم وشعر بالخوف .. أوجس فى نفسه خيفة موسى . تذكر ما قاله له جبريل وأحس بالخوف .. كيف يمكن أن يدخل هؤلاء السحرة الجنة ويكونوا أولياء الله .. مثلما يطفأ النور ثانية أو ثانيتين ويسود الظلام .. شعر موسى بذلك .. ولا أحد يعرف حقيقة الافكار التى عبرت ذهن موسى وهو يقف فى ملابسه الفقيرة مع أخيه أمام كل هذا الحشد العظيم من حرس الفرعون وجنوده .. لم يستمر احساس موسى بالخوف ، عاد النور يضىء داخله والله سبحانه وتعالى يقول له :

((لا تخف انك أنت الأعلى . وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى))(١) .

اطمأن موسى حين سمع رب العالمين يطمئنه .. كفت يده عن ارتعاشتها الخفيفة ، ورفع موسى عصاه وألقاها فجأة ..

لم تكد عصا موسى تلامس الارض حتى وقعت المعجزة .

شاهد الناس والسحرة وفرعون وجنوده شيئا لم يشاهده أحد من قبل فى العالم .. المعروف أن الساحر يستطيع أن يخدع أعين الناس ويوهمهم ان الثعبان يتحرك وهو ثابت ، ان العصا تتحرك وهى ثابتة ..

لكن ما حدث ساعتها كان شيئا مختلفا تماما ..

لم تكد عصا موسى تلمس الارض حتى تحولت الى ثعبان جبار سريع الحركة ، وتقدم هذا الثعبان فجأة نحو حبال السحرة وعصيهم التى كانت تتحرك وبدأ يأكلها واحدا بعد آخر .. راحت عصا موسى تأكل حبال السحرة وعصيهم بسرعة مخيفة ..

لم تكد تمضى دقائق حتى كانت الساحة خالية تماما من كل حبال السحرة وعصيهم .. اختفت الحبال والعصى فى بطن عصا موسى .. وتحرك الثعبان العظيم نحو موسى ومد موسى يده فتحول الثعبان الى عصا ..

---

(١) جزء من آية ٦٨ وآية ٦٩ سورة طه مكية .

وأدرك السحرة انهم ليسوا أمام ساحر ..

انهم سادة السحر وأعظم العلماء فى زمانهم .. وما راوه منـذ لحظات لايدخل فى باب السحر أو العلم .. انما هذه معجزة من الله ..

والقى السحرة انفسهم على الأرض ساجدين ..

قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .

شهد المصريون وأبناء اسرائيل هذه المعجزة المفاجئة .. شهدوا سـجود السـحرة لموسى وهارون ..

واحس فرعون أن الأمر يفلت من يده فنهض واقفا وصاح فى السحرة :

ــ كيف تؤمنون به قبل أن أعطيكم اذنا بذلك ؟ .

قال السحرة :

ــ لا يحتاج الايمان الى اذن .

قال فرعون : انها مؤامرة واضحة .. انه لكبيركم الذى علمكم السـحر .. ستقطع أيديكم وأرجلكم .. ستصلبون فى جذوع النخل ، انهـا مؤامرة واضـحة .

قال السـحرة :

ــ افعل ما تريد أن تفعله يا فرعون .. لن نفضلك على هذه المعجـزة الالهية .. انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أجبرتنا عليه من السـحر .. والله خير وأبقى .. ولو عذبتنا وقتلتنا وصلبتنا فانك تعذبنا فى هذه الحياة .. وهى لا شىء بجانب الآخرة .. ونحن نطمع فى مغفرة الله ودخول الجنـة .. واصدر الفرعون امره بصلب السحرة جميعا ..

ووقف الناس يتفرجون على ما يحدث .. لم تكن شهادة السحرة لموسى شيئا يستهان به .. ان هؤلاء هم صفوة المجتمع المصرى .. هم علمـاؤه .. وقد سجد علماء مصر للحق ، فخذلهم الناس وتركوهم لمصيرهم . كان الحق واضحا ورغم ذلك اكتفى الناس بالفرجة ، ولو أن كل واحـد من المصريين انحنى على الأرض وتناول قطعة من الطوب وقذف بها فرعون لسقط فرعون وتغير تاريخ مصر .. ولكن الذى حدث أن احدا لم يتحرك من مكانه ، اكتفى الناس بالفرجة ، ودفع الناس فيما بعد ثمن هذه الفرجة ..

غرق الناس فيما بعد ثمنا لجبن يوم واحد .

واسدل الستار على هذا اليوم العظيم .. وانصرف موسى وهارون .. وعاد الفرعـون لقصره ..

....

حكى الله تعالى فى سورة الاعراف ما كان من أمر السحرة وموسى .. قـال تعـالى :

((قالوا : يا موسى:اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين.قال :ألقوا، فلما ألقوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون .. فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال : فرعون ءآمنتم به قبل أن آذن لكم . ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا : انا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين))[١] .

....

انقلب السحرة المصريون الى الاسلام الذى جاء به موسى ..

آمنوا بالله .. وصعدوا بهم الى جذوع النخل لصلبهم وتقطيع أيديهم وارجلهم ، وهم يسألون الله أن يتوفاهم مسلمين . وفهم موسى معنى كلمات جبريل عليه السلام : ((هم من الساعة الى صلاة العصر عندك .. وبعدها فى الجنة)) .

لم يكد العصر يدخل حتى كانت أجسام السحرة .. علماء مصر وخيرة عقولها .. كانت أجسادهم تشخب دما وهى مصلوبة يثبتها جنود الفرعون بالسهام القوية .

انكفأ فرعون على مشكلته الجديدة .

بدأت سلسلة اجتماعات خطيرة فى قصره . استدعى المسئول عن الجيش والبوليس ، واستدعى — ما نسميه اليوم — مدير الاستخبارات ، واستدعى الوزراء والأمراء والكهنة .. وراح يستدعى كل من يملك قوة للتأثير فى سير الحوادث ، أو يتصور انه يملك هذه القوة .

سأل الفرعون مدير استخباراته : ماذا يقول الناس ؟

قال : نشر رجالى بينهم أن كسب موسى للمباراة كان مؤامرة دبرها معه كبير السحرة . وقد تم اكتشاف المؤامرة التى يعتقد أن جهات مجهولة تمولها.

سأل الفرعون مدير البوليس : ماذا تم فى جثث السحرة .

قال : علقها رجالى فى الميادين العامة والأسواق لارهاب الناس . ونحن نشيع أن الفرعون يقتل كل من له علاقة بالمؤامرة .

سأل الفرعون قائد الجيش : ماذا يقول الجيش ؟

قال : يتمنى أن تصدر له الأوامر للحركة فى أى اتجاه يحدده الفرعون .

قال فرعون : لم يأت دور الجيش بعد . سيأتى دوره .

---

(١) الآيات من ١١٥ الى ١٢٦ مكية .

سكت فرعون .. وتحرك هامان كبير الوزراء ورفع يده يطلب الكلمة .
سمح له فرعون فقال هامان :

ـــ هل سنترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويتركوا عبادتك .

قال فرعون : أنت تقرأ أفكارى يا هامان . ســنقتل أبنــاءهم ونستحيى نساءهم وانا فوقهم قاهرون .

أصدروا التعليمات بذلك . وانطلق رجال الفرعون يقتلون الأبناء وينتهكون النساء ويسجنون من يعترض .. ووقف موسى يشهد ما يحدث دون أن يملك التدخل أو يقوى على دفعه .. كل ما فعله أنه أمر قومه بالصبر . أمرهم أن يستعينوا بالله ويصبروا على المحنة . ضرب لهم مثلا بالسحرة المصريين الذين احتملوا فى الله ما احتملوه بغير شكاة . أفهمهم أن جنود فرعون يتصرفون فى الأرض كما لو كانت الأرض ملكا خاصا لهم ، غير أن هذا ليس صحيحا .. سيرث هذه الأرض من يتقى الله .. واشاع ارهاب الفرعون فى نفوس بنى اسرائيل روحا من الانهزام والتشاؤم . وقالوا لموسى : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا . كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك الينا . كأنهم يقولون له ان وجودك لا يؤثر فى شىء .. نحن وحدنا تماما .. ورد موسى جهلهم وأفهمهم ان الله سيهلك عدوهم ثم يســتخلفهم فى الأرض فيرى كيف يعملون .. غير انهم استمروا على شكايتهم وتأذيهم .

وبدا موقف موسى صعبا .. انه يواجه غضب الفرعون ومــؤامراته ، وتذمر قومه فى نفس الوقت . ووسط هذه الظروف تحــرك قارون . كان قارون من ابناء اسرائيل ، كان من قوم موسى فبغى عليهم . ان ثراءه وظروفه جعلاه أقرب طبقيا وعاطفيا الى نظام الفرعون . يحدثنا الله عن كنوز قارون فيقول ـــ سبحانه وتعالى ـــ ان مفاتيح الحجرات التى تضم الكنوز ، كان يصعب حملها على مجموعة من الرجال الاشداء . ولو عرفنا عن مفــاتيح الكنوز هذا الحال ، فكيف كانت الكنوز ذاتها . كان لقارون عدد عظيم من الخيل والمركبات والرجال والحرس ، وكانت مركباته مطعمة بالفضة والذهب . وكانت سروج خيله المطهمة مصنوعة من الجلد المــزين بالــذهب والفضــة والبرونز والنحاس .. وكان قارون اذا خرج فى زينته ، ومشى موكبه تحت الشمس ، تلألأ الذهب والنحاس تحت أشعة الشمس ، وخطف الوهج ابصار أهل الدنيا .. وكان طبيعيا أن يملك قارون مع أمواله كبرياء لا يفلح معهــا نصح . ويبدو أن ثراءه وكبرياءه أسلماه معا لاحساس متصل بالفرح ، صارت ضحكته أشهر ضحكة فى بنى اسرائيل ، وصار موكبه اشهر المواكب بعــد موكب الفرعون وموكب هامان . كان الاثنان يملكان مصر كلها ، ولم يكن قارون يملك غير جزء من مصر على أى حال .

ويبدو أن العقلاء من قومه نصحوه أن يفكر قليلا فى آخرته ، ولعلهم قالوا له : أن أحدا لا ينصحك بترك الدنيا كلها والانخراط فى سلك الزاهدين . انما نصحوه الا ينسى نصيبه من الدنيا ، وكان هذا النصح مأخوذا به ولا حاجة اليه ، كما نصحوه الا ينسى نصيبه من الآخرة . ويبدو أن قارون اكتفى بنصيبه من الدنيا ، وأوهمه عقله أن هذا الثراء جاءه بسبب علمه ، كما أوهمه ثراؤه ان الله يحبه . وذهبت به الظنون الى انه أفضل من موسى .. ان موسى فقير وقارون شديد الثراء . كيف يكون الفقير الذى لا يرتدى أسورة واحدة مــن

الذهب ، أفضل عند الله من الغنى الذى يصنع سروج خيله من الذهب .

هكذا اتفق قارون مع فرعون فى نظرته الى موسى .. وكان فرعون يحكم على الأفراد من واقع ثرائهم المادى ، كداب الجاهلين . **((هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين))**(١) كانت هذه كلمة فرعون عن موسى .. اتفق رأى فرعون وقارون بالنسبة لموسى .. وكان قارون بحكم مركزه وثرائه صديقا لفرعون ونظام حكمه . ويبدو أن قارون وفرعون وهامان لم يكونوا وحدهم سجناء هذا الوهم ، كان قوم فرعون .. اى المصريين ينظرون الى موسى نظرتهم الى ساحر هزم سحرتهم .. ولا يعنى هذا أن مصر اجدبت أو خلت من الفضل ، كان فى المصريين من يؤمن بموسى ، ويخفى ايمانه خشية بطش الفرعون . وكان فى قوم موسى من ينظر الى موسى وقارون ويقارن بينهما ، وكان هناك من يتساءل ببلادة : اذا كان الله يحب موسى حقا فلماذا جعله فقيرا ، ويبدو أن قارون كان فتنة لقومه ، وللمصريين على السواء .

كان اذا خرج فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا :

((يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم))[٢] .

وكان العقلاء — رغم قلتهم — يرون ان ثراء قارون العظيم لا يعنى شيئا فى ميزان الله ، لا يرى الله الفضـل فى الذهب والكنوز واللآلىء والـدرر والماشية ، اذا كانت النفوس قد اظلمت من الداخل .

وكان موقف موسى صعبا وسط هذه الظروف كلها .

وفى هذه اللحظات الحرجة ، تحرك قارون ضد موسى . كان موسى — كنبى — رجلا يتصف بالنقاء العظيم . ويبدو أن قارون اتفق مع فرعون على محاولة اسقاط موسى فى عيون اتباعه ، عن طريق اتهامه بتهمة تخل بالنقاء .

وهكذا فوجىء موسى يوما وهو يقف وسط قومه ، ويدعوهم الى الله ، فوجىء بامرأة بغى تقذفه بتهمة مؤداها انه كان فى فراشها أمس .

ونحسب أن موسى فوجىء بهذه التهمة ، ولم يعرف ماذا يقول فيها ، أو كيف يدفع عن نفسه اتهام البغى .. واغلب الظن انه صلى لله ثم أقبل عليها فسألها لماذا تتهمه بما لم يحدث ، وانهارت المرأة باكية مستغفرة تحدثه أن قارون أعطاها نقودا مقابل الصاق هذا الافك بموسى .

ودعا موسى على قـارون ..

وشاء الله تعالى أن تقع معجزة تضع الأمور فى اماكنها الصحيحة وتبين للناس أن الله هو القادر القاهر ، وأن المال فتنة وليس فضلا تقاس به أقدار النـاس .

وكانت هذه المعجزة هى خسف الله لقارون وداره وكنوزه .

خرج قارون على قومه فى زينته .. فانشقت الأرض تحت قدميه وهوى فى الأرض . لا نعرف أكان ذلك زلزالا ينتظر منذ خلق الأرض لحظة ميـلاده ليقع ، أو كان ذلك زلزالا أمره الله أن يقع فى هذه اللحظة .. كل ما نعرفه أن

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الزخرف مكية .
(٢) من الآية ٧٩ من سورة القصص مكية .

الأرض انشقت وابتلعت قارون .. وابتلعت معها أرضه وقصوره وماشيته وذهبه وفضته وكنوزه ورجاله .. وتقول بعض الأســاطير أن ذلك كان فى الفيوم . وأن بحيرة قارون التى يعرفها المصريون بهذا الاسم .. كانت هى موضع أرض قارون وقصوره وكنوزه .. وعلى أى حال .. ان النص القرآنى لا يحدد مكان هذا الخسف ، ولا يحدد زمانه .. انما يحكى ما وقع فحسب .. وليس تحديد المكان أو الزمان يعنى شيئا الى جــوار العبرة المستخلصـــة ممـــا حـــدث .

قال تعالى فى ســـورة القصص :

((ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، اذ قال له قومه : لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين . قال: انما أوتيته على علم عندى ، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كـــان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الاخرة نجعلهـــا للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين))[1] .

وقف كثير من القدماء أمام هذا العلم الذى ادعى قارون انه قد أوتيه . قال بعضهم أن هذا هو علم الكيمياء الذى يتحول بسببه النحاس الى ذهب ، وقال بعضهم انه كان يعرف اسم الله الأعظم ، فاستخدمه فى تحويل المواد الى ذهب . وانكر عليه العقلاء من القدماء أن يعرف اسم الله الأعظم ، وهـــو منافق ، كما انكروا عليه صنعة الكيمياء .. ونحسب أن هذا كله أســـاطير لا تصلح لتفسير أسباب ثرائه ، نعتقد أنه كان رجلا ظالما ، ورث ضـــياعا واسعة فاستغلها فى تنمية ثروته ، ولا بأس بعمل غير مشروع هنا أو هناك، ولا بأس من صداقة الفرعون والتسهيلات التى تتيحها مثل هذه الصداقة . ولا بأس من الوقوف ضد موسى ، اذا كان ذلك يتفق مع المصلحة .. ولا بأس من ظلم هنا وظلم هناك .. بعدها يكون من المنطقى أن يقول انه أوتى أمواله على علم عنده .. لقد أجهد الرجل نفسه فى الكذب والظلم حتى صنع ثروته . ان الانحراف عن الايمان بالله .. ولو شعرة واحدة .. ينتهى بالانســـــان الى كبرياء تضطرب معها الحقائق ، وتختلط الأمور ، ويصبح الادعـــاء الكاذب شيئا منطقيا ومفهوما ولا حاجة لتحليله ..

لم يكد خسف قارون يتم ، حتى ارتفعت رؤوس المؤمنين بمـــوسى وانقشع غمهم بعد طول استيلاء .

---

(1) الآيات من ٧٦ الى ٨٣ مكية .

عاين المصريون وأبناء اسرائيل هذه المعجزة . وعـــاد الصراع بين موسى وفرعون يصل الى ذروته .. وأيقن فرعون أن موسى يهدده فى ملكه ..

كان موسى ـــ مثل كل الأنبياء ـــ يحمل برسالته حكما بالاعدام على شرور عصره ومراكز القوة الظالمة .. واتحدت شرور العصر فى قصر الفرعون .. وهناك طرح فرعون مصر فكرة قتل موسى ..

كان فرعون قد صار الى اقتناع بأن قتل موسى هو الكفيل بحل مشاكله ..

« وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد »[١] .

سنلاحظ أن فرعون يرتدى مسوح الداعين الى الحق ، انه يختلس لنفسه مهام الأنبياء ، ويخاف على الناس أن يضلهم موسى .. وهو يقترح على وزرائه وكبار رجاله أن يتركوه يقتل موسى .. والمفهوم الطبيعى انه لن يقتل موسى بيديه ، وانما هو يطرح فكرة قتله أمامهم ، لتقوم سلطات الدولة بتنفيذها . ونعتقد أن هامان حبذ الفكرة ، وتكونت جبهة من المنافقين الذين يؤيدون فكرة الفرعون .. كادت الفكرة تحصل على التصديق ، لولا رجل من آل فرعون .. رجل من رجال الدولة الكبار ، لا يذكر القرآن اسمه ، لأن اسمه لا يهم ، لم يذكر صفته أيضا لأن صفته لا تعنى شيئا . انما ذكر القرآن انه رجل مؤمن .. ذكره بالصفة التى لاقيمة لصفة بعدها . تحدث هذا الرجل المؤمن ، وكان يكتم ايمانه ، تحدث في الاجتماع الذى طرحت فيه فكرة قتل موسى واثبت عقم الفكرة وسطحيتها . قال أن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه ، وجاء بعد ذلك بالأدلة الواضحة على كونه رسولا ، وهناك احتمالان لا ثالث لهما ، أن يكون موسى كاذبا ، أو يكون صادقا ، فاذا كان كاذبا فعليه كذبه ، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله . واذا كان صادقا وقتلناه ، فما هو الضمان من نجاتنا من العذاب الذى يعدنا به . تحدث المؤمن الذى يكتم ايمانه فقال لقومه : اننا اليوم فى مراكز الحكم والقوة ، مثلما كان قـــارون بالأمس فى مركز الثراء والقوة ، ثم اصابه ما أصابه .. من ينصرنا من بأس الله اذا جاء ، ومن ينقذنا من عقوبته اذا حلت .. ان اسرافنا وكذبنا قد يضيعنا . وبدت كلماته مقنعة .

انه رجل ليس متهما فى ولائه للفرعون .. وهو ليس من اتباع موسى .. والمفروض انه يتكلم بدافع الحرص على عرش الفرعون .. ولا شىء يســـقط العروش كالكذب والاسراف وقتل الابرياء .

ومن هذا الموضع استمدت كلمات الرجل المؤمن قوتها .. بالنســـبة الى فرعون ووزرائه ورجاله ..

ورغم أن فرعون وجد فكرته فى قتل موسى ، صريعة على المائدة ، رغم تخويف الرجل المؤمن لفرعون .. رغم ذلك قال الفرعون كلمته التاريخية التى ذهبت مثلا بعده لكل الطغاة .

« قال فرعون : ما اريكم الا ما ارى وما أهديكم الا سبيل الرشاد »[٢]

---

(١) الآية ٢٦ من سورة غافر مكية .

(٢) من الآية ٢٩ سورة غافر مكية .

هذه كلمة الطغاة دائما حين يواجهون شعوبهم .. ما أريكم الا ما أرى .. هذا رأينا الخاص . وهو رأى يهديكم سبيل الرشاد . وكل رأى غيره خاطىء .. وينبغى الوقوف ضده واستئصاله .

حدثنا الله عن هذا الموقف فى سورة غافر .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظـــاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد » [١] .

لم تتوقف المناقشة عند هذا الحد ..

قال فرعون كلمته ولكنه لم يقنع بها الرجل المؤمن .. وعاد الرجل المؤمن يتحـــــدث :

« وقال الذى آمن ياقوم : انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلمـــا للعباد . وياقوم انى أخاف عليكم يوم التنـــاد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضـــل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبـــار »[٢] .

سنلاحظ فى هذا الحديث اختلافا عن الحديث السابق .. ان الرجل المؤمن يغوص فى حديثه الأخير فى أعماق التاريخ ، وهو يقدم لفرعون وقومه أدلة كافية على صدق موسى .. وهو يحذرهم من المساس به . لقد سبقتهم أمم كفرت برسلها ، فأهلكها الله . قوم نوح ، قوم عاد ، قوم ثمود .. لماذا نذهب بعيدا . ان تاريخ مصر فيه الدليل على صحة قوله ، لقد جاء يوسف بالبينات فشك فيه الناس ثم آمنوا به بعد أن كادت النجاة تفلت منهم ، ما هى الغرابة فى ارسال الله للرسل ؟ .. ان التاريخ القديم ينبغى أن يكون موضع نظر . لقد انتصرت القلة المؤمنة — حين أصبحت مؤمنة — على الكثرة الكافرة .. وسحق الله تعالى الكافرين . أغرقهم بالطوفان ، وصعقهم بالصرخة .. أو خسف بهم الأرض .. ماذا ننتظر اذن ؟ ومن أين نعلم أن وقوفنا وراء الفرعون لن يضيعنا ويهلكنا جميعا ؟ كان حديث الرجل المؤمن المثقف ينطوى على عديد من التحذيرات المخيفة .. ويبدو أنه أقنع الحاضرين بأن فكرة قتل موسى فكرة غير مأمونة العواقب .. وبالتالى فلا داعى لها .. بعدها حاول أن يلفتهم الى الحق الذى جاء به موسى .. إنه ينتقل من التلميح الى التصريح .. الى الجهر بالحـــــق .

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ نفس السورة .
(٢) الآيات ٣٠ الى ٣٥ نفس السورة .

((وقال الذى آمن : يا قوم : اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم : انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة .. يرزقون فيها بغير حساب)) [١] .

انتهى الأمر وانكشف ايمان الرجل المؤمن .. انكشف انه مؤمن لم يعد يكتم ايمانه . أعلن ايمانه فى نهاية الحديث صراحة .. قال :

((وياقوم : مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم ان ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وان مردنا الى الله ، وان المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد))[٢] .

أنهى الرجل المؤمن حديثه بهذه الكلمات الشجاعة .. بعدها انصرف .. انصرف فتحول الجالسون من موسى اليه .. بداوا يمكرون له .. بداوا يتحدثون عما صدر منه .. ايندرج هذا تحت الخيانة العظمى للنظام أم لايندرج .. لقد اتهم فرعون ووزراءه بأنهم سيهلكون فى النار . نحسب ان الله أرسل هذا الرجل المؤمن من رجال فرعون ، ليشغل فرعون عن موسى . يكشف سياق النص القرآنى ان هذا الرجل .. يمثل المثقفين المصريين الذين كانوا يعرفون التاريخ ويحللونه ، ويملكون قدرة على ربط الأحداث ومعرفة الاسباب واستخلاص النتائج .. ثم تهديهم عقولهم الى الحق .

وقد انشغل فرعون بهذا الرجل عن موسى فترة . كان الرجل المؤمن من أهل فرعون . قريبه وأحد رجال دولته ، وايمانه يجعل قصر الفرعون يبدو منقسما بالنسبة لموسى .. وهو يعنى انتصارا عظيما لموسى . وقتله قد يثير طبقة المثقفين المصريين — بوصفه واحدا منهم — وهكذا واجه فرعون مشكلته المستحيلة الحل .. ان قتل الرجل المؤمن غير مأمون العاقبة، والابقاء عليه غير مأمون العاقبة .. وراحوا يمكرون له ويدبرون .. وتدخلت عناية الله تعالى ((فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب)) .

انشغل فرعون فترة بهذه القضية الجديدة . غير انه لم يتنازل عن كبريائه ويرسل بنى اسرائيل مع موسى . ظل على عذابه وتسخيره لهم واستحيائه للنساء وقتله للابناء .

وشاء الله تعالى أن يشدد على آل فرعون .. ابتلاء لهم وتخويفا ، ولكى يصرفهم عن الكيد لموسى والرجل المؤمن ، واثباتا لنبوة موسى وصدقه فى نفس الوقت .

وهكذا سلط الله على المصريين أعوام الجدب .

أجدبت الأرض وشح النيل ونقصت الثمار وارتفعت الأسعار وجاع الناس، واشتد القحط وأخذ بخناق الأمة المصرية .

---

(١) الآيات من ٣٨ الى ٤٠ سورة غافر مكية .
(٢) الآيات من ٤١ الى ٤٤ سورة غافر مكية .

ومن المعروف أن هذه العقوبة تصيب الناس دائما حين ينصرفون عن الايمان والتقوى .. يقول الله تعالى فى محكم كتابه فى سورة الاعراف :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » [١] .

انطبق القانون القديم على أهل مصر لسببين :

وقوفهم موقف المتفرج من قتل السحرة ..

ووقوفهم موقف المتفرج من طغيان حاكمهم ..

ومن المدهش ان قوم فرعون أرجعوا هذا الجدب والقحط والجوع الى سبب غريب . قالوا انهم تشاءموا من موسى .. ان ما أصابهم من جوع وفقر ونقص فى الثمرات أصابهم بسبب وجود موسى بينهم .

واشتد فقرهم واشتد بعدهم عن ادراك الحق ، فاعتقدوا أن سحر موسى هو المسئول عما اصابهم من قحط . وصور لهم حمقهم ان هذا الجدب الذى أصاب أرضهم ،آية جاء بها موسى ليسحرهم بها ، وهى آية لن يؤمنوا بها . ومن المفهوم ضمنا أن هذه لم تكن أفكار العامة من الناس ، انما هى أفكار الطبقة الحاكمة التى أشاعت هذا الرأى ، وروجت له ، فردده الناس بعد ذلك .. ولقد استتبع بقاء الصراع وامتداده ، أن يعاقبهم الله تعالى ويشدد عليهم اكثر واكثر .

قال تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فاذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، الا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين »[٢] .

شدد الله عليهم مع اختلاف الاساليب لعلهم يرجعون الى الله ، ويطلقون بنى اسرائيل ويرسلونهم معه .

ارسل عليهم الطوفان ، بعد سنوات الجدب العديدة جاءت سنة فاض فيها النيل وأغرق الأرض فاستحالت الزراعة . وبعد أن كان عذابهم وجوعهم ينبع من قلة المياه ، نبع عذابهم وجوعهم هذه المرة من زيادة المياه .. وهرعوا الى موسى ..

كانت المشكلة تستدعى تدخله .

«(قالوا : ياموسى : ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل »[٣] .

---

(١) من الآية ٩٦ سورة الاعراف مكية .
(٢) الايات ١٣٠ الى ١٣٣ سورة الاعراف مكية .
(٣) من الآية ١٣٤ سورة الاعراف مكية .

ودعا موسى ربه فكشف عنهم عذاب اغراق الأرض . توقف تدفق الميـــاه وشربت الأرض ماءها وعادت صالحة للزراعة . وطالبهم موسى بتحقيق وعدهم له باطلاق سراح بنى اسرائيل ، فلم يجيبوه .

ووقعت آية الجراد ..

أرسل الله أسرابا من الجراد حطت على الزروع والثمار ، فلما طارت عنها كانت الزروع والثمار قد اختفت . أكل الجراد طعام المصريين فهـرعوا الى موسى يسألونه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب .. وسوف يرسلون معه بنى اسرائيل هذه المرة . ودعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب ورحـل الجراد عائدا من حيث جاء .. وعادوا يزرعون الأرض .. وطالبهم مـوسى باطلاق سراح بنى اسرائيل فراحوا يماطلونه ، حتى تأكد انهم ليســوا جادين فى وعودهم لــه .

ووقعت آية القمــل ..

انتشر القمل بما يحمله من أمراض .. وتكرر لجوؤهم الى موسى وتكررت وعودهم له وتكرر دعاؤه لله .. وتكرر اخلافهم لوعدهم .

ثم وقعت آية الضفادع .. امتلأت الأرض بالضفادع فجأة .. كانت تتواثب فى أطعمة المصريين وتشاركهم بيوتهم وتزعجهم أعظم الازعاج .. وذهبوا الى موسى ووعدوه فسأل ربه فكشف عنهم فاخلفوا وعدهم .

ثم وقعت آخر الآيات وهى الدم .

تحولت مياه النيل الى دم لا يستطيع أن يسيغه أحد ..

ونلاحظ أن الآيات السابقة كانت آيات من النوع المتوقع فى بيئة زراعيـــة تقوم حياتها على النهر .. فيضا أو امساكا .

ان نقص مياه النيل أو زيادته أو هجوم الجراد أو القمل أو الضفادع .. هذه كلها أمور ليست جديدة على المصريين .. الجديد هو وقوعها بهذا العنف المفاجىء واختفاؤها بنفس العنف المفاجىء .

أما آخر الآيات فكانت من لون لم تألفه البيئة المصرية .. كانت آية أكبر من كل ماسبقها من الآيات .. تحولت مياه النيل الى دم .. وتم هذا التحول بالنسبة للمصريين وحدهم ، فكان موسى وقومه يشربون مياها عادية وكان أى مصرى يملأ كأسه ليشرب ، يكتشف أن كأسه مملوء بالدم .

واهتز المصريون كما اهتز قصر الفرعون أمام هذه الآية الرهيبة الجديدة .

وهرعوا الى موسى يتوسلون اليه أن يدعو ربه وســوف يطلقون سراح الاسرائيليين هذه المرة .

ودعا موسى ربه فانكشف العذاب عن المصريين ، ورغم ذلك رفض قصر الفرعون أن يسمح له باصطحاب قومه والرحيل .

على العكس من ذلك .. اشتد الفرعون صلابة وقحة .. وأعلن فرعون فى قومه أنه اله .. أليس له ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحته ، أعلن

ان موسى ساحر كاذب .. ورجل فقير لايرتدى أسورة واحدة من الذهب .

قال تعالى فى سورة الزخرف :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه ، فقال : انى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا : يا أيها الساحر : أدع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون . ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم : أليس لى ملك مصر ؟ وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين »[1] .

انظر الى التعبير القرآنى

— فاستخف قومه .. فأطاعوه .

استخف بعقولهم . واستخف بحريتهم . واستخف بمستقبلهم . واستخف بآدميتهم .. فأطاعوه ..

اليست هذه طاعة غريبة .. تنمحى الغرابة حين نعلم انهم كانوا قوما فاسقين . ان الفسق يصرف الانسان عن الالتفات لمستقبله ومصالحه وأموره، ويورده الهلاك . وذلك ما وقع لقوم فرعون .

يقـول تعـــالى :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين . » [2] .

بدا واضــحا ان فرعون لن يؤمن لموسى .. ولن يكف عن تعــذيبه لبنى اسرائيل ، ولن يكف عن استخفافه بقومه ..

هنالك دعا موسى وهارون على فرعون .

« وقال موسى : ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العــذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾[3] سورة يونس .

وجاء الاذن لموسى بالخروج من مصر واصطحاب قومه معه .

وكان موقف قومه غريبا .. لم يؤمن كل قومه بعد . قال تعالى فى سورة يــونس :

---

(1) الآيات من ٤٦ الى ٥٤ مكية الا ٥٤ فمدنية .
(2) الآية ٥٥ سورة الزخرف مكية .
(3) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ مكية .

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم ، وان فرعون لعال فى الأرض ، وانه لمن المسرفين »[١] .

انتهى الأمر وقرر الله وضع حد لجرائم فرعون بعد أن أملى له . صدر الأمر لموسى بالخروج .. واستأذن بنو اسرائيل فرعون فى الخروج الى عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره . وتجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وحملوا معهم حليهم واستعاروا من حلى المصريين شيئا كثيرا .. وجاء الليل عليهم فتقدمهم موسى وسار بهم نحو البحر الاحمر قاصدا بلاد الشام . وتحركت رسل فرعون ومخابراته ، وبلغت الأخبار فرعون أن موسى قد صحب قومه وخرج .

وأرسل فرعون اوامره فى مدن المملكة لحشد جيش عظيم .. وساق فرعون فى أسباب جمع الجيش هذه الحجة الغريبة .. قال بالنص ... كما قال عز وجل فى كتابه :

« وانهم لنا لغائظون » [٢] .

لقد غاظنى موسى .. غاظنى شخصيا .. وعددهم قليل .. وغيظنا عليهم كبير .. وهى الحرب اذن . كان فرعون طاغية صريحا .. لم يحاول اخفاء نواياه وراء كلمات كبيرة فيقول مثلا أن أمن المملكة مهدد ، أو أن النظام الاقتصادى يمكن أن يتعرض للانهيار لو خرجت كل هذه الأيدى العاملة الرخيصة .. أبدا .. لم يقل ذلك واكتفى بالتصريح بأنه مغتاظ .. لقد غاظه موسى .. وهذا سبب كاف لحشد الجيش .

وصدق الناس فرعون للمرة الالف بعد كذبه .. لم يعارضه أحد ، ولم يلفت نظرة أحد الى تفاهة السبب الذى جمع له الجيش .. كان كبرياء فرعون الشخصى هو الامر الوارد .. وكان يكفى تماما .

تحرك جيش فرعون فى ابهته وعظمته وسلاحه وخرج وراء موسى .. جلس فرعون فى مركبته الحربية يتأمل الجنود حوله ويبتسم ..

ماذا لو أنه فعل ذلك من أول لحظة وانتهى من موسى وقتله ..

على أى حال .. ها هو فى طريقه لقتل موسى وانهاء المشكلة كلها ..

وقف موسى أمام البحر الاحمر ..

من بعيد .. ثار غبار قوى يشى بأن جيش الفرعون يقترب .. بعدها ظهرت أعلام الجيش .. وامتلأ قوم موسى بالرعب . كان الموقف حرجا وخطيرا .. ان البحر أمامهم والعدو وراءهم وليست أمامهم فرصة واحدة للقتال .. انهم مجموعة من النساء والاطفال والرجال غير المسلحين . سيذبحهم فرعون عن آخرهم .. صرخت بعض الأصوات من قوم موسى

ـ سيدركنا فرعون .

قال موسى ـ كلا .. أن معى ربى سيهدين .

---

(١) الآية ٨٣ من سورة يونس مكية .
(٢) الآية ٥٥ من سورة الشعراء مكية .

لا نعرف كيف كان موسى يحس أو يفكر ساعتها .. غير انه لم يكد يلجأ الى الله بهذه الثقة ، حتى أوحى الله تعالى اليه أن يضرب بعصاه البحر .. لاحظ انعدام الصلة المنطقية بين ظهور جيش فرعون ، وضرب البحر بالعصا .. غير أن مشيئة الله تنفذ لأغرب الأسباب المتعارضة مع المنطق البشرى . لقد أراد الله تعالى أن تقع المعجزة .. فأوحى الى موسى أن يضرب بعصاه البحر . كان ضرب البحر بالعصا مجرد « سبب » رتب عليه الحق انشقاق البحر .. لم يكد موسى يرفع عصاه حتى نزل جبريل عليه السلام الى الأرض .

ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر نصفين .. انشق عن طريق صلب يابس عن يمينه الأمواج وعن يساره الأمواج .

وتقدم موسى قومه وسار بهم حتى عبر البحر .. كانت المعجزة هائلة .. ان الأمواج كانت تصطرع وتعلو وتهبط حتى اذا جاءت الى الطريق بدت كأن يدا خفية تمنعها من أن تغرقه أو حتى تبلله .

انتهى عبور موسى البحر مع قومه ..

ووصل فرعون الى البحر .. شاهد هذه المعجزة .. شاهد فى البحر طريقا يابسا يشقه نصفين .. أحس فرعون بالخوف ولكنه زاد فى عناده وأمر عربته الحربية بالتقدم فتقدم الجيش وراءه ..

حين انتهى موسى من عبور البحر .. التفت الى البحر وأراد أن يضربه بعصاه ليعود كما كان . ولكن الله أوحى اليه أن يترك البحر على حاله . كان موسى يريد أن يفصل البحر بينه وبين فرعون لينجو قومه .. ولو انه ضرب البحر بعصاه فعاد كما كان لنجا موسى ونجا فرعون .. وكان الله تعالى قد شاء اغراق الفرعون . ولهذا أمر موسى أن يترك البحر على حاله .. أوحى اليه سبحانه ((**واترك البحر رهوا ، انهم جند مغرقون**))[١] .

وصل فرعون بجيشه الى منتصف البحر .. تعدى منتصفه وكاد يصل الى الضفة الأخرى .. وأصدر الله تعالى أمره الى جبريل فحرك جبريل الموج

انطبقت الأمواج على فرعون وجيشه .

وغرق فرعون وجيشه .

غرق العناد ونجا الايمان بالله ..

ورأى فرعون وهو يغرق مقعده فى النار .. أدرك وقد انكشف عنه الحجاب ، ودخل فى سكرات الموت ؛ أن موسى كان صادقا وأنه ضيع نفسه بمعاداته وحربه .. وآمن فرعون .

قال تعالى :

« **حتى اذا أدركه الغرق قال : آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وأنا من المسلمين**))[٢] .

وقد كانت توبته غير مقبولة ولا صحيحة . فهى توبة تجىء بعد معاينة العذاب والدخول فى الموت . قال له جبريل :

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الدخان مكية .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس مكية .

« الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . [١]

بمعنى لا تـــوبة ..

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلكت . انتهى الأمر ولا نجاة لك . سينجو جسدك وحده .. ستموت وتقذف الأمواج جثتك الى الشـــاطىء . لتكون آيـــة لمن خلفـــك .

« فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من النـــاس عن آياتنا لغافلون » . [٢]

كان ما وقع لفرعون تحقيقا لسنة أزلية خلت فى عباد الله .. لاينفع الايمان بعد العذاب . قال تعالى فى سورة غافر .

« فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم ايمانهم لمـــا رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون »[٣] .

قص الله تعالى موقف المواجهة بين فرعون وموسى فى قوله تعـــــالى فى ســـورة الشـــعراء :

« وأوحينا الى موسى أن اسر بعبادى انكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وانهم لنا لغائظون. وانا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى اسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلمـــا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : انا لمدركون . قال : كلا ، ان معى ربى سيهدين . فأوحينا الى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم » . [٤] .

اسدل الستار على طغيان الفرعون . ولفظت الأمواج جثته الى الشاطىء.

لا نعرف على أى شاطىء لفظت الأمواج جثة الرجل الذى يدعى الألوهية .

الرجل الذى لم يعارضه أحد ! .

اغلب الظن أن الأمواج لفظت جثته على الشـــاطىء الغـــربى .. فرآه المصريون وأدركوا أن الههم الذى عبدوه وأطاعوه كان عبدا لا يقدر على دفع الموت عـــن رقبتـــه .

بعد ذلك .. نزل الستار تماما على المصريين .. لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام الفرعون وغرقه مع جيشه . لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ويشيدون .

---

(١) الآية ٩١ سورة يونس مكية .
(٢) الآية ٩٢ سورة يونس مكية .
(٣) الآية ٨٤ سورة غافر مكية .
(٤) الآيات ٥٢ الى ٦٨ سورة الشعراء مكية .

يسكت السياق القرآنى عنهم .. ويستبعدهم تماما من التاريخ والأحداث .

ويلتفت السياق الى موسى وهارون .. وماذا كان من أمر بنى اسرائيل معهما .. لقد مات فرعون مصر .. غرق أمام عيون المصريين وبنى اسرائيل .. ورغم موته ، فقد ظل أثره باقيا فى نفوس المصريين وبنى اسرائيل .

من الصعب على سنوات القهر الطويلة والذل المكثف أن تمر على نفوس الناس مر الكرام .

لقد صنع فرعون فى نفوس بنى اسرائيل شيئا سندركه من الآيات بعد قليل .. لقد عودهم الذل لغير الله . كسر فى نفوسهم شيئا من الداخل .

هزم أرواحهم ، فانطووا شأن المهزومين على الاعجاب بمن هزمهم ..

أفسد فطرتهم فعذبوا موسى عذابا شديدا بالعناد والجهل ..

كانت معجزة شق البحر لم تزل طرية فى أذهانهم .

كانت رمال البحر الرطبة لم تزل عالقة بنعال بنى اسرائيل ، حين مروا على قوم يعبدون الأصنام .. وبدلا من أن يظهروا استياءهم لهذا الظلم للعقل ، ويحمدوا الله أن هداهم للايمان .. بدلا من ذلك التفتوا إلى موسى وطلبوا منه أن يجعل لهم الها يعبدونه مثل هؤلاء الناس .. وليس هناك أحد أحسن من أحد ..

أدركتهم الغيرة لمرأى الأصنام ، ورغبوا فى مثلها ، وعاودهم الحنين لأيام الشرك القديمة التى عاشوها فى ظل فرعون . ولفتهم موسى الى جهلهم هذا .

قال تعالى :

وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم تجهلون . ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون . قال : أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين ؟ . واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . [1]

سار موسى بقومه فى سيناء .. وهى صحراء ليس فيها شجر يقى من الشمس ، وليس فيها طعام ولا ماء .. وأدركتهم رحمة الله فساق اليهم المن والسلوى وظللهم الغمام .. والمن مادة يميل طعمها الى الحلاوة وتفرزها بعض أشجار الفاكهة ، حملت الرياح اليهم هذه المادة مغلفة فى أوراق الشجر . وساق الله اليهم السلوى وهو نوع من أنواع الطيور يقال أنه « السمان » وحين اشتد بهم الظمأ الى الماء ، وسيناء مكان يخلو من الماء ، ضرب لهم موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من المياه .. وكان بنو اسرائيل ينقسمون الى ١٢ سبطا . فأرسل الله المياه لكل مجموعة . ورغم هذا الاكرام والحفاوة . تحركت فى النفوس التواءاتها المريضة .. واحتج قوم موسى عليه بأنهم سئموا من هذا الطعام ، واشتاقت نفوسهم الى البصل والثوم والفول والعدس ، وكانت هذه الأطعمة أطعمة مصرية تقليدية .. وهكذا

---

(1) الآيات من ١٣٨ الى ١٤١ سورة الاعراف مكية .

سأل بنو اسرائيل نبيهم موسى أن يدعو الله ليخرج لهم من الأرض هـذه الأطعمـه .

وعاد موسى يلفتهم الى ظلمهم لأنفسهم ، وحنينهم لأيام هوانهم فى مصر ، وكيف أنهم يتبطرون على خير الطعام وأكرمه ، ويريدون بدله أدنى الطعـام وأسـواه .

قـال تعالى فى سورة البقرة :

« واذ قلتم يا موسى : لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال: أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » . [١]

. . . .

. . . .

سار موسى بقومه فى اتجاه بيت المقدس ..

أمر موسى قومه بدخولها وقتال من فيها والاستيلاء عليها .

ها قد جاء امتحانهم الأخير .. بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات والخوارق . جاء دورهم ليحاربوا ــ بوصـفهم مؤمنين ــ قوما من عبـدة الأصـنام ..

ورفض قوم موسى دخول الأرض المقدسة .

وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم . كيف جعل فيهم أنبيـاء ، وجعلهم ملوكا يرثون ملك فرعون ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين .

وكان رد قومه عليه أنهم يخافون من القتال . قالوا : ان فيها قوما جبارين ، ولن يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها هؤلاء .

وانضم لموسى وهارون اثنان من القوم .. تقول كتب القدماء انهم خرجوا فى ستمائة ألف .. لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد للقتال .. وراح هذان الرجلان يحاولان اقناع القوم بدخول الأرض والقتـال ... قالا : ان مجرد دخولهم من الباب سيجعل لهم النصر . ولكن بنى اسرائيل جميعا كانوا يتدثرون بالجبن ويرتعشون فى أعماقهم ..

مرة أخرى تعاودهم طبيعتهم التى عاودتهم قبل ذلك حين رأوا قوما يعكفون على أصنامهم .. فسدت فطرتهم ، وانهزموا من الداخل ، واعتادوا الذل ، فلم يعد فى استطاعتهم أن يحاربوا .. وان بقى فى استطاعتهم أن يتوقحوا على نبى الله موسى وربه ..

وقال قوم موسى له كلمتهم الشهيرة :

« اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون »[٢] .

هكذا بصراحة وبلا التواء .

---

(١) من الآية ٦١ من سورة البقرة مدنية .

(٢) من الآية ٢٤ من سورة المائدة مدنية .

أدرك موسى أن قومه ما عادوا يصلحون لشيء . مات الفرعون ، ولكن آثاره فى النفوس باقية يحتاج شفاؤها لفترة طويلة . عاد موسى الى ربه يحدثه أنه لا يملك الا نفسه وأخاه .. دعا موسى على قومه أن يفرق الله بينه وبينهـــم ..

وأصدر الله تعالى حكمه على هذا الجيل الذى فســدت فطرته من بنى اسرائيل .. كان الحكم هو التيه أربعين عاما .. حتى يموت هذا الجيل أو يصل الى الشيخوخة . ويولد بدلا منه جيل آخر ، جيل لم يهزمه أحد من الداخل ، ويستطيع ساعتها أن يقاتل وأن ينتصر .

قـــال تعالى فى سورة المائدة :

((واذ قال موسى لقومه : يا قوم : اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون . قال : رب انى لا أملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين))[١] .

بدات أيام التيه ..

بدأ السير فى دائرة مغلقة .. تنتهى من حيث تبدأ ، وتبدأ من حيث تنتهى .

بدأ السير الى غير مقصد .. ليلا ونهارا وصباحا ومساء .

دخلوا البرية عند ســيناء ..

عاد موسى الى نفس المكان الذى التقى فيه بكلمات الله أول مرة ..

نزل بنو اسرائيل حول الطور وصعد موسى الجبل وحده .. وهناك أنزلت عليه التوراة . وكلمه ربه تعالى ..

قبل أن يصعد موسى الى ميقات ربه ، استخلف أخاه هارون فى قومه .

تركه مسئولا عنهم ومضى الى ربه .

قال تعالى فى سورة الأعراف :

((وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممنـــاها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين))[٢] .

---

(١) الآيات من ٢٠ الى ٢٦ سورة المائدة مدنية .
(٢) الآية ١٤٢ مكية .

قول القدماء أن موسى صام ثلاثين يوما ليلا ونهارا بغير أن يذوق طعاما قط . ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لماذا أفطرت ، وهو أعلم بما كان . قال : أى رب، كرهت أن أكلمك الا وفمى طيب الريح . قال أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك . ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى . ففعل عليه السلام ما أمره ربه به ..

ونحن لا نعرف — معرفة يقينية — لماذا صام موسى اربعين ليلة بدلا من ثــلاثين .

كل ما نعرفه أن الله تعالى قد زاد على الثلاثين ليلة عشر ليال أخرى من الصوم وانزلت التوراة على موسى . أنزلت عليه الوصايا العشر . وكانت هذه الوصـــايا العشر هى :

١ — الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له .

٢ — النهى عن الحلف بالله كاذبا .

٣ — الأمر بالمحافظة على السبت [بمعنى تفريغ يوم من أيام الأسبوع للعبـــادة] .

٤ — الأمر باكرام الأب والأم .

٥ — معرفة أن الله وحده هو الذى يعطى ويمنح .

٦ — لا تقتـــــل .

٧ — لا تزن .

٨ — لا تسرق .

٩ — لا تشهد شهادة زور .

١٠ — لا تمدن عينيك الى بيت صاحبك أو امرأته أو عبده أو ثوره أو حماره .

قال علماء السلف ان مضمون هذه الوصايا العشر قد تضمنتهما آيتان من القرآن ، هى قوله تعالى فى سورة الأنعام :

« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احســـانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصـــاكم به لعلـــكم تذكرون . »[١] .

يقص الله تبارك وتعالى علينا ماذا كان من أمر موسى حين ذهب لميقات ربه .

كان موسى بصومه — أربعين ليلة — يقترب من ربه اكثر .. وكان موسى

---

(١) الآيتان ١٥١ ، ١٥٢ مدنية .

بتكليم الله له يزداد حبا فى ربه أكثر .. ونحن لا نعرف أى مشـــاعر كانت تجيش فى قلب موسى عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه الرؤية .

أحيانا كثيرة يدفع الحب البشرى الناس الى طلب المستحيل .. فما بالك بالحب الالهى ، وهو أصل الحب ..

ان عمق احساس موسى بربه ، وحبه لخالقه ، واندفاعه الذى لم يزل يميز شخصيته .. دفعه هذا كله الى أن يسأل الله الرؤية . قال تعالى فى سورة الاعـــــراف :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه . قال : رب أرنى أنظر اليك »[١] .

هكذا باندفاع العاشقين الكبار سأل موسى ربه ما سأل . وجاءه رد الحق عـــز وجـــل .

« قال : لن ترانى » .. [٢] .

ولو أن الله تبارك وتعالى قالها ولم يزد عليها شيئا ، لكان هذا عدلا منه سبحانه ، غير أن الموقف هنا موقف حب الهى من جانب موسى . موقف اندفاع يبرره الحب . ولهذا أدركت رحمة الله تعالى موسى ..

أفهمه انه لن يراه ، لأن أحدا من الخلق لا يصمد لنور الله .. أمره أن ينظر الى الجبل . فان استقر مكانه فسوف يراه .

قـــال تعـــــالى :

« ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا »[٣] .

لا يصمد لنور الله أحد .

أدرك موسى هـــذه الحقيقة وعاينها بنفسه .. والصعق هو الموت أو الاغماء . ونحن لا نعرف الفترة التى قضاها موسى غائبا عن حياته أو وعيه .. غير أنه حين أفـــاق ..

« فلما أفاق قال : سبحانك .. تبت اليك وأنا أول المؤمنين »[٤] .

وقف المفسرون القدماء كثيرا أمام هذه الآيات . تساءلوا مثلا كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة .

وتنازعوا فى ذلك فذهب المعتزلة الى رأى ، وذهب أهل السنة الى رأى ، وكان مدار الحديث كله كيف لا يعلم النبى وهو أقرب خلق الله اليه أن رؤية الله مستحيلة .. وهكذا انصرفنا عن عمق الآيات البعيد ، ورحنا نبحث حول جزئيات لا تغنى ولا تسمن ..

---

(١) من الآية ١٤٣ مكية .
(٢) من الآية ١٤٣ مكية .
(٣) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .
(٤) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .

اعتقد أن هذا الموقف من موسى — يمثل قمة من قمم الحب ، وعمقا من أعماق الوجد — لا مثيل له فى كل سيرة موسى .

نحن أمام ذروة الحب لله ..

والحب لا يريد غير الرؤية ، ورؤية الله عز وجل مستحيلة ، هذا هو منطق العقل والأعصاب ، لكن .. متى كان الحب يعبأ بالمنطق أو يستمع للأعصاب .. وهكذا يندفع موسى الى التجربة وهى تجربة قام بها بدلا عنا جميعا .. كان أجرانا فى الطلب ، وكان أسبقنا الى الصعق ، وأثبت لنا بجسده الكريم وروحه الطاهر ان أحدا لا يصمد لنور الله ..

هاهو يفيق فيمجد الله ويتوب اليه ويستغفره ..

« قال : سبحانك تبت اليك » [١] .

من أى شىء كان موسى يتوب ..

قال الصوفية كان يتوب من اندفاعة عاشق عظيم سأل المحال وهو يعلم أنـــه محـــال ..

وذلك تفسير مقنع .. يؤيد ذلك سياق الآيات ..

أنظر الى آيات الله وكيف يلفته الى ما أنعم عليه من نعم ، قال تعـــالى لموسى :

« قال : يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء . فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخـــذوا بأحسنها »[٢] .

وقف كثير من المفسرين أمام قوله تعالى لموسى :

« انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى »[٣] .

وأجريت مقارنات بينه وبين غيره من الأنبياء . فقيل ان هذا الاصطفاء كان خاصا بعصره وحده ، ولا ينسحب على العصر الذى سبقه لوجود ابراهيم فيه ، وابراهيم خير من موسى ، أيضا لا ينطبق هذا الاصطفاء على العصر الذى يأتى بعده ، لوجود محمد بن عبد الله فيه ، وهو أفضل منهما .

ونحب أن نبتعد عن هذا الجدال كله .. لا لأننا نعتقد أن كل الأنبياء سواء .. ان الله سبحانه وتعالى يحدثنا انه فضل بعض النبيين على بعض ، ورفع درجات بعضهم على البعض .. غير أن هذا التفضيل ينبغى أن يكون منطقة محرمة علينا ، ولنقف نحن فى موقع الايمان بجميع الأنبياء لا نتعداه . ولنؤد نحوهم فروض الاحترام على حد سواء . لا ينبغى أن يخوض الخاطئون فى درجات المعصومين المختارين من الله .. ليس من الأدب أن نفاضل نحن بين الأنبياء . الأولى أن نؤمن بهم جميعا .

****

---

(١) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .
(٢) الآيتان ١٤٤ ، ١٤٥ سورة الاعراف مكية .
(٣) من الآية ١٤٤ سورة الاعراف مكية .

انتهى ميقات موسى مع ربه تعالى .. وعاد غضبان أسفا الى قومه .. لم يكن فى الوجود كله انسان فى مثل رضاه .. لكنه يعلم من ربه أنباء تسوءه فينقلب الى قومه غضبان أسفا ..

قال تعالى فى سورة طه :

وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى ، وعجلت اليك رب لترضى . قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا))[١] .

انحدر موسى من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة ، قلبه يغلى بالغضب والأسف . نستطيع أن نتخيل انفعال موسى وثورته وهو يحث خطاه نحو قومه .

لم يكد موسى يغادر قومه الى ميقات ربه .. حتى وقعت فتنة السامرى . وتفصيل هذه الفتنة أن بنى اسرائيل حين خرجوا من مصر ، صحبوا معهم كثيرا من حلى المصريين وذهبهم ، أخذوه للتمتع به فى احتفالهم الذى ادعوه ، ثم نجوا بعد معجزة شق البحر ، وانطبق البحر على فرعون وجنوده فغرقوا ، وصار ما معهم من الذهب ملكا لهم .. ويبدو أن هارون عليه السلام ، أدرك أن هذا الذهب ليس من حقهم ، فأخذه منهم ودفنه فى الارض .. لم يكن القوم فى حاجة اليه .. كانوا يعيشون فى التيه .. يسيرون وسط صحراء لاينفعهم فيها الذهب . حفر هارون شقيق موسى حفرة والقى فيها الذهب واهال عليه التراب . ورآه السامرى وهو يدفن الذهب فاستخرجه بعد ذلك ، وصهره ، وصنع منه تمثالا لعجل يشبه العجل أبيس ، معبود المصريين ، وكان السامرى فيما يبدو نحاتا محترفا أو صائغا سابقا ، فصنع العجل مجوفا من الداخل ، ووضعه فى اتجاه الريح ، بحيث يدخل الهواء من فتحته الخلفية ويخرج من أنفه فيحدث صوتا يشبه خوار العجول الحقيقية ..

ويقال أن سر هذا الخوار ، أن السامرى كان قد أخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل الى الأرض فى معجزة شق البحر .. أى أن السامرى ابصر بما لم يبصروا به ، فقبض قبضة من أثر الرسول [جبريل عليه السلام] فوضعها مع الذهب وهو يصنع منه العجل وكان جبريل عليه السلام لا يسير على شىء الا دبت فيه الحياة ، فلما أضاف السامرى التراب الى الذهب ، وصنع منه العجل ، خار العجل كالعجول الحقيقية ..

هذه قصة السامرى التى ألقاها لموسى ، ونعتقد أنه كاذب .. ان كفره يرجح عندنا كذبه ..

نعلم الآن أن التراب اذا أضيف الى الذهب وصهر ، انفصل التراب من الذهب وترك تجويفا فى مكان انفصاله ، وأغلب الظن أن السامرى استخدم هذا التراب ، كأى تراب آخر ، فى صنع تجويف داخل العجل ، بحيث تحول التمثال الى تمثال له صوت ..

بعد ذلك ، خرج السامرى على بنى اسرائيل بما صنعه ..

---

(١) الآيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ سورة طه مكية .

سألوه ما هذا يا سامرى ؟

قال هذا الهكم واله موسى !

قالوا : لكن موسى ذهب لميقات الهه .

قال السامرى لقد نسى موسى . ذهب للقاء ربه هناك ، بينما ربه هنا .

وهبت موجة من الرياح فدخلت من دبر العجل الذهب وخرجت من فمه فخار العجل .

وعبد بنو اسرائيل هـذا العجل ..

لعل دهشة القارىء تثور لهذه الفتنة .. كيف يمكن الاستخفاف بعقول القوم لهذه الدرجة .. لقد وقعت لهم معجزات هائلة .. فكيف ينقلبون الى عبادة الأصنام فى لحظـة ..

تزول هذه الدهشة لو نظرنا فى نفسية القوم الذين عبدوا العجل . لقد تربوا فى مصر ، أيام كانت مصر تعبد الأصنام وتقدس فيما تقدس العجل أبيس ، وتربوا على الذل والعبودية ، وانكسر داخل أنفسهم شىء ، التوى فى فطرتهم شىء ، ومرت عليهم معجزات الله فصادفت نفوسا تالفة الأمل . لم يعد هناك ما يمكن أن يصنعه لهم أحد . ان كلمات الله لم تعدهم الى الحق ، كما أن المعجزات الحسية لم تقنعهم بصدق الكلمات ، ظلوا داخل أعماقهم من عبدة الأوثان . كانوا وثنيين مثل سادتهم المصريين القدماء . ولهذا السبب انقلبوا الى عبادة العجل .. ولم يكن انقلابهم هذا مفاجأة لنا نحن أهل هذا الزمان ، فانهم بعد خروجهم من معجزة شق البحر شاهدوا قوما يعبدون الأصنام فسألوا موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها مثل هؤلاء القوم .

المسألة اذن قديمة ومزمنة .. والرغبة فى عبادة الأصنام ، هى نفسها عبادة الأصنام ، ولقد كان كل ما فعله السامرى ، انه استغل حنين القوم الى عبادة الأوثان ، استغل حاجة نفسية شبه عامة وحققها لهم حين قدم اليهم عجله . واختار أن يكون العجل ذهبا لأنه يعلم ضعف بنى اسرائيل ازاء الذهب عمـوما ..

وهكذا انتشرت فتنة السامرى ، وفوجىء هارون عليه الصلاة والسلام يوما بأن بنى اسرائيل يعبدون عجلا من الذهب .

انقسموا الى قسمين : الأقلية المؤمنة أدركت أن هذا هراء . والأغلبية الكافرة طاوعت حنينها لعبادة الأوثان .

ووقف هارون وسط قومه وراح يعظهم . قال لهم : انكم فتنتم به ، هذه فتنة ، استغل السامرى جهلكم وفتنكم بعجله .. ليس هذا ربكم ولا رب موسى .

« ان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى » . [1]

ورفض عبدة العجل موعظة هارون . كانوا مجموعة من الجاهلين الذين مرت عليهم الكلمات مرور النسيم بالحجارة .. لم تفعل فيها شيئا .. وعاد

---

(1) من الآية ٩٠ سورة طه مكية .

هارون يعظهم ويذكرهم بمعجزات الله التى أنقذهم بها ، وتكريمه ورعايته لهم، فأصموا آذانهم ورفضوا كلماته ، واستضعفوه وكادوا يقتلونه ، وأنهوا مناقشة الموضوع بتأجيله حتى عودة موسى .. كان واضحا أن هارون أكثر لينا من موسى ، لم يكن يهابه القوم للينه وشفقته . وخشى هارون أن يلجأ الى القوة ويحطم لهم صنمهم الذى يعبدونه فتثور فتنة بين القوم . ويحدث ما يشبه الحرب الأهلية . آثر هارون تأجيل الموضوع الى أن يحضر موسى.

كان يعرف أن موسى بشخصيته القوية ، يستطيع أن يضع حدا لهذه الفتنة دون اراقة دماء .

واستمر القوم يرقصون حول العجل ..

كان السامرى — لعنه الله تعالى — هو صاحب هذه الفتنة القديمة .. فتنة الرقص والتواجد حول الأوثان . وهى فتنة لم تزل مظاهرها حية الى اليوم رغم اندثار عبادة الأوثان ، يقوم بها الناس فى زماننا بحسن نية دون أنيدركوا أصلها القديم وكونها ديانة الكفار وعباد العجل .

أورد القرطبى فى الجزء الحادى عشر فى تفسيره لفتنة السامرى .. هذه المسألة .

قال : « سئل الامام أبو بكر الطرطوشى : ما يقول سيدنا الفقيه فى جماعة من رجال ، يكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انهم يوقعون بالقضيب على شىء من الأديم . ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه . ويحضرون شيئا يأكلونه .. هل الحضور معهم جائز أم لا . افتونا مأجورين » .

أجاب القرطبى على هذه المسألة نقلا عن استاذه قال : « مذهب الصوفية [يقصد الراقصين] بطالة وجهالة وضلالة . وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فأول من احدثهما أصحاب السامرى . لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون . فهو دين الكفار وعباد العجل .

وانما كان يجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار . فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم . ولا أن يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وابى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين ، وبالله التوفيق » .

انتهى كلام القرطبى المتصل بهذه المسألة . فتأمل مضاء ذهنه وتقواه ، وربطه لبدعة الرقص الصوفى الحديث بعبادة العجل القديم والرقص حوله.

....

انحدر موسى عائدا لقومه فسمع صياح القوم وجلبتهم وهم يرقصون حول العجل .. توقف القوم حين ظهر موسى وساد صمت .

صرخ موسى يقول :

« **بئسما خلفتمونى من بعدى** » .. [١]

اتجه موسى نحو هارون وألقى ألواح التوراة من يده على الأرض .. كان اعصار الغضب داخل موسى يتحكم فيه الآن تماما .

مد موسى يديه وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وشده نحوه وهو يرتعش .

قال موسى :

« يا هارون : ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعن ، افعصيت أمرى؟»[٢]

ان موسى يتساءل هل عصى هارون أمره . كيف سكت على هذه الفتنة ؟ كيف طاوعهم على البقاء معهم ولم يخرج ويتركهم ويتبرأ منهم ؟ كيف سكت عن مقاومتهم أصلا ؟ .. ان الساكت عن الخطأ مشترك فيه بشكل ما .

زاد الصمت عمقا بعد جملة موسى الغاضبة .

وتحدث هارون الى موسى .. رجا منه أن يترك رأسه ولحيته .. بحق انتمائهما لأم واحدة .. وهو يذكره بالأم ولا يذكره بالأب ليكون ذلك أدعى لاستثارة مشاعر الحنو فى نفسه .

« قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى »[٣] .

أفهمه أن الأمر ليس فيه عصيان له .. وليس فيه رضاء بموقف عبدة العجل .. انما خشى أن يتركهم ويمضى ، فيسأله موسى كيف لم يبق فيهم وقد تركه مسئولا عنهم ، وخشى لو قاومهم بعنف أن يثير بينهم قتالا فيسأله موسى كيف فرق بينهم ولم ينتظر عودته .

« انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى »[٤] .

أفهم هارون أخاه موسى برفق ولين أن القوم استضعفوه ، وكادوا يقتلونه حين قاومهم ، رجا منه أن يترك رأسه ولحيته حتى لا يشمت به الأعداء ، ويستخف به القوم زيادة على استخفافهم به . افهمه أنه ليس ظالما مثلهم حين سكت على ظلمهم .

«يا ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين »[٥] .

أدرك موسى انه ظلم هارون فى غضبه الذى أشعلته غيرته على الله تعالى وحرصه على الحق .. أدرك أن هارون تصرف أفضل تصرف ممكن فى هذه الظروف .

---

(١) من الآية ١٥٠ سورة الاعراف مكية .
(٢) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ سورة طه مكية .
(٣) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .
(٤) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .
(٥) من الآية ١٥٠ سورة الاعراف مكية .

ترك رأسه ولحيته واستغفر الله له ولأخيه ..

التفت موسى لقومه وتساءل بصوت لم يزل يضطرب غضبا :

((يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟))[١] .

انه يعنفهم ويوبخهم ويلفتهم باشارة سريعة الى غباء ما عملوه .

عاد موسى يقول ــ غاضبا أشد الغضب :

((ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين))[٢] .

لم تكد الجبال تبتلع أصداء الصوت الغاضب حتى نكس القوم رؤوسهم وأدركوا خطأهم .. كان افتراؤهم واضحا على الحق الذى جاء به موسى .

أبعد كل ما فعله الله تعالى لهم ، ينكفئون على عبادة الأصنام .. أيغيب عنهم موسى أربعين يوما ثم يعود ليجدهم يعبدون عجلا من الذهب ..

أهذا تصرف قوم ، عهد الله اليهم بأمانة التوحيد فى الأرض ؟

التفت موسى الى السامرى بعد حديثه القصير مع هارون .. لقد اثبت له هارون براءته كمسئول عن قومه فى غيبته ، كما سكت القوم ونكسوا رؤوسهم أمام ثورة موسى ، لم يبق الا المسئول الأول عن الفتنة .. لم يبق الا السامرى .

تحدث موسى الى السامرى وغضبه لم يهدأ بعد .

((قال : فما خطبك يا سامرى ؟))[٣] .

انه يسأله عن قصته ، ويريد أن يعرف منه ما الذى حمله على ما صنع ..

قال السامرى :

((بصرت بما لم يبصروا به))[٤] .. رأيت جبريل وهو يركب فرسه فلا تضع قدمها على شىء الا دبت فيه الحياة ..

((فقبضت قبضة من أثر الرسول))[٤] .. أخذت حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل والقيتها على الذهب ..

((فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى))[٤] .. هذا ما ساقتنى نفسى اليه ..

لم يناقش موسى ، عليه السلام السامرى فى ادعائه .. انما قذف فى

---

(١) من الآية ٨٦ سورة طه مكية .
(٢) الآية ١٥٢ سورة الاعراف مكية .
(٣) الآية ٩٥ سورة طه مكية .
(٤) من الآية ٩٦ سورة طه مكية .

وجهه حكم الحق .. ليس المهم ان يكون الســـامرى قد رأى جبريل ، عليه السلام ، فقبض قبضة من أثره .. ليس المهم ان يكون خوار العجل بســـبب هذا التراب الذى ســـار عليه فرس جبريل ، أو يكون الخـــوار بسبب ثقب اصطنعه السامرى ليخور العجل .. المهم فى الأمر كله جريمة السامرى ، وفتنته لقوم موسى ، واستغلاله اعجاب القوم الدفين بســـادتهم المصريين ، وتقليدهم لهم فى عبادة الأوثان .. هذه هى الجريمة التى حكم فيها موسى ، عليه السلام ، بحكمه المزدوج :

« قال : فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لا مساس ، وان لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا »[١] .. [سورة طه] ..

حكم موسى على السامرى بالوحدة فى الدنيا ..

يقول بعض المفسرين : ان موسى دعا على السامرى بأن لا يمس أحـــدا ، معاقبة له على مسه ما لم يكن ينبغى له مسه ..

ونعتقد أن الأمر اخطر كثيرا من هذه النظرة السريعة .. ان الســـامرى أراد بفتنته ضلال بنى اسرائيل وجمعهم حول عجله الوثنى والسيادة عليهم ، وقد جاءت عقوبته مساوية لجرمه ، لقد حكم عليه بالنبذ والوحدة ، هل مرض السامرى مرضا جلديا بشعا صار الناس يأنفون من لمسه أو مجرد الاقتراب منه ؟ .. هل جاءه النبذ من خارج جســـده ؟ .. لا نعرف ماذا كان من أمر الأسلوب الذى تمت به وحدة السامرى ونبذ المجتمع له .. كل ما نعرفه أن موسى أوقع عليه عقوبة رهيبة ، كان أهون منها القتل ، فقد عاش السامرى منبوذا محتقرا لا يلمس شيئا ولا يمس أحدا ولا يقترب منه مخلوق .. هذه هى عقوبته فى الدنيا ، ويوم القيامة له عقوبة ثانية ، يبهمها السياق لتجىء ظلالها فى النفس أخطر وأرعب .

نهض موسى بعد فراغه من السامرى الى العجل الذهب والقاه فى النار .. لم يكتف بصهره أمام عيون القوم المبهوتين ، وانما نسفه فى البحر نسفا .. تحول الاله المعبود أمام عيون المفتونين به الى رماد يتطاير فى البحر .. ارتفع صوت موسى :

« انما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شىء علما » [٢] ..

هذا هو الهكم ، وليس ذلك الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ..

بعد أن نسف موسى الصنم ، وفرغ من الجانى الأصلى ، التفت الى قومه ، وحكم فى القضية كلها فأفهمهم انهم ظلموا أنفسهم ، وترك لعبدة العجل مجالا واحدا للتوبة .. وكان هذا المجال ان يقتل من اتبعوا العجل انفسهم ..

قال تعـــالى :

« واذ قال موسى لقومه : يا قوم : انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب

---

(١) الآية ٩٧ سورة طه مكية .
(٢) الآية ٩٨ سورة طه مكية .

عليكم انه هو التواب الرحيم» [١] . .

كانت العقوبة التى قررها موسى على عبـدة العجـل مهولة ، وتتفق مع الجرم الأصلى ، ان عبادة الأوثان اهدار لحيـاة العقل وصـحوته ، وهى الصحوة التى تميز الانسان عن غيره من البهائم والجمـادات ، وازاء هـذا الازهاق لصحوة العقل ، تجىء العقوبة ازهاقا لحياة الجسـد نفسه ، فليس بعد العقل للانسان حياة يتميز بها . . ومن نوع الجرم جاءت العقوبة . .

جاءت قاسية ثم رحم الله تعالى وتاب . . انه هو التواب الرحيم . .

. . . .

أخيرا . . سكت عن موسى الغضب .

تأمل تعبير القرآن الكريم الذى يصـور الغضب فى صـورة كائن يقود تصرفات موسى ، ابتداء من القائه لألواح التوراة ، وشده للحية أخيه ورأسه . وانتهاء بنسف العجل فى البحر ، وحكمه بالقتل على من اتخذوه ربا .

أخيرا سكت عن موسى الغضب . زايله غضـبه فى الله ، وذلك ارفع انواع الغضب وأجـدرها بالاحترام والتوقـير . . التفت موسى الى مهمته الأصلية حين زايله غضبه فتذكر انه القى الواح التوراة . . وعاد موسى يأخذ الألواح ويعاود دعوته الى الله .

قال تعـالى :

« ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفى نسختها هـدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون »[٢] . . [سورة الأعراف] . .

وقد استدل بعضـهم بقوله « **وفى نسـختها** » على انها تكسرت ، ونحن لا نعرف أكانت الألواح من مادة يجوز عليها الكسر أم لا . . كما ينفى ابن كثير هذا الاستدلال ، ويرى انها بقيت على حالها . .

ومهما يكن من أمر . . فقد عاد موسى الى هدوئه ، واستأنف جهـاده فى الله ، وقرأ الواح التوراة على قومه . أمرهم فى البداية ان يأخذوا بأحكامها بقوة وعزم ، ومن المدهش أن قومه ساوموه على الحق . قالوا : انشر علينا الألواح فان كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال موسى : بل اقبلوها بما فيها . فراجعوا مرارا ، فأمر الله تعـالى ملائكته فرفعت الجبـل على رؤوسهم حتى صار كأنه غمامة فوقهم ، وقيل لهم : ان لم تقبلوها بمـا فيها سقط ذلك الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك ، وأمروا بالسـجود فسـجدوا . . وضـعوا خـدودهم على الأرض وراحوا ينظرون الى الجبـل فوقهم هلعا ورعبـا . .

قال تعـالى :

« واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهـم ، خـذوا

---

(١) الآية ٥٤ من سـورة البقرة مدنية .
(٢) الآية ١٥٤ مكية .

ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلـــكم تتقون ››[١] .. [ســـورة الاعراف] ..

وهكذا اثبت قوم موسى انهم لا يسلمون وجوههم لله الا اذا لويت أعناقهم بمعجزة حسية باهرة تلقى الرعب فى القلوب وتثنى الأقدام نحو سجود قاهر يدفع الخوف اليه دفعا ..

وهكذا يساق الناس بالعصا الالهية الى الايمان ، يقع هـــذا فى طفولة الجنس البشرى ، وغياب الوعى والنضج الكافيين لقيام الاقتنـــاع العقلى ، ولعلنا هنا نشير مرة أخرى الى نفسية قوم موسى ، وهى المسئول الأول عن عدم اقتناعهم الا بالقوة الحسية والمعجزات الباهرة .. لقد تربى قوم موسى ونشأوا وسط هوان وعسف ، أهدرت فيه انسانيتهم والتوت فطرتهم .. ولم يعد ممكنا بعد ازدهار الذل فى نفوسهم واعتيادهم اياه ، لم يعد ممكنا ان يساقوا الى الخير الا بالقوة . لقد اعتادوا أن تســـيرهم القوة القاهرة لسادتهم القدامى ، ولابد لسيدهم الجديد [وهو الايمـــان] من ان يقـــاسى الأهوال لتســـييرهم ، وأن يلجـــأ مضطرا الى اســـلوب القوة لينقذهم من الهلاك .

لم تمر جريمة عبادة العجل دون آثار ..

أمر موسى علماء بنى اسرائيل وخيارهم أن يستغفروا الله ويتوبوا اليه .. اختار منهم سبعين رجلا ، الخير فالخير ، وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صـــنعتم وســـلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم . صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ..

خرج موسى بهؤلاء السبعين المختارين لميقات حدده له الله تعالى..دنا موسى من الجبل ، فاذا عمود من الغمـــام يتغشى الجبل كله .. دخـــل موسى فى الغمام ، وقال للقوم ادنوا فدنوا .. وكلم الله تعالى موسى ، وكان موسى اذا كلم الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع احد من بنى آدم أن ينظر اليه أو يطيق احتماله ، وضرب الحجـــاب على موسى وهو يكلم ربه ، وســـمع السبعون الذين اختارهم موسى .. سمعوا موسى وهو يكلم ربه ..

ولعل معجزة كهذه المعجزة تكون الأخيرة ، وتكون كافية لحمل الايمان الى القلوب مدى الحياة . غير أن الســـبعين المختارين لم يكتفوا بما اســـتمعوا اليه من المعجزة .. انما طلبوا رؤية الله تعالى ..

قالوا سمعنا ونريد أن نرى ..

قالوا لموسى ببساطة :

‹‹ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ›› [٢] ..

هى مأساة تثير أشد الدهشة .. وهى مأساة تشير الى صـــلابة القلوب واستمساكها بالحسيات والماديات ..

كوفىء الطلب المتعنت بعقوبة صاعقة ..

---

(١) الآية ١٧١ مكية .

(٢) من الآية ٥٥ سورة البقرة مدنية .

اخذتهم رجفة مدمرة صعقت أرواحهم وأجسادهم على الفور .

ماتوا ...

ادرك موسى ما أحدثه السبعون المختارون فملأه الأسى وقام يدعو ربه ويناشده أن يعفو عنهم ويرحمهم ، والا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم ، وليس طلبهم رؤية الله تبارك وتعالى وهم على ما هم فيه من البشرية الناقصة وقسوة القلب غير سفاهة كبرى ..

سفاهة لا يكفر عنها الا الموت ..

قد يطلب النبى رؤية ربه ، كما فعل موسى ، ورغم انطلاق الطلب من واقع الحب العظيم والهوى المسيطر ، الذى يبرر بما له من منطق خاص هذا الطلب ، رغم هذا كله يعتبر طلب الرؤية تجاوزا للحدود ، يجازى عليه النبى بالصعق ، فما بالنا بصدور هذا الطلب من بشر خاطئين ، بشر يحددون للرؤية مكانا وزمانا ، ويشترطون ان تكون جهرة .. بشر يعلقون ايمانهم على هذه الرؤية ، بعد كل ما لقوه من معجزات وآيات ..

اليس هذا سفاهة كبرى ... ؟

وهكذا صعق من طلب الرؤية .. ووقف موسى يدعو ربه ويستعطفه ويترضاه ..

قال تعالى :

« **واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما اخذتهم الرجفة قال : رب : لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك** » [١] ..

هذه كانت كلمات موسى لربه وهو يدعوه ويترضاه ..

ورضى الله تعالى عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم ، واستمع المختارون فى هذه اللحظات الباهرة من تاريخ الحياة الى النبوءة بمجىء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ..

قال تعالى :

« **قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** » [٢] [سورة الاعراف] ..

---

(١) الآية ١٥٥ وجزء من آية ١٥٦ سورة الاعراف مكية .
(٢) بقية الآية ١٥٦ وآية ١٥٧ سورة الاعراف مكية .

سنلاحظ طريقة الربط بين الحـاضر والماضى فى الآية ، ان الله تعـالى يتجاوز زمن مخاطبة الرسـول فى الآيات الى زمنين سـابقين ، هما نزول التوراة ونزول الانجيل ، ليقرر انه [تعالى] بشر بمحمد فى هـذين الكتابين الكريمين ..

نعتقد ان ايراد هذه البشرى جاء يوم صحب موسى من قومه بسبعين رجلا هم علماء بنى اسرائيل وأفضل من فيهم ، لميقات ربه ..

فى هذا اليوم الخطير بمعجزاته الكبرى ، تم ايراد البشرى بآخر أنبيـاء الله عز وجل ..

....

يقول ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء ، نقلا عن قتادة .. ان موسى قال لربه : يا رب انى أجد فى الألواح أمة هى خير امة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب أجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب انى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صـدورهم يقرأونهـا .. وكان من قبلهم يقراون كتابهم نظرا ، حتى اذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه .. وان الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحـدا من الأمم .. رب اجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب انى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فضول الضلالة .. فاجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب انى أجـد فى الألواح أمة صـدقاتهم يأكلونهـا فى بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم اذا تصدق أحدهم بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتهـا ، وان ردت عليه تركت فتأكلهـا السـباع والطير .. وان الله أخـذ صـدقاتهم من غنيهم لفقيرهم .. رب فاجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة احمد ..

قال : رب فانى أجد فى الألواح أمة اذا هم احدهم بحسنة ثم عملها كتبت له عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف .. رب اجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة احمد ..

....

مكث موسى فى قومه يدعوهم الى الله .. ويبدو ان نفوسهم كانت ملتوية بشكل لا تخطئه عين الملاحظة ، وتبدو لجاجتهم وعنادهم فيما يعرف بقصـة

البقرة .. فان الموضوع لم يكن يقتضى كل هذه المفاوضات بينهم وبين موسى ، كما انه لم يكن يستوجب كل هذا التعنت ..

وأصل قصة البقرة أن قتيلا ثريا وجـد يوما فى بنى اسرائيل ، واختصم اهله ولم يعرفوا قاتله ، وحين أعياهم الأمر لجأوا لموسى ، ويبدو ان هـذا القتيل كان رجلا له مركزه فى بنى اسرائيل ، ويبدو ان خفاء قتله كان داعيا لشىء يشبه الفتنة ، ولجأ بنو اسرائيل لموسى ليلجأ لربه .. ولجأ موسى لربه فأمره أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة .. وكان المفروض هنا ان يذبح القوم أول بقرة تصادفهم .. غير انهم بدأوا مفاوضاتهم باللجاجة .. اتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزوا ، واستعاذ موسى بالله ان يكون من الجاهلين ويسخر منهم .. أفهمهم أن حل القضية يكمن فى ذبح بقرة ..

ان الأمر هنا أمر معجزة ، لا علاقة لها بالمألوف فى الحياة ، أو المعتـاد بين الناس ..

ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل فى الجريمة الغامضة التى وقعت ، لكن متى كانت الأسـباب المنطقية هى التى تحـكم حيـاة بنى اسرائيل ، ان المعجزات الخارقة هى القانون السائد فى حياتهم ، وليس استمرارها فى حادث البقرة أمرا يوحى بالعجب أو يثير الدهشة ..

لـكن بنى اسرائيل هم بنو اسرائيل .. مجرد التعـامل معهم عنت .. تستوى فى ذلك الأمور الدنيوية المعتادة ، وشئون العقيدة الهامة .. لابد أن يعـانى من يتصـدى لأمر من أمور بنى اسرائيل ، وهكذا يعـانى موسى من ايذائهم له واتهامه بالسخرية منهم ، ثم ينبئهم انه جاد فيما حدثهم به ، ويعاود أمره ان يذبحوا بقرة ، وتعود الطبيعة المراوغة لبنى اسرائيل الى الظهور ، تعود اللجاجة والالتواء ، فيتساءلون : أهى بقرة عادية كما عهدنا من هـذا الجنس من الحيوان ؟ .. أم انها خلق آخـر تفرد بمزية ، فليدع موسى ربه ليبين لهم ما هى .. ويدعو موسى ربه فيزداد التشديد عليهم ، وتحدد البقرة اكثر من ذى قبل ، بأنها بقرة وسط .. ليست بقرة مسنة ، وليست بقرة فتية .. بقرة متوسطة .. الى هنا كان ينبغى ان ينتهى الأمر ، غير ان المفاوضات لم تزل مسـتمرة ، ومراوغة بنى اسرائيل لم تزل هى التى تحـكم مائدة المفاوضات .. والأسئلة الغريبة لم تزل تترى .. ما هو لون هـذه البقرة ؟ .. لـماذا يدعو موسى ربه ليسـأله عن لون هـذه البقرة ؟ .. لا يراعون مقتضيات الأدب والوقار اللازمين فى حق الله تعالى وحق نبيه الكريم ، وكيف أنهم ينبغى ان يخجلوا من تكليف موسى بهذا الاتصال المتكرر حول موضوع بسيط لا يستحق كل هذه اللجاجة والمراوغة .. ويسأل موسى ربه ثم يحدثهم عن لون البقرة المطلوبة .. فيقول انهـا بقرة صفراء ، فاقع لونهـا ، تسر الناظرين ..

وهكذا حددت البقرة بانها صفراء ، لونها مشرب بحمرة ، ورغم وضـوح الأمر ، فقد عادوا الى اللجاجة والمراوغة ، فشدد الله عليهم كما شددوا على نبيه وآذوه .. عادوا يسألون موسى أن يدعو الله ليبين ما هى ، فان البقر تشابه عليهم .. وحدثهم موسى عن بقرة ليست معدة لحرث ولا لسقى ، سلمت من العيوب ، صفراء لا شية فيها ، بمعنى خالصة الصفرة .. انتهت بهم اللجاجة الى التشديد .. وبدأو بحثهم عن بقرة بهذه الصفات الخاصة ..

اخيرا وجــدوها عند يتيم فاشـــتروها منه وذبحوها .. وأمسك موسى ذيل البقرة وضرب به القتيل فنهض من موته .. ســـأله موسى عن قاتله فحدثهم عنه ثم عاد الى الموت ..

وشاهد بنو اسرائيل معجزة احياء الموتى أمام أعينهم ، اســتمعوا بآذانهم الى اسم القاتل .. انكشف غموض القضـــية التى حيرتهم زمنا طال بسبب لجاجتهم وتعنتهم ..

قال تعـــالى :

« واذ قال موسى لقومه : ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا اتتخذنا هزوا ، قال : أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال : انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال : انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون . قال : انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا : الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها : والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون »[١] .. [سورة البقرة] ..

نود أن نلفت انتباه القارىء الى سوء أدب القوم مع نبيهم وربهم ، ولعل السياق القرآنى يورد ذلك عن طريق تكرارهم لكلمة « ربك » التى يخاطبون بهـــا موسى .. وكان الأولى بهـــم أن يقولوا لموسى ، تأدبا ، لو كان لابد ان يقولوا :

ــ ادع لنا ربنـــا ..

أما ان يقولوا له :

ــ ادع لنا ربك ..

فكأنهم يقصرون ربوبية الله تعالى على موسى .. ويخرجون انفســـهم من شرف العبودية لله .. انظر الى الآيات كيف توحى بهـــذا كله .. ثم تأمـــل سخرية السياق منهم لمجرد ايراده لقولهم :

« الآن جئت بالحق » [٢] ..

بعد ان أرهقوا نبيهم ذهابا وجيئة بينهم وبين الله عز وجل ، بعد أن أرهقوا نبيهم بسؤاله عن صفة البقرة ولونها وسنها وعلاماتهـــا المميزة ، بعد تعنتهم وتشديد الله عليهم ، يقولون لنبيهم حين جاءهم بما يندر وجوده ويندر العثور عليه فى البقر عادة ..

ساعتها قالوا له : « الآن جئت بالحق » .. كأنه كان يلعب قبلها معهم ، ولم يكن ما جاء به هو الحق من أول كلمة لآخر كلمة ..

---

(١) الآيات من ٦٧ الى ٧٣ مدنية .
(٢) من الآية ٧١ الى ٧٣ مدنية .

ثم أنظر الى ظلال السياق وما تشى به من ظلمهم :

« **فذبحوها وما كادوا يفعلون** » [١] ..

الا توحى لك ظلال الآيات بتعنتهم وتسويفهم ومماراتهم ولجاجتهم فى الحق .. هذه اللوحة الرائعة تشى بموقف بنى اسرائيل على موائد المفاوضات ..

هى صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى ..

....

قاسى موسى من قومه أشد المقاساة ، وعانى عناء عظيما ، واحتمل فى تبليغهم رسالته ما احتمل فى سبيل الله ..

ولعل مشكلة موسى الأساسية انه بعث الى قوم طال عليهم العهد بالهوان والذل ، وطال بقاؤهم فى جو يخلو من الحرية ، وطال مكثهم وسط عبادة الأصنام ، ولقد نجحت المؤثرات العديدة المختلفة فى ان تخلق هذه النفسية الملتوية الخائرة المهزومة التى لا تصلح لشىء .. الا أن تعذب أنبياءها ومصلحيها ..

وقد عذب بنو اسرائيل موسى عذابا نستطيع ــ نحن أبناء هذا الزمان ــ أن ندرك وقعه على نفس موسى النقية الحساسة الكريمة .

ولم يقتصر العذاب على العصيان والغباء واللجاجة والجهل وعبادة الأوثان ، وانما تعدى الأمر الى ايذاء موسى فى شخصه ..

قال تعالى فى سورة الأحزاب :

« **يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** » [٢] ..

ونحن لا نعرف كنه هذا الايذاء ، ونستبعد رواية العلماء التى يقولون فيها ان موسى كان رجلا حييا يستتر دائما ولا يحب أن يرى أحد من الناس جسده فاتهمه اليهود بأنه مصاب بمرض جلدى أو برص ، فأراد الله أن يبرئه مما قالوا ، فذهب يستحم يوما ووضع ثيابه على حجر ، ثم خرج فاذا الحجر يجرى بثيابه وموسى يجرى وراء الحجر عاريا حتى شاهده بنو اسرائيل عاريا وليس بجلده عيب .. نستبعد هذه القصة لتهافتها ، فانها الى جوار خرافة جرى الحجر بملابسه ، لا تعطى موسى حقه من التوقير ، وهى تتنافى مع عصمته كنبى .. ونعتقد ان اليهود آذوا موسى ايذاء نفسيا ، هذا هو الايذاء الذى يدمى النفوس الكريمة ويجرحها حقا ، ولا نعرف كيف كان هذا الايذاء ، ولكننا نستطيع تخيل المدى العبقرى الآثم الذى يستطيع بلوغه بنو اسرائيل فى ايذائهم لموسى ..

ولعل أعظم ايذاء لموسى ، كان نكول بنى اسرائيل عن القتال من أجل نشر عقيدة التوحيد فى الأرض ، أو على أقل تقدير ، السماح لهذه العقيدة أن

---

(١) من الآية ٧١ سورة البقرة مدنية .
(٢) الآية ٦٩ سورة الاحزاب مدنية .

تستقر على الأرض فى مكان ، وتأمن على نفسها ، وتمارس تعبدها فى هدوء ..

لقد رفض بنو اسرائيل القتال .. وقالوا لموسى كلمتهم الشهيرة :

« اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون »[١] ..

وبهذه النفسية .. حكم الله عليهم بالتيه .. وكان الحكم يحدد أربعين عاما كاملة ، وقد مكث بنو اسرائيل فى التيه أربعين سنة ، حتى فنى جيل بأكمله .. فنى الجيل الخائر المهزوم من الداخل ، وولد فى ضياع الشتات وقسوة التيه ، جيل جديد .. جيل لم يترب وسط مناخ وثنى ، ولم يشل روحه انعدام الحرية .. جيل لم ينهزم من الداخل ، جيل لم يعد يستطيع الأبناء فيه ان يفهموا لماذا يطوف الآباء هكذا بغير هدف فى تيه لا يبدو له أول ولا تستبين له نهاية .. الا خشية من لقاء العدو .. جيل صار مستعدا لدفع ثمن آدميته وكرامته من دمائه .. جيل لا يقول لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون ..

جيل آخر يتبنى قيم الشجاعة العسكرية ، كجزء هام من نسيج أى ديانة من ديانات التوحيد ..

اخيرا ولد هذا الجيل وسط تيه الأربعين عاما ..

ولقد قدر لموسى .. زيادة فى معاناته ، ورفعا لدرجته عند الله تعالى .. قدر له الا تكتحل عيناه بمرأى هذا الجيل ..

فقد مات موسى ، عليه الصلاة والسلام ، قبل ان يدخل بنو اسرائيل الأرض التى كتب الله عليهم دخولها ..

قال الله تبارك وتعالى عن موسى فى سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب موسى ، انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا »[٢] ..

وقال تعالى عنه فى سورة الاعراف بعد طلب رؤية الله :

« قال : يا موسى : انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين »[٣] ..

وقال عز وجل عنه فى سورة النساء :

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما »[٤] ..

---

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .
(٢) الآيات ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ سورة مريم مكية .
(٣) الآية ١٤٤ سورة الاعراف مكية .
(٤) الآية ١٦٤ سورة النساء مدنية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان قومه يؤذونه فى الله :
قد أوذى موسى بأكثر من ذلك فصبر ..

....

مات هارون قبل موسى بزمن قصير ..

واقترب أجل موسى ، عليه الصلاة والسلام .. وكان لم يزل فى التيه .. قال يدعو ربه : رب ادننى الى الأرض المقدسة رمية حجر ..

احب أن يموت قريبا من الأرض التى هاجر اليها .. وحث قومه عليها .. ولكنه لم يستطع ، ومات فى التيه .. ودفن عند كثيب أحمر حدث عنه آخر انبياء الله فى الأرض حين أسرى به .. قال محمد ، صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر ..

....

تروى الأساطير عديدا من الحكايات حول موت موسى ، وتحكى انه ضرب ملك الموت حين جاء يستل روحه ، ففقأ عينه .. وأمثال هذه الخرافات كثيرة .. ومن المؤسف أن يتداولها علمـــاء لهم احترامهم ، وان كانوا لا يميزون بين الذهب والتراب ، فهم يبدون كحاطب ليل يضـــم الغث الى النفيس ، ويكوم الهراء على الحقائق حتى لتختفى الحقائق ..

مات موسى عليه الصلاة والسلام ، ميتة طيبة كريمة ، اغلب الظن انه اشتاق الى رؤية الله عز وجل ، وقد دفعـــه الحب الى طلبهـــا فى حياته ، وها هى فرصته تزيد فيها بعد موته ..

واذن يستقبل كليم الله موته بنفس راضية وقلب مطمئن وروح تهفو الى الحق وتتعجل لقاءه وتستبشر ..

عليه الصلاة والسلام ..

الخضر

[عليه الصلاة والسلام]

من أعجب قصص القرآن وأعظمه غموضا ، قصة عبد أتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما ..

ترد القصة فى سورة الكهف .. وتبدأ بهذه الآيات التى تحكى عن موسى ما عقد عليه نيته ..

« وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أوأمضى حقبــا » [1] ..

الكلمة الغامضة تشير الى ان موسى قد عقد عزمه على الاســتمرار فى السير أحقابا طويلة ، الا اذا بلغ مجمع البحرين ..

ثمة موعد هام ينتظره موسى عند مجمع البحرين ..

تأمل غموض المكان ..

أجهد المفسرون أنفسهم طويلا لتبديد الضباب المحيط بهذا المكان ، فقيل انه بحر فارس والروم ، وقيل بل بحر الأردن أو القلزم ، وقيل عند طنجة ، وقيل فى أفريقيا ، وقيل هو بحر الأندلس .. ولا يقوم الدليل على صحة مكان من هذه الأمكنة ، ولو كان تحديد المكان مطلوبا لحدده الله تعــالى .. وانما أبهم السياق القرآنى المكان ، كما أبهم الزمان ، كما ضبب أسماء الأشخاص لحكمة عليــا ..

ان القصة تتعلق بعلم ليس هو علمنا القائم على الأسباب .. وليس هو علم الأنبياء القائم على الوحى .. انما نحن أمام علم من طبيعة غامضة أشد الغموض .. علم القدر الأعلى ، وذلك علم أسدلت عليه الأستار الكثيفة ..

مكان اللقاء مجهول كما رأينا ..

وزمان اللقاء غير معروف هو الآخر .. لا نعرف متى تم لقاء موسى بهذا العبد ..

وهكذا تمضى القصة بغير ان تحدد لك سطورها مكان وقوع الأحداث ، ولا زمانه ، يخفى السياق القرآنى أيضا اسم أهم أبطالها ..

---

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف مكية .

يشير اليه الحق تبارك وتعالى بقوله :

« **عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** » [1]

هو عبد أخفى السياق القرآنى اسمه ..

هذا العبد هو الذى يبحث عنه موسى ليتعلم منه ..

ان موسى كليم الله عز وجل ، وأحد أولى العزم من الرسل ، وصاحب معجزة العصا واليد ، والنبى الذى انزلت عليه التوراة دون واسطة ، وانما كلمه الله تكليما .. هذا النبى العظيم يتحول فى القصة الى طالب علم متواضع يحتمل استاذه ليتعلم .. ومن يكون معلمه غير هذا العبد الذى يتجاوز السياق القرآنى اسمه ، وان حدثتنا السنة المطهرة انه هو الخضر .. عليه السلام ..

ويسير موسى مع العبد الذى يتلقى علمه من الله بغير أسباب التلقى التى نعرفها ، فى البداية يرفض الخضر صحبة موسى .. يفهمه انه لن يستطيع معه صبرا ..

ثم يوافق على صحبته بشرط .. الا يسأله موسى عن شىء حتى يحدثه الخضر عنه ..

والخضر هو الصمت المبهم ذاته ، انه لا يتحدث ، وتصرفاته تثير دهشة موسى العميقة ، ان هناك تصرفات يأتيها الخضر وترتفع أمام عينى موسى حتى لتصل الى مرتبة الجرائم والكوارث .. وهناك تصرفات تبدو لموسى بلا معنى .. وتثير تصرفات الخضر دهشة موسى ومعارضته .. ورغم علم موسى ومرتبته ، فانه يجد نفسه فى حيرة عميقة من تصرفات هذا العبد الذى آتاه الله من لدنه علما ..

ان علم موسى بالشريعة ، يقف حائرا أمام علم هذا العبد بالحقيقة .. كأن الشريعة جزء من الحقيقة ، وأحيانا تكون الحقيقة غامضة أعظم الغموض ، خفية أشد الخفاء ، حتى لتستعصى على فهم الأنبياء ..

ان السحاب الكثيف الذى أحاط بهذه القصة فى القرآن ، قد تساقط فيما بعد أمطارا غزيرة شربت منها كل المذاهب الصوفية فى الاسلام ، بل لقد نشأ الاعتقاد فى وجود عباد لله ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، ويغبطهم الأنبياء والشهداء على علمهم ، نشأ هذا الاعتقاد من هذه القصة ..

وقد اختلف العلماء فى الخضر ، فيهم من يعتبره وليا من أولياء الله ، وفيهم من يعتبره نبيا .. وقد نسجت الأساطير نفسها حول حياته ووجوده ، فقيل انه لا يزال حيا الى يوم القيامة ، وهى قضية لم ترد بها نصوص أو آثار يوثق فيها ، فلا نقول فيها الا انه مات كما يموت عباد الله .. وتبقى قضية ولايته ، أو نبوته .. وهى قضية محيرة حقا .. نرجئها حتى ننظر فى قصته كما أوردها القرآن الكريم ..

....

---

(١) من الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

قام موسى خطيبا فى بنى اسرائيل ، يدعوهم الى الله ويحدثهم عن الحق ، ويبدو ان حديثه جاء جامعا ماتعا ، رائعا ، فبدا كما لو كان يلخص حكمة الدنيا فى السطور المضيئة التى فاه بها .. بعد ان انتهى من خطابه سأله احد المستمعين من بنى اسرائيل :

ـــ هل على وجه الأرض احد اعلم منك يا نبى الله ؟

قال موسى مندفعا : لا ..

وساق الله تعالى عتابه لموسى حين لم يرد العلم اليه ، فبعث اليه جبريل يسأله :

□ يا موسى .. ما يدريك اين يضع الله علمه ..

ادرك موسى انه تسرع .. وعاد جبريل ، عليه السلام ، يقول له :

□ ان لله عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك ..

تاقت نفس موسى الكريمة الى زيادة العلم ، وانعقدت نيته على الرحيل لصاحبة هذا العبد العالم .. سأل كيف السبيل اليه .. فأمر أن يرحل ، وأن يحمل معه حوتا فى مكتل ، اى سمكة فى سلة .. وفى المكان الذى ترتد فيه الحياة لهذا الحوت ويتسرب فى البحر ، سيجد العبد العالم ..

انطلق موسى ـــ طالب العلم ـــ ومعه فتاه .. وقد حمل الفتى حوتا فى سلة ..

انطلقا بحثا عن العبد الصالح العالم ..

ان المكان الذى يبحثان عنه غامض .. والأمر معلق بمعجزة ارتداد الحياة للسمكة القابعة فى السلة وتسربها الى البحر .. وكل شىء مضبب .. ولكن موسى يعقد عزمه على العثور على هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر الى أن يسير احقابا واحقابا ..

« واذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أوأمضى حقبــا » [1] ..

قال موسى لفتاه : لا أكلفك الا ان تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ..

قال فتاه : ما كلفتنى بشىء كبير ..

وصل الاثنان الى صخرة جوار البحر .. رقد موسى واستسلم للنعاس ، وبقى الفتى ساهرا .. والقت الرياح احدىالامواج على الشاطىء فأصاب الحوت رذاذ فدبت فيه الحياة وقفز الى البحر .. واتخذ سبيله فى البحر سربا ..

وكان تسرب الحوت الى البحر علامة اعلم الله بها موسى لتحديد مكان لقائه بالرجل الحكيم الذى جاء موسى يتعلم منه ..

نهض موسى من نومه فلم يلاحظ ان الحوت تسرب الى البحر .. ونسى

---

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف مكية .

فتاه الذى يصحبه أن يحدثه عما وقع للحوت .. وسار موسى مع فتاه بقية يومهما ، وقد نسيا حوتهما ..

ثم تذكر موسى غداءه وحل عليه التعب ..

قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ..

ولمع فى ذهن الفتى ما وقع ..

ساعتئذ تذكر الفتى كيف تسرب الحوت الى البحر هناك .. واخبر موسى بما وقع ، واعتذر اليه بأن الشيطان انساه ان يذكر له ما وقع ، رغم غرابة ما وقع ، فقد اتخذ الحوت سبيله فى البحر عجبا .. كان امرا عجيبا ما رآه فتى موسى .. لقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال ..

سعد موسى من مروق الحوت الى البحر ، وقال : ذلك ما كنا نبغ .. هذا ما كنا نريده ..

ان تسرب الحوت يحدد المكان الذى سنلتقى فيه بالرجل العالم .. ويرتد موسى وفتاه يقصان أثرهما عائدين ..

انظر الى بداية القصة ، وكيف تجىء غامضة اشد الغموض ، مبهمة اعظم الابهام .. لا تكاد ترفع ستارا امامك حتى تكتشف وجود أستار اخرى ..

اخيرا وصل موسى الى المكان الذى تسرب منه الحوت .. وصــلا الى الصخرة التى ناما عندها ، وتسرب عندها الحوت من السلة الى البحر .. وهناك وجدا رجلا ..

لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شكله ، ولا ندرى عن ملابســه شيئا .. ولا نعرف سنه أو ملامحه ، كل ما ندريه عنه هو هــذا الوصف الداخلى البحت الذى يصفه به السياق القرآنى ..

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علمـــا » [١] ..

هذا هو الجانب الهام فى القصة .. ان القصة كلها تقع داخل النفوس ، وليس رسم الأطار أو تحديد الملامح والظلال بأمر ذى بال ..

قال تعـــالى :

«فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت ، وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجـــدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » [٢] ..

....

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات من ٦١ الى ٦٥ سورة الكهف مكية .

يقول البخارى ان موسى وفتاه وجدا الخضر على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه .. وقد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه .. فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال :

ـ هل بأرضك سلام .. من أنت ؟

قال موسى : أنا موسى ..

قال الخضر : موسى بنى اسرائيل .. عليك السلام يا نبى بنى اسرائيل ..

قال موسى : وما ادراك بى ... ؟

قال الخضر : الذى أدراك بى ودلك على .. ماذا تريد يا موسى ... ؟

قال موسى ملاطفا مبالغا فى التوقير : هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشـــدا ... ؟

قـــال الخضر : أما يكفيك ان التوراة بيـــديك .. وان الوحى يأتيك .. يا موسى انك لن تستطيع معى صبرا ..

نريد ان نتوقف لحظة لنلاحظ الفرق بين سؤال موسى الملاطف المغالى فى الأدب .. ورد الخضر الحاسم ؛ الذى يفهم موسى ان علمه لا ينبغى لموسى أن يعرفه ، كما أن علم موسى هو علم لا يعرفه الخضر .. يقول المفسرون أن الخضر قال لموسى : ان علمى أنت تجهله .. ولن تطيق عليه صـــبرا ، لأن الظواهر التى ستحكم بها على علمى لن تشفى قلبك ولن تعطيك تفسيرا ، وربما رأيت فى تصرفاتى ما لا تفهم له ســـببا أو تدرى له علة .. واذن لن تصبر على علمى يا موسى ..

احتمل موسى كلمات الصد القاسية وعاد يرجوه أن يسمح له بمصاحبته والتعلم منه .. وقال له موسى فيما قال انه سيجده ان شاء الله صـــابرا ولا يعصى له امرا ..

تأمل كيف يتواضع موسى كليم الله ويؤكد للعبد المدثر بالخفاء انه لن يعصى له امرا ..

قال عبد الله الذى لا يشى السياق القرآنى باسمه ، قال لموسى ان هنـــاك شرطا يشترطه لقبول أن يصاحبه موسى ويتعلم منه . اســـتفسر موسى عن هذا الشرط فحدده العبد الصامت العالم بالصمت .. الا يسأل موسى عن شىء حتى يحدثه عبد الله عنه ..

وافق موسى على الشرط وانطلقا ..

انظر قوله تعالى فى سورة الكهف :

« قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ؟ . قال : ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا » [1] ..

---

(١) الآيات من ٦٦ الى ٧٠ سورة الكهف مكية .

انطلق موسى مع الخضر يمشيان على ساحل البحر .. مرت سفينة فكلموهم ان يحملوهم ، وعرف أصحاب السفينة الخضر فحملوه وحملوا موسى بغير أجر ، اكراما للخضر ، وفوجىء موسى حين رست السفينة وغادرها أصحابها وركابها .. فوجىء ان الخضر يتخلف فيها ، لم يكد أصحابها يبتعدون حتى بدأ الخضر يخرق السفينة .. اقتلع لوحا من الواحها والقاه فى البحر فحملته الأمواج بعيدا ..

كان موسى يصاحب الخضر ويرقب تصرفاته ويفكر ..

ـ ما الذى جئت أصنعه هنا بمصاحبة هذا الرجل ؟ .. لماذا لم أبق فى بنى اسرائيل أتلو عليهم كتاب الله فيطيعونى .. لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر .. أكرمونا .. وها هو معلمى يخرقها ويفسدها ..

كان التصرف من وجهة نظر موسى شيئا معيبا .. وغلبت طبيعة موسى المندفعة عليه ، كما حركته غيرته على الحق ، فاندفع يحدث أستاذه ومعلمه وقد نسى شرطه الذى اشترطه عليه ..

قال : أخرقتها لتغرق أهلها .. لقد جئت شيئا امرا .

وهنا يلفت العبد الربانى نظر موسى الى عبث محاولة التعلم منه ، لأنه لن يستطيع الصبر عليه ، ويعتذر موسى بالنسيان ويرجوه الا يؤاخذه وألا يرهقه .. ويسيران معا .. يمران على حديقة يلعب فيها الصبيان .. حتى اذا تعبوا من اللعب انتحى كل واحد منهم ناحية واستسلم للنعاس .. فوجىء موسى آن العبد الربانى يقتل غلاما .. ويثور موسى سائلا عن الجريمة التى ارتكبها هذا الصبى ليقتله هكذا .. ويعاود العبد الربانى تذكيره انه افهمه انه لن يستطيع الصبر عليه .. ويعتذر موسى بأنه نسى ولن يعاود الأسئلة ، ويسأله العبد الربانى .. ماذا لو عاود الأسئلة ولم يلجأ الى الصمت كما اتفقا ؟

ويقول موسى : يكون هذا آخر عهدى بمصاحبتك ..

ويمضى العبد ، ويمضى معه موسى ..

يدخلان قرية بخيلة ، لا يعرف موسى لماذا ذهبا الى القرية ، ولا يعرف لماذا يبيتان فيها .. نفد ما معهما من الطعام ، فاستطعما أهل القرية فأبوا ان يضيفوهما .. وجاء عليهما المساء ، وأوى الاثنان الى خلاء فيه جدار يريد أن ينقض .. جدار يتهاوى ويكاد أن يهم بالسقوط .. وفوجىء موسى بأن الرجل العابد ينهض ليقضى الليل كله فى اصلاح الجدار وبنائه من جديد .. ويندهش موسى من تصرف رفيقه ومعلمه ، ان القرية بخيلة ، لا يستحق من فيها هذا العمل المجانى ..

قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا ..

انتهى الأمر بهذه العبارة ..

قال عبد الله لموسى : هذا فراق بينى وبينك ..

لقد حذر العبد الربانى موسى من مغبة السؤال ، وانذره أن يكون السؤال الثالث هو خاتمة اللقاء ..

ويكشف العبد الربانى لموسى عن السر الذى غمض عليه وحيره ، ودفعه الى الأسئلة ..

ان كل تصرفات العبد الربانى التى أثارت موسى وحيرته لم يكن حين فعلها تصدر عن أمره ..

كان ينفذ ارادة عليـــا .. وكانت لهذه الارادة العليا حكمتها الخـــافية ، وكانت التصرفات تشى بالقسوة الظاهرة ، بينما تخفى حقيقتها رحمة حانية .. وهكذا تخفى الكوارث أحيـــانا فى الدنيا جوهر الرحمة ، وترتدى النعم ثياب المصائب وتجيد التنكر ، وهكذا يتناقض ظاهر الأمر وباطنه ، ولا يعلم موسى ، رغم علمه الهائل غير قطرة من علم العبد الربانى ، ولا يعـــلم العبد الربانى من علم الله الا بمقدار ما يأخذ العصفور الذى يبلل منقاره فى البحر ، من ماء البحر ..

قال تعـــالى :

((فانطلقا ، حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا أمرا . قال : ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ؟ . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا ، حتى اذا لقيا غلاما فقتله ، قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ! لقد جئت شيئا نكرا .. قال : ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟ . قال : ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا ، حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيهـــا جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة : فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخـــذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام : فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجـــدار : فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)) [١] ..

كشف العبد الربانى لموسى شيئين فى نفس الوقت ..

كشف له أن علمه [أى علم موسى] محدود .. كما كشف له أن كثيرا من المصائب التى تقع على الأرض تخفى فى ردائها الأسود الكئيب رحمة عظمى .. ان أصحاب السفينة سيعتبرون خرق سفينتهم مصيبة جاءتهم ، بينما هى نعمة تتخفى فى زى المصيبة .. نعمة لن تكشف النقاب عن وجهها الا بعد أن تنشب الحرب ويصادر الملك كل السـفن الموجودة غصبا ، ثم يفلت هـــذه السفينة التالفة المعيبة .. وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو ، فلا يموتون جوعا ..

---

(١) الآيات من ٧١ الى ٨٢ سورة الكهف مكية .

أيضا سيعتبر والد الطفل المقتول وامه ان كارثة قد دهمتهما لقتل وحيدهما الصغير البرىء .. غير ان موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظمى ، فان الله سيعطيهما بدلا منه غلاما يرعاهما فى شيخوختهما ولا يرهقهما طغيانا وكفرا كالغلام المقتول ..

وهكذا تختفى النعمة فى ثياب المحنة ، وترتدى الرحمـــة قناع الكارثة ، ويختلف ظاهر الأشـــياء عن باطنهـــا حتى ليحتج نبى الله موسى على تصرف يجرى أمامه ، ثم يلفته عبد من عباد الله الى حكمة التصرف ومغزاه ورحمة الله الكلية التى تخفى نفسها وراء أقنعة عديدة ..

....

عاد موسى الى فتاه وصحبه عائدا الى بنى اسرائيل ..

يمتلىء موسى الآن بيقين الصوفيين الهادىء .. لقد تعلم منهم شيئين : الا يغتر بعلمه فى الشريعة ، فهناك علم الحقيقة .. والا يتجهم قلبه لمصائب البشر ، فربما تكون يد الرحمة الخالقة تخفى سرها من اللطف والانقـــاذ ، والايناس وراء أقنعة الحزن والآلام والموت ..

....

هذا هو الدرس الذى تعلمه موسى كليم الله عـــز وجل ورسوله من هذا العبد المدثر بالخفاء ، لقد خرجت شخصية هـــذا العبد الربانى من ضـــباب الزمن ثم عادت تختفى كما جاءت فى ضـــباب الزمن .. بعد ان مضى العبد اكتشف موسى انه اطلع على بحر جديد من العلم ليس هو بحر الشريعة الذى يشرب منه أنبياء الله ، عليهم صلاة الله وسلامه ..

نحن أمام بحر الحقيقة هنا ..

أمام علم القدر الأعلى ..

أمام هذا العلم الذى لا يمكن النظر فيه بعقولنا البشرية ، أو منطقنا المعتاد فى النظر الى العلوم .. فليس هذا العلم هو العـــلم التجريبى الذى نعرفه على الأرض ، وليس هو بعلم الأنبياء الذى يوحى الله به اليهم ، انما نحن أمام نوع من العلم جديد ..

من يكون صاحب هذا العلم اذن ... ؟

اهو ولى أو نبى ... ؟

يرى كثير من الصوفية ان هذا العبد الربانى ولى من أولياء الله تعالى ، أطلعه الله على جزء من علمه اللدنى بغير أسباب انتقال العلم المعروفة .

ويرى بعض العلماء ان هذا العبد الصالح كان نبيا ..

ويحتج أصحاب هذا الرأى بأن سياق القصة يدل على نبوته من وجوه :

١ ـــ أحدهما قوله تعـــالى :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتينـــاه رحمة من عندنا وعلمنـــاه من لدنا

علمـا » [١] ..

٢ ـــ والثانى قول موسى له :

« هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا ؟ . قال : انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ . قال : ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا »[٢] ..

فلو كان وليا ولم يكن بنبى ، لم يخاطبه موسى هذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد . ولو أنه كان غير نبى ، لكان هـذا معناه انه ليس معصوما ، ولم يكن هناك دافع لموسى ، وهو النبى العظيم ، وصاحب العصمة ، ان يلتمس علما من ولى غير واجب العصمة ... ؟

٣ ـــ والثالث ان الخضر أقدم على قتل ذلك الغـلام بوحى من الله وأمر منه .. وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولى لا يجوز له الاقدام على قتـل النفوس بمجرد ما يلقى فى خلده ، لأن خاطره ليس بواجب العصـمة .. اذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق .. واذن ففى اقـدام الخضر على قتل الغـلام دليل على نبوته ..

٤ ـــ والرابع قول الخضر لموسى :

« رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى » [٣] ..

يعنى ان ما فعلته لم افعله من تلقاء نفسى ، بل أمر أمرت به من الله وأوحى الى فيه ..

هذه آراء العلماء والزهاد .. اختار العلمـاء ان يكون الخضر نبيا ، واختار العباد والزهاد والصوفية أن يكون وليا من أولياء الله ..

ومن كلمات الخضر التى أوردها الصوفية عنه .. قول وهب بن منبه : قال الخضر : يا موسى ان الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها ..

وقول بشر بن الحارث الحـافى .. قال موسى للخضر : أوصنى .. قال الخضر : يسر الله عليك طاعته ..

وتخاصم العلماء والزهاد حول الخضر .. فادعاه كل فريق لنفسه ..

ونشأ هذا الخصام من اعتبار العلمـاء أنفسـهم ورثة الأنبيـاء ، وأهل الشريعة ، ومن اعتبار الصوفية لأنفسهم أهـل الحقيقة ، التى كان يمثلهـا الخضر ..

---

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .
(٢) الآيات ٦٦ الى ٧٠ سورة الكهف مكية .
(٣) من الآية ٨٢ سورة الكهف مكية .

ونمسك نحن عن رأينا فيه ، حيرة وعجزا عن الوصول الى يقين .. فنحن نميل الى اعتباره نبيا لعلمه اللدنى ، غير اننا لا نجد نصا فى سـياق القرآن على نبوته ، ولا نجد نصـا مانعا من اعتبـاره وليـا آتاه الله بعض علمه اللدنى ..

ولعل هذا الغموض حول شخصه الكريم جـاء متعمدا ، ليخدم الهـدف الأصلى للقصة .. ولسوف نلزم مكاننا فلا نتعداه ونختصـم حول نبوته أو ولايته .. وأن أوردناه فى سياق أنبياء الله ، لكونه معلما لموسى .. وأستاذا له فترة من الزمن ..

أنبياء لبني إسرائيل
من بعد موسى

لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى .. سوى اثنين .. هما الرجلان الذان أشارا على ملأ بنى اسرائيل بدخول قرية الجبارين .

ويقول المفسرون : ان أحدهما يوشع بن نون .

وهذا هو فتى موسى فى قصته مع الخضر .. صار الآن نبيا من أنبياء بنى اسرائيل ، وقائدا لجيش يتجه نحو الأرض التى أمرهم الله بدخولها ..

وكان الله قد أمر موسى أن يجند بنى اسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء .. كما قال تعالى :

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ، وقال الله : انى معكم ، لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا ، لاكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل »[١] .

وهكذا نرى العهد مشروطا بميثاق أخذه الله عليهم ، أن يقاتلوا ولا يفروا ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسله .. ابتداء من موسى الذى أنزل الله عليه التوراة ، وانتهاء بمحمد الذى بشر الله به فى التوراة .. حين كانت هى توراة الله الحقة التى لم تمتد اليها أيدى التبديل والتحريف .

....

خرج يوشع بن نون ببنى اسرائيل من التيه ، وقصد بهم الأرض المقدسة .

قطع بهم نهر الأردن وانتهى الى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سورا وأعلاها قصورا وأكثرها أهلا . فحاصرها ستة أشهر .. ثم أحاطوا بها يوما وهم يضربونها بالأبواق .. فتفسخ سورها وسقط دفعة

---

(١) الآية ١١ سورة المائدة مدنية .

واحدة .. وســنلاحظ ان الســلاح الذى استخدم فى أول معــاركهم كان متقدما لدرجة مذهلة ، فقد استغل المهاجمون قوة الصــوت لأول مرة كسلاح . ان ذبذبات الصوت الخارج من الأبواق هى التى حطمت أسوار المدينة ، ولســنا نعلم هل أوحى الله ليوشع بن نون بهــذا التصرف ، أم أنه رأى ارتآه القائد ، أم أن الأمر جاء محض مصــادفة .. ظلوا ينفخون فى الأبواق والقرون طوال ســتة أشهر هى فترة الحصــار ، حتى فوجئوا بســقوط الأسوار .

تروى الأســاطير هنا حكايات عن الشمس التى توقفت عن الدوران حتى انتهى يوشع بن نون من فتح الأرض المقدســة . وهى أساطير نسجتها المخيلة الشعبية لليهود ، وهى متهافتة الى الحد الذى لا يصــمد للنقاش ، فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يتوقفان لموت أحــد ولا لحياته ، ورغم عظمة الخوارق والمعجزات التى وقعت لبنى اسرائيل ، فقد كانت كلها معجزات لا تتعارض مع ناموس الكون ونظامه .. لم تكن هنــاك معجزة تتعلق بالشمس أو القمر .. لم تجــاوز المعجزات أديم الأرض أو البحر أو الجبــل .

....

صدر الأمر الالهى لبنى اسرائيــل أن يدخلوا المدينــة ســجدا .. أى راكعين مطأطئى رؤوسهم شــاكرين لله عز وجل ما من به عليهــم من الفتح .

أمروا أن يقولوا حال دخولهم ، ((**حطة**)) [١] .

بمعنى حط عنا خطايانا التى سلفت ، وجنبنا الذى تقدم من آبائنا ..

وخالف بنو اسرائيل ما أمروا به قولا وفعلا .

دخلوا البــاب متعــالين متكبرين ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم . وأصابهم عذاب من الله بما ظلموا . كانت جريمة الآباء هى الذل ، وأصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء .

قال تعــالى :

((واذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ، وقولوا حطة ، وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم ســنزيد المحسنين . فبــدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيــل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون))[٢] .

ولم تكن هــذه الجريمة هى أول جرائم بنى اسرائيل ولا آخر جرائمهم ، فقد عــذبوا رسلهم كثيرا بعد موسى ، وتحولت التوراة بين أيديهم الى قراطيس يبدون بعضها ويخفون كثيرا .. وامتــد هذا اللعب الى العقيدة .. وسجل القرآن عليهم هذا فى سورة الأنعام :

---

(١) لفظ من الآية ١٦١ سورة الاعراف مكية .
(٢) الآيتان ١٦١ ، ١٦٢ سورة الاعراف مكية .

« وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهـدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل : الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون »[١] .

واذا كان الخطاب ينطبق على أحفاد بنى اسرائيل الذين عاشـوا فى الجزيرة العربية ، فقد كان واضحا من تاريخ بنى اسرائيل ذاته ، أن التوراة لم تسلم من هـذا العبث ، باخفاء بعضها واظهار البعض ، حسـبما تقضى الأحوال وتدفع المصلحة المباشرة ، وكان هـذا الجحود هو المسئول عمـا أصـاب بنى اسرائيل من عقوبات .

عاد بنو اسرائيل الى ظلمهم لأنفسهم .. اعتقـدوا أنهم شـعب الله المختار ، وتصوروا انطلاقا من هـذا الاعتقـاد أن من حقهم ارتكاب أى شىء وكل شىء .. وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعـد كتابهم الى انبيائهم ، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء ..

« وقتلهم الأنبياء بغير حق [٢] .

وسلط الله عليهم بعد رحمة الأنبياء قسـوة الملوك الجبارين ، يظلمونهم ويسـفكون دماءهم ، وسـلط الله أعـداءهم عليهم ومكن لهم من رقـابهم وأموالهم .. وكان معهم تابوت الميثـاق .. وهو تابوت يضـم بقية ممـا ترك موسى وهارون ، ويقال ان هـذا التابوت كان يضـم مـا بقى من الواح التوراة التى أنزلت على موسى ونجت من يد الزمان .. وكان لهـذا التابوت بركة تمتـد الى حياتهم وحروبهم ، فكان وجود التابوت بينهم فى الحرب .. يمدهم بالسـكينة والثبات ، ويدفعهم الى النصر ، فلما ظلموا انفسهم ورفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاء نسختها معهم ، وهكذا ضـاع منهم تابوت العهـد ، ضـاع فى حرب من حروبهم التى هزموا فيهـا .

وسـاءت أحـوال بنى اسرائيـل بسـبب ذنوبهم وتعنتهم وظـلمهم لأنفسـهم ..

ومرت سـنوات وسنوات ..

واشتدت الحاجة الى ظهور نبى ينتشلهم من الوهـدة السحيقة التى أوصلتهم اليها فواجع الآثام وكبـائر الخطايا .

---

(١) الآية ٩١ سورة الانعام مكية والآية مدنية .
(٢) من الآية ١٥٥ سورة النساء مدنية .

داود

[عليه الصلاة والسلام]

مرت سنوات عديدة على وفاة موسى عليه السلام ، وجاء بعده انبياء وماتوا .. وانهزم ابناء اسرائيل بعد موسى . وضاع منهم كتابهم المقدس وهو التوراة .. حين غربت التوراة من الصدور ، نزعت من الأيدى ..

استولى أعداؤهم على تابوت العهد وفيه بقية مما ترك آل موسى وهارون . وتشرد بنو اسرائيل وطردوا من ديارهم وأرضهم وساءت حالهم . وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم الا امرأة حامل ، جعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا . فولدت غلاما فسمته أشموئيل .. ومعناه بالعبرانية اسماعيل .. اى سمع الله دعائى .. فلما ترعرع بعثته الى المسجد وأسلمته لرجل صالح ليتعلم منه الخير والعبادة. فكان عنده ، فلما بلغ أشده ، بينما هو ذات ليلة نائم : اذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورا ظانا أن الشيخ يدعوه ، فهرع اليه يسأله : ادعوتنى .. فكره شيخه أن يفزعه فقال : نعم .. نم .. فنام .

ثم ناداه الصوت مرة ثانية .. وثالثة .

وانتبه الى جبريل عليه السلام يدعوه .

ـ ان ربك قد بعثك الى قومك .

لهذا النبى الكريم ذهب بنو اسرائيل يوما ..

سألوه : ألسنا مظلومين ؟

قال : نعم ،

قالوا : ألسنا مشردين ؟

قال : نعم ..

قالوا : ابعث لنا ملكا يجمعنا تحت رايته كى نقاتل فى سبيل الله ونستعيد أرضنا ومجدنا .

قال نبيهم وكان أعلم بهم :

ــ هل أنتم واثقون من القتــال لو كتب عليكم القتال ؟

قالوا : ولمـــاذا لا نقـــاتل فى ســبيل الله ، وقد طردنا من ديارنا ، وتشرد أبناؤنا ، وســاء حالنا .

قال نبيهم : ان الله قد بعث لكم « طالوت » ملكا .

قالوا : كيف يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، وليس غنيــا وفينا من هو أغنى منه ؟

قال نبيهم .

ــ ان الله اختاره عليكم وزاده بســطة فى العلم والجســم .. والله يؤتى ملكه من يشـــاء .

قالوا : ما هى آية ملكه ؟

قـــال :

ــ ستعود اليكم التوراة التى سلبها منكم العدو .. سيحملها الملائكة اليكم .. هـــذه هى آية ملكه ..

ووقعت هـــذه المعجزة . وعـــادت اليهم التوراة يوما . وبدأ تــكوين جيش « طالوت » وكان طالوت قد جهز جيشـــه ليحـــارب « جالوت » .. وكان جالوت مبارزا جبارا لا يهزمه أحد ، ولا يناله أحد ..

ثم تجهز جيش طالوت ، وســـار الجيش طويلا وســـط صـــحراء وجبال حتى أحس الجنود بالعطش ..

قال الملك طالوت لجنوده : سنصادف نهـــرا فى الطـــريق ، من شرب منـــه فليخرج من الجيش ، ومن لم يذقه وبل ريقه بيـــده فقط فليبق معى فى الجيش ..

وجاء النهر فشرب معظم الجنود ، وخرجوا من الجيش ، وكان طـــالوت قد أعد هـــذا الامتحان ليعرف من يطيعه من الجنود ومن يعصـــاه ، وليعرف أيهم قوى الارادة ويتحمـــل العطش ، وأيهم ضـــعيف الارادة ويســـتسلم بسرعة ، وقال طالوت لنفســـه : الآن عرفنـــا الجبناء ولم يبق معى الا الشـــجعان ..

صحيح أن عـــدد الجيش قد انكمش ولكن المهم فى الجيش هو الشجاعة والايمان لا العـــدد والســـلاح ..

وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووقف جيش طـــالوت أمـــام جيش عـــدوه جـــالوت ..

وكان عـــدد أفراد جيش طـــالوت قليـــلا ، وكان جيش العـــدو كبيرا وقويا .. وقال بعض الضعفاء من جنود طالوت :

ــ كيف نهزم هـــذا الجيش الجبار .. ؟!

قال المؤمنون من جيش طالوت :

ــ المهم فى الجيش هو الايمان والشجاعة ..

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .

....

....

قال تعــالى :

« ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعــد موسى ، اذ قــالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين .

وقال لهم نبيهم : ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجســم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم .

وقال لهم نبيهم : ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه ســكينة من ربكم ، وبقية ممــا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

فلما فصــل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه الا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنــوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئــة كثــيرة باذن الله والله مع الصــابرين » [1] .

....

....

وبرز جالوت فى دروعه الحديدية ، ومعه سيفه وفأســه وخنجره ، وهو يطلب احــدا يبارزه .. وخاف منه جنود طالوت جميعا .. وهنــا برز من جيش طالوت راعى غنم صــغير هو « داود » .. كان « داود » مؤمنا بالله ، وكان يعلم أن الايمــان بالله هو القوة الحقيقية فى هذا الكون ، وان العبرة ليست بكثرة السلاح ، ولا ضخامة الجسم ومظهر الباطل .

وتقدم داود يطلب من الملك طالوت اذنه لمبارزة جالوت ..

ورفض الملك فى اليوم الأول .. لم يكن داود جنــديا انمــا كان راعى غنم صغير ، ولم تكن له خبرة فى القتال أو الحرب ، ولم يكن عنده سيف ، كل سلاحه كان قطع الطوب التى يهش بها على غنمه .. ورغم هذا

---

(1) الآيات ٢٤٦ الى ٢٤٩ سورة البقرة مدنية .

كله كان داود يعرف أن الله هو مصـــدر القوة الحقيقية فى هـــذه الدنيا ، ولما كان مؤمنا بالله فهو اذن أقوى من جالوت .

وجاء اليوم الثانى وطلب « داود » الاذن بقتـــال جـــالوت ، وأذن له الملك ، قال له : لو قتلته فسوف تصيرا قائدا على الجيش وتتزوج ابنتى ..

ولم يكن داود يهتم كثيرا لهـــذا الاغراء . كان يريد أن يقتـــل جـــالوت لأن جالوت رجل جبـــار وظالم وعدو ولا يؤمن بالله ..

وسمح الملك لداود أن يبارز جـــالوت ..

وتقدم داود بعصـــاه وخمسة أحجار ومقلاعه « وهو نبلة يستخدمها الرعاة » .. تقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع .. وسخر جالوت من داود وأهانه وضحك منه ومن فقره وضعفه ، ووضـــع داود حجرا قويا فى مقلاعهوطوح به فى الهواء وأطلق الحجر .

كانت الرياح صـــديقة لداود لانه يحب الله ، وحملت الرياح الحجر نحو جبهة جـــالوت فقتله الحجر . ســـقط جالوت المدجج بالســـلاح على الأرض وتقـــدم منه الراعى الطيب داود فأخذ سيفه ، وبدأت الحرب بين الجيشين .

بدأت بين جيش قتـــل قائده واســـتقر طائر الرعب فى قلوب جنوده ، وجيش آخر يقوده راعى غنم بسيط .

قال تعـــالى :

« ولما برزوا لجالوت وجنـــوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفســـدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العـــالمين » [1] .

بعد أن قتل داود جالوت :

قفز الى قمـــة الشـــهرة فى قومه فجاة . صـــار اشـــهر رجـــل فى بنى اسرائيل ، صـــار قائدا للجيش ، وزوجـــا لابنـــة الملك ، غير أن داود لم يكن ليفرح بهـــذا كله ، لم يكن من أسرى الشهرة أو المجد أو الرئاسة .. كان أسيرا قديما لحب الله عز وجل ..

وكان داود قد أوتى صـــوتا خارقا فى جماله .. وكان داود يسبح الله ويمجده بصـــوته العذب المعجز ..

ولهـــذا اختفى داود بعد أن هزم جالوت ..

ذهب الى الجبل والصحراء .. وهنـــاك وجد نفسه بين أحضان الوجود البكر .. فى عزلة ســـاهرة يحييها بالانابة الى الله وتمجيده .

قال تعـــالى فى سورة سبأ :

« ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير ، وألنا له

---

(1) الآيتان ٢٥٠ ، ٢٥١ سورة البقرة مدنية .

الحديد ، ان اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير »[1] .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء :

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون »[2] .

....

....

نحن أمام معدن بشرى من لون خاص . انسان بلغ من شفافية النفس والتجرد أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات ، فاستجابت عصارة النباتات وهى تصعد فى سيقان الشجر لصوت ترنيمه .. واتصلت ذرات الجبال بذبذبات صوته وهو يسبح ، وذابت الحدود بين ضمير المخلوق والطير والوحش وصخور الجبال ، فاتسقت كلها فى نغم واحد يتجه الى الله بالتسبيح والتمجيد والذكر .. كان داود يملك نفسا تستطيع أن تمتزج امتزاجا صوفيا بغيرها من نفوس الكائنات ، حتى ما نتصور انه لا يملك نفسا كالجبال والصخور ..

كان داود اذا جلس يسبح الله ، ويمجده .. تعرت الكائنات من اطار الوجود الجامد ، وانكشف باطنها المترنم بمجد الله ، واستجاب هذا الباطن للنغم الصادر من داود .

واختار الله داود نبيا .. وآتاه الزبور ..

قال تعالى :

« وآتينا داود زبورا » [3] .

والزبور كتاب مقدس كالتوراة .

ويقرأ داود من كتابه ويسبح الله وتشترك معه الجبال فى التسبيح .. وتحشر له الطير ..

قال تعالى :

« واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب . انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »[4] .

....

....

الصحراء تمتد حتى تلتقى بالأفق .

---

(1) الآية ١٠ مكية .
(2) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ مكية .
(3) من الآية ٥٥ سورة الاسراء مكية .
(4) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ سور ص مكية .

هـــذا يوم صيام داود .

يصـــوم النبى الملك يوما ويفطر يوما .. هذا صـــيام الدهر .. دوابه تسرج ، وهو يقرأ من كتابه .. يرتل آيات من الزبور .. تسبح الجبـــال معه .. ليس صـــدى صـــوته هو الذى يسمعه . ان صـــدى الصوت هو الصوت نفســـه مكررا .. أما الجبال فهى تكمل له ترتيل الآيات .. وأحيانا يســـكت هو فتكمل هى التسبيح .. ولم تكن الجبال وحدها هى التى تسبح معه .. كانت الطيور أيضا تشترك فى التسبيح . كان داود اذا بدأ قراءة كتابه المقـــدس اجتمعت حوله الطيـــور والوحوش والأشـــجار وسبحت الجبـــال .

لم يكن صـــدق داود هو وحـــده المسئول عن تسبيح الجبـــال معه أو الطير .. لم تكن عذوبة صـــوته هى المســـئولة عن تسبيح بقية المخلوقات معه .. انما كان هـــذا معجزة من الله له كنبى عظيم الايمان ، صادق الحب لله .. ولم تكن هذه وحدها كل معجزاته .. انما أعطاه الله قدرة على فهـــم لغة الطيور والحيوانات .. كان يتأمل يوما فسمع عصـــفورا يخـــاطب عصفورا آخر .. واكتشف انه يفهم لغة العصفورين .. قذف الله فى قلبه نورا ففهم لغة الطيور ولغة الحيوانات ، وكان داود يحب الحيوانات والطيور ويعطف عليها ويطعمها ويداويها اذا مرضت ، وكانت الطيور والحيـــوانات تحبه وتقصـــده . ومع لغة الطيور علم الله داود الحكمة .. وكان داود اذا علمه الله شـــيئا أو أعطـــاه معجـــزة زاد فى حبه لله ، وزاد من شـــكره لله ، وزاد من ايمانه بالله ، وزادت عبادته لله .. حتى أصبح يصوم يوما ويفطر يوما ..

وأحب الله داود ومنحه ملكا عظيما .. وكانت مشـــكلة قومه هى كثرة الحروب فى زمانهم ، وكانت الدروع الحديدية التى يصنعها صناع الدروع ثقيلة ولا تجعل المحارب حرا يستطيع أن يتحرك كمـــا يشـــاء أو يقـــاتل كمـــا يريد ..

يقولون ان داود جلس يوما يفكر فى هـــذه المشكلة ، وأمامه قطعة من الحديد يعبث بها بيديه .. ثم اكتشف فجـــأة أن يده تغوص فى الحديد .. الان الله له الحديد ، فراح يقطعه ويشـــكله قطعا صغيرة يصلها بعضها ببعض ، حتى اذا انتهى كان أمامه درع جـــديد من الحديد .. درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة ، وتحمى جســـده من السيوف والفؤوس والخناجر .. أفضـــل من الدروع الموجودة أيامها ..

ويقال فى ذلك ان الله ألان له الحديد بمعنى انه كان أول من اكتشـــف أن الحديد ينصهر بالنار ويمكن تشكيله آلاف الأشـــكال .. ونطمئن لهـــذا التفسير أكثر

وسجد داود شكرا لله .

وبدأت المصانع تعمل فى صناعة الدروع الجديدة .. حتى اذا انتهت منها ســـلمت لجيشـــه واكتشف أعداء داود وجيوشهم ان سيوفهم لا تؤثر فى هـــذه الدروع ، وأن دروعهم ثقيلة ، وتنفذ منها السيوف .. انها تمنعهم من الحركة ولا تحميهم من القتـــل ، بعكس الدروع التى صنعها داود .

وفى كل المرات التى حـــارب فيها جيش داود أعـــداءه ، كان النصر

ينعقد لداود وجيشـــه .. لم يدخل داود معركة الا انتصر فيها ، وكان يعلم ان هــذا النصر من عنــد الله .. وكان يزيد من شــكره لله ويزيد من تسبيحه لله ويزيد حبا لله .

وعندما يحب الله نبيا من انبيائه أو عبــدا من عباده ، يجعــل النــاس يحبونه ويضـــع له القبول فى الأرض .. وأحب الناس داود مثلما أحبته الطيور والحيوانات والجبال .. وكان داود أيامها اكثر مخلوق يحبه الناس وتحبه الطيور والجبال .

ورأى الملك هــذا فثارت فى نفســه الغيرة .. وبدأ يحاول ايذاء داود وقتله .. وجهز جيشا ليقاتل داود . وفهم داود أن الملك يغار منــه .. ولهــذا لم يحارب الملك . كل ما فى الأمر أنه أخــذ سيف الملك وهو نائم ، وقطع جزءا من ثيابه بالسيف ثم ايقظ الملك وقال له :

ـــ أيها الملك .. لقد خرجت لقتلى ، وانا لا اكرهك ولا اريد قتلك ، ولو كنت أريد أن اقتلك لفعلت هذا وأنت نائم ، هــذه قطعــة من ثيــابك قطعتها وأنت نائم وكنت اســتطيع أن اقطع رقبتك بــدلا منهـــا ، ولكنى لم افعل .. انا لا أحب أن أؤذى أحــدا .. ان رسالتى هى الحب وليســت الكراهيـــة .

وأحس الملك انه أخطأ وطلب من داود العفو وتركه ومضى ..

ثم مرت الأيام وقتــل هــذا الملك فى حرب لم يشترك فيها داود ، لأن الملك كان يغار منه ورفض الاستعانة به .. وصار داود بعد ذلك ملكا .. تذكر الناس كل مافعله من أجلهم واختــاروه ملكا عليهــم ، وبذلك كان داود نبيــا أرســله الله وملكا فى نفس الوقت .. ولم يـــزد الملك داود الا شـــكرا لله ، وعبــادة لله ، وحبا فى الخير وفعلا للخير ، واحسانا الى الفقراء ، ورعاية لمصالح الناس وراحتهم .

وشد الله ملك داود .. جعله الله منصـــورا على أعدائه دائما ، وجعل ملكه قويا عظيما يخيف الأعداء حتى بغير حرب .. وزاد الله من نعمه على داود فأعطاه الحكمة وفصــل الخطاب ، أعطاه الله مع النبوة والملك حكمة وقدرة على تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق ومساندته .

وكان لداود ابن ســـماه ســـليمان .. وكان ســـليمان ذكيا من طفولته وصـــباه .

كان عمر سليمان احدى عشرة سنة حين وقعت هذه القصة ..

قال تعالى فى سورة الأنبياء :

«وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شـــاهدين . ففهمناها ســـليمان ، وكلا آتينا حـــكما وعلما ..» [1]

---

(1) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ مكية .

جلس داود كعادته يوما يحكم بين الناس فى مشاكلهم .. وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر ..

وقال له صاحب الحقل :

ـ سيدى النبى .. ان غنم هذا الرجل نزلت حقلى أثناء الليل ، وأكلت كل عناقيد العنب التى كانت فيه .. وقد جئت اليك لتحكم لى بالتعويض .

قال داود لصاحب الغنم : هل صحيح ان غنمك أكلت حقل هذا الرجل ؟

قال صاحب الغنم :

ـ نعم ياسيدى ..

قال داود : لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذى اكلته .

قال سليمان .. وكان الله قد علمه حكمة تضاف الى ما ورث من والده :

عندى حكم آخر يا أبى ..

قال داود :

ـ قله ياسليمان ..

قال سليمان : أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذى أكلته الغنم .. ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه ، فاذا كبرت عناقيد العنب وعاد الحقل سليما كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه ..

قال داود : هذا حكم عظيم ياسليمان .. الحمد لله الذى وهبك هذه الحكمة .. انت سليمان الحكيم حقا .

وكان داود رغم قربه من الله وحب الله له ، يتعلم دائما من الله ، وقد علمه الله يوما الا يحكم أبدا الا اذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين ..

جلس داود يوما فى محرابه الذى يصلى لله ويتعبد فيه ، وكان اذا دخل حجرته أمر حراسه الا يسمحوا لأحد بالدخول عليه أو ازعاجه وهو يصلى .. ثم فوجىء يوما فى محرابه أنه أمام اثنين من الرجال .. وخاف منهما داود لأنهما دخلا رغم انه أمر الا يدخل عليه احد .. سألهما داود : من أنتما ؟

قال أحد الرجلين : لا تخف ياسيدى .. بينى وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق ..

سأل داود : ما هى القضية ..

قال الرجل الأول :

ـ ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة .. وقد أخذها منى . قال اعطها لى واخذها منى ..

وقال داود بغير أن يسمع رأى الطرف الآخر وحجته :

ـ لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه .. وان كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا الا الذين آمنوا .

وفوجىء داود باختفاء الرجلين فجـأة من أمامه .. اختفى الرجـلان كما لو كانا سـحابة تبخرت فى الجو . وأدرك داود أن الرجلين ملكان أرسلهما الله اليه ليعلماه درسـا .. فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس الا اذا سمع أقوالهم جميعا ، فربما كان صـاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق .. وخر داود راكعا ، وسجد لله ، واستغفر ربه ..

قال تعـالى :

« وهل اتاك نبا الخصم اذ تسـوروا المحراب . اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ، ذلك وان له عنـدنا لزلفى وحسـن مآب »[1] .

....

....

نسجت أسـاطير اليهود قصصا مريبة حول فتنة داود عليه السلام .

قيل انه اشتهى امرأة أحد قواد جيشـه فأرسله فى معركة يعرف من البداية نهايتها ، واستولى على امرأته ..

وليس أبعد عن تصرفات داود من هـذه القصـة المختلقة ..

ان انسـانا يتصـل قلبه بأبعد نجوم السـماء ويتصـل تسـبيحه بتسبيح الكائنات والجمـادات ، يستحيل عليـه أن يرى أو يـلاحظ جمالا بشريا محصـورا فى وجه امرأة أو جسـدها .

ان من يرى الجمال الأصيل فى الكون ويتصـل مباشرة به ويخضـعه لتسبيحه ، يستحيل عليه أن يخضع لغريزة اقتناء امرأة .

كان داود عبدا لله وحـده . ولم يكن ممكنا له أن يصير عبدا لغرائزه كما تحكى الاسرائيليات عنه .

....

....

عاد داود يعبد الله ويسبحه ويتغنى بحبه ويمجـده حتى مات ..

---

(١) الآيات ٢١ الى ٢٥ سورة ص مكية .

كان داود يصـــوم يوما ويفطر يوما .. قـــال رســـول الله محمـــد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عن داود : « أفضـــل الصيام صيام داود . كان يصـــوم يوما ويفطر يوما . وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا ، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفســـه ويبكى ببكائه كل شىء ويشفى بصوته المهموم والمحموم » ..

....

....

مات داود عليه الســـلام فجاة كما تقول الروايات .

وشيع جنازته يومئذ أربعون الف راهب فى أرديتهم التقليدية ، مع آلاف غيرهم من الناس . ولم يمت فى بنى اسرائيل بعد موسى وهارون أحـــد كانت بنو اسرائيل اشد جزعا عليه .. منهم على داود .

وآذت الشمس الناس فدعا سليمان الطير قال :

ــ اظلى على داود .

فاظلته حتى اظلمت عليه الأرض .

وسكنت الريح .

وقال سليمان للطير : أظلى الناس من ناحيـــة الشمس وتنحى من ناحيـــة الريح . وأطاعت الطير . فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان .

سليمان
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة النمل :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين »[١] .

....

« وورث سليمان داود »

ورثه فى النبوة والملك . ليس المقصود وراثته فى المال ، لأن الأنبياء لا يورثون . انما تكون أموالهم صدقة من بعدهم للفقراء والمحتاجين ، لا يخصون بها أقرباءهم .

قال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم « نحن معشر الأنبياء **لا نورث »** .

وورث سليمان داود فى النبوة ، وهذا مفهوم ، فقد اختاره الله عز وجل نبيا الى بنى اسرائيل ، أيضا منحه الله الملك عليهم ، ولعل أخطر شىء ورثه سليمان عن داود تلك التقاليد العسكرية التى أرساها داود . وهذا التقدم الساحق الذى انتقل الى سليمان من ملك داود . كان داود فى الأصل راعى غنم فقيرا . لكنه تحول مع الوقت الى قائد عسكرى ليس له مثيل ، وتم هذا التحول بالهام من الله وعون منه وتأييد ، كان داود فى البداية يدرك أن القوة الحقيقية الحاكمة فى الوجود هى قوة الله تعالى ، وحين مد يده وأمسك بقطعة الحجر وقذفها بمقلاعه نحو جالوت ، كان هذا ايذانا بتحول موازين القوة .. وتغير وضع الجيش فى بنى اسرائيل من شراذم تفر أمام أعدائها الى جيش حقيقى له وجوده . وقد وقعت فى حياة داود معارك عسكرية عديدة ، لا يحدثنا القرآن عنها بالتفصيل ، فالقرآن كتاب دعوة الى الله وليس كتابا فى التاريخ ، غير أن القرآن يكتفى بأن يقول عنه **« وشددنا ملكه »** [٢] وتعنى الآية أنه لم ينكسر فى معركة من

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ مكية .
(٢) من الآية ٢٠ من سورة ص مكية .

معاركه ابدا . والى جوار تأييد الله تعالى لداود .. وجيشه وشعبه ، بوصفهم موحدين قد أسلموا وجوههم لله .. كشف الله تعالى لداود عن أمور جعلت لجيشه ميزة تفوق ساحق على غيره من جيوش الأرض وقتئذ .

قال تعالى :

« وألنا له الحديد »[١] ..

ان مسألة الدروع الحديدية التى تصنع من حلقات تتيح للمقاتل حرية الحركة .. كانت فى ذلك الزمان البعيد طفرة هائلة فى الحروب .. وتصور أنت اثنين من المحاربين ، أحدهما يتحرك بدرعه فى حرية كاملة كأنه لا يرتدى شيئا من الدروع ، بينما يئن المحارب الثانى تحت ثقل دروع تعوقه وتشل حركته .

هذا التقدم الخطير الذى منحه الله تعالى لداود وجيشه .. انتقل الى ملك سليمان ..

وهكذا ورث سليمان جيشا متقدما على غيره من جيوش الأرض . كما ورث دولة قوية .. وزاد الله سليمان .

« وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين »[٢] .

ولسوف نحس ونحن نمضى على الصفحات المشرقة التى أوردها القرآن عن سليمان .. أننا نواجه العصر الذهبى لبنى اسرائيل ..

عصر نبيهم وملكهم سليمان ..

. . . .

. . . .

لم يكتف سليمان بما ورثه من داود ، حركه الطموح النبيل نحو ما هو أكثر .

ومد يديه يوما لله وسأل .. وليس بين قلب النبى وبين الله حاجز أو مسافة أو زمن . لا يكاد أحد الأنبياء يدعو الله حتى تتحقق دعوته . ان صفاء القلب حين يبلغ درجة معينة يستطيع دائما أن يجد طريقه الى الله .

قال سليمان فى دعائه :

« رب اغفر لى ، وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى »[٣] .

كان سليمان يريد من الله تعالى ملكا لا يعطيه لأحد من خلقه بعد ذلك .

---

(١) من الآية ١٠ سورة سبأ مكية .
(٢) من الآية ١٦ سورة النمل مكية .
من الآية ٣٥ سورة ص مكية .

وقد استجاب الله تعـــالى لعبده ســـليمان ومنحه هذا الملك .

من حق أبناء هــذا الزمان أن يســألوا : لماذا أراد سليمان هــذا الملك العريض الذى لا ينبغى لأحد من بعده .

أكان سليمان بمنطق عصرنا رجلا مولعا بالسلطة ، حريصا على المجـد الذى توفره ، تواقا الى الحكم والتحكم ؟

لن نجـد فى قلب سليمان شيئا من هــذا كله .

ان طموح ســليمان للملك كان طمــوح نبى أولا واخيرا .. ولا يتعلق قلب النبى الا بما يحقق لدعوته الانتشـــار فى الأرض .. ولم يكن سليمان عاشقا للملك المجرد ، تواقا الى الكبرياء والعظمة ، انما كان يــريد الملك ليحارب الظلام الذى انتشر فى الأرض ، وينشر نور الاســلام الذى تتكرم به السماء على الأرض حين تبعث رسولا .. تأمل كلمة سليمان لبلقيس وهو يحـــاورها حول عرشها فى سورة النمل :

فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك .

قالت : كأنه هو !

« **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** »[1] ..

هذه كلمة ســـليمان الحكيم .. وهى الكلمة التى تبرر فى اعتقـــادنا طلبه للملك والرياســـة والقوة .. لقد سخر ســـليمان كل مجــده وملكه للدعوة الى الله .. ونشر الاســـلام .. الم تقل ملكة سبأ فى ختـــام قصتها مع ســـليمان :

« **رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** »[2].
سورة النمل .

....

بعد هــذه المقــدمة الأساسيه .

نقلب صفحات النبى الملك سليمان ..

ورث سليمان داود فى الملك والنبوة والحكمة .. أطلق عليه النـــاس اســم « **سليمان الحكيم** » .

ولم تكن حكمة سليمان مقصورة على عدله بين الناس ، ورحمته بهم ، وحكمه فى قضاياهم بالحق ، انمـــا تجاوزت حكمته عالم البشر الى عالم الطيور والحيوانات ..

كان داود يعرف لغة الطيور ، لكن ســـليمان كان يتكلم مع الطيــور ويوظفها فى خدمته .

---

(١) الآية ٤٢ مكية .
(٢) من الآية ٤٤ مكية .

وكان داود اذا سبح .. سبحت معه الجبال والوحوش والطيور ، وتوقفت الرياح لتستمع الى هذا التسبيح العظيم أما سليمان فزاده الله على ذلك أن سخر معه الوحوش واخضع له الرياح والطيور ..

قال الله تعالى :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين » [١] .

كان سليمان يستطيع أن يسمع همس نملة تحدث نملة أخرى .. كما كان يستطيع ان يأمر هذه النملة فتطيع اوامره ..

وكان جيش سليمان ارهب الجيوش فى العالم ، لن يعرف العالم جيشا بهذه القوة ، ولئن كانت الجيوش تستمد قوتها من تماثل جنودها فقد استمد جيش سليمان قوته من اختلاف جنوده ، كان الجيش يتكون من خليط مدهش يجعله جيشا لا يقاوم .

كان جيشه يتكون من البشر .. ومن الجن ، ومن الطير . ونحن نعرف أن الجن مخلوقات خلقها الله وليس فى استطاعة البشر رؤيتها أو استحضارها أو الاستعانة بها .. أما سليمان النبى عليه السلام فقد أعطاه الله وحده هذه القدرة .. القدرة على تسخير الجن وتوظيفهم جنودا فى جيشه أثناء الحرب ، وعمالا فى مملكته اثناء السلام ، والجن مخلوقات لا تظهر فتخيل انت جيشا جنوده غير ظاهرين ..

ان قتال مثل هذا الجيش مستحيل ، كان جيشه يضم أيضا الطيور .. وكانت الطيور فى جيش سليمان تلعب نفس الدور الذى تلعبه أجهزة الاستطلاع والمخابرات فى الجيوش الحديثة .. ونحن نعرف أن دور الاستطلاع فى الحرب هو أهم دور ، فمن هذه الأجهزة يعرف الجيش المقاتل حقيقة عدوه .. وكان هذا دور الطيور فى جيش سليمان ، كانت تطير الى جيوش الأعداء ، ثم تعود لسليمان باخبار اعدائه كلها ..

ومع الجن والطيور .. سخر الله سبحانه وتعالى الرياح لسليمان .. كان يتحكم فيها ويستطيع أن يركبها هو وجنوده .. ونحن نعرف الآن أن فكرة الطائرات هى استغلال الهواء بحيث يمكن للطائرة أن تطير فيه رغم أنها اثقل منه . وقديما .. أعطى الله لسليمان هذه القدرة على تسخير الرياح له واستخدامها فى اغراضه . وبذلك كان جيش سليمان يضم جنودا طائرين فى وقت لم يكن هناك من يحلم بالطيران فيه . ولعل هذه المعجزة التى وهبها الله لسليمان كانت سببا فى مجده العسكرى .. فقد صار جيشه لا يقاوم ..

قال تعالى :

« وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون »[٢] [سورة النمل] .

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ سورة النمل مكية .
(٢) الآية ١٧ مكية .

وقال تعـــالى :

« **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص • وآخرين مقرنين فى الأصفاد • هــذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حســاب • وان له عنـدنا لزلفى وحسـن مآب** »[١] .

[ســورة ص] .

سنعرف أن سليمان سيهجر فكرة استخدام الخيـل فى الجيش ، بعد أن تعطله الخيل يوما عن الصــلاة .

حين ترك سليمان الخيل ابتغاء وجه الله عوضـه الله عنها بالريح التى تجرى بأمره الى أى بقعة يريدها من البلاد . ومع ســلاح الطيران الذى أوتيه سليمان ، أعطى الله تعــالى لسليمان مقــدرة لم يعطها لأحـد من أنبيائه قط . هى المقــدرة على التحكم فى الشياطين . والشياطين نوع من الجن . هو النــوع الشقى من الجن . وهــذا نوع لا يستطيع البشر التحكم فيه ، ولا يستطيع الجن الصــالح نفسـه التحكم فيه . أما سليمان فقد وهبه الله قدرة على تسخير الشياطين وتشغيلها وتقييدها بالســلاسل وتعذيبها اذا عصت أوامره . وكانت الشياطين تبنى له القصـور والدور والقدور والتماثيل والمحاريب .. وكانت تغوص له فى أعمــاق البحــار وتستخرج اللؤلؤ والمرجان والياقوت ..

وكان من يتمرد من الشياطين يقيد فى الأصــفاد ليكون اشــارة الى مجد سليمان وقــدرته على التحكم فى الكائنات .. وهى قدرة أوتيها باذن ربه كمعجزة منه سبحانه .

قال تعــالى :

ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير • يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات »[٢] .

[ســورة سبأ] .

وجاء على الأرض وقت .. فاذا ســيدها بغير منــازع هو ســليمان الحــكيم .

ومع هذه النعم المثيرة الخاصة التى أنعم الله بها على سليمان .. كان سليمان أكثر الناس ذكرا لله ، واكثر الناس شــكرا لله فى زمانه . قال تعالى عن سليمان : « **نعم العبد انه أواب** »[٣] والأوبة هى المودة الدائمة الى الله بالصــلاة والصيام والتسبيح والبكاء والاستغفار والحب . والعبد الأواب هو العبد المتجه الى الله دائما . ولقد كانت أوقات الصــلاة عنـد

---

(١) الآيات من ٣٦ الى ٤٠ مكية .
(٢) من الآية ١٢ مكية .
(٣) من الآية ٣٠ سورة ص مكية .

سليمان أمرا خطيرا لا يشغله عنه شيء .. وفى المرة الوحيـدة التى فاته فيها وقت الصلاة .. كان هذا رغم ارادته ..

كان مشغولا ساعتها بأمر خطير هو الاعـداد للحرب .. كان الوقت عصرا ، وراح سليمان يستعرض خيل الجنود والضباط . وكانت الخيـل سلاحا هاما فى جيشـه . ومر سليمان على الخيل وهو يفحصـها حتى كادت صلاة العصر تفوت . وسجد سليمان لله ، وصلى ثم أمر أن يردوا اليه الخيل ، فراح يمسح على أعناقها وأرجلها بيده وهو يعتذر لله من أن الاعداد للجهاد والحرب والغزو كاد يفوت عليه وقت الصلاة .

من يومها استغنى سليمان عن الخيـل فى جيشـه .. فعوضـه الله عنها بالريح التى تحمله وتحمل جنوده حيث يشـاء .

قال تعالى فى سورة [ص] :

« ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد أنه أواب . اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال : انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على ، فطفق مسحا بالسوق والأعنـاق » [١] .

وكان سليمان يعرف أمراض الخيل ويستطيع أن يتحـدث معها بلغتها ويفهم منها وتطيع أوامره .

وأنعم الله تعالى على سليمان بنعمة أخرى ..

قال تعـالى :

« وأسلنا له عين القطر » [٢] ..

والقطر هو النحاس المذاب .. مثلما انعم على والده داود بأن ألان له الحديد وعلمه كيف يصهره .. وقد استفاد سليمان من النحـاس المذاب فائدة عظيمة فى الحرب والسلم ، فى الحرب كان يمزج النحاس بالحـديد ويصنع البرونز ، وكانوا يستخدمون الأسـلحة البرونزية فى الحروب ، كالسيوف والدروع والخناجر ، وكانت هذه الأسلحة أقوى الأسلحة أيامها .. وفى السلم كان النحاس يدخل فى صناعات المبانى وصناعات التماثيل وغيرها ..

ورغم كل هـذه النعم العظيمة والمنح الخاصـة ، فقد فتن الله تعـالى سليمان .. اختبره وامتحنه ، والفتنة امتحان دائما ، وكلما كان العبـد عظيما كان امتحانه عظيما ، فتن الله سـليمان بالمرض .. وقال الله تعالى فى ذلك :

« ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى أنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص » [٣] .

---

(١) الآيات من ٣٠ الى ٣٣ مكية .
(٢) من الآية ١٢ سورة سبأ مكية .
(٣) الآيات من ٣٤ الى ٣٧ سورة ص مكية .

اختلف المفسرون فى فتنة سليمان عليه السلام . ولعل اشهر رواية عن هذه الفتنة هى نفسها اكذب رواية ..

قيل أن سليمان عزم على الطواف على نسائه السبعمائة فى ليلة واحدة ، وممارسة الحب معهن حتى تلد كل امراة منهن ولدا يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل سليمان ان شاء الله ، فطاف على نسائه فلم تلد منهن غير امراة واحدة .. ولدت طفلا مشوها القوه على كرسيه ..

والقصة مختلفة من بدايتها لنهايتها ، وهى من الاسرائيليات الخرافية ، وحقيقة هذه الفتنة ما ذكره الفخر الرازى ..

قال : انسليمان ابتلى بمرض شديد حار فيه الطب .

مرض سليمان مرضا شديدا حار فيه أطباء الانس والجن .. واحضرت له الطيور أعشابا طبية من أطراف الأرض فلم يشف ، وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان اذا جلس على كرسيه جلس كأنه جسد بلا روح .. كأنه ميت من كثرة الاعياء والمرض .. واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لا يتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وحبه ..

وانتهى امتحان الله تعالى لعبده سليمان ، وشفى سليمان .. عادت اليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وكل ملكه وكل عظمته لا تستطيع أن تحمل اليه الشفاء الا اذا أراد الله سبحانه .

هذا هو الرأى الذى نرتاح اليه ، ونراه لائقا بعصمة نبى حكيم وكريم كسليمان ..

« **ولقد فتنا سليمان .. والقينا على كرسيه جسدا ..** » [١] .

حوله المرض الى شىء كالجسد .. ولفظ الجسد فى اللغة يطلق على ما فارقته الحياة أو الصحة . ولقد تحول سليمان الى جسد من فرط المرض .

« **ثم اناب** » [٢] .

ثم رجع الى الصحة .. استجار برحمة الله فشفاه الله ورحمه ..

....

وكان سليمان قد بنى لله مسجدا أو معبدا ليعبد الناس فيه الله تعالى وحده .

وقد كان هذا البيت آية من آيات فن العمارة وفن النحت .

ان ورش الحدادة كانت المطارق فيها تدق بلا انقطاع ، وورش صهر المعادن كانت تعمل أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، وكان البرونز

(١) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .
(٢) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .

المصـــهور يجرى من مئات القنـــوات فى الرمل ليأخذ بعد ذلك اشـــكال الأبواب والنوافذ وتماثيــل الأســود والنمور والطيـــور التى كانت تزين الطريق نحو مسجد سليمان .

وكان عـــدد العاملين فى بناء هـــذا البيت عشرات الألوف .. كان هناك من يصهر المعادن ، وهنـــاك النحاتون ، وهناك من يكسر الأحجار ، وهناك قاطعوا الأخشـاب ، وهناك من يحضر أخشـــاب الأرز من لبنـــان ، وهناك من يصهر الذهب ويجعـــل منه رقائق لامعة لتغطية الأخشـــاب .. وتغطية الجـــدران ..

وكانت الجن تعمل هى الأخرى ، طبقا لتعليمات سليمان وأوامره .. كانت تصنع تماثيل عظيمة ، وكانت تصنع قـــدورا لطعام الجنود والعمال ، قدورا كالجبال من فرط ثقلهـــا وعظمتها ، وكانوا يصنعون أوعية للشرب تبدو كأنها أحواض كبيرة لسعتها .. وكان سليمان يلاحظ عماله ويراعى شـــعبه ويعرف مشـــاكله ويحلهـــا له ، كمـــا كان يراقب جيشـــه من الحيوانات والطيور ، ويعرف هل غاب أحد منهم وأين كان ولماذا غاب ..

ولم يكن سليمان يعرف مشـــاكل جنوده الآدميين ويعرف جيشـــه من الطيور فقط ، وانمـــا كان أيضـــا رحيما بالنمل يســـمع همســـه ولا يدوسه بأقدامه .

كان سليمان يسير منكس الرأس ، دائم النظر الى الأرض تواضـــعا ، دائم الشـــكر لله .

كان يسير يوما فى مقدمة جيشـــه حين سمع نملة تقول لزميلاتهـــا من النمـــل :

((يا أيها النمل : ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وان اعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين))[١] .

سمع ســليمان كلام النملة فتبســـم ضـــاحكا من قولها .. ما الذى تتصـــوره هـــذه النملة !

رغم كل عظمته وعظمة جيشـــه فانه رحيم بالنمل . يســـمع همســـه وينظر دائمـــا أمامه ولا يمكن أبدا أن يدوســه .

وكان سليمان يشكر الله أن منحه هـــذه النعمة .. نعمة الرحمة ونعمة الحنو والشفقة والرفق ..

أيضا كان ســـليمان أغنى انســـان فى الدنيا .. كانت أرض قصـــوره أحيانا من خشب الصندل ذى الرائحة المعطرة ، وأحيانا من الذهب وأحيانا من الكريستال .. كان له كرسى عظيم صنع من الذهب والجواهر .

كانت له أعظم قصور فى الدنيا ، وكان يرتدى ملابس من الذهب والجواهر

---

(١) الآيتان ١٨ ، ١٩ مكية .

.. ورغم هذا كله فقد كان سليمان متواضعا لله وللناس .. وكان يخرج على الناس وهو يرتدى ثيابه الذهب فيقول لهم :

ـــ ان اى زهرة من زهور الحقول ترتدى أجمل مما ارتدى انا ســليمان الملك .

صــنع الله الوان الزهرة وأوراقها ، ويصنع الانســان ملابســه ، وما يصنعه الله أجمل آلاف المرات .

أجمل وأرق وأحلى ..

حتى الأشجار العارية ترتدى أعظم مما يرتديه سليمان ..

هكذا كان النبى الملك المتواضــع يقول وهو يســجد لله .. ومثلما كان والده يسبح الله .. كان سليمان ينشد لله انشــادا ويتغنى بالحب الالهى ويمجد الله وحده .

وجاء يوم .. وأصدر سليمان امره لجيشه أن يستعد ..

بعدها ، خرج سليمان يتفقد الجيش ، ويستعرضه ويفتش عليه .. مــر على البشر أولا ولاحظ استعدادهم ، واجتمع مع القواد والضباط والجنود ، وأفهمهم أوامره ، ثم مر على الجن وأصدر تعليماته اليهم ، وسجن جنيا لاحظ عليه انه يتكاسل فى العمل ، ثم مر على الحيوانات ، وســألها عما اذا كانت تأكل جيدا ، وتنام جيدا ، وعما اذا كانت هناك شكوى من حيث مواعيد تقديم الطعام ، وعما اذا كانت هناك حالات مرضية ، ولــا اطمأن على كل شىء ، دخل خيمة الطيور العظيمة .. ولم يكد يدخل الخيمة ويدير بصره فيها حتى اكتشف غياب الهدهد ..

كان المفروض ان يقف الهدهد فى مكان معين .. هناك فى أعلى الخيمة ، ولكن الهدهد لم يكن هناك ..

« وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد »[١] .. ؟

سكتت بقية الطيور ، احتراما لما سيقوله قائدها الأعلى .. وأدار سليمان بصره فى الطيور جميعا ، وقرأ فى عيون الطيور أن الهدهد ليس موجودا ، وليس معروفا أيضا أين هو .. قال سليمان وقد بدأ يغضب :

« أم كان من الغائبين ؟ »[٢] ..

تجرأ عصفور صغير هناك وقال لسليمان :

ـــ ايها النبى الكريم .. كان المفروض أن يكون الهــدهد موجــودا معى بالأمس فى مهمة استطلاع .. كان هو قائد المهمة ، ولم يأت الهدهد ، ولهذا لم أذهب أنا ..

كان العصفور يرتعش من الخوف .. وادرك ســليمان أن الهدهد غائب

---

(١) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .
(٢) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .

بغير أن يعلم بغيابه أحد ، ودون أن يستأذن أيضا .. ودون أن يقول أين هو ..

قال سليمان غاضبا :

((لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين))[١]

فهمت الطيور أن سليمان غاضب .. فقد قرر تعذيب الهدهد ، أو ذبحه ، أو العفو عنه ، بشرط أن يأتى بحجة تنجيه من هذه الورطة ، بمعنى أن يثبت الهدهد أنه كان يؤدى عملا ..

كان غضب سليمان عظيما .. يلقى الخوف فى القلوب .. لأن سليمان ــ رغم رحمته ــ اذا غضب فغضبه على حق ، وهو عادل فى غضبه ، ثم انه قادر على تنفيذ تهديده ببساطة ..

ارتعش العصفور ارتعاشة شديدة بسبب غضبة سليمان .. ومد سليمان يده وربت على رأس العصفور ، فذهب عنه الخوف ..

انصرف سليمان من خيمة الطيور وذهب الى قصره .. كان مشغولا بالهدهد ، المفروض ان الهدهد جزء من جهاز الاستطلاع .. هل ذهب يستطلع شيئا ؟ .. أم انه يلعب ؟!

كان سليمان قد لاحظ على هذا الهدهد انه ذكى وفصيح ، ويميل الى الشقاوة قليلا .. وقد ضبطه مرة أو مرتين يلعب بعض الوقت ثم يؤدى العمل فى الساعات الأخيرة .. وقد نظر اليه سليمان نظرة فهم منها الهدهد أن هذا لا يصح .. فهناك وقت للجد ووقت للعب ، والمفروض على الهدهد ، كما هو مفروض على الانسان ، الا يخلط وقت الجد بوقت اللعب ، لأن هذا يضيع الجد واللعب معا ..

وصل الهدهد الى خيمة الطيور بعد غيبة ليست طويلة ..

قالت له الطيور :

ــ اذهب الى سيدنا سليمان فورا قبل أن يعرف انك وصلت ولم تسلم نفسك .

طار الهدهد فدخل على سليمان وهو جالس يتناول طعامه ، وقف الهدهد .. وقرر أن يبدأ الكلام مع سليمان قبل أن يسأله أين كان .. كدليل على براءته ..

قال الهدهد :

((احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين)) [٢] ..

كان كلام الهدهد هجوميا .. ما معنى ان يقول لسليمان .. أنا الهدهد المسكين أعرف ما لا تعرفه أنت .. وقد جئتك من مملكة سبأ بنبأ غاية فى الأهمية ... ؟

---

(١) الآية ٢١ سورة النمل مكية .
(٢) من الآية ٢٢ سورة النمل مكية .

سكت سليمان وانتظر أن يكمل الهدهد حديثه ..

قال الهدهد :

« **انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** »[١] ..

سكت الهدهد قليلا ، وأحس سليمان أن الهدهد يستجمع كل فصاحته ، وينتقى كلماته جيدا ويحدث سليمان .. عاد الهدهد يقول لسليمان ما كان سليمان يقوله للناس والطيور ..

قال الهدهد :

« **ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ؟ . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم** »[٢].

كان واضحا أن الهدهد يردد كلام سيدنا سليمان .. فى محاولة أخيرة لكسب عطف سليمان واقناعه ..

قال سليمان ، وظل ابتسامة خفيفة يطوف بملامحه :

« **سننظر ، أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟** »[٣] ..

أراد الهدهد أن يقول : أنا لا أكذب أيها النبى الكريم .. لكن صمت سليمان أخافه فسكت ..

كان سليمان صامتا يفكر ، انتهى الى قرار ، فرفع راسه ، وأمر باحضار ورقة وقلم ، وكتب رسالة سريعة موجزة ومد يده الى الهدهد واصدر تعليماته اليه .. قال :

« **اذهب بكتابى هـذا فألقه اليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون** »[٤] ..

....

يختصر السياق القرآنى فى سورة النمل ما كان من أمر ذهاب الهدهد وتسليمه الرسالة ، وينتقل مباشرة الى الملكة ، وسط مجلس المستشارين ، وهى تقرأ على رؤساء قومها ووزرائها رسالة سليمان ..

« **قالت : يا أيها الملأ ، انى ألقى الى كتاب كريم . أنه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** » [٥]

هذا هو نص خطاب الملك سليمان لملكة سبأ ..

انه يأمر فى خطابه أن يأتوه مسلمين .. هكذا مباشرة .. انه يتجاوز

---

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ سورة النمل مكية .

(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ٢٧ سورة النمل مكية .

(٤) الآية ٢٨ سورة النمل مكية .

(٥) الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ سورة النمل مكية .

أمر عبادتهم للشمس .. ولا يناقشـــهم فى فســـاد عقيدتهم .. ولا يحـــاول اقناعهم بشىء .. انمـــا يأمر فحسب .. اليس على الحق ؟ .. اليس مؤيدا بقوة تسند الحق الذى يؤمن به ؟ .. لا عليه اذن أن يأمرهم بالتسليم ..

كان هذا كله واضحا من لهجة الخطاب القصيرة المتعالية المهذبة فى نفس الوقت .

طرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة ..

« قالت : يا أيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون »[1] ..

كان رد فعل الملأ — وهم رؤساء قومها — هو التحدى .. أثارت الرسالة بلهجتها المتعالية المهذبة غرور القوم ، واحساسهم بالقوة .. أدركوا أن هناك من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب والهزيمة ..

« قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين »[2] ..

أراد رؤساء قومها ان يقولوا : نحن على اســـتعداد للحرب .. ويبدو أن الملكة كانت اكثر حكمة من رؤســـاء قومها .. فان رســـالة ســـليمان أثارت تفكيرها أكثر مما استنفرتها للحرب .

فكرت الملكة طويلا فى رسالة سليمان .. كان اســـمه مجهولا لديها ، لم تسمع به من قبل ، وبالتالى كانت تجهل كل شىء عن قوته ، ربمـــا يكون قويا الى الحد الذى يستطيع فيه غزو مملكتها وهزيمتهـــا ، ونظرت الملكة حولها فرأت تقدم شعبها وثراءه ، وخشيت على هذا الثراء والتقدم من الغزو .. ورجحت الحكمة فى نفسها على التهور ، وقررت أن تلجأ الى اللين ، وترسل اليه بهدية .. وقدرت فى نفسـها انه ربما يكون طامعـــا قد ســـمع عن ثراء المملكة ، فحدثت نفسها بأن تهادنه وتشترى السلام منه بهدية ، قدرت فى نفسها أيضا ان ارسالها بهدية اليه ، سيمكن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته ، واذن سيكون رسلها عيونا فى مملكته .. يرجعون بأخبـــار قومه وجيشه ، وفى ضوء هذه المعلومات ، سيكون تقدير موقفها الحقيقى منه ممكنا ..

أخفت الملكة ما يدور فى نفسها ، وحدثت رؤســـاء قومهـــا بأنهـــا ترى استكشاف نوايا الملك سليمان ، عن طريق ارسال هدية اليه ، انتصرت الملكة للرأى الذى يقضى بالانتظار والترقب .. واقنعت رؤســـاء قومها بنبذ فكرة الحرب مؤقتا ، لأن الملوك اذا دخلوا قرية انقلبت أوضاعها وصار رؤساؤها هم أكثر من فيها تعرضا للهوان والذل .. واقتنع رؤساء قومها حين لوحت الملكة بما يتهددهم من أخطار ..

« قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها

---

(١) الآية ٣٢ سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٣٣ نفس السورة .

أذلة وكذلك يفعلون . وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون))[1] ..

....

وصلت هدية الملكة بلقيس الى الملك النبى سليمان .

جاءته أجهزة استطلاعه بنبأ وصول رسل بلقيس وهم يحملون الهدية .. وأدرك سليمان على الفور أن الملكة أرسلت رجالها ليعرفوا معلومات عن قوته لتقرر موقفها بشأنه .. ونادى سليمان فى المملكة كلها أن يحتشد الجيش .

ودخل رسل بلقيس وسط غابة كثيفة مدججة بالسلاح .. فوجىء رسل بلقيس بأن كل غناهم وثرائهم يبدو وسط بهاء مملكة سليمان .. شيئا مخجلا كالرقعة الفقيرة .

وصغرت هديتهم فى أعينهم .. وكانت من الذهب ، وهم يسيرون على أرضية قصور الملك سليمان وكانت تصنع من خشب الصندل المعطر المزين بالذهب .

ووقف رسل بلقيس مع سليمان ريثما ينتهى من استعراض جيشه ، وراحت أذهانهم تسجل عدد الجنود ونوعيتهم وكثرتهم ، ثم فوجئوا أن فى الجيش أسودا ونمورا وطيورا وجنودا تنتقل عن طريق الطيران .. وتدلت أفواههم من الدهشة وأدركوا أنهم أمام جيش لا يقاوم .

انتهى استعراض الجيش فدعى سفراء الملكة الى الغداء على مائدة الملك سليمان . وفوجىء السفراء بأنهم أمام أطعمة من أرجاء الأرض المختلفة . وتصدرت المائدة أطعمة تشتهر بلادهم بصنعها ولكنهم يرون لها مذاقا خاصا . كانت الأطباق التى يأكلون فيها من الذهب . وكان يخدمهم رجال يتحلون بذهب لا تتحلى به ملكتهم نفسها .. وكانت مائدة الطعام تضم طيورا وأسماكا بحرية ولحوم أشياء لم يستطيعوا تمييزها . ولم يكن سليمان يشاركهم طعامهم ، كان يأكل فى طبق من الخشب ، ويغمس الخبز الجاف فى الزيت .. هذه وجبة طعامه المفضل .

اكل سليمان معهم صامتا مقطبا ، فأحسوا أن له حضورا قويا ومهابة صاعقة .

وانتهى الطعام فقدموا لسليمان هدية الملكة بلقيس على استحياء شديد . كانت الهدية من الذهب . وكانت هدية قيمة بالنسبة اليهم ، لكنها هنا تبدو باهتة وفقيرة وسط هذا الثراء المدهش .

نظر سليمان الى هدية الملكة واشاح ببصره .

((فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون))[2] ..

---

(1) الآيتان ٣٤ و ٣٥ سورة النمل مكية .
(2) الآية ٣٦ سورة النمل مكية .

كشف الملك سليمان بكلماته القصيرة عن رفضه لهديتهم ، فوض مهمة السفراء وأفهمهم أنه لا يقبل شراء رضاه بالمال . يستطيعون شراء رضاه بشيء آخر .. ((**ألا تعلو على وأتونى مسلمين**))[1] .. أحال الى رسالته الأولى وعاد يتحدث ببطء ..

((**ارجع اليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون**))[2] ..

صرف الملك رسل الملكة بعد تهديده الذى بدا أمام أعينهم فاجعا وحاسما فى نفس الوقت .

ورجا رسل الملكة بعد ما رأوه أن ينتظر الملك سليمان زيارة بلقيس بنفسها

رجوه أن ينتظر حتى تجيئه الملكة فى مهمة سلام .

وصل رسل بلقيس الى سبأ .. وهناك هرعوا الى الملكة وهم بتراب السفر وحدثوها أن بلادهم فى أزمة .. حدثوها عن قوة سليمان واستحالة صد جيشه .. أفهموها أنها ينبغى أن تزوره وتترضاه .. وجهزت الملكة نفسها وبدأت رحلتها نحو مملكة سليمان ..

جلس سليمان فى مجلس الملك وسط رؤساء قومه ووزرائه وقادة جنده وعلمائه ..

كان يفكر فى بلقيس ..

يعرف أنها فى الطريق اليه .. تسوقها الرهبة لا الرغبة ، ويدفعها الخوف وليس الاقتناع .. ويفكر سليمان قليلا فى عبادتها للشمس ، يفكر فى المعلومات التى حملتها اليه أجهزة مخابراته عن تقدمها فى الفنون والعلوم .. ويتساءل سليمان بينه وبين نفسه أيكون التقدم هو الذى عاقها عن الحق ، أتكون قد فرحت بما وصلت اليه من قوة وتصورت أن القوة هى التقدم .. ويقرر سليمان بينه وبين نفسه أن يبهرها بتقدمه ، لتعرف أن الاسلام الذى يدعوها اليه ، هو الذى يستطيع احتواء التقدم الحقيقى والقوة الحقيقية ، ولتقارن بين عقيدتها فى عبادة الشمس ، وبين النقطة التى وصلت اليها فى الصناعة والفنون والعلوم ، وتعقد موازنة بين هذا كله ، وعقيدة سليمان وما وصل اليه من تقدم .

كانت أجهزة مخابرات الملك سليمان قد حدثته أن أعجب العجائب فى مملكة سبأ ، هو عرش الملكة بلقيس ..

كان مصنوعا من الذهب والجواهر الكريمة ، وكانت حجرة العرش وكرسى العرش آيتين فى فن الصناعة والسبك .. وكانت الحراسة لا تغفل عن العرش لحظة ..

واذن .. يحضر لها سليمان عرشها هنا .. فى مملكته ، لتجلس عليه حين تجىء ، يريد أن يبهرها بقدرته التى يستمدها من اسلامه .. لتسلم

---

(1) الآية ٣١ سورة النمل مكية .
(2) الآية ٣٧ سورة النمل مكية .

هى الأخرى .. دارت هذه الخواطر فى نفس سليمان فرفع راسه والتفت لرجاله « **قال : يا أيها الملأ ، ايكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين**»[١]

انظر كيف تشى عبارته بما يفكر فيه .. ان أفكاره كلها تدور حول اسلام عبدة الشمس .. حول هدايتهم الى الله .

كان أول من اجاب سليمان عفريت من الجن الذين سخرهم الله تعالى له :

« **قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين** »[٢] ..

كان سليمان يقوم من مقامه بعد ساعة أو ساعتين .. وقد تعهد الجنى أن يحضره قبل ذلك .. ونحن مع مجلس سليمان فى فلسطين .. والعرش فى اليمن ، والمسافة بين العرش ومجلس سليمان تزيد على آلاف الأميال .. واقوى الطائرات النفاثة التى نعرفها اليوم لا تستطيع أن تذهب وتجىء فى ساعة .

غير أن الأمر هنا يتعلق بقوة الجن المجهولة .

لم يعلق سليمان بشىء على ما قاله عفريت الجن .. ويبدو أنه كان ينتظر أن يسمع عرضا يحضر فيه عرش بلقيس أسرع من ذلك .. التفت سليمان نحو واحد هناك يجلس فى الظل .

« **قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم** »[٣] .

لم يكد « الذى عنده علم من الـــكتاب » يقول جملته حتى كان العرش مستقرا عند سليمان .. استغرق احضاره اقل من رمشة العين حين تغلق وتفتح ..

لم يكشف السياق القرآنى عن شخصية من احضر العرش .. اكتفى بالنص على أنه عنده علم من الكتاب .. لم يبين لنا أهو أحد الملائكة ، أو انسان ، أو جن ، أيضا أبهم السياق القرآنى كنه هذا الكتاب الذى يؤدى العلم بما فيه لمثل هذه القدرات الخارقة .

ترك السياق القرآنى الاسم وحقيقة الكتاب غارقين فى غمـــوض كثيف مقصود .. نحن أمام سر معجزة كبرى وقعت من واحد كان يجلس فى مجلس سليمان .. والأصل أن الله يظهر معجزاته فحسب ، أما سر وقوع هذه المعجزات فلا يدريه الا الله .. وهكذا يورد السياق القرآنى القصة لايضاح قدرة سليمان الخارقة ، وهى قدرة يؤكدها وجود هذا العالم فى مجلسه ، بعدها يصير من الفضول أن يسأل أحد من يكون هذا الذى عنده علم من الكتاب ، أهو جبريل عليه السلام أو آصف بن برخيا أو مخلوق آخر .

(١) الآية ٣٨ سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٣٩ سورة النمل مكية .
(٣) الآية ٤٠ سورة النمل مكية .

من الفضول أيضا أن نسأل عن هذا الكتاب .. وهل استخدم من يعلم بما فيه اسم الله الأعظم لاحضار العرش أم لا ..

كل هذه الأبحاث فضول وترف عقلى وقد أبهمها السياق القرآنى فلا معنى للخوض فى تفاصيلها الغامضة .

هذا هو العرش ماثلا أمام سليمان .

تأمل تصرف سليمان بعد هذه المعجزة .. لم يستخفه الفرح بقدرته ، ولم يزهه الشعور بقوته ، وانما أرجع الفضل لمالك الملك .. وشكر الله الذى يمتحنه بهذه القدرة ، ليرى أيشكر أم يكفر .

شكر سليمان خالقه أولا .. ثم تأمل عرش الملكة بعد ذلك .. كان العرش آية فى فن الصناعة ، لكنه كان فى نهاية الأمر يبدو شيئا عاديا الى جوار عظمة الصناعة التى يقوم بها الانس والجن فى مملكة سليمان .

تأمل سليمان عرش الملكة طويلا ثم أمر بتغييره .. أمر باجراء بعض التعديلات عليه ، ليمتحن بلقيس حين تأتى ، ويرى هل تهتدى الى عرشها أم تكون من الذين لا يهتدون .

« قال : نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » [1] .

أمر سليمان ببناء قصر يستقبل فيه بلقيس .

اختار مكانا رائعا على البحر وأمر ببناء القصر بحيث يقع معظمه على مياه البحر ، أمر أن تصنع أرضية القصر من زجاج ثمين شديد الصلابة ، وعظيم الشفافية فى نفس الوقت ، لكى يسير السائر فى أرض القصر ويتأمل تحته الأسماك الملونة وهى تسبح ، ويرى أعشاب البحر وهى تتحرك .

تم بناء القصر ، ومن فرط نقاء الزجاج الذى صنعت منه أرض حجراته ، لم يكن يبدو أن هناك زجاجا .

تلاشت أرضية القصر فى البحر وصارت ستارا زجاجيا خفيا فوقه .

أخبر الهدهد سليمان أن بلقيس قد بلغت مشارف مملكته ..

جاءت بلقيس أخيرا ..

يتجاوز السياق القرآنى استقبال سليمان لها الى موقفين وقعا لهـا بتدبيره :

● موقفها أمام عرشها الذى سبقها بالمجيء ، وقد تركته وراءها وعليه الحراس .

● موقفها أمام أرضية القصر البللورية الشفافة التى تسبح تحتهـا الأسماك .

---

(1) الآية ٤١ سورة النمل مكية .

« فلما جاءت ، قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين »[١] ..

تصور الآية موقف الحوار بين سليمان وبلقيس .

نظرت بلقيس الى عرشها فرأته عرشها تماما .. وليس عرشها تماما .

اذا كان عرشها فكيف سبقها الى المجيء .. واذا لم يكن عرشها فكيف أمكن تقليده بهذه الدقة ..

قال سليمان وهو يراها تتأمل العرش : أهكذا عرشك ؟

قالت بلقيس بعد حيرة قصيرة : كأنه هو ! .

قال سليمان : وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين .

توحى عبارته الأخيرة الى الملكة بلقيس أن تقارن بين عقيدتها وعلمها ، وعقيدة سليمان المسلمة وحكمته . ان عبادتها للشمس ، ومبلغ العلم الذى هم عليه ، يصابان بالخسوف الكلى أمام علم سليمان واسلامه .

لقد سبقها سليمان الى العلم بالاسلام ، بعدها صار من السهل عليه أن يسبقها فى العلوم الأخرى ، هذا ما توحى به كلمة سليمان لبلقيس ..

أدركت بلقيس أن هذا هو عرشها ، قد سبقها الى المجيء ونكرت فيه اجزاء وغيرت اجزاء وهى لم تزل تقطع الطريق لسليمان ..

أى قدرة يملكها هذا النبى الملك سليمان .

انبهرت بلقيس بما شاهدته من ايمان سليمان وصلاته لله ، مثلما انبهرت بما رأته من تقدمه فى الصناعات والفنون والعلوم .. وأدهشها أكثر ، هذا الاتصال العميق بين اسلام سليمان وعلمه وحكمته « **وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، انها كانت من قوم كافرين »**[٢] .

انتهى الأمر واهتزت داخل عقلها آلاف الأشياء .. رأت عقيدة قومها تتهاوى هنا أمام سليمان ، وأدركت أن الشمس التى يعبدها قومها ليست غير مخلوق خلقه الله تعالى وسخره لعباده ، وانكسفت الشمس للمرة الأولى فى قلبها ، أضاء القلب نور جديد لا يغرب مثلما تغرب الشمس ..

صارت مسألة اعلانها لهذا الايمان مسألة وقت .

وقد أحسنت بلقيس اختيار الوقت الذى اعلنت فيه اسلامها .

قال تعالى :

« قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب أنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »[٣] ..

---

(١) الآية ٤٢ سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٤٣ سورة النمل مكية .
(٣) الآية ٤٤ سورة النمل مكية .

قيل لبلقيس ادخلى القصر . فلما نظرت لم تر الزجاج ، ورات المياه ، وحسبت أنها ستخوض البحر ، وكشفت عن ساقيها حتى لا يبتل رداؤها ..

نبهها سليمان ــ دون أن ينظر ــ الا تخاف على ثيابها من البلل . ليست هناك مياه . انه صرح ممرد من قوارير .. انه زجاج ناعم لا يظهر من فرط نعومته .

اختارت بلقيس هذه اللحظة لاعلان اسلامها . إعترفت بظلمها لنفسها وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين . وتابعها قومها على الاسلام .

ادركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض ، وأحد أنبياء الله الكرام .

اضاء وجه سليمان بابتسامة راضية للمرة الأولى منذ زارته بلقيس .

ها هو ذا يحقق مجده الحقيقى ، وينشر نور الاسلام فى الأرض .

يسكت السياق القرآنى عن قصـــة بلقيس بعد اسلامها .. ويقول المفسرون أنها تزوجت سليمان بعد ذلك ويقال أنها تزوجت أحد رجاله .. أحبته وتزوجته ، ويقال أن بعض ملوك الحبشة من نسل هذا الزواج ، ونحن لا ندرى حقيقة هذا كله .

لقد سكت القرآن الكريم عن ذكر هذه التفاصيل التى لا تخدم قصة سليمان .. ولا نرى نحن داعيا للخوض فيما لا يعرف أحد .

عاش سليمان وسط مجد دانت له فيه الأرض ..

ثم قدر الله تعالى عليه الموت فمات . ومثلما كانت حياة سليمان قمة فى المجد الذى يمتلىء بالعجائب والخوارق .. كان موته آية من آيات الله تمتلىء بالعجائب والخوارق .

وهكذا جاء موته منسجما مع حياته ، متسقا مع مجده ، جاء نهاية فريدة لحياة فريدة وحافلة .

قال تعالى فى سورة سبأ عن موت سليمان :

((فلما قضينا عليه الموت ، ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر ، تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين))[١] .

كان تسخير الجن لسليمان واشتغالهم له واتصالهم به ورؤية الناس لهذا كله سببا فى فتنة الناس فى موضوع معين ، وقد وضع موت سليمان حدا لهذه الفتنة .

لا نعرف من الذى ادعى أن الجن تعلم الغيب . أهو شيطان شقى ، أم جنى ساذج ، أم بشر مخدوع .. لا نعرف المسئول عن انطلاق هذه الشائعة الخاطئة .. كل ما نعرفه انها انتشرت واستفحلت ووجدت آذانا صاغية من بعض الناس والجن .. ولعل الناس قالوا لأنفسهم : ما دامت الجن تقوم بكل هذه الأعمال الخارقة ، فما الذى يمنعهم من معرفة الغيب ،

---

(١) الآية ١٤ سورة سبأ مكية .

وهو عمل خارق .. وأغفل الناس أن معرفة الغيب مسألة تستحيل على الجن والانس والأنبياء وكل الخلائق .

لا يعرف الغيب الا صاحبه ، سبحانه وتعالى ، وحده ..

وقد قدر الله تعالى أن يكون موت سليمان عليه الصلاة والسلام منطويا على نسف هذه الفكرة . فكرة معرفة الجن للغيب ..

وكان الجن يعملون لسليمان طالما هو حى .. فلما مات انكسر تسخيرهم له ، وأعفوا من تبعة العمل معه .

وقد مات سليمان دون أن يعلم الجن ، فظلوا يعملون له ، وظلوا مسخرين لخدمته ، ولو انهم كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين.

دخل سليمان يوما محرابه للاعتكاف والعبادة والصلاة .

لم يكن هناك أحد يجرؤ على اقتحام خلوته فى محرابه .. وكان المحراب يقع على قمة جبل ، وقد صنعت جدرانه من البلّور الذى يكشف ما وراءه

وجلس سليمان يوما متكئا على عصاه واستغرق فى التفكير ..

راح يذكر الله تعالى حتى نعس ..

هى لحظة واحدة وبعدها خرج ملك الموت عليه السلام من محرابه ..

مات سليمان ..

كان متكئا على عصاه فظل على وضعه متكئا على العصا .

ورآه الجن فظنوا انه يصلى واستمروا فى عملهم ..

ومرت أيام طويلة ..

ثم جاءت دابة الأرض ، وهى نملة تأكل الخشب ، وبدأت تأكل عصا سليمان .

كانت جائعة فأكلت جزءا من العصا .

استمرت النملة تأكل العصا أياما .. كانت تأكل الجزء الملامس للأرض ، فلما ازداد ما أكلته منها اختلت العصا وسقطت من يد سليمان .. اختل بعدها توازن الجسد العظيم فهوى الى الأرض ..

ارتطم الجسد العظيم بالأرض فهرع الناس اليه ..

أدركوا أنه مات من زمن .. تبين الجن أنهم لا يعلمون الغيب .. وعرف الناس هذه الحقيقة أيضا . لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، ما لبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان حى ، بينما هو ميت منذ فترة ..

.. ..

وهكذا مات نبى الله سليمان .. وهو جالس يصلى ويذكر الله فى محرابه .. انتشر الخبر كالحريق فى الأرض ..

وشيعت الناس والطيور والوحوش جنازة النبى الملك سليمان ..

أظلت نعشه آلاف الطيور الباكية .. وسارت فى جنازته الوحوش وقد انكسر شرها من الحزن ..

كانت الطيور تبكى سليمان ، وتبكى نفسها فى نفس الوقت ..

انتهى الأمر ولن يعرف لغتها بعد الآن فى الأرض أحد ..

مات من كان يفهم منطق الطير ..

وما أقسى الحياة وسط من لا يفهم منطقنا ..

هيكل سليمان

كان هيكل سليمان فى أورشليم هو مركز العبادة اليهودية ورمز تاريخ اليهود وموضع فخارهم وزهوهم .. وقد شيده الملك سليمان وانفق ببذخ عظيم على بنائه وزخرفته .. حتى لقد احتاج فى ذلك الى أكثر من ١٨٠ الف عامل [سفر الملوك الأول] وقد أتى له سليمان بالذهب من ترشيش ، وبالخشب من لبنان ، وبالأحجار الكريمة من اليمن ، ثم بعد سبع سنوات من العمل المتواصل تكامل بناء الهيكل ، فكان آية من آيات الدنيا فى ذلك الزمان .

وامتدت يد الخراب الى الهيكل مرات عدة ، اذ كان هدفا دائما للغزاة والطامعين ينهبون ما به من كنوز ، ثم يشيعون فيه الدمار [سفر الملوك الثانى] .. ثم قام أحد الملوك بتجديد بنائه تحببا فى اليهود .. فاستغرق بناء الهيكل هذه المرة ٤٦ سنة ، أصبح بعدها صرحا ضخما تحيط به ثلاثة أسوار هائلة .. وكان مكونا من ساحتين كبيرتين : احداهما خارجية والأخرى داخلية ، وكانت تحيط بالساحة الداخلية أروقة شامخة تقوم على أعمدة مزدوجة من الرخام ، وتغطيها سقوف من خشب الأرز الثمين . وكانت الأروقة القائمة فى الجهة الجنوبية من الهيكل ترتكز على ١٦٢ عمودا ، كل منها من الضخامة بحيث لا يمكن لأقل من ثلاثة رجال متشابكى الأذرع أن يحيطوا بدائرته . وكان للساحة الخارجية من الهيكل تسع بوابات ضخمة مغطاة بالذهب . وبوابة عاشرة مصبوبة كلها — على الرغم من حجمها الهائل — من نحاس كورنثوس . وقد تدلت فوق تلك البوابات كلها زخارف على شكل عناقيد العنب الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص وقد استمرت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه [سفر الملوك الأول] فكان يزخر بالكنوز التى لا تقدر بثمن ..

كان الغرض الأصلى من بناء هيكل سليمان هو عبادة الله سبحانه وتعالى فيه . كان الهيكل مسجدا للموحدين المؤمنين .. ولم يكن رونقه وعظمة بنائه ليصرفا الناس حين أقامه سليمان عن عبادة الله ودعوته فيه..

ولعل عظمة البناء كانت رمزا لقوة الدولة وعظمة عقيدتها ..

غير أن تتابع الأيام وتوالى الليالى لا يترك شيئا على حاله .. والعادة أن الدعوات لله تبدأ وليدة ثم تكبر ثم تزدهر ثم تبدأ خط انحدارها نحو التمسك بالقشور وهجر الجوهر .

ولقد حدث لهيكل سليمان ما حدث لغيره من أماكن العبادة .

كان الهيكل رمزا للتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ..

ثم مرت السنوات وتحول الهيكل الى قشرة لامعة من الذهب تخفى تحتها ما صار اليه أمر الديانة اليهودية .

اعتدى اليهود على قدسية الهيكل ، وأهانوا رونقه وبهاءه ، وأحالوه الى سوق للبيع والشراء . فتزاحم فى ساحته بائعو الثيران والكباش والحمام ، حتى امتلا بهم الرواق وأصبح لقذارته أشبه بمربط البهائم ، واكتنفت مداخل الهيكل مكاتب الصيارفة التى يتعالى منها رنين النقود مختلطا بصوت المساومات والناس يستبدلون ما بيدهم من دراهم [انجيل متى] ..

وكان اليهود يقيمون وزنا كبيرا للنقود فى حياتهم ، وساعدت قسوة القلوب وصلابتها وسقوط الايمان باليوم الآخر من النفوس ، ساعد هذا كله على دمغ المجتمع بمادية صارخة ، وتسللت هذه المادية الى عبادة اليهود ، فصار تقديم القرابين وشراؤها من الهيكل هما طريق الغفران الوحيد ..

وحين فقد الهيكل حقيقة جوهره . وصار سوقا تجارية . بعث الله عليه من دمر الديار ودمره معها .

قال تعالى فى شأن خراب بيت المقدس وهدم هيكل سليمان :

« وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدامفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا . ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها ، فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم ، وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » [1] .

تشير آيات الحق الى قانون أزلى لا يتخلف فى حياة الشعوب والأمم .. تظل هذه الأمم قوية ما ظلت صلتها بالله صحيحة وقوية ، فاذا هجر الناس جوهر القوة ، وهو الاستمداد من الله ، وانصرفوا الى مظاهر العبادة دون حقيقتها ، وخطف أبصارهم بريق الترف ، وتاجروا بالديانة بدل خضوعهم لله .. اذا وقع هذا بدأ عصر انحدار الأمم .. وساق الله اليها من يجوس خلال الديار .

وتأمل أنت جرس التعبير وموسيقاه .. وكيف يوحى بالخراب العظيم الشامل .

يذكر المفسرون ما كان من أمر هدم هيكل سليمان وخراب بيت المقدس فيقولون : أوحى الله تعالى الى نبى من انبياء بنى اسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصى : أن قم بين قومك فأخبرهم أن لهم قلوبا ولا يفقهون واعينا ولا يبصرون ، وآذانا ولا يسمعون .

---

(1) الآيات ٤ الى ٨ سورة الاسراء مكية .

ويمضى الوحى الى النبى فيخبره أن يسأل بنى اسرائيل : هل سعد أحد ممن عصى الله بمعصيته ، وهل شقى أحد ممن أطاع الله بطاعته .

ان الدواب تذكر أوطانها وتعود اليها ، أما هؤلاء القوم فهم يهجرون وطنهم الحقيقى ، وهو جوهر التوحيد ، هم اذن شر من الدواب ..

ويمضى الوحى مصورا ما كان عليه أمر بنى اسرائيل فيقول :

ان الأحبار انكروا حق الله تعالى .

والقراء عبدوا غير الله تعالى .

والنساك لم ينتفعوا بما علموا ..

أما الولاة فكذبوا على الله وعلى انبيائه . خزنوا المكر فى قلوبهم وعودوا السنتهم الكذب ..

وتمضى الكلمات الالهية مفصلة ما كان عليه الأحبار والقراء والنساك والولاة . اصطنع الأحبار آلهة من عباد الله ، واقنعوا الناس بعبادة الناس فدان لهم عباد الله بطاعة لا تنبغى الا لله عز وجل .

أما الملوك والأمراء فبطروا نعمة الله وأمنوا مكره وغرتهم الدنيا فنبذوا كتاب الله ونسوا عهده ، فهم يحرفون كتاب الله [يقصد التوراة] ويفترون على رسله ويقتلونهم بغير الحق .

أما القراء والفقهاء فيدرسون ما يتخيرون ، يأخذون بعض الكتاب ويتركون بعضه ، وينقادون للملوك ويتابعونهم على البدع التى يخترعونها فى دين الله ويطيعونهم فى معصية الله . ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهد الله عز وجل .

أما أولاد الأنبياء فمقهورون مفتونون ، يخوضون مع الخائضين ويتمنون أن ينصرهم الله مثلما نصر آباءهم ، ولا يذكرون ورع آبائهم ولا كيف بذلوا دماءهم وصبروا وصدقوا حتى أعز الله أمره وأظهر دينه .

تمضي نبوءة ارميا فيحدث قومه ان الله تعالى يعطيهم فرصة أخيرة لليقظة والعودة لدينه وتوحيده .. والا بعث الله تعالى عليهم ملكا جبارا عساكره كقطع السحاب يعيدون العمران خرابا ويتركون القرى موحشة ..

يقول ابن كثير نقلا عن لفظ ابن عساكر .

« فياويل ايليا وسكانها ، كيف اذللهم للقتل ، واسلط عليهم الأسر ، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخا ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرفات القصور مساكن السباع ، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقا من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فان أمطرت لم تنبت الأرض ، وان أنبتت شيئا فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم ، فان زرعوا فى خلال ذلك شيئا سلطت عليه الآفة فان خلص منه شىء نزعت منه البركة . فان دعوا لم أجبهم ، وان سألوا لم أعطهم ، وان بكوا لم أرحمهم ، وان تضرعوا صرفت وجهى عنهم » .

ساق ايليا نبوءته لقومه ودعاهم الى الله وخوفهم بالخراب الشامل ،

واستقبل اليهود دعوته بالتكذيب والعصيان ، واتهموه بالكذب وقالوا له : كيف تكذب وتزعم أن الله سيعطل أرضه ومساجده ، فمن يعبده حين لا يبقى على الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب . لقد جننت يا ايليا .

وانتهى الصراع بين ايليا وقومه الى سجنه ..

فى نفس هذا الوقت ..

كان جيش بختنصر ينحدر نحوهم ..

واستيقظ اليهود يوما على وقع سنابك الخيل وأزيز السهام ورائحة الحرائق . وحاصر الجيش المهاجم أسوار المدن .. ثم تهاوت الأبواب تحت نعال المهاجمين ، ودخلوا القرى والمدن ..

جاسوا خلال الديار .

حكم قائد الجيش المهاجم فى اليهود بحكم الجاهلية وبطش بهم بطش الجبارين . قتل منهم الثلث ، وأسر الثلث ، وترك العجائز والشيوخ . وطئهم بالخيل وهـدم بيت المقدس ودمر الهيكل ، وقتل الرجـال وخرب الحصون ، وهدم دور العبادة وحرق التوراة وقتل علماءها وفقهاءها فلم يبق منهم أحد . وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وأشعل النار فى كل شيء ثم استدار عائدا يسوق الأسرى أمامه .

مئات الألوف من النساء والأطفال .

وران الخراب على المنطقة كلها ..

لم تعد مساكن اليهود تصلح لاحد غير البوم والوحوش ..

وتفرق من فر من بنى اسرائيل فى البلاد فى ذلك الزمان . وظل المكان مقفرا لزمن طويل حتى أذن الله تعالى لمن بقى من أحفاد القوم بالعودة فعادوا .

وخلال هذه الأحداث الدامية كلها ..

كان عزير نائما و ميتا .. وكان هو الوحيد الذى يحفظ التوراة .

عزير

[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة البقرة :

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : انى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال : اعلم أن الله على كل شىء قدير » [1] .

.. ..

الشهير عند جمهور السلف والخلف أن عزيرا هو بطل هذه القصة التى يحكيها الحق تبارك وتعالى .. ويقال أن عزيرا كان نبيا من انبياء بنى اسرائيل .

وكان يحفظ التوارة ، ثم وقعت له قصة مدهشة ، فقد أماته الله مائة عام ثم بعثه . وخلال هذا القرن الكامل الذى نام فيه عزير ، وقعت حرب بختنصر ، التى أحرق فيها التوراة ، فلم يبق منها شىء الا ما حفظت الرجال . وقد كانت معجزة عزير مصدر فتنة بالغة لقومه .

.. ..

كان اليوم حارا .. أحس فيه كل شىء بالعطش ..

وكانت القرية التى يعيش فيها « عزير » تمضى يوما هادئا من أيام الصيف الذى تقل فيه الحركة .. وفكر « عزير » أن حديقته تحتاج الى الرى .. وكانت الحديقة بعيدة ، والطريق اليها شاقا ، تتوسطه مقبرة كانت قبل ذلك مدينة عامرة بسكانها ثم امتدت اليها يد الموت فذهب ضجيج الحياة وبقى صمت القبور .

وفكر « عزير » فى نفسه : ان اشجار حديقته لا بد أنها تحس العطش ، وقرر أن يخرج ليسقيها .. وخرج العبد الحكيم الصالح احد أنبياء بنى اسرائيل من قريته والشمس فى أول النهار .. ركب حماره وبدأ رحلته ..

---

(1) الآية ٢٥٩ مدنية .

ظل يسير حتى وصل الى الحديقة .. اكتشف أن أشجارها عطشى ، وأرضها مشققة وجافة .. سقى الحديقة ، وقطف من حقل التين بعض ثمار التين ، وأخذ من تكعيبة العنب بعض العنب ، ووضع التين فى سلة ، والعنب فى سلة ، وانصرف عائداً من الحديقة .

راح الحمار يسير فى الحر وهو يحمل « عزيرا » . وكان « عزير » يفكر أثناء سيره فى مهامه التى عليه أن يؤديها غدا . كانت أول هذه الواجبات هى اخراج التوراة من مخبئها ووضعها فى المعبد .. فكر أن عليه أن يحمل طعام الأبقار اليها ، وفكر فى ابنه الطفل وتذكر ابتسامته الحلوة حين يراه ، وراح يسرع فى سيره ويستحث الحمار حتى قطع نصف الطريق ، ووصل الى المقبرة .. كانت الحرارة قد اشتدت لدرجة كبيرة ، وكان الحمار قد تعب من السير ، وراح جسده المغطى بالعرق يلمع تحت أشعة الشمس ، فيبدو الحمار كما لو كان خارجا من النهر ..

وتباطأ الحمار فى سيره حين وصل الى المقـــابر .. وقال « عزير » لنفسه : أهبط قليلا لأستريح وأريح الحمار وأتناول طعام الغداء ..

وهبط « عزير » فى احدى المقابر الخربة المهدمة ، وكانت كل القرية مقابر خربة مهدمة . وأخرج صحنا كان معه وجلس فى الظل . ربط الحمار فى حائط قريب وأخرج بعض الخبز الجاف ووضعه الى جواره وعصر فى صحنه العنب ، ثم ألقى الخبز الجاف فى العصير وأسند ظهره للحائط ومدد قدميه قليلا ، وجلس ينتظر أن يفقد الخبز قسوته وجفافه وهو فى عصير العنب .. وطاف « العزير » ببصره حوله ، وراح يتأمل المنظر ..

كل شىء صامت وميت وخراب ..

البيوت تهدمت معظم جدرانها ، وبقيت أعمدة هناك تتهيأ للسقوط ..

الأشجار القليلة فى المنطقة صفراء يقتلها العطش ..

عظام الموتى الباقية ممن دفنوا هناك تحولت الى ما يشبه التراب ..

والصمت يعشش فى المكان ، وينشر أجنحته الساكنة على الأرض .

وأحس « عزير » بقسوة الموت وثقل الخراب .. فتساءل داخل نفسه :

« **انى يحيى هذه الله بعد موتها** » [1] .

تساءل كيف يحيى الله هذه العظام بعد موتها ، وتحولها الى ما يشبه التراب . لم يكن « عزير » يشك أن الله سيحيى هذه العظام ، انما قالها تعجبا ودهشة .. ولم يكد « عزير » يقول كلماته حتى مات ..

أرسل الله اليه ملك الموت عليه السلام ، فقبض روحـــه .. وتمدد الحمار فى مكانه حين رأى صمت صاحبه وسكون جسده .. وظل الحمار ممدداً فى مكانه حتى غربت الشمس وجاء الصباح .. وحاول الحمار أن ينهض وينصرف ولكنه كان مقيدا . وظل فى مكانه لا يستطيع التخلص من قيده حتى مات من الجوع . وتمدد الحمار على الأرض الى جوار صاحبه

---

(1) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مدنية .

واستبطأ أهل القرية « عزيرا » .. خرجوا يبحثون عنه ..

ذهبوا الى حديقته فلم يجدوه هناك . عادوا الى القرية فلم يعثروا له على أثر ، وقرروا تكوين جماعات للبحث عنه ، وراحت هذه الجماعات تبحث فى كل اتجاه فلم تجد « عزيرا » ولم تجد حماره .. وكانت هـذه الجماعات تمر على المقابر التى مات فيها « عزير » فلا تتوقف عندها . ان كل شىء صامت هنا وميت ولو كان « **عزير** » موجودا لسمعوا صوته ، ثم ان هـذه المقابر المهدمة تخيفهم ، ولهذا لم يبحثوا فيها بجد ، ومرت أيام وأيام ، ويئس الناس من عودة « عزير » ، وتأكد ابناؤه انهم لن يروه مرة ثانية ، وعرفت زوجته أنها ستحرم رعايته لأبنائه وحبه لها ، وجلست تبكيه طويلا ، غير أن الزمن بطبيعته يجفف الدموع كما يخفف الألم ، ومسح الناس دموعهم ، وبدأوا ينسون عزيرا وينشغلون فى مشاكل الحياة اليومية

ومرت سنوات ، ونسى الناس « عزيرا » ما عدا أصغر أبنائه ، وامرأة كانت تعمل شغالة فى بيتهم ، كان « عزير » يعطف عليها ، وكان عمرها عشرين عاما حين خرج « عزير » من القرية .

ومرت عشر سنوات ، عشرون سنة ، ثمانون سنة ، تسعون سنة ، حتى انتهى قرن بأكمله .. مرت مائة عام .

وشاء الله تعالى أن يستيقظ « عزير » .

أرسل الله اليه ملكا أضاء النور فى قلبه ، ليرى كيف يبعث الله الموتى .

كان «عزير » ميتا منذ مائة عام .. ورغم ذلك فها هو ذا يتحول من التراب الى العظام الى اللحم ، الى الجلد ، ثم يبعث الله فيه الحياة بالأمر فينهض جالسا فى مكانه .

جلس « **عزير** » فى مكانه ، فرك عينيه ، استيقظ من موت اسـتمر مائة عام .. تجول ببصره حوله فرأى المقابر حوله ، وتذكر أنه نام .. آه .. كان عائدا من حديقته الى القرية فنام فى المقابر .. نعم .. هذا ماحدث تماما .. كانت الشمس تتهيأ للغروب ، وكان هو قد نام فى الظهيرة . قال لنفسه :

ـــ لقد نمت طويلا . ربما من الظهيرة الى المغرب .

سأله الملك الذى أمره الله بايقاظه :

ـــ **كم لبثت** ؟ [١] .

ان الملك يسأله : كم ساعة نام ؟ وأجابه : ((**لبثت يوما أو بعض يوم**))[٢].

قال له الملك الكريم :

((**بل لبثت مائة عام**)) .. [٣] .

(١ ، ٢ ، ٣) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مدنية .

أنت نائم منذ مائة سنة .. ميت منذ مائة عام .. أماتك الله وبعثك لتعرف الجواب عن سؤالك حين تعجبت ودهشت من بعث الموتى .

أحس « عزير » بالدهشة تنسحب من نفسه ويحل بدلها ايمان عميق بقدرة الخالق .

قال الملك وهو يشير الى طعام « عزير » :

ـ « أنظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه »[1] ..

نظر « عزير » الى التين فوجده كما هو .. لم يتغير لونه ولا طعمه ولم يفسد . لقد مرت عليه مائة سنة فكيف بقى الطعام على حاله ؟ ! . ونظر « عزير » الى الصحن الذى عصر فيه العنب ووضع فيه الخبز الجاف ، فوجده على حاله الذى تركه عليه .. كما هو .. ما زال شراب العنب صالحا للشرب ، وما زال الخبز ينتظر أن يفقد قسوته وجفافه وهو مغموس فى عصير العنب .

وامتلأ « عزير » بالدهشة .. كيف تمر مائة سنة على عصير العنب ويظل على حاله بغير تغيير .. بينما هو يتغير بعد ساعات ويفسد .. وكأنما أحس الملك أن « عزيرا » لم يصدق ما قاله .. ولهذا أشار الملك الى الحمار .. قال « لعزير » :

ـ « وانظر الى حمارك »[2] .

ونظر « عزير » الى حماره فلم يجد غير تراب عظام حماره .

قال له الملاك : هل تريد أن ترى كيف يحيى الله الموتى .. ؟

انظر الى الأرض .. الى التراب الذى كان قبل ذلك حمارك ..

نادى الملك عظام الحمار ، فأجابت ذرات التراب ، وراحت تتجمع وتتسابق من كل ناحية حتى تسكونت العظام .. أمر الملاك العروق ، والأعصاب ، واللحم ، أن تتكون .. وراح اللحم يكسو عظام الحمار و « عزير » ينظر ..

انتهى تكوين اللحم فنبت فوقه الجلد ، والشعر ، وعاد الحمار كما كان لحظة الموت .. جسدا بغير روح .. وأمر الملاك روح الحمار أن تعود اليه ، فعادت اليه ، ونهض الحمار واقفا ، رفع ذيله وبدأ ينهق . كان الحمار ميتا من الجوع هذه المرة ..

شاهد « عزير » هذه الآية الكبرى تقع أمامه ، شاهد معجزة الله فى بعث الموتى بعد تحولهم الى عظام وتراب ..

قال « عزير » بعد أن رأى المعجزة تقع أمامه :

ـ « أعلم أن الله على كل شىء قدير »[3] ..

(1 ، 2 ، 3) من الآية 259 سورة البقرة .

نهض « عزير » وركب حماره ، وانصرف عائدا الى قريته . كان الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل عزيرا آية للناس ، ومعجزة حية على صدق البعث وقيامة الأموات .

دخل « عزير » قريته ساعة الغروب .. أنكر فى قلبه هذا التحول الذى وقع فى القرية .. تغيرت البيوت والشوارع ، والنـــاس ، والوجوه ، والأطفال .. لا يعرف أحدا هنا ولا يعرفه أحد .

خرج « عزير » من القرية وعمره أربعون سنة ، ويعود اليها وعمره اربعون سنة . عاد اليها كما خرج ..

بعثه الله من موته كما كان عند موته ، شابا فى الأربعين ، لكن قريته عاشت مائة عام ، فتهدمت البيوت وتغيرت الشوارع والوجوه .

قال « عزير » لنفسه أبحث عن رجل عجوز أو امراة عجوز تذكرنى .

ظل يبحث حتى عثر على خادمته التى تركها فى العشرين من عمرها .. كان عمرها الآن ١٢٠ سنة ، تهدمت قواها وسقطت أسنانها ، وراح بصرها وكانت تشبه مجموعة من العظام المكسوة بالجلد .

سألها « عزير » :

ـــ أيتها العجوز الطيبة .. أين منزل عزير ؟ .

بكت المراة وقالت : لم يعد يذكره أحد .. خرج منذ مائة عام فلم يعد .. فليرحمه الله ..

قال « عزير » للمراة :

اننى أنا عزير .. ألا تعرفيننى .. لقد أماتنى الله مائة عام وبعثنى من الموت ..

قالت المراة وهى لا تصدقه : كان عزير مستجاب الدعوة .. أدع الله لى أن أبصر وامشى لأراك واعرفك ..

ودعا لها « عزير » أن تبصر وتمشى ، فرد الله اليها بصرها وقوتها فعرفت أنه « عزير » .. وأسرعت تجرى فى البلدة كلها وهى تصرخ :

ان عزيرا قد عاد .. ودهش الناس وظنوا أنها قد جنت . ثم اجتمع مجلس الحكماء والعلماء ، وكان فيهم ابن لابن عزير ، كان أبوه قد مات وكان الحفيد فى السبعين من عمره .. وكان جـــده وهو « عزير » فى الأربعين من عمره .

اجتمع مجلس العلماء والحكماء ، واستمعوا لقصة « عزير » ، ولم يعرفوا هل يصدقونه أم يكذبونه . ثم سأله احد الحكماء :

ـــ نسمع من آبائنا وأجدادنا أن « عزيرا » كان نبيا ، وكان يحفظ التوراة فى صدره .. وقد ضاعت التوراة فى حرب بختنصر .. احرقها وقتل العلماء والقراء .. وقع هذا فى المائة عام التى تقول انك مت فيها أو نمت .. لو كنت تحفظ التوراة لصدقنا انك عزير .

أدرك عزير انه لم يبق فى بنى اسرائيل من يحفظ التوراة . ادرك أن تواترها قد انقطع .. وكان عزير قد خبأها حماية من الأعداء .

وجلس عزير فى ظل شجرة وبنو اسرائيل حوله فنسخ لهم التوراة .. نسخها حرفا بحرف حتى انتهى منها ثم قال لنفسه : استخرج الآن التوراة التى دفنتها لأضاهيها على ما حدثت عنه القوم ، انطلق الى ذلك الموضع فاستخرج التوراة ، وكان الورق قد تحلل وتعفن .. وادرك لماذا أماته الله مائة عام ثم بعثه .

انتشرت اخبار معجزة عزير بين بنى اسرائيـــل .. وحملت المعجزة معها فتنة قاسية لقومه . ادعى ناس من قومه أن عزيرا ابن الله ..

قال تعالى : ((**وقالت اليهود : عزير ابن الله**))[١] ..

فى البداية ، قارنوا بين عزير وموسى وقالوا :

ــ لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة الا فى كتاب . أما عزير فجاءنا بها من غير كتاب ..

بعد هذه المقارنة الظالمة ، انتهوا الى نتيجة خاطئة فنسبوا نبيهم بالبنوة الى الحق عز وجل .. سبحان الله وتعالى علوا كبيرا على ذلك .

((**ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه**))[٢] ..

---

(١) من الآية ٣٠ سورة التوبة مدنية .
(٢) من الآية ٣٥ سورة مريم مكية .

زكريا
[عليه الصلاة والسلام]

كان لهذا العصر طعم غريب . صنعته آلاف الأشياء المختلفة المتعارضة التى عاشت معا فى صراع لا يهدأ .

الايمان بالله يضىء المسجد العظيم فى بيت المقدس ، على حين يعشش الكذب فى سوق اليهود المجاور ، الذى يبعد خطوات عن المسجد .

وكعادة الدنيا كان كل شىء يتصارع مع ضده ، الخير والشر ، النور والظلام ، الحقيقة والكذب ، الأنبياء والطغاة ، كل شىء كان يعيش صراعه من أجل البقاء .

وفى هذا العصر القديم .. كان هناك نبى .. وعالم عظيم يصلى بالناس .. كان اسم النبى « زكريا » عليه السلام .. أما العالم العظيم الذى اختاره الله للصلاة بالناس . فكان اسمه « عمران » .. عليه السلام .

وكان عمران زوجا ، وكانت زوجته تتمنى أن تلد ..

واشرف هذا الصباح علي المدينة فخرجت زوجة « عمران » تطعم الطيور وشاهدت منظرا وقفت أمامه طويلا تتأمل ..

كان هناك طائر يطعم ابنه الطفل فى فمه .. ويسقيه . ويأخذه تحت جناحه خوفا عليه من البرد .. وذكرها هذا المشهد بنفسها فتمنت على الله أن تلد .. ورفعت يديها وراحت تدعو خالقها أن يرزقها بطفل .

واستجابت لها رحمة الله فأحست ذات يوم أنها حامل ، وملأها الفرح والشكر لله فنذرت ما فى بطنها محررا لله ..

« اذ قالت امراة عمران : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى ، انك أنت السميع العليم »[1] ..

كان معنى هذا انها نذرت لله أن يكون ابنها خادما للمسجد طوال حياته .. يتفرغ لعبادة الله وخدمة بيته ..

وجاء يوم الوضع ووضعت زوجة عمران بنتا ، وفوجئت الأم ، كانت تريد ولدا ليكون فى خدمة المسجد والعبادة ، فلما جاء المولود أنثى قررت الأم أن تفى بنذرها لله رغم أن الذكر ليس كالأنثى ..

---

(1) الآية ٣٥ سورة آل عمران مدنية .

« فلما وضعتها قالت :

رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم »[1] ..

سمع الله سبحانه وتعالى دعاء زوجة عمران ، والله يسمع ما نقوله ، وما نهمس به لأنفسنا ، وما نتمنى أن نقوله ولا نفعل .. يسمع الله هذا كله ويعرفه ..

سمع الله زوجة عمران وهى تخبره أنها قد وضعت بنتا ، والله أعلم بما وضعت ، الله هو وحده الذى يختار نوع المولود فيخلقه ذكرا أو يخلقه أنثى ..

سمع الله زوجة عمران تسأله أن يحفظ هذه الفتاة التى سمتها مريم ، وأن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم .

« وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا »[2] ..

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء زوجة عمران ، وأم مريم ، تقبل الله مريم بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وشاءت رحمته أن تكون هذه الفتاة أفضل نساء العالمين ، وأن تكون أما لنبى يجىء ميلاده معجزة كميلاد آدم .. جاء آدم عليه السلام من غير أب أو أم ، وجاء عيسى عليه السلام من غير أب .. جاء من أم طاهرة لم تتزوج ولم يمسسها بشر .

أثار ميلاد مريم ابنة عمران مشكلة صغيرة فى مبدأ الأمر .

كان عمران قد مات قبل ولادة مريم .. وأراد علماء ذلك الزمان وشيوخه أن يربوا مريم ..

كل واحد يتسابق لنيل هذا الشرف .. أن يربى ابنة شيخهم الجليل العالم وصاحب صلاتهم وامامهم فيها ..

قال « زكريا » : أكفلها أنا .. هى قريبتى .. زوجتى هى خالتها .. وأنا نبى هذه الأمة وأولاكم بها .

وقال العلماء والشيوخ : ولماذا لا يكفلها أحدنا .. لا نستطيع أن نتركك تحصل على هذا الفضل بغير اشتراكنا فيه .

وكادوا يختصمون لولا أن اتفقوا على اجراء قرعة . أى واحد يكسب القرعة هو الذى يكفل مريم ، ويربيها ، ويكون له شرف خدمتها ، حتى تكبر هى وتخدم المسجد وتتفرغ لعبادة الله .

وأجريت القرعة .. وضعت مريم وهى مولودة على الأرض ، ووضعت الى جوارها أقلام الذين يرغبون فى كفالتها .. وأحضروا طفلا صغيرا فأخرج الطفل قلم زكريا ..

---

(1) من الآية ٣٦ سورة آل عمران مدنية .
(2) من الآية ٣٦ وآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .

قال زكريا : حكم الله لى بأن اكفلها .

قال العلماء والشيوخ : لا .. القرعة ثلاث مرات .

وراحوا يفكرون فى القرعة الثانية .. حفر كل واحد اسمه على قلم خشبى ، وقالوا : نلقى بأقلامنا فى النهر .. من سار قلمه ضد التيار وحده فهو الغالب .

قال تعالى : « وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون » [١] .

والقوا اقلامهم فى النهر ، فسارت اقلامهم جميعا مع التيار ماعدا قلم « زكريا » . سار وحده ضد التيار .. وظن « زكريا » انهم سيقتنعون ، ولكنهم أصروا على أن تكون القرعة ثلاث مرات .

قالوا : نلقى اقلامنا فى النهر ، القلم الذى يسير مع التيار وحده يأخذ صاحبه مريم .

والقوا اقلامهم فسارت جميعا ضد التيار ما عدا قلم زكريا ..

وسلموا لـ « زكريا » ، واعطوه مريم ليكفلها ..

وبدأ « زكريا » يخدم مريم ، ويربيها ويكرمها حتى كبرت ..

كان لها مكان خاص تعيش فيه فى المسجد .. كان لها محراب تتعبد فيه .. وكانت لا تغادر مكانها الا قليلا .. يذهب وقتها كله فى الصلاة والعبادة .. والذكر والشكر والحب لله ..

وكان « زكريا » يزورها أحيانا فى المحراب ..

وكان يفاجأ كلما دخل عليها انه أمام شىء مدهش .

يكون الوقت صيفا فيجد عندها فاكهة الشتاء ، ويكون الوقت شتاء فيجد عندها فاكهة الصيف .. ويسألها زكريا من اين جاءها هذا الرزق .. فتجيب مريم أنه من عند الله ..

وتكرر هذا المشهد اكثر من مرة ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا »[٢] ..

كان « زكريا » شيخا عجوزا ضعف عظمه ، واشتعل رأسه بالشعر الأبيض ، واحس انه لن يعيش طويلا .. وكانت زوجته وهى خالة مريم عجوزا مثله ولم تلد من قبل فى حياتها لأنها عاقر .. وكان « زكريا » يتمنى أن يكون له ولد يرث علمه ويصير نبيا ويستطيع أن يهدى قومه ويدعوهم الى كتاب الله ومغفرته ..

وكان « زكريا » لا يقول افكاره هذه لأحد .. حتى لزوجته .. ولكن الله تعالى كان يعرفها قبل أن تقال .

---

(١) من الآية ٤٤ سورة آل عمران مدنية .

(٢) من الآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .

ودخل « زكريا » ذلك الصباح على مريم فى المحراب ، فوجد عندها فاكهة ليس هذا أوانها ..

سألها زكريا :

« قال : يا مريم أنى لك هذا » .

« قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .
هنالك دعا زكريا ربه »[١] ..

قال « زكريا » فى نفسه : سبحان الله .. قادر على كل شىء .. وغرس الحنين أعلامه فى قلبه وتمنى الذرية .

وتذكرت رحمة الله « زكريا » فدعا ربه .. **« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . اذ نادى ربه نداء خفيا . قال : رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا »**[٢] .

سأل « زكريا » خالقه بغير أن يرفع صوته أن يرزقه طفلا يرث النبوة والحكمة والفضل والعلم .. وكان « زكريا » خائفا أن يضل القوم من بعده ولم يبعث فيهم نبى ..

واستجاب الله تعالى لزكريا .

لم يكد « زكريا » يهمس فى قلبه بدعائه لله حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب .. ونادته رحمة ربه .

« يا زكريا ، انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا »[٣] .

فوجىء « زكريا » بهذه البشرى .. أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل .. أحس « زكريا » من فرط الفرح باضطراب .. تساءل من موضع الدهشة .

« قال : رب : أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا »[٤] ..

أدهشه أن ينجب وهو عجوز وامرأته لا تلد ..

« قال : كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا »[٥] ..

---

(١) من الآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .
(٢) الآيات ٢ الى ٦ سورة مريم مكية .
(٣) الآية ٧ سورة مريم مكية .
(٤) الآية ٨ من سورة مريم مكية .
(٥) الآية ٩ سورة مريم مكية .

افهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله الا النفاذ .. وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى .. كل شيء يريده الله يأمره بالوجود فيوجد .. وقد خلق الله « زكريا » نفسه من قبل ولم يكن له وجود .. وكل شيء يخلقه الله تعالى بمجرد المشيئة .. « **انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** »[١] ..

امتلأ قلب « زكريا » بالشكر لله وحمده وتمجيده .. وسأل ربه أن يجعل له آية أو علامة ..

« **قال : رب اجعل لى آية ، قال : آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا . فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم : أن سبحوا بكرة وعشيا** »[٢] ..

اخبره الله أنه ستجيء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق .. سيجد نفسه غير قادر على الكلام .. سيكون صحيح المزاج غير معتل .. اذا حدث له هذا أيقن أن امرأته حامل ، وأن معجزة الله قد تحققت .. وعليه ساعتها أن يتحدث الى الناس عن طريق الاشارة .. وأن يسبح الله كثيرا فى الصباح والمساء ..

وخرج « زكريا » يوما على الناس وقلبه مليء بالشكر ، وأراد أن يكلمهم فاكتشف أن لسانه لا ينطق .. وعرف أن معجزة الله قد تحققت .. فأومأ الى قومه أن يسبحوا الله فى الفجر والعشاء .. وراح هو يسبح الله فى قلبه ..

كانت سعادته بغير حد .

بشرته الملائكة بابن سماه الله يحيى ..

للمرة الأولى نحن أمام ابن لم يطلق والده اسمه عليه ، ولم تختر الأم اسم طفلها ، وانما كان الله رب العالمين هو الذى سماه ..

ومع هذا التشريف العظيم والتكريم البالغ ، بشر الله سبحانه وتعالى « زكريا » أن يكون ابنه يحيى مصدقا بكلمة من الله .. وسيدا وكريما وعظيما ،ونبيا من الصالحين ..

كان « زكريا » يرتعش من الفرح ، راحت دموعه تسيل على وجهه العجوز وتبلل لحيته البيضاء وهو يصلى لله شكرا على استجابته لدعوته ومنحه يحيى .

ولم يكن يحيى قد ولد بعد .. وكان موعد ولادته يقترب .

---

(١) الآية ٨٢ سورة يس مكية .
(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة مريم مكية .

يحيى
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة آل عمران :

((هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين))[١] ..

وقال تعالى فى سورة مريم :

((يايحيى ، خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا))[٢] ..

وقال تعالى فى سورة مريم :

((يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا))[٣].

. . . .

هذا هو يحيى ، نبى الله الذى شهد الحق عز وجل له انه لم يجعل له من قبل شبيها ولا مثيلا . وهو النبى الذى قال الحق عنه :

((وحنانا من لدنا))

.. ومثلما أوتى الخضر علما من لدن الله ، أوتى يحيى حنانا من لدن الله ، والعلم مفهوم ، والحنان هو العلم الشمولى الذى يشيع فى نسيجه حب عميق للكائنات ورحمة بها ، كأن الحنان درجة من درجات الحب الذى ينبع من العلم

ولقد كان يحيى فى الأنبياء نموذجا لا مثيل له فى النسك والزهد والحب الالهى .. هو النبى الناسك .

كان يضىء حبا لكل الكائنات ، واحبه النـــاس وأحبته الطيـــور والوحوش والصحارى والجبال ، ثم أهدرت دمه كلمة حق قالها فى بلاط ملك ظالم ، بشأن أمر يتصل براقصة بغى .

---

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة آل عمران مدنية .
(٢) الآيات ١٢ الى ١٥ سورة مريم مكية .
(٣) الآية ٧ سورة مريم مكية .

يذكر العلماء فضل يحيى ويوردون لذلك امثلة كثيرة .

كان يحيى معاصرا لعيسى وقريبه من وجهة الأم [ابن خالته] وتروى السنة أن يحيى وعيسى التقيا يوما فقال عيسى ليحيى :

ـ استغفر لى يا يحيى . أنت خير منى .

قال يحيى : استغفر لى يا عيسى . انت خير منى .

قال عيسى : بل أنت خير منى .. سلمت على نفسى وسلم الله عليك .

تشير القصة الى فضل يحيى حين سلم الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيـــا .

ويقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوما فوجدهم يتذاكرون فضل الأنبياء .

قال قائل : موسى كليم الله .

وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته .

وقال قائل : ابراهيم خليل الله .

ومضى الصحابة يتحدثون عن الأنبياء فتدخل الرسول علية الصلاة والسلام حين رآهم لا يذكرون يحيى .

ـ أين الشهيد ابن الشهيد . يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب . أين يحيى بن زكريا .

.. ..

وجاء الربيع فى فلسطين .. واشتدت خضرة الأرض واشتد صفاء السماء

غسل القمر بأشعته الفضية قمم الأشجار والحقول .

وتفتحت أزهار الورد ، والبرتقال ، وانتشر عطرها فى الجو ..

وغنى طير مهاجر اغنية تمتلىء بالفرح .. وامتلأ الجو باحســـاس عميق بالجمـــال .

وولد « يحيى »عليه السلام ..

كان ميلاده معجزة ، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس فيـــه الشيخ من الذرية .. وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبى « زكريـــا » .. وجاء وسط عصر يمتلىء بقمم النقاء كما يمتلىء بقمم الطغيان .

وكانت مريم تمثل قمة النقاء فى هذا العصر .. ان محرابها المعطر المغلق يكاد يضىء بكلمات الصلاة المستمرة ، والذكر الخاشع والقلب الطاهر .

والمسجد يموج بالمصلين والذاكرين والمؤمنين . .وبعيدا عنه يدق الظلم اعلامه الخـــاطئة .

ولد « يحيى » عليه السلام ، فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال ..

كان معظم الأطفال يمارسون اللهو أما هو فكان جادا طول الوقت .
كان بعض الاطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات ، وكان « يحيى » يطعم الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها ، وحنانا عليها ، ويبقى هو بغير طعام .. أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها ، وكلما كبر « يحيى » فى السن زاد النور فى وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام .

وكان « يحيى » يحب القراءة ، وكان يقرأ فى العلم من طفولته .. فلما صار صبيا نادته رحمة ربه :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا »[1] ..

صدر الأمر لـ « يحيى » وهو صبى أن يأخذ الكتاب بقوة بمعنى ان يدرس الكتاب باحكام .. كتاب الشريعة .. رزقه الله الاقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبى .. كان أعلم الناس وأشدهم حكمة فى زمانه درس الشريعة دراسة كاملة ، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبى .. كان يحكم بين الناس ، ويبين لهم أسرار الدين ، ويعرفهم طريق الصواب ويحذرهم من طريق الخطأ ..

وكبر « يحيى فزاد علمه ، وزادت رحمته ، وزاد حنانه بوالديه ، والناس ، والمخلوقات ، والطيور ، والحيوانات ، والأشجار .. حتى عم حنانه الدنيا وملأها بالرحمة .

كان يدعو الناس الى التوبة من الذنوب ، وكان يغسلهم فى نهر الأردن ليغسلوا انفسهم بعدها بالتوبة .. وكان يدعو الله لهم .. ولم يكن هناك انسان يكره « يحيى » أو يتمنى له الضرر ..

كان محبوبا لحنانه ، وزكاته ، وتقواه ، وعلمه ، وفضله . ثم زاد « يحيى » على ذلك بالتنسك . كان يخرج الى الجبال والحقول والصحراء فيمكث فيها شهورا متعاقبة يعبد الله ويبكى بين يديه ، ويصلى له .. وكان يحس بالانس فى البرارى ، ولا يهتم بطعامه فيأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد أحيانا ، ويأكل العشب أحيانا أخرى .. وكان ينام فى أى مغارة يجدها فى الجبل .. أو أى حفرة يجدها فى الأرض .. وأحيانا كان يدخل مغارة فى الجبل فيجد فيها وحشا .. أسدا أو نمرا أو ذئبا ، وكان من فرط انشغاله فى ذكر الله والصلاة لا يلتفت الى الذئب أو الأسد ، وكان ينظر اليه فيعرف أن هذا نبى الله « يحيى » الذى يعطف على المخلوقات ، ويدفئها بحنانه ويحكم بينها بعلمه .. وكان الوحش المفترس يخفض رأسه ثم يغادر المكان برفق دون أن يحس به يحيى .

وكان يحيى احيانا اخرى يطعم الوحوش حنانا بها ويبيت هو بغير عشاء ، يكتفى بالصلاة والذكر غذاء لقلبه قبل جسده . ويأكل من أوراق الشجر ، ويبيت دامع العين ذاكر القلب محبا لله شاكرا نعمته حامدا فضله .

وكان « يحيى » اذا وقف بين الناس ليدعوهم الى الله ابكاهم من الحب والخشوع .. وأثر فى قلوبهم بصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله وعلى عهد الله ..

---

(١) الآية ١٢ سورة مريم مكية .

وجاء صباح خرج فيه « يحيى » على الناس .. امتلأ المسـجد بالناس ، ووقف « يحيى بن زكريا » وبدأ يتحدث .

قال : ان الله عز وجل أمرنى بكلمات أعمل بها . وآمركم أن تعملوا بها ..

ان تعبدوا الله وحده بلا شريك .. فمن أشرك بالله وعبد غيره فهو مثل عبد اشتراه سيده فراح يعمل ويؤدى ثمن عمله لسيد غير سيده .. أيكم يحب أن يكون عبده كذلك .. ؟

وآمركم بالصلاة فان الله نظر الى عبده وهو يصـلى ، ما لم يلتفت عـن صلاته .. فاذا صليتم فاخشعوا .

وامركم بالصيام .. فان مثل ذلك كمثل رجل معه « صرة » من مسـك جميل الرائحة ، كلما سار هذا الرجل فاحت منه رائحة المسك المعطر .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه أعداؤه فأسرع لحصن حصين فأغلقه عليه .. وأعظم الحصون ذكر الله .. ولا نجاة بغير هـذا الحصـن .

انتهى «يحيى» من كلامه ، فهبط من المنبر وسار عائدا الى الصحراء .

هناك حيث تمتد الرمال وتلتقى بالأفق ، وحيث لا صوت غير صـوت الرياح ، وتنفس الأشجار، واصوات اقدام وحوش الجبال .. هنـاك كان «يحيى» يقف وسط هذا الخلاء ، ويأخذ فى الصلاة والبكاء .

ووقع الصدام بين «يحيى» والسلطات الحاكمة فى ذلك الوقت ..

كان احد ملوك ذلك الزمان طاغية ضيق العقل غبى القلب يستبد برأيه ، وكان الفساد منتشرا فى بلاطه .. وكان يسمع انباء متفرقة عن « يحيى » فيدهش لأن الناس يحبون أحدا بهذا القدر ، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبـه أحـد .

وكان هذا الملك يريد اغتصاب زوجة أخيه ، وكانت لها ابنة جمعت مع فتنة الأنوثة شهرة ذائعة فى الرقص ، وتقول الحكايات أنهـا كانت ترقص وهى ترتدى سـبعة أردية .. تخلع رداء مع كل رقصـة .. حتى ترقص رقصتها الأخيرة عارية .

.. وسأل الملك «يحيى» هل يجوز له أن يتزوج زوجة أخيه فقال «يحيى» عليه السلام : «لا يجوز» ..

وراح الملك يحدث «يحيى» بأنه يريد الزواج منها .. وعلى «يحيى» أن يجد له فتوى ترضيه ورفض « يحيى » أن يوافق الملك على رغبته . قال له حكم الشريعة وتركه وانصرف .. وزاد غضب الملك على «يحيى» فأمر بسجنه .

واغتصب الملك زوجة أخيه . وكانت ابنتها الراقصة قد شاهدت « يحيى » وهو يحدث الملك .. واحست بنبل وجهه وجمال روحه وجلال شخصيته . واحبته الراقصة ، وذهبت اليه فى سـجنه وشـاهدته يجلس منخرطا فى الصلاة والبكاء .. راقبته وهو يصلى حتى فرغ .. القت بنفسها تحت قدميه وسألته أن يحبها كما تحبه ..

قال يحيى : « ليس فى قلبى مكان لحب غير حب الله » .

نهضت المراة يائسة ، وانصرفت عنه وقد امتلأ قلبها بكراهيته .. عادت الى قصر الملك ..

كان العشاء قد انتهى ، وبدأ الملك يشرب الخمر .. بدأت تسقيه حتى احس أن راسه مثل بالونة ضخمة وانه سيطير بعد قليل .. هنالك نهضت الراقصة واسرعت ترتدى ثياب الرقص وعادت الى الملك .. نظر الملك اليها واحس ان راسه يزداد تهوية ويخلو اكثر واكثر . وبدأت ترقص . بدأ العزف ودق الطبول وراحت المراة ترقص ..

فى الرقصة السابعة توقفت ، وكشرت وجهها وقالت للملك :

ــ أريد ان اسأل مولاى شيئا ..

قال الملك المخمور الطاغية : كل شىء تطلبينه سأعطيه لك الآن .

قالت المراة : اريد راس « يحيى بن زكريا » !

افاق الملك من سكره ، واحس الخوف .. قال لها وهو يتأرجح فى مقعده :

ــ اسألينى شــيئا آخر .

قالت :

ــ أريد دم « يحيى بن زكريا » ..

كانت هذه المراة فى نهاية الأمر رمزا للشر الأسود .

وقال الملك وهو يتناول كأسه الرابعة بعد الأربعين :

ــ اقتلوا « يحيى بن زكريا » .

وأصدر قائد الحرس الملكى أمره الى فرسانه ..

وأسرع الفرسان الى سيوفهم وخناجرهم ..

. . . .

وارتفعت الايدى الآثمة بالسيوف وهبطت على العنق النبيل .. وتشقق قلب الصخور حنانا على النبى العظيم وهو يمضى الى الشهادة .

يورد انجيل متى فى الفصل الرابع عشر رواية تقول :

« كان هيرودس قد قبض على يوحنا واوثقه ثم القى به فى الســجن بسبب هيروديا زوجة اخيه فيلبس ، لأن يوحنا كان يقول له لا يحل لك أن تأخذها زوجة لك . وقد كان يريد قتله ، لكنه خاف من الشعب ، لانهم كانوا يعدونه نبيا . فلما كان الاحتفال بميلاد هيرودس رقصت ابنة هيروديا فى الوسط امام المدعوين فاعجبت هيرودس . ومن ثم أقسم واعدا اياها بانها مهما طلبت يعطها . واذا كانت امها قد سبق أن لقنتها قالت : اعطنى هنا راس يوحنا المعمــدان فى طبق ، فاكتأب الملك ، ولكنه من اجــل القســم والجالسين معه الى المائدة امر باعطائها اياه . وارسل فقطع راس يوحنا فى السجن . وجيىء براسه فى طبق وقدم للفتاة فجاءت به الى أمها » ..

عيسى
[عليه الصلاة والسلام]

انحدرت الشمس نحو الغرب .

حركت الرياح الهواء المعطر حول أشجار التفاح ، وأزهار البرتقال .. وانحدر العطر وبدأ رحلته الى محراب مريم .. وهناك تسلل من نوافذ المحراب ونشر أجنحته حول العذراء الخاشعة التى تصلى بغير أن يسمع صوتها احد . واحست « مريم » أن الجو يمتلىء برائحةالعطر فجأة ..وصلت اليها رسالة الطبيعة ، فابتسمت وعادت تنخرط فى صلاة عميقة تؤدى بها الشكر لله .. وحط احد طيور الكناريا على شباك المحراب .. رفع منقاره لأعلى فى اتجاه الشمس وبسط جناحيه ، ونفض المياه التى استحم فيها فتطاير الرذاذ الخفيف حوله .. وتذكرت « مريم » انها نسيت أن تسقى شجرة الورد التى نبتت فجأة وسط صخرتين خارج المسجد .. أنهت «مريم» صلاتها ، وخرجت من المحراب فى طريقها الى الشجرة ..

لم تكد تتهيأ للخروج حتى نادتها الملائكة :

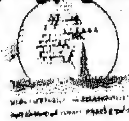
« يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين »[١] ..

توقفت « مريم » وازداد شحوب وجهها ..

اضاء المحراب بكلمات الملائكة . نوع من الضوء تبدو الشمس الى جواره مثل شمعة مطفأة .

ان « مريم » تشعر فى الأيام الأخيرة بتغيير يشمل روحها وجسمها كله .. ليست عندها مرآة لتنظر فيها ، لكنها تحس أن لون دم القوة والشباب ينسحب تاركا مكانه للون اكثر طهرا واعمق اصالة .. انها تحس الشحوب رغم انها لا تراه .. وتشعر بضعف بشرى وقوة غير عادية ، وكلما زاد جسمها نحولا زادت روحها قوة .. ملأها هذا الاحساس بالتواضع والعظمة .. وتسلل اليها الاشفاق من المسئولية العظيمة التى القيت على كتفيها الرقيقتين ..

« واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » [٢] ..



---

(١) من الآية ٤٢ سورة آل عمران مدنية .
(٢) من الآية ٤٢ سورة آل عمران مدنية .

بهذه الكلمات البسيطة فهمت مريم أن الله يختارها ، ويطهرها ويختارها ويجعلها على رأس نساء الوجود .. هذا الوجود ، والوجود الذى لم يخلق بعد .. هى أعظم فتاة فى الدنيا وبعد قيامة الأموات وخلق الآخرة .. وعادت الملائكة تتحـــدث :

« **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** » [١] ..

كان الأمر الصادر بعد البشارة أن تزيد من خشـــوعها ، وسـجودها وركوعها لله ..

ونسيت مريم شجرة الورد وعادت للصلاة ..

لم تعد تحس انها صغيرة وضعيفة وتقف وحدها فى المحراب .. انما احست انها تضم قرص الشمس فى قلبها ، وتشرب خصلات شعرها من ندى الحقول ، واحست أن الرحيق الذى يصعد فى سيقان اشجار التفاح يصعد فى عروقها ، وتجمعت كل دموع الأطفال الأبرياء فى الدنيا وانحدرت دمعة واحدة كبيرة من عين العذراء وهى تصلى ..

كانت دمعتها الوحيدة تضم مذاق اللبن وطراوة النســيم ومرارة أحزان البشر ..

....

وملأ قلب مريم احساس مفاجىء بأن شـيئا عظيما يوشــك أن يقع .. كانت تحس ذلك احساسا غامضا منذ أيام ، لكن احساسها يتأكد الآن ..

انحدرت الشمس نحو فراشها واستيقظ الليل .

وجلس القمر على عرشه الفضى فى السماء ، وحوله رعيته من السحاب الجميل الأبيض ..

وجاء منتصف الليل ومريم منهمكة فى الصلاة . ثم انهت صلاتها وتذكرت شجرة الورد فحملت بعض المياه فى وعاء وخرجت لتسقيها ..

كانت شـجرة الورد تنبت بين صـخرتين فى مكان يبعد عن المسـجد خطوات .. وكان المكان مهجورا من الناس ولا أحد يقتربُ منه .. كـان المعروف انه محجوز لمريم لتصلى فيه أو تتعبد .

اقتربت « مريم » من شجرة الورد وسقتها ، ووضعت الوعاء ، ووقفت تتأمل شجرة الورد التى طال عودها الى الضعف فى ليلتين ..

وفجأة سمعت « مريم » صوت أقدام تستقر على الأرض .. لم تسمع صوت أقدام تسير .. انما سمعت صوت أقدام تستقر على الحصى والرمل والتراب .. ملأها الخوف لحظة .. شعرت بأنها ليست وحدها .

التفتت الى جوارها فلم تر شيئا ..

ثم بدأت عيناها تتعودان الضوء فشاهدته يقف هناك ..

---

(١) الآية ٤٣ سورة آل عمران مدنية .

ارتعشت « مريم » ونكست رأسها ..

رأت على الأرض خيالا طويلا .. وكان هذا غريبا لدرجة كبيرة ، فقد كان واقفا فى ضوء القمر . . ولم يكن وراءه مصباح ليكون هناك خيال ..

وقالت « مريم » لنفسها :

من يكون هذا الذى يقف هناك .. ؟

ان النظرة السريعة التى القتها « مريم » على وجهه هى التى أثارت قلقها .. ان وجهه غريب لم تره من قبل ، وجبهته مضيئة أكثر من القمر .. ورغم أن عينيه تشعان بالعزة والجلال ، فقد كان وجهه كله يعبر عن التواضع العظيم .. وبدأ وجهه فى النظرة السريعة التى القتها عليه «مريم» كوجه رجل عنده عزة من يعبد الله منذ ملايين السنين .

.. ..

وتساءلت « مريم » فى نفسها عمن يكون . . وكأنما قرأ الغريب أفكارها فقال :

ــ السلام عليك يا مريم

فوجئت مريم انها أمام صوت بشرى يصدر من انسان .

قالت « مريم » قبل أن ترد عليه السلام :

« انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا .. » [١] ..

أرادت أن تحتمى فى الله . . وسألته هل هو انسان طيب يعرف الله ويتقيه .. وابتسم الواقف هناك ابتسامة نقية .

« قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .. » .

لم يكد الغريب ينتهى من كلمته ، حتى أضاء المكان بضوء غريب لا يشبه ضوء الشمس ولا ضوء القمر ولا ضوء المصابيح ولا الشموع ولا النار .. كان هناك نور شديد الصفاء .. وراح هذا النور يتجمع حول الواقف فى شكل أجنحة راحت تزيد حتى ملأت الأفق حول « مريم » ودارت فى رأس مريم كلماته .. **انما أنا رسول ربك** .. آه .. هذا سيد الملائكة ، الروح الأمين جبريل عليه السلام ، وقد تمثل لها بشرا سويا ..

.. ..

رفعت مريم رأسها وهى ترتعش انفعالا .. كان الروح الأمين يقف أمامها فى صورته البشرية .. تأملت مريم صفاء جبهته ، ونقاء وجهه ، وجلال عينيه .. صدق ظنها .. لديه عزة من يعبد الله ملايين السنين .. ثم تذكرت بقية جملته فجأة .. لقد قال انه رسول ربها .. وانه جاء كى يهبها غلاما زكيا .. تذكرت مريم انها عذراء .. لم يمسسها بشر .. لم تتزوج ، ولم يخطبها أحد ، ولم يمسها انسان . كيف تنجب بغير زواج ..

(١) من الآية ١٨ سورة مريم مكية .

دارت هذه الافكار فى رأس مريم فقالت للروح الأمين :

« أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا .. ! » [1]

قال الروح الأمين :

«كذلك قال ربك . . هو على هين .. ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .. »[2] ..

استقبل عقل « مريم » كلمات الروح الأمين .. ألم يقل لها ان هذا هو أمر الله .. وكل شىء ينفذ اذا أمر الله .. ثم أى غرابة فى أن تلد بغير أن يمسسها بشر .. لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير أب أو أم ، لم يكن هناك ذكر وأنثى قبل خلق آدم . وخلقت حواء من آدم فهى قد خلقت من ذكر بغير انثى .. ويخلق ابنها من غير اب . . . يخلق من أنثى بغير ذكر .

والعادة ان يخلق الانسان من ذكر وأنثى .. العادة أن يكون له اب وأم ، لكن المعجزة تقع عندما يريد الله تعالى أن تقع ..

عاد جبريل عليه السلام يتحدث :

« ان الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين »[3] ..

زادت دهشة مريم .. قبل أن تحمله فى بطنها تعرف اسمه .. وتعرف انه سيكون وجيها عند الله وعند الناس ، وتعرف انه سيكلم الناس وهو طفل وهو كبير .. وقبل أن يتحرك فم مريم بسؤال آخر .. رات الروح الأمين يرفع يده ويدفع الهواء فى اتجاه مريم .. وجاءت نفحة الهواء مضيئة بنور لم تره « مريم » من قبل .. وتسلل هذا النور الى جسد مريم وملأه فجأة ..

.. ..

وقبل أن تسأل « مريم » سؤالا آخر .. كان الروح القدس قد اختفى بغير صوت ..

وهب الهواء البارد فارتعشت مريم .. احست أن عقلها سيهرب منها هروب الطير الخائف .. وعادت الى محرابها مسرعة .. وهناك اغلقت عليها الباب وانخرطت فى صلاة عميقة .. وبكاء اعمق ..

انها تحس الفرح .. والدهشة .. والاضطراب .. والسلام العميق .. وانها ليست وحدها .. لم تعد وحدها .. منذ أن انصرف الروح القدس عليه السلام ، وهى تحس انه لم يتركها وحيدة .. حركت يده دفعة ملأتها من النور .. هذا النور يتحول داخل بطنها الى طفل .. طفل سيصبح عندما يكبر كلمة الله وروحه التى ألقاها الى مريم ..

سيصبح عندما يكبر رسولا لله ونبيا رسالته هى الحب ..

---

(1) من الآية ٢٠ سورة مريم مكية .
(2) من الآية ٢١ سورة مريم مكية .
(3) من الآية ٤٥ وآية ٤٦ سورة آل عمران مدنية .

نامت مريم هذه الليلة نوما عميقا ، أفاقت منه فى الصباح ..

لم تكد تفتح عينيها حتى فوجئت بأن المحراب يمتلىء بفاكهة ليس هــذا أوانها .. كانت الفاكهة أكثر مما يأتيها فى العادة ..

وأدهشها ذلك .. وتذكرت ماحدث لها أمس .. قصة زيارتها لشــجرة الورد .. لقاءها بالروح القدس .. كيف نفخ الله فيها كلمته .. عودتها الى المحراب .. ثم نومها العميق .. قالت « مريم » لنفســها وهى تنظــر الى الفاكهــة الكثيرة :

ــ هل آكل وحدى هذه الفاكهة .. ؟

قال لها صوت داخلى :

ــ لست وحدك الآن « يامريم » .. انتما اثنان .. أنت وعيسى .. يجب أن تأكلى جيــدا ..

وبدأت « مريم » تأكل ..

ومرت الأيام .. كان حملها يختلف عن حمل النساء .. لم تمرض ولم تشعر بثقل ولا أحست أن شيئا زاد عليها ولا ارتفع بطنها كعادة النساء .. كان حملها به نعمة طيبة .

وجاء الشهر التاسع وفى العلماء من يقول أن الفاء تفيد التعقيب السريع ، بمعنى ان مريم لم تحمل بعيسى تسعة اشهر ، وانما ولدته مباشرة كمعجزة .. خرجت مريم ذات يوم الى مكان بعيد .. انها تحس أن شيئا سيقع اليوم .. لكنها لاتعرف حقيقة هذا الشىء ..

قادتها قدماها الى مكان يمتلىء بالشجر .. والنخل . مكان لا يقصــده أحد لبعده .. مكان لا يعرفه غيرها .. لم يكن الناس يعرفون أن « مريم » حامل .. وانها ستلد .. كان المحراب مغلقا عليها ، والناس يعرفون أنهــا تتعبد فلا يقترب منها احــد . »

جلست مريم تستريح تحت نخلة عظيمة مرتفعة ..

وراحت تفكر فى نفسها .. كانت تشعر بألم .. وراح الألم يتزايد ويجىء فى مراحــل متقاربة ..

وبدأت مريم تلــد ..

« فاجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »[1] ..

ان الم الميلاد يحمل لنفس العذراء الطاهرة آلاما اخرى تتوقعها ولم تقــع بعد . كيف يستقبل الناس طفلها هذا .. وماذا يقولون عنها .. انهم يعرفون انها عذراء .. فكيف تلد العذراء .. هل يصدق الناس أنهــا ولدته بغير أن

---

(١) الآية ٢٣ سورة مريم مكية .

يمسسها بشر .. وتصورت نظرات الشك ، وكلمات الفضول ، وتعليقات الناس وامتلأ قلبها بالحزن ..

.. ..

وولد فى نفس اللحظة من قدر الله عليه أن يحمل فى قلبه أحزان البشرية .

لم تكد « مريم » تنتهى من تمنيها الموت والنسيان ، حتى ناداها الطفل الذى ولد :

« فناداها من تحتها : ان لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا »[1] ..

نظرت « مريم » الى المسيح .. ما أنبل وجهه .. لم يكن وجهه أحمر مجعدا مثل من يولد ، ولكنه كان ناعما أبيض .. وقد ارتسم عليه الطهر والمحبة .. وكان الطفل يرقد على حشائش الأرض الخضراء ويتكلم .. يحدثها أن تكف عن حزنها .. ويطلب اليها أن تهز جذع النخلة لتسقط عليها بعض ثمارها الشهية .. فلتأكل ، ولتشرب ، ولتمتلىء بالسلام والفرح ولا تفكر فى شىء .. فاذا رأت من البشر أحدا فلتقل لهم انها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم انسانا .. ولتدع له الباقى ..

ونظرت « مريم » الى المسيح بحب .. كان طفلا لم يزل مولودا منذلحظات ولكنه يحمل مسئولية أمه على كتفيه .. كما سيحمل بعد ذلك آلام الفقراء على كتفيه .

وظهر لمريم فى وجه الطفل تعبير غريب .. تعبير من جاء الى العالم لا ليأخذ منه شيئا وانما ليعطيه كل شىء ..

ومدت « مريم » يدها الى النخلة الضخمة .. ولم تكد تلمس جذعها حتى تساقط عليها رطب شهى .. فأكلت وشربت ولفت الطفل فى ملابسها ، والصقته بقلبها واستسلمت لعذوبة النوم .

كان عقل « مريم العذراء » مثل طائر لا يكف عن الطيران السريع والهبوط المفاجىء .

ان تفكيرها لا يكاد يستقر على غصن من اغصان السلام والراحة ، حتى يهتز ذهنها بشىء فيطير الهدوء ويعاودها القلق .

ان تفكيرها كله يدور حول مركز واحد .. هو عيسى ، وهى تتساءل بينها وبين نفسها كيف يستقبله اليهود .. ماذا يقولون فيه .. ماذا يقولون عنها . هل يصدق أحد من كهنة اليهود الذين يعيشون على الغش والخديعة والسرقة ، هل يصدق أحدهم وهو بعيد عن السماء ان السماء هى التى رزقتها بطفل . ان موعد خلوتها ينتهى ، ولابد أن تعود الى قومها .. فماذا يقول الناس ..

---

(١) الآيات ٢٤ الى ٢٦ نفس السورة .

كان الوقت عصرا حين عادت مريم ..

وكان السوق الكبير الذى يقع فى طريقها الى المسجد يمتلىء بالناس الذين فرغوا من البيع والشراء وجلسوا يثرثرون ، ويشربون النبيذ .

لم تكد « مريم » تتوسط السوق حتى لاحظ الناس انها تحمل طفلا ، وتضمه لصدرها وتمشى به فى جلال وبطء ..

....

تساءل احد الفضوليين : اليست هذه مريم العذراء ؟ .. طفل من هذا الذى تحمله على صدرها . ؟!

قال أحد السكارى : هو طفلها .. ترى أى قصة ستخرج بها علينا ؟ .

وسقطت الكلمة من فم الرجل على الأرض .. وكانت الأرض موحلة بسبب المطر العظيم الذى سقط ليلة الأمس ، وكانت هناك عقول أشد اتساخا من وحل الأرض .. عقول كهنة اليهود .. فى البداية حاصرتها الأسئلة .. ابن من هذا يا مريم ؟ لماذا لاتردين ؟ هو ابنك قطعا .. كيف جاءك ولد وانت عذراء .. ؟

« يا أخت هارون : ما كان ابوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا »[١]

الكلمة ترمى مريم بالبغاء .. هكذا مباشرة دون استماع أو تحقيق أو تثبت .. ترميها الكلمات بالبغاء وتعيرها وتوبخها بأنها من بيت طيب وليست أمها بغيا ، فكيف صارت هى كذلك .. راحت الاتهامات تسقط عليها وهى مرفوعة الرأس .. تومض عيناها بالكبرياء والأمومة .. ويشع من وجهها نور يفيض بالثقة .. فلما زادت الأسئلة ، وضاق الحال ، وانحصر المجال ، وامتنع المقال ، اشتد توكلها على ذى الجلال ، وأشارت اليه ..

أشارت بيدها لعيسى ..

واندهش الناس .. فهموا انها صائمة عن الكلام وترجو منهم أن يسألوه هو كيف جاء ..

تساءل الكهنة ورؤساء اليهود كيف يوجهون السؤال لطفل ولد منذ أيام .. هل يتكلم طفل فى لفافته ... ؟!

قالوا لمريم :

« كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ »[٢] ..

قال عيسى :

« انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا »[٣] ..

---

(١) الآية ٢٨ سورة مريم مكية .
(٢) من الآية ٢٩ سورة مريم مكية .
(٣) الآيات ٣٠ الى ٣٣ نفس السورة .

لم يكد عيسى ينتهى من كلامه حتى كانت وجـوه الكهنة والاحبـار ممتقعة وشـاحبة ..

كانوا يشـهدون معجزة تقع أمامهم مباشرة .. هذا طفل يتكلم فى مهده .. طفل جاء بغير أب .. طفل يقول أن الله **قد آتاه الكتاب وجعله نبيا** .. هـذا يعنى أن سلطتهم فى طريقها الى الانهيار .. سيصبح كل واحد فيهم بلا قيمة عندما يكبر هذا الطفل .. لن يسـتطيع أن يبيع الغفران للنـاس أو يحكمهم عن طريق ادعائه أنه ظل السماء على الأرض ، أو باعتبـاره الوحيد العـارف فى الشريعة ..

شعر كهنة اليهود بالمأساة الشـخصية التى جاءتهم بميلاد هذا الطفل .. ان مجرد مجىء المسـيح يعنى اعادة الناس الى عبادة الله وحـده .. وهذا معناه اعدام الديانة اليهودية الحالية .. فالفرق بين تعاليم موسى وتصرفات اليهود كان يشبه الفرق بين نجوم السماء ووحل الطرقات .. وتكتم رهبـان اليهود قصة ميلاد عيسى وكلامه فى المهد .. واتهموا مريم العـذراء ببهتان عظيم ، اتهموها بالبغاء ، رغم انهم عاينوا بأنفسهم معجزة كلام ابنها فى المهد .. وأسدل الستار مؤقتا على القصة ..

رغم هذا كله .. فقد تسربت أنباء قصة ميلاد عيسى الى الحاكم الرومانى هيرودوس .. وكان هذا الحاكم كلبا من كلاب روما المخلصين .. وكان يحكم الفلسـطينيين واليهود بقـوة السـيف ورعب الدماء وكثرة الجـواسيس والخوف ..

....

كان يجلس فى قصره ويشرب النبيذ حين وصلت اليه أخبار غامضة عن طفل ولد بغير أب .. طفل يقال انه تكلم فى المهد .. وقال كلاما كثيرا يهدد سلطان روما .. ويقلقل الكرسى بالتالى تحت جسم هيرودوس .. وجن جنون الحاكم الرومانى وقذف بكأسه فى وجه من يحدثه وأمر بعقد اجتمـاع مفاجىء لكبار ضباطه وجواسيسه ..

وانعقد الاجتماع على الفور ..

جلس هيرودوس بوجهه الأسود اللامع ، واجـال بصره فى جواسيسه ، وسـأل :

ــ ما هى آخر أخبار الطفل الذى تكلم فى مهده ؟

رد مدير الجواسيس بقوله :

ــ يبدو ان الموضوع غير صحيح .. لقد سمعنا شائعات حول طفل يقولون انه صنع معجزة بكلامه وهو طفل .. وأطلقنا رجالنـا للبحث عنه فلم يعثروا عليه ، واتضح لنا من التحريات ان الموضوع مبالغ فيه ..

قال أصغر الجواسيس :

ــ بلغنى من مصـادر عليمة ، ان ثلاثة من حكماء المجوس جاءوا وراء نجم رأوه يلمع فى السماء .. وأن هذا النجم يشير لميـلاد طفل معجزة .. طفـل سيخلص شـعبه .

ســأل الحاكم :

ــ يخلص شعبه ممن ؟!

قال الجاسوس : لم يعرف رجالى ، وقد اختفى الحكماء الثلاثة فلم يعثر أحد لهم على أثر .

قال الحــاكم :

ــ كيف اختفوا ؟ .. وما هى حكاية هــذا الطفل ؟ .. هل هناك مؤامرة ضد روما ؟

قفز الحاكم من مقعده حين ذكر روما وبدأ يتكلم وهو ثائر .

ــ اريد راس الحكماء الثلاثة .. واريد راس ذلك الطفل .. واريد معلومات ليست ناقصة ، الموضوع يزداد غموضا أيها الأغبياء .

قال مدير الجواسيس :

ــ ربما يكون الموضوع حلما تصور اليهود انهم راوه ..

قال الحاكم :

ــ ان رؤوسكم جميعا ستطير اسرع من الحمام اذا لم تحضروا الى القصة الكاملة لهذا الطفل .. ما هذه الفوضى .. تفضلوا بالانصراف .

انصرف رجاله وجواسيسه ، وجلس الحــاكم يفكر فى الموضوع .. كان الموضوع يثير قلقه بشكل واضح .. لم يكن يهمه ان ينزل دين جديد للناس ، انما كان يهمه سلطان روما الذى يمثله هو .. وقرر الحاكم أن يستدعى كبير كهنة اليهود ليسأله فى هــذا الموضوع .. وارســل ضباطه الخصــوصيين لاستدعاء الكاهن ..

لم تمض ساعة حتىكان كبير كهنة اليهود ينحنى أمام الحاكم .

قال الحــاكم :

ــ اريد أن احدثك فى موضوع يثير قلقى أيها الكاهن .

قال الكاهن :

ــ أتمنى أن أخدم جلالتك ..

قال الحــاكم :

ــ سمعت اخبارا متضاربة عن طفل ولد وتكلم فى مهده وقال انه سيخلص شعبه .. ما هى حقيقة القصة ؟

قال الكاهن وهو يحس ان الســـؤال ينطوى على مصــيدة لا يعرفهــا بالتحديد :

ــ هل تهتم جلالتكم بالديانة اليهودية ... ؟

قال الحاكم ثائرا :

ـــ لا أهتم بشيء غير سلطان روما .. أجب عن سؤالى أيها الكاهن !

كان الكاهن قد رأى عيسى يتكلم فى مهده .. وكان يفهم انه لو قال هــذا فسوف يثير المتاعب لنفسه ، واختار أن يكذب نصف كذبة .. فقال للحاكم انه سمع عن القصة ، ولكنه يشك فيها ..

ســأل الحاكم وفضوله يزداد :

ـــ هل صحيح أن ديانتكم تتحدث عن قدوم مخلص لشعبكم .. ؟

قال الكاهن :

ـــ هذا صحيح يا صاحب الجلالة .

قال الحــاكم :

ـــ هل تعرف ان هذه مؤامرة ضد أمن الدولة الرومانية .. هل تدرك ان هــذه خيــانة .. ؟

قال الكاهن وهو يتراجع :

ـــ ارجو أن تتركنى أصحح لجلالتكم فكرة بسيطة .. ان هذه النبوءة قديمة .. صدرت عندما كان الشعب أسيرا فى بابل منذ مئات السنين ..

قال الحــاكم :

ـــ هل هناك من يصدق هذه النبوءة الآن ؟ .. هل تصدقها انت شخصيا ؟ .. هل رأيت هذا الطفل الذى يقولون انه ولد بغير أب ... ؟

قال الكاهن :

ـــ هل يصدق سيدى الملك أن هنــاك انسانا يولد من غير أب ؟ .. هــذه احلام الشــعب ..

قال الحــاكم :

لا شيء يطرد النوم من عيون الحكام غير أحلام الشعب .. انصرف أيهــا الكاهن فاذا سمعت أى أخبار فدعنى أعرفها قبل امرأتك ..

لم يكد الكاهن ينصرف حتى كان هيرودوس يفكر .. ماذا لو كان هذا الكاهن يكذب .. لقد رأى فى عينيه وميض الكذب .. وهو يعرف هــذا الوميض لأنه كاذب هو الآخر .. ثم ما هى قصة الحكماء الثلاثة الذين يتتبعون نجما ؟ .. هل هناك مؤامرة ضد روما وهو لا يعرف ؟ .. صرخ الحاكم فى كبير ضــباطه أن يقبض على كل من سمع هذه القصة أو شاهدها .. وأن يبــدأ البحث عن عذراء ولدت طفلا .. وان يقتل كل الأطفال المولودين فى نفس هذا الوقت ..

كانت مريم تخرج من فلسطين كلها الى مصر ..

جاءها فى الليلة الماضية انســان لم تره من قبل .. القى عليها الســلام وامرها بأمر :

احملى طفلك يا مريم واخرجى الى مصر ..

سألت مريم بخوف :

ـ لماذا ؟ .. كيف أخرج وحدى الى مصر ؟ .. كيف أعرف الطريق ؟

قال الغريب :

أخرجى تحرسك عناية الله .. ان الحاكم الرومانى يبحث عن طفلك ليقتله ..

سألت مريم :

ـ متى أخرج ؟

قال الغريب :

ـ الآن .. لا تخافى شيئا فانك تخرجين بنبى كريم .. وكل الأنبياء يخرجهم قومهم من ديارهم وبلادهم .. هذا قانون من قوانين الحياة .. ان يطرد الشر أنقى ما فى الوجود لفترة .. ثم يعود الخير لعرشه .. اخرجى يا مريم .. وخرجت مريم الى مصر ..

قطعت صحراء سيناء مع قافلة كانت تتجه الى مصر .. سارت تحمل عيسى فى نفس الطريق الذى سار فيه موسى من قبل حين ظهرت له النار المقدسة ونودى من جانب الطور الأيمن ..

وصلت الى مصر بعد رحلة طويلة شاقة ..

وكانت مصر بخيرها الكثير ، وسماحتها ، وثقافتها القديمة ، واعتدال جوها خير مكان ينشأ فيه عيسى ..

وفى مصر عاش المسيح طفولته وصباه ، ثم جاء مريم نفس الغريب الذى أمرها أن ترحل من فلسطين ، وأمرها هذه المرة أن تعود لفلسطين ..

قال لها : هلك الملك الظالم فعودى بابنك يا مريم .. جاء الوقت على الخير ليعتلى عرشه .. سيكون عرشه قلوب الفقراء والتعساء والصادقين ..

عودى يا مريم ..

وعادت مريم ..

ومرت مياه كثيرة فى نهر الأردن ..

وكبر عيسى وأدرك الشباب ..

....

خرج عيسى من بيته فى طريقه الى المعبد اليهودى ..

كان اليوم هو السبت ..

لم يكن هناك بيت يهودى يستطيع أن يوقد نارا أو يطفئها يوم السبت ، أو ينزع قشرة ثمرة .. ممنوع فى هذا اليوم ان تعجن امراة عجينها .. أو أن يغسل غلام كلبه ، أو أن تضفر فتاة شعرها ..

كان موسى قد أمر باحترام يوم السبت وتخصيصه لعبادة الله ..

وذهبت الحكمة من احترام يوم السبت ، وبقى يوم السبت نفسه .. ميدانا خصبا لتطبيق النصوص الحرفية الجامدة .. صار اليوم مقدسا عند اليهود .. وأحاطوه بسياج من التقاليد الشكلية الجوفاء ، وركزوا كل اهتمامهم فى حفظه حفظا حرفيا لا تهاون فيه ، اذ كانوا يعتقدون انه كان محفوظا فى السماء قبل أن يخلق الله الانسان ، كما اعتقدوا — حين سقطت هممهم — أن بنى اسرائيل قد اختيروا لغرض واحد فقط .. هو حفظ السبت .. وكانوا يفخرون بأنهم يحفظونه بحرفية جامدة وتامة .. ولو أدى ذلك الى هزيمتهم فى الحرب ، أو وقوعهم فى يد الاعداء .. وقد أدى حفظهم له على هذا النحو الى تسييجهم له بأكبر عدد من المحظورات .. ووضع مجلس اليهود الاعلى تشريعات تحرم مئات الأمور يوم السبت ..

محرم لبس الاسنان الصناعية يوم السبت .. ومحرم على المريض ان يضع ضمادة أو يدهن موضع الألم يوم السبت ، أو يستدعى الطبيب .. محرم كتابة حرفين هجائيين يوم السبت .. الدفاع عن النفس محرم يوم السبت الحصاد والدراس ممنوعان يوم السبت .. اى رحلة فى يوم السبت ينبغى الا تزيد عن الفى ياردة .. يحرم حمل شىء خارج البيت يوم السبت ..

وتصور المحافظون على الشريعة ان الغرض الأسمى من وجودهم هو اقامة « السياجات » التى تصون الشريعة ، والأصل ان كثرة التشريعات والمحظورات والقوانين تعنى زيادة الفساد أو تعين عليه فى أبسط الظروف ، وكلما ولد شىء محظور أو محرم ، كان يولد معه فى نفس الوقت أسلوب للتحايل عليه والنفاذ منه وابطاله ..

وهكذا امتازت حياتهم بهذا النفاق العميق ، الذى يتمثل فى وجود شكل خارجى تتم المحافظة عليه ، وحقيقة داخلية تهدرها التصرفات تماما ..

ورغم ان طائفة الفريسيين كانت هى المكلفة أساسا بمهمة تطبيق الشريعة واحاطتها بأكبر قدر من الضمانات ، فسوف نراهم على استعداد تام لابتداع الحيل التى تمكنهم من التخلص من أحكام الشريعة فى الوقت المناسب ..

وكان هذا الوقت المناسب ، هو الوقت الذى تتعارض فيه الشريعة مع مصالحهم الخاصة ، أو تعوق الكسب الحرام الذى يتهيأ ليدخل جيوبهم ..

كانت هناك — مثلا — قاعدة شرعية تقضى بألا تتجاوز أى رحلة فى يوم السبت مسافة ألفى ياردة .. ماذا يفعل الفريسيون فى الولائم التى يدعون اليها يوم السبت ؟ .. وتبعد موائدها عن بيوتهم اكثر من الفى ياردة ..

المسألة بسيطة ..

كانوا يضعون فى عشية السبت بعض الأطعمة على بعد الفى ياردة من مساكنهم .. وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسيروا بعده ألفى ياردة أخرى .. ومن ثم يتاح لهم أن يضاعفوا المسافة المفروضة ..

كما انهم لكى يتخلصوا من عقبة تحريم حمل أى شىء يوم السبت الى خارج البيت ، كانوا يحتالون بخدعة أخرى .. وهى ان يضعوا قوائم وعوارض أبواب ونوافذ فى مختلف الشوارع .. فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل فى داخله حمل الأشياء والحركة ..

من أمثلة تلاعبهم فى الشريعة [وهم حفظتها !] .. ان الشريعة الموسويه كانت تلزم الابن ان يعول والديه فى حالتى الشـــيخوخة والحــاجة ، ولكن الفريسيين كانوا يتيحون للأبناء فرصة التهرب من هذا الالتزام بحيلة بســيطة .. يذهب الابن اذا طالبه ابواه بنفقة الى الكهنة ويتفق معهم على أن يوقف كل امواله وممتلكاته على الهيكل .. وعندئذ يعجز الوالدان عن أخذ شيء منه .. فاذا يئسـا منه وتوقفا عن مطالبته ، ذهب واسـترد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال .. فيســتمر الوقف صـوريا فقط وغير نافذ المفعول .. [انجيل متى] .. وسط هذا الجو من البغاء الفكرى .. كان هناك تعنت وجمـود فى كل خطوة يخطوها اليهودى .. كانت هناك سـبع درجات للطهارة .. وست وعشرون صلاة ينبغى تلاوتها أثناء غسل الأيدى قبل تناول الطعام ، وكانوا يعدون اهمال قراءة هذه الصلوات بمثابة قتل النفس انتحارا ، والحرمان من الحياة الأبدية .. وقد خصص التلمود [وهو مجموعة التفاسير والشروح والاضافات التى كتبت بعد التوراة] ، خصـص أربعة أبواب يتوه فيها العقل لاجراءات الغسل والتطهير ..

وكان هذا التشديد الظاهرى يقابله تسيب داخلى ..

وهكذا كانت قشرة المجتمع اليهودى تلتئم على مجتمع قد تهـرأ تمـاما من الداخل ، وســاده نفاق لا مثيل له .. ورغم أن الناس كانوا يتبعون التعاليم الحرفية للشريعة ، فقد كانت القلوب تموج بالشرور .. وتضطرب بالكراهية ، كما كانت العقول موانيء تستريح فيها سفن الخرافات والأكاذيب ..

....

سار عيسى قاصـدا المعبد ..

يسير الناس فى الشوارع حوله وهم يتخايلون فى ملابسهم الملونة الثمينة .. وهو يسير فى ردائه الصوفى الأبيض ..

شعره الناعم يصل إلى كتفيه ويبدو مغسولا فى مياه سحابة أمطرت رذاذا خفيفا .. وقدماه تمشيان على التراب فيمتلئ التراب برائحة عطر مجهول المصدر .. وملابسه المصنوعة من الصوف الفقير الخشن ، تبدو عليه أعظم بهاء من ملابس ملوك الرومان وكهنة المعبد ..

ورغم ان اليوم هو السبت .. فقد مد عيسى يده الى ثمـار حقل وأخذ منه ثمرتين أعطاهما لطفل فقير جائع ..

كان هذا التصرف فى الديانة اليهودية يعد خروجا على الديانة اليهودية ..

وكان عيسى يعرف ان الديانة الحقيقية ليست هى طاعة الشكل الخارجى ، بينما القلب بعيد عن التواضع .. ولهذا السبب كان عيسى ينزع قشور الثمار ويطعم المخلوقات يوم السبت .. وكان يشـعل النـار للعجائز حتى لا يقتلهم البرد .. وكان يزور المعبد اليهـودى كثيرا ، ويقف داخـله يتـأمل الكهنة والنـاس ..

وصل عيسى الى المعبد ووقف داخله ، وطاف ببصره حوله ..

ان حيطـان المعبد صنعت من خشب الصـندل ذى الرائحـة المعطرة ..

والستائر من القماش الفاخر المنسوج بالذهب .. والمصابيح الفضية تتدلى من السقف .. والشموع تملأ المكان بالضوء .. ورغم ذلك كان الظلام يملأ القلوب ..

وفى مكانه البعيد الذى وقف فيه ، كان ــ عيسى ــ يشبه نقطة الضوء الوحيدة فى المكان .. وكان الله لم يأمره بعد أن يفرش هذا الضوء لأكبر عدد من الفقراء والتعساء والحزانى ..

طالت وقفة عيسى فى المعبد ..

كلما ادار وجهه حوله وجد كهنة .. كان هناك عشرون الف كاهن ، أسماؤهم مسجلة فى الهيكل .. يتعيشون منه،ويقبضون مرتباتهم من خزائنه، وكانت حجرات المعبد تمتلىء بالآلاف منهم فى ملابس الحفلات .. هؤلاء هم اللاويون بقبعاتهم المدببة وجيوبهم العريضة التى يحملون فيها كتب الشريعة ، وهؤلاء هم الفريسيون بملابسهم البنفسجية الواسعة ذات الأطراف المنسوجة بالذهب .. وهؤلاء هم خدم الهيكل الرسميون فى ملابسهم البيضاء ، وهؤلاء هم الصدوقيون ، وهم طائفة الكهنة الارستقراطيين التى تتحالف مع السلطة الحاكمة وتثرى عن طريق هذا التحالف .. لاحظ عيسى ان عدد زوار الهيكل اقل من عدد الكهنة ورجال الدين .. كان المعبد يمتلىء بالخراف والحمام التى يشتريها زوار المعبد لتقديمها قرابين الى الله .. قرابين تذبح داخل المعبد فوق المذبح ..

كانت كل خطوة داخل المعبد تكلف السائر نقودا ..

هنا فى المعبد اليهودى ينكشف جوهر الحياة اليهودية ..

ان القيمة الوحيدة التى عبدها الناس فى هذا الزمان كانت هى النقود ..

صار الترف المادى أو الثراء هو القيمة الوحيدة التى يتصارع عليها الناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين رجال الشريعة أو رجال الحياة ..

ان الصدوقيين والفريسيين يتعاملون فى الهيكل كأنهم داخل سوق يستغلونه للاثراء على حساب الضحايا الذين يوقعهم حظهم فى دخوله ..

وكثيرا ما كان الصدوقيون والفريسيون يتشاجرون فى أمور الشريعةالعليا، ومثال ذلك مشاجراتهم بشأن توريد الأضحية اللازمة للذبيحة اليومية فى الهيكل ..

كان الفريسيون يرون انه يجب شراء هذه الضحايا من مال الهيكل ، على حين كان الصدوقيون يعتبرون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون انه يجب شراء الضحايا باكتتابات مستقلة .. كذلك كان الفريسيون يوجبون حرق الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم .. وقد ورد فى التلمود أن الصدوقيين اذ كانوا يبيعون الحمام فى حوانيت يملكونها ، عمدوا الى مضاعفة المناسبات التى ينبغى فيها تقديم الحمام ذبيحة ، حتى وصل سعر الحمامة الواحدة الى بضعة دنانير ، ولاحظ الفريسيون هذا الاثراء الذى أصابته طائفة الصدوقيين ، فأفتى أحد شيوخ الفريسيين ، وهو سمعان بن عمالائيل ، بانقاص المناسبات التى يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك وصل سعر الحمامة الى ربع دينار ، فكانت تلك ضربة عنيفة لأصحاب حوانيت الحمام ، التى كان يملكها الكهنة ولا سيما أولاد رئيس الكهنة ..

طاف عيسى بعينيه فى المكان ..

لاحظ الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الأضحية ولا تقديم القرابين .. لاحظ كيف يعاملهم الكهنة ويهشونهم كالذباب ..

وفكر عيسى بينه وبين نفسه ..

لماذا يحرقون الحيوانات ويذهب لحمها دخانا فى الهواء .. وهناك آلاف الفقراء يموتون جوعا خارج المذبح ؟! .. لماذا يظنون أن الله يرضى عندما تتلطخ المذبحة بالدماء وتذهب الأضحية الى بيوت الكهنة ودكاكينهم لبيعها بعد ذلك ؟ .. لماذا يجب على الفقراء ان يستدينوا ليصرفوا نقودهم فى شراء حيوانات الذبيحة ؟ .. ولماذا لا تصلح الا الذبائح التى يربيها الكهنة ؟ .. وماذا يفعل الكهنة بهذه النقود ؟ .. وأخيرا ... أين مكان الفقراء فى المعبد .. ان كل من هنا أغنياء معهم نقود .. أليس غريبا أن يدخل الانسان بيت الله ومعه نقود ... ؟!

وانصرف عيسى من المعبد وخرج من المدينة كلها الى الجبل ..

كان صدره يشتعل بغيرة مقدسة على الحق ، وكان وجهه يزداد شحوبا ونقاء وحزنا على امتلاء الدنيا بالشرور .. ووقف عيسى فوق تلال الناصرة وصف قدميه وبدأ يصلى .. انحدرت دموعه من عينيه الى خديه الى الأرض .. طالت وقفته واشتد بكاؤه .. كانت هناك بذرة زهرة تموت عطشا فى الأرض ، فشربت دموع المسيح وشقت طريقها الى الحياة .. انقذتها دموع المسيح مثلما قدر له فيما بعد أن ينقذ الناس بدعوته ..

وفى هذه الليلة المباركة ..

قبضت من الأرض روحا نبيين كريمين .. هما : يحيى وزكريا ..

قتل الاثنان بيد السلطة الحاكمة ..

ونقصت الأرض كثيرا من الخير حين قبضا ..

فى نفس الليلة .. نزل الوحى على عيسى بن مريم ، وصدر له أمر الله تبارك وتعالى أن يبدأ دعوته الى ملكوت السماء ..

....

انتهى الأمر ، وأغلق عيسى بن مريم الصفحة الناعمة من حياته .. صفحة التأمل والعبادة ، وبدأت رحلته الشاقة المليئة بالآلام .. بدأت رحلته للدعوة الى الله .. الى مملكة جديدة لا يستطيع السوس أن ينخر ما فيها من قمح ذهبي تقتات عليه الروح ، مملكة ليست الشريعة فيها هى توابيت الكلمات الميتة وحروفها الباردة ، وليس الصدق فيها هو شراء الغفران بالذهب ..

مملكة تقوم على التواضع والحب ..

مملكة هدف سيدها وراعيها هو خلاص الروح ..

....

التواضع والحب ..

خـــلاص الروح ..

الايمان بقيامة الأموات ووجود يوم يقدم فيه البشر حسابا عما فعلوا ..

تلك قيم وافكار كانت حياة اليهود تخلو منها تماما .

ان الشريعة الموسوية تنص على القصاص ..

من ضربك على خدك الأيمن فاضربه على خـــده الأيمن .

كيف كان اليهود يطبقون شريعة القصـــاص ؟

اذا كان المضروب قادرا .. نسف بيت الضارب ولم يكتف بضربه على خده الأيمن . واذا كان غير قـــادر .. ضربه على خـــده الأيمن وامتلأ قلبه بالحقد لأنه لم يدمر بيته .

كانت الكراهية هي المرفأ الذى رست فيه شريعة موسى ، رغم أنه كان رجلا من رجـــال الحب الالهى الكبار ، وها هى شريعته ينتهى بها الأمر على أيدى القلوب الميتة ، الى موانىء الحقد .

كيف يتصرف عيسى ازاء هـــذا كله ؟

لقد بعث عيسى مؤيدا للتوراة كمـــا انزلها الله عز وجل على موسى .

لا يهـــدم نبى عمل نبى ســـابق .

كل الأنبياء حلقات فى سلسلة واحدة هدفها النقاء والحق وتوحيد الأحد .

كيف يتصرف عيسى ازاء شريعة القصاص الموسوية ؟

كان تصرفه الهاما من خالقه سبحانه ..

رد عيسى القوم الى الغرض الأصلى من الشريعة ، ردهم الى حـــكمتها الداخلية الأصيلة ..

ردهم الى الحب .

لن يقول المسيح لمن يضربه على خده الأيمن شيئا ..

لن يسعى الى ضربه على خـــده الأيمن ..

سيدير المسيح عليه الصـــلاة والسلام له خده الأيسر ..

هـــذه هى شريعة عيسى ..

لا تختلف شيئا عن شريعة موسى ..

هى عمق بعيد من أعماق شريعة موسى .

هى العمق الأخير لهذه الشريعة .

يريد عيسى أن يثبت للقوم حوله شيئا هاما ، يريدهم أن يفهمـــوا أن الشريعة ليست أن تنتقم لنفسك وتضرب . الشريعة الحقيقية أن تسامح وتعفو وتحب .

تصير قادرا على الحب .

ليست القـدرة على الحب أمرا فى طاقة البشر جميعا ، وليست حاسـة تولد بميلادهم ، انما هى نهـاية طريق من المعـاناة والألم . وهى بداية الوجود الانسـانى الحقيقى .

ان عديدا من وحوش الغـاب والدواب تحب انفسها ، وتقـاتل من أجل الطعام والشراب ، وتطعم أبناءها وتدخر لهم ، الفرق بين الانسان والحيوان هو فارق فى درجة الحب .. لا يستطيع الحيوان أن يتجاوز ذاته بالحب الى ذوات الآخرين ، أما الانسـان ، فهو الكائن الذى يستطيع ذلك ..

وفى ذلك يكمن مجده وانسـانيته .

أفهم المسيح قومه أن الانسـان لا يصير انسـانا الا اذا انخلع من ذاته وأحب الآخرين . وكلمـا ازداد القلب الانسـانى اقترابا من أبعد الناس عنه ، هنالك يقترب الانسـان من انسـانيته .

[سمعتم انه قيل فلتحب قريبك ولتبغض عدوك . أما انا فأقول لـكم احبوا اعداءكم . باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضيكم . وصلوا من أجل الذين يسيئون اليكم ويضطهدونكم] .

انجيل متى ..

....

من النقيض الى النقيض .

جاءت دعوة عيسى نقيضـا لشريعة موسى .. فى الشكل الخارجى .. اذا نظرنا الى الشريعتين نظرة سطحية .

وفى الحقيقة .. جاءت دعوة عيسى نقضـا لما استحدثه الفريسـيون والصدوقيون فى شريعة موسى .. واحياء لحقيقة هذه الشريعة واهـدافها العليـا .

ووسط عصر مادى مترف شـديد الاهتمام بالغنى .. وسـط عالم يعبد الذهب وتسوده القسوة ويحكمه الجشـع وتمضى به الشكليات .. ظهرت دعوة المسيح كرد فعل مثالى عظيم السمو والنقاء .. كان المسيح يعرف انه يدعو الناس لاتخاذ سلوك مثالى فى الحيـاة ، كان المسيح يعرف أن دعوته مثالية .

لكن هـذه المثالية ــ فى ذلك الوقت بالتحديد ــ كانت هى الحل الوحيد لشفاء الحيـاة من بؤسها وامراضها الحاكمة .

وكان المسيح يعرف أن الناس جميعا لا يستطيعون الوصول الى القمة التى يشير اليها ويبشر بها ويتحدث عنها ويدعو اليها ، ولكن كان يكفيه أن يبذل كل واحد جهده فى الصعود قليـلا حتى ينجو .

كانت الحياة تغرق تماما ، وكانت المثالية هى سبيل النجاة الوحيد .

تميزت دعوة عيسى ــ منذ بدايتها الى النهـاية ــ بالشفافية والنقـاء

البالغين ، وبكونها دعوة تستهدف خلاص الروح ، أو دعـوة تعتبر دستوراً للسلوك الفردى ، وليست نظاما للحياة وقانونا للمجتمع وتشريعات محددة .

لن نجد فى دعوة عيسى مثـلا نظاما تشريعيا للميراث ، أو الوصية ، أو الزكاة .. لن نجـد نظاما تشريعيـا يقرر عقوبة للقتـل أو السرقة أو الزنا .. لن نجـد تشريعا للزواج والطلاق والنفقة .

تجاوزت دعوته كل هـذه التفصـيلات الدقيقة الى النبع الأصيل وهو الروح ..

كان عيسى يريد احيـاء الروح الانســانى ، وقيادته الى النور الخالق . ولهـذا السبب جاء عيسى مؤيدا بالروح القدس .

والروح القدس هو جبريل عليه السـلام .

ونحن لا نعرف الكيفية التى أيد الله تعـالى بها عيسى .. هل صحبه جبريل ولازمه طوال بعثته ؟ .. ان جبريل عليه السلام يتنزل على الأنبياء بالرســالات ، أو بالمعجـزات ، أو ينزل على قومهم بالعقـوبات .. لكنه لا يمكث معهم طيلة الوقت ، فهل لازم جبريل عيسى حتى رفع عيسى ..

يكاد القلب يطمئن لهـذا التفسـير ، فقد كان فى حيـاة عيسى شىء ملائكى .. وكانت لديه قـدرة خارقة على المعجزات ، وبلغت قدرته حـد احيـاء الموتى باذن الله ، كما بلغت قدرته حد النفخ فى طين صنع كهيئة الطير فاذا هو يطير باذن الله .

لم يكن عيسى يقرب النســاء ايضـا .. عاش حياته حتى رفعه الله لم يمس امرأة ولم يتزوج .. وهـذه صفة ملائكية أيضا ، فقد كان معظم أنبياء الله تعـالى يتزوجون ويملكون عـديدا من النســاء ، وتقدر كتب اليهود عدد نسـاء بعض انبيائهم [كسليمان مثلا] بالف امرأة ، ولا نريد أن نتوقف عند الرقم لأن معظم الأرقام تعرضت لعوامل التعرية والمحو والتبـديل . غير أننا نريد أن نشير الى طبيعة عيسى التى ارتفعت على دواعى الجسـد ورغباته المشروعة .

لقد عاش حياته متبتلا كابن خالته يحيى .. واذا كان يحيى ناسـكا يعيش فى الجبـال والصحارى ويبيت فى المغارات والكهوف ، فالأمر يبدو طبيعيا بالنسـبة له ، أما عيسى فعـاش وسـط مجتمع المدينة .. وليس لاستغنائه عن النسـاء كلية ، وليس لمعجزاته الباهرة المتصلة بالروح فى رأينا غير تفسـير واحـد ، هو تأييده بروح القـدس طيلة الفترة التى استغرقتها دعوته .

وتلك نعمة لا نعرف أحدا من الأنبياء أوتيها من قبل .

قال تعـالى فى سورة المائدة :

« اذ قال الله ياعيسى بن مريم : اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص

باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هـذا الا سحر مبين . واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون »[١] ..

....

تحدد الآيات السابقة خمس معجزات لعيسى .

الأولى : تكليمه للناس فى المهد .

الثانية : تعليمه التوراة .. وكانت التوراة التى أنزلت على موسى قد اختفت تحت ركام التحويرات والتبديلات والتفسيرات والتخريجات المتعاقبة لفقهـاء اليهود .

الثالثة : تصويره من الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه فيكون طيرا .

الرابعة : احيـاؤه الموتى .

الخامسة : ابراؤه الأكمه [من ولد أعمى] والأبرص . [المريض بجلده ولا شـفاء له] .

وهنـاك معجزة سـادسة يذكرها القرآن الكريم فى سـورة المائدة .. فى قوله تعـالى :

« اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم : هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السـماء تكون لنا عيـدا لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فانى اعذبه عذابا لا اعذبه احدا من العالمين » [٢].

وكأن المعجزة السادسة هى انزال المائدة من السماء بطلب الحواريين . وهناك معجزة سابعة وردت فى سورة آل عمران ، وهى اخبـاره عليـه السلام بأمور غائبة عن حسه ولم يعانيها ، فقد كان ينبىء صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .

«وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ! »[٣] .

هذه هى معجزاته السبع .. تسبقها معجزة ميلاده من غيراب .. وتليها معجزة رفعه من الأرض حين حاولت السلطات الحاكمة صلبه .

من حق القارىء أن يتساءل : لـماذا جاءت معجزات عيسى من هـذا

---

(١) الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية .
(٢) الآيات من ١١٢ الى ١١٥ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ٤٩ سورة آل عمران مدنية .

النوع ؟ .. نعرف أن المعجزة أمر خارق يؤيد به الله تعالى نبيه ، ولكى يكون التأييد متكاملا ينبغى أن تجىء المعجزة مناسبة لعصرها متفقة مع زمانها بحيث تؤثر فى نفوس القوم وتهز أعماقهم وتجعلهم يؤمنون أن صاحب هـذه المعجزة نبى أرسله الله تعالى . والمعجزة هى الأمر الخارق .. ورغم أن الأمر الخارق يكفى وحده للاقناع .. خاصة فى طفولة البشرية .. الا أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يجىء هذا الأمر الخارق مناسبا لزمانه ومكانه.

وهكذا اختلفت معجزات الرسل ..

بعث صالح وسط قوم يرون النوق وهى تلد ، لم ير أحدهم ناقة ولدت من جبل ، أو تنشق عنها صخور الجبل .. وكانت معجزة صالح هى ناقة الله التى خرجت يوما من صخور الجبل .

وبعث موسى لقوم شاع فيهم السحر ، وكان للسحرة مكان مرموق ، فكانت معجزته تشبه السحر فى مظهرها الخارجى ، ولكنها فى حقيقتها كانت ابطالا للسحر ونسفا له [العصا التى تحولت الى ثعبان يأكل عصى السحرة] .

وبعث عيسى لقوم ماديين ينكرون الروح تماما ، وينكرون البعث كلية ، ويزعمون أن الانسان جسم بلا روح .

قوم يعتقدون أن دم المخلوق هو روحه أو نفسه .

تقول التوراة التى بأيدى اليهود فى تفسير النفس .. انها الدم .

جاء فيها «لا تأكلوا دم جسم ما . لأن نفس كل جسد هى دمه» ..

بعث عيسى وسـط قوم سـادتهم فلسفة أساسها أن خلق الكون كان له مصدر أول .. كالعلة عن معلولها .. وكان له وجود سابق .

وسـط هـذا العصر المادى الذى انكر الروح تماما .. كان منطقيا أن تجىء معجزات عيسى اعلانا لعـالم الروح .

وهكذا ولد عيسى من غير أب .

تكفى هـذه المعجزة لاقتـاع القوم أن خلق الكون لم يكن له مصـدر اول . لم يكن له وجود سـابق .. نحن أمام خـالق أوجد نظاما لكل شىء ، وجعل أسبابا لكل شىء ، جعل نظـام ولادة الأطفال هو المجىء من اتصال رجل بامرأة ..

لكن هـذا الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ يخلق الأسـباب فتخضع له الأسباب ولا يخضع هو لها .. سبحانه .. وهو بمشيئته الطليقة الحرة يستطيع أن يأمر بميلاد صبى من غير أب فيولد .

وهكذا ولد عيسى ..

بـلا أب .

تكفى نفخة الروح ..

« **فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين** » [1] .

---

(1) من الآية ٩١ سورة الانبياء مكية .

وهكذا جاءت ولادة عيسى معجزة خارقة تؤكد أمرين :

١ ـ حرية المشيئة الالهية ، وعدم تقيدها بالأسباب ، لأنها بداهة هى خالقة الأسباب .

٢ ـ خطورة الروح ، واعلان قيمتها وشأنها بين قوم التصقوا بالأجساد وسادهم انكار الروح .

ولو نظرنا فى معظم معجزات عيسى ، فسوف نراها تؤيد وجهة النظر هذه .

هناك معجزة تصوير عيسى من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرا .

هذه المعجزة تؤكد وجود الروح . لقد كانت قطعة الطين جسدا لا يمكن وصفه بالحياة . فلما نفخ فيها عيسى تحولت قطعة الطين الى طير فيها حياة .. ان شيئا غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه .

هذا الشىء المنفصل عن الجسم هو الروح .. دبت الروح فى الصلصال فصار طيرا ..

كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد ..

وهناك معجزة احياء الموتى .. أليست اعلانا قارعا عن الروح ووجود اليوم الآخر ووجود قيامة للأموات وبعث .

هذا ميت قد أكلته الأرض . تحللت أحشاؤه وعظامه ، أوشكت أن تصير رميما أو صارت .. وها هو ذا المسيح يناديه . فاذا هو حى ينهض من موته .

لو كان هذا الميت جسدا فقط كما يقول اليهود ، لما كان ممكنا له أن ينهض من الموت، لأن الجسد قد تحلل .. لكن الميت ينهض من الموت . يعود جسده الى الحياة وينهض من مقبرته ويتحدث .. ما الذى حدث هنا .. غير أن عيسى استدعى روحه ـ باذن الله ـ فعادت الى الجسد فنهض الجسد .. تحول من تراب الى جسد .

كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد ..

كأن هناك بعثا اذن وقياما يوم القيامة .

ليست المسألة مستحيلة كما يقول اليهود ، لان الأجساد تتحول الى تراب يتطاير فى الهواء بعد الموت .

ليست مستحيلة وانما هى ممكنة .. ودليل ذلك قيام هؤلاء الموتى أمام أعينهم الآن .. لقد أحياهم عيسى ليثبت لقومه أن قيامة الأجساد من الموت حق ، وان اليوم الآخر حق .

هناك معجزة اخبار القوم بما يدخرون فى بيوتهم بغير ان يدخل بيوتهم أو يحدثه عنها أحد .

هذه المعجزة تثبت أن الحواس ليست هى القيمة الحقيقية .. ان

عيسى لم ينظر لما فى بيوتهم ، ولكن روحه تستطيع أن تنظر وتحدثهم .

كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد ..

وهكذا جاءت معجزات عيسى عليه السلام اعلانا عن خطورة الروح وطلاقة المشيئة الالهية .

جاءت معجزاته — كما يقول استاذنا محمد أبو زهرة — من جنس دعايته ، وتناسب هدف رسالته ، وهو الدعوة الى تربية الروح ، والايمان بالبعث والنشور ، وان هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وهل ترى أن معجزة احياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى انكاره ، أو تسمح لجاحد البعث والنشور بأن يستمر فى جحوده . وقد أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة. وعدم الايمان باليوم الآخر ، فكان احياء الموتى صوتا قويا يحملهم على الايمان ، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

....

....

أغلق عيسى الصفحة الناعمة من حياته وبدأ دعوته الى الله ، مؤيدا بالروح القدس ، ومعجزاته الباهرة ..

يحدثنا القرآن الكريم ان دعوة المسيح لا تختلف فى جوهرها عن دعوة غيره من الأنبياء .. وهى الاسلام بمعناه الأصيل عند الأنبياء .. بمعنى التوحيد الكامل ، واسلام الوجه لله ..

— اعبدوا الله ربى وربكم .

يحدثنا القرآن أن قائل هذه الكلمة هو عيسى . وهى نفسها الكلمة التى يقولها الأنبياء جميعا . تختلف أسماؤهم وصفاتهم ومعجزاتهم وملابسهم ولغاتهم وأعمارهم وأشكالهم والوانهم .. لكنهم يتفقون جميعا فى اسلام الوجه والقلب لله ، واسلام الروح لله ، والايمان بأن الله هو ربهم ورب العالمين . لا شريك له فى الملك ، ولا مثيل له فى الكون . هو واحد أحد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

لم يقل عيسى فى مسألة التوحيد أقل أو أكثر مما قاله انبياء الله جميعا .

ولقد جاء القرآن بعد خمسمائة عام على التقريب من رفع عيسى .

ولعلم الله الأزلى بما سيصير اليه أمر المسيحية من اختلاف حول طبيعة عيسى حرص القرآن الكريم على أن يكشف عن حوار لم يقع بعد ..

قال تعالى فى سورة المائدة :

« واذ قال الله : يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى

نفسك ، انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، ان اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد))[١].

يفيد النص القرآنى صراحة أن الدعوة المسيحية التى نزل بها عيسى كانت دعوة الى التوحيد ، يفيد النص تبرؤ عيسى من كل ما قيل حول بنوته أو الوهيته ..

((ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، أن اعبدوا الله ربى وربكم))[٢] .

....

انطلق عيسى فى دعوته الى الله .

قامت دعوته على اســاس أنه لا توســط بين الخــالق والمخلوق ، لا توسط بين العابد والمعبود ، وأنزل الله تبارك وتعالى عليه الانجيل ، وهو كتاب مقدس ، جــاء تصــديقا للتوراة ، وجاء احياء لشريعتها الأولى ، وجاء مؤيدا للصحيح من أحكامها ، وكان الانجيل نــورا وهدى وموعظة للمتقين .

وقد اصطدم عيسى بتفســير اليهود الحرفى للشريعة . وطمأن عيسى الغيورين على الشريعة والحقيقة ، بأنه لم يأت لينقض الشريعة ، وانمــا جاء يكملها ويتمم نبوءات الأنبياء . غير انه فى تفسيره للشريعة ، تجــاوز قشورها وحرفيتها الى حقيقة جوهرها .

افهم عيسى اليهود أن الوصايا العشر لموسى تنطوى على معــان اعمق مما يتصورون . أن الوصية السادسة لا تنهى عن القتل المادى فقط كمــا فهموها ، وانما تنسحب على كل اعتــداء وكل اساءة للآخرين مهمــا يقل شأنها . والوصية السابعة لا تنهى عن الزنا [بمعنى اتصــال رجل بامرأة ليست من حقه] ،وانما تنسحب على كل أنواع الزنا ، وتستطيع العين أن تزنى لو نظرت لما ليس من حقها باشتهاء ورغبة ..

وقال عيسى : انه افضــل للانســان أن يستغنى عن عينه التى تستطيع أن تهلكه ، بدلا من ان يهلك معها . كانت الشريعة تنهى عن الحنث باليمين ونكث العهد ،فأفهم عيسى قومه انه ينبغى الامتناع عن الحلف والقســم امتناعا تاما ، لأنه « خطأ عظيم أن يصير اسم الله تعــالى مبتذلا على ألسنة الناس » . [انجيل متى ٢١ ـــ ٤٨] .

اصطدم عيسى أيضا بذلك التيار المادى الســائد فى المجتمع ، ولهذا حذر الناس من النفاق والرياء والطمع فى مدح الناس ، كمــا حذرهم من الطمع فى ثروة العــالم ، فلا ينبغى أن يكنزوا لأنفسهم كنوزا فى الأرض ، أى لا ينبغىأن يحصروا اهتماماتهم فى الأرضيات لأنها فانية زائلة ، وانمــا ينبغى أن يحصروا اهتماماتهم فى السمائيات لأنها باقية أبدية .

أشار عيسى على الناس أن يكونوا حــكماء فى اختيــار كنزهم ، لأن

---

(١) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

طابع عقولهم وبالتالى لون حياتهم سوف يكون تبعا لذلك اما جسديا أو روحيا ، لأنه حيث يكون كنز الانسان ، يكون هناك قلبه كذلك . فاذا كان القلب متجها الى نور السماء ، أضاءت حياة الانسان كلها ، فاذا اتجه القلب الى ظلام الأرض صارت حياته كلها مظلمة ..

حذر عيسى قومه من الرياء ومحبة العالم ، ودعاهم الى التدقيق فى اختيار السيد الذى يخدمونه . لأن الانسان لا يستطيع أن يخدم سيدين فى وقت واحد . فأما أن يجعل المال سيدا له ، واما أن يكون الله عز وجل سيدا له . فاذا عبد المال ابتعد ذلك به عن عبادة ربه ، ومن ثم ينبغى الا يهتم الناس بأمور هذا العالم ، كالمأكل والملبس ، بحيث يسيطر عليهم القلق والانزعاج والشك فى رعاية الله لهم . فقد وعد الله أن يوفر لعباده كل ما يلزم لحياتهم ، فاذا سيطر عليهم القلق والشك والانزعاج ، فانما ينشأ ذلك من شكهم فى رعاية الله لهم ، وعدم ثقتهم بوعوده ورحمته ورعايته للبشر . فالله هو الذى خلقهم وهو الذى يعولهم ويرعاهم ، لأنه يعول ويرعى حتى أقل الكائنات شأنا كطيور السماء وزنابق الحقل .

افهم عيسى قومه أن الاهتمام بالعالم خطيئة وثنية لا تليق بالمتدينين ، لأن الوثنيين يقبلون هذه الأمور بسبب أنهم لا يعرفون ما هو افضل منها . واما المتدينون فيعرفون أن هناك عناية الهية تدعوهم الى الثقة بالله ، واحتقار العالم .

الله يعلم احتياجاتهم اكثر مما يعلمونها ، وهو كفيل باجابتها ، فالأحرى بهم اذن أن يطلبوا ملكوت الله وبره . أى حياة الروح وما تكفله من سعادة أبدية . ومن ثم ينصح عيسى بألا يربك الناس أنفسهم بحوادث المستقبل ولا بأمور الغد . لأن « الغد يهتم بشأن نفسه » .

واذا كانت الاحتياجات والمتاعب تتجدد كل يوم ، فان المعونة والزاد الالهى يتجددان كذلك .

اصطدم عيسى ايضا بتلك الثنائية التى يعامل بها الناس بعضهم بعضا ، فبينما يقبل الناس لأنفسهم الخير ، نراهم يقدمون الشرور لغيرهم . وكانت حياة اليهود وسط هذه الثنائية قد خنقت العدالة البشرية تماما ، وأوصى عيسى بن مريم الناس بأن يسيروا فى معاملة الناس على مقتضى القاعدة الذهبية التى تقول : « كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم ، فافعلوه أنتم أيضا بهم » .

استمر عيسى فى دعوته الى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما استمر يدعو الناس الى تنقية الأرواح وتطهير القلوب وغسل الضمائر والدخول فى ملكوت السماء .

وأثارت دعوته كهنة اليهود ، فقد كانت كل كلمة من كلمات عيسى ترفع السلاح فى وجوههم وتعلن الحرب عليهم وتعريهم وتكشف نفاقهم ، وابتعدت السلطات الرومانية المحتلة عن النزاع فى بدايته على أساس انه خلاف داخلى بين طوائف اليهود ، خلاف يرضى السلطات الحاكمة اذ يصرف المحكومين بمشاكلهم ونزاعاتهم عن قضايا الاحتلال .

وبدأت المؤامرات تدبر لعيسى من الكهنة .

أرادوا احراجه ، واثبات انه جــاء يحطم شريعة موسى .. وكانت شريعة موسى تقضى برجم الزانية .

واحضر كهنة اليهود امراة خاطئة تستحق الرجم .. التفوا حول عيسى يسألونه ؟

ـــ الا تقضى الشريعة برجم الخاطئة .

قال عيسى :

ـــ نعم .

قالوا :

هـــذه المراة خاطئة .

نظر عيسى الى المراة ، ونظر الى الكهنة ، كان يعلم ان الكهنة أعظم خطأ من المراة ، كان يعرف أنهم أشـــد ظلما منها ، وكان الكهنة ينتظرون جوابه فان قال انها لا تستحق القتـــل فهو يقف ضـــد شريعة موسى ، وان قال انها تستحق الموت فقد هـــدم بنفســـه شريعة الحب والتســـامح التى جـــاء بها .

فهم عيسى المؤامرة .. وابتســـم فاضـــاء وجهـــه ، ونظر الى الكهنة ، وعاد ينظر الى المراة وقال لهم :

ـــ من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ..

ارتفعت كلمته وســـط ســـكون المعبد تضـــع قانونا جديدا للحكم على الخطأ .. ليحكم على الخطأ من لا يخطىء .. لا يستحق أحد من البشر الخطاة أن يدين غيره من البشر أو يحكم عليه .. انما يحكم الله المنزه المتعال وحـــده .. والله أرحم الراحمين .

خرج عيسى من المعبد فأسرعت المراة وراءه .. أخرجت من ثيابها زجاجة من العطر الثمين ووقفت أمام عيسى .. وهوت على قدميه تقبلهما وتغسلهما بالعطر والدموع ..

بعـــدها جففت قدميه بشعرها .

كان المسيح يمثل لها ـــ كما يمثل للملايين غيرها ـــ ذلك الأمل الأخير فى الخلاص .. وتلك القدرة اللامتناهية على الرحمة ...

وخرج وراء عيسى كبير كهنة اليهود .

وقف يشهد المنظر ويعجب بينه وبين نفســـه من رحمة عيسى وسماحته .

ونظر عيسى اليه وســـأله

ـــ دائن له مدينان : أحدهما مدين بخمسمائة دينار ، والآخر بخمسين .

قال الكاهن :

ـــ نعم .

قال عيسى :

ــ لم يكن مع أى واحد منهما ما يفى بدفع دينه .. وسامحهما الدائن .

قال الكاهن :

ــ نعم .

ــ أيهما يكون أكثر حبا له .. ؟

قال الكاهن :

ــ الذى سامحه فى الأكثر .

قال عيسى :

حكمت بالصواب .. انظر لهذه المرأة .. لقد دخلت انا بيتك فلم تقدم لى ماء لغسل وجهى .. ولكنها غسلت قدمى بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها .. كذلك لم تقبلنى أنت قبلة واحدة ، لكنها لم تكف عن تقبيل قدمى .. قلبك انت عظيم القسوة ، ولكنها تحمل قلبا يمتلىء بالحب .. ومن أحب كثيرا غفرت له خطاياه .

استدار عيسى الى المرأة وأمرها أن تنهض من الأرض وهو يقول :

ــ اللهم اغفر لها خطاياها .

افهم عيسى كهنة اليهود ، ان الدعاة الى الله ليسوا جلادين منتدبين لتطبيق حكم الشريعة دون نظر الى المجتمع الذى تجرى فيه الخطيئة . انما يجىء الدعاة الى الله أساسا رحمة بالناس .

والرحمة هى هدف كل هذه الدعوات الالهية ..

ان ارسال النبى هو ذاته يعنى رحمة الله تعالى بقومه وزمانه ..

....

استمر عيسى يدعو الله أن يرحم قومه ، ويدعو قومه أن يرحموا أنفسهم ويؤمنوا بالله .

كانت حياته آية من آيات الزهد والنسك .

قال معتمر بن سليمان .. فيما يرويه ابن عساكر : « خرج عيسى على اصحابه وعليه جبة صوف .. خرج حافيا باكيا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش ، فقال : السلام عليكم يا بنى اسرائيل ، أنا الذى انزلت الدنيا منزلتها باذن الله ولا عجب ولا فخر .

ــ أتدرون أين بيتى ؟

قالوا أين بيتك ياروح الله .

قال : بيتى المساجد ، وعطرى الماء ، وطعامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس ، وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى

الفقراء والمرضى والمساكين . أصبح وليس لى شىء وأمسى وليس لى شىء . وأنا طيب النفس غير مكترث . فمن أغنى منى واربح ؟!

....

....

مضى عيسى فى دعوته .. مؤيدا بمعجزات الله له .

صنع لقومه من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فصار طيرا باذن الله .. كان طرف ثوبه البسيط المتواضع اذا مس مريضا شفى هذا المريض. وكان عيسى اذا وضع يديه فوق أعمى أو أبرص شفى على الفور . كان عيسى مؤيدا بمعجزة هائلة .. هى القدرة على دعوة الموتى من قبورهم فاذا هم يخرجون أحياء باذن الله .

يقول المفسرون ان عيسى أحيى أربع أنفس :

العازر ، وكان صديقا له .

وابنا لعجوز ..

وبنتا كانت وحيدة أمها ..

وهم ثلاثة ماتوا فى أيامه .. فلما رأى اليهود ذلك قالوا له : انك تحيى من كان موتهم قريبا فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة ، وطلبوا منه أن يبعث من الموت سام بن نوح .

يقول المفسرون انه سألهم أن يدلوه على قبر سام بن نوح .. فخرج القوم وهو معهم حتى انتهوا الى قبره ، فدعا الله أن يحييه . فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب رأسه .

قال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيب ..

قال سام : ياروح الله . انك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله فظننت أن القيامة قد قامت . فمن هول ذلك شاب رأسى .

ومهما يكن من أمر القصص التى تروى عن احياء عيسى للموتى ، فنحن لا نعرف من السياق القرآنى تفصيلات محددة لذلك ، كل ما يذكره الله تعالى أن عيسى أحيى الموتى باذنه ، ونحن نصدق أنه أحياهم ، وان كنا لا نعرف هل عادوا بعدها الى الموت أم عاشوا فترة .

....

....

استمر عيسى يدعو الناس الى الله . ويضع لهم ما يمكن تسميته بدستور الروح .. صعد الى الجبل .. ووقف حوله أتباعه .. ادار عيسى بصره فيمن آمن به .. كانوا مجموعة من الفقراء والتعساء والحزانى ومساكين الروح .. كان العدد قليلا شأن أتباع الأنبياء دائما .

وغطت الجبل سحابة رقيقة وهبط رذاذ خفيف .. وانثيأ عيسى يتحدث :

طوبى للمساكين بالروح .. فان لهم ملكوت السماوات .

طوبى للحزانى . فانهم سيتعزون .

طوبى للودعاء ، فانهم سيرثون الأرض .

طوبى للجياع والعطاش الى البر .. فانهم سيشبعون .

طوبى للرحمـــاء ، فانهم سيرحمون .

طوبى لأنقياء القلب ، فانهم سيعاينون الله .

طوبى للمضطهدين من أجل الحق . فان لهم ملكوت السماوات .

أنتم ملح الأرض .. فاذا فســـد الملح ، فأى شىء يرده ملحا من جديد ..

....

تأمل عمق المعنى فى عبارته « أنتم ملح الأرض » .

ان الملح هو الذى يمنح الأشياء طعمها المميز ومذاقها الخاص ، وبغير الملح يبدو الطعام فاقدا لشىء يصعب تحديده ، بغير الملح يبدو الطعام بلا معنى .. أو غير محتمل ..

وبغير المؤمنين يبدو طعم الحيـــاة ذاته بلا معنى .. وبغير المســـلمين وجـــوههم وقلوبهم وأعمـــالهم لله تبدو الحيـــاة قاسية وغير محتملة .. ويضيع معنى استخلاف الله للانســـان فى الأرض ، ويضيع معنى عظمة الانسان المتمثل فى كونه عبد الله .. وتمتلىء الحيـــاة بقســـوة الشرور المنتصرة .

ولهذا كان عيسى حريصـــا على حفنة الملح القليلة التى تتبعه .. كان حريصـــا على نقـــاء هـــذا الملح .. أفهمهم أنهم « معنى » الحيـــاة .. و « طعم » الأرض .. و « مذاق » الوجود .. أنهم مسلمون .. يمثلون الخير .. فاذا فســـدوا هم .. وهم أصـــلا مكلفون بمنح الحياة طعمها النقى .. فأى شىء يمنح الحياة نقاءها اذا فســـد النقاء ذاته .

وأوحى الله تعالى الى ملح الأرض أن يؤمن بعيسى .

قال تعـــالى :

« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى : قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون » [1] . سورة المائدة .

اعترف الحواريون بالاســـلام .. كما اعترفت ملكة سبأ باسلام سليمان وأسلمت معه .

كما اعترف كل أنبياء الله بالاســـلام ..

تنحصر حقيقة رسالات الأنبياء فى الاســـلام .. ويدعو كل أنبياء الله الى التوحيد والاســـلام .. والاســـلام — فى رأينا — معنى أدق من التوحيد .. ان اعتراف الانســـان بالله تعـــالى والايمان بوحدانيته فى خلق الكون ، لا يمنع الانســـان كانســـان من ارتكاب الخطايا .. أما اســـلام القلب

(1) الآية ١١١ سورة المائدة مدنية .

والجوارح والفكر لله .. فدرجة أعلى قليلا .. هذه درجة خضوع الخاضعين وقمة توحيد الموحدين ، وهى اتساق العمل مع الفكر وتناغمه .. وهى ابتعاد الانسان عن الخطيئة وخلوصه لله ..

ينبئنا القرآن الكريم أن الله تعالى أوحى الى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله عيسى ..

نتوقف قليلا عند .. « وحى » الله تعالى للحواريين ..

نعلم أن الله تعالى يوحى الى البشر والمخلوقات ..

قال تعالى :

« وأوحى ربك الى النحل » [١] ..

وقال تعالى :

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم »[٢] ..

والمراد بالوحى هنا هو الهام هذه المخلوقات ان تتجه بفطرتها التى فطرها الله عليها الى ما أراده الله لها .

الا تذكر اجابة موسى عن سؤال فرعون :

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟ »[٣] ..

« قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »[٤] ..

سورة طه .

ان المعنى واحد هنا وهناك .. وينطبق نفس المعنى على الحواريين .. كان وحى الله لهم الهاما الهمهم اياه لخيرهم وسعادتهم .. ولا ينافى هذا الوحى اختيارهم وارادتهم ولا يتعارض مع حريتهم .

لقد نظر الله فى قلوبهم فرآها على الخير .. رآهم ملح الأرض حقا .. فأوحى اليهم أن يؤمنوا به وبرسوله فآمنوا .. وشهدوا أنهم مسلمون ..

ويبدو أن الحواريين كتموا ايمانهم حتى أحس عيسى الكفر من قومه فنادى فيهم : من أنصارى الى الله ؟

قال تعالى :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين »[٥] ..

---

(١) من الآية ٦٨ سورة النحل مكية .
(٢) من الآية ٧ سورة القصص مكية .
(٣) من الآية ٤٩ سورة طه مكية .
(٤) الآية ٥٠ سورة طه مكية .
(٥) الآيتين ٥٢ ، ٥٣ سورة آل عمران مدنية .

يوحى النص القرآنى أن عيسى دعاهم الى الاسلام فأسلموا ..

ويؤكد النص القرآنى أن عيسى بشر برســـول يأتى من بعده اســـمه أحمـــد .

يقول تعـــالى :

« واذ قال عيسى بن مريم : يا بنى اسرائيل : انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ! » [١] .

لا نعرف على وجه التحديد متى بشر عيسى بهـــذا الرسول الذى سيأتى من بعده [وهو احمد صلى الله عليه وسلم] .. أكان تبشيره به فى بداية بعثته الى الناس . أم كان تبشيره به فى ختـــام دعوته وقبل رفعه الى السماء .

يوحى سياق النص القرآنى أن هـــذا التبشير كان فى بداية دعوته .. لقوله تعـــالى :

« فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » [٢] ..

والضمير هنا يعود لعيسى عليه الســـلام . والآية اذن توحى أن عيسى بشر بمحمد أو احمد [عليه الصـــلاة والسلام] حين بعثه الله لقومه ثم أجرى على يديه المعجزات الخارقة فى احيـــاء الموتى والنفخ فى الطين .. فلما جـــاءهم بهـــذه البينات اتهموه بالسحر .. ويدرك عيسى عليه السلام أن التهمة وجهت لمعظم الأنبياء قبله ، يعرف انها ستوجه لآخر الأنبياء بعده ، ولذلك يمضى النبى الكريم فى دعوته متجاوزا اتهام قومه له بالســـحر .. وتزداد حدة الصراع بينه وبين بنى اسرائيل . كانوا غلاظ القلوب قســـاة تجمدوا على القشور وضـــاع منهم جوهر التوحيـــد .. هاهو ذا عيسى يجيئهم بما يهدم كل أفكارهم وحيـــاتهم ونظمهم .. ان دعوته الى الحق والعدالة والسلام .. كانت تعنى فى نفس الوقت اعلان الحرب على الحياة الظالمة القائمة التى تفتقر الى الحق والعدالة والسلام .

يقول انجيل متى على لســـان عيسى : لا تظنوا أنى جئت لأحمل سلاما الى الأرض . ما جئت لأحمل سلاما . بل سيفا .

ان معنى الكلمات يكشف حقيقة هامة من حقائق دعوات الأنبياء .

انهم محاربون أساسا .

تختلف أسلحتهم التى يستخدمونها فى الحرب ، لكنهم فى نهـــاية الأمر محاربون . يبدأون حروبهم بفكرة .

فكرة تشهد ان لا اله الا الله .

وتصـــطدم الفكرة بكل الآلهة البشرية والذهبيـــة والحجرية .. وتقلق الفكرة هـــدوء الطغاة والجبابرة وتهدد مصـــالحهم .. ويتحرك الملوك

---

(١) الآية ٦ سورة الصف مدنية .

(٢) من الآية ٦ سورة الصف مدنية .

والحكام والقـادة عادة ضـد النبى الا من هـدى الله .. يقف الملأ من القوم ضد النبى . والملأ هم الرؤســاء كما تبينا فى قصة نوح ومن بعده .

ثم يستمر النبى فى حربه الفكرية .. لقد وضـع أســاس الحرب باعلان الوهية الله وحده . بعد هـذا الأسـاس المكين . يرسى النبى أسـاس العدالة . ليس من حق أحد أن يستذل أحـدا أو يستعبده لأن العبودية لا تكون الا لله وحده . وفى عالم البشر ليس هنـاك آلهـة .. البشر متسـاوون فيما بينهم .. واذن ليس من حق أحـد أن يستغل طـاقة الناس لبناء مجده الشخصي أو الاثراء على حسـابهم أو هضم حقوقهم أو الاسـاءة اليهم بأى صورة من صور الاسـاءة .

واذ تعنى الدعوة [دعوة أى نبى] فى عمقها البعيد .. تعنى الثورة على كل الأنظمة الفاسدة التى يقيمها رؤســاء القوم ..

هى دعوة حرب اذن . وعلى النبى أن يحمل الســلاح ..

بعد ارساء الفكرة تبدأ الحرب ..

ويلجأ النبى للسيف . يلجأ للســلاح . ويختلف نوع السلاح من نبى لآخر ..

فى البداية .. لا يستخدم النبى فى معاركه غير ســلاح الاقناع الهادىء والعقل .

وتستمر المعركة . ويجد النبى نفســه مضطرا لاستخدام الســلاح ، يفرض عليه الأعـداء موقفا يضطره لاستخدام الســلاح . ويلجأ النبى للســلاح . وهنـا يختلف نوع الســلاح من نبى لآخر . قد يكون ســلاح النبى معجزة تضـع حدا لحيـاة أعدائه وتفنيهم كالطوفان [نوح] . أو الريح [هود] . وقد يكون ســلاح النبى معجزة تعينه على انتصـاره على أعدائه بشـكل حاسم كتسخير الجن والطير له [سليمان] . وقد يكون ســلاح النبى معجزة تنجيه من كيد أعدائه ، كتحول النار اذا القى فيها الى برد وســلام [ابراهيم] . وقد يكون ســلاح النبى معجزة خـارقة تؤيده فى دعوته كاحياء الموتى [عيسى] . وقد يكون ســلاح النبى سيفا يمسكه فى يده ويحارب به عن دعوته [محمد] .

تختلف أسلحة الأنبياء فى النوع .. والكيف . والكم . يعرف الله تعالى ظروفهم أفضـل مما نعرف ، وهو الذى يختار نوع السلاح لأنبيائه . وليس هنـاك نبى قبع فى مكانه ولم يقـاتل ولم يتحرك ولم يضطهد ولم يخرجه قومه ولم يحتمل فى الله غاية العنـاء . وبقدر احتمال الأنبياء وقتالهم عن دعوة الله يستحقون مراكزهم عند الله .

ولقد أعلن عيسى بن مريم عليه السلام انه مقـاتل جاء يحمل السلاح .. ان كلماته وحدها تعنى هـدم المجتمع القائم من أساسه .

لقد كان المجتمع .. أيام عيسى .. يقوم على الشرك والخطيئة والكذب والنفاق والمادية والرياء والشكليات والظلم وانعدام الحرية .

وجـاء عيسى فهدم بكلماته هـذا كله ..

افهم عيسى قومه أن دعوته الى الله ليست فى جوهرها دعوة سلام ، انما هى دعوة الى الحرب . لا قيمة لشىء لا يدافع صاحبه عنه حتى آخر قطرة من دمه . ان الأفكار والقيم والمبادىء لا تستمد قيمتها من مثاليتها فحسب ، وانما تستمد قيمتها من الجهد الذى يبذله أصحابها الأوائل دفاعا عنها ، وتستمد قيمتها من تحول الأفكار الى حياة نظيفة .

وبغير الحرب وحمل السلاح .. تبقى دعوات الأنبياء افكارا مجردة مثالية ، لا تحرك أحدا ولا تزعج أحدا ولا تثير أحدا للانقضاض عليها .

ولقد رأينا فى معظم قصص الأنبياء كيف وقفت أغلبية المجتمع ضد النبى وحاربته . ابتداء من السخرية وانتهاء بمحاولات القتل أو القتل نفسه .

ومن المفهوم ضمنا أن الأنبياء يدافعون عن الحق الذى يحملونه ، ولقد احسسنا فى قصص الأنبياء بهجوم المجتمعات والرؤساء على الأنبياء ، ولم نحس ـ بنفس القوة ـ بهجوم الأنبياء فى الحرب . وتفسير ذلك يسير .. فان الحرب التى يشنها الباطل على الأنبياء تصاحبها اجهزة دعاية قوية ، وتصاحبها اتهامات وشتائم وضجيج ، أما الأنبياء فيصدرون عن منطق الواثق من الحق . وهو منطق لا يلجأ الى السباب أو الاتهامات أو الضجيج .. انما يستمر الأنبياء فى دعوتهم التى تقوم على استثارة العقل وايقاظ القلب وتنقية الروح ، وهذا الاستمرار يمثل لأعداء النبى وأعداء الله مشكلة حقيقية .

ان دعوة النبى تغوص فى أعماق الأسرة الواحدة .. يؤمن الأب ويكفر الابن . أو يؤمن الابن ويكفر الأب . أو تؤمن الزوجة ويكفر الزوج . أو يؤمن الزوج وتكفر الزوجة .

ويبدأ اختلاف الابن مع أبيه والزوجة مع زوجها .. تصل الخصومة الى البيوت ذاتها .

بوقوع هذا الأمر يتحرك المجتمع ضد النبى اكثر واكثر .. تزداد حدة العداوة والكراهية والحرب ضد هذا الذى جاء يفرق الأب عن ابنه بالحق ، أو جاء يفرق البنت عن أمها بالحق . ويضع النبى [أى نبى] دستورا لمن يتبعه ..

والدستور هو القانون الأساسى الذى تبطل القوانين لو لم تكن توافقه ، يتمثل هذا الدستور فى كلمة النبى .

[حب الله والنبى أولا ..] .

وبعد ذلك يأتى حب البشر ..

هذه المعانى تنعكس بوضوح كاف فى كلمات عيسى التى اوردها انجيل متى فى الفصل العاشر . قال السيد المسيح :

لا تظنوا انى جئت احمل سلاما الى الأرض . ما جئت لاحمل سلاما بل سيفا . جئت لأجعل الابن يختلف مع أبيه . والابنة مع أمها .. وزوجة الابن مع حماتها . فيكون خصوم المرء من أهل بيته .

من أحب أباه وأمه أكثر منى فلا يستحقنى ..

ومن أحب ابنه أو بنته أكثر منى فلا يستحقنى .

من ربح حيـاته خسرها .. ومن خسر حياته من أجلى ربحها .

يقول شراح الانجيل :

« كانت فكرة اليهود عن المسيح انه حين يأتى سيهب كل اتباعه ثروة ومجدا فى هـذا العالم ويمنحهم الطمأنينة والسـلام . فلما جاء المسيح أفهم تلاميذه أن هـذا لن يكون . لأنه اذا كان سيهب اتباعه سـلاما مع الله ومع اخوتهم ومع ضمائرهم ، فانهم سيكونون معرضين للاضطهاد ولأن يموتوا بحد السيف . فليس لهم أن يتوقعوا سلاما . بل حربا . وليس لهم أن يتوقعوا وئاما . بل انقسـاما » .

وهكذا انقسـم المجتمع اليهودى الى قسمين :

الفقراء والضـعفاء وانقيـاء القلب مع عيسى .. والأغلبية الكافرة ضد عيسى .

ولقد آذته الأغلبية الكافرة كثيرا ..

يحكى انجيل متى عن آلام المسيح فى الفصـل الحادى عشر ، فيتحدث عن استياء المسيح ممن لم ينتفعوا بخـدمة يوحنا [يحيى عليه الصـلاة والسلام] أو بخدمته هو شخصيا .

يقول انجيل متى على لسـان عيسى :

بمن أشبهه هـذا الجيل ، انه يشبه صبية جالسين فى الأسواق يصيحون بأصحابهم قائلين : زمرنا لكم فلم ترقصوا . نحنا لكم فلم تبكوا . فقد جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا : ان به شيطانا . وجاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا : هو ذا رجل أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطأة . ولكن الحكمة بأعمالها تتزكى .

ثم بدأ يسـوع يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته لأنها لم تتب ، قائلا : الويل لك ياكورازين . الويل لك يابيت صيدا ، لأنه لو جرت فى صور وصيدون المعجزات التى جرت فيكما لتابتا من قديم متشحتين بالمسوح والرماد . ولكنى اقول لكما أنه ستكون لصـور وصيدون فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالا مما لكما . وأنت يا كفر ناحوم . أتحسبين أنك ترتفعين الى السماء . انك سيهبط بك الى الجحيم . لأنه لو جرت فى سدوم المعجزات التى جرت فيك لظلت قائمة الى اليوم . ولكنى اقول لك انه ستكون لأرض سدوم فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالا مما لك .

يكشف هـذا النص عن آلام المسيح ومعاناته ، ويكشف الحرب التى تعرض لها ، والآلام التى انسكبت فى قلبه الطـاهر من تصرفات الجيـل الذى بعث فيه هاديا ومبشرا بملكوت السماء . انه يشبه جيل اليهود فى عصره بصبية يجلسون فى الأسواق ويصيحون بأصحابهم قائلين :

زمرنا لكم فلم ترقصوا . ونحنا لكم فلم تبكوا .. مشـيرا بذلك الى ما يفعله الأطفال وهم يلعبون . اذ يقلدون الكبـار فى أفراحهم فيرقصون ،

وفى أحزانهم فيبكون ، وهــكذا يترددون سريعا بين الفرح والحزن . فى سطحية وتسرع . ودون وعى أو تعمق . كان هذا حال اليهود ازاء خدمة يحيى عليه الصــلاة والسلام . ثم ازاء خــدمة المســيح عليه الصــلاة والسلام . فقد جاء اليهم يحيى نائحا باكيا لا يأكل ولا يشرب مما يأكلون ويشربون ولا يخالط الناس ، جاءهم نبيا ناســكا فرفضهــ الكثيرون قائلين ان به شيطانا . ثم جاء اليهم المسيح يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة فى الولائم والأعياد ، فرفضوه كذلك قائلين انه أكول وشريب خمر ، محب للعشارين والخطاة ، مع أنه كان المثل الأعلى فى نبذ الشهوات والعصمة الكاملة . ومن ثم كان ذلك الجيل عابثا عبث الأطفال ، لا يؤثر فيه شىء . ولا يغريه بالتوبة شىء . ومع ذلك فان ثمة قلة قليلة من الناس تتأثر وتتوب. لأن الحكمة بأعمالها تتزكى .

وبعد أن وبخ المسيح ذلك الجيــل بصفة عامة ، لعــدم ايمانه وتوبته ، بدأ يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته بصفة خاصــة ، لأنها مع ذلك لم تؤمن ولم تتب . وقد خص بالذكر مدينتى [كورازين] و [بيت صيدا] قائلا انه لو جرت فى مدينتى [صور] و [صيدون] المعجزات التى جرت فيهما لتابتا توبة عميقة وصــادقة ومفعمة بالندم . على الرغم من أن اليهود كانوا يضربون بهما المثل فى الفســاد والضــلال . وقد أدى فســادهما وضلالهما من قبل الى خرابهما ، ولذلك فان [صور] و [صيدون] ستكون لهما فى يوم القيــامة حالة أخف وطأة وأقل عذابا مما [لكورازين] و [بيت صيدا] . ثم وجه المسيح توبيخا عنيفا الى مدينة [كفر ناحوم] التى كان قد أقام فيها أكثر مما أقام فى أى مدينة أخرى من مدن اليهود . وما أكثر ما لقى فيها من تكذيب وعنــاء ، فقال لها : اتحسبين انك ترتفعين الى السماء ، انك سيهبط بك الى الجحيم . ويقارن عيسى عليه السلام بين المعجزات التى جرت فى مدينة [سدوم] اليهودية القــديمة والمعجزات التى جرت فى مدينة كفر ناحوم المعاصرة له ، فيرى أن معجزاته تفوق ما حــدث كثيرا . ورغم ذلك ، فسيكونجزاء ســدوم يوم القيامة ، أخف من جزاء كفر ناحوم .. واشــار عيسى الى هلاك ســدوم ، وشهرتها بالآثام والخطايا ، وانتهت مقارنته الى أن كفر ناحوم المعاصرة أعظم آثاما من سدوم ..

ويبدو لنا من النص عناء عيسى ازاء الجيل المعاصر كله .. يكشف النص عــذابه فى تبليغ دعوته ، وشقاءه وســط قوم لم ينضجوا بعد عن نفسية الأطفال العابثين . قوم لا تهزهم الكلمات الطيبة ولا تهزهم المعجــزات الخارقة ، وان سألوا المزيد منها رغم ذلك .

وعاد الله عز وجل يؤيد عيسى بالمعجزات الباهرة .

والمعجزة هنــا سلاح يعطيه الله تعــالى لنبيه كى يصــدقه ويؤيده ويزيد الذين آمنوا ايمانا ، ويزيد الذين كفروا كفرا اختياريا حرا .. حتى يقع جزاء الله تعالى على الفريقين معا . ولقد كان من المعجزات التى أيد الله بهــا عيسى ابن مريم ، استجابته لطلب الحواريين فى انزال مائدة من السماء .

قال تعــالى فى سورة المائدة :

((اذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم : هل يستطيع ربك أن ينزل

علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » [١] .

. . . .

نتوقف بالدهشة عند قول الحواريين : ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك ؟

ان أول ما يتبادر الى الذهن من معانى الآية . هو شك الحواريين فى قدرة الله تعالى . فكيف يجوز منهم ذلك وهم تلاميذ عيسى الذين أسلموا لله ؟

يختلف موقف العلماء فى تفسير هذه الآية .

قال بعض العلماء بما يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى .

قالوا : ان سؤالهم هل يستطيع ربك ؟ يعنى .. هل يقدر ربك ؟

والتمسوا للحواريين عذرا بأن السؤال كان فى ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل . ولهذا قال عيسى فى اجابته عن سؤالهم اتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

بمعنى لا تشكوا فى قدرة الله تعالى .

ويرد القرطبى هذا التفسير ويرفضه . فالحواريون هم أنصار الله تعالى بنص القرآن ، ولا يجوز على أنصار الله تعالى أن يجهلوا قدرته أو يشكوا فيها .

ويقول بعض العلماء : ان هذه الكلمات كانت قول من كان مع الحواريين من بنى اسرائيل . ولم يكن الحواريون فيها الا ناقلى رسالة .

وقيل أن هذه الآيات لا تقرأ « هل يستطيع ربك » وانما تقرأ كما قرأتها عائشة وكما قرأها النبى « هل تستطيع ربك » .. والمعنى هل تستطيع استدعاء طاعة ربك فيما تسأله . وقيل : أنها تقرأ « هل تستطيع ربك » بمعنى هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله . ويرى بعض الصوفية أن الحواريين ما كانوا يجهلون قدرة الله تعالى .. وانما صدر سؤالهم من منبع الحب لله تعالى ، ومن رغبتهم فى شهود قدرته تعالى وهى تعمل .. ويشبه موقفهم هنا [مع فارق الدرجة] موقف ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :

« رب : أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى »[٢] ..

---

(١) الآيات من ١١٢ الى ١١٥ مدنية .

(١) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة مدنية .

ولذلك قال الحواريون « **وتطمئن قلوبنا** » .. كما قال ابراهيم « **ليطمئن قلبى** » .

هــذا التفسير الذى يطمئن له قلبنا .

ولقد أجابهم عيسى عن سؤالهم بقوله :

« **اتقوا الله أن كنتم مؤمنين** »[١] ..

بمعنى اتقوا كثرة السؤال واختبار الله تعالى .. فانكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات . وقوله : ان كنتم مؤمنين .. تنصرف الى ما جاء به من الآيات .. يقصد أن يقول : ان ما جئتكم به من الآيات فيه الكفاية .

« **قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صــدقتنا ونكون عليها من الشاهدين** »[٢] ..

يبين الحواريون لعيسى سبب سؤالهم حين نهاهم عنه .

كان عيسى عليه الصلاة والسلام اذا خرج تبعه خمســة آلاف أو أكثر . بعضهم من الحواريين والباقون خليط من أتباعه وأعدائه . ويقال : انهم صاموا ولم يكن معهم طعام ، فقال الأتباع للحواريين : اسألوا عيسى : هل يستطيع أن يدعو ربه فينزل علينا مائدة من السماء ؟ .

وذهب الحواريون برســالة القوم الى عيسى ، فلما دعاهم عيسى للاكتفاء بمعجزاته الســابقة ، عادوا يقولون له مبررات الطلب .

« **قالوا نريد أن نأكل منها** »[٣] ..

كانوا جــائعين وليس معهم طعام ..

« **وتطمئن قلوبنا** »[٤] ..

تطمئن قلوب الحواريين مثلما اطمأن قلب ابراهيم .

وتطمئن قلوب الأتباع الى أن عيسى نبى بعثه الله اليهم .

وتطمئن قلوب الأعداء الى أنهم على الباطل .. فيكون اختيارهم بعد ذلك متضمنا لمسئوليتهم .

« **ونعلم أن قد صدقتنا** »[٥] ..

.. بمعنى نعلم انك رسول الله .

« **ونكون عليها من الشاهدين** »[٦] .

---

(١) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .
(٢) الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٥) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٦) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .

لله بالوحدانية . ولك بالرسالة والنبوة . وللآخرين الذين لم يشهدوها .. فنحدثهم عنها ونحكى لهم أخبارها .

« قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا : أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين »[1] ..

« لما سأل الحواريون عيسى بن مريم — صلوات الله وسلامه عليه — المائدة قام فوضع ثياب الصوف ، ولبس ثياب المسوح ، ثم قام فألزق القدم بالقدم ، والصق العقب بالعقب ، والابهام بالابهام ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى ثم طأطأ رأسه ، خاشعا لله ، ثم أرسل عينيه يبكى حتى جرى الدمع على لحيته ، وجعل يقطر على صدره .. ثم قال :

« اللهم ربنا : أنزل علينا مائدة من السماء » [1] .

الى آخر الآيات .

« قال الله : انى منزلها عليكم » [٢] .

نزلت مائدة عظيمة بين غمامتين ، غمامة من فوقها ، وغمامة من تحتها ، والناس ينظرون اليها ، فقال عيسى : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة . فهبطت بين يدى عيسى عليه الصلاة والسلام وعليها منديل يغطيها . فخر عيسى ساجدا والحواريون معه . وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون مثلها قبل ذلك .

قال عيسى : أيكم أعبد لله واجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه المائدة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها .

قال الحواريون : ياروح الله أنت أحق بذلك .

فقام عيسى عليه الصلاة والسلام فتوضأ وضوءا حسنا ، وصلى صلاة جديدة ، ودعا دعاء كثيرا ، ثم جلس الى المائدة فكشف عنها ، فاذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك تسيل سيلان الدسم .

سئل عيسى ياروح الله . أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟

قال : الم ينهكم الله عن هذه الأسئلة .. لقد نزلت من السماء وما عليها طعام من الدنيا ولا من طعام الجنة ولكن شىء ابتدعه الله بالقدرة البالغة فقال لها كونى فكانت .

اختلف كثير من المفسرين حول نوع الطعام الذى نزل على المائدة ، هل هو السمك أو اللحم . هل هو الخبز أو الفاكهة . ونرى أن كل هذه الأبحاث لا معنى لها ..

أخطر شىء فى نظرنا كلمات عيسى التى يقول فيها « انها شىء ابتدعه الله بالقدرة البالغة ، قال لها كونى فكانت » .

---

(١) الآية ١١٤ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٥ سورة المائدة مدنية .

هــذا هو جوهر المائدة .

انها آية من الله .. آية توعد الله من يكفر بها أن يعذبه عذابا لا يعــذبه أحــدا من العــالمين .

اختلف العلماء هل نزلت المائدة أم لا .

والذى عليه الجمهور — وهو الحق — نزولها ، لقوله تعــالى

« **انى منزلها عليكم** » [1]

ويقال أن الآلاف أكلوا منها وهي لا تنفذ .. فشفى كل أعمى من عماه وشفى كل أبرص من برصــه ، وشفى كل كسيح من كســاحه ، وشفى كل مريض من مرضــه ..

وصار يوم نزول المائدة عيــدا من اعيــاد الحواريين وأتباع عيسى لفترة من الزمن .. ثم ضــاع خبرها واسدلت عليه ستائر النسيان ، فلا نجــد خبرها اليوم فى اناجيلهم التى يعترفون بها .

بعد خبر المــائدة فى سورة المائدة .. يورد الله تبارك وتعــالى موقفا آخر لعيسى بن مريم عليه الصــلاة والسلام ..

قال تعالى بعد أن قص علينا ما كان من أمر آية المائدة .

((**واذ قال الله : يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . أن تعذبهم فانهم عبــادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم . قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم . لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير**)) [2] ..

بهــذه الآيات يختم السياق القرآنى سورة المائدة .

وهكذا ينقلنا السياق القرآنى نقلة تبدو مفاجئة من خبر نزول المائدة الى موقف الحوار بين الله تعــالى وعيسى بن مريم يوم القيامة .

ورغم المفاجأة البادية فان السياق المعنوى متصل اشد الاتصال ..

ان عظمة الآيات التى أيد الله بها عيسى كانت فتنة لقومه من بعده .. فاعتبروه الها . أغفلوا حقيقة معجزاته وافتتنوا به .

يسأل الله تعالى يوم القيامة هــذا السؤال :

---

(1) من الآية ١١٥ سورة المائدة مدنية .

(2) الآيات ١١٦ الى ١٢٠ سورة المائدة مدنية .

★« يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ »[١] ..

اتفق أهل العلم على أن السؤال ليس سؤال استفهام وان خرج مخرج الاستفهام . لأن الله تعالى يعرف ماذا قال عيسى .. المقصود من السؤال اذن شيء آخر .

هناك من يقول ان الله تعالى يقصد تعريف عيسى أن قومه قد غيروا تعاليمه من بعده وافتتنوا به .

وهناك من يقول ان الله يقصد من السؤال توبيخ من غيروا عقيدته بعده ونعتقد أن السؤال يستوعب المعنيين ، ويستوعب معنى آخر .. يريد الله تبارك وتعالى أن يكشف للعالمين فى كتابه الأخير براءة عيسى مما أحدث قومه من بعده .

يكشف السياق القرآنى عن غيب لم يقع بعد وان كان سيقع يوم القيامة ولهذا يعرضه بأسلوب الفعل الماضى ، ويعرض هذا الغيب على أهل الدنيا ليعرفوا منه حقيقة عيسى بن مريم .

ان الله تعالى يسأله ..

وعيسى بن مريم يجيب ..

لا يجيب نبى عظيم كعيسى الا بعد أن يقول سبحانك .

يبدأ بالتسبيح والتنزيه قبل الجواب تنزيها لله وخضوعا لعزته وخوفا من سطوته .

أورد القرطبى فى تفسيره : ان الله تعالى حين قال لعيسى : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله .. أخذت الرعدة عيسى من ذلك القول حتى سمع صوت عظامه تئن داخل جسده .. فقال :

« **سبحانك .. ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحق** » [٢] .

ليس لى أن أدعى لنفسى ما ليس من حقها . وليس لنفسى أكثر من حق العبد لا المعبود .

« **ان كنت قلته فقد علمته** » [٣] .

ها هو ذا عيسى يرد العلم الى الله . وكان الله عالما انه لم يقله .

« **تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك** » [٤] .

اى تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه . تعلم سرى وما انطوى عليه ضميرى الذى خلقته ، ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك .

---

(١) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .

« **انك أنت علام الغيوب** » [١] .

أنت وحدك العليم بالغيب . أنت وحـــدك العليم بمـــا سيكون منهم بعد رفعى من الأرض .

« **ما قلت لهم الا ما أمرتنى به : ان اعبدوا الله ربى وربكم** ! [٢] .

هذه هى الكلمات التى قالها عيسى بن مريم .. دعا الى عبادة الله وحده لا شريك له .

« **وكنت عليهم شــهيدا مادمت فيهم** » [٣] .

كنت عليهم حفيظا بما أمرتهم طوال الوقت الذى مكثته بينهم .

« **فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم** »[٤] ..

والوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه .

[١] وفاة الموت لقوله تعالى :

« **الله يتوفى الأنفس حين موتها** » [٥] .

يعنى حين انقضـــاء أجلها .

[٢] وفاة النوم لقوله تعـــالى :

« **وهو الذى يتوفاكم بالليل** » [٦] .

يعنى الذى ينيمكم .

[٣] وفاة الرفع لقوله تعـــالى :

« **يا عيسى : انى متوفيك ورافعك الى** » [٧] .

وهكذا يتبرأ عيسى من كل ما قالوه عنه أو نسبوه اليه ، ويعلن ان دعوته لم تزد عن التوحيد ولم تخرج على الاسلام الذى اعترف به أتباعه .
ويعاود عيسى حديثه واستعطافه لله عز وجل :

« **ان تعذبهم فانهم عبادك** » [٨] .

ليس لأحد من الخلق ســلطان عليهم ، وليس هنـــاك خـــالق غـــيرك سبحانك ، ولا شريك لك فى الملك والحكم ، وهم فى نهـــاية الأمر عبيدك ، ولا يملك العبد أمام سيده الا الخضوع ..

« **وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم** ! [٩] .

---

(١) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .
(٥) من الآية ٤٢ سورة الزمر مكية .
(٦) من الآية ٦٠ سورة الانعام مكية .
(٧) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .
(٨) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .
(٩) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .

لم يقل عيسى وان تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم .. لم يزل روح الاجابة هو التسليم والخضوع والتفويض لعزة الله وجلاله وحكمه .

ان اتباع عيسى هم فى نهـاية الأمر عبـاد الله الخاضعون ، ان شـاء عذبهم بما يسـتحقون من عـذاب ، وان شـاء غفـر لهم بما يعلم من استحقاقهم للمغفرة .. بهذا التسليم المطلق أجاب عيسى عن سؤال الحق عز وجل وتبرأ مما قاله القوم من بعـده . وأعلن عبوديته لله فى بداية حديثه ، وأعلن تسليمه لله فى نهاية حديثه .

« قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم »[١] ..

ان الله عز وجل يثنى على صـدق عيسى .. ولأن الحوار يجرى يوم القيـامة ، يقول الله .. [هـذا يوم] القيامة الذى [ينفع الصـادقين صدقهم] فى الدنيا .. ان صـدقهم هنـاك سيجد ترجمته من الرحمة هنا .

« لهم جنـات تجرى من تحتها الأنهار خـالدين فيها ابدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه »[٢] ..

هذا هو جزاء الصـادقين .. الجنة وما هو أفضـل من الجنة .. رضـاء العبد عن الله تعـالى ، ورضاء الله تعـالى عن العبد .. ومعنى رضـاء العبد فرحة بعبوديته لله تعالى ، ومعنى رضاء الله رحمته لعبده ..

« ذلك الفوز العظيم » [٣] ..

بعـدها يعلن الله حقيقة عيسى وكل أنبيائه .

« لله ملك السـماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير »[٤] ..

هو الملك وحده . وهو الخـالق وحده . وهو القدير وحده . وماسواه عبيد .

....

....

مضى عيسى فى دعوته حتى أدرك الشر أن عرشـه مهدد بالزوال . وتحركت جيوش الخطيئة نحـوه ، ناواه اليهود وآذوه ، وكانوا يتهمونه بالسحر وخرق الشريعة وينسبون قواه الخارقة لاتصاله بالشياطين . فلما أعيتهم الحيلة ، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجتمعون حول كلماته ، أخذوا يكيدون له ، ويدسـون عند الرومان بشـأنه . فى البـداية لم تتدخـل سلطات روما على أسـاس أن هـذه الخلافات بين اليهود من مصلحتهم . وعاد مجلس السنهدريم [وهو المجلس التشريعى الأعلى لليهود] يجتمع للتآمر على عيسى .. وعاد التآمر يأخذ شـكلا جديدا .

حين عجز اليهود عن حرب عيسى .. بدأ التفكير فى قتله .. وراح

---

(١) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .
(٤) الآية ١٢٠ سورة المائدة مدنية.

رؤســـاء الكهنة يتشـــاورون سرا فى الطريقة التى يقبضـــون بها على عيسى بغير اثارة للشعب .

وبينما رؤســـاء الكهنة يتشاورون ذهب اليهم واحد من تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، وهو يهوذا الاسخريوطى ، وقال لهم : مـــاذا تعطوننى وأنا أسلمه اليكم .

وجلست الخيانة على مائدة الكفر وبدأت المســـاومات .

ســـاوم يهوذا رؤســـاء الكهنة فاتفقوا على أن يعطوه ثلاثين قطعة من الفضـــة وهى التى كانوا يسمونها بالشاقل [وتساوى نحو عشرين قرشا] أى أن المبلغ كله لا تتعدى قيمته ستة جنيهات ، وكانت هـــذه هى قيمة شراء عبـــد حسب الشريعة اليهودية .. [شرح انجيل متى] . انتهت المؤامرة وتقرر القبض على عيسى وقتله ..

ويقال ان رئيس كهنة اليهود مزق ثيابه بعد ذلك بطريقة مسرحية فى اجتماع دينى وهو يصرخ : أن عيسى قد جدف [كفر] . وكان تمزيق الثياب عند اليهود عادة مرعية اذا سمعوا أو رأوا شيئا يتضمن اهانة لله . وهكذا تظاهر رئيس الكهنة بالغيرة الشـــديدة على مجد الله والغضب الشـــديد على مازعم من اهانة لحقته بكلمات عيسى وتصرفاته .

لم يكن للكهنة اليهود سلطة اصـــدار حكم بالاعـــدام فى ذلك الحين . كان ذلك من سلطة الوالى الرومانى ، غير أنهم يبدو اقتنعوا الوالى الرومانى أن عيسى يدبر مؤامرة لأمن الدولة الرومانية ، أو لعلهم اقتنعوا الوالى بأن الأمر خاص بتقاليدهم وديانتهم فآثر عدم التدخل فيما اعتزموه .

وهكذا تم احكام المؤامرة .. وتقرر القبض على عيسى وصلبه .

تحدثنا الأناجيل الأربعة المعترف بها من المسيحيين اليوم أن عيسى قتل مصلوبا ثم قام من الموت وصـــعد الى الســمـــاء . تتفق هـــذه الأناجيل جميعا على صلب عيسى وموته وقيامته من الموت . كما تتفق على طبيعة عيسى الالهية التى تمتزج بطبيعته البشرية .

وسوف نورد عقيدة المسيحيين فى عيسى كما يعتقدها معظم النصـــارى اليـــوم .

ثم نورد عقيدة الاســـلام فى عيسى كما أنبأ بها القرآن الكريم وحـــدث عنها علماء الشريعة والسنة ، وبعد ذلك نتحدث عما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

يقول انجيل متى : ان عيسى ألقى القبض عليـــه ، وأصـــدر مجلس السنهدريم حكمه عليه بالموت . وبدأ أعضـــاء ذلك المجلس من رؤســـاء الكهنة والشيوخ والـــكتبة يهينونه ويعتـــدون عليه ويهزأون به ، راحوا يبصقون فى وجهه ويلكمونه كما راحوا يلطمونه وهم يقولون ســـاخرين : تنبأ لنا أيها المسيح من الذى ضربك . وهكذا تحققت نبوءة أشـــعياء النبى القائل : وجهى لم أستر عن العـــار والبصق . والقـــائل : بذلت خـــدى للناتفين [الفصل السادس والعشرون] .

وبعد ذلك القى القبض على عيسى وتقرر اعدامه .. ولما كان من عادة الرومان ان يجلدوا المحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم عليه . لذلك أمر بيلاطس بجلد المسيح . وكانت الشريعة الموسوية تقضى بألا يزيد عدد الجلدات على اربعين جلدة . اما الرومان فكانوا لا يقفون عند هذا الحد وانما كانوا يستمرون فى جلد المحكوم عليه جلدا وحشيا متواصلا حتى يتهرأ ظهره ويكاد يلفظ أنفاسه فلا يبقون منه الا الرمق ليتمكنوا من تنفيذ حكم الموت عليه . وهذا ما فعله الجنود بمخلصنا [انجيل متى ٢٦] . انتهت عملية الجلد فأسلم الوالى الرومانى عيسى للجنود كى يصلبوه . واتخذه الجنود مادة للتسلية والترفيه ، وأشركوا معهم جند الكتيبة الرومانية ، ونزعوا عن عيسى ثيابه الملطخة بدماء جروحه بعد عملية الجلد ، والبسوه رداء قرمزيا ليسخروا منه ، فقد كان الملوك يلبسون الأردية القرمزية ، ومضوا فى استخفافهم به وسخريتهم منه ، ضفروا له تاجا من الشوك ووضعوه على رأسه ، ووضعوا قصبة فى يمينه ، كأنها الصولجان ، ثم راحوا يبصقون فى وجهه واخذوا منه القصبة التى وضعوها فى يده وراحوا يضربونه بها على رأسه من فوق تاج الشوك ، فانغرس الشوك فى جبينه واسال الدم على وجهه ..

ثم مضوا به ليصلبوه . وكانت العادة قد جرت على تكليف المحكوم عليه ان يحمل صليبه الى موضع الصلب امعانا فى التعذيب والتشهير . [متى ٢٦] .

اخيرا بلغوا موضعا يسمى « الجلجثة » أى موضع الجمجمة ، وهو مكان خارج اسوار اورشليم .. وكانت تقاليد اليهود تقضى باعطاء كأس من الخمر المزوج بالطيب للمحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم ، كمخدر لتخفيف آلامه . ولكن الجنود خالفوا هذه التقاليد واعطوا المسيح كأسا من الخل المزوج بالمرارة ليشرب . وبذلك تحققت النبوءة القائلة عنه ويجعلون فى طعامى علقما ، وفى عطشى يسقوننى خلا . ثم سمروا يديه وقدميه على الصليب ورفعوه وهو معلق عليه بعد أن نزعوا ثيابه واقتسموها بينهم . وامعانا فى السخرية به صلبوا معه لصين ، ثم وضعوا لافتة على رأسه قالوا فيها : « هذا هو يسوع ملك اليهود » امعانا فى تعذيبه . [متى ٢٦] .

ويقول نص انجيل متى — [طبعة ١٩٧٢] فى الفصل السابع والعشرين :

[حتى اذا بلغوا موضعا يسمى الجلجثة ، أى موضع الجمجمة ، اعطوه خمرا ممزوجة بمرارة ليشرب ، فلما ذاقها أبى أن يشربها . ثم صلبوه واقتسموا ثيابه بينهم مقترعين عليها ، ليتم ما قيل بفم النبى القائل : « اقتسموا ثيابى بينهم وعلى ردائى القوا قرعة » ثم جلسوا هناك يحرسونه ، ووضعوا فوق رأسه تهمته مكتوبة : « هذا هو يسوع ملك اليهود » . وقد صلبوا معه لصين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وكان المارة يسبونه وهم يهزون رؤوسهم قائلين : « ياهادم الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك . ان كنت انت ابن الله فانزل عن الصليب » . وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزأون به مع الكتبة والشيوخ قائلين : « خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه ، ان كان هو ملك

اسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به . لقد اتكل على الله فلينقذه الآن ان كان راضيا عنه ، لأنه قال أنا ابن الله » . وبذلك أيضا كان يعيره اللصان اللذان صلبا معه] .

[ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها الى الساعة التاسعة . وفى نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : « ايلى ايلى لم شبقتنى » أى « الهى الهى لماذا تخليت عنى ؟ » فلما سمع ذلك بعض الواقفين هناك قالوا : « انه ينادى ايليا » . وعلى الفور جرى واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلا ووضعها على قصبة وسقاه . فقال الباقون : « دعه ولننظر هل يأتى ايليا ليخلصه ؟ » . ثم صرخ يسوع مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح] .

[واذا حجاب الهيكل قد انشق نصفين من أعلاه الى أسفله ، والأرض تزلزلت والصخور تشققت ، والقبور تفتحت . وقد قام كثير من أجساد القديسين الراقدين . وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين] .

ويقول التفسير الملحق بهذا النص :

« ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها الى الساعة التاسعة . وكانت الساعة السادسة عند اليهود توازى الثانية عشرة ظهرا حسب التوقيت الحديث ، كما كانت الساعة التاسعة توازى الساعة الثالثة بعد الظهر . أما تلك الظلمة التى صارت على الأرض كلها فهى مظهر لمشاركة الطبيعة لربها فى آلامه ، وغضبها على الذين أسلموه للموت غدرا وظلما . وفى نحو الساعة التاسعة ، أى الثالثة بعد الظهر ، صرخ فادينا بصوت عظيم قائلا باللغة الآرامية « ايلى ايلى . لم شبقتنى » ؟ ، أى « الهى الهى لماذا تخليت عنى » ، وهذه هى العبارة الأولى من المزمور الثانى والعشرين . وهو لا يعنى بهذه العبارة أن الله قد تخلى عنه ، لأنه هو والله الآب واحد ، وانما يعنى أن المزمور الذى وردت فى بدايته هذه العبارة ينطبق عليه فى ساعة آلامه هذه . وقد كان هذا المزمور نبوءة مفصلة دقيقة عما يحدث له الآن ، ومما جاء به « كل الذين يروننى يستهزئوا بى ، يفغرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين : اتكل على الرب فلينجه ، لينقذه لأنه سر به .. أحاطت بى ثيران كثيرة . أقوياء باشان اكتنفتنى . فغروا على أفواههم كأسد مفترس مزمجز . كالماء انسكبت . انفصلت عظامى . صار قلبى كالشمع ، قد ذاب وسط أمعائى .. ولصق لسانى بحنكى ، والى تراب الموت تضعنى . لأنه قد أحاطت بى كلاب . جماعة من الأشرار اكتنفتنى . ثقبوا يدى ورجلى . أحصى كل عظامى ، وهم ينظرون ويتفرسون فى . يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » . وكان فادينا حين صرخ بهذه العبارة فى قمة ألمه وضراعته بصفته الاله المستأنس الذى يتمم عمل الفداء ، فقد كان فى هذه اللحظة انسانا بالحقيقة ، كما كان فى الوقت نفسه الها بالحقيقة ، وهو كانسان قد توجع من ألمه وتضرع الى الهه لكى لا يتخلى عنه ، بل أن يعينه على احتمال ألمه . على أن هذا التخلى ليس معناه مفارقة اللاهوت للناسوت ، وانما معناه انه تركه للألم ، فلم يتدخل اللاهوت

ليخفف من آلام الناســوت حتى يحتمل المسيح فى جســده الآلام كاملة . أما الواقفون هنــاك فقد هزأوا من ضراعته هــذه ، واذ سمعوه يقول : « ايلى ايلى » أى « الهى الهى » ، أخطأوا فهم قوله ، وقالوا انه ينــادى ايليا النبى ، أو لعلهم افتعلوا هــذا الخطأ افتعالا ليمعنوا فى الاســاءة اليه والتشهير به ، لأن استنجاده بايليا معنــاه انه ليس هو المسيح ، اذ أن المعروف لدى اليهود أن ايليا ينبغى أن يأتى قبل المسيح . وقد تظاهر أحد الواقفين بالاشفاق عليه بعد أن سمع صرخته فجرى على الفور وأخــذ اسفنجة وملأها خــلا ووضعها على قصبة وسقاه ، وهكذا كانت حتى أداة الاشفاق التى قدموها اليه أداة اهانة وقسوة وتعــذيب . وأما البــاقون فقالوا : « دعه . ولننظر هل يأتى ايليا فيخلصه ؟ » أى اتركه ولا تقدم له اى نجده ، ما دام يستنجد بايليا ، فقد كانوا يريدونه أن يتعذب الى أقصى حد ، وكانوا مطمئنين الى أن أحدا لن يأتى لانقاذه .

وبعد ذلك مباشرة ، أى فى التاســعة ، وهى الثالثة بعــد الظهر . صرخ فادينا مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح ، وقد دلت هذه الصرخة قبل لحظة الموت مباشرة على ان حياة فادينا كانت سليمة فيه بعد كل الآلام التى تكبدها ، وان روحه لم تغتصب اغتصــابا كما يحدث لسائر البشر عند الموت ، وانما قد سلمها بمحض اختيــاره وارادته لأبيه السماوى ، ذبيحة عن خطايا البشر ، فهو الكاهن الذى قدم الذبيحة ، وهو الذبيحة عينها . واذ اســلم الروح اثبت انه مات فعلا بالجســد ، لأن قصــاص الخطيئة هو الموت ، وبغير الموت لا تكون مغفرة ، فقد تعهد كمــا تنبأ اشعياء النبى بأن يجعل نفســه ذبيحة اثم . وهــذا هو التعهد الذى وفاه عندما أسلم الروح طوعا واختيارا . وفى ذات لحظة موت المســيح وقعت أمور خارقة للطبيعة لتــدل على أن الذى مات لم يكن مجرد انســان ، وانما كان هو الله ذاته بمعنى يفوق ادراك البشر .

١ ـــ فقد انشــق حجاب الهيكل نصــفين من أعلاه الى أسفله . وكان هــذا الحجاب هو الذى يفصــل بين القدس وقدس الأقداس . وقد انشق فى نفس اللحظة التى انفصلت فيها روح المسيح عن جســده رمزا الى أن الهيكل كان بمثابة جســد المسيح . فلما تصــدع الجسد الحقيقى تصدع كذلك الجســد الرمزى . وكان هــذا الحجاب يستر قدس الأقداس الذى هو مقر الأسرار الالهية عن عامة الناس ، فلما انشــق أصبحت هــذه الأسرار بفضل فداء السيد المسيح مكشوفة للجميع . فلم يعد ثمة حجاب بين الله والناس .

٢ ـــ والأرض تزلزلت والصخور تشققت كمظهــر من مظــاهر حزن الطبيعة ولوعتها على موت الهها . واحتجاجها على الأشرار الذين سقوه كأس الموت ظلما وهو برىء .

[الى آخر التفســير] .

هــذه هى رواية المسيحيين فى الصلب وتفسيرهم له . نقلنــاها دون تصرف من احدث طبعــة لانجيل متى ، وهى طبعــة اشرف على صياغتها مجموعة من علمائهم ورجــال الدين المسيحى .. لتجىء أيسر فى الفهم وابســط . فكان منها ما عرضناه عليك فى هذه الصفحات ..

اما جوهر عقيدتهم ولبها الذى لا اختـــلاف فيه .. واصل الدستور الذى اعلنه المجمع النيقاوى ، فقد سجله كتاب [سوسنة سليمان] .

جـــاء فى كتاب سوسنة ســـليمان ، لنوفل بن نعمـــة الله بن جرجس النصرانى : « ان عقيـــدة النصـــارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى اصـــل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى ، هى الايمـــان بالله واحد آب واحد ، ضـــابط الكل ، خـــالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحـــد ، يســـوع الابن الوحيـــد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر، الذى به كان كل شىء والذى من اجلنا نحن البشر ، ومن اجل خطايانا نزل من الســـماء ، وتجســـد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ، وصلب عنـــا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصـــعد الى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتى بمجـــد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا فنـــاء لملكه ، والايمـــان بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب ، الذى هو مع الابن يسجد له .

....

....

جـــاءت عقيـــدة الاســـلام برواية تختلف عن رواية الأناجيل الحالية .

سواء فيما يتعلق بنهـــاية عيسى او طبيعته التى كانت مثـــار اختـــلاف بعد رفعه .

حـــدث القرآن الكريم أن الله تعـــالى لم يســـمح لبنى اسرائيل بقتـــل عيسى أو صلبه .

وانمـــا نجاه الله من كفرهم ورفعه اليه ، فمـــا قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

قال تعـــالى فى سورة النســـاء :

« وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شـــك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا . بل رفعـــه الله اليه » [١] .

....

....

وقال تعـــالى فى سورة آل عمران :

« اذ قال الله : يا عيسى : انى متوفيك ورافعك الى ، ومطهرك من الذين كفروا »[٢] .

---

(١) الآية ١٥٧ وجزء من آية ١٥٨ سورة النساء مدنية .
(٢) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

يتفق علمـــاء المسلمين على ذلك ، ويختلفون فى منهج التدليـــل على ما بأيديهم من الحق .

هنـــاك من يؤمن بنص الآيات ولا يبحث لها عن تأييد فى أى كتـــاب غير القرآن .

ولكل منهج من المنهجين ما يؤيده ..

يستند أصـــحاب المنهج الأول الى نهى النبى عليه الصـــلاة والســـلام عن النظر فى أوراق اليهود والنصارى . أن للقوم دينهم ولنا ديننا . والله يحكم بيننا يوم القيـــامة فيما اختلفنا فيه .

ويستند أصحاب المنهج الثانى الى أن نهى النبى عليه الصلاة والســـلام كان فى أول العهد بالاسلام ، وكان المسلمون على قرب عهد بالجاهلية ، فأمروا حرصـــا على عقيدتهم الا يشغلوا أذهانهم بغير كتابهم . ولـــكن العلم والنظرة العلمية يفرضـــان على العـــالم أن ينقب فى الأسفار القديمة والكتب عن الحق ، فاذا وجـــده موافقا لما لديه من الحق .. استراح قلبه وازدادت طمأنينته ..

....

....

لا نجد عند أصحاب المنهج الأول الذى يكتفى بالقرآن تفصـــيلات دقيقة لمحـــاولات القبض على عيسى ورفعه الى الســـماء لقد شبه لهم .. كيف شبه لهم .. القى الله شبهه على غيره . أما عيسى فرفع الى السماء .

هكذا لا يزيدون .

أما أصحاب المنهج الثانى فيقدمون قصـــة متكاملة لما وقع .. يقولون ان الله القى شبه عيسى على يهوذا ، ويهوذا هـــذا هو يهوذا الاسخريوطى الذى تقول الاناجيـــل عنه انه هو الذى باعه لأعدائه وأرشدهم عنه ودلهم عليه .. وقد كان أحد تلاميذه المختـــارين فى زعمهم . ولقد وافق هـــذا انجيـــل برنابا موافقة تامة . جاء فيه :

ولما دنت الجنـــود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمع غفير ، فلذلك انسحب الى البيت خائفا . وكان الأحد عشر نياما .

فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل [اسرافيل] وادريل [عزرائيل] سفراءه أن ياخذوا يسوع من العالم ، فجـــاء الملائـــكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب . فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله الى الابد .

ودخل يهوذا بعنف الى الغرفة التى أصعد منها يسوع ، وكان التلاميـــذ كلهم نياما ، فاتى الله العجيب بأمر عجيب . اذ تغير يهوذا فى النطق وفى الوجه . فصار شبيها بيسوع حتى اننا اعتقدنا انه يسوع ، أما هو فبعد أن ايقظنا اخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا . وأجبنا أنت يا سيدى معلمنا . انسيتنا الآن .

هذه هى القصة التى أوردها انجيل برنابا ..

وترن كلمة انجيل برنابا فى السمع رنينا غريبا .. نحن نعرف أن الأناجيل التى تعترف بها الكنيسة اربعة . **انجيل متى وانجيل مرقص وانجيل لوقا وانجيل يوحنا** . وتشتمل هذه الأناجيل على العقيدة المسيحية كما يؤمن بها المسيحيون اليوم . فمن أين جاء هذا الانجيل الذى يتفق فى جوهره مع عقيدة الاسلام ؟

يقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه ((**محاضرات فى النصرانية**)) ان التاريخ يروى لنا أنه كانت فى العصور الغابرة أناجيل أخرى ، تأخذ بها فرق قديمة ، وتروج عندها ، ولا تعتقد كل فرقة الا فى انجيلها . واجمع مؤرخو المسيحية على كثرة الأناجيل كثرة عظيمة ، ثم أرادت الكنيسة فى أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثانى الميلادى . أن تحافظ على الأناجيل الصادقة فى اعتقادها . فاختارت الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة ابان ذلك . فصارت هذه الأناجيل هى المعتبرة عندهم دون سواها . غير أن هناك انجيلا جديدا كشف عنه البحث العلمى ، وقد حمل من الأمارات ما يدل على انه يمتد بنشأته الى أبعد أعماق التاريخ المسيحى . وهو يشبه الأناجيل القائمة فى انه يحكى قصة المسيح من ولادته الى اتهامه ، ويحكى محاوراته ومناقشاته وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به ، وانكرته ، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية . وقد اتجهوا اليه بالبحث والعناية والاهتمام ، ولم يمنعهم من ذلك انكار الكنيسة له . وذلك الانجيل هو انجيل برنابا . ومن الحق علينا أن ندرسه . ونعرف رأى المسيحيين فيه ، وما يؤدى اليه النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نقحم انفسنا فيما ليس لنا من املاء عقيدة على القوم فى دينهم)) .

ويقول كتاب محاضرات فى النصرانية : [ان برنابا . قديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد انجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى اليه ، والتقرب منه ، وملازمته فى سرائه وضرائه ، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الانجيل لا تعده من هؤلاء الحواريين ، وان كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح ، ومهما يكن من شىء فى هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم ، فان برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من الملهمين فى اعتقادهم فان صحت نسبة هذا الانجيل اليه كان ما يشمله حجة عليهم ، يدعوهم الى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم ، ويؤخذ بما هو أقرب الى التصور والتصديق ، وأصح سندا ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحما ، فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث .

واتفق المؤرخون على ان اقدم نسخة عثروا عليها لهذا الانجيل ، نسخة مكتوبة باللغة الايطالية ، عثر عليها كريمر احد مستشارى ملك بروسيا ، وذلك فى سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ الى البلاط الملكى بفينا . وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الانجيل فى اللغات التى ترجم اليها ، ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر ، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الايطالية وجدت نسخة اسبانية

ترجمها المستشرق سايل الى اللغة الانجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها الا شذرات أشار اليها الدكتور هوايت في احدى الخطب ، وقد قيل ان الذى ترجم النسخة الاسبانية الى تلك اللغة مسلم نقلها من الايطالية الى الاسبانية ، ولقد رجح المحققون أن النسخة الايطالية هى الأصل للنسخة الأسبانية ، وذلك أنها قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الايطالية التى كانت أصلا للنسخة الأسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها ، فيقول : [**انه عثر على رسائل لايريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول ، ويسند تنديده الى انجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع الى البحث عن انجيل برنابا ، وقد وصل الى مبتغاه لما صار أحد المقربين الى البابا سكتس الخامس ، فانه عثر على ذلك الانجيل فى مكتبة هذا البابا ، وطالعه ، فاعتنق الاسلام .**] ويظهر أن تلك النسخة هى نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ ويقول فى ذلك الدكتور سعادة مترجم انجيل برنابا الى العربية : « واذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر ، وقد علمت مما مر بك بيانه أن نوع الورق الذى سطر فيه انما هو ورق ايطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه ، والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الايطالية ، والتاريخ الذى يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الايطالية هى عينها التى اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على ما مرت الاشارة اليه».

اقدم نسخة معروفة اذن هى النسخة الايطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد الى منتصف القرن الخامس عشر او أول القرن السادس عشر ، وقد وجدت فى جو مسيحى خالص ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، فأول من عثر عليها فى خزانة كتبه رئيس دينى خطير ، وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الأيدى انتقلت الى مستشار مسيحى من مستشارى ملك بروسيا ، ثم آلت الى البلاط الملكى بفينا . فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، وهى منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواه ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود انجيل له أمرا معروفا بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول انه اطلع على رسالة لأريانوس يستنكر فيها ما كتب بولس مستشهدا على استنكاره بانجيل برنابا .

ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة ــ كما أشرنا من قبل ــ ويقول الدكتور سعادة : يذكر التاريخ أمرا أصدره البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى انجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين الى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه انما هو برمته تزوير .

ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وان كانوا محققين ، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة . فاذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرب على سنته من بعده أخلاف ، واذا صح ذلك الأمر . كما يشهد التاريخ ، وكما تنبىء عنه المقدمات

والنتائج ، فان انجيل برنابا كان معروفا متداولا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من قرنين .

ويرى الدكتور سعادة أن ذلك الأنجيل لو كان معروفا فى ذلـك الوقت لعرفه النبى صلى الله عليه وسلم واحتج به ،او أخذ منه.وهذا زعم باطل لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ،ولم يقم فى البلاد التى سادتها المسيحية آمادا تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضى قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره ، فيخفى ما كان ذائعا ، ويدفن ما كان معلوما مشهورا ، فمائتان من السنين تكفى لطمس الموجود ، وتعفيه آثار المفقود .

ان المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الانجيل أخبـارا دقيقة عـن التوراة حتى لقد يقول الدكتور سعادة : « انك اذا أعملت النظر فى هـذا الانجيل وجدت لكاتبه الماما عجيبا بأسفار العهد القديم لاتكاد تجد له مثيـلا بين طوائف النصارى الا فى أفراد قليلين من الاخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفا على الدين ، كالمفسرين ، حتى انه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضا من له المام بالتوراة يقرب من المام كاتب انجيل برنابا » .

هذه بينات شاهدة — وان لم تبلغ اليقين والجزم — بأن نسبة هذا الانجيل الى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحى خالص ، وكان معروفا قبل ذلك بقرون أن لبرنابا انجيلا ، وهو يدل على أن كاتبه على المام تام بالتوراة التى لا يعرفهـا الرجل المسـيحى غير الاخصائى فى علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من الاخصائيين ، وان برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملا لايقل من عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلابد أن تكون له رسالة أو انجيل .

هذه بينات تشهد بأن الانجيل الذى كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئا يظن فى حمله اتهاما له ، فيسند ملكيته الى غيره نفيا للتهمة عن نفسه ، فهل يقبل منه ذلك النفى من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاما له ؟ . وهل يقر القضاء ذلك النفى ؟ . قد يقول قائل : ان هذه البيانات كلها مرجحة وليست يقينية ، ونحن نقول أن أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة . فاذا كانت نسبة انجيل برنابا اليه ظنية تقبل الاحتمال فانا نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ فى أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذى لا ينشأ عن دليل .. لا يلتفت اليه ، بجوار الاحتمال الناشىء عن دليل ، ووجود ذلك الانجيل بلغة مسـيحية وبين ظهرانى المسيحيين ، وفى مكاتبهم الخاصة ، دليل على أن المسلمين ليسـت لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد فى انشائه ، ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلـك الدليل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ومقدار نسبته .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل انه وجد على النسخة الايطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح فى التبشير باسم النبى ، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأولى بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها ، لأنه مستقيم التعبير أحيانا قليلة ، وسقيم العبارة فى احيان كثيرة ، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الاسلامى ، ولا يتخذ من صلبه الايطالى دليلا على أصله المسيحى .

اما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحا فيه وليس بتلميح . فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب الدينية تلميح ، نعم بعضها رمز وتلميح ، ولكن ليس معنى ذلك نفى التصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح ، فالنص الايطالى الذى بين أيدينا ترجمة لا نص ، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسعفه فى لغته التلميح ، فنطق بالصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى .

ومن المؤكد ان ذلك الانجيل لم يكن معروفا عند المسلمين فى غابرهم وحاضرهم ، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور ، ولم يعرف أن احدا احتج فى مناظرة المسيحيين بهذا الانجيل ، مع أنه فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم عن المسيحى ، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الايطالية ، فوق انها لا دليل عليها مطلقا ، ولو بطريق الوهم ، فهى تناقض اخبار التاريخ الاسلامى مناقضة تامة ، والا احتج المجادل عن الاسلام بها ، ففيها اقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستنبطوها ،وليعرفوا دخائلها ، فلن يجدوا شيئا يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

وانجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير ، والحكمة الواسعة والدقة البارعة ، والعبارة المحكمة والمعنى المنسجم ، حتى انه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة كتابا من الدرجة الأولى .

ولماذا انكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة فى كتبهم الأربعة كما ذكرنا ؟ . الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة ، ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الانجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين ، لتعرف أى الكتب أقرب نسبا بالمسيحية الأولى ، اذلك الانجيل بما خلف ، أم الرسائل والاناجيل التى توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا الى الرفض والانكار ، كما سبق أسلافهم الى انكاره من قبل .

والأمور التى خالف ذلك الانجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى اربعة أمور :

أولها : انه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره الها ، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال : « أيها الأعزاء أن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر الله به دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل فى عدادهم أيضا بولس الذى لا أتكلم عنه الا مع الأسى ، وهو السبب الذى لأجله اسطر ذلك الحق الذى رأيته » .

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن ان اليهودية قد اضطربت لاياتك وتعليمك حتى انهم يجاهرون بأنك أنت الله . فاضطررت بسبب الشعب الى أن آتى الى هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بازالة الفتنة التى ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول انك الله ، وآخر يقول انك ابن الله ، ويقول فريق أنك نبى . أجاب يسوع : « وأنت يارئيس الكهنة ، لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جننت أنت أيضا، وهل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا ، أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان .ولما قال يسوع هذا عاد فقال : انى أشهد أمام السماء . وأشهد كل ساكن على الأرض . أنى برىء من كل ماقال الناس عنى . من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العام » .

ويقول فى الفصل السبعين : « أجاب يسوع : وما قولكم انتم فى ؟ أجاب بطرس : [انك المسيح ابن الله] . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلا : اذهب . وانصرف عنى . لأنك أنت الشيطان . وتريد أن تسىء الى » .

[**الأمر الثانى**] أن الذبيح الذى تقدم به ابراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو اسماعيل . وليس باسحق ، كما هو مذكور فى التوراة . وكما يعتقد المسيحيون . وهذا نص ما جاء فى انجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق اقول لكم انكم اذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا ابراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله . أجاب ابراهيم : هاهو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلم الله حينئذ ابراهيم قائلا : ؟ خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » . فكيف يكون اسحق البكر . وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين .

[**الأمر الثالث**] هو كما يقول الدكتور سعادة : ان مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد ، وقد ذكر محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية **الذيول** ، وقال أنه رسول الله . وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور « **لا اله الا الله محمد رسول الله** » . ولقد قال المسيح كما جاء فى انجيل برنابا : « ان الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر انى أتكلم بما يريد الله ، ولست احسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا ، الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » وانك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاما وافيا فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به ، فصرح بما يعلن حقيقته ، ويبين ما له من شأن .

[**الأمر الرابع**] أن هذا الانجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم ، القى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطى ، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق اقول أن صوت يهوذا ، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة انه يسوع . لذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا ، وانما الآيات التى فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال انه لا يموت الى وشك انقضاء العالم

لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم » .. ثم يبين أن يسوع طلب من الله أن ينزله الى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام ، ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات ، وقام قائلا : [**أتحسبوننى أنا والله كاذبين** ، لأن الله وهبنى أن أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، والحق أقول لكم انى لم أمت بل يهوذا الخائن . احذروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم . ولكن كونوا شهودى فى كل اسرائيل ، وفى العالم كله ـــ لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

هذا هو انجيل برنابا . وهذا ما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفى الحق انه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها ، فان تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح والوهيته ، وكان هذا شعارها الذى به تعرف ، وعلامتها التى بها تتميز ، وقد خالف كل هذا ؛ واذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى ثابتة ـــ وهو ينسب الى قديس من قديسيهم ـــ فقد كان من الحق اذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحيين وفى مكاتب من لا يتهمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يتهمون بأنهم لا يرجون لها وقارا ـــ رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضا باتا ، مادام قد أتى بما لا يعرفونه هم ، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية ، ينتهون فيها الى نقضه جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده ، ومتن أقرب الى العقل والفكر من متنه .

ولكن العلماء الذين دابهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، ومما هو مشهور عند المسلمين .

وان أجل خدمة تسدى الى الأديان والانسانية ، أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه ، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ماجاء فيه وما جاء فى رسائل بولس ، ليعرف القارىء والباحث أيهما أهدى سبيلا ، وأقرب الى الحق ، وأوثق به اتصالا] .

انتهى كلام الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

.. ..

.. ..

قال الله تعالى :

« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وامه صديقة كانا ياكلان الطعام ». [1]

قال العلماء : سمى المسيح لمسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من فتن ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى امه عليها السلام

(1) من الآية ٧٥ سورة المائدة مدنية .

ويروى العلماء عن نقاء عيسى آثارا كثيرة . روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه حكى عن المسيح هذه القصة « رأى عيسى رجلا يسرق . فقال : يا فلان أسرقت . قال : لا والله ما سرقت . قال : آمنت بالله وكذبت بصرى » .

وهذا يدل على سجية طاهرة .. حيث قدم حلف ذلك الرجل على ما شاهده منه عيانا ، لتصوره أن أحدا لا يحلف بعظمة الله كاذبا .. فقبل كلمته ورجع على نفسه . فقال : آمنت بالله .. أى صدقتك وكذبت بصرى لأنك حلفت .

ويروى عن عيسى أنه مر مع أصحابه بجثة كلب قد صعدت رائحته .. فأشار أصحابه الى بشاعة الرائحة ، وأشار هو قائلا : « انظروا الى بياض أسنانه » .

كان عيسى يريد أن يعلم الناس كيف يشيحون بوجوههم عن القبح ويستخرجون من الكائنات أجمل ما فيها .. ولقد كانت دعوته قمة من قمم السمو الروحى والمثالية النبيلة واستخراج الجمال من انقاض القبح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الأنبياء أخوة . دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فليس بينى وبينه نبى .

وقد ورد فى الآثار أن عيسى سوف ينزل فى آخر الزمان .. ويكرم الاسلام عيسى تكريما يليق بنبى من أولى العزم الكبار

فهو يسميه رسول الله .

ويسميه كلمة الله .. القاها الى مريم .

ويسميه روحا منه . يقول الله تعالى :

« ياأهل الكتاب : لاتغلوا فى دينكم ، ولاتقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا . فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . [1]

.. ..

.. ..

يقول ابن كثير فى قصص الأنبياء : اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه الى السماء على أقوال .

قال قائلون منهم : كان فينا عبدا الله ورسوله . [آريوس] .

---

(1) الآيات من ١٧١ الى ١٧٣ سورة النساء مدنية .

وقال آخرون : هو الله .

وقال آخرون : هو ابن الله .

وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل مابين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

وقد حسم القرآن الكريم قضية الالوهية فبين أن الله تعالى منزه عن الشريك والولد والشبيه والمثل والحلول والتجسد والبعد والقرب وادراك الأبصار .

قال تعالى فى سورة الاخلاص :

((قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد))[١].

وقال تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام فى سورة آل عمران :

((ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)).[٢]

وقال تعالى فى سورة البقرة :

((وقالوا : اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون . بديع السماوات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون)) .[٣]

وقال تعالى فى سورة التوبة :

((وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بافواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله انى يؤفكون)) . [٤]

يشير النص هنا الى عقائد المصريين وأضرابهم من الأمم القديمة ، وكانت تنطوى على عقائد الصلب والفداء وقيام الاله الذبيح وتكفيره عن اتباعه بموته .

وقال تعالى فى سورة المائدة :

((لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم ، قل : فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير)) . [٥]

---

(١) الآيات الاربع لسورة الاخلاص مكية .
(٢) الآية ٥٩ سورة آل عمران مدنية .
(٣) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ مدنية .
(٤) الآية ٣٠ سورة التوبة مدنية .
(٥) الآية ١٧ سورة المائدة مدنية .

وقــال تعــالى :

« لقــد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحــد »[١] .

هكذا حسم القرآن الكريم موقف المذاهب المتعارضة التى نشأت بعــد رفع المسيح . .وبين أن المسيح كان عبدا لله ورسولا أرسله لبنى اسرائيل .

والعبد والرسول كلمتان واضحتان .

أما « الكلمة » و « الروح » . . فيستحقان بعض الايضاح .

يفهم المسلمون أن الكلمة هى هدى الله ومعجزته القاها الى مريم .

أما الروح فيفهم المسلمون أنها اشارة للروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام ، وقد ايد الله تعالى رسوله عيسى بالروح أى جبريل :

« اذ أيدتك بروح القدس »[٢] .

بعد استعراض عقيدة المسيحيين حول طبيعة عيسى ونهايته . وبعد بيان الحق الذى أنبأنا به الله عن هذه الطبيعة والنهاية ، نريد أن نعرف ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

أورد الاسلام نصوصا صريحة خص بها ديانة المسيحيين من بين جميــع الأديان بالمودة . انكر القرآن الوهية المسيح وانكر الصلب والفداء الا انــه صرح فى نصوصه بأن النصرانية اقرب الأديان مودة الى الاسلام .

قال تعــالى فى سورة المائدة :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » [٣] .

اثنى الله تعالى على أتباع المسيح الذين ساروا على هديه . .

قال تعالى فى سورة الحديد :

« وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله »[٤] .

وليس من تعارض بين الموقفين على الاطلاق . فان انكار القرآن لالوهية المسيح . . واعترافه بمودة النصارى ، وثناءه على الذين اتبعوا عيسى . . تعنى أكثر من شىء :

- أن المسيحية ديانة توحيد فى أصلها ، ومن الصعب أن يهجر كل اتباعها التوحيد والله تعالى هو وحده الذى يعلم حقيقة ما تنطوى عليه القلوب .

---

(١) من الآية ٧٣ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية .
(٣) الآية ٨٢ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ٢٧ سورة الحديد مدنية

- ان فى النصارى قسيسين ورهبانا لا يستكبرون على الله .. وانمــا هم خاضعون له .
- ان فى قلوب بعض الذين يتبعون عيسى رأفة ورحمة .. ولاتتولد الرأفة والرحمة الا من الايمان باليوم الآخر .

وقد أصدر الله تعالى أوامره الى المسلمين أن يعاملوا أهل الكتب السابقة عليهم معاملة كريمة ، كما كفل الاسلام حرية العقيدة لغيره من الخلق ..

قال تعــالى فى سورة يونس :

« **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » [١] .

وقال تعالى فى سورة البقرة :

« **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » [٢] .

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

« **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » [٣] .

ونلاحظ أن الآيات تتحدث عن معاملة المسيحيين كأفراد . كما تتحدث عن معاملة عقائدهم كعقائد .

بالنسبة للمسيحيين كأفراد .. نرى الآيات تأمربمبادلتهم المودة ، اذ يصرح النص انهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا .. واذا كان الله تبارك وتعالى هو الذى يصرح بذلك ، فقد وجب على المسلمين أن يبادلوا النصارى ودا بود .

أما عقائدهم ففى القرآن آيات تمنع من اكراه الناس بأى صورة من الصور .

تأمل قوله تعالى فى سورة الكهف :

« **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » [٤] .

ذلك ان الايمان بالاكراه ليس ايمانا ، ينقصه الاختيار الحر .. وهو شرط الايمان . ولعل من تمام كمال الاسلام موقفه هذا .. ونحسب دون أن نقحم تفسيرنا على الآيات .. مســتغفرين الله من الخطأ والزلــل .. نحسب أن الاسلام أراد بموقفه هذا أن يجنب عامة اتباعه هذا الجدل الطويل العريض حول عقائد الآخرين . وهو جدل لاينتهى الى شىء ذى بال . ليبحث العلماء كيفما يشاءون فى الأديان ، فهذه مهمتهم أولا وأخيرا . أما عامة المســلمين فعليهم أنفســهم .

ثم ان اختلاف العقائد والفرق والمذاهب عند المسيحيين واليهود .. يجعل من جدال العامة لهذا كله ضياعا للوقت والجهد .

---

(١) الآية ٩٩ سورة يونس مكية .
(٢) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .
(٣) الآية ٦٤ سورة آل عمران مدنية .
(٤) من الآية ٢٩ سورة الكهف مكية .

ولقد بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا .. وفى غربة الاسلام الأولى كان المسلمون يبنون الفردالمسلم أولا. فلما تم بناؤه تم بناء الدولة الاسلامية. ولم نسمع أن أحدا منهم كان يشتبك فى جدال لا ينتهى حول عقائد الآخرين .

ان هداية الآخرين الى الله عمل رائع .

ولكن هذه الهداية تستوجب هداية النفس أولا الى الله .

ولو هدى المسلمون أنفسهم الى الله ، لهدى الله بهم من يشاء من عباده .

.. ..

اثبت القرآن لعيسى معجزتين لم يرد بهما خبر فى الأناجيل :
معجزة كلامه وهو رضيع فى المهد . ومعجزة المائدة التى انزلت على الحواريين من السماء . كما اثبت له كرامة انقاذه من أيدى اليهود فلم يسمح لهم بتعذيبه أو قتله وانما رفع الى السماء ..

وأوصى النبى عليه الصلاة والسلام بالمسيحيين خيرا . وتزوج من مارية القبطية .

يروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس ، أن رجلا من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ولدان مسيحيان ، فأسلم وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اذا كان يجب عليه اكراه ولديه على اعتناق الاسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة :

« **لا اكراه فى الدين** » . [1]

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون الى المدينة لمفاوضة النبى صلى الله عليه وسلم ، منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .

وقام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يوما لجنازة،فقيل له انها جنازة يهودى . فقال :
ـ أليست هى نسمة .

وقال عليه الصلاة والسلام : **من آذى ـ ظلما ـ يهوديا أونصرانيا ، كنت خصمه يوم القيامة . قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .**

.. ..
.. ..

اختلف علماء المسلمين بعد رفع عيسى .. عن حاله بعد ذلك ..

يتفقون على انه لم يصلب .. بل رفعه الله اليه .. واذا كان لم يصلب ، فما هى حاله بعد ذلك .. أهو حى .. أم مات كما يموت الأنبياء ؟

الجمهور على أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى بجسمه وروحه اليه ..

واخذوا بظاهر قوله تعالى فى مقابل القتل : « **بل رفعه الله اليه** »[2] . وببعض آثار وردت فى ذلك .

---

(1) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .
(2) من الآية ١٥٨ من سورة النساء مدنية .

وفريق آخر من المفسرين — وهم الأقل عددا — قالوا انه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى أنبياءه . ورفع روحه اليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء ، واخذوا فى ذلك بظاهر قوله تعالى :

« اذ قال الله : ياعيسى : انى متوفيك ورافعك الى ، ومطهرك من الذين كفروا »[1] .

ونختار الرأى الأول .. لاتساقه كمعجزة خارقة مع ميلاد عيسى ، وكان معجزة خارقة ، ومع حياته ونقائه ، وكانا معجزتين خارقتين .

---

(٢) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

محمد

[عليه الصلاة والسلام]

حين انطفأت شموع التوحيد فى مشارق الأرض ومغاربها ، واوشك الظلام الكثيف ان يطبق على العقل ، ولم يعد هناك غير قلة قليلة من الغرباء الموحدين ، شاءت رحمة الله تعالى أن تبعثه بآخر رسالات السماء الى الأرض ..

ووسط كآبة الحياة وليلها الموحش .. جاء شمس الأنبياء ..

جاء استجابة لدعوة ابراهيم خليل الله ..

وجاء تصديقا لبشرى عيسى روح الله وكلمته ..

يصلى عليه الله عز وجل رحمة وبركة .. وتصلى عليه الملائكة ثناء واستغفارا .. ويصلى عليه المؤمنون تكريما وتعظيما ..

قال الحق فى سورة الأحزاب :

« **ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** » [١] ..

ومن قبله أرسل الله تعالى أنبياءه رحمة لقومهم .. وزمانهم .. وأرسله الله تعالى رحمة للعالمين .. جاء رحمة مطلقة لقومه وزمانه .. ولمن يجىء بعدهم من الأقوام والأزمنة على تعاقب الأيام وتتالى الدهور ..

قال الحق فى سورة الأنبياء :

« **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » [٢] ..

ولقد كان جوهر دعوات الأنبياء السابقين عليه هو الاسلام .. وكان عنوان رسالته هو الاسلام .. فتأمل أنت اى اعجاز أن يكون العنوان جوهرا .. ويكون الجوهر عمقا بلا قاع ، وقمة بلا نهاية ..

ذلك هو **محمد بن عبد الله بن عبد المطلب** .

ابن امراة من قريش كانت تأكل القديد ..

---

(١) الآية ٥٦ مدنية .

(٢) الآية ١٠٧ مكية .

وسـيد أبنـاء آدم ..

وعبد الله ورسوله ، ورحمة الله المهداة للبشر ..

....

المكان : ارض الجزيرة العربية ..

الدنيا ليل .. الهزيع الأخير من الليل ..

تصور عبد المطلب ان الشمس قد اشرقت فجأة .. واستيقظ ليجد نفسه فى جوف الليل ، وقد أطبق على الصحراء الممتدة سكون عظيم ..

ازاح بيده باب الخيمة فشاهد النجوم تلمع فى السماء والدنيا ليل ..

وعاد يغلق باب الخيمة وينام ..

لم يكد يستسلم للنعاس العميق حتى عاد الحلم الى الظهور مرة اخرى ..

كان كل شيء واضحا هذه المرة .. ان كائنا عظيما يأمره بأمر حاسم ..

ـ احفر زمـزم ... !

سأل عبد المطلب فى الحلم :

ـ وما زمـزم ... ؟

وعاد الأمر يصدر اليه فى الحلم :

احفر زمـزم ... !

لم يكد آخر صدى من أصداء الأمر يختفى ، حتى كان عبد المطلب قد انتصب جالسا فى فراشه وقلبه يدق بعنف .. نهض عبد المطلب ، وفتح باب الخيمة ، واندفع الى الصحراء العريضة ..

ما معنى زمزم ؟ .. آه .. اضاء ذهنه فجأة بنور قادم من بعيد .. زمزم .. زمزم بئر .. لابد ان تكون زمزم بئرا .. لكن لماذا يريد منه الهـاتف ان يحفر بئرا ؟ .. ليس هناك غير جواب واحد عن هذا السـؤال .. لكى يشرب منها الحجاج الذين يجيئون الى الكعبة .. لكن اى قيمـة لهذه البئر بالذات ؟ .. هناك آبار كثيرة يشرب منها الحجاج ..

جلس عبد المطلب على رمال الصحراء فى قلب الليل ، وراح يتأمل النجوم ويفكر .. كانت هناك قصص قديمة تروى عن البئر التى انفجرت تحت قـدم اسماعيل عليه السلام .. وكانت هناك قصة تقول ان هـذه البئر قد طمرت وانسدت بفعل الزمن .. وان الآبار التى حفرت لم تكن فى مكان هـذه البئر المباركة ..

اشرقت الشمس على صحراء الجزيرة العربيـة ، فخرج عبد المطلب على الناس وحدثهم انه يريد ان يحفر بئرا فى ذلك المكان المحدد ..

اشار بيده الى المكان الذى حددته الرؤيا .. ورفضت قريش ..

ان المكان الذى اشار اليه يقع بين صنمين من الاصنام التى يعبدها الناس .

صنم اسمه « أساف » .. وصنم اسمه « نائلة » ..

عبثا حاول عبد المطلب ان يقنع قومه بأن يسمحوا له بحفر البئر ..

كانوا يعلمون أن عبد المطلب لم يكن له سوى ولد واحد ، هو اذن رجل ليست له عصبية ، وليس عنده أولاد يدافعون بالقوة عن رأى أبيهم ويحمون تصرفاته .. وأيامها كان كل شيء فى بلاد العرب وسط القبائل يتم عن طريق العصبيات وحماية الأهل ..

انصرف عبد المطلب وهو حزين .. وقف أمام الكعبة ونذر لله نذرا ..

قال : اذا ولد لى عشرة أبناء ، وبلغوا مبلغ الرجل وكبروا ، حتى استطاعوا حمايتى فى حفر البئر ، فسوف أذبح أحدهم عند الكعبة تضحية وقربانا ..

كان قلب السماء مفتوحا لكلمته ..

لم يكد عام واحد يمضى حتى وضعت زوجة عبد المطلب ابنها الثانى .. وكل عام يمر كانت تلد ولدا من الذكور .. حتى انتهت تسعة أعوام ، وصار عبد المطلب أبا لعشرة أولاد ..

ومر الزمن ، وكبر الأولاد ، وصاروا رجالا ..

صار عبد المطلب صاحب عصبية تمنع الأعداء عنه وتؤيده ..

وحفر البئر فى المكان الذى أشار اليه الهاتف .. وتهيأ للتضحية بأحد أولاده وفاء لنذره القديم ..

واجريت القرعة على أبنائه العشرة ، فخرج اسم أصغر أبنائه ، وكان اسمه عبد الله ..

لم يكد اسمه يظهر حتى ثار الناس ثورة شديدة .. لا نترك عبد الله يذبح أبدا ..

كان عبد الله أنقى انسان فى الجزيرة العربية كلها ..

ولم يكن قد أغضب احدا فى حياته ، أو رفع صوته على أحد ، أو كشر فى وجه أحد .. ان ابتسامته هى أرق ابتسامة فى الجزيرة العربية ، وروحه أصفى روح فى مكة ، وقلبه النبيل يشبه الجنة وسط صحراء القلوب القاسية .. ولهذا ثار الناس جميعا حين جاءت عليه القرعة كى يذبح .. وقال شيوخ قريش ورؤساؤها :

— نذبح أبناءنا بدلا منه ونفديه هو ..

— لن نجد أحدا فى طيبته لو ذبحناه ..

— ارجىء الأمر ودعنا نستفت العرافة ..

واستراح عبد المطلب لهذا الضغط ، فأرجأ الأمر ، وذهب الناس يستفتون العرافة .. قالت العرافة :

— كم الدية عندكم ؟

أجابوا : عشرة من الأبل ..

قالت : ارجعوا واحضروا عشرة من الابل ، واجروا القرعة عليهـــا وعلى عبد الله .. فاذا جاءت القرعة عليه فزيدوا الابل عشرا ، وأعيدوا القرعة ، وزيدوها عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ..

واجريت القرعة على عبد الله وعشرة جمـــال عظيمـــة .. فجـــاءت عليه القرعة ، فزاد عبدالمطلب عشرة من الابل على العشرة ، فجاءت عليه القرعة ، وظلوا يزيدون حتى وصل عدد الابل الى مائة .. جاءت عليهـــا القرعة أخيرا بعد عشر مرات ..

وانهمرت دموع النـــاس فرحا بنجـــاة عبد الله ، وذبحت مائة ذبيحـــة عند الكعبة ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ..

كان عبد المطلب سعيدا بنجاة ولده عبد الله ، وقرر ان يزوجه أفضـــل فتاة فى الجزيرة العربيـــة .. وخرج به يومهـــا من الكعبة الى دار « وهب » .. وهناك خطب له آمنة بنت وهب ..

وتزوجت آمنة بنت وهب من عبد الله بن عبد المطلب ، أكرم الفتيان وأحبهم فى قريش !

اشعلت النيران فى جبال مكة كلها ليهتدى اليها المســـافرون والضـــيوف ، احتفالا بزواج عبد الله من آمنة ، وذبحت الذبائح واطعم الناس الغرباء والفقراء والوحوش والطير .. ومكث عبد الله مع زوجته آمنة شهرين اثنين فى بيت العرس .. ثم أذن مؤذن الرحيل فخرج عبد الله الى رحلته مســـافرا مع قافلة قريش التجارية الى الشام ..

وكان آخر ما شـــاهدته منه آمنة بنت وهب .. وجهه النبيل وهو يودعها قبل أن يرحل .. بعدها اختفى شبحه مع القافلة ، وذابوا فى الأفق البعيد .

وكانت آمنة بنت وهب لا تعرف انها المرة الأخيرة .. بعد شهرين اثنين من زواجه رحل .. بعد شهر واحد من رحيله زار أخواله من قبيلة بنى النجار فى المدينة ، وهناك وضع جسده على الأرض ومات ..

مات عبد الله بن عبد المطلب .. وعمره خمس وعشرون سنة .. انتشر خبر موته مقبضا ، مؤلما كالحريق .. حتى اذا وصل الخبر الى زوجته آمنـــة انكفأت العروس تبكى وتنتحب وتسأل سؤالا لم تعرف لحظتها جوابه :

ـــ لماذا فداه الله بمائة من الابل اذا كان قد قدر عليه المـــوت بعدها بقليل ؟ .. وتحرك فى رحمها الجنين حركة خفيفة ..

وعادت تبكى حين أدركت انها حـــامل .. بكت مرتين .. مرة لنفســـها ، ومرة لهذا الطفل الذى مات أبوه قبل أن يولد ، ولم تكن آمنة تعرف ان هـــذا اليتيم الذى يتحرك فى بطنها يجب أن يكون يتيما .. يجب الا يبقى أبوه على قيد الحياة .. سيكون هذا اليتيم مسئولا عن حمل آلام اليتامى والفقراء والحزانى فى الأرض .. سيكون آخر أنبياء الله ورسله الى الناس .. ســـيكون رحمة مهداة الى البشر .. ولا يعرف الرحمـــة الا من ذاق الحـــزن وعرف الآلام .. وها هو ذا الطفل يتغذى قبل أن يولد من دماء الحزن العريق النبيل ذاته ..

ومرت الأيام .. ونفد دمع الأم ، وجفت عيناها ، ولكن حزنها كان يشـــبه شجرة تنمو مع العطش ..

راح الحزن يكبر يوما بعد يوم ..

ولم تكن تحس لدهشتها بثقل لهذا الجنين الذى تحمله فى بطنها .. على العكس كانت تحس انها خفيفة كهذا الحمام الذى يطوف حول الكعبة .. ولولا حزنها الذى يشدها للأرض ، ما كانت هنـــاك امراة اسـعد منها بهذا الحمل الخفيف الذى لا تكاد تشعر به ، الثقيل الكريم عند رب العـــالمين ..

واقترب موعد ولادتها ..

واقترب زحف أبرهة بجيشه من مكة ..

كان ابرهة حاكما حبشيا لليمن ، فى الفترة التى خضعت فيها اليمن للحبشة بعد طرد الحاكم الفارسى منها ، وكان قـد بنى فى اليمن كنيسـة جمع لها كل أسباب الوجاهة ، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب اهـل اليمن الذين يحـكمهم لهذا البيت .. فلما رأى كنيسته لا تجذب اليها أحدا من العرب ، صح عزمه على هـدم الكعبة ليضع الناس امام الأمر الواقع ، فلا يقصدون الا كنيسته .. وهكذا اعد جيشا عظيما مدججا بالسلاح ، وشق الجيش طريقه نحو الكعبة .. وكان جيش ابرهة يضم مجموعة من الفيلة العظيمة الشرسـة التى يسـتخدمها كما نسـتخدم نحن الدبابات هذه الأيام ..

وتسامع العرب به وبقصده .. وعز عليهم ان يتوجـه لهدم كعبتهم ، وكان العرب وثنيين ، ورغم ذلك كان البيت موضع اعتزازهم لاعتقادهم بأنهم ابنـاء ابراهيم واسماعيل صاحبى البيت ..

واعترض مسار الجيش رجل من اشراف اهـل اليمن وملوكهم ، اسـمه ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب ابرهة وجهاده عن البيت الحرام .. فأجابه الى ذلك من أجابه .. والتقى ابرهة بهذا الجيش ، فانهزمت القلة الشجاعة أمام الكثرة الكافرة ، وانكسر ذو نفر وصار أسـير أبرهـة ..

اعترض الجيش نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم أبرهة واسر نفيلا .. وقبل هذا أن يكون دليله فى أرض العرب .. حتى اذا مر بالطائف خرج اليه رجال من ثقيف وهم يرتعشون جبنا فقالوا له : ان البيت الذى يقصده ليس عندهم ، انما هو فى مكة .. وذلك ليدفعوه عن بيتهم الوثنى الذى بنوه لصنم يقال له « اللات » وبعثوا معه من يدله على الكعبة ..

فلما كان ابرهة بين الطائف ومكة .. بعث قائدا من قواده حتى انتهى الى مكة ، وهنـاك اغتصب اموالا من قريش وغيرهم ، وكان بين ما اغتصبه مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسـيدها وصـاحب بئر زمـزم ..

وأثار وجود رسـول أبرهة فى مكة حميـة القبـائل ، وتحركت قريش ، وكنانة ، وهذيل ، ومن كان بذلك الحرم لقتاله ، ثم عرفوا انهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وانطلقت فى الجزيرة العربية اخبار الجيش الذى لا يقهر .. وبعث أبرهة

رسولا الى مكة ، وهو يحمل رسالة تقول ان الملك لم يأت لحربهم .. وانما جاء لهدم هذا البيت .. فان لم يتعرضوا له ، فلا حاجة له فى دمائهم .. فاذا كان سيد البلد لا يريد الحرب فليجيئوا به الى الملك ..

والتقى رسول أبرهة بعبد المطلب .. وحدثه عن نوايا الملك ..

قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا من طاقة .. هـذا بيت الله الحرام .. وبيت خليله ابراهيم عليه السلام .. فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه .. وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفاع عنه ..

فانطلق الرسول مع عبد المطلب الى أبرهة ..

كان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم .. وكانت له هيبة واحترام عظيمان .. فلما رآه أبرهة أحس بالاحترام نحوه .. وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه .. فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساط وأجلس عبد المطلب الى جانبه ..

ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟

قال عبد المطلب : حاجتى أن يرد على الملك مئتى بعير أصابها لى ..

فلما قال ذلك ، تغير وجه أبرهة ، وقال لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك .. ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى .. اتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمنى فيه !

قال عبد المطلب : أنا رب الابل .. وللبيت رب يحميه ..

قال أبرهة : لن يحميه منى ..

قال عبد المطلب : أنت وذاك ..

انتهى الحوار بين عبد المطلب وأبرهة .. أعطاه الملك ما اغتصبه من الابل ، وانصرف عبد المطلب الى قريش فأخبرهم الخبر .. وأمرهم بالخروج من مكة ، واللجوء الى كهوف الجبال ..

وخلت مكة من سكانها .. وخرجت آمنة بنت وهب الى الجبال القريبة .. وهبطت الملائكة أرض الجزيرة العربية ..

ووقف عبد المطلب وأمسك بحلقة باب الكعبة .. وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه ..

وانهالت السياط على الفيلة التى تتقدم جيش أبرهة .. وأمرت الملائكة الفيلة أن تجمد فى مكانها فأطاعت ..

وازداد الضرب قسوة وشدة .. واثاقلت الفيلة فى الأرض أكثر وأكثر .. كانت ترتعش فى مكانها وتصرخ .. بيد انها رفضت ان تتحرك حركة واحدة ..

وتساءل أبرهة : لماذا لا يتحرك الجيش ؟ .. وجاءه الجواب ان الفيلة ترفض الحركة .. ورفع أبرهة سوطه وهبط به على وجه محدثه ، ثم خرج ثائرا ليرى ماذا أصاب الفيلة ..

كانت الشمس مشرقة وهو يجلس في خيمته .. فلما خرج كانت الشمس تحتجب وراء أسراب من الطيور الزاحفة ..

رفع أبرهة بصره الى السماء ..

خيل اليه فى بداية الأمر انه يواجه سحابة سوداء .. ثم دقق النظر فاكتشف انه أمام طيور تسد ضوء الشمس وتشبه السحابة فى تكاثفها .. « **طيرا أبابيل** » .. طيرا كثيرة متعاقبة ، لا تبدو لها نهاية ..

وزاد صراخ الفيلة ورعبها .. وسرى الرعب الى الجيش كله .. وصرخ أبرهة فى جيشه أن يتجاوز الفيلة ويتقدم .. وتقدمت الطيور منقضة على الجيش .. وانفتحت نافذة من نوافذ الجحيم ، والطيور تقصف الجيش بحجارة من سجيل ..

نفس الحجارة التى القيت على قوم لوط ..

نفس الأثر المدمر الذى يشبه اثر القنابل الذرية اليوم ..

انك تقرأ فى الاسفار القديمة وصفا لما أصاب جيش أبرهة ، فيخيل اليك أنك أمام طاقة مدمرة مجهولة ، عرف العالم طرفا منها بعد أربعة عشر قرنا من وقوع الحادث .. تقول هذه الأسفار : ان الجيش أبيد وهلك ..

انكفأ جنوده عائدين ولحمهم يتساقط فى الطريق .. وأصيب أبرهة وخرجوا به ولحمه يسقط أنملة أنملة .. كان جسده يتناثر قطعا كل قطعة منها فى حجم أنملة الاصبع الصغيرة .. وانشق صدره ومات ..

أسدل الستار على الجيش .. استلقت أسلحته اللامعة على رمال الصحراء ، وتناثرت أجساد الجند كعصف مأكول .. قال المفسرون « العصف المأكول » هو ورق الزرع اذا أكلته الدواب ومضغته وهضمته ثم رمت به من أسفل .

بعد ما يقرب من نصف قرن .. ستنزل فى مكة سورة تقص نبأ هذا كله .. **« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ . ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول »** [١] ..

....

انكسر الجيش الذى استسلمت له الجزيرة بمجرد دخوله ..

أبيد تماما ، وحمى رب الكعبة بيته الحرام ..

لم تكن هذه الحماية تكريما لمن يعيش فى البيت وتتذاك .. ولا كانت استجابة لدعاء الوثنيين وعباد الأصنام الذين يملأون ساحاته ..

حمى رب البيت بيته لحكمة عليا ..

كان سبحانه وتعالى يريد بهذا البيت أمرا .. يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنا .. ليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة ..

---

(١) سورة الفيل مكية .

نحو ارض حرة آمنة .. لا يهيمن عليها أحد من الخارج .. ولا تسيطر عليها حكومة أجنبية قاهرة تحاصر الدعوة .. ذلك أن هناك فى بيت من بيوت مكة جنين لم يولد بعد .. أمه تحمل اســـم آمنة بنت وهب .. وابوه عبد الله من سادات العرب .. والطفل لم يولد بعد .. ولم يكلف بعد بالنبوة .. ولم يحمل الاسلام ثقيلا على كاهله ، ورحمة للعالمين ..

ثم يجىء ابرهة يريد أن يهدم هذا كله .. دون أن يعرف هذا كله ..

ان مأساة أبرهة ـــ مع ظلمه ـــ انه حـــاول اعتراض المشـــيئة الالهية .. فسحقته المشيئة الالهية بمعجزة صامتة وخاطفة ..

ان طيرا كثيرة تلقى ما تحمله فى أرجلها ومناقيرها من حجـــارة طينية .. لا صوت فى السماء غير حركة الرياح الخفيفة .

ثم تهبط الحجارة الصغيرة فتفعل فعل انفجـــار آلاف القنـــابل .. أيضـــا بلا صوت .. كان هذا من تدبير الله لبيته ودينه ونبيه قبل أن يعلم أحد أن نبى الاسلام يتهيأ ليغادر فراشه الرحيم فى بطن الأم الى حياته القاسية على ظهر الأرض ..

....

وسط أفراح مكة بنجاتها ونجاه الكعبة ..

رات آمنة بنت وهب حلما ذات ليلة ..

شاهدت نفسها تقف وحدها وسط الصـــحراء ، وقد خرج منهـــا نور عظيم اضاء المشرق والمغرب ، وامتد حتى السماء ..

واستيقظت آمنة من نومها فلم تعرف تفســـير رؤياها .. ولا عاشت حتى لتعرف تفسير رؤياها ..

مرت أيام وأيام من عام الفيل ..

وفى وقت السحر ..

من ليلة الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ..

ولدت آمنة بنت وهب طفلها اليتيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، حفيد اسماعيل بن ابراهيم بن آدم ..

....

كانت الدنيـــا تموت عطشا اليه قبل أن يولد ..

كان عطشها عظيما الى الحب والرحمة والعدالة ..

لقد مرت الآن ستمائة عام على ميلاد المسيح ، وابتعد المسيحيون فيها عن تعـــاليم الحب ، وتســـللت العقائد الوثنية الى بعض فرقهم ، وشـــاب صـــفاء التوحيد دنس عظيم .. وهجر اليهود وصايا موسى وعادوا لعبـــادة العجل الذهب ، وفضل كل واحد منهم أن يكون له عجله الذهبى الخاص ..

وأغارت الوثنية على الأرض ، كفرت بالعقل ، ونســـيت الله ، واستسلمت

لأيدى الدجالين .. وحين بدا واضحا ان قلب الدنيا قد أصيب بالجفاف ، نبع من المشرق فجأة ينبوع صاف من الايمان ارتوى منه نصف العالم ، وكانت معجزة كبرى أن يخرج هذا الينبوع الصافى من قلب أعظم الصحراوات جفافا فى العالم .. صحراء الجزيرة العربية ..

يقول الحديث الشريف فى تصوير هذه الفترة :

« ان الله نظر الى اهل الأرض فمقتهم .. عربهم وعجمهم .. الا بقايا من أهل الكتاب » ..

....

الرمال تمتد صفراء حتى تلتقى بالأفق ..

خيام مكة ..

فى خيمة خشنة منها يولد طفل يتيم سيصبح فيما بعد مسئولا عن ارواء عطش العالم الى الحب والعدالة والحرية والحق ..

على مسافة خطوات من مكان مولده .. تملأ الأصنام ساحة البيت العتيق ، وحول الكعبة التى بناها ابراهيم واسماعيل لتكون بيتا لله يعبد فيه وحده ، ويأمن الناس فيه وحده .. فى هذا البيت القديم الذى بناه قبله آدم ..

تملأ تماثيل الآلهة الحجرية والخشبية المكان كله .. دليلا يشهد على سقوط العقل العربى وانحداره ..

وبعيدا عن مكة ، كانت يثرب ، او المدينة التى تمتلىء باليهود الذين جاءوها هربا من اضطهاد الرومان .. وحطوا كالذئاب على أخصب الأرض واحتكروا تجارة المتعة ، وشيدوا مستعمراتهم ، مستغلين ضعف الوجود العربى وانقسامه على نفسه .. وهو وجود كانت لديه القدرة على التناحر والقتال أربعين عاما لأسباب تافهة ..

وكان علماء اليهود يتاجرون بكل شىء . ابتداء من الذهب وانتهاء بالتوراة ، فيخفون منها أوراقا ويظهرون أوراقا ، ويحرفون أوراقا ليزدادوا ثراء على ثراء .. وعلى حين كان اليهود يعبدون الذهب ، ويجيدون التجارة ، ويتفننون فى المؤامرات .. كان العرب يعبدون الحجارة ، ويجيدون القتال ، ويتفننون فى قرض الشعر وتعليقه على أستار الكعبة .. وكان العرب يعيشون فى ظل نظام القبائل المتخلف .. شيخ القبيلة هو السيد الحاكم ، وقيمته تتحدد بمقدار عدد رجاله وكثرتهم وقدرتهم على القتال .. وفضل المرء ينبع من أصله ، وعصبيته هى قيمته ، وفخره بالأنساب هو كرامته ، والتعصب لصنم معين هو دينه .. وكانت كل قيم الشهامة والكرم والنجدة والوفاء لا تدور الا داخل الاطار الضيق للقبيلة الواحدة ، أو القبائل المتصالحة ..

وبعيدا عن مكان الميلاد ..

كانت «روما» تشبه نسرا عجوزا لم يفقد قوته .. وكان الرومانيون يعبدون القوة ..

والى الشرق من شمال بلاد العرب ، كان الفرس يعبدون النار والماء ..

ان النار تشتعل فى معابدهم فيركع لها الناس ، وهناك «**بحيرة ساوة** » التى تعتبر فى نظرهم مقدسة .. أما « **كسرى** » ملكهم فيجلس فى ايوانه للحكم بين الناس فتمضى كلمته كالقضاء النافذ .. لا يناقشها أحد ، ولا يردها أحد .. وكان الفرس قد غلبوا الروم واليونان ، وصاروا أكبر القوى الموجودة فى الأرض .. ورغم قوتهم فقد كانت النار التى يعبدونها تكشف عن غباء القوة حين تنخلع من عقلها وتقف عارية بغير الحق ..

كان الظلام يزداد فى كل بقعة من الأرض .. وتحولت الحياة الى غابة كثيبة يضرب فيها القوى الضعيف ، وينتصر فيها الشر على الخير .. ويعبد العقل فيها قطع الحجارة ، او يعبد الخوف الذى يلقيه الطغاة فى قلبه ..

وفى هذا الجو .. ولد فى خيام مكة طفل ..

وفى نفس اللحظة التى ولد فيها هذا الطفل العربى ، انطفأت النار المعبودة فى معابد الفرس .. وجفت بحيرة ساوة المقدسة .. وسقطت أربع عشرة شرفة من قصر كسرى ، وأحس الشيطان أن ألما هائلا يمزق قلبه ..

وكان هذا كله رمزا لبداية انكسار الشر فى العالم ..

وتحرير العقل البشرى من عبادة العباد والخرافات ، الى عبادة الله وحده ..

....

قال البوصيرى :

ابان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس انهمو
قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه .. والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورد واردها بالغيظ حين ظمى

ويعتقد بعض العلماء ان هذا الكلام تعبير خاطىء عن فكرة صحيحة .. فان ميلاد الرسول كان حقا ايذانا بزوال الظلم واندثار عهده ، مثلما كان ميلاد موسى ايذانا بتخليص بنى اسرائيل من ظلم فرعون .. غير ان رسالة محمد بن عبد الله كانت أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى ، وكان جند القرآن أعدل رجال واجراهم على كسر شوكة الطغاة ، طاغية اثر طاغية ، فلما أحب الناس ، بعد انطلاقهم من قيود العسف ، تصوير هذه الحقيقة ، تخيلوا هذه الارهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد صلى الله عليه وسلم غنى عن هذا كله .. فان نصيبه من الواقع المشرف يزهدنا فى هذه الروايات وأشباهها [١] ..

---

(١) راجع كتاب فقه السيرة .. للاستاذ محمد الغزالى .. وهو كتابعظيم سطره صاحبه بعلم وحب .

رغم ايماننا أن نصيب الرسول من الواقع المشرف يتجـاوز هذه الروايات واشباهها ، الا ان هذا لا يمنع من وقوع هذه الخوارق .

وسوف نلاحظ فى سيرة الرسول ان الخوارق أحاطت بالكعبة قبل مولده ، ثم وقعت النبوءات الخارقة بعد مولده ، ثم وقعت له خارقة « شـق الصدر » في طفولته ، واظله الغمام فى صباه ، وصرف صرفا عن لهو الشـباب البرىء .. وظلت عناية الله عز وجل تحرس خطاه حتى نزل عليه جبريل بالوحى ..

بعدها أصبحت معجزته الأولى هى شخصيته وافكاره .. صارت معجزته الكبرى بعد القرآن .. هى هذا البناء الروحى الشـامخ الذى احتمل فى الله ما احتمل ، وقاسى فى الحق ما قاسى ، وأدى أمانته بكمال لا يطاول ..

واجمل ما يقال عن معجزات النبى بعد بعثته ، انه كان بلا معجزة ..

بلا معجزة سوى تحرير العقل

بلا خوارق سوى اطلاق الفكر ..

بلا دليـل غير كلمات الله ..

لقد دعا عيسى بن مريم الى المساواة والاخوة والحب ..

أما محمد عليه الصلاة والسلام فوفق إلى تحقيق المساواة والاخوة والحب بين المؤمنين أثناء حياته وبعدها ..

وعلى حين أحيـا عيسى بن مريم الموتى وأخـرجهم من قبورهم .. أحيـا محمد بن عبد الله الأحيـاء من موتهم الذى لا يـدركونه ، وذلك أقسى انـواع الموت ، وأخرجهم من ظلمة الجهل الى طمأنينة العلم ، ومن خبل الشرك والكفر الى علم التوحيد ..

ولقد كان سليمان نبيا وملكا يشتغل الجن فى خدمته ويطيرون آلاف الأميال لاحضار عروش أعدائه كي ينبهروا بقدرته فيسلموا .. أما محمد فكان يشتغل فى خدمة الاسلام ، بدرجة جندى بسيط ووديع .. وكان يعلم انه لو غفل عن دعوته لحظة ، أو استسلم جسده لاعياء الكفاح المتصل ، فقد ضاعت فرصته فى نشر الاسلام وتبليغ أمثالى وأمثـالك من عباد الله ، ما أراد الله أن يعرفوه عن جلاله ورحمته ..

....

وفى لحظات الهول الكبرى فى معاركه . كان وقت الصلاة يجىء .. فيصلى الجيش المقاتل .. لا تنزل الملائكة لتحميه اثناء الصلاة .. أو تمنع السـهام عن ظهره خـلال سجوده .. وانمـا على الجيش المحـارب أن يحمى نفسه بنفسه ..

فليصل الجيش المؤمن بالتناوب .. جزء يصلى ، وجزء يقوم بمهمة الحراسة .. ثم يتبادلان المواقع ..

قال تعالى فى سورة النساء :

« واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة أخرى لم

يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » [1]

انتهى الأمر ، ولم يعد مع الجيش ملائكة لحمايته ونصره ..

هذا عهد الرشد العقلى ، عهد عناء الأنبياء والمؤمنين .. وعلى قدر العناء فى تبليغ الاسلام ، يكون الجزاء ..

ولقد كان العهد بالأنبياء قبل محمد أن يقدموا معجزاتهم لقومهم عند بدء الدعوة .. ليصدقهم القوم فيما جاءوا به ، أما محمد بن عبد الله فلم يقدم لقومه غير شخصه وحده .. وصدقه وحده ..

وقد اقتضت عناية الله بموسى أن يرفع الجبل على قومه ليؤمنوا بالتوراة ، أو يسقط عليهم الجبل .. وسجد اليهود وقد وضعوا خدا على الأرض وتأملوا بما بقى من وجوههم كتلة الحجارة التى رفعتها يد القدرة الخفية ..

أما محمد بن عبد الله ، فلم يقهر أحدا على شىء .. آمن به من آمن عن رضا واقتناع ، ومات معه من مات عن رضا واقتناع .. ولم يحمل هو السيف الا حين اقترب السهم المسموم من قلب الاسلام وهدده .. بعدها لم يكن السيف فى يد الاسلام الا مشرط جراح يشق الجسم الانسانى انقاذا للجسم الانسانى ورحمة به ورغبة فى شفائه ..

ولقد كانت دعوات الأنبياء السابقين .. تقتضى ما وقع من المعجزات ..

ان طفولة البشرية .. وضعف العقول .. وانطلاق الحواس .. اقتضت من رحمة الله ان يكون نوع المعجزة من نوع العصر الذى تتنزل فيه ، ومن نوع الناس الذين تبعث اليهم ، ولم يكن أهل مكة فى ذلك الوقت عقلاء أو حكماء تكفيهم الكلمات .. وانما جاءت الصعوبة من كون الاسلام لم يبعث لهذا العصر وحده .. انما أنزل لكل العصور .. وكان الله يعلم ان البشرية تدخل عصر النضج العقلى .. فشاءت حكمته ان تكون أول كلمات الرسالة « **اقرأ** » ..

وأن تكون معجزة الرسالة هى نوعية الفكر الذى تنطوى عليه ، والنظام الذى تقيمه ، والتشريع الذى تضعه .. والحرية التى تحييها .. والانسان الذى تبنيه ..

وليس ينقص من قدر الأنبياء قبل محمد انهم لم يبعثوا فى عصور النضج العقلى عليهم صلوات الله وسلامه ..

انما زاد فى قدر محمد انه بعث لعصر النضج العقلى .. وبعث قبل مجىء هذا العصر .. فاحتمل أضعاف ما احتمله الأنبياء .. وقاسى فى الله أضعاف ما قاسوه .. وتعذب وحده بمثل ما تعذبوا جميعا ، وأحب الله مثلما أحبوه وزاد .. وكرمه الله عليهم حين أمهم فى الصلاة فى رحلة الاسراء والمعراج .. ورغم هذا كله .. خرج يوما على صحابته فوجدهم يفاضلون بين الأنبياء ويقدمونه عليهم فغضب وجهه وتغير ..

---

(1) من الآية ١٠٢ مدنية .

قال :

« لا تفضلونى على يونس بن متى » ..

وضع بكلمته خطا فكريا يسير عليه المسلمون .. ليكن الأنبياء درجات عند الله ..

ليكن أن هناك أحدا أفضل من أحد .. من الذى يقرر ذلك ؟ .. لا أحد غير الله عز وجل ، أما المسلمون فليقفوا عند حدود الأدب مع الأنبياء جميعا .. وما دام الله تعالى قد صلى على رسولهم تكريما ، وأمرهم بالصلاة عليه اجلالا .. وما دام شأن الرسول كشأن بقية الأنبياء ، فليصلوا على جميع الأنبياء بغير ما تفرقة ، حتى فى عبارة الصلاة ..

....

....

تحرك الرضيع المولود فى مكة فى عام الفيل ..

انطلقت الاخبار لجده ان حفيدك قد ولد .. واسرع عبد المطلب وحمل حفيده اليتيم وراح يطوف به الكعبة وهو يفكر فى تسميته .. لم تعجبه كل التسميات التى عرضت لذهنه .. وأجل اختيار اسمه يوما .. ولم يستطع فى اليوم الثانى أن يهتدى لتسمية ترضيه ، وطالت حيرته ستة أيام حتى تم ختانه صلى الله عليه وسلم .. فلما جن عليه الليل جاءه نفس الهاتف القديم الذى أمره بحفر زمزم .. وهمس له أثناء نومه :

ـ اسمه مشتق من الحمد .. محمد .. أو أحمد ..

سألت قريش عبد المطلب :

ـ أى اسم ستسمى حفيدك ؟

قال [وهو يذكر كلمات الهاتف] : محمد ..

كان الاسم غير مألوف فى الجاهلية التى يعيش فيها الناس ، سألوه لماذا رغبت عن أسماء آبائك وتركت أسماء اجدادك ؟

قال عبد المطلب : اردت أن يحمده الله فى السماء ، وأن يحمده الناس فى الأرض .

لا نعرف الآن أى دوافع املت على عبد المطلب هذه الكلمات .. اكانت هذه الكلمات تصدر من واقع الزهو العربى الشهير ؟ .. أم من واقع الفخر التقليدى ؟ .. أم من واقع الفرح العميق بالحفيد ؟ .. أم كانت الكلمات لحظة من لحظات الصفاء الروحى واستشفاف الغيب ... ؟

لا نعرف ...

كل ما نعرفه أن أحدا من خلق الله .. لا يستحق أن يحمده الناس فى الأرض ، ويحمده الله فى السماء ، مثلما يستحق محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ..

....

برز الى الوجود يتيما ، غادر أبوه الدنيا ، وهو جنين فى بطن أمه ..
قال تعـــالى :

« **ألم يجـــدك يتيمـــا فآوى** » [١] ..

آواه الله عز وجل .. يقول الصوفية ان الأســـباب البشرية ، كوجود جده عبد المطلب وكفالته له وإيوائه اياه ، ليست غير ظـــاهر يمكن تجـــاوزه ، أما الباطن فهو اننا أمام بشر آواه ربه من طفولته ..

ورباه الحق عز وجل من طفولته .. وامتحنه باليتم وهو جنين ، وبالجوع وهو صـــبى وكهل ، وبفقدان الأم وهو طفل ، وبالوحـــدة وسط الجمـــاعة ، وباليقظة وسط النيام ، وبآلام تعقبها آلام ..

وكان الحق يعده من طفولته لحمل آخر الرسـالات ، وأثقل الأعباء ، وأفدح المغـــارم ..

....

الصقته أمه بصدرها أكثر من ذى قبل ، وهى ترى انصراف المراضـع المقبلات من البادية عن حضانته ..

كانت التقاليد السائدة فى مكة أن ترسل الأسر الشريفة ابناءها الى البادية لانطلاق الهواء ، وتوافر اللعب .. ولم تكن المرضعات يتكالبن الا على أبنـــاء الأغنيـــاء ..

ولما كان سيد الناس فقيرا .. فقد انصرفت عنه المراضع ..

لنستمع الآن الى مرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهى تحكى قصـــتها مع الرضيع عليه الصلاة والسلام ..

« كانت سنة جدباء ، لم تبق لنا شـــيئا ، فصـــيرتنى وزوجى فى فقر مدقع .. فعزمنا على الخروج الى مكة فى رفقة نسوة من بنى سعد ، نلتمس جميعا الرضعاء ، ليســـاعدنا آباؤهم على الحياة وضرورياتها .. كانت الدابة التى أركبها من الهزال والضعف الذى سببه عدم وجود القوت ، بحيث خشـــينا أن تقع فى الطريق فاقدة الحياة ، ولم ننم ليلنا كله من صبينا الذى معنا ، فقد راح يبكى لما يجده من الم الجوع ، ولم يكن فى ثديى ولا فى ثدى الناقة التى يقودها زوجى قطرة من لبن نهـــدىء بهـــا جوعه . وأدركنى اليأس أثنـــاء الليل .. وتساءلت : كيف أستطيع وأنا فى تلك الحالة ، الزعم بأن فى مقدورى القيـــام على تنشئة طفل ؟ .. وصلنا أخيرا الى مكة .. وقد سبقتنا اليها النسوة .. فأخذن الأطفال ما عـــدا واحدا فقط .. هو محمد .. كان والده قد مات .. وكانت أسرته فقيرة رغم مكانتها العليا بين سادة قريش وشرفها فيهم .. لذلك أبت النسوة احتضانه .. وامتنعت أنا وزوجى من أخذه لنفس السبب ، أعنى اليتم وعدم الثراء .. غير انى فى النهاية خجلت أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، فأكون فضلا عن الفشل ، موضع سخريتهن .. ثم انى شعرت بعطف متوقد نحو هذا الطفل البارع الجمال ، الذى ســيؤذيه هـــواء البلدة الفاســـد » ..

---

(١) الآية ٦ سورة الضحى مكية .

تقول هذه القصة انه فى اللحظة التى رضع فيها كل الأطفال الذين ولدوا معه .. كان محمد بن عبد الله يرقد جائعا فى فراشه الخشن بغير ان يرضعه أحد .. شاءت حكمة عليا ان يستقبل هذا الرضيع دنيـاه باليتم والجوع لكى يتذوق آلام اليتامى والجائعين قبل أن يحمل اليهم الخلاص فيما بعد ..

تقول حليمة انها ناقشت مع زوجها احساسها الداخلى بأنها تريد أن تعود لأخذ هذا اليتيم الرضيع .. فقبل زوجها .. لم تدر حليمة سر رغبتها الغامضة فى أن تعود .. لم تكن تعرف أن الله القى محبته فى قلبهـا مثلما القى محبة موسى فى قلب امرأة فرعون ..

واذا كان موسى قد رفض أن يرضـع الا من أمه ، بعد أن حـرم الله عليه المراضع .. كى تقر عينها ولا تحزن ، فقد كان محمد بن عبد الله رضيعا وديعا غاية الوداعة .. ترفضه المرضعات ولا يرفض أحدا من الخلق ..

عادت حليمة اليه وأعلنت انها ستحتضنه ..

كان عليه الصلاة والسلام وسنان . وضعت يدها على صدره فابتسم .. فتح عينيه فأطلت على الدنيا براءة آدم قبل ان يمد يده للشجرة المحرمة ..

قبلته حليمة بين عينيه وعادت به الى رحلها .. وضعته فى حجرها والقمته ثديها الأيمن ليرضع ما شاء الله ان يرضع .. كانت تعلم أن ثديها جاف فقالت : الهيه به .. وجـد فيه الرضيع ــ على دهشة منها ــ ما يشبعه .. تدفق اللبن فى صـدرها حنانا وحبا وآية من الله .. انتهى من رضـاعته فمنحته ثديها الأيسر فرفضه .. تاركا اياه لأخيه من الرضاعة .. واتبع ذلك دائما ..

أهى حكمة عليا هذا الاكتفاء بالقليل ... ؟

أم أن الرضيع كان يربى نفسه على الزهد والقنـاعة قبل أن يربى الرجال على التضحية والرجولة ..

....

عادت حليمة الى بادية بنى سعد وهى تحمل محمد بن عبد الله ..

لم تكد تعود لأرضها الجدباء ، حتى انفتح لهـا خير الدنيـا كله .. امتلأت الأرض بالخضرة بعد الجفاف .. واثمرت أشجار التمر بعد ان كانت يابسة ، ودرت أثداء الحيوانات ، وبارك الله فيها فامتلأت وسمنت ، وأعطت اضـعاف ما كانت تعطيه من اللبن ..

وأدركت حليمة أن هذا الخير قد جاء مع مجىء هذا الطفل المبـارك ، فزاد حبهـا له ..

ووقع زوجها أسيرا هو الآخر فى حبه .. وقال يوما لزوجته :

ــ تعلمين والله يا حليمة .. لقد اخذت نسمة مباركة ..

وشب محمد بن عبد الله فى بادية بنى سعد ..

تقول حليمة :

« كان طفلا لا يبكى ولا يصرخ قط ، الا اذا تعرى » ..

« وكان اذا قلق أثناء الليل ولم ينم ، خرجت به من الخيمة .. ووقفت معه تحت النجوم ، فيستولى عليه السرور من مشهد السماء ، حتى اذا شبعت عيناه أخذ النوم بمعاقد أجفانه » .

حين بلغ عامه الثانى فطم .. وأرادت أمه أن تأخذه .. ولكن حليمة لم تستطع أن تستسلم لهذا الانفصال القاسى .. فألقت بنفسها عند قدمى الأم واخذت تقبلهما وهى تسألها أن تتركه معها حتى يشب صحيحا فى هواء البادية .. ومكث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى بادية بنى سعد خمس سنوات .

وقد وقع له فى هذه السنوات الخمس ما عرف فيما بعد بحادث شق الصدر ..

....

اصدرت المشيئة الالهية حكمها النافذ للروح الأمين جبريل ، عليه السلام ، أن يهبط الى محمد بن عبد الله ، ويشق صدره بالأمر الالهى ، ويغسل قلبه بالرحمة ، ويجففه بالنور .. ويستخرج حظ الدنيا منه ..

....

خرج الرسول كعادته ذات صباح مع أخيه فى الرضاع يقودان القطيع الى المراعى ، فلما انتصف النهار ، أتى أخوه يعدو ، فزعا باكيا ، يصيح بأن محمدا قد قتل .. أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء ، فأضجعاه وشقا صدره ..

جن جنون حليمة .. انطلقت تعدو بكل ما تملك من قوة ، يتبعها زوجها فى الاتجاه الذى أرشد عنه الصبى .. فوجدا محمدا جالسا على الأرض ، وجهه ممتقع ، وعيناه تلمعان .. قبلاه فى رقة واخذا يلاطفانه .. ثم سألاه ماذا حدث ... ؟

قال الصبى : بينما كنت الاحظ الأغنام وهى ترعى ، فوجئت بصورتين ناصعتى البياض ، ظننت اولا انهما طائران كبيران ، ثم أدركت خطئى ، كانا شخصين لا أعرفهما يلبسان البياض ..

قال أحدهما لصاحبه مشيرا الى : أهذا هو ؟

قال : نعم ..

جمدت من الفزع ، واخذانى فأضجعانى وشقا صدرى ، والتمسا فيه شيئا ، فوجداه وطرحاه بعيدا ، ثم التأم ما شقاه ، واختفيا كأنهما شبحان ..

روى الحديث أنس .. وخرجه مسلم وأحمد ..

اختلف المفسرون أمام هذه الرمزية العميقة ..

يؤولها معظم العلماء ..

ويرى القدماء كالقرطبى انها معنى قوله تعالى :

« ألم نشرح لك صـــدرك » [1] ..

ويرى المحدثون كالغزالي ، أن بشرا ممتـــازا كمحمد لا تدعه العناية الالهية عرضة للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من النـــاس ، فاذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع الى التقاطها وتتأثر بها ، فقلوب النبيين ــ بتولى الله لها ــ لا تستقبل هذه التيارات ولا تهتز لها ..

وبذلك يكون جهد المرسلين هو متابعة الترقى ، لا مقـــاومة التدلى .. عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينـــه من الجن وقرينه من الملائكة .. قالوا : واياك يا رسول الله .. قال : واياى .. الا ان الله أعاننى عليه فأسلم .. فلا يأمرنى الا بخير » ..

هذا موقف القدماء والمحدثين من حادث شق الصدر .. ونحسب أن لهذه الخارقة علاقة باعـــداده لرحـــلة الاسراء والمعراج .. وهى رحـــلة كان على الرسول فيها ان يخترق عالم الفضاء ويرتاده ، ويتجاوزه الى عوالم الســـماء ويرتادها .. ثم يتجاوز هذا كله صعودا حتى يصـــل الى ســـدرة المنتهى .. عندها جنة المـــأوى ..

يرجح هذا النظر فى رأينا أن حادث شق الصدر تكرر مرة أخرى والرسول عليه الصلاة والسلام يجاوز الخمسين من عمره ..

وقد جاء حادث شق الصدر الثانى ليلة أسرى به ..

أخرج البخـــارى عن مالك بن صعصعة ، أن رســـول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حدثهم عن ليلة أسرى به فقال :

ــ بينا أنا فى الحطيم ــ أو قال فى الحجر ــ مضطجع بين النائم واليقظان .. اتانى آت ، فشق ما بين هذه الى هـــذه ــ يعنى ثغره الى بطنه ــ قال : فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايمـــانا ، فغسل قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد ..

نحسب أن حادث شق الصدر كان تجسيدا لعصمة الرسول ، وكان اعدادا لرحلة الاسراء والمعراج .. وكان اعلانا الهيا يعنى ان هذا الصبى سيصل الى مكانة لم يبلغها من قبله انسان ، ولن يبلغها بعده انسان ..

....

تغيرت حياة الصبى بعد حادث شق الصدر ..

صارت أفضل أوقاته تمضى فى التأمل والصمت .. وعرف وجهه لون الجد العذب الذى يميز وجوه كبار الرجال ..

ومرت الأعوام وانتهت فترة بقائه مع حليمة فى بادية بنى سعد .. وكانت فترة أثرت فى وجدانه تأثيرا عميقا .. روى عن الرسول انه كان يذكر صباه

---

(1) الآية ١ سورة الانشراح مكية .

فى بنى سعد بالفخر ، ويذكر ايثـارهم وتصرفاتهم بالرضا .. قال صلى الله عليه وسـلم :

أنا من بنى سـعد ولا فخر .. كانوا اذا جاع فيهم أحد اقتسـموا الطعام فيما بينهم ..

....

عاد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الى مكة وعمره خمس سنوات ..

عاش أياما مع أمه التى كان حزنها على أبيه قد تجسد فى ملامح الوجه أثرا رائعا لنبل الأحزان وشفافيتها .. ورأت أمـه ، وفاء لذكرى أبيه الراحل ، أن تزور قبره بيثرب .. والمسافة بين مكة ويثرب أكثر من خمسـمائة كيلو متر ، فى صحراء قاسية ، تخلو تماما من الحياة ..

وقطع الصبى الرحلة الشاقة ..

بعد هذه الرحلة الشاقة .. عاش محمد بن عبد الله عند أخواله فى المدينة شـهرا ..

رأى الصبى الصغير البيت الذى مات فيه أبوه قبل أن يولد هو .. زار مع أمه القبر المتواضع الذى دفن فيه والده .. انطبع فى قلبه أول معنى اليتم وهو يرقب دموع الأم الصامتة .. واحتلت المدينة بآلامها جزءا فسيحا فى قلبه .. فلما أذن الله له أن يهاجر اليها بعقيدته فيما بعد ، كان يحدث أصحابه عنها وعن رحلته الأولى اليها ، حديث محب للمدينة ، محزون لمن تحوى القبور بها من أهـله ..

انقضى الشـهر عند أخواله ، فصـحبته أمه عائدة به الى مكة ، بعد رحلة الوفـاء ..

وصلا الى منتصف الطريق .. لم يعرف محمد بن عبد الله سر امتقاع وجـه الأم وشحوبه .. وهبط ملك الموت بقعة تسـمى « الأبواء » .. وحين غادرها كانت آمنة بنت وهب قد لحقت بالرفيق الأعلى ..

ماتت الأم وتركت وحيدها مع خادم يتفتت قلبها على طفـل يفقد أباه وهو جنين ، ويفقد أمه وهو ابن ست سنين .. وعاد محمد بن عبد الله وحده دامع العين ، باكى القلب .. قد أدرك نضجه بعد ان صهرته أحزان الحياة وقسوة اليتم ..

سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد بعثته : ما طريقتك ؟

قال : « المعرفة رأس مالى .. والعقل أصل دينى .. والحب أساسى .. وذكر الله أنيسى .. والحزن رفيقى » ..

هى رفقة قديمة ، بدأت من طفولته ..

سقاه الله تعالى فى طفولته من أنهار الحزن العميق ، ليمنح النـاس بعدها ثمار الخلاص والفرحة ..

....

عاد الصبى الى مكة محزونا ، صـامتا ، فزاد جـده عبد المطلب فى حبه واعزازه .. بعد عامين اثنين .. حين وصل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الى الثامنة من عمره .. مات أكبر حصن من حصـونه البشرية .. مات جده عبد المطلب ..

وسار الصبى وراء نعش الجد صامتا كالكبار .. صلبا كالرجال .. تذوب رمال الطريق تحت قدميه فى دموعه الصابرة المحتسبة الشجاعة ..

لا نعرف لماذا حدث ما حدث ..

ما هى حكمة الله تبارك وتعـالى فى حرمان آخر أنبيـائه من عطف الأب ، وحنان الأم ، ورعاية الجد .. أكان الله عز وجل يريد أن يمنح آخر أنبيائه حنانا وحبا من لدنه وحده ؟ .. أكان الله يربيه بالحزن ويرهف مشاعره بالألم ؟ .. أكان الله تعالى يصنع قلب رسوله لنفسه ... ؟

قديما قال الحق عز وجل لموسى :

« **واصطنعتك لنفسى** » [١] ..

وقديمـا بشر الله تعـالى موسى فى التوراة ، كما بشر عيسى فى الانجيل ، بنبى يأتى من بعده اسمه أحمد ..

وسأل موسى ربه أن يمن عليه وعلى أمته بذروة الفضـل ، فحدثه الله انه كتب هذا الفضل لآخر أنبيائه .. أحمد .. وأمته ..

اذا كان الله تعالى قد اصطنع موسى لنفسه ، ورغم ذلك لم يحرمه من حنان الأم ، ورباه وسط أسرته ، فانه قد شاء أن يحرم آخر رسله من الحنان البشرى والحب البشرى ، والعطف البشرى .. ليؤثره بالحنان الالهى ، والحب الالهى والعطف الالهى ..

يقول تعالى محدثا آخر رسله :

« **ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجـدك ضـالا فهدى ، ووجـدك عائلا فأغنى ؟ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث** » [٢] ..

ان معنى الآيات الحرفى ، انه كان يتيما فآواه الله .. وكان تائها فهداه الله ، وكان فقيرا فأغناه الله .. استأثر الله بايوائه وهدايته واغنائه .. وتلك درجة من درجات الفضل لم يبلغها من العالمين احد ..

....

....

بعد وفاة جده ، كفله عمه أبو طالب ، والقى الله محبته فى قلب عمه ، فقدمه على أبنائه وأعزه وأكرمه ، وكان يجلسه على فراشه الذى يبسطه أمام الكعبة ولا يجلس عليه غيره ..

---

(١) الآية ٤١ من سورة طه مكية .
(٢) الآيات من ٦ الى ١١ سورة الضحى مكية .

وعاش محمد بن عبد الله فى قلب صحراء مكة ، مستيقظ القلب ، صاحى الوجدان ، بين قوم من الغافلين ، والسكارى ، وعبدة الأصنام ، وتجار الخمور والشعراء ، والمحاربين ، وشيوخ القبائل .. وجو الصحراء يزيد خمول الخامل ، ويزيد حدة اليقظان .. كشعاع الشمس الذى ينمى الأشواك والورود معا ..

وقد كان محمد بن عبد الله فى طفولته صامتا معظم الوقت ، فلما كبرت سنه زاد صمته .. كان لا يتكلم الا اذا دعاه أحد الى الكلام .. وكان لا يشارك الفتيان لهوهم ، مدفوعا فى ذلك بحزن داخلى لا كبرياء .. انه ينفرد بنفسه ، يفتح عينيه على امتداد الرمال .. لسانه يتوقف وعقله يعمل .. يتأمل فى طفولته سجود قومه للأصنام ويعجب .. كيف يسجد العاقلون لحجارة لا تضر ولا تنفع ولا تتكلم ولا تحس .. ورث من جده البعيد ابراهيم كراهيته الفطرية لعالم الأوثان والأصنام ..

وانطوى داخل أعماقه على احتقار عظيم لهذه المعبودات الحجرية ، احتقار جعله لا يقترب منها أبدا ، غير أن قلبه الكبير كان ينطوى على حزن أعظم من حزن جده ابراهيم .. كان حزينا لأن العقل الانسانى يعبد الحجارة والذهب والكبرياء وسلطان الحكام .. وكان يستمع الى الناس ، ويتأمل شئون الحياة واحوال الجماعات ، ويلاحظ صراع الناس على الأشياء التافهة والهالكة ، فتزداد دهشته ويعمق حزنه ..

ألا يعرف الناس انهم سيموتون مثلما مات أبوه وأمه وجده ... ؟

لماذا يثيرون كل هذا الصراع ليكسبوا مزيدا من الشرور فى النهاية ؟

وكلما تقدمت به السن ، زاد زهده فى الحياة ، وراحت سيرته تضىء فى انحاء مكة .. انه لا يشبه أحدا من الفتيان .. ورغم اعتقادنا فى حزنه الذى يعود لأسباب عامة .. لم يكن يبدى دخيلة نفسه لأحد ، ولا كان يتطلع لهداية أحد ، ولا كان يقصد اصلاح حال المجتمع أو الانسانية ، صحيح أن الأسئلة تثور فى ذهنه مضطربة ملحة تبحث عن جواب ، لكن عقله وحده لم يكن يهتدى الى الجواب أو الخلاص ..

هذا معنى الآية :

« **ووجدك ضالا فهدى** » [1] ..

الضلال هنا يعنى حيرة العقل فى تفسير الشر ومقاومته ، لافتقاد السلاح وصغر السن ..

ولقد أدى هذا كله بالصبى الى مزيد من الانطواء والصمت ، والابتعاد عن هراء العالم الذى ينسكب فى العقول ويشوشها .. ونجا عقله من التشويش وظل على صفائه ..

بقى الصبى بمبعدة عن آثام قومه وانكفائهم على الأصنام وحب السيادة والتفاخر .. واقترب أكثر وأكثر من جوهره النقى ، فراح يؤثر غيره على نفسه .. وامتدت رحمته الى الناس والحيوانات والطيور ..

---

(1) الآية ٧ سورة الضحى مكية .

كان اذا جلس يأكل وحط الحمام على طعامه ترك طعامه للحمام ..

وكان الناس يضربون الكلاب حين تقترب منهم وهم يأكلون ، أما هو فقد كان ينتزع اللقمة من فمه ليطعمها الكلاب والقطط والأطفال والفقراء ، وما أكثر الليالى التى باتها جائعا ، لانه أعطى طعامه لغيره ..

وكان فقيرا لابد ان يشتغل ليأكل .. واشتغل راعيا للغنم مثل داود وموسى وغيرهما من أنبياء الله .. كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة ..

ثم سافر فى قافلة عمه « أبو طالب » الى الشام وعمره ١٣ سنة .. ونظر فى أحوال الأمم الأخرى ، فزادت دهشته لهذه الجاهلية .. وكلما شاهد الناس يتخبطون زاد حزنه ورق قلبه واشتد تفكيره عمقا ..

وفى هذه الرحلة الى الشام ، وقع للصبى حادث ، أغلب الظن انه زاده حيرة على حيرة ..

....

كان الراهب « بحيرا » يقف فى نافذة الدير الذى يتعبد فيه فى سوريا حين لفتت نظره سحابة بيضاء من الغيم ، تعترض — على خلاف العادة — زرقة السماء الصافية ، وكان الجو صحوا ، فبدت هذه الغيمة مثيرة للدهشة .. وهبط نظر بحيرا من السماء الى الأرض ، فوجد السحابة التى تشبه طائرا أبيض ، تحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال .. ولاحظ بحيرا أن السحابة تتبع القافلة .. وحين اناخت القافلة لتستريح أسفل الدير ، ولجأت الى الظل .. تبخرت السحابة ..

دق قلب الراهب بعنف .. يعلم من أوراقه المسيحية الصادقة أن نبيا سيخرج الى الدنيا بعد عيسى .. نبيا تذكر الأوراق القديمة صفته وتبشر به ..

ترك بحيرا مكانه ، وأسرع يأمر باعداد طعام كثير ، ثم ارسل الى القافلة رسولا يدعوها الى تناول الطعام .. عاد الرسول يرافقه المكيون الى بحيرا ..

قال أحدهم مازحا مع بحيرا : وحق اللات والعزى ، ان لك يا بحيرا لشأنا اليوم .. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بكم كثيرا .. فما شأنك اليوم ؟

أجاب بحيرا : أنتم ضيوفى اليوم .. مر على سؤال الاعرابى بغير أن يجيبه عنه أو يكشف له سر هذا الكرم المفاجىء ..

ووفد ضيوفه فراح يطعمهم ويتأمل فيهم باحثا عن العلامات التى قرأها فى أوراقه للرسول المنتظر ، فلم يعثر على شىء .. سألهم :

— يا معشر قريش .. هل تخلف منكم أحد عن دعوتى ؟

قالوا : نعم .. تخلف منا واحد فقط .. تركناه لحداثة سنه ..

قال بحيرا : لقد دعوتكم جميعا .. ادعوه فليحضر هذا الطعام ..

قال رجل من قريش : واللات والعزى انه للؤم منا ان يتخلف محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام دعينا اليه .

اعتذر عمه بأن محمدا لم يزل صبيا ، ثم قام بعضهم فأحضره .. لم يكد بحيرا ينظر فى صفاء العينين ويغوص فى حزنهما النبيل ، حتى ادرك انه يقترب من هدفه .. ظل صامتا يرقب محمـــد بن عبد الله حتى اكل القـــوم وتفرقوا وجلس محمد بن عبد الله وحده ..

قام اليه بحيرا .. قال : يا غلام .. أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه ؟

كان بحيرا يريد أن يعرف موقف هذا الصبى من أوثان قومه واصنامهم .

أجاب الصبى : لا تسألنى باللات والعزى شيئا .. فوالله ما ابغضت شيئا قط بغضهما ..

قال بحيرا : أسألك اذن بالله ؟

قال الصبى : سل ما بدا لك ..

راح بحيرا يسأل الصبى عن أسرته ومكانته فى قومه وأحلامه وآرائه..

وكان الحوار يجرى بعيدا عن القوم .. فانهم ما كانوا يســـكتون عنه لو صرح ببغضه لأصنامهم ..

وجاءت الاجابات مؤكدة ليقين الراهب انه يجلس أمـــام النبى الذى بشر به نبيه عيسى كما بشر به نبى بنى اسرائيل موسى ..

بعدها ترك الصبى ونهض الى ابى طالب ..

سأله : ما هـــذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب : انه ابنى ..

قال بحيرا : ما ينبغى أن يكون أبوه حيـــا ..

قال أبو طالب : انه ابن اخى .. مات أبوه وأمه حبلى به ..

قال بحيرا : صدقت .. ارجع به الى بلدك واحذر عليه يهود ..

تساءل ابو طالب عن السر فيما يقوله الراهب .. أدرك الراهب انه تحدث اكثر مما ينبغى فقال :

سيكون له شــــــأن ..

لم يفصح اكثر .. ولم يحدد هذا الشأن .. ومر الحادث بغير أن يعلق بذهن أحد ، أو يلفت انتباه أحد ..

لم تترك هذه القصة اثرا فى القافلة أو فى النبى ، عليه الصلاة والسلام ، اعتبرت القافلة أن تكريم الراهب لمحمد بن عبد الله وتنبؤه له بشأن عظيم .. هما من قبيل المجاملة التى تقال على موائد الطعام ، حين يمتدح الضيوف كرم مضيفهم ، ويمتدح الداعى أخـــلاق فتيانهم .. ويتنبأ لهم بالنجاح .. لم تخلف القصة اثرا .. فلا محمد ، عليه الصلاة والســـلام ، فهم من كلام الراهب الغامض شيئا محددا ، ولا اصحاب القافلة تناقلوا هـــذا الحديث أو اشـــاعوه ..

طوى الحادث وان زاد حيرة محمد ..

ما الذى بينه وبين اليهود ليحذر الراهب عمه منهم ... ؟

ثم ما هو هذا الشأن الذى تنبأ به الراهب ... ؟

ما هى علاقة هذا كله بأحزانه العميقة وحيرته ... ؟

طافت الأسئلة قليلا حول ذهنه ثم غاصت خارج منطقة الرؤية ..

وعادت القافلة عودة طبيعية الى مكة ..

وعاد محمد بن عبد الله الى انفراده بنفسه ، وتأمله فى أحوال الكون ، وشقائه ليكسب لقمة عيشه ، وخدمته العفوية للناس ، وايثاره لهم على نفسه ،. عاد الى هذا كله فى صمت وسكينة ..

يوما بعد يوم ..

كان يفيض بالثقة والرحمة والأمانة والحب .. مثلما يفيض المصباح بالنور .. اشتهر بين قومه بالأمانة والصدق . ولم يكن صدقه أو أمانته موضع شك أو بحث لدى أهل مكة .. وحين جاء برسالته بعد ذلك بسنوات طوال ووقف ضده المجتمع كله ، وانقلب عليه الملأ من قومه .. لم يجرؤ أحدهم أن ينال من أمانته وصدقه .. انما ادعوا انه مسحور أو فقد وعيه .. وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة .. حين تم الاتفاق على قتله وتفريق دمه بين القبائل .. وحاصروا بيته لاغتياله ، فى هذه الساعات الحرجة .. قرر الهجرة .. ولكنه أوصى على بن أبى طالب — ابن عمه — أن يبقى فى بيته ليرد جميع الأمانات — التى أودعها عنده أعداؤه وأصدقاؤه الى أصحابها فى الصباح .. فتأمل كيف استأمنه الأعداء على أموالهم ، واثقين من حفاظه عليها ..

....

يوما بعد يوم. .كانت سنه تزيد .. وكان نقاؤه وصدقه يزيدان .. وفى بحار الصمت الموحشة ، حيث نشر محمد بن عبد الله أشرعته البيضاء ، كان لابد أن يلتقى بالحقيقة الأزلية التى التقى بها قبله كل أنبياء الله ورسله .. وأدرك محمد بن عبد الله ان لهذا الكون العظيم ربا هو خالقه .. ربا واحدا لا اله غيره .. وعبد قلبه رب العالمين قبل ان يبعثه رب العالمين الى الناس .. وحيل بينه وبين متع الشباب البرىء أو لهوه العادى الذى لا يعتبر خطيئة فى سن الشباب .. وعلى حين كان شباب مكة يتباهون بعدد الكؤوس التى شربوها من الخمر ، وعدد أبيات الشعر التى قالوها فى النساء .. كان محمد بن عبدالله قد عثر على نفسه ، فى كهف هادىء فى جبل عظيم ..

كانت أصفى أوقاته هى التى يقضيها فى هذا الكهف ..

كان يغوص بأعماق قلبه فى الكون ، ويفكر فى عظمة أسراره ورحمة خالقه وجلاله .. وفى عامه الخامس والعشرين .. تعرف بأم المؤمنين زوجته الأولى خديجة بنت خويلد .. كانت هى فى الأربعين من عمرها .. كانت سيدة ذات شرف ومال ، تعمل فى التجارة .. مات عنها زوجها وطمع فيها الطامعون لثروتها ، وكانت تبحث عن رجل يخرج بمالها الى الشام تاجرا .. وبلغت اسماعها أخبار عديدة عن صدقه وأمانته ونقائه .. فأرسلت اليه تستأجره ، وخرج فى رحلته الثانية الى الشام وعمره ٢٥ سنة ، بارك الله فى رحلته فعاد

بربح مضاعف لخديجة ، فما تطلع الى مالها ولا الى جمالها ، ووقف بكرامته واستغنائه موقف النبل والتجاوز .. وامتلأ قلب السيدة الكريمة بحبه .. عرضت عليه الزواج فقبل .. ووقف عمه يخطب فى حفل زواجه فقال :

ــ ان محمدا لا يوزن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا .. وفضلا .. وعقلا .. وان كان فى المال فقيرا ، فانما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ..

وأتاح له الزواج فرصة أكبر للتأمل والانفراد والتعبد ..

ومضت به الحياة تزيد نبله رسوخا ، وفضله انتشارا ، كما تزيد فى عزلته واغترابه .. كان منعزلا بقلبه عن دنيا الصراع المحموم حول ماديات الحياة ..

وكان مغتربا بعقله الصافى فوق دوامات الهراء الجماعى والظلام الوثنى السائد .. وراحت سنه تقترب من الأربعين ..

وبعد ان كان يحس الوحدة وسط الناس .. صار يفضلها بعيدا عن الناس .. ان تأملاته الماضية تباعد بينه وبين قومه ..

ويظل دائب البحث حتى يهديه الله الى غار حراء ..

ويحس أن فرحته باكتشاف الغار صادقة ..

اخيرا يستطيع أن يخرج من مكة .. يسير اميالا قليلة ثم يبدأ الصعود ..

يظل يصعد ويصعد ..

كلما ارتقى الجبل ، انفسح المجال ، ورق الهواء ، وانكشف الحجاب ، وامتدت الرؤية ، وسقط الحس ، وبقى حدس النبوات ..

اخيرا يدخل الغار ..

الصمت نائم .. والقلب يقظ .. ولا شىء يعترض الرؤية الداخلية العميقة .. ومع العزلة والسهر تولد الافكار وتنشر أجنحتها وتحلق أولا فى فضاء الغار ثم تنطلق .. لا شىء يحدها أو يعوق انطلاقها الحر ..

لا نعرف أى افكار كانت تعبر ذهن أعظم الرجال على الأرض وهو يجلس فى غار حراء شهورا متصلة ..

فيم كان يفكر ؟

ماذا كان يقلقه ؟

أية أحلام كانت تعبر ذهنه ، وأى مشاعر كانت تولد فى قلبه ... ؟

ماذا كان احساس الحجارة به وهو يجلس ساكنا يتحنث ويتعبد ... ؟

اكانت ذرات الحجارة الدائرة تتجاوب مع تسبيحه الصامت مثلما كانت ذرات الحجارة تتجاوب مع قراءة داود لكتابه « الزبور » ... ؟

لا نعرف على وجه التحديد نوع الميلاد الذى كان يقع فى نفسه ، صلى الله عليه وسلم .. كل ما ندريه انه لم يكن يفكر فى النبوة ، ولا كان يسعى لهداية الناس .. ولا كان يتشوف لشىء مما يتشوف له الصوفية ..

كان صوفيا .. قبل بعثته الى الناس ..

ثم اختاره الحق نبيا ، فهجر عزلته ونزل الى الميدان وأمسك السلاح ودافع عن الحق حتى أسلم أنفاسه لبارئه ..

فى البدء يولد التصوف .. وبعده يولد الجهاد فى سبيل الله ..

ليس التصوف غاية أو نتيجة كما يعتقد الناس اليوم ، انما هو بداية طريق طويل ، ينتهى بصاحبه الى استخدام السلاح دفاعا عن الانسان وكرامته ..

....

....

كان يجلس فى غار حراء يوما ، حين فوجىء بجبريل يقف على باب الغار .. احتضنه الملك وضمه الى صدره بشدة وهو يأمره قائلا :

ـ اقــرأ ..

قال محمد بن عبد الله : ما أنا بقارىء ..

يريد أن يقول انه لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. كيف يقرأ اذن ؟

عاد الملك يضمه لصدره ضما شديدا حتى ظن الرسول انه الموت ، ثم أطلقه الروح الأمين وهو يأمره : اقــرأ ..

وعاد يرد قائلا : ما أنا بقارىء ..

ويعود الملك الكريم لاحتضانه ويعود لأمره ان اقرأ ..

ويجيب مرتجفا : ماذا أقــرأ ؟

وتلا جبريل ، عليه السلام ، أول آيات فى آخر رسالات السماء الى الأرض :

« **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم** » [1] ..

بعدها اختفى الروح الأمين كما ظهر فجأة ..

أحس الرسول نفس الخوف الذى أحسه موسى وهو يستمع الى النداء الأقدس فى وادى طوى ..

ومثلما جرى موسى فزعا ، هرع محمد بن عبد الله عائدا الى بيته ..

هبط الى الصحراء ، وسار عائدا الى بيته وزوجته ..

جسده يرتجف بعنف .. وثمة احساس بالبرد والخوف والقلق .. أيكون هذا اتصالا بالجن وعالم الكهانة ؟ .. أيكون قد خولط فصار يسمع أصواتا ويرى وجوها لا وجود لها فى الحقيقة ... ؟

خشى الرسول على نفسه لبغضه للكهانة والكهان .. ودخل بيته يرتجف ..

---

(1) الآيات من ١ الى ٥ من سورة العلق مكية .

قال لزوجته : زملونى .. زملونى ..

وبدأت تغطيه بأغطية الصوف وتمسح العرق عن جبينه ..

فوجئت زوجته بشحوب وجهه وارتعاشه ..

سألها : أى خديجة ، مالى ..

ثم حدثها الخبر .. وأنهى كلامه بقوله لقد خشيت على نفسى ..

وأدركت خديجة انها أمام أمر هائل .. أمام بشارة لا تدرى كنهها على وجه التحديد .. بشارة ليس فيها ما يستوجب خوفه على نفسه أو قلقه على عقله .. قالت خديجة ردا على تخوفه :

ـــ أبشر .. فو الله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ..

رغم هذه الكلمات المطمئنة ، لم يزايل الرسول قلقه .. وانطلقت به خديجة الى ورقة بن نوفل .. وهو ابن عمها .. وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، ويعرف أوراق التوراة والانجيل .. وكان بصره قد ذهب لشيخوخته ..

قالت له خديجة : أى ابن عم .. اسمع من ابن اخيك ..

قال ورقة : يا ابن أخى ما ترى ؟

قص عليه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قصته كاملة ..

قال ورقة وهو يرفع وجها يضىء بالدهشة :

ـــ هذا هو الناموس الذى انزله الله على موسى .. يا ليتنى فيها جذع ..

أدرك ورقة بن نوفل ـــ كعالم ـــ انه أمام النبى الذى بشرت به التوراة والانجيل ..

عاد يقول بعد لحظة صمت : ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك .

تساءل الرسول : أو مخرجى هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى .. وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا ..

....

انتهى الأمر وبدأ بعث الاسلام ..

نفذت مشيئة الله تعالى ، وتم اختيار آخر انبياء الله فى الأرض ، وأول المسلمين ..

....

من حق القارىء أن يسأل :

● ما هو الاسلام فى جوهره ؟

واذا كان محمد آخر أنبياء الله فى الأرض .. وكنا نعرف أن أنبياء الله جميعا مسلمون .. فكيف يسبقونه بالاسلام ويكون هو أول المسلمين ؟

....

لا يختلف الاسلام الذى جاء به محمد فى مضمونه عن الاسلام الذى جاء به نوح أو موسى أو عيسى أو أى نبى آخر فى مضمونه ..

يختلف الشكل ، وان ظل المضمون على نفس صفاء التوحيد للواحد الأحد ..

وقد اختلف شكل الاسلام الذى جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لسبب هام ..

ان هذا الاسلام رسالة عالمية وانسانية وخالدة ..

ليست مقصورة على العرب دون العجم ..

وليست مقصورة على قبيلة أو شعب أو أرض أو بيئة أو زمان .. انما هى لكل انسان ..

بتحديد أكثر ..

هى دعوة للعقل الانسانى .. أينما كان وحيثما كان .. بلا قيد على المكان أو على الزمان .. هذه العالمية لم تكن شيئا معروفا فى الرسالات الالهية القديمة ، كانت كل رسالة توجه لشعب معين فى زمن معين ..

ولهذا السبب كانت المعجزات الباهرة الوقتية تسند الرسالات القديمة .. فلما جاء الاسلام دعوة للعقل الانسانى بالانطلاق ، لم يعد هناك مبرر للمعجزات الباهرة ، تكفى كلمة واحدة لتبدأ دعوة العقل الانسانى الى المأدبة .. تكفى كلمة اقرأ ..

ولتكن هذه القراءة باسم الله .. باسم ربك الذى خلق .. خلق الانسان من علق .. تأمل بداية النشأة وذروة الوصول .. هنا تكمن المعجزة الحقيقية ان كنت تبحث عن معجزة حقيقية .. اقرأ وربك الأكرم .. هو الأكرم الذى أنعم ابتداء بالخلق والرزق ، وحف انتهاء بالرحمة واللطف ، وهو الأكرم الذى علم بالقلم .. علم الانسان مالم يعلم ..

هذا هو الاسلام فى جوهره .. دعوة الى القراءة .. وهى دعوة تؤدى بالضرورة الى العلم ..

يقول الله تعالى فى سورة [فاطر] :

« **انما يخشى الله من عباده العلماء** » [1] ..

وخشية الله لا تنبع الا من العلم ، يستحيل أن يلد الجهل بأى صورة من صوره أى خشية من أى نوع .. والعلم فى الاسلام اذن ضرورة أساسية .. وليس ترفا أو حلية .. ولقد عز المسلمون وحكموا الأرض يوم فهموا الاسلام على حقيقته .. فلما سقط منهم هذا الفهم ، عادوا الى أسوأ ما كانوا عليه فى الجاهلية .. عادوا لا يملكون من أمورهم شيئا ، فضلا عن أمور العالم ..

---

(1) من الآية ٢٨ سورة فاطر مكية .

والعلم فى الاسلام هدف أصيل فى خلق الوجود .. ان قصة آدم وحواء ، كما أنزلت فى القرآن ، ليست هى قصة الخطيئة والأكل من الشجرة فحسب .. انما هى قصة لها أعماقها البعيدة ومستوياتها المختلفة ، وكلما غصت فى أعماقها تكشفت لك الرموز عن معان أخطر .. ان حوار الملائكة الداخلى عن سر اختيار آدم لعمـارة الأرض والخلافة فيها ، وتعليم آدم الأسـماء كلها ، وعرض هذه الأسماء على الملائكة ، وعدم معرفتهم لها ، واخبـار آدم ، عليه السلام ، لهم بما يعرفه ولا يعرفونه ، وادراك الملائكة سر اختيار آدم وذريته لعمارة الأرض واستعمارها .. هذا كله يجعل الهدف من خلق النوع الانسانى هو العلم أو المعرفة بمعناها العام .. يؤكد هذه النظرة قوله تعالى فى سورة [الذاريات] :

« **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » [١] ..

كيف نفهمها اليوم ؟ .. وكيف فهمها الجيل الأول من المسـلمين أصـحاب الرسول وأتباعه وجنوده ... ؟

نفهمها اليوم فهمـا سـطحيا ، فنعتقد ان كلمة « **ليعبدون** » [٢] .. تعنى طقوس العبادة ، ورسومها الظاهرة كالتلفظ بالشهادتين ، والصـلاة والصوم والحج والزكاة .. ولا بأس أن يكون المصـلون الصـائمون مسـتعبدين فى أوطانهم ، محتلين فى ديارهم ، يعيشون عالة على أفكار الغرب وصـناعاته ، ويتسولون علومه وفنونه ، ويستهلكون منتجاته ولا ينتجون شيئا .. لا يوجهون مصير الحياة لخير ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، شأنهم شأن ريشـة تلعب بها الأمواج .. أما الفهم القديم الأصيل للكلمة .. فكان كالتالى :

« **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » [٣] ..

قرأها ابن عباس .. الا ليعرفون ..

تأمل أنت خطورة الفارق بين طقوس العبادة وشـكلياتها ، وعمقها البعيد فى المعرفة التى تؤدى لخشـية الله .. كان المسـلم الأول يؤمن أن الله خلقه ليعرف .. وكان طموح المسلمين الأوائل مثيرا للدهشة .. لقد انطلقوا لتحرير العالم كله .. يد تمسك القرآن ، ويد تمسك السيف لتحطيم أغلال الراسفين فى الأغلال ..

ثم سقط من الاسلام جوهر العلم ، فسقط من المسلمين مقعدهم فى قيادة الحياة وتوجيهها ، وعادوا لذيل القافلة البشرية ..

يقول تعالى فى سورة آل عمران :

((شهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام)) [٤] ..

بعد شهادة الله .. وشهادة الملائكة .. جاءت شهادة العلماء مباشرة ، فأى تكريم للعلم أعظم من هذا التكريم ... ؟

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكية .
(٢) نفس الآيـة .
(٣) نفس الآيـة .
(٤) الآية ١٨ وجزء من ١٩ سورة آل عمران مدنية .

والعلم فى الاسلام يختلف عن العلم فى الحضارة الغربية ..

صحيح ان الاسلام هو المسئول عن نشوء النظرة العلمية والمنهج التجريبى .. فعلى أساس هـذا المنهج .. قامت الحضارة الأوربية بكل ما فيها من صناعة واختراع واكتشاف .. والمنهج التجريبى هو منهج الاستقراء .. هو منهج يتتبع الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن ان يخضع للتجربة .. وعن طريق الملاحظة فيما لا يخضع للتجربة ، أو عن طريق الرياضة البحت فيما يحتاج الى الرياضة البحتة .. وذلك بهدف اكتشاف القوانين الحاكمة للمواد ..

وهذا المنهج مجاله الطبيعة .. وأدواته الحس والعقل .. ويدين هذا المنهج بوجوده الأوربى الى روجر بيكون .. وهو يعترف بأنه مدين فى منهجه للمسلمين والحضارة الاسلامية ..

يتحدث الأستاذ بريفولت فى كتابه « أبناء الانسانية » ، عن أصول الحضارة الغربية ، فيقول : « ان روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس .. وليس لروجر بيكون ولا لفرنسيس بيكون الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يخجل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة » ..

هذه شهادة علماء الغرب المنصفين .. يعترف بها عالم غربى منصف ، ونسوقها الى المهزومين روحيا امام الغرب ، ليعرفوا انهم هزموا بجزء من سلاحهم الذى ألقوه من أيديهم وهو الاسلام ..

واذا كان سر نهضة الغرب اليوم ، وتفوقه على الشرق ، يعود لأخذه بأسباب المنهج التجريبى وهو منهج اسلامى .. فان سر بؤس الغرب وحيرته وتعاسته وقلقه ، يرجع الى أنه لم يربط هذا المنهج بالله كما ينبغى ..

ان المنهج التجريبى ، كما أخذه الغرب ، يبدأ من الطبيعة وينتهى اليها كغاية ان دائرة الأبحاث هى المادة . وادوات البحث هى التجربة والملاحظة والاستقراء .. وليس بعد الطبيعة الا الموت .. والموت سر مجهول ، ومقاومته مستحيلة ، ونحن لا نعرف ماذا يكون بعد الموت .. لا ندرى شيئا عن الروح .. لا علاقة بين العلم والأخلاق .. لا جواب للعلم عن هدف هذه الحياة .. نحن ندرس الظواهر ونصل الى قوانينها فحسب .. هذه نظرة الغرب الى العلم .. أداة ووسيلة لحكم الطبيعة والانتصار عليها وقهرها .. أما المنهج العلمى فى الاسلام فيربط حركة الذرات بحركة المجموعة الشمسية بيد الجلال الخالق ..

العلم فى الاسلام يقود الى الله :

« **وأن الى ربك المنتهى** » [١] ..

يقود الى خشية الله تعالى ، كما يقود الى عبادته وحبه :

« **انما يخشى الله من عباده العلماء** »[٢] ..

جاء الاسلام يدعو الى القراءة والعلم وخشية الله وعبادته وتوحيده ..

---

(١) الاية ٤٢ من سورة النجم مكية .
(٢) من الآية ٢٨ سورة فاطر مكية .

واذا كان العلم هو أول جنـــاح فى الاســـلام .. فان الجناح الثـــانى هو الحـــرية ..

أعلن رســـول الاســـلام انه لا اله الا الله ..

لا معبود ســـوى الله ..

وتعنى هذه الدعوة ببساطة سـبـقوط الآلهة التى تحـكم الأرض جميعا .. سواء أكانت آلهة من المصالح الخاصة ، أم من الثراء ، أو الملوك ، أو الحكام ، أو المفاهيم السائدة ، أو قيم الآباء والأجداد ، أو الأصنام الحجرية والخشـــبية .. الى آخر سلسلة الآلهة المدعاة والكاذبة ..

يخطىء من يتصور أن [لا اله الا الله] فى الاسلام .. هى مجرد كلمة يتمتم بها المسلم وكل شىء حوله فى الحياة يكذب تمتمته ..

ان [لا اله الا الله] .. فى الاســـلام صراع عظيم مع قـــوى الظـــلام فى النفس ..

صراع اذا انتهى باسلام النفس .. انتقل الصراع الى الحياة اشد قســـوة وعنفا ، حتى تســـلم الحيـــاة .. ويســـتحيل أن يقع الصراع الا اذا توافرت الحرية .. حرية العقل فى الشك والرفض ، وحريته التى تنتهى به الى ادراك جدوده ومقدرته ، وحريته التى تسمو به الى ايمـــان عميق ثابت ، ومسئوليته عن حريته .. وهى مسئولية تعنى أن عليه أن يحمل السلاح ليحرر الآخرين مثلما حرر نفسه .. هذا هو الاسلام فى جوهره ..

علم يقوم على الحرية .. ومســـئولية تتبع الحـــرية .. وثمرة أخيرة هى التوحيد فى عمقه البعيد ..

اذا فهم التوحيد على حقيقته ، تحرر الانســـان من عبوديته لغير الله .. وتحرر الانسان من خوف الموت ، وهم الرزق .. وتحرر الانســـان من شح النفس ، ورعب الأيام القادمة ..

جاء محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وســـلم ، ليعلن أن الله هو المعبود بحق ، وأن الناس جميعا عبيده .. وبتحرير الناس من عبوديتهم للنـــاس .. تبدأ الحرية الحقيقية ..

أعلن الرسول أن الموت انتقال من دار الى دار .. ليس نهـــاية صـــامتة غامضة لحياة غير مفهومة .. انما هو انتقال .. وخشـــية الموت لا تنجى من الموت .. والحرص على الحياة لا يطيل الأجل ، فلكل اجـــل كتاب .. وإذن تصبح الشجاعة عنصرا من عناصر الشخصية الاسلامية ، ونسيجا من نسيج خلايا جسم المسلم ..

أعلن الرسول ان الرزق فى الدنيا مضمون .. قال تعالى :

« **وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها** » [1] ..

وأوحى جبريل الى الرسول : أن نفسا لن تستوفى أجلها حتى تستكمل رزقها .. وإذن ينتفى الخوف من الجوع .. وإذن ينمحى القلق من الغد ..

---

(1) من الآية ٦ سورة هود مكية .

يقع هذا كله في دائرة الأخذ بالأسباب .. السعى الى الرزق واجب المسلم ، والثقة فى كرم الله حق على المسلم أن يؤمن به .. قال تعالى :

«**وفى السماء رزقكم وما توعدون** »[١] ..

ولقد ضمن الله تعالى رزق الدنيا ، وأمر بالسعى نحو رزق الآخرة ..

رزق الدنيا اذن مضمون .. هـذا الرزق الذى يتقاتل عليه الناس هو المضمون بغير صراع محموم .. يكفى فيه الجهد الصادق المعتدل ..

رزق الآخرة هو الذى أمر الله بالسعى اليه ..

هذا هو الرزق الذى لم يضمنه الله الا بالجهادين الأكبر والأصغر .. جهاد النفس ، وجهاد العدو ..

وبتحرير المسلم من هم الموت والرزق والخوف .. يعطى الاسلام للمسلم سلاحه وأدواته ، ويأمره أن يبدأ محاربة قوى الظلام فى الأرض ..

قال تعالى عن الأمة الاسلامية :

« **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » [٢] ..

تأمل كيف يذكر الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قبل الايمان بالله .. لتنبيه الأذهان الى أهمية الجهاد فى سبيل الله ..

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يتمثلان فى امساك عصا والهبوط بها على ظهر المسلمين الذين لا يصلون .. ليس هو حبس المسلمين الذين لا يصومون ..

ان الأمر أخطر وأجل من مراعاة المظهر ، بينما الباطن ينطوى على الفجور واللامبالاة ..

ان الآية تعنى حمل السلاح للدعوة الى الله .. وقتال الظالمين فى الأرض ..

قال أبو بكر ، رضى الله عنه : يا أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية :

«**ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم**»[٣].

وانى سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله ان يعمهم بعقاب منه » ..

وتفسير أبى بكر للآية السابقة يعنى بوضوح تام أن العمل بهذه الآية يكون بعد الجهاد فى سبيل الله بالسلاح وضرب الظالمين ومقاومتهم .. بعد ذلك يصبح من حق المسلم أن يقول .. أديت واجبى .. لا يضرنى من ضل اذا اهتديت ..

---

(١) الآية ٢٢ سورة الذاريات مكية .
(٢) من الآية ١١٠ سورة آل عمران مدنية .
(٣) من الآية ١٠ سورة المائدة مدنية .

هذا هو فهم المسلمين الأوائل .. فقارن أنت بينه وبين فهمنا المعاصر ، المستخذى ، الذى يفتقر الى الشجاعة ، ويشيع فيه الخوف ، ويؤثر السلامة على قتال الظالمين ..

جاء محمد بن عبد الله فى رسالة الاسلام بالأمر الالهى بقتال الظالمين .. والدفاع عن المستضعفين من الناس ..

قال تعالى فى سورة النساء :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » [١] .

قرا محمد بن عبد الله على قومه تفسير الحق عز وجل لمعنى الفوز العظيم :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » [سورة التوبة] [٢] .

اقرا الآية مرة ثانية ، وتامل كرمه تعالى .. اذ يشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم .. وهذه الانفس والأموال ملكه هو فى الحقيقة .. انظر كرم من يشترى ملكه الخاص بالجنة .. وتامل كيف يحرض الله المسلمين على القتال ، ويفهمهم فى نفس الوقت أن هذا الأمر بقتال الظالمين المضلين ليس جديدا على المسلمين .. فقد أمر الله به فى الانجيل والتوراة من قبل ، ومثلما بعث عيسى بالسيف كما تقول أوراق النصارى .. بعث موسى بالسيف كذلك ، وحين قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون .. اقتضت المشيئة الالهية أن يضرب عليهم التيه أربعين سنة ، ليهلك ذلك الجيل المهزوم الخائر الذى يريد من موسى وربه أن يذهبا للقتال ، بينما القتال مهمتهم هم بوصفهم أتباع موسى وربه .

هذا هو جوهر الاسلام كما جاء به محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

دعوة الى القراءة والعلم والحرية وصراع قوى الظلام .

دعوة عالمية لا تختص بجنس دون جنس . أو لون دون لون . أو قوم دون قوم . أو أرض دون أرض .

دعوة انسانية شاملة تريد ربط العلم والحرية والجهاد .. بهدف أعلى هو توحيد الله وتنزيهه ، والايمان باليوم الآخر ، وقيام الناس جميعا لرب العالمين .

يخطىء من يتصور أن الاسلام يعتبر الحياة الآخرة ، ولا يعبأ بالدنيا .

---

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ سورة النساء مدنية .

(٢) الآية ١١١ سورة التوبة مدنية .

الدنيا فى الاســلام هى أوراق الاجــابة التى تصــحح فى الآخرة .. هى امتحان واختبار للانسان .. ليعرف الانســان هل يســتحق كرامة الله التى منحها لآدم ؟ .. أم يستأهل الصيرورة جزءا من طين الجحيم وحجارته وينطبق عليه قول الحق .

((وقودها الناس والحجارة))[١] .

ولقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة الخلق .. خلق الحياة والموت ، حين روى قوله تعالى فى سورة الملك :

((الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا))[٢] .

الدنيا هي دار الصراع .. وقد خلق الله تعالى الحياة والموت ليعرف الناس أى الناس أحسن عملا ..

يعرف الله مسبقا سبحانه .. ولن تزيده هــذه المعرفة شــيئا فى ملكه ســبحانه ..

الانسان هو الذى يحتاج الى المعرفة ..

خلقه الله للمعرفة .. واخطر معرفة هى معرفة الذات .. ويــوم القيــامة يعرف كل واحد من الناس ذاته على الوجــه الأكمل .. ويعرف جــزاءه على الوجه الأمثل ..

ولعل هذه المقدمة التى نســتنبطها من اليوم الآخر .. تؤدى الى أن تكون الحياة على الأرض نقية قدر الطاقة .. نظيفة قدر الجهد .. انسانية متكاملة ورحيمة ، وتستحق ان تعاش ، ولقد كان هذا هو الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا أساسه وجوهره ، وهو أساس أو جوهر لم يبدعه محمد ، ولا سبق به الرسل ، ان جوهر الرســالات القديمة كلها هو التوحيد ونصر الحق ، والايمان باليوم الآخر ، واسلام الوجه والجوارح لله .

الجديد فى الاسلام هو العلم والحرية ، وعالمية الدعوة وشمولها .. وهيمنة العدل المحكم عليها .

حتى ليقال بحق أن الطابع الأساسى للاسلام هو العدل .

ولعل هذه النقطة تحتاج الى اهتمام .

مع أن الديانات السماوية واحدة فى جوهرها ، الا ان ارادة الله تعالى التى اقتضت نزول أكثر من دين ، وأكثر من نبى ، اقتضت ان يكون لكل دين طابع رئيسي يمثل أصدق تمثيل الاحتياج الاساسى للذين نزل اليهم هــذا الدين فى الفترة المعينة لنزوله . فاليهودية مثلا قامت وسط الوثنية المصرية العريقة ، وأنزلت لبنى أسرائيل المستعبدين ، ومن هنــا كان طابعهــا الأســاسى هو « الصرامة » ، ليحول دون تأثر هذا الجنس الذليل بمظاهر الوثنيةالمصرية ، أو يصاب بالاستخذاء أمام الاستبداد الفرعونى ، وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية فى أن تكون رسالة انقاذ وتحرير .

---

(١) من الآية ٦ سورة التحريم مدنية أو من آية ٢٤ من سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ٢ سورة الملك مكية .

ولكن بنى اسرائيل المستعبدين القساة فى نفس الوقت .. خرجوا من نير الفراعنة ليدخلوا فى نير الرومان ، وكان أعتى وأقوى من نير المصريين ، ولزم الأمر تحريرا جديدا على يد المسيحية ، ولكن بأسلوب مغاير ، اقتضته ظروف متباينة ، كان هذا الأسلوب هو استبعاد المقاومة المسلحة أو القوة أو الفرار ، لأن بطش الرومان فاق كل حد ، وشمل الأرض بأسرها ، وكان الانتصار الممكن هو عن طريق اللاعنف الذى يأخذ أعلى صـــورة فى الحب ، ومرة أخرى انتصرت المسيحية بسـلمها وحبهـا على الامبراطورية الرومانية بســلاحها وعتادها ..

أما الاســلام ، وقد جاء دينا نهائيا شاملا ، يصـلح للأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد استلزم هذا أن يكون طابعه العدل .

ان الصرامة قد تصلح لزمن معين ، وجنس معين ، وظروف خاصة ..

والحب مثل أعلى ، ولكنه ليس معيــارا تقاس به التصرفات أو تدار عليه الأمور ، ولئن بدا معيارا لأهل الأحاسيس المرهفة أو الثقافات الرفيعة ، فانه لا يصلح معيارا عاما وشـاملا ..

أما العدل ، وهو طابع الاسلام ، فذلك هو التوازن فى الفضائل ، ووضع كل فضيلة فى مكانها ، وذلك هو المقياس الشامل ، والمعيار النهائى ..

ولعل عظمة العدل ورسوخه فى نسيج الكون يستندان الى قوله تعالى :

((شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط))[١]

واذا كان الله عز وجل فى الاسلام مثلا أعلى .. فان القسط أو العدل الذى شــهد به الحق تبارك وتعالى لنفســه ، ينبغى أن يكون طــابع الاســلام والمســلمين ..

وليس العدل فى الاســلام فحسب هو العدالة الاقتصادية أو عدالة الحكم أو عدالة الجزاء ، انما هو هذا كله .. وهو قبل هذا كله وبعده أسـلوب فى الحياة ، ومنهج وطابع رئيسى للاسلام ..

وأينما قلبت النظر فى الاسلام ، وجدت العدل يغلب ما عداه .. هناك عدل بين الأديان السابقة ، وعدل بين الفرد والمجتمع ، وعدل بين الدنيــا والدين ، وعدل بين الرجال والنساء ، وعدل بين الفقراء والأغنياء ، وعدل بين الحاكمين والمحكومين ، بل بالعدل نفسه قامت السماوات والأرض .. والله تعالى يسمى نفســه العدل .

وفيما عدا ذلك التميز الخاص للاسلام .. فالاسلام قديم قدم الأنبياء .

قال نوح عليه الصلاة والسلام فى سورة يونس :

((فان توليتم فما سألتكم من أجر ، ان أجرى الا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين))[٢] ..

---

(١) الآية ١٨ سورة آل عمران مدنية .

(٢) الآية ٧٢ سورة يونس مكية .

وقال ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام فى سورة البقرة ، وهما يبنيان الكعبة :

((ربنا : تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا : واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك انت التواب الرحيم))[١] .

ولم ينس ابراهيم ان يوصى بنيه ومنهم يعقوب أن يموتوا على الاسلام .

قال تعالى :

((ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون))[٢] .

وحين حضرت الوفاة يعقوب جمع ابناءه حوله وسألهم :

((ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون))[٣].

[سورة البقرة] ..

ولقد اخبرنا الله تعالى فى سورة يونس بقول موسى لقومه :

((يا قوم : ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ، ان كنتم مسلمين))[٤].

ولقد كان سليمان مسلما بنص الآيات التى روت قصته مع ملكة سبأ .. اذ قالت فى ختام جولتها معه :

((رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين))[٥] .

وها هو ذا يوسف يتجه الى الله بالدعاء فيسأله أن يتوفاه مسلما ويلحقه بالصالحين .. يقول تعالى محدثا عن يوسف فى سورة يوسف :

((رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تاويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين))[٦] .

وجاء فى سورة المائدة ان الله أوحى الى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله .. فقالوا :

((آمنا واشهد باننا مسلمون)) [٧] .

....

(١) جزء من آية ١٢٧ وآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .
(٢) الآية ١٣٢ سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآية ١٣٣ سورة البقرة مدنية .
(٤) من الآية ٨٤ سورة يونس مكية .
(٥) من الآية ٤٤ صورة النمل مكية .
(٦) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .
(٧) من الآية ١١١ سورة المائدة مدنية .

كان نوح وابراهيم واسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وسليمان ويوسف وعيسى مسلمين بنص الآيات . وكان بقية الأنبياء مسلمين بمفهوم الموافقة .. كيف اذن يكون محمد — وهو آخر الأنبياء — أول المسلمين ؟

قال تعالى فى سورة الزمر مخاطبا آخر أنبيائه :

« قل : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » [١] .

كيف يكون أول المسلمين ، وتسمية أمته بالمسلمين تسمية قديمة تسبق خلقه ومجيئه الى العالم تسمية تدين بوجودها لابراهيم جده البعيد .

قال تعالى فى سورة [الحج] :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل »[٢] .

لا تعارض بين سبق كثير من الأنبياء المسلمين للرسول .. وكونه أول المسلمين ..

لا تعنى كلمة الأول هنا بعدا زمنيا ، ولا تعبر عن أولوية الظهور على مسرح الأحداث .. انما تعنى أول المسلمين هنا .. أكمل المسلمين ..

....

سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كلمتها الموجزة المعجزة : كان خلقه القرآن .

ونحن نعرف أن القرآن يحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى . ويرسم الفضيلة فى درجاتها الأولى ، كما يقدم القمة السامقة فى مكارم الأخلاق . فأى نوع من هؤلاء كان الرسول ..

أكان هو « المقتصد » ؟ .

أكان هو « السابق بالخيرات » ؟ .

أكان من « أصحاب اليمين » ؟ .

أكان من « المقربين » ؟ .

لم يكن الرسول هذا كله فحسب .. ارتفع أكثر وأكثر .. حتى كان ذروة الذرى فى مكارم الأخلاق ..

حتى استحق قول الحق عز وجل عنه :

« وانك لعلى خلق عظيم »[٣] .

اختلف المفسرون حول معنى الخلق العظيم .

---

(١) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ الانعام مكية .

(٢) من الآية ٧٨ سورة الحج مدنية .

(٣) الآية ٤ سورة القلم مكية .

قال بعضهم .. هو القرآن .

وقال آخرون .. هو الاسلام .

وقالوا لم تكن له همة الا الله .

وهذا كله اختلاف يحسمه القرآن ببيان درجته فى آيتين كريمتين ، الآية الأولى هى قوله تعالى :

« قل : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »[١] .

أولهم باطلاق .. أولهم كمالا ورفعة ، وشرفا واكتمالا ، وفضلا ورحمة .

رغم كونه جاء آخر الأنبياء .. وربما لأنه جاء آخر الأنبياء . فكان هو اللبنة الأخيرة فى صرح النبوات الشاهق .. وكان لابد لقمة الصرح وآخر لبناته ان يكونا قمة فى بنى الانسان .

الآية الثانية هى قوله تعالى فى سورة [الأنبياء] :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »[٢] .

لم يكن رحمة للعرب وحدهم ، ولا لقريش فحسب ، ولا لزمنه فقط ، ولا للجزيرة العربية وحدها .. انما كان رحمة للعالمين ..

كان ولم يزل وسيظل رحمة للعالمين .

ابتداء من نزول الوحى عليه بكلمة اقرأ .. حتى يرث الله الأرض ومن عليها وتقوم القيامة .

هو الرحمة المهداة للعالمين ..

وهو رحمة لا تواكبها معجزات باهرة أو مثيرة .. انما هو رحمة تبدأ بدعوة العقل أن يقرأ كتابين .

١ ـ يقرأ كتاب الكون .. أو القرآن المخلوق .. أو كلمات الله التى تأخذ ملايين الأشكال والصور ..

٢ ـ ويقرأ القرآن الذى نزل به الروح القدس جبريل .. وهو كلام الله الأزلى .

وكتاب الكون يقرأ بآلاف الطرق .. يقرأ بالسياحة :

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا »[٣] .

أو يقرأ بالاكتشاف والعقل :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[٤] .

---

(١) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ سورة الانعام مكية .
(٢) الآية ١٠٧ سورة الانبياء مكية .
(٣) من الآية ٦٩ سورة النمل مكية .
(٤) من الآية ٥٣ سورة فصلت مكية .

و يقرأ بالعلم والنظر :

((أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون))[١].

واذا كانت هناك آلاف الطرق لقراءة كلمات الله المخلوقة فى كتاب الكون .. فان هناك طريقة واحدة لقراءة كلام الله الأزلى .. وتلك أن يقــرأ القرآن من يقرؤه بعين القلب وبصر البصيرة .. حتى يصير القرآن خلقه بقدر الطاقة . وقبل تنزيل القرآن كان الكون ناقصـــا مادة وروحا ودســـتورا وتشريعا يحكم النـــاس .

وقبل بعث الرسول .. أول المسلمين وأكملهم ، لم تكن الكائنات قد وصلت الى الذروة من اسلام الوجه لله ، أو الذروة من مكارم الأخلاق .

وحين بعث الرسول استكمل النوع الانســـانى كرامته وعظمته ، وأدرك ذروته ومنتهاه .

وبهذا الكتاب الكريم ، والنبى الرحيم .. أكمل الله للبشر دينهم ، وأتم عليهم نعمته كما حدث فى قوله تعالى :

((اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينـــا))[٢] .

غير ان هذا كله لكى يحدث ، كان لابد للنبى أن يجاهد جهـــادا يجعله أكثر الناس استحقاقا لحمد أهل الأرض وأهل السماء .

وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا نعرف نبيـــا أوذى فى مشاعره كما أوذى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لا نعرف نبيا احتمل الايذاء وصـــبر فى الله كما احتمل نبينا . وفى حالتنا لم يكن ممكنا لمن أرسله الله رحمة للعالمين . أن يدعو على انسان الا ان يكون هذا الانسان من الكافرين العتاة .

كان يدعو لمن يستحق الدعوة ..

ويحتمل حتى يئن الاحتمال .. ويصبر حتى يعجز الصـــبر .. ويقاوم حتى تهلك المقاومة ، بعدها يرفع الى الله قلبـــا راضيا ، وعينا دامعة ، ويهمس :

ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى .

يهون كل شىء الى جوار رضاه سبحانه .

....

بعد نزول الوحى على الرسول ..

بدأت أول مرحلة من مراحل الدعوة الاسلامية ..

---

(١) الآية ٦١ سورة النمل مكية .

(٢) من الآية ٣ سورة المائدة مدنية .

بدأت هذه المرحلة سرا . . واستمرت ثلاث سنوات فى الخفاء .

فى البداية آمنت به أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها . . وآمن به صديقه أبو بكر ، كما آمن به ابن عمه على بن أبى طالب ، وكان صبيا يحيا فى كفالته ، وآمن به زيد بن ثابت مولاه . . ثم نشط أبو بكر فى الدعوة الى الله فأدخل فى الدعوة أصدقاءه عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، وآمن المسيحى ورقة بن نوفل ، ورآه الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد موته فى هيئة كريمة تشهد بدرجته عند الله . بعد ذلك أسلم أبو ذر الغفارى والزبير بن العوام وعمر بن عنبسة ، وسعيد ابن العاص . . وراح الاسلام ينتشر سرا فى مكة .

وترامت أخبار هذه العقيدة الجديدة الى رؤساء قريش ، فلم يعبأوا بها .

ولعلهم توهموا أن محمدا قد تحول بسبب تحنثه في غار حراء . . الى أحد هؤلاء المتكلمين فى الالهيات . . كما فعل أمية بن الصلت ، وقس بن ساعدة . . هكذا نجحت السرية فى أن تضفى نوعا من الحماية على العقيدة الجديدة ، وخلال السنوات الثلاث التى استغرقتها مرحلة السرية فى الدعوة . . كان الايمان ينضج قلوب المسلمين الأوائل ، وكان الرسول يربيهم ويغير نفوسهم ويصنع منهم أول نواة فى جيش الاسلام .

. . . .

نزل جبريل ، عليه السلام يوما بقوله تعالى :

((**وأنذر عشيرتك الأقربين**))[1] . .

وهكذا جاء الأمر الالهى باعلان الاسلام .

انتهى الأمر والتفت حول النبى كوكبة من الفرسان العظام . . وصدر اليه أمر الحق أن يعلن عن دعوته لله . . وأن ينذر عشيرته الأقربين . . وحين فعل النبى هذا دخلت الدعوة مرحلتها الثانية على الفور . . وبدأ اضطهاد الدعاة وتكذيبهم وتشديد الحصار عليهم . أدركت قريش أن أمر محمد أخطر من مجرد الكلام فى الالهيات ، انما هو يدعو لدين جديد ، دين لا مكان فيه لأصنامهم وتماثيلهم وآلهتهم ومراكزهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية . . دين لا آلهة فيه غير الله ، ولا مشرع فيه غير الله ، ولا حاكم فيه سوى الله . .

دين يواجه مكة بما تكره ، ويواجه أولى الأمر بما يقلق .

كان طبيعيا أن تبدأ الحرب فور اعلان الدعوة . .

وقد بدأت الحرب عنيفة من جانب الكبراء والسادة . كان أول المهاجمين للاسلام سيد من سادة الكبرياء فى مكة . . وهو أبو لهب .

أخرج البخارى أن رسول الله صعد على الصفا وراح ينادى بطون قريش وقبائل مكة ، فلما اجتمعوا اليه سألهم :

— أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . . أكنتم مصدقى ؟ .

---

(1) الآية ٢١٤ سورة الشعراء مكية .

قالوا : نعم .. ما جربنا عليك كذبا قط .

قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

قال أبو لهب ــ وكان يقف بين الواقفين : تبا لك ســائر اليوم .. ألهذا جمعتنــا .

بهذا التهوين والاستهانة بدأت الحرب ضد الاسلام .. ولما كان المســلمون لا يســتطيعون الدفاع عن أنفســهم ، فقد دافع الله عنهم فى البداية ، ونزلت سورة قصيرة ترد على كلمة أبى لهب (تبا لك سائر اليوم) ..

قال تعــالى :

« تبت يــدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نــارا ذات لهب . وامرأتــه حمالة الحطب . فى جيــدها حبل من مســد » [١] ..

بهذه الآيات القصيرة المحكمة ، دخــل أبو لهب التــاريخ من أقصر أبوابه وأنكرها ، وارتسمت صورته الى الأبد ، فى اطار من الهزؤ به وبزوجته ، واستحق سخرية أجيال عديدة لم تره ، ولكنها رأت صورته كما رسمها الحق عــز وجل .. رجلا يعاند دعوة الحق خوفا على مصــالحه المــالية أن تهتز باندثار عبادة الأوثان .. لا بأس بهذا كله .. ان ماله الذى يحــافظ عليه لن يغنى عنه شيئا من الله ، وها هو ذا يبعث وسط نار ذات لهب ، وامرأته تحمل الحطب لتزيد ناره اشتعالا .. فى جيدها حبل من مسد .. رمز لانتمائها لعالم الدواب التى لا تعى .

ولقد كان معظم المعاندين للدعوة الجديدة من لون ينتمى لعالم الدواب التى لا تعى ..

قال تعــالى فى سورة الفرقان :

((أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ان هم الا كالأنعام بل هم أضــل سبيلا))[٢] ..

ولو تأملنا اليوم ردود أفعال الكافرين والمشركين ، لأحسسنا بالعجب .

قال تعــالى فى سورة (ص) :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشىء عجاب »[٣] ..

تأمل أنت جهل قوم يحسبون أن الأصل تعدد الآلهة ، ويدهشــهم أن يكون هنــاك اله واحد . ويرون العجب العجاب فى هــذه القضــية الفطرية الواضحة .

---

(١) سورة المســد مكية .
(٢) الآية ٤٤ سورة الفرقان مكية .
(٣) الآيتان ٤ ، ٥ سورة ص مكية .

قال تعـــالى فى سورة الفرقان :

واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا ، أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ • ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها »[1] ..

أنظر الى جرأة القوم ، اذ يهزأون برسول الله .. وقد جاء ينقذهم من النار ، وتخيل اطمئنانهم لآلهتهم ، وتصورهم انهم كادوا يضلون عنها لولا أن صبروا عليهـــا ..

ان صور العناد القديم والجديد واحدة .. ان الكفر والشرك والعناد تكرر نفسها لأن الشر عادة محدود الموهبة .. وان اتسم بالمثابرة ..

وهكذا يهزأ الضلال من الحق ، ويسخر الجهل من العلم ، وينفش البـــاطل ريشه الملون ، ويتيه عجبا بذكائه الذى انقذه من ترك آلهته الحجرية والخشبية والبلحية ، وكانوا يصنعون الآلهة من العجوة .. ويعبدونها ثم يأكلونها ويقولون : أنقذتنا آلهتنا من الجوع . أو يقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى .. المسألة كلها مسألة تزلف الى الله ..

ومضت دعوة النبى . وانغرست فى الأرض أشواك المشركين .

اتهموا النبى بأنه كاهن ، واتهموه بالجنون ، واتهموه بالســـحر ، واتهموه بأنه افترى ما جاء به من الحق ، واعانه عليه قوم آخرون .. وقالوا : هـــذه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا . وطلبوا منه معجزات من نوع معين .. أعلنوا انهم لن يؤمنوا له حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو يسقط السماء كما زعم عليهم قطعا من العذاب ، أو يأتى بالله والملائكة يضمنون لهم صـــحة ما يدعو اليه .. أو يكون له بيت من ذهب ، أو يصعد فى السماء ، ولن يؤمنوا لصـــعوده اذا صعد أمام اعينهم وعـــاد ، الا اذا أحضر اليهم كتـــابا يقرأونه من السماء ..

ومر النبى مر الكرام على تجريحهم له ، كما أفهمهم بلطف أن مايطلبونه من المعجزات لا يتفق مع الاسلام ، دعوة العقل والحرية ، أفهمهم انه بشر رسول ، جاء ينذرهم يوما لا يغنى فيـــه والد عن ولده ، ولا ينفع فيه مـــال ولا بنون ، ولا ينجى فيه من العذاب ، أن صاحب الفخامة أو الســـعادة كان جبارا عظيما من جبابرة الأرض ، أو شيخا من شيوخ القبائل ، أو حاكما فى الناس ، أو ملكا عليهم ، أو مدعيا للألوهية فيهم ..

لا يغنى هذا كله شيئا يوم القيامة .. لا يدفع العذاب .. ولا يخففه .

وبدأ الاســـلام ــ ككل الأديان قبله ــ يجمع حوله طائفة العقلاء والفقراء والحزانى فى الأرض ، آمن عديد من الفقراء الذين وضعهم النظام الاجتماعى فى مكة عند سفح المجتمع لتستغلهم الطبقات الظالمة ، ولم يكن الاســـلام يقدم حلا اقتصاديا لمأســـاة الحيـــاة أو المجتمع فحسب ، انما كان يقدم حلا الهيا لمشكلة الوجود الانسانى بشكل عام .. وكان الاسلام يؤمن ان الانسان ليس مجرد معدة تريد ان تمتلىء ، وجسد يريد أن يكتسى ، وغريزة جنسية تريد أن ترتوى ، ليس الانسان هذا فحسب .. وضع الاسلام الانسان فى مكانه

---

(1) الآيتان ٤١ ، ٤٢ سورة الفرقان مكية .

الحقيقى دون تكبير أو تصــغير .. معدة وجسدا ، وغريزة وروحا ، وطموحا وعقلا ، وقبسا من الله فى الروح ..

ليس أعقد من تركيب الجســد الانســانى ، وليس أعقد من تركيب الروح الانسانى .. وأحيانا يتقلب الجسد فى نعيم الحياة ، بينما تشقى الروح أشــد الشقاء ، واشــباع جانب واحد من جوانب الانســان لا يؤدى الى الكمال أو السعادة .. ولهذا بدأ الاسلام حل مشكلة الانسان من داخله .. ووقع عبء هذا التغيير على القرآن ، كان القرآن يتحول الى الحياة كل يوم .. كانت آياته تتنزل على الرسول ، فيعلمها الرسول للمسلمين ، ويتحول القرآن الى رجال كثيرين يسيرون فى الأسواق ويهددون عرش الكراهية الذى كان يحكم مكة ..

وزادت ضراوة المشركين فى الســخرية والتجريح والاســتهانة .. وحزن الرسول ، عليه الصلاة والسلام .. وواساه الله تعالى ، وأفهمه انهم لا يكذبونه .. ولكنهم ظلموا أنفسهم ابتداء وجحــدوا آيات الله .. وليس النبى غير آية من آيات الله ..

قال تعــالى فى سورة [الأنعام] :

« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » [1] ..

واستمر ايذاء المشركين للرسول وأتباعه .

وانتقل مجال المعركة من الكلمات المتحدية الهازلة ، الى تعذيب اتبــاع الرسول وقتلهم .

وتصور أعداء الاسلام يومها ان تشديد الخنــاق على المسلمين ، سيجعلهم يفلتون دعوتهم ، أو يكفون عن اعتناقها ، ايثارا للســلامة ، أو يتهافتون فى نشرها على أقل تقدير ، وفوجىء السادة والملأ من قوم مكة بأن الضــغط يزيد الدعوة رسوخا ، وأن التعذيب لم يزحزح أحدا عن موقفه .

ولقد كان يقين المسلمين الذى زرعه الرسول فيهم ، انهم يحملون رســالة من الله الى العالم ، رسالة تعيد الى العالم رشده الذى فقده ، وانسانيته التى ضاعت منه ، وكرامته التى أهدرت ، وحريته التى صــودرت .. وكان يقين المسلمين انهم لا يبنون وطنا صغيرا فى مكة ، ولا يحــاولون اصــلاح مجتمع فاسد هو مجتمع الجزيرة العربية ، وانما كانوا يدركون انهم ينشئون الانسان من جديد .. ينشئون الانسان كما ينبغى أن يكون الانسان .. ويقدمون للدنيا أول صورة مجردة لعظمة الخالق وجلاله .

وقبل الاسلام .. كان العرب لا شىء .. كانوا بمقياس الحضارات القديمة والحديثة لا شىء . لم يقدموا الى العالم علما أو فنا أو أثرا له قيمته .. فلما نزل الاسلام عليهم ، صاروا هداة البشرية .. وسادتها وعلماءها بالحق .. وأخــذ عنهم الغرب ما يريده لتقدمه ، وظل يزحزحهم عن الاســلام حتى عاد الاسلام الى الكتب ، ولم يعد له وجوده الحى المؤثر فى الناس ، بعدها صــار سهلا على الغرب أن يحكم المسلمين بما أخذه منهم من العلم .. وأن يسوقهم قطعانا مدهوشــة الى حظائر منتجاته واكتشافاته ، وهى أشياء كان ينبغى ان

---

(1) الآية ٣٣ سورة الانعام مكية .

تكون من اكتشــــافهم وانتاجهم ، لو أدركوا معنى الاســـــلام وحرصــــوا على أحيائــــه .

وفى الأيام الأولى للاسلام .. أدرك المسلمون أنهم يواجهون حربا لن تتوقف طالما بقيت الحياة وبقى فيها الصراع .. ولهذا توهجوا بالايمـــان كلما ازداد العذاب ، واستمسكوا بالحق كلما اشتد اضطهاد قريش .

وعذبت مكة عمار بن ياسر .. أحـــد العبيد الذين كانوا ضـــحية للنظـــام الاقتصادى السائد فى العالم يومها ، وهو اقتصاد كان يقوم على نظام العبيد ، عذبت مكة هذا الذى آمن أنه لن يحصل على حريته الحقيقية الا بالاسلام . وكانوا يخرجونه الى الصحراء ويعذبونه وزوجته ، واشتد العذاب على زوجته يوما لتكفر ، فلما ظلت على ايمانها وأغلظت القول لأبى جهـــل ، طعنها بحربة كانت فى يديه .. فماتت .. وقدم الاسلام أول شهدائه ..

كانت امرأة تدعى « سمية » .. زوجة عمار بن ياسر .

لم تكن فى عرف المجتمع امرأة حـــرة .. كانت زوجـــة لعبد .. واقتضت مشـــيئة الله تبارك وتعـــالى أن تكرم الســـــماء دم العبيد قبل دم الأحرار بالشـــهادة .

ولقد تحدث الجهلاء كثيرا عن رضاء الاسلام بنظام العبيد . أو سكوته عليه أو قبوله اياه ، وأغفلوا أن الاســـلام كمبدأ يحرر العبيد جميعـــا ، ويخرجهم من ملكية الناس الى ملكية الله .

واذا كان الاسلام لم ينزل بنصوص مفصـــلة مباشرة لتحريم نظام العبيد ، فقد كانت أسسه العامة ومبادئه الأساسية تجفف — فعلا لا قولا — منابع هذا النظام .. ولقد علم صاحب الدعوة الاسلامية — جل جلاله — أن نظام العبيد نظام اقتصادى مؤقت سيتغير مع الوقت .. ولمـــا كان الاســـلام لم ينزل لهذا الوقت الذى نزل فيه فحسب ، وانما نزل عاما شاملا لكل الأزمنة القـــادمة ، فقد تجاوز الاسلام هذه الصورة المؤقتة من صور الاســـتغلال ، الى الأصـــل المنشىء لصور الاستغلال وأشكاله ، فحرمها .. وبهذا الأسلوب حرم الاسلام نظام العبيد تدريجا ، مثلما حرم الخمر على مراحل .. ولقد كانت جدية الاسلام هى المســـئول الأول عن تحريمه للمحرمات على مراحـــل ، فالطبيعة البشرية لا تتغير فى يوم ، والنظم الاقتصادية لا تتحول بقرار .

ولئن قيل لنا أن الاسلام أباح لجنوده استرقاق أسرى الحروب ، فســـوف نقول ان الاسلام كان يطبق هنا مبدأ المعـــاملة بالمثل .. كان أعداء الاســـلام يسترقون المسلمين حين يأسرونهم ، فكان طبيعيا أن يسترق المسلمون أسراهم من المشركين ، ولو فعل الاسلام غير هذا لكان أقرب الى اللهو .. ولســـقطت هيبته كنظام جاد ، ولطمع فيه الطامعون وهم كثير .

....

أخفق التعذيب والاضطهاد فى حصر الدعوة الاسلامية .

وحين ذهب المعذبون يشكون لرســـول الله ما يلقونه من العذاب أفهمهم بمنطق شديد الوضوح أن على الدعاة أن يدفعوا راحتهم وأمنهم ودماءهم ثمنا لانتشار دعوتهم .

ليست الحرية بلا ثمن . .

وتاريخ الحياة حافل بدماء كثيرة دفعتها الشعوب لمقاومة اعدائها فى الخارج والداخــل .

ولئن كان هذا شأن من يطالب بحرية قوم فى زمان ومكان محددين ، فما هو شأن من يطالب بحرية الجنس الانسانى كله .

ان المسلم ينبغى أن يضع فى اعتباره انه يتعرض ، بمجرد اعلان دعوته ، للمؤامرات والتشريد والاضطهاد والسجن والمطاردة والحصار والاغتيال .

هذا هو ثمن انتشار الدعوة .

وهــذا هو ثمن الحــرية . .

وهو ثمن يدفعه أهل البــاطل احيــانا بالرضــا ، فكيف يتردد أهل الحق فى أدائه .

والأصل فى الانسان انه محكوم بغريزة البقــاء . . محكوم بغريزة الخوف من العذاب والموت .

ولعل أخطر ما يميز المسلمين الحقيقيين هو تحررهم من غريزة الخوف وحب البقاء . هذا هو المعيار الذى لا يخطىء لتمييز المسلم الحقيقى ، من المســلم بالاسم أو الوراثة أو الادعاء . يعلم المسلم الحقيقى أن الآجال بيد الله . والأرزاق بيد الله . والأمن بيد الله والقوة بيد الله . . وبهذا الايمان يبدأ صراعه لنشر دعــوته . . ويستعذب الألم فى الله ، ويدفع بدمــائه ثمن حرية الآخرين . يفعل هــذا كله ببســاطة تخلو من الخوف ، يحرره الاســلام من الخوف . وقديما كان الطغاة ينشرون رجال الله بالمناشير وهم أحياء .

ذهب خباب بن الأرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجدا به من اضطهاد قريش .

قال : ألا تستنصر لنا . ألا تدعو لنا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأســه فيجعل نصفين . . ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر ، ولكنكم تستعجلون .

بهذه الكلمات الصابرة الشجاعة . . افهم الرسول من جاء يستنجد به أن من تمام الايمان دفع ثمن الحرية .

ولقد بدا واضحا ان الاسلام لم يكن يقــدم لمن يدخلون فيه مكاسب من اى نوع .

لم يكن السؤال الذى يطرحه المسلمون الأوائل يقول : ماذا نكسب من وراء هذه العقيدة ؟

على العكس من ذلك . . كانوا يسألون : ماذا ندفع للاسلام ؟ .

وكان الجواب : كل شىء . ابتداء من لقمة الخبز الى الدم المسفوك .

لقد دفع المسلمون الأوائل كل شيء . وخامرهم اطمئنان هادىء لنصر الله ، وملأتهم ثقة عميقـــة بغلبة ما جاءوا به من الحـــق ، وكانوا يعلنون أنهم سيغلبون ملوك كسرى وقيصر ، وانهم سيصيرون بدعوتهم سادة الأرض .

واستغل المستهزئون هذه الثقة فى سخريتهم وضحكهم .. كان الأســـود ابن المطلب وجلساؤه اذا رأوا أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، يتغامزون ويقولون : قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون — غدا — ملوك كسرى وقيصر .. ثم يصفرون ويصفقون .. وتجـــاوز المؤمنون هـــذه السخرية .

واستطالت السخرية الى منع المسلمين من اعلان دعوتهم .

وعقدت قريش اجتماعا تاريخيـــا لتوحيد الهجوم على الرســـول . كان المشركون يتهمونه مرة بأنه ساحر ، ومرة بأنه كاهن ، ومرة بأنه شاعر ، ومرة بأنه مجنون .. واتفقت الكلمة فى اجتماعهم يومئذ على الصاق تهمة الســـحر به .. واستند المؤتمر الشهير الذى تزعمه الوليد بن المغيرة على رمى الرسول بالسحر ، لأنه يفرق بين الأخ وأخيه ، والمرء وزوجته .. وصنع ملوك الكراهية والظلام من أنفسهم فرقا تحذر القادمين الى مكة من ســـاحر يدعى محمد .. ساحر خرج على قومه وأهله وعشيرته الذين يعبدون ما كان يعبد آباؤهم ، واضطروا الرسول الى أن يعرض نفسه على الخلق فى المواقف فيقول :

— الا رجل يحملنى الى قومه ، فان قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى ؟ .

رغم هذا كله ، وربما بسبب هذا كله .. استمرت الدعوة الاسلامية .. تنتشر ببطء وعمق ، وراحت كلمات النبى ، عليه الصلاة والسلام تنعش ذاكرة العهد .. وتضع الناس فى نفس الموقف الذى كانوا عليه يوم أخذ الله عليهم عهده وهم ذرات فى ظهر آدم :

((ألست بربكم ؟ قالوا : بلى))[1] ..

ازداد عدد المسلمين .. وأحست قريش الخوف .. ورأت أن تجرب أسلوبا آخر ، ماذا لو لجـــأت الى المهادنة والمفاوضات .

وأرسلت قريش عتبة بن ربيعة ، وهو رجل يتصـــف بالعقل والرزانة بين قومه ، ليفاوض الرسول .

قال عتبة لرسول الله : يا ابن أخى .. انك منـــا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمـــاعتهم ، فاســـمع منى أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها .

قال الرســـول : تكلم يا عتبة .

قال عتبة : ان كنت انما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا أموالنا حتى تبرأ .

---

(1) من الآية ١٧٢ سورة الاعراف مكية .

انتهى عتبة من كلامه .. وانتظر رد النبى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون . قل : انما انا بشر مثلكم يوحى الى : انما الهكم اله واحد، فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم . فان أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » [١] ..

انتهى الرسول من رده على عتبة ، وهو رد آثر ان يواجه العروض والمغريات والمفاوضات بجزء من سورة « فصلت » .. وهى احدى سور القرآن الذى نزل به الروح الأمين عليه السلام .

نهض عتبة حين وصل الرسول الى قوله تعالى :

« **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » [٢] ..

نهض عتبة فزعا منصرفا الى قريش ، كأن صواعق الدنيا فى أثره .. وحين وصل الى قريش ، اقترح عليهم أن يتركوا محمدا وشأنه .. فشلت المفاوضات مع أول المسلمين ، صلى الله عليه وسلم .

وكان فشل المفاوضات ايذانا بعودة الايذاء والاضطهاد .. وتفنن المشركون والمجرمون فى ايذاء المسلمين . وخامر النبى حزن لهذه المآسى التى تقع لأصحابه .. وحين انتهى المسلمون من دفع الثمن الكامل لعقيدتهم واحتملوا فى الله أقصى الطاقة أوعز الرسول اليهم بالهجرة . أعطى الاذن بالهجرة لمن يريد أن يهاجر . وبدأت موجات الهجرة . وكان ذلك لخمس سنوات من نزول الوحى عليه .. وبعد سنتين من اعلان دعوته . وهاجر الى الحبشة ستة عشر مسلما . خرجوا فى الخفاء ، واتجهوا صوب البحر ، وركبوا الموج رغم كراهية أهل الصحراء له وخوفهم منه واعتقادهم ان الناس حين تركب البحر تتحول الى دود على عود سابح .

وتلت موجة الهجرة الأولى موجة ثانية ، حملت هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا وتسع عشرة امرأة .

وامتدت يد قريش الى الحبشة تحاول ايذاء المهاجرين .. أرسلوا الى

---

(١) الآيات من ١ الى ١٣ من سورة فصلت مكية .
(٢) الآية ١٣ سورة فصلت مكية .

النجاشي ملك الحبشة من يثيره ضد المهاجرين ، ويتهمونهم بأنهم فارقوا دين آبائهم فى مكة ، ولم يدخلوا دين النجاشى وهو النصرانية . وطالبت قريش برد المهاجرين لتأديبهم ، ولم تنس قريش أن ترسل الى النجاشى بهدية .. ترشـــوه بهـــا .

يبدو أن النجاشي كان رجلا عاقلا ، فأرسل الى المهاجرين يسألهم عن هــذه الديانة الجديدة التى ابتدعوها . وحدثه المهاجرون عن الاسلام . ســألهم عن عيسى فقالوا :

ـــ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول .

واخذ النجاشى عودا صـــغيرا من الأرض وقال : لم يزد عيسى على ما قلتم قدر هذا العود . اذهبوا فأنتم آمنون . ورد هدية قريش وهو يقول : ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم ، ولا أطاع الناس فى حتى أطيعهم فيه .

وهكذا اقام المهاجرون من المســلمين فى ديار آمنة هى الحبشـــة .. ديار يحكمها رجل أوتى رشده فآمن بطبيعة المسيح البشرية ، رغم ايمـــان بطارقة كنيسته بغير ذلك .

ومن عجائب تدبير القدرة الالهية ، أن هـــذا النزيف فى جســـم المجتمع الاسلامى ـــ متمثلا فى الهجرة ـــ لم يؤد الى ضعف الاسلام ، وانما زاده قوة فقد عوض الله تبارك وتعالى الدعوة الاسلامية باســلام رجلين عظيمين .. هما : حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم . وعمر بن الخطاب .. الفاروق ورجل الحق .

ولقد كان الرجلان من ذوى الشخصية القوية فى مكة . كان كل واحد منهما سيدا عظيما فى قومه .. وشاءت ارادة الله عز وجل أن يؤتى أصلب رجلين فى مكة من ينبوع الرحمة الذى كان كامنا فيهما ولا يعلمان .

اسلم حمزة بدافع الغضب والعصبية والرحمة تجاه من لا يدفع عن نفســـه الأذى .

قالت احدى النساء لحمزة يوما : لو رأيت مــا لقى ابن أخيك محمـــد من ابى الحكم بن هشام (أبو جهل) ، فانه سبه وآذاه ثم انصرف عنه . ومحمد صامت لا يكلمه .

وغلى الدم فى عروق حمزة .. وأسرع مشتعلا بالغضب يبحث عن ابى جهل فرآه يجلس بين قومه . فرفع حمزة يده بقوس كان يمسكها وضرب بها رأس ابى جهل وهو يزأر : اتشتم محمدا وانا على دينه .

تلك كانت بداية اسلام حمزة .

كان حمزة رجلا كريما بحق .

آذى مشاعره أن يضطهد ابن أخيه فلا يرعى الناس له ذمة ، رغم أنه ابن أخيه .. تلك كانت البداية . أو السبب المحرك للاسلام . أما العمق البعيد فكان هذه الرحمة التى أودعها الله فى نفس حمزة دون أن يدرى حمزة .. وهى رحمة لم تستطع أن تهضم ايذاء رجل يدعو الى الله ، لمجرد أنه ضعيف وبغير انصار .. فليكن حمزة اذن نصيره .

اما عمر بن الخطاب .. فكان معروفا بحدة الطبع وقوة الشكيمة وصلابة الراى .. وطالما لقى منه المسلمون الأذى حين كان على جاهليته .

وكان من بين من يلقون منه البلاء .. عامر بن ربيعة وزوجته .. وقرر عامر وزوجته الهجرة الى الحبشة .. واقبل عمر بن الخطاب يوما فوجد زوجة عامر ولم يجد زوجها .. رآها تتهيأ للرحيل والهجرة ..

قال [وينبوع الرحمة فى نفسه يتحرك] : أتنطلقون يا أم عبد الله ... ؟

قالت المرأة ثائرة : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، فقد آذيتمونا وقهرتمونا .. ننطلق حتى يجعل الله لنا فرجا ..

قال عمر : صحبكم الله ..

ورأت المرأة فى وجهه رقة وحزنا .. فلما عاد زوجها حدثته انها طامعة فى اسلام عمر .. قال زوجها : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ..

قالها من شدة ما كان يجد من عمر ، غير ان احساس المرأة الداخلى ، كان اقوى من رأى الرجل وحكمه السريع على عمر .. فلم تمض أيام على هجرة من كان يعذبهم عمر .. حتى اسلم عمر ..

زحزح المهاجرون غطاء بئر الرحمة فى نفسه .. ولعل عمر أحس الحيرة فقرر حسم الأمر وقتل الرسول .. وذهب اليه متوشحا سيفه .. ويقابله من يقرأ سريرته فيسأله الى اين ؟

قال : الى محمد لأقتله فتستريح العرب .. ويقول له الرجل ساخرا :

ــ الا تبدأ بأهل بيتك قبل محمد ..

ويسأل عمر ثائرا : اهل بيتى ؟

قال الرجل : اختك وزوجها .. أسلما وانت لا تعرف ..

ويقتحم عمر بيت شقيقته وزوجها ، وعندهما قارىء يقرأ القرآن .. يخبئان الصحيفة والقارىء فيسأل عمر : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

وتنكر أخته ، ويتدخل زوجها فيبطش به عمر .. فتنهض المرأة للدفاع عن زوجها فيضربها عمر فيسيل دمها . ويفجر منظر الدم ينبوع الرحمة داخله .. انتهى الأمر وسقط غلاف الثمرة الجاف الذى يخفى حقيقتها العظيمة .

ويتوضأ عمر ــ قسرا ــ ليسمحا له بقراءة الصحيفة القرآنية ..

ويقرأ عمر ..

لا ينتهى من القراءة حتى يتحسس سيفه ويمضى نحو الرسول .. اختار عمر الاسلام دون تردد .. وليكن سيفه الذى ذهب به لقتل محمد .. هو أصلب السيوف دفاعا عن محمد ..

ويدق الباب على الرسول ومعه أصحابه .. وينظر أحدهم من شق الباب فيرى عمر بن الخطاب متوشحا سيفه .. ويعود الى النبى بالخبر المزعج ..

هذا ابن الخطاب جاء يقصد شرا ..

وينهض الرسول آمرا أن يتركوه له ..

يفتح الرسول الباب ويشد عمر بن الخطاب من سيفه وثيابه سائلا اياه عما يريد .. وماذا جاء به ؟

وأجاب عمر انه جاء يشهد ان لا اله الا الله، وأن محمدا رسول الله ..

وكبر الرسول تكبيرة عظيمة ..

ها قد تحققت دعوته : اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين ..

وبدأت قريش تحس الخطر بعد اسلام عمر وحمزة .. ان رؤوس مكة واعظم رجالها يسلمون .. وقبل اسلام عمر كان المسلمون يطوفون بالكعبة سرا ، وعلى استحياء ، فلما أسلم عمر جاهر باسلامه وتحدى أن يعترضه أحد .. وتقاصرت الرقاب تفسح له طريقه للطواف .. وأدركت مكة انها تواجه دعوة لا تلبث أن تقلب الأوضاع فى الجزيرة العربية ..

وادرك الخوف سادة قريش المشركين ، وتقرر أن تنتقل الحرب مع المسلمين من مرحلة الاستهزاء والاضطهاد ، الى مرحلة جديدة كل الجدة ..

تقرر حصار المسلمين اقتصاديا وانسانيا .

عقد المشركون معاهدة لحصار المسلمين ، وعلقوا المعاهدة فى جوف الكعبة احتراما لنصوصها ، وكان المشركون يوقرون الكعبة رغم أنهم يملأونها بالأصنام التى يعبدونها لتقربهم من الله زلفى ، وكانت نصوص المعاهدة تقضى بألا يبيع أهل مكة للمسلمين أو يبتاعوا منهم شيئا ، والا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم .

وبهذه المعاهدة القاسية ، تقرر نبذ المسلمين وقتلهم اقتصاديا .

واضطر الرسول ومن آمن معه الى اللجوء لحى بنى هاشم ، وانحاز اليهم بنو المطلب ، كافرهم ومؤمنهم باستثناء عدو الله أبى جهل ، فقد وقف مع قريش ضد قومه .

وبدأ تضييق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم الطعام والشراب ، حتى بلغ الجهد اقصاه ، كان الصحابة اذا قدمت قافلة الى مكة ، وذهب أحدهم الى السوق ليشترى الطعام لعياله ، قام أبو لهب يقول للبائع ، يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يبتاعوا منكم شيئا ، وأنا ضامن أن لا خسارة عليكم ، فسوف أبتاع منكم ما يعجزون عن شرائه .

ويغالى التاجر فى السعر أضعافا مضاعفة حتى يرجع المسلم الى عياله وليس فى يده من القوت شىء . ثم يذهب التجار الى أبى لهب فيشترى منهم بالأسعار التى عجز المسلمون عن الشراء بها .

واستمرت الحرب حتى تعب المؤمنون وجاعوا وتعروا ..

كم تظن الوقت الذى استغرقته الحرب الاقتصادية ..

استغرقت هذه الحرب ثلاث سنوات كاملة .. حتى بلغ الأمر بسعد ابن أبى وقاص أنه خرج يوما ليقضى حاجته ، فسمع قعقعة تحت البول ،

فاذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذها وغسلها ، ثم أحرقها وفتتها وسفها بالمــاء ..

كانت طعامه ثلاثة أيام .

وخلال هذه السنوات الثلاثكان الوحى يتنزل على الرسول متجــاهلا هذا البلاء العنيف .

وكان الله يربى أتباع دينه على احتمال كل الظروف ، ورغم أن ضــائقة المسلمين استمرت ثلاث سنوات ، لم يتوقف نشاط الاسلام ولا خمد توهجه أو قل انتشاره .

كان المسلمون يلقون غيرهم فى مواسم الحج ، فيحدثونهم عن الله ، ويدعونهم الى رحمته ومغفرته ، ويزدادون تمسكا بما تضمه قلوبهم من الحق .. وشدت هذه الشجاعة والصلابة أنظار عديد من الناس ، فدخلوا فى الاسلام، وبدأ المشركون ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب مافعلوا . وبدأت الغيرة على الحق تغزو القلوب . كما لعبت عصــبيات القــرابة بين غير المسلمين دورها ، فأبطلت قريش الصحيفة ، بعد جدال واختصام .

وانتهت الحرب الاقتصادية ضد المسلمين باجتيازهم لها ، وصيرورتهم اقوى مما كانوا . فقد المسلمون وفقد أطفالهم كثيرا من الوزن ، وصاروا اشباحا تسير فى الطريق ،ولكن عددهم يزيد ، وايمانهم يزيد ، وثقتهم بالله تزيد ..

. . . .

وجاء عام الحزن على الرسول .

لم يكد الرسول يتنفس الصعداء بعد أعوام الحصار الثلاثة ، ويعــود لاستئناف حياته ودعوته .. حتى فوجىء بوفاة زوجته أم المؤمنين خديجــة رضى الله عنها .. ووفاة عمه أبى طالب على ملة الأشــياخ من أجــداده .

وكان أبو طالب رجلا عظيم الهيبــة فى مكة ، وكان ايذاء النبى محدودا لحماية أبى طالب له ..

أما خديجة فهى واحــــة النبى وملاذه ، وهى القلب الرحيم الذى احتضن تأمله قبل الرسالة ، واحتضن آلامه بعد الرسالة . وكانت له نعم الرفيق والزوج والصديق والخادم .

وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حزنا عميقا . حتى سمى المؤرخون هذا العام بعام الحزن .. وفرح المشركون بأحزان الرسول ، سرهم أنه صار بلا شيخ يدفع عنه ويحميه .. وبلا زوجة تخفف متاعبه وتواسيه . وازداد ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم .. واختار المشركون وقتــا ذبحت فيه ذبائح مكة ، واحضروا أحشاء جمل ذبيح والقوه على كتفى النبى وهو ساجد لا يرفع رأسه .

وبلغ الخبر ابنته فاطمة ، فجاءت مسرعة تحمل عن أبيها وتدافع عنه، فى بيئة ينتظر أن تصدر الحماية فيها من الأب .

وحز فى نفس النبى أنه صار الى وضع تدافع فيه عنه ابنته .

وصبر النبى فى الله واحتمل .

وفكر يوما أن يتوجه الى الطائف حيث تقطن ثقيف .. لعله قال لنفسه : اذا كانت القلوب هنا قد تجمدت على الباطل ، فلأذهب الى ثقيف .. لعل الله يفتح للدعوة ثغرا تنفذ منه .

كان الحصار العام على الدعوة قد اشتد فلم تعد تستطيع أن تخط خطوة واحدة الى أمام .. وازعج هذا النبى صلى الله عليه وسلم . وحاول أن يكسر النطاق المضروب حوله فذهب الى الطائف . والمسافة بين مكة والطائف تزيد عن سبعين كيلو مترا . سارها النبى صلى الله عليه وسلم على قدميه، ذهابا وعودة .

لا نعرف أى أفكار عبرت ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب يدعو هذه القبيلة الكافرة الى الله . كل ما نعرفه أنه ذهب اليهم يحمل رحمة الدنيا والآخرة ، فلقوه لقاء الجاهلية ، وأساءوا اليه وكذبوه . ومكث عشرة أيام يتردد على المنازل والأسواق والطرقات فلا يستمع اليه أحد ، ولا يؤمن بدعوته أحد ، ويزداد الناس تهجما عليه واستهزاء به .

وجاء اليوم الأخير الذى قرر فيه أن يعود الى مكة ، ووقف النبى فى الطائف ورجا من الناس أن يكتموا سر زيارته لهم حتى لا تزداد شماتة مكة فى الاسلام وعداوتها له ، ورفض أهل الطائف هذا الرجاء الأخير .

ولم يكتفوا بذلك، وانما صنعوا به شر ما يصنع الانسان بالانسان .سلطوا العيال والحمقى والأوغاد والأوباش فوقفوا صفين يرمونه بالحجارة ويسخرون منه . وخرج النبى من الطائف والعيال والكبار يضربونه بالحجارة ، وأصيب عليه الصلاة والسلام فى قدميه ، فسالت منهما الدماء ، واضطره المطاردون الى أن يلجأ لبستان يملكه اثنان من أغنياء الطائف . وهناك جلس تحت ظل كرمة فيه . وكان صاحبا البستان فيه فصرفا الأوباش عنه ، ورق قلباهما لمرأى المطارد الجريح فأرسلا اليه عنقودا من العنب مع خادم لهما ، وكان خادمهما نصرانيا يدعى عداس .

وضع الخادم عنقود العنب أمام الرسول ، فمد الرسول يده اليه قائلا :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم .

قال عداس للنبى : ليس هذا كلام أهل هذه البلدة .

سأل النبى : من أى البلاد أنت .

قال عداس : أنا نصرانى من نينوى .

قال النبى : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

قال عداس : ما يدريك ما يونس .

قال النبى : ذلك أخى . كان نبيا وأنا نبى .

أكب عداس على قدمى الرسول ويديه يقبلهما ويبكى ..

كان هذا النصرانى المؤمن هو الاضافة الوحيدة التى خرج بها الاسلام من الطائف ، وهى اضافة دفع الرسول ثمنها أسبوعين من وقته وأمنه ودمائه التى سالت من حجارة الرعاع .

وعاد الرسول الى مكة . عاد مرفوضا من الطائف ليجـد نفسه مرفوضا فى مكة . رغم ذلك .. مضى القلب العظيم المثقل بالحزن فى دعوته وجهاده. وكلما ازدادت حرب الكراهية والعناد زاد القلب من جهده ورحمته . وجاءت على النبى أوقات بدا فيها الاسلام غريبا ، وبدا فيها النبى وحيدا لا ناصر له .. وفى هذا الوقت بالتحديد ..

حين بدا أن الناس قد تخلوا عن النبى .. تدخلت السـماء ووقعت أعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ..

وقعت معجزة الاسراء والمعراج ..

وهى معجزة لا علاقة لها بالدعوة الاسلامية . لم تأت تأييدا لهذه الدعوة او اثباتا لها . انما جاءت تأييدا للنبى وحده .. وتشريفا له وحده .. وتكريما له وحده .. وكأنما أراد الحق عز وجل أن يقول للنبى ..

اذا كان أهل الأرض لم يحمدوك .. فان السماء تعرف لك قدرك من الحمـد .

واذا كان الناس يرفضون دعوتك ويرفضونك ، فان الله عز وجـل يجتبيك ويشرفك ويدعوك اليه ليريك من آياته الكبرى .

تسطع معجزة الاسراء والمعراج .. فى تاريخ الأنبياء .. كمعجزة فريدة لا مثيل لها فى قصة نبى آخر ..

لقد رأينا فى الأنبياء من يسميهم الرحمن أحباءه وأخلاءه . كابراهيم ورأينا فى الأنبياء من يكلمهم الله تعالى بغير واسطة .. كموسى

ورأينا فى الأنبياء من يؤيدهم الله تعالى بالروح القدس .. كعيسى

لكننا للمرة الأولى أمام نبى يدعوه الله تبارك وتعالى اليه ..

فيصعد مع جبريل بجسده وروحه حتى يقف جبريل عند مكانته ويتقدم نبينا وحده .

وتلك درجة من درجات التكريم التى تتوقف عندها الاقلام عجزا عن التعبير واشفاقا من مجرد المحاولة .

ولقد رأينـا فى قصص الأنبيـاء نبيا يسـأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ويسـأله الله ألم يؤمن بعد ؟ ويرد ابراهيم بأنه مؤمن يريد أن يطمئن قلبه .

ولقد رأينا فى قصص الأنبياء نبيا يندفع بحب الله فيسأله :

« **رب أرنى أنظر اليك** » [1] ويرد الله على موسى باستحالة الرؤية على البشر

---

(1) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .

ويفهم الله موسى أن اى كيان مخلوق .. لا يحتمل تجلى الخالق عليه .

أما محمد بن عبد الله .. فلم يكن يسأل ربه معجـزة أو خارقة ، لم يكن يسـأل الله الرؤية . ولم يكن يبحث عن طمأنينة قلبه .

كان حبه لله تعـالى من نوع يصعب على كبار المحبين وصـغارهم على السواء فهمه أو ادراك اعماقه .

ولم يكن حبه هذا من نوع يثير الاسئلة .. تجاوز حبه درجة السـؤال الى درجة الاسلام والرضا .

كان كل ما يقلق النبى هو رضا الله تعالى عنه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخـرج مرفوضـا مطرودا جريحا من الطائف :

ــ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى .

انظر الى درجة الحب ، كيف اسلمته الى ذروة التواضع ، فهو يقول : ان لم يكن بك غضب على .. كانه لا يطمع فى الرضا .. حسبه عـدم الغضـب ..

لقد كان أدب الرسول صلى الله عليه وسلم مع ربه عز وجل هـو الأدب اللائق بأول المسلمين واكملهم ..

ومن حق أول المسلمين واكملهم أن يؤتى سؤله بغير أن يسأل .. وان يكرم بغير أن يتوقع .. وأن يجاب الى ما سأله الأنبيـاء قبـله فلم يجابوا اليـه ..

وتلك كانت معجزة الاسراء والمعراج .

وهى معجزة هدفها تكريم الرسول فى شخصه .

وهى معجزة تثير دوار العقل والقلب معا ..

ان كل أنبياء الله بلا استثناء . .كانوا يؤيدون بمعجـزات تقع على الأرض .. حتى الأنبياء الذين رفعوا الى السماء كادريس وعيسى جاء رفعهم انقاذا لهم من القتل أو الصلب .. وكانت معجزتهم فى الرفع نهاية لنشاطهم على الأرض .

وهذه هى المرة الأولى التى نلتقى فيهـا بمعجزة مكانهـا الرئيسى فى السماء .. معجزة تتمثل فى نبى يرفع الى السماء بجسـده وروحه وهو حى .. وهناك يريه الله من آياته الكبرى ، ثم يعود الى الأرض ، حيث يكون عرضة لما يتعرض له اهل الأرض من شقاء عام .

لقد كان محمد بن عبـد الله .. هو أول بشر يتجـاوز كوكب الأرض ويتجاوز الأقمار والشموس والنجوم والمجرات ويصعد .. ولقد شهدنا فى عصرنا أول انسان يرتاد الفضاء . وكان الفضاء الذى استطاع البشر بلوغه بعد ١٤ قرنا من نزول الرسالة المحمدية هو الفضاء بين الارض والقمر .. أقرب كوكب الى الأرض .. ومنذ أربعة عشر قرنا ارتاد نبى الاسلام الفضاء وتجاوزه عالما بعد عالم .. حتى وصل الى سدرة المنتهى .. وصل الى قمة المنتهى ..

وصل الى حيث ينتهى الكون المخلوق .. ويبدأ عالم الغيب . أليست الجنة جزءا من عالم الغيب . لقد وصل الى الجنة .. وهى جنة يسميها الله جنة المأوى .. وصل الى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ، ولا يدرى حقيقته الا الله .

ومعجزة الاسراء غير معجزة المعراج .. وان وقعا فى ليلة واحدة .. ووردا بعد ذلك فى سورتين مختلفتين فى القرآن الكريم .

قال تعالى عن معجزة الاسراء فى سورة [الاسراء] :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » . [١]

وقال تعالى عن معجزة المعراج فى سورة [النجم] :

« ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » [٢] .

. . . .

فى ليلة الاسراء والمعراج ..

طاف النبى عليه الصلاة والسلام حول الكعبة وهو يدعو الله .

كان شاحب الوجه دامع العينين .

لم يكن يطوف ومعه أحد . كان يطوف وحده . وراح الكافرون والمشركون يرمونه بنظرات الكراهية وهو يطوف ويدعو .

ونظر الله سبحانه وتعالى الى عبده .

وأصدر الحق تبارك وتعالى أمره الى الروح الأمين جبريل عليه السلام أن يصحب عبده محمدا صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم يصعد به فى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى .

. . . .

فى بيت شريف وفقير من بيوت مكة . كان النبى عليه الصلاة والسلام نائما .. وجاء منتصف الليل .. وصدرت الاوامر الصامتة للسكون أن ينشر أجنحته على الصحراء ، وأن يستعين بالسلام العميق ، وبلغ السكون غاية جلاله ، صمتت طيور الليل مدهوشة ، وأرهفت سمعها . وهدأت الوحوش فى الصحراء وارتعش قلبها بالحب ، وراحت مياه زمزم تسيل برفق وبلا صوت . كانت الرياح تطير فى صمت وقد توقفت عن الصفير وراحت هى الأخرى تستمع ، واهتز قلب الأرض بالرحمة وجبريل يلمس الصحراء ويدخل بيت الرسول .

---

(١) الآية ١ سورة الاسراء مكية .

(٢) الآيات من ١٣ — ١٨ سورة النجم مكية .

وقف جبريل عليه السلام عند رأس النبى ونظر اليه بحب .

أيقظت نظرته الرسول ففتح عينيه ونهض من فراشه .

قال جبريل للنبى : السلام عليك أيها النبى الكريم .. يريد الله أن ترى بعض آياته فى الكون .

سار جبريل وسار معه النبى .

خرجا من البيت ، وهنا شاهد النبى « البراق » .

مخلوق يشبه الطائر وله اجنحة كأجنحة النسر ، مخلوق صنع من البرق ولهذا سمى البراق . والبرق كهرباء .. والكهرباء ضوء .. والضوء هو أسرع ما نعرف على الارض من كائنات ، ان شعاع الضوء يقطع فى الثانية الواحدة ١٨٦ الف ميل ، وأى جسم يسير بسرعة الضوء يتحول الى ضوء . هذا قانون علمى .

ولقد رجح بعض العلماء أنتكون قوة الضوء وسرعته قد استغلتا فى الرحلة ، ويطمئن قلبنا لهذا الترجيح ، وان كان الغموض يشيع فى الأسلوب الذى استخدم فى هذه الرحلة . ان القرآن تجاوز وسيلة المواصلات التى استخدمت فى الرحلة الى عمق الرحلة البعيد .. وهو أن يرى الرسول من آيات ربه الكبرى .. وان روت السنة المطهرة أن النبى ركب البراق . وهو دابة تضع طرفها عندنهاية نظرها ، وذلك رمز تعبيرى لسرعتها المهولة .

لن نتوقف عند مركبة الفضاء التى استغلت فى الرحلة .. ولن نسأل كيف اخترق النبى عوالم الفضاء دون تدريب سابق ، وكم هو الوقت الذى استغرقه فى الذهاب والعودة ، ولن نسأل عن سرعة البراق .. ولن نعجب من هذا الغزو للفضاء وتجاوزه .. لن نسأل عن هذا كله لأن لدينا اجابة واحدة كافية .

لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يقع ذلك .

قال لهذا كله : « كن » ، فكان .

اختلف العلماء هل كان الاسراء والمعراج بالروح وحده ، أم بالروح والجسد معا .

واهل الحقيقة على انه كان بالروح والجسد . ولقد أوقع فى الخلاف اختلاف العقول ، والوقوع فى مصيدة « كيف » .. والتساؤل عن قدرة الله .. ومحاولة اخضاع هذه القدرة لأسبابنا المعتادة أو قوانيننا الحاكمة أو منطقنا البشرى ..

سبحانه وتعالى عن ذلك ..

أيسأل الناس كيف صعد الرسول بالروح والجسد الى قمة القمم فى السماء ثم عاد دون أن يبرد فراشه .. أى معجزة هنا تزيد على معجزة تحوّل النطفة الى انسان . أو معجزة تحول البذرة الى شجرة .. أو معجزة احياء الماء للارض أو ريه للعطش . أو معجزة الحب الذى يربط بين قلبين دون سابق معرفة .

انحنى البراق للنبى فركبه النبى ومعه جبريل ، وانطلق البراق كسهم من الضوء فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجها الى الشمال .

اشار جبريل الى جبل سيناء فتوقف البراق ..

قال جبريل :

ــ فى هذه البقعة المباركة كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام . وعاد البراق ينطلق حتى وصل الى بيت المقدس .

هبط النبى من هذه الطائرة التى تسير أسرع من الضوء ملايين المرات ولا تتحول الى ضوء .

سار النبى مع جبريل ودخل بيت المقدس .

دخل المسجد فوجد كل أنبياء الله ينتظرونه هنــاك . بعث الله صــور انبيائه من الموت وجمعهم فى المسجد الأقصى .

قدم اليه الملائكة اناء فيه لبن واناء فيه خمر فاختار اللبن وشرب .

قيل له : اخترت‌الفطرة وسوف تختار أمتك الفطرة .

التف الأنبياء حول الرسول وحان وقت الصلاة .. تساءل الأنبيــاء بينهم وبين انفسهم : أيهم يكون اماما لهم فى الصلاة .. هل هو آدم أم نوح أم ابراهيم ام موسى أم عيسى ؟ ..

وقال جبريل عليه السلام لمحمد : ان الله يأمرك أن تصلى بالانبياء .

ووقف الرسول ، وصلى بالأنبياء .. كانوا جميعا مسلمين ، وكان هو أول المســلمين ..

من المنطقى ان يكون اماما للأنبياء .. مثلما جاء كتابه مهيمنا على ما سبقه من كتب ..

قرأ لهم القرآن ، وبكى وهو يقرؤه ، وأبكى خشوعه الأنبياء ، وحين ســجد الأنبياء وراء امامهم ، سجدت الأشجار والنجوم ..

انتهت الصلاة فاختفى الأنبياء .. عاد كل نبى الى السماء التى يعيش فيها .. خرج النبى من المسجد مع جبريل فركبا البراق ..

مثل سهم من الضوء ارتفع البراق الى أعلى .. ثم الى أعلى ..

مر على السماء الأولى ، فشاهد النبى آدم ..

ونادى رب العــالمين :

ــ ليرتفع عبــدى أكثر . .

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله ..

تجاوز السماوات سماء سماء ..

تجاوزها مكانا ماديا ، وتجاوزها مكانة روحية .. كان يتهيأ ليقف فى الحضرة الالهية ، وكان يرتفع ويترقى روحيا فى سرعة تقل عنها سرعة البرق .

تجاوز مكانة آدم عليه السلام الروحية فى السماء الأولى .. وتجاوز مكانة يحيى وعيسى ، عليهما السلام ، فى السماء الثانية ، ونادى رب العزة :

ــ ليرتفع عبدى أكثر ..

وارتفع عبد الله ونبيه أكثر وأكثر .. تجاوز السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، وتجاوز الكون كله مادة وروحا وجوهرا وحقيقة وواقعا وحكما وراح يرتفع ..

أخيرا وصل الى سدرة المنتهى ..

وصل الى المكان المقدس الذى يسميه الله تعالى سدرة المنتهى .. وهناك شاهد النبى جنة المأوى ..

وشاهد ما لا نعرف ولا نفهم ولا نتصور ..

ــ **« اذ يغشى السدرة ما يغشى »** [١] ..

لقد وقع لهذا المكان ما وقع له ..

بهذا الجلال الغامض الموحى ، يخبرنا الله عز وجل أن أمورا قد وقعت .. وان كان يخفى عنا كنه ما حدث ..

هذا الذى أخفاه الله علينا .. شاهده الرسول بنفسه .. هو معجزة خاصة به .. هو درجة من درجات الحب لا يكشف الستار عنها ، لارتفاعها عن مستوى الادراك البشرى ..

ونادى رب الجنة والنار :

ــ ليرتفع عبدى أكثر ..

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أكثر .. نظر الى جبريل من خلفه فوجده يقف فى مكانه مسبحا الله .. لم يكن جبريل الآن على صورته البشرية التى شاهده النبى عليها فى الأرض .. عاد الروح الأمين ، عليه السلام ، الى صورته الملائكية التى خلقه الله عليها .. وحدق النبى فى جبريل عليه السلام .. وهو آية الله الكبرى التى وعد الحق أن يريه اياها ..

« ما زاغ البصر وما طغى » [٢] ..

كانت الرؤية بالقلب والعين والحواس المعروفة وغير المعروفة .. كانت رؤية واضحة .. ليس هناك حلم .. ولا استجماع ذهنى لوحدة الوجود .. ولا فترة تألق نفسانى فذ .. ولا تخيل ولا تصور .. ولا جهد ولا قصد ..

لا شىء من هذا كله ، لأن الأمر أبعد وأخطر من هذا كله ..

لقد رأى الرسول بجسده وروحه ..

---

(١) الآية ١٦ سورة النجم مكية .
(٢) الآية ١٧ سورة النجم مكية .

« ما زاغ البصر وما طغى » [1] ..

وعاد النبى يرتفع أكثر .. وأكثر ..

راح يصعد حتى وقف بين يدى جبـــار السماوات والأرض ورحمن الدنيـــا ورحيم الآخرة ..

....

سجد أول المسلمين لرب الكون وهو يقول :

ــ التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله ..

قال الحق عز وجل :

ــ السلام عليك ايها النبى ورحمة الله وبركاته ..

سبحت الملائكة بقولها :

ــ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ..

هذه العبارات هى بداية « التحيات » التى يرددها المسلمون فى صلاتهم كل يوم .. ولقد فرضت الصلاة على المسلمين فى هذا الموقف العظيم .. فرضت فى لحظة ترقى النبى وصـــعوده فى الســـماء صـــــعودا الى الله بالروح ، خمس مرات فى اليوم ..

ومن الشهير عند عامة المسلمين ان الله فرض على النبى خمسين صلاة فى اليوم ، فنزل النبى فلقى موسى فسأله عن عدد الصلوات التى فرضها الله على امته ،فحدثه انها خمسون ، فقال موسى : ان امتك لن تطيق فارجع الى ربك فاسأله أن يخفف عنهم .. وعاد النبى الى ربه فخفف عن أمته عشر صلوات ، وعاد النبى الى موسى ، فعاد يحذره ، فعاد الى الله حتى انتهى الأمر بالصلوات الخمسين الى خمس صلوات .. وللخمس ثواب خمسين ..

وليس لهذه القصة سند فى كتابات العلماء المدققين ..

ونعتقد ــ اعتمادا على الحدس الداخلى ــ ان القصة السابقة من اختراع اليهود الذين اسلموا وملأوا الكتب حكايات خرافية نسبوها الى الرسول .. يؤيد هذا الظن ، اختيار موسى ليكون هو النبى الذى يقترح التخفيف عن امة محمد ، ويكون هو النبى الذى أدرك ما لم يدركه محمد ..

ويدعونا لرفض القصة .. يقين بأن لقاء الحق عز وجل او الوقوف بين يديه سبحانه له من الجلال والمهابة ما يمنع النبى اذا انصرف أن يعود ..

ويقوى ظننا فى نسبة القصة الى اليهود .. انها تحمل نفسية احفاد اليهود الذين أمرهم موسى بذبح بقرة ، فراحوا يعذبونه بكثرة الأسئلة ، وكثرة دعائه لربه وسؤاله اياه ولجوئه اليه ..

ان البناء الداخلى لقصة بقرة اليهود ومفاوضاتهم مع موسى ، يتفق مع البناء

---

(1) الآية ١٧ سورة النجم مكية .

الداخلى لقصة الخمسين صلاة التى تحولت الى خمس صلوات .. مما يوحى أن مؤلف القصة الأخيرة من أحفاد المفاوضين ذوى اللجاجة القديمة ..

القصة لدينا مستبعدة اذن ..

ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى فى رحلته مستبعد هو الآخر ..

كان الموقف مزيجا من الجلال والمهابة والرحمة .. شاهد النبى ورأى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها ، وتفوق كل ما يحيط به فهم الانسان وادراكه ..

ولقد تجاوز السياق القرآنى عامدا ما رآه النبى — لأنه سر بين النبى وربه ، ومعجزة خاصة بالنبى وتكريم لشخصه وحده — تجاوز السياق هذا ليؤكد أنه رأى من آيات ربه الكبرى ..

ونحن لا نعرف ماذا رأى النبى .. كل ما نستطيعه أن نتصور أن النبى سجد خشوعا لربه وبكى من الفرح .. ذهبت أحزان قلبه الى الأبد ، وسكنه عصفور الفرح الأزلى ..

بعد ان رأى النبى السر ..

بعد هذا التشريف والتعظيم ، عاد النبى الى البراق وركبه وانطلق به جبريل عليه السلام عائدا الى الأرض ..

عاد فوجد فراشه لم يبرد بعد .. كيف ذهب وجاء وفراشه لم يبرد بعد .. كم من الوقت استغرقته هذه الرحلة .. الله وحده هو العليم .. كل ما نعرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد الى فراشه بعد الاسراء والمعراج ..

قلبه هو الفرح ..

وصدره يمتلىء بسكينة راضية وفناء فى الله مستطاب ..

....

وجاء الصباح عليه ..

حدث النبى عن رحلته فآمن به من آمن ، وكذبه من كذبه فلم يعبأ ..

عاود النبى كفاحه الصابر لنشر دعوة الله فى الأرض ..

وجاء عليه وقت أدرك فيه ان الدعوة الاسلامية قد حوصرت فى مكة ..

وبدا الموقف متجمدا لغير صالح المسلمين ..

وتحرك الرسول بدعوته خطوة ..

أوحى الله اليه أن يهاجر ..

انتهى الأمر وبدأت رحلة المهاجر الى الله ..

بعد ثلاثة عشر عاما فى مكة ...

يريد الاسلام أن يبنى دولته ويتحول من الحصار والدفاع فى كسر الحصار والهجـــوم ..

وليس كالهجوم وسيلة للدفاع عن النفس والعقائد ..

فى البداية وقع تحول صغير فى موقف المسلمين ..

انكسر الحصار حولهم حين وفدت قبائل من المدينة ودعاها الرســول الى الاسلام فأجابت ، وكان عرب المدينة يجاورون اليهود ويسمعون منهم عن نبى تبشر به صحف التوراة ..

وخرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى موسم الحج ليعرض نفســه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ..

كان عند العقبة .. فلقى جماعة من الخزرج ..

قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج ..

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعـــم ..

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : نعـــم ..

جلســــوا معه فدعـــاهم الى الله . وعرض عليهم الاســـلام ، وتلا عليهم القرآن ..

استمع اليه الرجال الستة صامتين ، فلما انتهى صدقوه وآمنوا به وقبلوا ما عرضه من الاسلام عليهم ، وحدثوه بأنهم تركوا قومهم يخوضون رمال الكراهية والحرب ، فعسى الله أن يجمعهم بهذا الرسول الكريم .. أخبروه انهم سيحدثون قومهم عنه ، ويدعونهم الى ما دعاهم اليه ..

وانصرف الرجال الستة عائدين الى المدينة التى صار من حقها ان تســـمى المدينة المنورة .. كان اســـمها يثرب فى الجـــاهلية ، ثم تغير اســـمها الى المدينة المنورة ..

شاء الله ان ينورها بالاسلام ، وانطلقت الشرارة من مكة المحاصرة ، الى المدينة المنورة ، الطيبة الودود .. ولم يكد الرجال الستة يعودون الى المدينة وهم يحملون الاسلام فى قلوبهم ، حتى دخل الاسلام أكثر من بيت ، واستدار العام ، وأقبل موسم الحج ، وخرج من المدينة اثنـــا عشر رجـــلا ، من الذين اسلموا ـــ فيهم الستة الذين كلمهم الرسول فى الموسم السابق ـــ ولقيهم النبى بالعقبة .. وعقد معهم بيعته على الايمان بالله وحده ، والدفاع عن دعوة الحق وانسانية الانسان .. وعاد الرجال الى المدينة ومعهم أحد الثقـــات الأكفاء من رجال الاسلام .. وهو مصعب بن عمير ، ليكون رسول رسول الله فى المدينة يفقه الناس فى دينهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويدعوهم الى الحق .. وانتشر الاسلام فى المدينة . وبدأ أهل المدينة يتساءلون :

لماذا يستضعف اخواننا المسلمون فى مكة ؟ .. ولماذا يخرج الرسول ليدعو الى الرحمة فلا يتلقى غير الكراهية ؟ .. وحتى متى نترك رسول الله مضطهدا، مطاردا فى جبال مكة ؟ .. وأى خير فينا اذا لم نصنع من جلدنا طريقا يمشى فوقه هنا فى المدينة ؟ ..

وهكذا رحل سبعون رجلا الى مكة ..

سبعون رجلا من أهل المدينة المنورة ..

تسللوا الى العقبة فرادى وجماعات .. اثمر الاسلام ثمرته الأولى فى قلوبهم ، فامتلأت حبا لله ورسوله والمسلمين .. وصار ألم المسلمين يعنيهم على تنائى الأمصار والديار ، ويؤثر فى نفوسهم ويحرمهم نعمة النوم ، ومذاق اللقمة ، ومعنى الحياة ..

جاء هؤلاء الأبرار يبايعون الرسول على الدفاع عنه ونصرته وحمايته والموت فى سبيله ..

جاءوا بعد ان غزا الاسلام قلوبهم ، لا يريدون ان يأخذوا ..

جاءوا يعطون بلا حدود .. ويقدمون بلا تحفظ . ويمنحون كل شىء للدعوة الجديدة ..

جاءوا عاشقين .. والأصل فى العاشق أن يعطى متصورا انه يأخذ ..

تروى كتب السنة المطهرة ما وقع فى بيعة العقبة الكبرى ، فتقول ان العباس ابن عبد المطلب جاء مع النبى ، وهو يومئذ على دين قومه .. أراد أن يحضر أمر ابن اخيه ويستوثق له .. فلما جلس وتكلم قال كلمة تفيد ان محمدا فى عزة من قومه ومنعة فى بلده ، لكنه يأبى الا ان ينحاز لكم ويلحق بكم يا أهل المدينة ، فاذا كنتم ستوفون بعهده وتحمونه فخذوه ، وان خشيتم أن تخذلوه وتسلموه فمن الآن اتركوه فى بلده .

كانت كلمة العباس بن عبد المطلب كلمة تنبعث من منابع العصبية القبلية وروابط الدم الأسرية .. وتجاوز اهل المدينة كلمة العباس ، فهو ليس على دينهم ، ولا يستطيع أن يدرك المدى الذى وصلوا اليه فى حب الرسول .

انتظر العباس بن عبد المطلب جواب أهل المدينة فقالوا له : قد سمعنا ما قلت .. فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك وربك ما أحببت ..

نريد ان نتوقف عند جواب هذه الطليعة المؤمنة من أهل المدينة .. ليتكلم رسول الله .. ان الجواب الذى يبحث عنه العباس بن عبد المطلب كامن فى كلام النبى .. انتهى الأمر ولم يعد لهم بعد كلام رسول الله كلام ..

يكفى أن يتكلم هو .. ليطيعوا هم .. ها هم أولاء يسألونه أن يأخذ لنفسه وربه ما أحب أن يأخذ .. لم يعد لهم فى انفسهم ملك ولا تحكم ..

وتكلم النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ودعا الى الله وتحدث عن الاسلام وبايعهم على ان يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم فبايعوه ..

هكذا تمت بيعة العقبة الكبرى ..

ولقد ادرك هؤلاء المختارون من الله ، انهم سيدعون الى سيوفهم قريبا ،

وسيدعون الى الموت تحت ظلال السيوف .. وطمأنوا الرسول الى انه سيجدهم أبناء الحروب ورثوها كابرا عن كابر ..

وأثار أحد السبعين مسألة هامة .. قال ابو الهيثم : ان بين عرب المدينة واليهود حبالا ، وانهم لقاطعوها ، فما هو الموقف ان فعلوا ذلك وخاصموا اليهود ، ثم نصر الله النبى ، وأظهره على قومه ، فعاد اليهم وتركهم تحت رحمة اليهود ..

لاحظ ان السؤال يلف ويطوف حبا حول النبى .. ورغبة فى بقائه معهم على امتداد الأيام والشهور ..

ان القضية التى طالب العباس بن عبد المطلب بايضاحها ، وهى قضية حمايتهم للنبى ، ليست واردة فى نقاش المختارين من اهل المدينة .. القضية التى يحرصون عليها هى قضية حماية النبى لهم هم ، هى بقاؤه معهم بالمدينة ..

تبسم النبى وقال كلمته التى تضع أواصر العقيدة فوق أواصر الدم ..

قال : بل الدم الدم والهدم الهدم .. أنا منكم وانتم منى .. أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم

انصرف أهل المدينة عائدين الى بلادهم ، وتسربت أنباء هذه البيعة الى رؤساء مكة ومشركيها ، فزادوا من ضغطهم على رسول الله والمسلمين .. واجتمع جبابرة مكة فى دار الندوة ، وقرروا اتخاذ قرار حاسم بشأن النبى ، اقترح أحدهم أن يقيد فى الحديد ، ويلقى فى السجن حتى يموت جوعا .

واقترح احدهم ان ينفى من مكة ويطرد منها وتنفض قريش يدها منه .

واقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل عائلة من عائلات قريش شابا قويا ، ثم يعطوا كل واحد فيهم سيفا باترا ، ثم يضربوه ضربة رجل واحد ، فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ، وعجزت بنو هاشم عن قتال العرب جميعا .. وقبلت فيه الدية ..

أحكمت أطراف المؤامرة ، واتفق على موعد التنفيذ ، وكشف القرآن الكريم تدبير الذين كفروا فى قوله تعالى :

« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » [1] ..

أوحى الله الى نبيه أن يهاجر .. واخذ النبى بأسباب النجاح كلها فى البداية .. كتم أمره فلم يحدث به حتى صاحبه الذى علم انه سيرافقه .. واستأجر عليه الصلاة والسلام دليلا خبيرا يعرف الصحراء مثلما يعرف خطوط كفه .. ومن المدهش ان هذا الدليل كان مشركا .. وهكذا استعان النبى بأهل الكفاية دون نظر الى عقائدهم أو اهتماماتهم ..

وجاءت ليلة تنفيذ الجريمة .. وأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم [على ابن أبى طالب] ان ينام فى فراشه هذه الليلة ، وجاء منتصف الليل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته .

(1) الآية ٣٠ من سورة الانفال مدنية .

كان فتيان مكة يحاصرون البيت ، وقد توشحوا سيوفهم .. وامسك النبى قبضة من التراب ورماها على القوم فنعسوا ، واخترق النبى حصارهم .. خرج من مكة مهاجرا ..

بهذه الخطوة المباركة يؤرخ المسلمون اعوامهم .. السنة فى الاسلام سنة هجرية ..

يؤرخ لعيسى بمولده .. وهذه هى السنة الميلادية ، اما اعوام الاسلام فيؤرخ لها بأول خروج فى سبيل الله ..

واول خروج من مركز الضعف والحصار والاضطهاد .. الى مركز القوة والانتشار والهجوم .. لم تكن هجرة الرسول فرارا من الاضطهاد فحسب ، وانما كانت سأما من التجمد .. لم تكن الهجرة خروجا الى الأمن ، وانما كانت خروجا الى الخطر ، كان الاسلام فى مكة يدافع عن نفسه بمجرد الدفاع ، وحين خرج الى المدينة دافع عن نفسه بالهجوم ..

وطوال الأعوام التى قضاها النبى فى مكة ، لم يحمل أحد المسلمين سلاحا فى سبيل الله ..

وحين خرجوا الى المدينة بدأ حمل السلاح ، وبدأ مد المعارك ، وبدأ الاسلام يحمل السيف مثلما يحمل الجراح مشرطة للشفاء والصحة ..

أدرك النبى أن الاسلام لن يقضى عمره فى صد الهجوم عن نفسه ..

يريد الاسلام أن ينتشر ..

يريد الاسلام أن يؤسس دولته الأولى .. وهى دولة لا نعرف دولة غيرها من دول الأرض بلغت ما بلغته من عدالة ورحمة وواقعية ومثالية وتفان فى الله واحترام للانسان ..

هذا هو عمق الهجرة البعيد ..

تأسيس دولة الاسلام .. بعد بناء الفرد يبنى المسجد ثم تبنى الدولة .. بعدها تنطلق الدعوة ..

لا نحسب القارىء سيسأل : فما بال بناء المساجد يزيد ، وينحسر الاسلام من الأرض ويضطهد .. نحسب القارىء أذكى من أن يجهل أن المسجد الذى خرج الرسول لبنائه فى المدينة لم يكن استراحة من مغارم الحياة ، وانما كان مركزا لقيادة معارك الاسلام ، معركة بعد معركة .. كان الناس يغتسلون فى المساجد بنور الله ، بعدها يغتسلون فى المعارك بدمائهم ..

كان السؤال : أيهم يقتل فى سبيل الله قبل أخيه ؟

وكان السباق بينهم على ذلك ..

بهذا انتشر الاسلام ..

....

لجأ النبى الى كهف فى جبل اسمه ثور ..

دخل الكهف مع صاحبه أبى بكر .. وانطلق المشركون بالسيوف ، وقد اهاجهم افلات الصيد .. فوصلوا الى الجبل .. وقال أبو بكر لصاحبه منزعجا :

ــ لو نظر احدهم تحت قدمه لرآنا ..

رد الرسول مطمئنا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ..

قبل ان ينتهى النبى صلى الله عليه وسلم من كلمته ، كانت العنكبوت قد انتهت من نسج بيتها على باب الغار .. تروى كتب السيرة ان المشركين اقتفوا الاثر حتى اذا بلغوا جبل ثور ، اختلط عليهم الأمر ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال .. وانتصر ايمان نسيج العنكبوت اللين ، على حديد السيوف المصقولة المشركة ، ونجا النبى وصاحبه ..

وحين اطمأن المهاجران الى الله ، الى ان البحث عنهما قد فتر .. خرجا الى المدينة ..

وخرجت المدينة اليهما .. وحين دخل الرسول وصاحبه المدينة ، لم يعرف الناس بادىء ذى بدء أيهما الرسول وأيهما صاحبه .. من فرط تواضع الرسول ، ومعاملته لصاحبه بأخوة الاسلام ..

اخيرا نور النبى المدينة ..

بنى مسجده ، واسس دولته ، وحارب أعداءه ، ونشر الاسلام ، وفتح مكة ، وطهر البيت الحرام ، والقى فى العقول والقلوب نورا لا ينطفىء ..

مرت عليه عشر سنوات لم يسترح فيها يوما فى المدينة ..

ومرت عليه قبلها ثلاثة عشر عاما فى مكة لم يسترح فيها يوما ..

....

....

ان الأثقال الهائلة التى احتملها ظهره الشريف كانت أقوى من احتمال الجبال ، وهو رجل واحد ، لكنه حمل أمانة عرضها الله تعالى فى بدء الخلق على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها .

وجاء هو واحتملها كاملة وأداها كاملة ..

أمانة التبليغ عن الله ، وامانة تنقية العقل البشرى من الأوهام والخرافة ، وامانة السجود لله وحده ..

وانساب فى ذاكرة النبى تيار من الصور الحية وهو يدخل المدينة ..

مر أمام العقل موكب الذكريات ..

ها هو ذا الوحى يتنزل عليه بالرسالة فى غار حراء .. أى خوف مشفق وسلام عميق أحسهما على التعاقب ؟ .. ثم تغير المنظر وهبت زوبعة من الكراهية ، وحملت أيدى الرياح رمالا وشائعات واتهامات والقتها فى وجهه ..

وقف يبتسم بشفتيه وقلبه حزين وسط أمواج الصحراء والوحدة وعواصف الشـــقاء ..

ـــ أيها الناس .. لا اله الا الله وحده ..

قال كلمته ..

رغم بساطة الكلمة ، فقد أثارت عليه الدنيا .. تحركت الأصـــنام العديدة التى تملأ الحياة ، وسلحت نفسها بالظلام والحقد وسارت نحوه ..

الرئاسات والحكام والنقود والذهب والأوضاع السائدة واحقاد الشيطان القديمة وتعدد المنافقين .. صــــار هـــذا كله عدوا للنبى فى اللحظة التى قال فيها لا اله الا الله وحـــده ..

وتذكر ورقة بن نوفل حين حدثه عما وقع له فى غـــار حراء .. الم يقل له ورقة : ان قومك سيخرجونك ..

انسابت أيام الهجرة الطويلة الشاقة .. يوما وراء يوم .. كانت الشمس قريبة من الرؤوس ، والحر قاتلا ، والصداع عظيما ..

ها هو ذا يدخل المدينة بعد الهجرة .. استقبله الأنصار اكرم استقبال .. جاءهم وحيـــدا فنصروه .. خائفا فأمنوه .. جائعـــا فأطعموه .. مطـــاردا فالتفوا حوله ..

وبدأ بناء الاسلام فى المدينة ..

بدأ بناء دولته بعد ان تم بناء انسان هذه الدولة ..

الانسان أولا وبعد ذلك الدولة ..

لا قيمة لنظام يعتمد على المبادىء العظيمة التى لا تزيد عن كونها حبرا على ورق .. ان تطبيق المبادىء هو المعيار النهائى لقيمة أى نظـــام ، ولقد نبع من تطبيق الاسلام فى أيامه الأولى نظـــام لن تعرف البشرية له مثيلا فى العـــدل والاخاء والرحمة .. .. وليس ذنب الاسلام انه انقلب على أيدى الخلف الى رسوم وأشكال زخرفية .. هذا ذنب الخلف وليس ذنب الاسلام ..

كان أول شىء فعله الرسول ان بنى مسجده حيث بركت ناقته ..

جاء المسجد بسيطا غاية البساطة .. فراشه الرمال والحصباء ، وسقفه الجريد وأعمدته جذوع النخل ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وربما هبت الرياح فنزعت جزءا من سقفه .. وقد تفلت القطط والكلاب اليه فتغدو وتروح فيه ..

فى هذا البناء المتواضع ، ربى الرسول رجالا أدبوا الطغاة وكسروا الجبابرة وأعادوا الحقيقة لعرشها المهجور ، ونشروا الاسلام فى الأرض ..

كان المسجد صغيرا فقيرا ، يمتلىء بالعمالقة .. ولم يكن شـــامخا مزخرفا يمتلىء بالأقزام .. كان القرآن يتلى فى المسجد ، فيعتبر من يســـتمعون اليه انهم يتلقون أوامر يومية للتطبيق والتنفيذ ، ولم يكن القرآن يتلى فى المســـجد غناء وتطريبا فيتصايح الجالسون اعجابا بأداء المغنى وصوت القارىء ..

والمسـجد فى الاسـلام ليس هو المكان الوحيد للعبـادة .. الأرض عند المسلمين كلها مسجد .. انما هو رمز لحضارة تؤمن بالله واليوم الآخر ، كما تؤمن بالعلم والحرية والأخوة ..

ولقد تحدث الأنبياء جميعا عن الاخـاء ، ودعوا اليه بآلاف الكلمات .. أما رسول الله ، فقد حقق الاخاء عمليا ، حين صار طبع الناس هو القرآن ..

نزل المهاجرون على الأنصار .. ووقف الأنصار أنبل موقف يمكن للانسان أن يقفه .. ألغيت أخوة الدم ، وأرسيت أخوة العقيدة ..

وراح النبى يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ..

كان نصيب الأنصارى سعد بن الربيع ، أحد أغنياء المدينة ، أن يحظى بأخوة عبد الرحمن بن عوف المهاجر .. قال سعد لعبد الرحمن :

ــ أنا أكثر الأنصار مالا ، وقد قسمت مالى نصـفين لك أحـدهما .. ولى امرأتان فانظر أيتهما تعجبك كى أطلقها فتتزوجها ..

ويرد عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك .. اين سوقكم ؟

ويخرج عبد الرحمن الى السوق ليعمل ، يعود بما يطعم به نفسه ، يرفض سماحة سعد وكرمه ، ويعتمد على ايمانه بالله وساعده وجهده .. ولا تمر أيام الا وهو رجل يكسب ما يستطيع الزواج به .. ويقدم لزوجته نواة من ذهب .

يوما بعد يوم ..

راح المجتمع الاسـلامى يبنى قواعده على قيم العمـل والحب والحـرية والشورى والجهاد ..

ليس العمل فى الاسلام شقاء من أجل رغيف الخبز أو قطعة اللحم كما تقول حضارتنا المعاصرة .. انما يتجاوز العمل فى الاسـلام هذا الاطـار المادى ، مستهدفا ذروة أخرى ..

« وقـل اعملوا فسـيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون » [1] ..

ان الاحساس بأن ما نعمله سيعرض على الله ، يجعل للعمل مذاقا آخر .. مذاقا يتجاوز طعم الخبز واللحم .. بعد العمل .. يجىء الحب ..

والحب فى الاسلام ليس احساسا يستقر فى القلب ، ولا يصدقه العمل .. الحب فى الاسلام خطوة يومية تغير شكل الحياة حول الناس نحو الأرقى والأكرم ..

يحب المسلم خالقه رب العالمين سبحانه ، ويحب رسـول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويحب المسلمين ومن سالمهم ، وان اختلفت عقائدهم معه ، ويحب الوجود والكائنات جميعا .. يحب الأطفـال والحيوانات والزهور والرمـال والجبال .. حتى الجمادات يشيع فى قلب المسلم نحوها احساس بالحب ..

يرث المسلم اذا أسلم حقا ، احسـاس داود بالكون والكائنـات ، هـذا الاحساس الصوفى العميق . ويرث المسلم ، اذا أسلم حقا ، احساس عيسى

---

(1) من الآية ١٠٥ من سورة التوبة مدنية .

بالجوانب الطيبة من الحياة ، فينظر الى جسد كلب مات ، فلا يرى غير بياض أسنانه ..

هذا الحب الذى يشيع فى حياة المسلمين ويتجاوز الناس الى الحيوان والجماد .. هذا الحب لا يتحقق بقرار ، ولا يصدر به قانون ، انما يجىء عادة من اقتناع العقل والقلب بقيادة عظيمة تهوى اليها الأفئدة ، وتقتبس من نورها العقول .. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم هو هذه القيادة العظيمة ..

كان نموذجا ومثالا أعلى وذروة ..

كان اكثر الناس عملا للاسلام ، واقلهم جزاء منه واستفادة .. كان قائدا يعيش فى تواضع أبسط الجنود ، فراشه نظيف ولكنه خشن ، وبيته لا توقد فيه نيران الطهى الا أياما قليلة معدودة كل شهر .. وطعامه الأساسى هو الخبز الجاف بالزيت .. وهمه الأكبر أن ينتشر هدى الاسلام ..

وأدرك المسلمون ان كمال الاسلام لا يتحقق الا اذا صار حب الله ورسوله مقدما على حب الذات والمرأة والمال والولد والمصلحة والسلطان والحياة والآخرين وكل شىء .. وأحب المسلمون قائدهم اكثر مما أحبوا حياتهم ذاتها ..

والى جوار العمل والحب ، اقيمت دولة الاسلام على قواعد الحرية والشورى والجهاد ..

ليست الحرية فى الاسلام حلية تضاف الى جسم الاسلام ، انما هى نسيج الخلايا الحى ذاته .. لقد حرر الله المسلمين من عبادة غيره .. واذن تسقط كل القيود على العقل والقلب والمجتمع .. والمسلم يملك فى الاسلام حرية تتيح له ان ينظر فى كل شىء بعقله ، وان يناقش كل شىء بعقله ، وان يقتنع بما يطمئن به وجدانه ، وليست الحرية فى الاسلام حرية مطلقة تصل الى مشارف الفوضى .. انما هى حرية مسئولة ..

فى نطاق النصوص القاطعة التى وردت فى القرآن أو السنة .. لا حرية أمام المسلم غير حرية السباق حبا نحو التطبيق .. وفيما عدا ذلك ، فالمسلم حر الى ما لا نهاية ، وباب الاجتهاد مفتوح الى ما لا نهاية ، لأن باب الاجتهاد هو العقل .. وقفل باب الاجتهاد يعنى قفل العقول واغلاقها وموتها فى النهاية ..

ولا يقبل الاسلام رجالا ماتت عقولهم أو تحجرت أو تخلفت .. الاسلام أصلا تعامل مباشر مع العقل والقلب ..

اقيمت دولة الاسلام على الشورى .. قال عز وجل :

« **وشاورهم فى الأمر** » [1] ..

والشورى هى الديمقراطية باصطلاحها السياسى الحديث ، ولم يبين الاسلام شكل هذه الديمقراطية أو نوعها أو درجاتها ، ترك هذا كله لعقول المسلمين واعتبارات الزمان والمكان .. نزل الدستور الأساسى وهو القرآن بالشورى ..

---

(1) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران مدنية .

والشورى هى تمثيل الأمة وحكمها لنفسها فى كل منطقة .. باستثناء منطقة النصوص الحاكمة التى نزل بها الوحى أو حدث عنها الرسول .. هذه المنطقة يحكم فيها الله وحده .. وما عداها يحكمها الناس فهم أعرف بشئون دنياهم ومصالحهم واعتبارات الزمان ..

ومع قيمة العمل والحب والحرية والشورى .. تجىء قيمة الجهاد تتويجا لهذا كله ..

والجهاد فى الاسلام نوعان : جهاد اكبر .. وهو جهاد النفس لنوازعها ورغباتها وشهواتها ..

وجهاد أصغر .. وهو جهاد العدو ، والاعداد له ، والتفوق عليه ، والأخذ بالأسباب ..

وتحكم النصوص الالهية الجهادين معا بأن يكونا فى سبيل الله عز وجل ..

ولقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر ثلاثة عشر عاما فى مكة .. وحين انتهى من صنع المسلمين على عينه ، صلى الله عليه وسلم .. بدأ جهاده الأصغر .. ولقد كان جهاده الأصغر سلسلة من المعارك الدامية العظيمة التى انتهت بانتصار الاسلام وانتشاره ..

ولقد كان صعبا على عروش الكراهية المنتشرة فى الجزيرة العربية ان تحتمل دولة الحب والحق التى قامت فى المدينة ..

وهكذا تغير المنظر ، واضطر الرسول الرحيم المسالم الى ان يحمل سيفه ويرتدى درعه ويستعين بالقوة دفاعا عن حق دولة الحب الالهى فى البقاء وسط دول الكراهية العديدة المنتشرة ..

وبدأت المعارك بين المشركين والمؤمنين ..

كان عدد الكافرين والمشركين كبيرا .. وكان الذين آمنوا قلة ، وثار غبار المعارك ، واختلطت الرمال بالعرق بتطاير السهام ، وانعقدت سحائب الموت ، وحطت طيور الرعب ، وسالت الدماء ، وانكسرت أسنان النبى فى احدى المعارك ، وجرح رأسه الشريف فوقف يحارب ودمه ينزف دفاعا عن حق الانسان فى الايمان بالله ..

ورغم كثرة الكافرين وقلة المؤمنين .. انهزمت الكثرة ..

انهزمت طبقا لقانون الهى قديم يقضى بأن يغلب الله تعالى ، ويغلب رسل الله تعالى ، ويغلب اكثر الفريقين ايمانا بالله تعالى ، وأخذا بأسباب النصر ..

ويثبت علماؤنا اليوم ، ان الحروب التى اشتبك فيها الاسلام ، على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، كانت فريضة لحماية الحق ، ورد المظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبابرة ، بعد ذلك كانت حروب الاسلام لتحرير رقاب العبيد والمضطهدين ، وليس يضير الاسلام ان يسخره احد الحكام لارواء شهوة الفتح .. يضير ذلك من استخدم الاسلام ، بدلا من أن يستخدمه الاسلام ..

ذلك ان الاسلام يستخدم الناس حين يستخدمهم ـ لا للفتح المجرد ـ وانما للتحرير الذى ينطوى عليه الفتح .

لا للاستعمار ، وانما للهدى ، لا لاضافة قيود جديدة الى قيود الناس ، وانما لفك قيودهم جميعا .

ذلك كان نوع حروب الاسلام بعد موته صلى الله عليه وسلم .. أما فى حياته ، فقد كانت حروبه كلها ردا للسيوف ان تهوى على رقاب نساء وأطفال ورجال يؤمنون بأحدية الخالق وحب الكائنات ..

ها هى أولى المعارك الفاصلة فى الاسلام ..

معركة « بــدر » ..

ترامت الأنباء الى المدينة بأن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة الى مكة ، تحمل لأهلها ثروة طـائلة .. الف بعـير محملة بالأموال ، يقودها ابو سـفيان بن حرب مع رجـال لا يزيد عددهم عن الاربعين .. اى خسارة تنزل بالمعتدين من اهل مكة لو اسر المسلمون هذه القافلة ؟

خرج أول جيش من جيوش المسلمين .. يقوده محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .. كان عدد الجيش ٣١٧ رجلا ، ستة وثمانين رجلا من المهاجرين ومائتين وواحدا وثلاثين من الأنصار ، وكان بين الأنصار مائة وسبعون من الخزرج ، وواحد وستون من الأوس ..

وكان جيش المسلمين فقيرا يثير فقره الدهشـة ، مجهـدا يثير اجهـاده الاشفاق ، ضعيفا بمقـاييس البشر ، كان كل ثلاثة من المقـاتلين فى جيش المسلمين يتناوبون على بعير واحد يركبونه .. وكانت المسافة بين المدينة وبدر تزيد عن مائتى كيلو متر بطريق القوافل القديم .. وسار هذا الجيش لاعتراض القافلة ، فافلتت القافلة منه .. استطاع ابو سفيان ان يغير طريق قافلته وينجو بها ، وأرسل الى مكة يدعو قريشا الى قتال المسلمين ..

وخرج من مكة جيش يضم الف صنديد من صـناديد قريش .. ورغم ان المسلمين خرجوا لغير هذا الجيش ، فقد احتملوا التحدى ، وساروا للقتال .. قال تعـالى فى سورة [الأنفال] :

« واذ يعدكم الله احـدى الطائفتين انها لـكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لـكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلمـاته ويقطع دابر الكافرين » [1] ..

كان المسلمون ، لفقرهم وحاجتهم وظروفهم الاقتصادية القاسية ، يودون ان يلتقوا بغير ذات الشوكة ، يودون أن يلتقوا بالقافلة الغنية لا الجيش المدجج بالسـلاح .. كانوا فى حاجة الى المـال لنشر دعوتهم ، وأراد الله بوضعهم وجها لوجه أمام جيش الكافرين ، أن يقطع دابر الكافرين ويحق الحق ..

خرج المسلمون فى معركة بدر ، تحت تصور انهم فى طريقهم لنزهة حربية تسفر عن ضربة اقتصادية خاطفة تنزل بمكة وتثرى المدينة .. فأراد الله ان تكون معركة شاقة تسـفر عن تطهير مكة من رؤوس الكفر فيهـا ، ولتحتمل المدينة فقرها ، فليس الاسلام مغانم ، انما هو مغارم ، ليس أخـذا وانما هو عطـاء ..

---

(١) الآية ٧ سورة الانفال مدنية .

ولقد أدرك النبى ــ كقائد عسـكرى ــ ان عليه ان ينبه جيشـه الى ان ما سيلقاه من مشقة وعنت ، لا يشبه الأمر اليسير الذى خرج من أجله ..

واستشار النبى ، صلى الله عليه وسلم الناس ..

وتحدث ابو بكر الصديق .. وتحدث عمر .. وتحدث المقداد بن عمرو .. واتفقت أقوالهم على المضى فى القتال .. مهما تكن النتائج أو التضحيات ..

وعاد الرسول يقول : أيها الناس .. اشيروا على .

كان الرسول يقصد الأنصار .. كان يخشى أن يكونوا قد فهموا البيعة بينه وبينهم على حمايته اذا هوجم فى المدينة فقط .. ولقد كانت نصـوص البيعة فعلا تؤيد ذلك ..

الم يقولوا له : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك [لسنا مسئولين عنك] حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا ، فأنت فى ذمتنا » ..

وكان معظم الجيش من الانصار .. وأراد الرسـول ان يعرف قرار أغلبية الجند قبل بدء المعركة ..

وادرك الانصار أن الرسول يريد راى الأنصار .. قال سـعد بن عوف : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله .. قال النبى : نعـم ..

وتحدث الأنصـار ..

ذهبت مخاوف النبى بعد حديثهم وأشرق وجهه .. لقد رباهم على الاسلام ، والاسلام لا يعرف نصوص المعاهدات ، وانما يغوص لروحها وعمقها البعيد .. أفهم الأنصار النبى انهم يؤمنون به ويحبونه ويسمعون له ويطيعون ..

قال سعد بن معاذ : امض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك .. فو الذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضـناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ..

انتهى الأمر .. وحسمت هـذه الكلمات مصـير معركة من اخطر معارك الاسـلام ..

لقد كان شعور الأنصار والمهاجرين فى جيش الرسـول يختلف تماما عن شعور موسى حين قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ..

كان شعور المسلمين أن الرسول لو أمرهم باجتياز البحر سيرا على أمواجه لفعلوا وغرقوا وماتوا ، ما تخلف منهم رجل واحد ..

انتهى الأمر وتأهب المسلمون لخوض المعركة .. وعسكروا فى مكان وقع عليه اختيار الرسول ..

وقد ترك الله عز وجل رسوله يخطىء فى اختيار المكان ليشرع للمسـلمين قاعدة هامة من قواعد القتال ، وهى نزول قائد الجيش على رأى الخبرة ..

جاء الحباب بن المنذر الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسـأله : اهذا الموقع الذى نعسكر فيه اختيار من الله ورسوله ، وليس لنا أن نتقدم عنه ولا نتأخر ؟ .. أم ان الأمر هو أمر الراى والحرب والمكيدة ؟

قال الرسول : بل هو الراى والحرب والمكيدة ..
قال الحبـــاب : يا رسول الله .. ان هذا ليس بموقع ..
واختار الخبير موقعا يشرب فيه جيش المدينة ولا يشرب جيش مكة ..
وتحول الجيش الى الموقع الذى حددته الخبرة العسكرية ..

ووصـــل جيش مكة .. كان عـــدده يقترب من ألف جندى يواجهون ٣١٧ مســـلما ..

وعسكر جيش قريش فى العدوة القصوى من الوادى ..

كان جيش الكافرين فى بدر يضم سادة قريش وأبطـــالها وفلذات اكبـــادها المحـــاربين ..

وكان جيش المسلمين فى بدر يضـــم أقارب وأصهارا لجيش العدو .. ولقد قدر الله تعالى أن يلتقى الابن بأبيـــه .. والأخ بأخيـــه .. وزوج الابنة بوالد زوجته ، فصلت بينهم المبادىء ، فحكمت بينهم السيوف ..

انتهى الأمر وشيعت معركة بدر اخوة الدم الى مثواها الأخير ، وارست قاعدة رئيسية وهامة هى أخوة العقيدة الاسلامية ..

وعلى حين كان جيش المسلمين متماسكا يلتئم جسده على روح الاسلام ، كان جيش الـــكافرين منشـــقا على نفسه ، وان أخفى انشـــــقاقه بادعـــاء الشجاعة ..

وقف عتبة بن ربيعة خطيبا فى جيش مكة يدعو الى الانسحاب قائلا بتحكيم العقـــل :

ـــ يا معشر قريش .. انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصـــحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه ، لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه لأنه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب .. فان أصابوه فذلك الذى أردتم .. وان كان غير ذلك ألفاكم سالمتموه .

كانت هذه الكلمات العاقلة الحكيمة أول شرخ فى جيش مكة .. ان عددا من الجيش كان مقتنعا بانعدام جدوى المعركة ، ولن يكون قتال هؤلاء قتـــالا حقيقيا .. واخمدت أصوات السفه هذه الكلمة العـــاقلة .. واتهم ابو جهـــل قائلها بالخوف .. وأثار باتهامه حماس القائل فرجع عن رأيه وقرر قتـــال المسلمين ..

ولقـــد كان قائد الجيش المهـــاجم .. وهو ابو جهـــل .. يعلم ان محمدا لا يكذب ..

تروى كتب المؤرخين ان الأخنس بن شريف خلا بأبى جهل فى بدر قبل نشوب المعركة وســـأله :

ـــ يا أبا الحكم .. اترى محمدا يكذب ؟

قال ابو جهل : كيف يكذب على الله ، وقـــد كنا نســـميه الأمين ، ولكن اذا اجتمعت فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة والحجابة والمشـــورة ، ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شىء بقى لنا ؟

ليست الحرب تكذيبا للرسول ، وانما هى حماية للمصالح الحاكمة والوضع الاقتصــــادى ..

وهكذا وقف الكافرون يدافعون عن أدنى قيم الأرض التى تشترك معهم فيها الدواب ، ووقف المسلمون يدافعون عن أرفع قيم الأرض والسماء التى تشترك معهم فيها الملائكة ..

وجاء الليل على الجيشين ..

ثلاثمائة جندى مؤمن على التقريب فى مواجهة الف جندى مشرك ..

كل المشركين جاءوا راكبين مسلحين .. وكل ثلاثة مســـلمين جاءوا على دابة ..

ثياب المشركين جديدة وسيوفهم مصقولة ودروعهم تلمع وتسليحهم متفوق وعتادهم هائل ، وثياب المســـلمين بالية وســـيوفهم قديمة ودروعهم ليست ســـابغة ..

نظر النبى الى جيشه فرق قلبه لمرأى الجيش ودعا ربه بقوله :

ـــ اللهم انهم جياع فأشبعهم ، اللهم انهم حفاة فاحملهم ، اللهم انهم عراة فاكســـهم ..

وتسلل النوم الى الجفون يحمل الراحة للأجساد المتعبة .. وتســـاقط أثناء الليل مطر خفيف رطب الجو حول المسلمين ، وتماسك الرمل تحت أقدامهم ، وصارت حركتهم عليه ميسرة ، وغسل المطر الخفيف تراب السفر وغبار التعب وطهر القلوب وربط عليها بالثقة فى نصر الله .

قال تعـــالى :

« اذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنـــكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبـــكم ويثبت به الأقـــدام » [1] ..

وجاء الصباح على بدر .. بـــدأ جيش قريش بالهجوم .. وأمر النبى جيش المسلمين بالدفاع ..

قال صلى الله عليه وسلم : « ان اكتنفكم القوم فانضـــحوهم عنكم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » ..

كان هذا القرار العسكرى الحكيم يعنى ان يتحصن المسلمون فى أماكنهم ، لتحميل المشركين عبء الهجوم بخســـائره المتوقعة ، ونحن نعـــلم من العلوم العسكرية اليوم ، ان المهاجم يحتاج عادة الى ثلاثة او اربعة أضـــعاف العدد الثابت المحصن الذى يهاجمه ليكون هجومه فعالا .. ولقد كان جيش المشركين ثلاثة جنود مقـــابل كل جندى مســـلم .. العدد المطلوب للنصر عند المشركين موجود ، وتسليح المشركين أفضل من تسليح المسلمين ، وعدد المطـــايا التى يركبها المشركون هى نفسها عددهم ، وثلثـــا الجيش الاســـلامى يحارب على

---

(1) الآية ١١ سورة الانفال مدنية .

اقدامه ، الموقف فى صالح المشركين تماما ، والنذر والدلائل كلها تعقد النصر للواء المشركين ، غير ان كسب الحروب ليس رهنـا بضـخامة العدد وتفوق التسليح والقوة الظاهرة .. أحيانا يكسب المعركة عنصر معنوى غير مرئى ، ان روح الجندى المعنوية ، وايمانه بالقضـية التى يدافع عنهـا ، ورغبته فى احدى الحسنيين ، النصر أو الموت ، وتهافته على الشـهادة ، وهزيمته لروح الخـوف داخله .. هـذا كله يمكن أن يحول الجندى الى مخلوق غير قابل للهزيمة ..

قابل للموت .. وان استعصى على الهزيمة ..

وكذلك كان جيش المسلمين ..

انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين .. وبـذل المسـلمون جهدا فوق طاقة البشر .. وحين التحم الجيشان ونظر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فرأى جيشه يذوب بعدده القليل وسط السلاح الكافر .. عندئذ استغاث النبى ربه :

اللهم نصرك .. اللهم انجز لى ما وعدتنى ..

اللهم ان تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها فى الأرض ..

تأمل هموم النبى ساعة المعركة تفهم لماذا انتصر جيشه ..

ان قائد الجيش الأعلى ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، خرج يقاتل فى سبيل الله ..

وها هو ذا الموت يحـدق بالمسـلمين .. فيم يفكر النبى فى هـذا الموقف العصيب ؟ .. ان تفكيره يتعدى الحاضر ويتجاوزه الى المستقبل ، ليتوقف عند شىء واحد .. ان يعبد الله فى الأرض : « اللهم أن تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها فى الأرض » ..

ليس النبى مشفقا على هلاك المسلمين وهلاكه ، لأنهم سيخسرون الحياة ، انما هو مشفق أعظم الاشفاق ، خائف اشد الخوف الا يعبد الله تعـالى بعدها فى الأرض .. وكأن الرسول يستغيث به ، محاولا تذكير ربه سبحانه وتعالى بما الله أعلم به ..

عند هذه الدرجة من درجات التجرد ..

تنزل الملائكة يقودها جبريل عليه السلام .

قال تعالى فى سورة [الانفال] :

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممـدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم » . [1]

اغمض النبى لحظة فى عريشه الذى يقود منه المعـركة ثم انتبـه يقول لابى بكر :

---

(1) الآيتان ٩ ، ١٠ سورة الأنفال مدنية .

ـــ أبشر يا أبا بكر .. أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياالنقع .

كان نزول الملائكة تثبيتا للمسلمين وبشرى لهم . ولم يــكن معجــزة تعنى اشتراك الملائكة فى القتال .

تؤكد النصوص أن دور الملائكة لم يزد عن دور البشارة والتــأييد المعنوى وملء القلوب بالطمأنينة . ونحسب أن الله عز وجل اراد أن يشهد ملائكة الله ملائكة البشر وهم يدافعون عن عقيدة التوحيد . وهكذا أوحى الله الى الملائــكة انه معهم ، فليثبتوا الذين آمنوا اذن ، وسوف يلقى الحق فى قلوب الذين كفروا الرعب . فليضرب المسلمون فوق الأعناق والأيدى . ولينتصروا لله .
قال تعالى فى سورة [الانفال] :

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ،سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار[١]

وتساقطت سيوف الاسلام كالمطر على وجوه الكافرين ورقابهم ..وانكسر جيش مكة ، وبدأ الرعب يسلم الاقدام للرياح .

وانجلت المعركة عن سبعين قتيلا من الكافرين ، وسبعين أســيرا منهــم ، وفرار بقية الجيش ..

سقط سادة البغضاء وملوك الظلام فى المعركة . ســقط ابو جهل قائد الجيش ، وأصيبت مكة فى أبطالها اصابة قاتلة . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جثث القتلى من الكافرين بعد أن طرحوا فى القليب يقول :

ـــ يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام . هل وجدتم ما وعد ربكم حقا . فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا .

قال المسلمون : يارسول الله . اتنادى قوما جيفوا .

قال : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

وانتهى يوم السابع عشر من رمضان لسنتين خلتا من الهجرة .

مكث النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال فى بدر .. ثم قفل عائدا الى المدينة ، يسوق أمامه الأسرى والغنائم .

وحوسب المسلمون حسابا عسيرا على ابقائهم على حياة الأسرى .

فى البدء استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا بكر وعمر ..

قال ابو بكر : يارسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان . وانى أرى أن تأخذ منهم الفدية . فيكون ما اخذناه قوة لنا على الكفار . وعسى الله ان يهديهم فيكونوا لنا عضدا .

---

(١) الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ سورة الانفال مدنية .

والتفت الرسول الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قائلا :

ــ ما ترى يا ابن الخطاب .

قال الرجل العظيم : والله ما أرى ما رأى ابو بكر . ولكن أرى أن تمكنني من قريب لى فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من قريبه فيضرب عنقه . وتمكن حمزة من قريبه فيضرب عنقه .. حتى يعلم الله انه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين . وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

كان جيش المدينة وجيش مكة يضمان عائلات تربط بينها القرابة وشاءت الأقدار العليا أن يقع القتل بين الأخ وأخيه ، والابن ووالده .. وكان عمر يريد أن يستمر هذاالحسم ليعلم المشركون أن الاسلام لن يعود الى المهادنة او السلام .

انتهى الأمر ونشبت الحرب فى سبيل الله .. وصار حمل السلاح والقتال واجبا لا تردد فيه ولا رجوع عنه .

والتفت النبى الى المسلمين فوجدهم يميلون الى راى ابى بكر ، وكان يمثل الأغلبية .. ونزل النبى صلى الله عليه وسلم على راى الأغلبية .. وكانت الاغلبية على الخطأ .. وكان عمر وحده على الحق ..

أدرك عمر ببصيرته كجندى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ادرك بنظرته الاستراتيجية البعيدة ، ان الموقف ليس موقف مفاضلة بين رقاب الأسرى وثرواتهم التى يمكن لأهلهم ان يفتدوهم بها ..

ادرك أن الموقف يتجاوز هذا بكثير .

هذه أول معركة يخوضها الاسلام ، وينبغى على المسلمين أن يتجردوا فيها من كل الدوافع الانسانية ، باستثناء القاء الرعب فى قلوب الكافرين .. أى قتلهم جميعا ، ليعلم أعداء الله أن الاسلام قد اختار الدم .

ولقد أيد الله تعالى عمر بن الخطاب فى محكم كتابه ، وبكى النبى وبكى أبو بكر حين أدركا خطأهما فى اليوم التالى . ودخل عليهما عمر بن الخطاب فرآهما يبكيان وتساءل : ما الذى يبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار ؟.

وتلا عليه الرسول تنزيل الحق عز وجل :

« ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . [1]

تقول الآيتان أن هذا ليس أوان الاحتفاظ بالأسرى وافتدائهم، لم يحن الوقت لذلك بعد. لا يصح أن يكون للنبى اسرى الا اذا حارب كثيرا وجاهد كثيرا وقاتل كثيرا واثخن فى الأرض واستقرت دعوته .. أما فى بداية الحرب فلا ..

كشفت الآيتان عن الهدف من وراء افتداء الأسرى صراحة بقول الحق

---

(1) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ سورة الأنفال مدنية .

عز وجل : ((**تريدون عرض الدنيا .. والله يريد الآخرة**)) [١] .

هذا تفكير ينظر للظروف الحالية الصعبة فحسب ، هو تفكير تكتيكى كما نقول بالاصطلاح الحديث ، وليس تفكيرا استراتيجيا . ثم ان هؤلاء الأسرى ليسوا أسرى عاديين ، وانما بالاصطلاح الحديث مجرمو حرب عتاة .. ينبغى ازهاق أرواحهم عند التمكن من رقابهم ، وليكن ما يكون من ثرائهم أو جاههم .. ان الاسلام لا يعترف بالثراء أو الجاه .. لا يعترف الاسلام الا بالايمان ، ولا يقيم وزنا لما عداه من قيم دنيوية زائلة .

ويمضى النص القرآنى فينبه المنتصرين الى أن خطأهم يستحق عقوبة سامح الله فيها لسبق رحمته وعظيم غفرانه .

((**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**)) [٢] .

كان العذاب أقرب اليهم من هذه الشجرة القريبة .. ثم سامح الله وعفا .. اطلع على أهل بدر فغفر لهم ما تأخر وما تقدم من ذنوبهم .

وكذلك كان القرآن يربى المسلمين على التجرد .. انتهى الأمر وبدأ الاسلام حروبه .. وهى حروب ينبغى أن تتجرد لله عز وجل وحده ، وينبغى أن ترتفع على دواعى اللحظات الصعبة ومقتضيات الحاضر البائس ولسوف يعلم أتباع النبى فيما بعد أن أى ميل من جانبهم لأعراض الدنيا الزائلة ، يعنى وقوع العقوبة والهزيمة بهم .

فى معركة أحد .. كان عدد المشركين ثلاثة آلاف .. وكان عدد المسلمين سبعمائة بعد أن انسحب منهم رأس النفاق عبد الله بن أبى .. وعسكر المسلمون جاعلين ظهرهم الى الجبل . ورسم النبى صلى الله عليه وسلم خطة لكسب المعركة ، نوزع الرماة لحماية ظهر المسلمين ووضعهم على الجبل .. وأمرهم ان يدفعوا الخيل عن جيش المسلمين بالسهام ، حتى لا يهاجم المسلمون من الخلف .. وأفهم الرسول هؤلاء الرماة أن يثبتوا فى أماكنهم مهما يكن سير المعركة ، ليكن النصر أو الهزيمة للمسلمين . هذا أمر لا يعنى الرماة . عليهم أن يلزموا أماكنهم لتأمين ظهر المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : « احموا ظهورنا . ان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا . وان رأيتمونا نغنم فلا تشركونا » .

بعد هذا التأمين الحكيم لظهر الجيش ، انصرف النبى الى مقدمة جيشه ، وبدأ يرسم لقلب الهجوم مهمته وأسلوبه وواجباته .

وبدأت الحرب .

واندفع جند الاسلام كاعصار يخترق قلب ثلاثة آلاف مشرك .

واظهرت المراحل الاولى من سير القتال اكتساح المسلمين للمشركين . قاتل جيش مكة قتالا يائسا ، وكان متفوقا فى العدد أربعة أضعاف ، ورغم التفوق العددى والتسليح ، فوجىء الجيش بأن المسلمين يقاتلون قتالا لا سبيل معه لنصر أو صمود أمامهم .

---

(١) من الآية ٦٧ سورة الانفال مدنية .

(٢) الآية ٦٨ من نفس السورة .

وبدأ غبار المعركة يسفر عن تمزق جيش مكة وبداية فراره .

وفكر الرماة الذين وضعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغنائم .. لقد انهزم جيش مكة وبدأ يعطى ظهره للمسلمين ويعدو .. ماذا لو نزل الرماة من أماكنهم لجمع الاسلاب والغنائم .. لقد حذرهم الرسول من مغادرة أماكنهم مهما تكن الأسباب . وعصى الرماة القائد الأعلى بعد أن تصوروا ان المعركة قد انتهت لصالح جيش المدينة المؤمن .

ظن الرماة أن الله سيستر خطاهم ويحمى ظهورهم حتى ينتهوا من أخذ الأسلاب والغنائم .

انسحب التجرد من قلوب بعض الجنود ..

لم يكد هذا الأمر يقع .. حتى وقع تحول خاطف فى سير المعركة .

كان قائد فرسان المشركين فى معركة أحد هو خالد بن الوليد .. سيف الله العظيم فيما بعد .. واحد المسلمين الكبار فيما بعد .. وخالد بن الوليد عبقرية عسكرية من نوع نادر .. لم يكد يلاحظ نزول الرماة من أماكنهم ، حتى رأى ظهر المسلمين مكشوفا فاستدار بالخيل وانحدر على المسلمين من حيث لا يتوقعون .

وانحدرت ضربة خالد عنيفة مفاجئة . واغتنم المشركون الفرصة فانكفأوا من الفرار الى الهجوم . وحوصر جيش المسلمين بين فرسان يضربونه فى ظهره .. وفرسان يضربونه فى صدره .

وارتفع عدد القتلى فى جيش محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

استشهد كثيرون وهم يدافعون عن النبى ويحاولون حمايته . وأصيب النبى فانكسر أنفه وتحطمت رباعيته . وأصاب رأسه الشريف جرح فتفجر منه الدم .. وانطلقت الشائعات بأن محمدا قتل .. واثقل أيدى المسلمين حزن غامر لما يسمعونه .. وتفرق المسلمون فعاد بعضهم الى المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل وثبت حول النبى أكرم جنده .. وصرخ أنس بن النضر حين سمع عن موت النبى قائلا لقومه : قوموا فموتوا على ما مات عليه .. ما تصنعون بالحياة بعده .

وراح جيش المسلمين يتماسك ويقاتل .. واشتد ضغط المشركين على النبى وصحابته وجنده . ومرت ساعات من أحرج ساعات التاريخ .. وصاح النبى وهو يرى انحدار المشركين عليه وإرهاقهم له ومحاولاتهم قتله :

ـ من يردهم عنى وله الجنة .

والتف المسلمون حول رسولهم واستشهد منهم خلق كثير ، وصنع أبو دجانة من ظهره درعا يقى بها ظهر النبى صلى الله عليه وسلم .. فكانت السهام تقع فى جسده وهو ثابت يدافع عن الرسول .

وانقلب الموقف نتيجة لهذا القتال الباسل الذى أداره المسلمون . واكتفى جيش مكة بما حصل عليه وآثر الانسحاب ، ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال هذا اليوم .

أسفرت المعركة عن انسحاب المشركين بعد أن قتلوا عديدا من المسلمين وجرحوا قائد الجيش الأعلى صلى الله عليه وسلم .

وقع هذا كله بسبب خطأ واحد .

تمثل هذا الخطأ فى عصيان الرماة لأمر الرسول ، ومغادرتهم لأماكنهم .

حين قلت نسبة التجرد والفداء فى قلوب المسلمين .. دفع أشجع الرجال وافضلهم من دمائهم ثمن هذا الخطأ .

لم تحاب السماء احدا من المسلمين . لم تتدخل السماء لانقاذ ظهر الجيش الاسلامى المكشوف .

اخطأ المسلمون فدفع رسولهم ثمن خطئهم .

اصيب فى وجهه ، ونزف الدم بغزارة من جراحه ، كلما سكب المـاء على الجرح ازداد تدفقا . .لميتوقف النزيف الا بعد أن احرقت قطعة من حصـير فألصقت به .

لم تكن كل جراح النبى مادية ..

زادت الجراح المعنوية فى ألمه صلى الله عليه وسلم .

اصيب فى أعز أهله الى قلبه ، استشهد عمه حمزة وجاءت امرأة أبى سفيان فشقت بطنه واستخرجت كبده ومضغتها بفمها ..

مثلت قريش بجيش المسلمين .. وأصابت منهم ما تحب ، ولولا رحمة الله تعالى لانهزم المسلمون .

ونزلت آيات الكتاب الحكيم تربى المسلمين على التجرد المطلق والاخلاص الكامل ، وتفهمهم أن هزيمتهم نبعت لأن جيشهم كان يضم من يريد الدنيـا ، رغم أن فيه من يريد الآخرة ، وليس هذا هو الطريق للنصر .. ليس هـذا هو الأمل المتوقع من جيش المسلمين ، المفروض أن يتجرد الجيش كله لله ، أن يريد كله الآخرة .. ساعتها يؤتيه الله ثواب الدنيا والآخرة .

قال تعالى تعليقا على معركة أحد فى سورة [آل عمران] ،

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » . [1]

عفا الله تعالى عن الخطأ .. واستدار المسلمون يحصون قتلاهم ويضمدون جراحهم ..

وتساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمه حمزه .. فلما رآه فى القتلى وقد مثل الكافرون بجسده ، قال وهو يبكى : لن اصاب بمثلك أبدا ..

ثم وقف صلى الله عليه وسلم وأثنى على ربه عز وجل . وأمر برد القتلى من المسلمين الى مضاجعهم التى قتلوا فيها ، وكان أهلهم قد حمـلوهم الى المقابر .. وراح النبى يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » فى ثوب واحد .

---

(1) من الآية ١٥٢ سورة آل عمران مدنية .

ثم يسأل أيهما اكثر أخذا للقرآن .. فاذا أشير الى أحدهما قدمه فى اللحد .. وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلهم .

وأراه الله تعالى كيف يبعثون يوم القيامة ، فحدث الناس قائلا :

— ما من جريح فى سبيل الله الا والله يبعثه يوم القيامة ينزف جرحه . اللون لون الدم . والريح ريح المسك .

لم يكن الألم العميق هو الدرس الذى وعاه المسلمون من معركة احد . جزاء سريعا لعصيانهم أمر الرسول وعدم طاعته .. انما تنزل الوحى ببقية الدروس المستفادة ، وكان اخطر هذه الدروس بعد درس الطاعة ، هو بيان المركز الذى يجتمع حوله المسلمون ..

ليس شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المركز الذى يجتمع المسلمون حوله ، فاذا رحل شخصه الكريم لسبب من الأسباب انفض المسلمون وانصرفوا .

لا ينبغى أن يكون «شخص» الرسول هو المركز ، انما « فكره » هو الأهم والأخطر .

وهكذا عاتب القرآن الكريم من القى سلاحه حين انتشرت شائعة قتل النبى صلى الله عليه وسلم . ان الاسلام لا يبلغ منتهاه اذا كان المسلمون سيتجمعون حول الرسول فى حياته ، فاذا مات أو قتل انقلب كل واحد يرمى سلاحه وينصرف لشأنه . المسلمون اتباع مبادىء ، لا اتباع اشخاص . وليكن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد البشر وامام المرسلين وخاتم النبيين وخير خلق الله .. ليكن هذا كله واكثر . لا يبرر هذا كله أن يرمى المسلم سلاحه اذا مات الرسول او قتل . على المسلم أن يحمل سلاحه فلا يرميه من يده الا فى حالة واحدة من اثنتين .. ان ينتصر أو يموت .

قبلها .. لا يكون القاؤه للسلاح الا فرارا من المعركة ..

كان النص القرآنى واضحا اعظم الوضوح فى ربط المسلمين بعقيدة الاسلام لا شخص الرسول . قال تعالى تعقيبا على معركة احد :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . [سورة آل عمران] [1]

. . . .

مضت معركة احد بجراحها الفائرة ، بعد أن تركت آثارا عميقة فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم .. وهى آثار لازمته الى آخر عهده بالدنيا . ففى الاحضان القاسية لجبل « أحد » الذى يحرس المدينة ، أودع الرسول اعظم رجال الاسلام وأقربهم من قلبه . كان قتلى احد هم خلاصة المسلمين واكثرهم ايمانا ، كانوا هم صفوة الصفوة من المسلمين الأوائل ، حملوا اعباء الدعوة أيام الوحشة الأولى ، وعادوا فى سبيل الله الاقرباء والاصدقاء ، واغتربوا

---

(١) الآية ١٤٤ سورة آل عمران مدنية .

بعقائدهم قبل الهجرة وبعدها ، وانفقوا وقاتلوا ، وصبروا وصابروا ، وحين جاءت لحظة الخطر الكبرى وأحيط بجيش الاسلام واقتربت السيوف من رسول الله .. صنعوا من دمائهم بحرا أغرق الكافرين وحمى الرسول وغير مجرى المعركة وأنقذ عقيدة التوحيد .

ولم تكن معركة أحد هى أول تضحيات المسلمين ولا آخر معاركهم .. هى معركة واحدة من المعارك العديدة التى خاضها الاسلام لنشر كلمة الله فى الأرض ، وتبليغ عباده .

ولم تكن تضحيات الرسول فى معركة أحد هى أول تضحياته للاسلام ولا آخرها . فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثه الى الناس حياة لا يملك فيها نفسه ، ولا يملك فيها وقته ، ولا يملك فيها راحته ، عاش يعطى كل شىء للدعوة .. حارب كل أنواع الحروب ، واحتمل كل الوان الاحتمال ، وقاسى العذاب اشكالا وصنوفا ، ولم يكن يفرغ من مشكلة الا ليواجه أخرى ، ولم يكن ينتهى من حل أزمة الا ليواجه أزمة أخرى .. وهيمن الصراع على حياته صلى الله عليه وسلم ، وحكمها منذ البداية الى النهاية ..

تأمل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أى زاوية تحبها ، ابدأ دراسته من أى مستوى تختاره . لن تعثر الا على قصة صراع عظيم .

خاض النبى صراعه العسكرى الممثل فى عديد من المعارك المتشابكة المتلاحقة ، وخاض النبى صراعه السياسى الممثل فى المعاهدات ورسائله لدعوة الملوك والاباطرة ورؤساء الدول حوله الى الاسلام ، وخاض صراعه على المستوى النفسى ومعارك الأعصاب ، ولم تخل حياته الخاصة ولا بيته من الصراع ، وكان المحارب فى كل وقت وأى وقت . كان ابراهيم هو المسافر دائما الى الله ، وكان محمد هو المحارب دائما فى الله .

لم تكد معركة أحد تنتهى حتى بدأت آثارها السيئة على المسلمين .

تجرأ أعراب البادية عليهم ، وتجرأ اليهود عليهم ، وتجرأ المنافقون عليهم . وتجرأت قريش عليهم ، وأطلت المخالب التى كانت تخبىء نصالها وراء حرير القفاز .. ونشط النبى لخوض معاركه العسكرية .

واقبلت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لم يبرأوا بعد من جراحهم فى أحد ، وحملت الرياح انباء عن استعداد قبيلة بنى أسد لغزو المدينة ، وباغتهم جيش صغير ارسله النبى لديارهم قبل ان يتحركوا . ايضا وضع الاسلام حدا لحياة رجل كان يحشد الأعراب لحرب المسلمين . ورغم ان الاسلام كان يرفع سيفه تحت ضوء الشمس ، ويقاتل به فى وضوح النهار وبشرف ، رغم ذلك تعرض المسلمون لحملة اغتيالات كانت تطعن فى الظهر بخسة ، وتدارى اثمها الغادر بابتسامات النفاق .

جاء وفد من قبائل الأعراب الى الرسول يحدثه انهم سمعوا عن الاسلام ويريدون اعتناقه فليرسل معهم عددا من الدعاة لتعليمهم أصول الدين ، وارسل النبى معهم مجموعة من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت ، ووثب الغادرون على رجال الدعوة فقتلوهم ، واستسلم للاسر منهم ثلاثة ، فبيعوا فى مكة ، وكان بيعهم فى مكة يعنى تسليمهم للقتلة المتربصين بهم من قريش ..

وقتلت مكة الأسرى الثلاثة . وحزن المسلمون لمصرع رجال الله على هذا النحو الفاجع . وحين جاء الى النبى من يعرض عليه أن يرسل وفدا من الدعاة لنشر الاسلام بين قبائل نجد ، وازن النبى صلى الله عليه وسلم بين عوامل الحذر والرغبة فى نشر الاسلام ، واختار نشر الاسلام ، مدركا أنه يبعث رجاله الى الخطر ، ويعرضهم لمصير مجهول لا يدريه الا الله .. الا ان الخطر صار جزءا من مذاق الحياة الذى تعيشه الدعوة الاسلامية ، وحين أبدى النبى خشيته على رجال الله وسط قبائل لا يؤمن جانبها ، طمأنه السائل أنه سيجيرهم . وامر النبى سبعين من خيرة رجاله بالخروج فى سبيل الله والدعوة الى الاسلام .

وخرج من يعرفون باسم « القراء » ، هم دعاة من خيرة الدعاة الى الله ، عاشوا حياتهم يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، فلما جاءهم أمر الرسول بالخروج خرجوا مستبشرين أنهم يدعون الى الجهاد فى سبيل الله .. وحثوا الخطى الواثقة فى أرض المنافقين والغادرين حتى وصلوا بئرمعونة .. وبعثوا أحدهم الى رأس الكفر فى هذه البقاع .. ومد الداعية الى الله يده بكتاب النبى وهو يرجو اسلام القوم فى نفسه .

فوجىء بالطعنة الغادرة تخترق ظهره لينفذ النصل من صدره .. صاح الداعية الى الله وهو يسقط :

— فزت ورب الكعبة .

وحمل رأس الكفر سلاحه وضم قبائل الغادرين وانقضوا على الدعاة الى الله .

واستشهد خلاصة الدعاة الى الله فى بئر معونة ..صارت أجسادهم طعاما للنسور والطيور الجارحة .. ونجا من السبعين رجل واحد عاد الى النبى يقص عليه ما لقيه فقهاء المسلمين وخيارهم من غدر ، وأطرق النبى برأسه وهو يسمع أخبار الكارثة .. ثم رفع رأسه وقال للناس :

— ان أصحابكم أصيبوا .. وانهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا اخواننابمارضينا عنك ورضيت عنا .

كانت محنة الاسلام قاسية فيمن أدركتهم الشهادة فى بئر معونة ، ولقد حزن النبى لاجتراء الأعراب والكافرين على الاسلام ، وأثاره أن يستهين المجرمون بالمؤمنين لهذا الحد ، وقرر أن يلجأ الى العنف ويستعيد للاسلام هيبته ، وفى هذه الظروف ، تحركت يهود لاغتيال رسول الله . ذهب الى بنى النضير لشأن من شئون الحياة ، فأظهروا الرضا لما يقوله ، وأجلسوه فى ظل حصن من حصونهم ، وتآمروا عليه ، وقرروا القاء صخرة ثقيلة فوقه وهو جالس لا يتوقع شرا .. والهم الله رسوله الخطر ، فنهض قبل نفاذ الكيد وانصرف مسرعا الى بيته..كان يفكر وهو عائد فى همومه الجديدة ..

لن يوقف هذا الغدر غير عنف عسكرى سريع من الاسلام ، يسترد به هيبته ، ويرد عنه الايدى التى تقتل فى الظلام وتصطاد أرواح رجال الله غيلة ، وأرسل الرسول الى بنى النضير يأمرهم أن يخرجوا من المدينة ،وأجلهم رسول الله عشرة أيام ، واتحد منافقو المدينة مع اليهود واتفقوا على قتال

الاسلام معا ، وقاتل الاسلام وانهزم اليهود ، نزلوا على حكم الاسلام الذى اجلاهم عن ديارهم ، ونزلت سورة الحشر تصف طرد اليهود وتكشف موقف المنافقين . بعد هذا النصر العسكرى الحاسم ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم ليثار لاصحابه القراء ، ويعيد هيبة الدعوة الاسلامية ، واستطاعت هـذه العسكرية أن تمزج حياة الغادرين من الأعراب بالرعب ، وكان يكفى أن تشى الرياح باسم المسلمين حتى يتحول ذئاب الصحراء السابقين الى فئران مذعورة تختفى فى رؤوس الجبال . وتسامعت قريش بنشاط المسلمين العسكرى ، فانسحب جيش قريش وهو يقترب من « الظهران » ، وعسكر المسلمون فى « بدر » ، ينتظرون اللقاء الذى اتفق عليه فى « أحد » . واوقد المسلمون النار ثمانية أيام تحديا وانتظارا ، حتى اذا انصرفوا ، كانت سمعتهم قد برئت تماما من غبار معركة أحد .

والتفت المسلمون الى شمال الجزيرة بعد تأكيد مهابتهم فى الجنوب . وكانت القبائل حول « دومة الجندل » قريبا من الشام تقطع الطريق هناك ، وتنهب من يمربها ، وبلغت جرأتها حدا فكرت معه فى غزو المدينة ، ولهـذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ألف من المسلمين ، يختفى بهم نهـارا ويسير بهم ليلا ،حتى وصلوا بعد خمس عشرة ليلة الى مضارب خصومهم ، فاجتاحوها ، وفوجىء الجيش الذى كان يتصور أنه سيغزو المدينة ، ولم يدر فى خلده قط أن المدينة هى التى ستنتقل اليه فى مكانه .

ولسوف نحس أن جهاز المعلومات فى جيش رسـول الله كان متفـوقا ، كما كان أسلوب الدفاع متفوقا ، ولقد كان هذا الهجوم الخاطف هو أعظم اساليب الدفاع أمنا ، كما أن عنصر المفاجأة كان يعنى قدرة الجيش الاسلامى على الاستتار والمباغتة .

ومضت ايام الصراع العسـكرى .. لا يكاد النبى يضع درعه ويعاود بناء نفوس المسـلمين ، حتى تضـطره الحيـاة الى ارتداء درعه والعودة الى القتـال ..

وحين رأى أعداء الاسلام المحدقون به ان قبضتهم العسـكرية حول رقبة الاسلام تنهار ، عمدوا الى أسلوب جديد فى الحرب .. هو الحرب النفسية واطلاق الشائعات ، أو ما سماه القرآن الكريم بحادث « الافك » ..

بعد غزوة بنى المصطلق ، وهى غزوة كانت تحمل نصرا سريعا للمسلمين ، تشـاجر خادمان طائشـان من خدم القوم على الماء ، فصـاح احـدهما : يا للمهاجرين .. وصاح الآخر : يا للأنصار ..

والتقط الحادث التافه أحد رؤوس النفاق ، وهو عبد الله بن أبى ، فراح يؤجج الأنصار على المهاجرين ، ويحاول ان يثير نعرات الجاهلية القديمة التى دفنها الاسلام ، وقال فيما قاله :

ـــ أو قد فعلوها ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..

ونقل زيد بن ارقم كلمة المنـافق الى النبى .. وكانت الكلمة بما تلاها من كلمات تحاول أن تثير الأنصار على المهاجرين وتوقع بينهم وتفتت وحدتهم

.. وأسرع المنافق الى الرسول ينفى ما قاله .. واخذ المسلمون بالظاهر وصدقوا كلمات المنافق واتهموا سمع الناقل .. غير ان الحقيقة لم تخف على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فأحزنه ما حدث ، وأصدر أمره بالرحيل فى ساعة ما كان يسير فى مثلها ، ومشى بالناس سائر اليوم حتى سقط الليل عليهم ، وسار بهم طيلة الليل حتى أصبحوا ، ومعظم يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس ثم عسكر بهم ..

ولقد تمخض هذا الرحيل السريع المفاجىء عن اكذوبة نسج خيوطها المنافق عبد الله بن أبى ، وهى أكذوبة كان هدفها هو هدف الحريق العمد ..

حين حاول اشعال النار فى بيت الرسول ..

وما دام الرسول قد صار الى حال من القوة التى تخيف من يحاول هزيمته عسكريا ، أو اغتياله غدرا .. فلا بأس من تجربة الاغتيال النفسى والمعنوى لزوجة من زوجاته وأم للمؤمنين وطفلة تنتسب اليها البراءة أكثر مما تنتسب هى الى البراءة ..

وكانت عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، قد خرجت تقضى حاجتها وفى عنقها عقد ، فلما فرغت انسل العقد من عنقها وهى لا تدرى ، وحين عادت الى القافلة كانوا يتهيأون للرحيل ، وعادت تبحث عن عقدها حتى وجدته وجاء من يحملون هودجها فحملوه وهم يظنون انها داخله ، وشدوه على البعير ولم يراودهم الشك انها لم تكن فيه لنحافتها وخفة وزنها .. وسار جيش النبى وهو يحمل هودج عائشة الخالى ..

عادت هى فاكتشفت ان القوم قد رحلوا ..

أصابتها الدهشة لهذا الرحيل السريع ، وادركها الخوف وهى تقف وحدها فى الصحراء .. وتصرفت أفضل تصرف ممكن .. جلست فى مكانها ، حيث كان بعيرها ، والتفت بثيابها وقالت لنفسها : سيكتشف الناس غيابى فيعودون الى البحث عنى ويجدوننى ..

كان صفوان بن المعطل قد تخلف لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، واقبل يمشى من بعيد فرأى مخلوقا لم يتبينه ، واقترب صفوان فاكتشف انه يقف أمام عائشة .. وكان يراها قبل ان يضرب على نساء النبى الحجاب ..

قال صفوان حين رآها : انا لله وانا اليه راجعون .. زوجة رسول الله .. ما أخرك يرحمك الله ..

لم ترد عائشة ..

تأخر صفوان .. وقرب بعيره اليها وهو يقول :

— اركبى ..

ركبت عائشة ، رضى الله عنها البعير واخذ صفوان زمامه وانطلق يطلب الناس ..

كان جيش النبى قد أناخ .. وكان الناس يتصورون ان عائشة فى هودجها ، وفوجئوا بها تدخل عليهم ، وصفوان يقود بعيرها ..

وأسرع رأس النفاق عبد الله بن أبى يستغل فرصته السانحة .. فنسج من هذا المشهد المرئى قصة مختلقة ، تتهم زوجة النبى بالخيانة ..

وكان عبد الله بن أبى قد اختار نفرا من المسلمين استشف فيهم غفلة القلب التى تبلغ حد تصديق الظواهر .. أو أحس أن بينهم وبين عائشة من الحسد ما يثير الرغبة فى نشر الأكاذيب عنها ..

وهكذا أوقع رأس النفاق فى حبال أكذوبته حسان بن ثابت ، ومسطح ، وامرأة تدعى حمنة بنت جحش ، وهى أخت زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وانخدع الثلاثة بالأكذوبة ونشروها . وقال أهل الافك ما قالوا .. وارتج المعسكر ، وعائشة لا تدرى شيئا من ذلك ..

ولقد كانت هذه الشائعة تستهدف النيل من الاسلام ، وتجريح رسول الله ، وكانت جزءا من الحرب الضارية ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الاسلام ، وكانت تستهدف أظهار الاسلام بمظهر العقيدة التي يقول أتباعها شيئا ، وهم يتصرفون عكس ما يقولون ، كما كانت ضربة موجهة لنقاء بيت وشرف سيدة ..

عاد الجيش الى المدينة ، فمرضت عائشة وهى لا تدرى شيئا عما تمضى به الألسنة حولها .. وبلغ الحديث رسول الله ، كما بلغ والدها أبا بكر وأمها .. ولم يذكر أيهما شيئا منه لها ..

أيضا لم يحدثها الرسول بما يشاع عنها .. كل ما حدث ، انه لم يكن يلاطفها كعادته حين تمرض ..

كان اذا دخل عليها وعندها أمها تمرضها قال :

— كيف تيكم ..

لا يزيد على ذلك ..

وبدأت عائشة ، رضى الله تعالى عنها تغضب ، حين رأت من جفائه ما رأت ..

قالت له يوما : لو أذنت لى فانتقلت الى أمى ..

قال صلى الله عليه وسلم : لا عليك ..

وهكذا انقلبت الى أمها وهى لا تعلم شيئا .. شفيت من وجعها بعد بضع وعشرين ليلة .. وهى لا تدرى شيئا عما يقال حولها ..

حكت أم المؤمنين عائشة كيف عرفت بحديث الافك .. وكيف أظهر الله براءتها .. قالت :

كنا قوما عربا ، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرهها ، انما كنا نخرج فى فسح المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن .. فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فو الله انها لتمشى معى اذ عثرت فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت : بئس — لعمر الله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا !

قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ .. قلت : وما الخبر ؟ .. فأخبرتنى بالذى كان من أهل الافك .. قلت : أو قد كان هذا ؟

قالت : نعم .. والله لقد كان ... !

قالت عائشـــة : فو الله ما قـــدرت على أن أقضى حاجتى .. ورجعت ، فو الله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصـــدع كبدى .. وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟ .. قالت : أى بنية ، خففى عنك ، فو الله لقل ما كانت امرأة حسناء ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، الا اكثرن وأكثر الناس عليها ..

قالت : وقد قام رسول الله ، صلى الله عليه وســلم فخطبهم — ولا أعلم بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ايها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهـــلى ويقولون عليهم غير الحـــق ؟ .. والله ما علمت عليهم الا خـــيرا .. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا .. ولا يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى .. قالت : وكان كبر ذلك عند « عبد الله بن أبى » فى رجال من الخزرج .. مع الذى قال « مسطح » و « حمنة بنت جحش » .. وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ، صلى الله عليه وســلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها .. فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل الا خيرا .. وأما « حمنة » فأشاعت من ذلك ما أشـــاعت تضارنى بأختها .. فلما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رســـول الله ، ان يكونوا من « الأوس » نكفكهم ، وان يكونوا من اخواننا « الخزرج » فمرنا أمرك .. فو الله انهم لأهـــل أن تضرب أعناقهم .. فقام سعد بن عبادة — وكان قبل ذلك يراه رجلا صالحا — فقال كذبت لعمر الله ، ما تضرب أعناقهم .. انك ما قلت هذه المقالة الا وقد عرفت انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ..

فقال أســـيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدخل على ، ودعـــا على ابن ابى طـــالب وأســـامة ابن زيد ، فاستشارهما ، فأما « أسامة » فأثنى خيرا ثم قال يا رسول الله .. أهلك .. وما نعلم منهم الا خيرا .. وهذا الكذب والباطل ..

وأما « على » فقال : يا رسول الله .. ان النساء لكثير .. وانك لقـــادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فانها تصدقك ..

فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « بريرة » يســـألها ، وقام اليها « على » فضربها ضربا شديدا وهو يقول : اصدقى رســـول الله .. فتقول : والله ما أعلم الا خيرا .. وما كنت أعيب على عائشـــة ، الا انى كنت أعجن عجينى ، فآمرها ان تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة وتأكله .

قالت عائشة : ثم دخل على رسول الله وعندى ابواى ، وعندى امرأة من الانصـــار ، وانا أبكى وهى تبكى ، فجلس فحمـــد الله واثنى عليه ثم قال : يا عائشة انه قد كان ما بلغك من قول الناس .. فاتقى الله .. وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس ، فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة من عبـــاده ..

قالت : فو الله ان هو الا أن قال لى ذلك حتى جف دمعى ، فما أحس منه شيئا .. وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى فلم يتكلما ..

قالت عائشة : وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنا من أن ينزل الله فى قرآنا .. لكنى كنت أرجو أن يرى النبى ، عليه الصلاة والسلام ، فى نومه شيئا يكذب الله به عنى ، لما يعلم من براءتى .. اما قرآنا ينزل فى ، فو الله ، لنفسى أحقر عندى من ذلك ..

قالت : فلما لم أر أبوى يتكلمان ، قلت لهما : الا تجيبان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، فقالا : والله لا ندرى بم نجيبه ، قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ، ما دخل على آل ابى بكر فى تلك الأيام .. ثم قالت : فلما استعجما على استعبرت فبكيت.ثم قلت : والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ، والله انى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس — والله يعلم أنى منه بريئة — لأقولن ما لم يكن .. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى .. قالت : ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف :

« **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** » [١] ..

فو الله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فو الله ما فزعت وما باليت ، وقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى .. وأما أبواى فو الذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن نفساهما فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله فجلس وانه ليتحدر من وجهه مثل الجمان فى يوم شات فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : ابشرى يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت : الحمد لله .. ثم خرج الى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** » [٢] .. [سورة النور] ..

وهكذا تنزل الروح الأمين جبريل عليه السلام ببراءة عائشة مما نسب اليها من الافك .. وانهارت الحرب النفسية ضد المسلمين وبيت الرسول ..

وأيقنت طوائف الكفار ان عليها أن تلجأ لنوع جديد من الحرب ..

ودخل الرسول صراعه ضد حرب الأعصاب ..

كانت غزوة الخندق اكبر نموذج لحرب الأعصاب التى خاض صراعها النبى ، صلى الله عليه وسلم ..

وضع اليهود أيديهم فى أيدى المشركين ، وبدأت سلسلة من المؤامرات والأحلاف بين زعماء اليهود وزعماء المشركين من العرب ، وأفتى أحبار اليهود أن ديانة قريش ، التى تؤله الأصنام ، أفضل من ديانة محمد ، التى تقصر الألوهية على اله واحد ، كما أن تقاليد الجاهلية افضل من تعاليم القرآن .. ونجحت سياسة اليهود فى توحيد الأحزاب الكافرة وتوظيفها ضد المسلمين

---

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .
(٢) الآية ١١ سورة النور مدنية .

.. وتقرر الزحف على المدينة فى عشرة آلاف جندى .. وحملت الرياح أنباء المؤامرة الى النبى ، لم يدهشـــه ان يتحد اليهود ــ وهم أهــل ديانة تدعو للتوحيد ــ مع المشركين ضد ديانة تدعو للتوحيد ، أدرك النبى ان العهد قد طال على اليهود فقست قلوبهم ، وباعدت الأيــام بينهم وبين النبع الصــافى الذى فجره موسى ، وانتهى بهم الأمر الى ان صاروا ثمرة فاسدة غلافها على رسم التوحيد ، وعمقها البعيد مرارة الشرك ..

واخطر من هذا اتفاق مصالح اليهود والمشركين من العــرب . ونشط النبى لمواجهة الخطر ، أدرك ان الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة فى ساحة مكشوفة لن يكسب للمســلمين المعركة .. وراح يفكر فى الدفاع عن المدينة بغير الخروج منها ، تغير تكتيكه العسكرى هذه المرة .. قبل ذلك كان يخرج من المدينة ويبتعد عنها ويهاجم من ينوى غزوها لصده ، غير ان نوع الخطر يختلف هذه المرة ، ويتغير تفكير النبى تبعــا لاختــلاف الخطر ، ويعقد النبى اجتماعات عســكرية مع جنوده ، يريد ان يســتمع لاقتراحــات الدفاع عن المدينة ، ويقترح سلمان الفارسى حفر خندق عميق حول المدينة ، خندق يكون بمثابة مانع طبيعى يمنع السيل المنحدر من التقدم ، خندق لا تستطيع الخيل اجتيازه ، ويمكن للمسلمين الدفاع من ورائه ..

وبدا الاقتراح شبه مستحيل ، أو صعبا لدرجة الاستحالة ، وتبنى النبى اقتراح سلمان ، وادرك بحسه العسكرى الملهم ان الموقف الخطير يستدعى بذل جهد اخطر لتجاوزه .. وأمر النبى بحفر خنــدق حول المدينــة .. كان العمل شاقا ، والفصل شــتاء ، والجو مخيفــا فى برودته ، وهنــاك أزمة اقتصادية تهدد المدينة ، ورغم هذا كله بدأ حفر الخندق وتعميقه وتوســيعه .. اشترك النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فى أعمال الحفر وحمل الأتربة ، اشترك فيها وكان يقوم بأصعب المهام وأعظمها مشقة .. وتوهج المسلمون وانتهوا من حفر الخندق ..

وكان شيئا عسكريا فريدا لم يسمع العرب بمثله من قبل ، ولا ألفوه فى الحروب ، ورغم جهامة الحياة وجوع المسلمين وفقر ابنائهم وصحراء الكراهية التى عاشوا فيها ، كانت روح الجيش الاسلامى فى القمة ، كانوا واثقين من نصر الله لهم .. قال تعالى فى سورة [الأحزاب] :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما » [١] ..

وانحدر جيش قريش على المدينة ..

تحولت المدينة فجأة الى جزيرة من الحب وسط بحر هائل من الكراهية ، وراح البحر يفور ويلطم الجزيرة محــاولا اغراقها داخله .. وتطايرت سهام المسلمين تصد الجيش الكثيف المهاجم .. وراح الجيش يدور حول الخندق وهو دهش .. ما هذا الذى فعله المسلمون ؟ .. كيف استطاعوا حفر هذا الخندق ؟ .. وحاولت خيل العدو اجتياز الخندق فى أضعف أجزائه ، وصد المسلمون الهجوم ..

---

(١) الآية ٢٢ سورة الأحزاب مدنية .

واستمرت معركة الأحزاب ..

كانت فى جوهرها معركة أعصاب ..

استمر حصار الأعداء ثلاثة أسابيع ، لم تنقطع فيها الهجمات لحظة من نهار .. ولم تغلق فيها الأعين لحظة من ليل ، وكان المسلمون من فرط الهول لايعرفون هل احتلت المدينة أم لا .. وهل نفذ المهاجمون من احدى الثغرات أم لا ؟ .. أحيانا كان مد السيل يخترق الخندق ، وينفذ الى المدينة ، ويكاد يصل الى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لكن هـذا كله كان ينحسر بفعل مقاومة جبارة وجهـد مدهش ، واذا كان تدفق السـيل من ثغرة يتفق مع القوانين المادية الحاكمة ، فقد كان انحسار السيل وعودته من نفس الثغرة التى نفذ منها يحتاج الى معجزة ..

وقد صنع المسلمون هذه المعجزة أكثر من مرة فى حصار المدينة ..

صور الله تبارك وتعالى الموقف فى غزوة الأحزاب بقوله تعالى :

« اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحنـاجر وتظنون بالله الظنونا . هنـالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »[١] ..

وزاد الموقف سوءا نقض اليهود لعهدهم مع المسـلمين ، وانضمامهم الى الأحزاب ..

وهكذا نقضت قريظة عهدها ونسوا غدر بنى النضير واجلاء النبى لهم ..

وراح الموقف يزداد سوءا كل يوم ..

كانت أعصاب المسلمين هى التى تمتحن ..

وحين وصل الخطر ذروته ، سـأل المسلمون الرسول ماذا يقولون ؟ .. حدثهم أن يقولوا : اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ..

ولقد خرج هذا الدعاء من أفواه قوم أدوا واجبهم وصـنعوا معجزتهم فى صد الهجوم ، واذن لم يعد باقيا لهم غير الدعاء .. والله تعـالى هو السميع المجيب ..

سميع لمن يؤدى واجبه .. مجيب لمن يستحق الاجابة ..

وأدركت رحمة الله المسلمين ..

وتطور سير المعركة على نحو غير مفهوم .. أدرك المهاجمون انهم هزموا .. ان لهم ثلاثة أسابيع يهاجمون بغير جـدوى ، ويفجـرون عروقهم جهدا بلا أمل ، ويمكن أن يظلوا هكذا ثلاث سنوات .. واشتد عواء الرياح وتثلج الجو ، وبدأ التصدع الخفى فى جبهة الأحزاب ..

وجاءت ليلة لم ير المسلمون لها مثيلا فى الظلمة أو الريح .. زاد سـواد الليل ، واشتدت سرعة الرياح ، حتى لتطن فيها أصوات كأمثال الصواعق ،

---

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ سورة الاحزاب مدنية .

ولم يعد احد من المسلمين يستطيع أن يرى اصبعه من فرط القتام ، أو يقوم من مكانه بسبب البرد ..

وجاء النبى الى حذيفة بن اليمان .. لم يستطع رؤيته رغم انه كان يقف الى جانبه ..

سأل النبى : من هـذا ؟

قال حذيفة : حذيفة ..

قال النبى : حذيفة ..

وتقاصر حذيفة فى مكانه كراهية أن يقوم بسبب البرد والظلام ، وخوفا من أن ينتدبه الرسول لعمل فى هذه الليلة الليلاء ..

قال الرسول لحذيفة : انه كائن فى القوم خبر فاتنى به ..

احس حذيفة بفزع غامر ، وثقلت عليه وطأة البرد .. ان ما يحسه من التثلج يجعله يخشى أن يلتفت ، فكيف ينهض ويخرج من المدينة ويتوجه الى جيش العدو ويتوغل فى صفوفه ويأتى النبى بأخبارهم ..

نهض حذيفة من مكانه حين انتهى النبى من كلامه .. دعا له النبى بخير .. انطلق حذيفة يمشي كأنه يمشى فى حمام .. لقد أمره الرسول ودعا له ، فانهزم الظلام والبرد خارج نفسه حين فاض باطنه بحرارة الايمان ..

خرج من المدينة ، وتوغل فى جيش العدو ، أمره النبى الا يتصرف أى تصرف .. ليعرف الاخبار وليعد .. هذه مهمته .. وصل حذيفة الى قلب العدو .. كانوا يحاولون ايقاد نار ، وكانت الرياح تأكلها قبل ان تشتعل .. وقريبا من النار يقف رجل أدهم ضخم ، يمد يده الى النار مستدفئا ويمسح خاصرته .. كان هذا الرجل هو زعيم المشركين « أبو سفيان » ، ووضع حذيفة سهما فى قوسه وأراد أن يرميه ، ولو رماه لقتله وأراح المسلمين منه ، غير انه تذكر وصية الرسول له الا يتصرف أى تصرف .. ووضع قوسه الى جواره وكمن .. وقال أبو سفيان :

ـ يا معشر قريش .. انكم ما أصبحتم بدار مقام .. فارتحلوا فانى مرتحل ..

وقفز ابو سفيان على جمله وهو بارك فجلس عليه ثم ضربه فنهض الجمل ..

وعاد حذيفة الى رسول الله بخبر انسحاب الأحزاب ، وفشل الهجوم ، وقال رسول الله ، حين بلغته أنباء انسحاب العدو :

ـ الآن نغزوهم ولا يغزوننا ..

لم يكد جيش الأحزاب ينحسر عائدا الى بلاده وهو ينوء بثقل الفشل ، حتى خرج من المدينة جيش يتجه نحو يهود قريظة .. لقد خان هؤلاء اليهود عهدهم مع النبى وغدروا بالاسلام فى لحظة الخطر ، واذن فليدفعوا ثمن غدرهم الآن ..

أمر النبى الا يصلى الناس العصر الا فى بنى قريظة .. وفهم المسلمون

ان هذا يعنى اقتحام حصون اليهود قبل أن تغرب الشمس .. وانهزم اليهود وجيء بهم الى سعد بن معاذ ليقضى فيهم بما يرى ، وكان سعد سيد الأوس وكان الأوس حلفاء يهود قريظة فى الجاهلية ، وتوقع اليهود ان تنفعهم هذه الصلة القديمة ، كما تصور الأوس ان رجلهم سوف يتساهل مع حلفائهم القدامى ، وكان سعد جريحا يمرض فى خيمته بسبب سهام الأحزاب التى أصابته ، وراح بعض قومه يناشدونه ان يحسن الى اليهود حلفائهم القدامى ، وراح اليهود يناشدونه أن يرفق بهم .. وقال سعد كلمته الشهيرة : قد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم .. وحكم سعد أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال .. وأقر النبى هذا القضاء الحازم لسعد .. وقال له : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » .. ولقد أدرك سعد أن الوساطات والتوسلات والرجاء ومراعاة الاعتبارات القديمة ، أدرك أن هذا كله فى كفة ، ومستقبل الاسلام فى كفة .. لقد كان يهود قريظة هم السبب فى غزوة الأحزاب ، وان دسائسهم وأحلافهم سعت وسوف تسعى لحصار الاسلام واقتلاعه .. واذن تقتلع الأشجار السامة من مكانها بغير شفقة ..

وهكذا تم تطهير المدينة من اليهود ..

....

وعاود النبى صراعه ..

مضى صراعه العسكرى جنبا الى جنب مع صراعه السياسى ..

وكانت ذروة معاركه السياسية ، معاهدة عقدها مع قريش ..

كان النبى فى طريقه لأداء العمرة ، وزيارة البيت الحرام ..

خرج فى الف وأربعمائة رجل يقصدون البيت الحرام لأداء العمرة .. فلما وصلوا الى الحديبية أسفل مكة ، وبركت ناقة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، رفضت أن تتقدم خطوة نحو مكة ، وقال الناس : حرنت القصواء ..

قال النبى : ما حرنت ، وما هو لها بخلق .. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة .. لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ..

وامر الناس ان يستقروا فى الحديبية ، وأناخ المسلمون على أمل ان يدخلوا مكة فى الصباح ، كان الشهر حراما .. وقررت مكة الا يدخلها مسلم .. خرجت قريش كلها لقتال المسلمين ..

أرسلوا رسلهم الى النبى فأفهمهم انه لم يأت مقاتلا ، وانما جاء معتمرا يؤدى الشكر لله تعالى ويعظم حرمات بيته الحرام .. وقررت مكة عقد معاهدة مع المسلمين يرحلون بمقتضاها هذا العام ، ولا يدخلون البيت الحرام ، على ان يعودوا بعد عامهم هذا .. وجاء مفاوض قريش فاستقبله الرسول واستمع منه الى شروط المعاهدة التى يتم بموجبها الصلح وانسحاب المسلمين .. ووافق النبى على الشروط كلها .. وكانت الشروط تبدو فى غير صالح المسلمين ..

كانت تبدو تراجعا سياسيا وعسكريا من المسلمين ..

وزاد فى دهشة المسلمين أن الرسول لم يستشر احدا من رجاله فى هذا الأمر ، ولم تكن هذه عادته .. شاهدوه يذهب فى ملاينة المشركين الى أبعد حد ، وحين لم يعد باقيا غير كتابة المعاهدة والتوقيع عليها .. تحرك المسلمون يعارضون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .. سألوه : ألست رسول الله ؟ .. السنا مسلمين ؟ .. أليس أعداؤنا مشركين ؟ .. وأجاب النبى بالايجاب على هذا كله .. وعاد عمر بن الخطاب يسأل :

ـ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ... ؟

أراد التعبير أن يقول له بلغة عصرنا .. لماذا نتراجع اذا كنا على الحق ؟ .. لماذا ننزل على شروط معاهدة جائرة تبدو فى صالح المشركين ؟

هل نحن خائفون منهم ؟ .. لماذا ننزل على شروط الهدنة اذن ؟

وكان رد الرسول غريبا على آذان القوم .. قال : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ..

ان معنى كلمته .. أطيعوا ما افعل بغير مناقشة ، واصبروا قليلا .. ولقد أثبتت الأيام ، أن المعاهدة التى أثارت كل هذا الصراع ، كانت أخطر انتصار سياسى حققه المسلمون .. كانت صراعا سياسيا بين ذكاء قريش وحكمة النبى ..

ولقد ركزت قريش كل ذكائها ليعود المسلمون فلا يدخلوا المسجد الحرام هذا العام ، بينما امتدت حكمة النبى لترى ما لا يراه القوم من أيام المستقبل .. ولئن بدت المعاهدة هزيمة للمسلمين الآن ، ولئن ظهرت استسلاما لشروط قريش ، فانها ستصبح بعد أشهر قليلة شيئا آخر تماما ..

كان سهيل بن عمرو هو ممثل قريش ..

وكان على بن أبى طالب هو كاتب المعاهدة من قبل النبى ..

قال رسول الله لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ..

قال ممثل قريش : لا أعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم ..

قال رسول الله لعلى : اكتب باسمك اللهم ..

ان تعنت ممثل قريش لا يعنى شيئا ، وليس هناك فارق بين باسمك اللهم .. وبسم الله الرحمن الرحيم ، غير نية القائل ..

قال النبى لعلى : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل ابن عمرو ..

قال سهيل معترضا : لو شهدت انك رسول الله لم أقاتلك .. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ..

قال النبى لعلى : أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل ابن عمرو ..

هذا هو التراجع الثانى كما يبدو للنظرة السريعة .. غير ان النبى يريد أن يحقق هدفا ما .. هدفا لم يكشف الستار عنه بعد ، ولن يكشف عنه الآن .. ان الأمر كله يمضى بالهام من الله ..

وعاد على يكتب ان محمد بن عبد الله ، وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .. على أنه من أسلم من قريش وجاء الى محمد بغير اذن وليه .. رده المسلمون الى قريش ، ومن عاد الى دين آبائه ممن مع محمد لم ترده قريش الى النبى ..

كان هذا الشرط موجعا للمسلمين ..

ان قريشا تفرض شروطها الجائرة فى المعاهدة ..

ومضى على يكتب .. ان بين المسلمين وقريش صدورا تنطوى على ما فيها ، ورغم ذلك فلا سرقة ولا خيانة ، ومن أحب ان يدخل فى عقد محمد دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه .. وان على النبى أن يرجع عن مكة عامه هذا فلا يدخلها ، فاذا كان العام القادم خرجت قريش منها فدخلها معتمرا ثلاثة أيام .. بعدها يرحل عنها ..

كانت شروط المعاهدة قاسية على المسلمين .. كانت تبدو تراجعا غير مفهوم ..

ووقع أثناء المعاهدة حادث زاد من ألم المسلمين ودهشتهم .. لجأ الى المسلمين ابن ممثل قريش فى توقيع المعاهدة .. أسلم وجاء لاجئا الى المسلمين ، ونهض اليه أبوه سهيل يضربه ويرده الى قومه .. واستغاث المسلم المهاجر بالمسلمين ان ينقذوه من قريش حتى لا يفتنوه فى دينه ، وحدثه رسول الله أن يصبر ويحتسب ، فان الله جاعل له ولمن معه فرجا ومخرجا ، أفهمه النبى انه قد عقد بينه وبين قريش صلحا ، وأعطوا عهد الله على ذلك ، وأن المسلمين لا يغدرون بعهدهم ..

وأعيد الابن المسلم الى مكة مخذولا ..

وتم توقيع المعاهدة من جانب المسلمين والمشركين ..

وقام الرسول بعد توقيع المعاهدة يأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا للتحلل من عمرتهم والعودة الى المدينة .. فلم يقم منهم رجل ..

كرر أمره ثلاث مرات وسط مسلمين واجمين من فرط الهم والذهول .. ثم نحر بدنة ودعا حالقه فحلق ولم يكلم أحدا من المسلمين .. فلما رأى المسلمون انه غاضب وقد سبقهم بالتحلل من عمرته ، نهضوا ينحرون ويحلق بعضهم رؤوس بعض ، وقد كادوا يقتل بعضهم بعضا من فرط الغم ..

ثم أثبتت الأيام ان المعاهدة على العكس مما تصوره المسلمون ..

كانت انتصارا ولم تكن هزيمة .. كانت فتحا ولم تكن استسلاما ..

لقد تهاوى اتحاد الكفار فى الجزيرة منذ تم توقيع المعاهدة .. كانت قريش تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التحدى للاسلام ، فلما شاع نبأ تعاهدها مع

المسلمين ، خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية فى أنحاء الجزيرة ..

وعلى حين توقف نشاط قريش .. انطلق نشاط المسلمين وراحوا يجذبون اليهم كل من يملك قدرة على رؤية الحقيقة ..

وقد دخل فى الاسلام خلال عامين من توقيع المعاهدة أضعاف أضعاف من دخلوه قبلها .. والدليل على ذلك ان الرسول خرج الى الحديبية فى الف وأربعمائة مسلم ، ثم خرج عام فتح مكة فى عشرة آلاف مسلم .. ولقد كان فتح مكة بعد توقيع المعاهدة بعامين ..

زاد فيهما المسلمون كل هذه الزيادة الهائلة بسبب حكمة النبى وبعد نظره ..

وخرج النبى من صراعه السياسى منتصرا .. وانقلبت الشروط الظالمة للمسلمين الى شروط ضد قريش ..

من كفر من المسلمين وذهب الى قريش فليحتفظوا به ، فقد اغنى الله الاسلام عنه ..

ومن أسلم من الكفار وذهب الى المسلمين فليردوه الى قريش ، حيث يبقى فيها عينا للمسلمين ، أو يهرب من قريش لتأليف فرقة مقاتلة صغيرة يقطع بها الطريق على القبائل ويعيش كالشوكة فى جنب قريش ..

ولا تكاد الأيام تمضى حتى ترسل قريش الى النبى ترجو منه ان يؤوى اليه من أسلم من قريش ، بدلا من تركهم هكذا سهاما طائرة نحو قريش ..

وهكذا نزلت قريش عن الشرط الذى أملته تعنتا ، وقبله النبى راضيا ..

مكنت المعاهدة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من كف قريش عنه ، ليتفرغ لمن بقى من اليهود فى الجزيرة العربية .. وكان اليهود لا يتوقفون عن غدرهم وكيدهم للاسلام ، فأعطت الهدنة بين المسلمين والمشركين فرصة عظمى للاسلام كى يواجه كيد اليهود وغدرهم ..

وبدات سلسلة المعارك التى انتهت بكسر شوكة اليهود واجلائهم .. ثم تنازلت قريش عن المعاهدة حين اكتشفت انها كانت شركا سيقوا اليه دون أن يدركوا ..

ومضت حياة النبى صراعا لا يتوقف ، ومشقة لا تدع له وقتا للراحة ..

لم ينج بيته ولا خلت حياته الخاصة من المشقة ..

تزوج النبى ، صلى الله عليه وسلم من تسع زوجات ، وقد كان زواجه من تسع خصوصية اختص بها وحده ، صلى الله عليه وسلم .. لأسباب تتصل بالدعوة الاسلامية ، وهى دعوة أباحت لمعتنقيها الزواج من اربع ، بشرط العدل ، وأمرت بالاقتصار على زوجة واحدة اذا خاف المسلم عدم العدل .. وقد أساء كثير من المستشرقين وأعداء الاسلام الى النبى ، وكانت الثغرة التى نفذوا منها أو ظنوا انهم نفذوا منها هى زواجه من تسع ..

ولقد تمت أكثر تلك الزيجات لأسباب سياسية أو انسانية تتصل بالدعوة الاســـلامية ..

والمعروف من ســـيرة النبى انه تزوج بالســـيدة خديجـــة وهـــو فى الخامسة والعشرين من عمره .. وكانت هى فى سن الأربعين ، وظل مقتصرا عليها وحدها حتى وصل عمرها الى الخامســـة والســـتين .. وماتت وهو — صلى الله عليه وسلم — فوق الخمسين ..

تزوجها قبل أن يبعث بالاسلام ، وظل وفيا لها حتى مات وهو نبى .. غير أن أعباء النبوة ، ومشقة الجهاد ، ورأفته بالنـــاس ، وتضـــحياته للاسلام ، وأمر الله تعالى ، اضطره هذا كله للزواج بعدها بأكثر من واحـــدة حتى بلغ عدد زوجاته تســـعا ..

كان زواجه من « **عائشة** » — على صغر سنها — ارتباطا بأبى بكر.. فقد كانت ابنته .. وكان زواجه من **حفصة** — رغم قلة وسامتها — ارتباطا بعمر ، فقد كانت ابنته ..

تزوج من « **أم سلمة** » أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله وعانت معه امرأته ما عانت فى الهجرة الى الحبشـــة ، والهجرة الى المدينة ، فلما مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه عواصف الحياة ، ضـــمها النبى الى بيت النبوة ..

وكان زواجه من « **سودة** » ، اكراما لقيم اسلامها وكبرها وعزوفها عن الرجال ووحدتها أمام الحياة ..

وكان زواجه من « **زينب بنت جحش** » ، امتحانا قاسيا له ، وقد جاء الأمر بزواجها ، من الله عز وجل ، لتحريم عادة كانت شائعة فى الجاهلية ، وهى عادة التبنى ..

ان زينب من قريبات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هى اذن من بنى هاشـــم ، وهى تعتز بنســـبها اعتزازا يدعوها الى رفض الزواج من زيد ابن حارثة ، وهو مولى النبى الذى أعتقه والحقه بنسبه وتبناه فصـــار يدعى زيد بن محمد ..

غير أنها تنزل على راى النبى وأمر الله فتتزوج من زيد ..

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورســـوله فقد ضـــل ضـــلالا مبينـــا » [١] ..

كان واضحا منذ البداية ان هـــذا الزواج سيتحطم .. لم تكن زينب تحب زيدا ، ولم يكن زيد رجلا يطيق الحياة مع امرأة قلبها منصرف عنه .. وجاء زيد يشكو للنبى ويطلب الاذن بطلاق زوجته .. وأوحى الله الى رســـوله أن يدع زيدا يطلقها ويتزوجها هو .. وأحس النبى بالحرج الهـــائل وحدث زيدا أن يستمر ويحتمل ، تصور ما سيقوله الناس عنه من انه تزوج امرأة ابنه ، غير ان ما خشيه النبى هو ما يريد الله ابطاله .. ليس زيـــد ابنه ، لا وجود

---

(١) الآية ٣٦ سورة الاحزاب مدنية .

لنظام التبنى فى الاسلام ، واذن فليطلق زيد وليتزوج النبى لاثبات ما يريد الاسلام اثباته .. وليتحمل رسول الله على نفسه ما سيقوله الناس عنه ، فليست هذه أول تضحية ولا آخر تضحية يقدمها للاسلام ، قال تعالى فى ذلك :

« واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا »[1] ..

كانت الظروف التى أحاطت بزواجه ، صلى الله عليه وسلم ، تجعل من هذا الزواج بعض ما كلف الرسول بحمله من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من اقامة الخير والرحمة ، واحترام القيم الرفيعة وضمها لبيت النبوة ..

أسلمت « **أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب** » ، سيد قريش وقائدها فى حرب الاسلام ، وهاجرت مع زوجها الى الحبشة ، وعرفت الغربة والوحشة والخوف فى الله ، ثم مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه الحياة ، وكان موقفها النبيل من الاسلام ، والوقوف ضد أبيها ، هو القيمة التى حملت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ضمها لبيت النبوة ..

ولقد دخل أبو سفيان عليها يوما وهى زوجة لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم .. وأراد أن يجلس على فراش النبى ، فحملت أم حبيبة الفراش بعيدا عنه .. وسألها أبوها : أرغبت بى عن الفراش أم رغبت به عنى ... ؟

قالت بشجاعة : هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأنت مشرك فلا تلمسه ..

أما « **صفية بنت حيى** » ، فكان أبوها ملك اليهود ..

أما « جويرية بنت الحارث » ، فكان أبوها زعيم قبيلة بنى المصطلق .. وقد انتهت حرب اليهود وبنى المصطلق بالهزيمة ، ووقعت ابنتا الملك والزعيم فى الأسر ، وكان زواج النبى منهما جبرا لخاطر المنهزمين ، وذعوة الى أن يحسن المسلمون معاملتهم ، وقد حدث ما أراده النبى ، فقد رفض المسلمون استرقاق أصهار النبى ، وهكذا عادت الحرية الى قبيلة بنى المصطلق ، وكان النبى بتصرفاته يريد ان يكشف العمق الانسانى فى حروبه ، ويشير للمسلمين الى الأخوة الانسانية ، وان الحرب فى ذاتها ليست مطلبا ، هى دفاع عن الاسلام ، والاسلام فى عمقه البعيد رحمة وحب .. واذن يتزوج النبى من بنات المهزومين المسترقين كى ترتد الحرية والكرامة لأهلهم ، ويدخلوا الاسلام ان أرادوا عن اقتناع ..

جاء زواجه من « **مريم القبطية** » وقد بعث بها المقوقس اليه كأمة ، رمزا للود الذى أشار اليه القرآن بين الاسلام والمسيحية ، وتشريعا للمسلمين بحل الزواج من كتابيات .. وقد أنجبت له مريم ابنا سماه ابراهيم ، باسم

---

(١) الآية ٢٧ سورة الأحزاب مدنية .

جده أبى الأنبياء ، غير انه لم يعمر طويلا ، مات وهو رضيع .. وكان موته امتحانا للنبى ، واشارة الهية الى أن ورثة الرسول من الرجال هم أتباع القرآن وحملة الاسلام لا الابناء من صلبه ..

يخطىء من يتصور أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم كان يجد وقتا ينفقه فى البحث عن متعة ، ولو كانت حلالا .. أبيحت المتع لغيره واستأثر وحده بشقاء الجهاد والتشريع والاحتمال ..

يخطى من يتصور أن الرسول كان يعيش فى بيته افضل مما يعيش أقل المسلمين فى عصره .. كانت حياته فى البيت احتمالا وزهدا يفوقان الطاقة ، حتى اشتكت بعض زوجاته ، ومنهن من جاءت من بيت ثرى كبيت أبى بكر أو بيت عمر .. واتحدت بعض زوجاته عليه يسألنه أن يزيد من النفقة ، وهجر النبى زوجاته ، وانتشرت شائعة تقول انه طلقهن جميعا .. ثم نزلت آيات التخيير .. نزل القرآن الكريم يخير زوجات النبى بين حياة الشظف التى يحيينها فى بيت النبوة ، أو الطلاق ..

قال تعالى فى سورة [الأحزاب] :

« يا أيها النبى قل لأزواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » [١] ..

وانتهت الفتنة ، وهذا الصراع فى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم .. واختارت زوجاته حياة الزهد والاحتمال والدار الآخرة ، على الدنيا ..

ولم تكن مطالب زوجات النبى تتجاوز حدود المباحات .. غير ان الرسول كان أسوة للعالمين ، وينبغى أن يعيش أسوة العالمين حياة زاهدة ليضرب المثل الأعلى فى حياة من يتصدى لقيادة المسلمين ..

ولقد عوض الله تعالى زوجات النبى عن تضحياتهن ، ورفع درجاتهن فصرن أمهات للمؤمنين جميعا .. قال تعالى :

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وازواجه أمهاتهم » [٢] ..

وتأكيدا لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق عليهن ، وهو حجاب لم يشرع على النساء المسلمات بنفس الدرجة ..

....

....

مضى النبى فى صراعه ، وكانت رسائله الى الملوك والحكام وقادة الجماعات والدول حوله تشير لعالمية الاسلام وتؤكده ..

بعث النبى يدعو قيصر الرومان الى الاسلام .. وبعث الى أمير دمشق يدعوه الى الاسلام .. وبعث الى أمير بصرى من ولايات الروم يدعوه الى

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ سورة الاحزاب مدنية .

(٢) من الآية ٦ سورة الاحزاب مدنية .

الاسلام .. وبعث الى عظيم القبط يدعوه الى الاسلام .. وبعث الى كسرى ابرويز ملك فارس يدعوه الى الاسلام .. أرسل الى امير البحرين المجوسى يدعوه الى الاســـلام ..

واختلفت ردود أفعال من بعث النبى اليهم برســـائله .. منهم من حـــاول ايهام حامل الرسالة انه أسلم ورده بهـــدية ، ومنهم من مزق الرســـالة وهو حانق .. ومنهم من تلطف وأجاب الرسول جوابا حسنا .. ومنهم من أسلم حقيقة ..

ولقد كان احساس النبى بشمول الدعوة وعالميتها استشفافا لأيام لم ترفع عنها أستار الغيب بعد ..

....

ومضت الأيام صراعا لا يهدأ ..

صراع قاده النبى ، صـــلى الله عليه وســـلم ، حتى فتحت مكة ، وطهرت الجزيرة العربية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأكمل الله للمســـلمين دينهم ، وحج بهم النبى حجة الوداع ، وتنزل عليه الوحى فى عرفـــات بقوله تعـــالى :

((اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا))[1] ..

تليت الآيات على أبى بكر فبكى ..

أحس ان الله تبارك وتعالى قد أنهى مهمة رسوله ..

أحس ان النص القرآنى ينعى الرسول لقومه ..

....
....
....

قالت عائشة لأطفال يتصايحون ويلعبون خارج الدار :

ـ اصمتوا فان رسول الله مريض ..

هـــدأ الأطفال وشعروا بخوف مفاجىء .. فى الأيام الأخيرة لاحظوا أن رسول الله لا يلاعبهم كما كان يفعل ، لاحظوا أن شحوبا غريبـــا يكسو وجه النبى الذى كان يبتسم فيضىء وجهه كصفحة الذهب ..

دخل آخر الأنبياء الى بيته وقدماه لا تكادان تحملانه .. دخـــل بيته وهو يستند الى ذراعى الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب ..

كان يحس التعب والمرض ..

---

(١) من الآية ٣ سورة المـــائدة مدنية .

انتهى الأمر واستسلم الجسد العظيم لرقدة الفراش وأوجاع المرض ونذر النهـــاية ..

أرقدته عائشة على فراشه الخشن ، ووضعت يدها على جبينه .. كان رأسه يلتهب من الحمى .. قالت عائشة وعيناها تلمعان بالدمع :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله .. هل تحس المـــا ؟

ابتسم النبى ليطمئنها واستسلم للنعاس ..

وانساب فى ذاكرة النبى تيار من الصور الحية ..

مر أمام العقل موكب الذكريات ..

ها هو ذا الروح الأمين جبريل عليه السلام يتنزل عليه بالوحى فى غـــار حـــراء ..

مرت على اللحظة المباركة ثلاث وعشرون سنة ، تبدو الآن مثل حلم خاطف .. حتى الأعوام الأربعون التى ســـبقتها تبدو كأنها صـــورة لم تســـتغرق من الوقت غير لحظة ..

هـــان كل شىء فى الله ، واحتمل الاحتمال أضـــعاف طاقته فلم يستسلم يوما للشكاة ، وأعطى توهج العقيدة لأتباعها قوة بغير حد ، وتجربة بلا نهاية .. أخيرا عز الاسلام وارتفعت رايته .. فحمدا لله ..

أغفى النبى قليلا ..

ثم استيقظ على صوت بكاء مكتوم لعائشة ..

فتح عينيه ونظر فى وجهها وقاوم احســـاسه بالصداع والحمى والألم ، وابتسم يطمئنها وعاد يغمض عينيه ويستسلم للاغفاء ..

ما الذى يبكى عائشة ... ؟

الم يتوج الله جهاده الشاق بفتح مكة وتطهير البيت الحرام ... ؟

تداعت الصور حية طرية فى ذاكرته ، صلى الله عليه وسلم ..

تذكر ما كان من أمر قريش حين نقضت معاهدة الحديبية ، وقاتلت خزاعة وهى مع المسلمين فى حلف واحد ، ووصل الأمر بقريش الى حد قتل حلفـــاء المسلمين فى البيت الحرام ..

وطارت الأنباء للرسول ..

وسار ، صلى الله عليه وسلم فى جيش عدد جنده عشرة آلاف .. كان الجيش مهيبا ، وجند المســـلمين ينحـــدر من جبـــال مكة كسيل لا يقف فى طريقه شىء ..

مرت الفرق والكتائب والسرايا ..

فـــرقة بعد فـــرقة .. وكتيبة بعد كتيبة ، وسرية بعد أخرى .. مر حملة السهام والسيوف والفرسان .. مر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصـــار ..

لا شيء يظهر منهم غير حدقات العيون ، وبقية الأجســـاد مغطاة بالدروع والســــلاح ..

ولمعت سيوف الاسلام بما يمثله من حق يستند الى القوة ..

ووسط هذا الجيش العظيم الذى فتح مكة ، كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يركب ناقته وقد حنى رأسه خشوعا لله وتواضعا حتى كاد رأســه يمس ظهر البعير الذى يركبه ..

وانفتحت أبواب مكة لهذا الجيش .. استسلم سادتها وأتباعهم ، ارتفعت كلمة الله فيها .. ودخل النبى البيت الحرام فطاف حول الكعبة ، وهو يكسر الأصنام المصفوفة حولها .. ويضربها بقوسه ظهرا لبطن ..

وانكفأت الأصنام على وجوهها وانكبت على الأرض ..

أمر بالكعبة ففتحت .. رأى الصــور تملؤها ، وفيها صـــورتان لابراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام .. قال ســـاخطا على التهمة التى ألصــقها المشركون بابراهيم واسماعيل : قاتلهم الله .. والله ما استقسما بها قط ..

ومحا ذلك كله .. حتى اذا طهر المسجد من الأوثان وأعاده كما خلقه الله بيتا للتوحيد المطلق .. التفت الى قريش وعفا عنهم ودعاهم الى الله ، ثم حان وقت الصلاة ، وصعد بلال فوق ظهر الكعبة وأذن للصلاة ..

واستمع أهل مكة لهذا النداء الجديد يتردد صداه بين الجبال :

الله أكبر ● الله أكبر ● الله أكبر ● الله أكبر ● أشـــــهد أن لا الـــه الا الله أشهد أن لا اله الا الله ● أشهد أن محمدا رسول الله ● أشـــهد أن محمدا رسول الله ● حى على الصلاة ● حى على الصلاة ● حى على الفلاح ● حى على الفلاح ● الله أكبر ● الله أكبر ● لا اله الا الله ●

اخيرا عادت للبيت حرمته وكرامته ..

عاد تيار الصور ينساب فى ذاكرته ..

ها هى ذى معركة حنين بهزائمها وانتصاراتها وغنائمها .. ها هو ذا النبى يعطى الغنائم من التحق بالاسلام من يومين من أهل مكة ، ويحرم من أعطى الاسلام كل شيء كالأنصار ..

حرم رسول الله الأنصار جميعا من غنائم حنين ، وقال قائل منهم :

ــ لقى والله رسول الله قومه ..

ومشى سعد بن عبادة الى رسول الله فأخبره أن الأنصار غاضبون ..

سأل الرسول : فيم ؟

قال سعد : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ، ولم يكن لهم من ذلك شيء ..

سأل رسول الله سعد بن عبادة : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال سعد : ما أنا الا امرؤ من قومى ..

قال رسول الله : اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .. فاذا اجتمعوا فأعلمنى ..

وجمع سعد الأنصار جميعا وانبأ الرسول أنه جمعهم ..

وخرج اليهم رسول الله ووقف يتكلم فيهم ..

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ يا معشر الأنصار الم آتكم ضالين فهداكم الله ، وفقراء فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى .

قال رسول الله : الا تجيبون يامعشر الأنصار .

قالوا : وما نقول يارسول الله وبماذا نجيبك .. المن لله ورسوله .

قال رسول الله : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا مطاردا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك .

قالوا : المن لله ورسوله .

قال رسول الله : أغضبتم يا معشر الأنصار لمال أعطيته قوما لأحببهم فى الايمان ، وتركتكم الى ما قسم الله لكم من الاسلام .. أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس الى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله الى رحالكم . فو الذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا طريقا وسلكت الأنصار طريقا لسلكت طريق الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الانصار وابناء ابناء الأنصار ..

ويبكى القوم حتى تبتل لحاهم ويقولون :

ـ رضينا بالله ربا ، ورسوله قسما ..

وينصرف النبى فينصرفون راضين ..

أكان درس الأنصار اشارة الى عطاء المسلمين الدائم ، وعدم توقعهم للجزاء فى هذه الأرض ..

لقد فهم الأنصار أن المسلم الحقيقى فى الدنيا .. هو من يجىء الى الدنيا ليعطى لا ليأخذ .

استيقظ النبى فوجد نفسه وحيدا فى الغرفة .

كان جسده يلتهب من الحمى والألم .. ونادى عائشة وطلب منها أن تأتيه بماء يتبرد به ..

ماء كثير ..

وراحت أمهات المؤمنين يصببن الماء على رسول الله حتى اكتفى وخفت الحمى قليلا عن جسده ..

....

....

مضت الساعات بطيئة متثاقلة ..

زادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أحس أنه لن يستطيع الصلاة بالناس ..

وأمر أن يصلى أبو بكر بالناس .. وراجعته عائشة اكثر من مرة خشية على أبيها من كراهية الناس وتشاؤمهم منه .. وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أن يؤم المسلمين صاحبه فى الغار .

فى اللحظات التى تقع بين يقظة الألم وراحة النوم المتقطع .. كان ذهن النبى يفكر ..

ما الذى نسى أن يقوله للناس ..

لقد بلغهم كل شىء وعلمهم كل شىء وترك فيهم كتابا لا يضل بعده من يتمسك به .

ونعس الرسول قليلا . وعادت الذكريات تعبر رأسه .

رأى نفسه فى حجة الوداع .

انتهت العهود المعطاة للمشركين وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .

وها هو ذا النبى يخرج أميرا للحج ومعلما للمسلمين مناسكهم ..

ويتأمل رسول الله الآف الموحدين وهم يتجهون الى البيت الحرام ، ملبين طائعين مسلمين ، يحيون ذكريات جدهم ابراهيم خليل الله .

ويقف النبى خطيبا فى الحجيج .

ان هاتفا خفيا يشعره صلى الله عليه وسلم أن مقامه فى الدنيا يوشك على النهاية . وهو يحس أن هذا الركب سينطلق فى الحياة وحده ، فهو يركز له الدعوة ، ويوصيه بالاسلام ، ويدعوه الى الله ، ويسأل الناس قلقا بعد ثلاث وعشرين سنة من كفاح الدعوة الى الله : هل بلغت .. ويشهد الناس أنهم سمعوا وانه قد بلغ .

ها هو ذا يدعو معاذ بن جبل .. ويعلمه كيف يدعو الناس الى الله ، وكيف يعرفهم دينهم ، ثم يخرج معه الى خارج المدينة يوصيه .. ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشى الى جوار ناقته يوصيه ويحدثه ويعلمه .

— ان أولى الناس بى .. المتقون .. من كانوا وحيث كانوا ..

....

كان النبى رحمة لكل الناس ، وصورة عليا من صور الاخاء والتواضع .

كان حاكما على المسلمين بالقرآن .. ولكنه كان يرفض أن يظهر فى اى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة .. كان يقول لأصحابه :

انما أنا عبد الله .. فقولوا عبد الله ورسوله .

وخرج على جماعة من أصحابه فقاموا احتراما له فأمرهم الا يقوموا له .. وكان اذا خرج للقاء أصحابه وتلاميذه جلس معهم فى آخر مكان يجده .. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب أطفالهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الكبير والصغير ، ويزور المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من يلقاه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، فاذا جاءه أحد وهو يصلى خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فاذا فرغ من قضاء حوائج الناس عاد الى صلاته ، وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا .. وكان يخدم نفسه اذا دخل بيته ويخدم أهله .. فهو يغسل ثوبه ويرتقه ، ويحلب شاته ويصلح نعله ويسقى البعير ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين والمحزون .

وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه انه كان يترك أحفاده يتسلقون ظهره اثناء صلاته .. ولم تنتشر رحمته على الانسان وحده ، وانما جاوزتها الى الحيوان والطيور والأشجار . كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لقطة تلتمس عنده ملجأ من البرد .. وكان يطعم الحيوانات بيديه ويسقيها ويرحمها ويقوم بنفسه على تمريض كلب مريض ، وكان يمسح لجواده بكم قميصه .. ولم يكن يقطع شجرة أو زهرة .. وأمر جيوش المسلمين وهى تفتح الأرض وتنشر عدالة الاسلام الا يقاتلوا طفلا أو شيخا أو امرأة أو صبيا ولا يقطعوا شجرة ولا يهدموا بيتا .

لم يكن ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم قانونا ينظم به العلاقة بين الانسان والانسان فحسب ..

ولم يكن ما جاء به نظاما لرقى الحياة وتقدمها فحسب .. هذه كلها أمور نسبية .

انما جاء بحضارة خالدة تنظم العلاقة بين الانسان والكون ، وتعيد الى الوجود تناغمه حين تبنى هذه العلاقة بين انسان حى وكون مأنوس .. يتجهان معا .. الانسان والكون الى الله سبحانه وتعالى .

وقد ظل صلى الله عليه وسلم حتى آخر أيامه فى الأرض مشغولا بمستقبل الدعوة ، قلقا على مصير الرسالة ، مهموما بأمور المسلمين ، معلق القلب بشئون أمته والأمم التى لم تأت بعد وربما حملت الاسلام اسما دون أن يتمكن هواه من القلب ويحكم الجوارح .

وأراه الله قبل أن يموت ما ملأ قلبه طمأنينة .

فى فجر الاثنين الذى اختاره الرفيق الأعلى فيه ..

اقبل المسلمون من بيوتهم الى المسجد واصطفوا للصلاة خاشعين وراء أبى بكر ، وهو امام رقيق التلاوة يبكى اذا قرأ القرآن فيبكى من يصلى خلفه ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة .. وكاد المسلمون يفتنون فى صلاتهم .. وافسحوا له مكانا بينهم ، واشار بيده أن اثبتوا على صلاتكم .. وتبسم فرحا من هيئتهم فى الصلاة .

قال أنس بن مالك : مارأيت رسول الله أحسن هيئة منه فى تلك الساعة ..

ثم رجع الى فراشه .. والناس يظنون أنه أفاق من مرضه ..

قالت عائشة : عاد رسول الله من المسجد فاضطجع فى حجرى .

ودخل علينا رجل من آل أبى بكر فى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يده نظرة عرفت منها انه يريده .

فأخذته فألنته له ثم أعطيته اياه .

فاستن به كأشد ما رايته يستن بسواك قبله ثم وضعه .

....

....

اغمض النبى عينيه .

وجد جبريل يقف أمام قلبه .

قال جبريل عليه السلام : الصلاة والسلام عليك يارسول الله . ان ملك الموت يستأذن عليك ، لم يستأذن على بشر من قبلك ولن يستأذن على بشر من بعدك .

ان الله يخيرك بين الملك والخلود فى الدنيا وبين لقاء وجهه الكريم .

تجاوز النبى خلود الدنيا والملك فيها ، وذوى قلبه حنينا الى لقاء ربه عز وجل .

تذكر يوم عرج به جبريل الى الله تعالى ، ونبض وجدانه بنفس الفرح القديم والفناء المستطاب فى الله ، والسكينة الراضية .

والتقط جبريل رسالة النبى .

وأفسح مكانه لملك الموت ..

ودخل ملك الموت حجرة النبى وهو يضع أجنحته ويصلى عليه ..

كلمة عن الكتاب ومنهجه

أريد أن اعترف اعترافا مبدئيا بأننى لست مؤلف هــذا الكتاب .. يمكن القول اننى كاتبه ، ان تأليف الشىء يعنى خلقه أو ابداعه ، وكل ما فى كتاب أنبياء الله قديم ، وقد اعتمدت فيه على كتب وأفكار أخرى ، وربما كان الجديد فى الكتاب هو أسلوب التقديم وزاوية الرؤية .

واذن .. فلا فضـــل لى فيه ان أصبت .

للعلماء الســابقين والمعاصرين ثواب هــذا الفضـــل ..

أما الخطأ فأرانى مضطرا لاحتماله وحدى .

لا أنكر اننى ــ بحكم ميــلادى فى زمان متأخر ــ قد حاولت ما استطعت أن أستفيد مما كتبه السلف والخلف عن قصص الأنبياء . غير أن هذا لا ينفى أن أعرف قدر نفسى فلا أتجاوزه . ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

....

أعترف أيضا أننى توقفت قبل أن أخط فى الكتاب حرفا أمام هــذا التساؤل : كيف تجرؤ .. من واقع القصور البشرى والخطيئة أن تتصدى للكتابة عن قمم النقاء فى الأرض ..

منعنى السؤال فترة طويلة عن الكتابة ، ثم حدثتنى نفسى أن الأنبياء قد بعثوا لأمثالنا من الخاطئين ، ولو كان أهل الأرض أنقياء أتقياء يعرفون الله ويذكرون عهده لا نتفت الحكمة من بعث الرسل اليهم .

تسقط مهمة الرسل لو كانت الأرض كلها على الحق .

ان الخطأ هنــا .. هو المسئول الأول عن بعث الرسل حــين يبعثون برحمـــة الله .

زايلنى التردد وبدأت أكتب ..

فى المرة الأولى التى ظهر فيها هــذا الكتاب ، ظهر فى طبعة مبسطة للاطفال . نشر أولا على امتداد ستة اشهر فى مجلة « ميكى » للاطفال ، ثم جمع ونشر كمــا هو فى كتاب قلت فى نهــايته : ان أحد أحلامى الكبيرة أن أكتب قصص الأنبياء للكبار ، لو جعل الله فى العمر بقية ، وشاءت رحمته أن تمنح الاذن والعون .

وهذا الــكتاب هو ثمرة لاستجابة الرحمة لهذا الدعاء .

وهو ثمرة لقراءة بدأت فى الاسلام والصوفية منذ سن الخامســة عشرة حتى سن الأربعين ، ورغم اننى أعمل فى الصحافة فى ميدان النقد والأدب ،

الا أن هوى قديما للاســـلام جعلنى أنظر لكل ما كتبته مثلما ينظر المرء الى سحابة مارة لا تلبث أن تتبدد .

لا خلود لشىء على الأرض . الخلود لله وحده ..

لكلمات الله وحـــدها .. واذن يحتضن المرء كلمات الله كى ينجو من الفناء ويهزم الموت . ولا شىء ينجو من الفناء ويهزم الموت غير الحب الالهى . لأن أحد طرفى هذا الحب .. وهو الله سبحانه وتعالى .. حى أبدا .. خالد أبدا .. باق أبدا .

ونحن لا نعرف أن أحدا أحب الله عز وجل مثلما أحبه أنبياؤه ، لأن الحب ينبع من العلم ، وقد كان أنبياء الله أعلم الناس بالله .

واذن نلتصق بأنبياء الله .

هم كبار العاشقين .. وهم رسل الرحمة .. ولن ينجى من طوفان الأرض غير سفينة نوح .. واذا كانت أخشاب السفينة القديمة قد تآكلت فان السفينة ذاتها لم تزل موجودة .. ولم تزل قادرة على مقاومة الطوفان .

وانك لواجد هذه السفينة فى كلمات أنبياء الله كما وردت فى القرآن .

....

....

توقفت قبل أن أكتب الكتاب عند سؤالين سألتهما لنفسى :

ما هو الجديد الذى تنوى تقديمه فى الكتاب .

وأى منهج سوف تتبع فى كتابته .

ان الاجابة عن السؤالين تضطرنا اضطرارا لنقد كتب السابقين عن الأنبياء رغم احترامنا البالغ لمؤلفيها .

ضمت هذه الكتب عددا من الحقائق الطيبة ، كما ضمت جهدا علميا عميقا ، غير أن معظمها كتب بلغة عصره الذى وضع فيه ..

ومن الصعب أن نقرأ اليوم كتابا بشريا وضعت افكاره بلغة الماضى . ان صعوبة الأسلوب القديم .. تمثل عقبة أمام أبناء عصرنا فى قراءة قصص الأنبياء .. وهناك كتب تتحدث عن الأنبياء بحيـــاد .. وتذكرهم كجزء من التاريخ الذى ذهب وانقضى .. والأصل أن الأنبياء هم قادتنا على الأرض ، وهم حكامنا الحقيقيون ان أردنا النجاة .

وهم مستقبلنا وليسوا ماضينا القديم ان أردنا الخلاص .

وهناك كتب تضع الحقائق جنبا الى جنب مع الأساطير ، وتمزج الحق بما لا علاقة له بالحق ، ويبدو مؤلفوها مثل قوم خرجوا يجمعون ثمارهم أثناء الليل .. فلم يدروا أى الثمار استوى وأيها لم يزل فجا وخلطوا .

وهناك كتب تمد يدها لمأدبة الاسرائيليات الحافلة بالخرافة .

وهناك كتب تعرض القصص بما أثير حولها من اختلافات ومشاكل ،

وتسود الصفحات بهذه الخلافات التى تدعو ذهن القارىء الى الشرود.. أو تدعوه الى الغوص فيها فيسقط منه مغزى القصة الأصلى .

وهناك كتب تقليدية كتبت بعلم لا يتوهج بالحب ، أو كتبت بحب طاش، فلم يسنده العلم .

قلت لنفسى : لو استطعت أن تكتب عن الأنبياء كتابا بلغة هذا العصر اليسيرة المفهومة ، ونجوت فيه مما شاب الكتب السابقة من أخطاء واختلافات وخرافات ، فانك تكون قد قدمت جديدا .

ولقد قادت هذه النظرة الى اختيار منهج الكتاب على الفور .

ان الكتاب الوحيد الذى وردت فيه قصص الأنبياء بكمال لا يطاول ، وبصدق لا يخدش ، هو القرآن الكريم ، ولئن بدل أصحابه بعده فى أنفسهم وحرفوا فى ذواتهم ، فان الكتاب الحكيم بقى بغير تبديل أو تحريف ، حفظه الله تعالى كما أنزل .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » [1] .

. . . .

. . . .

واذن تحدد منهج الكتابة .. بالمنهج القرآنى .

وتمثل هذا فى أن يكون تناول أحداث القصص نابعا من أرقى التصورات الاسلامية ، وأكثر التفسيرات احتراما ، وطبقا لهذا المنهج كان روح الآيات القرآنية مرجعا حاسما ، وكانت عصمة الأنبياء اطارا حاكما طيلة الوقت ، وكانت أساطير التوراة والحواديت المسماة بالاسرائيليات شيئا مستبعدا ومرفوضا بعد خضوعه للمناقشة .

وهكذا اعتمدت فى قصص الأنبياء على القرآن الكريم أساسا ، واثار هذا عديدا من المشاكل ، أهمها أن القرآن ليس كتابا فى التاريخ ، انما هو كتاب دعوة الى الله ، وهو لا يذكر أحداث قصص الأنبياء مرتبة بزمن وقوعها ، ولا يعبأ بالتفصيلات الصغيرة ، وأوقع هذا فى مشكلة ترتيب أحداث القصص .

ان العودة لصحف اليهود والنصارى وتفاسيرهم وكتبهم يمكن أن تضىء الموقف ، ولكنها لا تحل المشكلة .

رغم ذلك أخذت من صحف العهد القديم والجديد ما رأيته غير متعارض فى جوهره مع القرآن .. أما ما تعارض مع القرآن فعرضته اعمالا لحرية الرأى ، ورفضته نزولا على الحق .

من بين المشاكل التى واجهتها ، هذه الفجوات الصامتة فى القصص .. وهى فجوات لا حرج على الخيال أن ينشط لتصورها وتصور ما دار فيها من حوار ، وكنت أبدأ هذا الحوار المتخيل عادة بأن أقول : « ربما دار هذا الحوار » .

---

(1) الآية ٩ من سورة الحجر مكية .

وكثيرا ما توقف القلم أياما عديدة محاولا أن يبحث عن اجابة لسؤال حائر .. يتعلق بترتيب حادث زمنى معين وقع فى قصة من قصص الأنبياء .

أبحرت وسط هذه المشاكل ــ مجهد العقل ــ محاولا الوصول الى الشاطىء الآخر من قصص أنبياء الله .. وهناك رأيت ترتيب الأحداث ليس هو المشكلة . المشكلة هى معنى الأحداث .. رأيت أن الأنبياء جميعا هم رسل الحب الالهى ، والرحمة .

وأى عقيدة الهية هى فى عمقها البعيد حب ورحمة .

حب من لون لا وجود له على الأرض ..

وفى اى حب بشرى ، هناك احتمال أن يخونك الطرف الآخر أو يهجرك أو يصيب بغدره مشاعرك ، وفى قصص الحب الالهى ليس هناك احتمال للخيانة أو الهجر أو الغدر الا من جانبك أنت ..

تخون أنت وتهجر أنت وتغدر وتبتعد .

ويرحم هو .. ويعفو هو .. ويتوب ويهدى سبحانه .

ويجىء الأنبياء اصلا لاعادتك الى مصدر الحب فى الكون ، وتعليمك معنى الحب ، وتوجيهك الى المستحق وحده للحب ، ولأن الأنبياء رسل حب فى الأرض ، ولأن الكراهية اغلبية حاكمة على الارض ، يعيش الانبياء صراعا لا يهدأ ، ويدفعون من وقتهم وخبزهم واعصابهم ودمائهم ثمن انتشار دعوتهم .

ولقد أردت تصوير هذا فى الكتاب وابرازه . كما أبرزت كون الأنبياء جميعا مسلمين بنص الآيات ..

واردت أن يتم هذا كله فى اطار من بساطة الأسلوب وسهولته . بحيث لا يستعصى الكتاب على أحد من قرائه ، واستلزم هذا تكرار بعض الأفكار والعودة اليها .. بهدف تثبيتها فى ذهن القارىء .

وحين تعارضت اعتبارات الفن التى تستوجب الايجاز وعدم التكرار ، مع اعتبارات السهولة وضمان توصيل الأفكار ، كنت آخذ بالاعتبارات الثانية ، مدركا ان هذا الكتاب ليس عملا فنيا ، وانما هو دراسة ، ولعل هذا هوالسر فى عدم رضائى عن أسلوب الكتاب ، كنت أتمنى أن يجىء دراسة وعملا فنيا فى وقت واحد . ولو جعل الله فى العمر بقية ، وشاءت رحمته أن تمنح الاذن والعون ، فربما بذلت جهدا أكبر واعدت كتابته بشكل ادعى الى الرضا .

....

واعترف ان احساسى بهذا الكتاب قد تغير .

قبل كتابته راودنى خوف عذب وحب عميق .

واثناء كتابته عشت ذروة الرضا واحلى ساعات العمر ..

فلما انتهيت منه ودفعته للمطبعة وقرأت صفحاته .. ملأنى الحزن

والبؤس .. أحسست اننى انقصت حبى للأنبياء وخدشته بالكتابة عنهم .. كان احساسى بهم سرا يضيع لو افصحت عنه ، وقد أفصحت فى هــذا الكتاب .. فضـــاع السر ولم أقل ما بداخلى .. نعم ..

كان هــذا الكتاب أجمل آلاف المرات وهو وجــدان داخلى منه الآن بعد أن ولد ..

....

ولست أعرف صراحة .. هل يرحمنى الله تعـــالى بهــذا الكتاب ، أو يعذبنى به ، أو لا يلتفت اليه أصـــلا ..

ان الدوافع الظـــاهرة التى أملت على كتابته هى الرغبة فى عــرض قصص الأنبياء بأسلوب معاصر حى .. على أســـاس أن قصصهم دعوة الى الله .. وثورة على الطغاة .. واحياء لانســـانية الانسان وحريته .

هذه هى دوافعى الظاهرة فى كتابته .. غير اننى أجهل ما بداخلى من دوافع خفية ..

ربمـــا كنت أريد بهــذا الــكتاب ثناء الناس والكسب ، أو ادعاء العلم والفضـــل أو اظهار المعرفة والتواضـــع ، أو التمســـح فى الأنبياء . أو أتصور النجاة من النار بكلمة أقولها لا بعمل أعمله .

ليس يدرى حقيقة دوافعى لكتابته غير الله عز وجل .

سوف أعرف يوم القيامة من الجزاء الذى ينالنى عليه .. حقيقة دوافعى لكتابته ..

نســـأل الله تعـــالى التوبة .

وندعو لقارئه أن يكون ـــ بالعمل ـــ أفضل من كاتبه ..

احمد بهجت

مراجع الكتاب

[١] القرآن الكريم

[٢] العهد القديم والجديد [الطبعات القديمة وطبعة متى الجديدة بتفاسيرها وشروحها]

[٣] انجيل برنابا – ترجمة دكتور خليل سعادة [طبعة المنار للشيخ رشيد رضا ١٩٠٨]

[٤] تفسير ابن كثير

[٥] تفسير الرازى

[٦] تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى – ٣٠ جزءا [صورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الكاتب العربى]

[٧] تفسير القرآن الحكيم لمحمد عبده – ١٢ جزءا [طبعة المنار للشيخ رشيد رضا]

[٨] فى ظلال القرآن لسيد قطب ـ ٣٠ جزءا [الطبعة التاسعة ـ دار الشروق]

[٩] قصص الأنبياء للامام ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد فى جزءين [دار الكتب الحديثة]

[١٠] قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للثعلبى [مكتبة ومطبعة ابن شقرون]

[١١] قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار – طبعة ثانية [مؤسسة الحلبى وشركاه]

[١٢] قصص الانبياء لمحمد احمد جاد المولى – الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩ [المطبعة التجارية]

[١٣] محمد والذين آمنوا معه لعبد الحميد جودة السحار – ٢٠ جزءا

[١٤] الاسلام والايمان للدكتور عبد الحليم محمود

[١٥] محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة .

[١٦] عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى

[١٧] العقائد الاسلامية للشيخ سيد سابق

[١٨] العقيدة والأخلاق للدكتور عبد الرحمن بيصار

[١٩] معارك الاسلام الفاصلة لمحمد احمد باشميل

[٢٠] فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى

[٢١] « محمد » لتوفيق الحكيم

[٢٢] « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل

[٢٣] « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوى

[٢٤] « محمد رسول الله » لاتين دنييه وسلمان الجزائرى ، ترجمة د. عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود

[٢٥] « الانسان الخالد » لفالنون أورسلر ، ترجمة رمسيس جبراوى

[٢٦] « عبقرية المسيح » للعقاد

[٢٧] التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب [طبعة دار الشروق]

[٢٨] « الاسلام يتحدى » لوحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الاسلام خان

[٢٩] الاسلام فى مؤلفات الغرب لعباس العقاد

[٣٠] روح الاسلام لجمال البنا

[٣١] الفصل الخاص بيونس فى رواية موبى ديك لهرمان ملفيل

[٣٢] الفصل الخاص برداء التقوى فى مذكرات صائم لأحمد بهجت

الفهرس

كتب للمؤلف

(١) أنبياء الله (١١ طبعة)
(٢) في رحاب الله (طبعتان)
(٣) الله في العقيدة الإسلامية (طبعتان)
(٤) بحار الحب عند الصوفية (طبعتان)
(٥) قصص الحيوان في القرآن (ثلاث طبعات)
(٦) الوقوع في هوى الكعبة (طبعتان) (كتيب)
(٧) التوبة (كتيب)
(٨) جراس الحقيقة
(٩) وجه في الزحام
(١٠) مذكرات زوج (طبعتان)
(١١) مذكرات صائم (طبعتان)
(١٢) صائمون والله أعلم (طبعتان)
(١٣) كلمتين وبس (كتاب بالعامية)
(١٤) ثانية واحدة من الحب (مجموعة قصصية)
(١٥) رحلة إلى افريقيا
(١٦) قناة السويس شريان من دم المصريين

كتب للأطفال

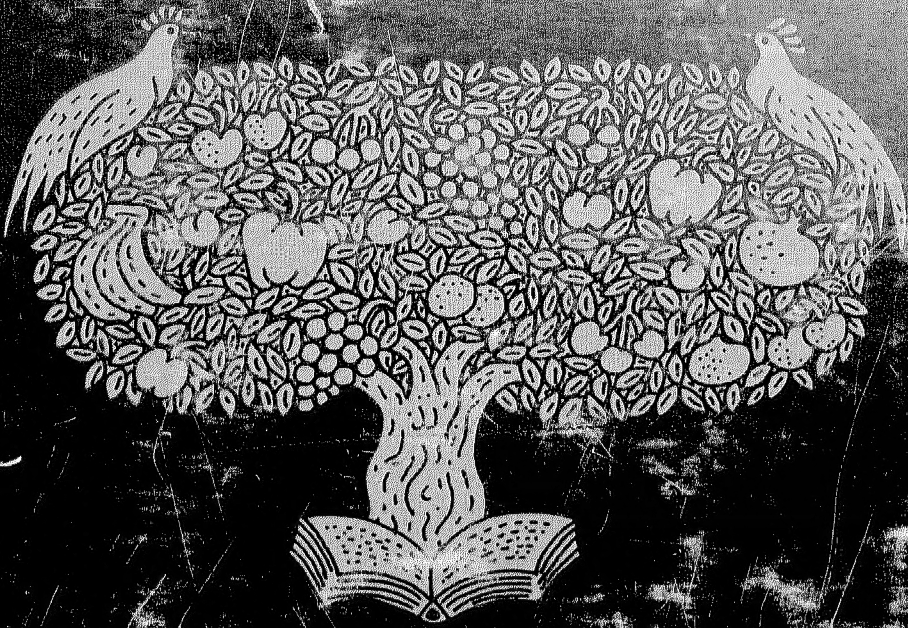
(١) أنبياء الله للأطفال (٩ طبعات)
(٢) قصص القرآن المصورة للأطفال (تحت الطبع)
(٣) قصص الحيوان المصورة للأطفال (تحت الطبع)
(٤) جحا والحمار
(٥) جحا والقاضي
(٦) جحا والسلطان

رقم الايداع : ٥٣٢٨ / ٨٧

الترقيم الدولى : ٧ ـ ١٠٣ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE



يزيد عطش الحياة إلى شموس
تضيء بغير أن تحترق أو تحرق .
شموس تستمد ضوءها من نور
السماوات والأرض .. جل جلاله .
هؤلاء هم الأنبياء .
تناولت قصص الأنبياء كتب
كثيرة وأقلام عديدة .
الجديد في هذا الكتاب هو
أسلوب التناول ، وزاوية الرؤية ،
والإحساس المتفرد بمغزى القصة ،
إلى جوار الحس الصوفي الذي
يحكم النظرة العامة .
ليس هذا الكتاب تاريخاً يروي
قصص الأنبياء بحياد بارد . ليس
إطلالة تقليدية على متحف
الذكريات الدينية القديمة ، إنما
هو بعث لثورات المسافرين دائماً
إلى الله . ابتداء من آدم وانتهاء
بمحمد .